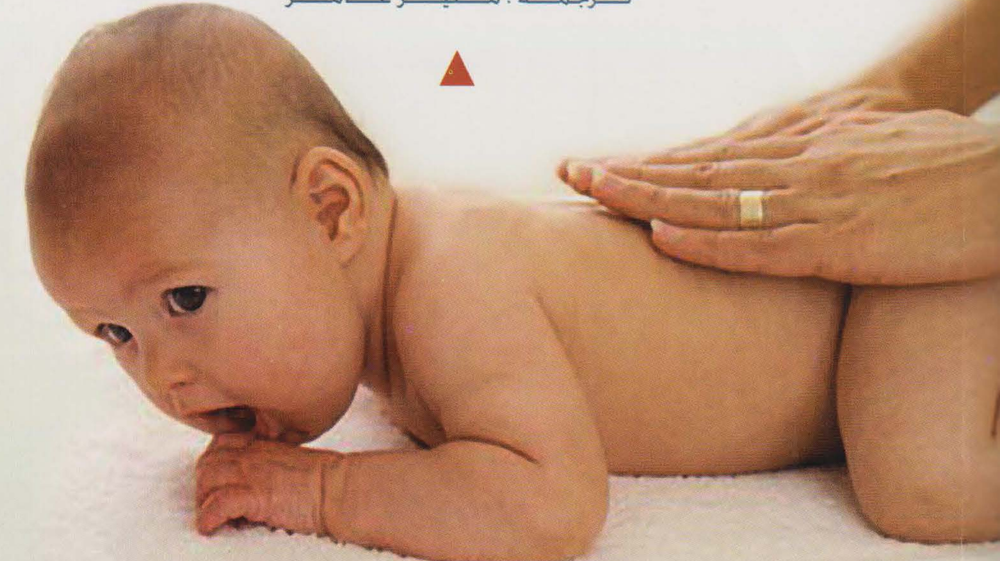
DOCTOR SPOCK



دكتور سبوك

ترجمة : منير عامر



حديث إلى الأمّهات
مشاكل الآباء في تربية الأبناء



دكتور سپوك

حديث إلى الأمّهات
مشاكل الآباء
في تربية الأبناء

حديث إلى الأمّهات – مشاكل الآباء في تربية الأبناء / تربية (سبوك)
د بنجامين سبوك. / مؤلّف من الولايات المتّحدة الأمريكيّة
ترجمة: منير عامر / مترجم ـ عن الإنجليزيّة
طبعة جديدة، 2011





المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم،
ص. ب :5460-11 ، هاتفاكس 00961 1 752308 / 751438
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب: 9157، عمّان 11191 ـ الأردنّ،
هاتف 00962 6 5605431 / 00962 6 5605432 ، هاتفاكس 00962 6 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
سعيد حسين ® عمّان 00962 7 95297109
خطوط الغلاف : **زهير أبو شايب / عمّان**
التنضيدّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **رشاد برس / بيروت، لبنان**

ISBN 978-9953-36-651-9

سبوك
SPOCK

دكتور سبوك

حديث إلى الأمّهات
مشاكل الآباء في تربية الأبناء



ترجمة : منير عامر



مشاعرنا نحو اطفالنا تختلف من طفل الى آخر . .

هل تستطيع ان تحب كل ابن من ابنائك بالتساوي . لا تفرق بين هذا او ذاك ؟

احياناً يمكن لاحساسك ان يقول نعم ، انا لا افضل واحداً على الآخرين .

احياناً اخرى تقول لك مشاعرك . . لا . . أنت تفضل احدهم على الباقين . .

دخلت عيادتي كثيرات من الأمهات وقلن لي بكلمات مختلفة ما مؤداه :

- في الحقيقة انا أشعر بالذنب لأني لا احب احد ابنائي كما احب بقية اخوته .

ولكن من ناحية اخرى اسمع احدى الأمهات او احد الآباء . . وهو يتكلم بصوت واثق ليؤكد لأحد اصدقائه او لي كطبيب قائلاً :

طبعاً أنا لا أفضل واحداً من ابنائي على الآخر . احبهم كلهم بالتساوي .

وأكتشف انا أثناء عملي كطبيب ان بعض هؤلاء الآباء والأمهات الذين يعترفون بعدم قدرتهم على المساواة بين ابنائهم في الحب ، ويشعرون بالذنب لذلك ، هؤلاء يلومون انفسهم بلا داع . وان بعض الآباء والأمهات الذين يحاولون التأكيد على أنهم يحبون ابناءهم بالتساوي يخدعون أنفسهم ، ان كلا النوعين من الآباء يحاول الوصول الى نوع من الكمال المطلق ، وهو مستحيل .

ان علينا ان نعرف هنا ان كلمة « حب » ليس لها معنى واحد . ان كلمة « حب » تستعمل لوصف انواع مختلفة ومتنوعة من الأحاسيس والمشاعر . ولنضرب بعض الأمثلة على علاقات الأبناء بالاسرة .

المثل الأول . . ذلك الطفل الذي يكون في الثانية من عمره ويتبع أمه وأباه ليبحث عن الأمن والحماية .

مثال آخر ، الطفل الذي نراه جذاباً يميل الى كل من يراه :

مثال ثالث ، الطفل الذي يرغب في امتلاك كل وقت أبيه أو أمه وذلك شيء طبيعي في معظم العلاقات الانسانية خصوصاً علاقة الابن بوالديه .

مثال رابع . . الابن الذي يطلب من الأب والأم نوعاً من الاخلاص المطلق له وحده ، دون ان يزاحمه في ذلك أحد من اخوته .

مثال خامس . . الابن الذي يتخذ الأب او الأم كسلطة عليا .

مثال سادس . . الطفل الذي يصادق الأب والأم ويبدو أليفاً معهما كأنه صديق عزيز .

مثال سابع . . الابن الذي يشارك الأب والأم في الاهتمامات والأحاسيس والأفكار ، وهكذا . .

والمجال الذي نهتم به هنا هو انواع المشاعر التي يكنها الآباء والأمهات لأبنائهم ، واريد ان أشدد واؤكد على نوعين من الأحاسيس :

الاحساس الأول هو التفاني في حب الأبناء .

والاحساس الثاني هو الاغتباط الذي نشعر به نحن الآباء لأن لنا ابناء .

ولا بد ان نفرق بين هذين الاحساسين جيداً حتى نستطيع ان نجيب بوضوح عن ذلك السؤال الصعب . .

هل في استطاعة الآباء والأمهات ان يحبوا ابناءهم بأقدار متساوية ؟ . . وهل يجب عليهم ذلك ؟

ومن خلال تجربتي كطبيب يظهر لي بوضوح ان الآباء والأمهات يحاولون ان يؤكدوا انهم يحبون اطفالهم بنفس التساوي . وانهم يمنحون كل طفل من أنفسهم

مثلما يمنحون لبقية الأبناء . ان كل والدين يحاولان بكل جهد ان يكونا عادلين في حب أبنائهما . ان الاب او الأم عادة يتمنيان للابن ان ينجح في الحياة وان تضيء السعادة مستقبله . ان اي تضحية مطلوبة في سبيل الأبناء وتبدو معقولة يبذلها الآباء عن طيب خاطر . ان احداً من الآباء والأمهات لن يتردد مثلاً في الدخول الى مبنى مشتعل بالنيران لانقاذ طفله . ولن يتردد احد الوالدين في القاء نفسه في البحر والتعرض للغرق لانقاذ الابن من الغرق . وأثناء فترة طفولة الابن ، فإن الوالدين يرفضان تماماً ان يعيش الابن خارج البيت ، بل ولن يقول احدهما أي شيء يوحي بذلك . وعندما ينضج الابن ويصل الى سن الرشد فإن الرغبة في مساعدته لا تنتهي في قلب الأم او الأب . وان وقع الابن الناضج الراشد في أي مشكلة من أي نوع ، فإن الوالدين يحاولان مساعدة الابن مهما كان «المشكل» الذي وقع فيه الابن مثيراً للاستياء او للاستنكار .

قد يكون ذلك المثل متطرفاً لكنه يوضح تماماً الفرق بين حب الوالدين لابنهما ، وبين حبهما لأي انسان آخر . ان خيبة الأمل « التي يصاب بها الآباء نتيجة تصرف خاطىء لأحد ابنائه لا تقلل ابداً الرغبة في مساعدة هذا الابن . اننا نملك « ابننا » الى الأبد وهو « يملكنا » الى الأبد . . إن الأب والأم يرتبطان دائماً بالابن .

انه ابنهما مهما حدث . .

لكن فشل الاباء في التعبير عن حبهم للابناء او عدم التفاني في حب الأبناء ، يؤدي الى نتائج خطيرة تظهر بوضوح في مؤسسات رعاية الأحداث .

وعلينا ان نعترف بحقيقة قد تبدو مزعجة ، ان عدداً نادراً من الآباء والأمهات لا يحبون اطفالهم على الاطلاق . . ومن المطمئن ان هذه الحالات نادرة جداً . . وايضاً هناك نوع من الأزواج قد يكون احدهم لا ينجب فيقترح على شريك العمر ان يتبنى الاثنان طفلاً ، ويأخذ الاثنان الطفل الى المنزل ، ولكنهما لا يستطيعان ان يمنحا الطفل الحب الكافي ، وفي مثل هذه الحالة نجد ان الطفل

يصبح عنيداً كثير المشاكل ، عندئذ يرغب الزوجان في التخلص من هذا الطفل لأنه ليس ابناً إلا بعلاقة التبني ، وليس نتيجة علاقة الاثنين الزوجية ، رغم ان بعض حالات التبني ايضاً قد تنجح وتعطي الابن الاحساس بالحب الخالص .

إذا عانى الطفل في أعماقه من فقدان الاحساس بالحب الدافيء من ناحية اهله او من يقومون مقام الأهل . . فإن مثل هذا النوع من الأطفال يعرف كيف ينتقم لغياب هذا الحب . .

ان هذا النوع من الأطفال لا يكون مشاكساً او ثقيل الظل أو لا يجيد حسن التصرف فقط ، إنه ايضاً لا يهتم ابداً بنوعية سلوكه ، ولا يهتم بما يظنه الآخرون عنه ، ولا يهتم بما سيحدث له . لقد فقد اهم شيء في حياته وهو « حب الأهل » ، فماذا يمكن ان يُفرز سوى الانتقام من البيئة التي ينشأ فيها ؟! . .

إنني أؤمن جازماً ان التفاني والاخلاص هما اقوى العناصر الحيوية في حب الاباء والأمهات لأبنائهم .

ذلك هو الاحساس الأول . . التفاني المخلص في حب الأبناء . .

لكن عندما نتناول الاحساس الثاني وهو الاغتباط الذي نشعر به نحن الآباء لأن لنا أبناء ، وبمعنى اوضح ذلك الاحساس بالسرور والفرحة والبهجة للصفات الفردية التي يتميز بها كل طفل من اطفالنا واعتقد انه من المستحيل على اي ام أو اي أب ان يشعر بنفس الاحساس تجاه أي اثنين من ابنائه سواء بسواء ، أو يعاملهما بنفس المعاملة . فالولد مثلاً نغتبط به ونقدره لصفاته الرجولية ، والبنت نغتبط بها ونقدرها لصفاتها الأنثوية ، هذا في المقام الأول .

وفي المقام الثاني نحن نحب طفلاً لحيويته وآخر لجديته في تناول الأمور . ونحب طفلاً آخر لشجاعته أو فرط أدبه في معاملة الآخرين او لطريقة تفكيره المنطقية او لصلابته او لاناقته او لتفوقه في الساحة مثلاً .

والاغتباط والسرور في كل حالة قائم على أساس صفات تختلف من ابن

لآخر . وليس هناك ميزان نستطيع ان نقيس به مشاعرنا بالبهجة امام صفات الابناء ، وهل هذه المشاعر متساوية ام لا . . ؟ إنه نوع من التبسيط الذي يضلل ، لو حاولنا ان نزن مشاعرنا تجاه صفات الأبناء التي تفرحنا والتي تختلف من ابن لآخر . فكل طفل هو مجموعة مركبة ومعقدة من الصفات يستجيب لها الآباء . وكل والد ايضاً يملك مجموعة من الاستجابات للصفات المختلفة من ابنائه .

ولنأخذ أمثلة واضحة لذلك . .

هناك الآباء الذين يعجبون بتفوق احد ابنائهم في الدراسة ، ولكن لو اختلط هذا الابن بزمرة من أبناء الجيران ليس لهم مثل تفوقه فإن والديه يصابان بالاكتئاب والخوف على مستقبل الابن ، وهناك الأب الذي يمتلىء بالفخر بابن متفوق في احدى الألعاب الرياضية لكنه يحزن ايضاً لأن ابنه الآخر لا يهوى أي نوع من تلك الألعاب الرياضية .

اننا نقترب من قلب الحقيقة عندما نقول . . ان كل طفل هو خليط فريد ومتميز في الصفات ، بعضها يغتبط به الآباء وبعضها يقفون أمامه محايدين ، والبعض الثالث من هذه الصفات يتألم له الآباء . .

وطبعاً هذا المثال يمكننا ان نطبقه ايضاً على حياتنا خارج الأسرة . فعندما تتوافر لانسان ما بعض الصفات التي نعجب بها فإنها تحجب عن عيوننا ومشاعرنا صفاته الأخرى التي قد تضايقنا لو عرفناها ، والعكس ايضاً صحيح فإن أي صفة مزعجة لنا نراها في شخص ما قد تمنعنا من رؤية صفة رائعة في هذا الشخص .

باختصار لا احد منا تظل مشاعره ثابتة بشكل دائم نحو أي انسان ، واذا اردنا المزيد من الصراحة فإن معظمنا على سبيل المثال ، يشعر بالضيق من تصرف احد أعضاء أسرته في يوم ما ، في حين ان نفس هذا التصرف لم يشعره بالضيق في اليوم السابق . إنني انا شخصياً أحس في بعض الأيام ان معظم من التقي بهم من الناس جذابون . وهناك ايام أخرى يبدو لي أنني انفر من كل من التقي به . . المسألة اذاً تتوقف على الحالة المزاجية وأنا أعرف عدداً من الآباء والأمهات كانوا

يعلنون نقدهم الدائم لأحد اطفالهم لعدة سنين ، كل افعاله من وجهة نظرهم خاطئة ، وفجأة تغير احساسهم نحو هذا الطفل واصبحوا معجبين به غاية الاعجاب ، ولا يمكن ان نفسر هذا التغيير الكامل في معاملة هذا النوع من الآباء لأبنائه إلا ان الابن نفسه تغير تغييراً كاملاً . . قد يكون الابن قد تغير تغييراً طفيفاً في سلوكه الذي كان يلومه عليه والداه ، ولكن التغيير الكامل حدث اصلاً للوالدين .

لذلك نقول ان هذا الاحساس بالاغتباط بصفات الطفل الجذابة ، يقابله احياناً بعض صفاته التي تضايقنا . إنها مسألة ذاتية . . جداً وقابلة للتغيير والتبديل من فترة الى أخرى .

ولنسأل أنفسنا :

ما هي بعض جذور احاسيسنا السلبية والايجابية ؟ . لماذا نكره بعض صفات الابن ونحب بعض الصفات الأخرى ؟

عموماً ، نحن نتمنى ان نجد في طفلنا الصفات التي اراد لنا آباؤنا أن نكتسبها ، والتي نجحنا في ان نتعلمها وأصبحنا نعتز بها . وكل اسرة تصب كل اهتمامها على خصال محددة تجعلها اهدافاً يجب ان يصل اليها الابناء . وبالاضافة الى ذلك ، فإن كل فرد في مراحل نموه يختار مثله العليا الخاصة به على أساس الأفكار والصفات التي يعجب بها في افراد اسرته الذين يحبهم . فإذا تجلت هذه الأفكار والصفات في ابنائه ، فذلك مما يسعده تماماً .

وبالعكس ، فإن كل اسرة تستنكر بعض الصفات وتراها غير مرغوبة فيها ، وتعتبرها ضد المثل العليا ، وينتقل هذا الاستنكار من جيل الى آخر .

وفوق ذلك ، فكل شخص منا اثناء نموه يصبح حساساً أمام بعض الصفات التي تضايقه وتزعجه من اخوته ووالديه بصورة تجعل الحياة نفسها في عيوننا صعبة .والأهم من كل ذلك هو عثورنا على بعض صفات او خصال رديئة في ابنائنا . . هذه الصفات كانت ضمن صفاتنا في مراحل عمرنا السابقة .

اذن لماذا يتعجب الآباء من اختلاف مشاعرهم تجاه الصفات التي تظهر في ابنائهم ، ثم هناك مسألة اخرى ، هي ان الأبن احياناً في مظهره او سلوكه يذكرنا ببعض افراد اسرتنا ، فإذا كنا نحب هؤلاء الأفراد نقلنا اعجابنا الى الطفل واذا كنا لا نحبهم استنكرنا أي خطأ من الطفل وعرضناه للنقد . تلك هي سنة الحياة التي اعتمد عليها المجتمع ليجعلنا نحن الآباء نعجب بالخصال الجميلة ونحاول ان نجنب ابناءنا الصفات الرديئة .

ولعل القارىء قد اصابه الملل اذ يرى انني تعمدت ان اضع حداً فاصلاً بين هذين الاحساسين الأول ، وهو التفاني في حب الابناء ، والثاني هو الاغتباط الذي نشعر لأن لدينا ابناء

اعرف انني المس اشياء واضحة تبدو بديهية في بعض الأحيان ، لأن مشاعر الأب دائماً هي مزيج من الابتهاج لسلوك جيد من ابنه وضيق لسلوك غير جيد من الابن نفسه .

وبين الضيق والابتهاج تستمر رحلة المسؤولية ، مسؤولية تربية الأبناء .

إن محاولتي هي البحث عن اسلوب يقنع هؤلاء الذين يقلقهم امر تربية الأبناء ـ واعتقد ان عدداً كبيراً من الآباء والأمهات ممن يتمتعون بالإحساس المرهف الرقيق يؤمنون بأنهم لا بد وان يحبوا ابناءهم بالتساوي ، وان يكونوا عادلين في حب اطفالهم كما يجب ، وان يمنحوا كل طفل نفس الدرجة من الاهتمام والانتباه والصبر التي يعطونها لأخيه .

حتى العقاب ايضاً ، بعض الآباء يحاولون احياناً ان يتساوى فيه الأبناء .

ولأن ذلك مستحيل ، فإن الشك يتسرب الى نفس الأب او الأم . فضميرهما يقول : « انا غير كفء لدوري كأب » او« وانا لا اقوم بواجبي كاملاً كأم » .

ويظن هذا النوع من الآباء ان هذا نقص كبير في درجة حبهم لأبنائهم .

وهذا خطأ . . .

بـل ان هـذا الاحـسـاس الخـاطيء لا يؤدي الا إلى تعقيـد عـلاقتهم بأبنائهم . .

وصلنا الآن الى ان أي اب او أي أم لا يستطيع ، ولا يجب ان يحاول ان يحس بنفس الاحساس من الحب او الاغتباط او حتى الضجر تجاه كل طفل .

ولننظر الى الأمر من زاوية اخرى . .

نناقش باختصار ماذا يريد الطفل منا ؟

انا لا اصدق ان هناك طفلاً يريد من والديه ان يشعرا تجاهه بنفس الشعور الذي يشعران به نحو طفل آخر .

بل لا اصدق حتى ان هناك طفلاً يقبل ان يتظاهر والداه بـأنهما يشعران تجاهه بنفس الشعور الذي يعاملان به اخاه مثلاً .

ايضاً . . الطفل عندما يخطيء لا يريد ولا يتوقع ان نعامله بنفس درجة السخط او الاستنكار اللذين يعامل بهما اخوه لو أخطأ . .

ان الذي يريده الطفل منا هو الاغتباط به وحده . ان يكون اعزازنا له فريداً من نوعه . . إنه مثلنا نحن الكبار .

كل منا يطلب في اعماقه من الآخرين ان يحبوه لذاته .

ودائماً هناك شخص في حياتنا له في انفسنا أهمية خاصة ، هذا الانسان نرفض ان يقارن بين حبه وتقديره لنا بحبه وتقديره لانسان آخر . ونكره ان يساوي في مشاعره التي نتوقعها منه نحونا وان يمنح نفس المشاعر لإنسان آخر .

ان كل انسان يريد مكاناً لا يشاركه فيه احد في قلب انسان آخر .

والأمثلة على ذلك في حياتنا اليومية كثيرة .

مثلاً . . ان يقول لك رئيسك في العمل . .

انت وزميلك « فلان » أكفأ الموظفين في العمل . . إنني اتنبأ بمستقبل ناجح جداً لكما .

إن فرحتك بهذا النوع من الثناء ليست كبيرة لأنك تعرف ان لك منافساً هو فلان الذي يحتل مكانة تساوي مكانتك عينها عند رئيسك .

لكن . . لو قال رئيسك . .

أريدك ان تعرف انني راض تماماً عن عملك واعتقد انك تؤديه على أفضل وجه ممكن .

من المؤكد ان فرحتك من هذا النوع من الثناء لا تقدر .

مثال آخر . .

لنفترض ان لك صديقة تعتز برأيها ، جاءت هذه الصديقة في احدى المرات لتقول لك « انك أنيق ولك ذوق رائع في اختيار ملابسك تماماً مثل فلان » .

وقد يكون فلان هذا شخصاً لا تحبه انت .

ان هذا النوع من الثناء قد تعتبره انت تحقيراً لشأنك . . .

ومن المؤكد انك كنت تتمنى ان تقول لك . .

انك انيق للغاية وتبدو فاتناً في ملابسك هذه . . ان احداً لا يمكنه منافستك في الأناقة . .

مثال ثالث . . لنفترض ان من بين اصدقائك احد مهندسي الديكور المشهود لهم بالكفاءة ولاحظته منبهراً غاية الانبهار وهو يصف جمال الزخرفة في بيت فلان . . ثم تفاجأ به وهو يقول لك فجأة في مجاملة . . ولكن زخرفة بيتك طبعاً لا ينقصها الرونق والجمال .

ان ذلك النوع من المجاملة لا يرضيك ، بل انه قد يؤلمك . .

وكذلك حال الطفل . . إنه لا يجد أي سعادة في مقارنته بأخ له . ان الطفل يكره ان يساوى بينه وبين أي احد غيره .

ان آخر ما يرضي الطفل هو ان نقارنه بأحد ، انه يطلب ان نعجب به

هو ، وبصفاته التي لا يملكها احد غيره ، لأن المقارنة تضعه في حالة تنافس مليئة بالقلق . وتجعله يفكر بضرورة البحث عن افضليته هو . كما ان المقارنة تجعله حساساً للغاية لأي تفاوت في المعاملة بينه وبين اخوته ،والمثال على ذلك هو الأم التي يتنافس ابناؤها دائماً ، وتحاول هي ان ترضيهم بأن تشتري لهم العاباً متشابهة . إنها تشكو دائماً من ذلك التحفز الكائن بعيون كعيون النسور لملاحظة اصغر الفروق في معاملتها لأحدهم . وجزاؤها دائماً في النهاية هو اللوم وعدم تقدير ما تفعله من اجل انهاء المنافسة في ما بينهم .

وفي مجال الاستنكار والغضب من احد تصرفات الطفل ، علينا ان نعرف ان الطفل لا يريد ايضاً المساواة مع اخوته في العقاب . الطفل مثلنا نحن الكبار يعرف ان له عادات سيئة وصفات مزعجة ويعرف تماماً انه يسيء التصرف احياناً ويسعى على قدر طاقته للتغلب على هذه العادات السيئة والصفات المزعجة ويتمنى من أعماقه ان يساعده والده ليتخلص من هذه العادات والصفات . . فإذا تمادى . . في هذا الخطأ وتمادى في هذه العادات والصفات فإنه يستريح عندما يعاقبه والداه .

العقاب هنا يجعله يشعر بالراحة النفسية بشرط واحد هو ان يكون العقاب مناسباً لعمره ودون ان نترك اخوته يعايرونه لأنه اخطأ

وعلينا ألا ننسى نحن الآباء أننا نفعل كل ما في طاقتنا لنقدم اغلى ما في أعماقنا من مشاعر لأبنائنا .

وعلينا ايضاً ألا ننسى اننا بشر . . خلقنا الله وفينا الأحاسيس المختلفة ، بعضها يبدو منطقياً وبعضها يبدو غير منطقي . .

لذلك فعلينا دائماً ان نكون هادئين ومطمئنين الى اننا نحاول ان نفعل كل ما هو صالح لأطفالنا . . اننا نتفانى في تقديم حبنا لكل طفل من اطفالنا ونشعر بالغبطة لكل ما نلمسه في الطفل من خصال حميدة . ونبذل جهدنا الدائم للابتعاد به عن العادات السيئة . .

هذه هي المشاعر الأساسية التي نعرف انه يجب علينا ان نمنحها لكل طفل ، وفي أغلب الحالات فإن هذا الأسلوب من الحب يجعل دورنا كآباء دوراً ناجحاً ، ويدفع الطفل في الطريق الأمثل .

لكن اذا وقعنا دائماً بين انياب الشك ، وحاصرنا انفسنا بالأسئلة التي تملؤنا بالوساوس ، وتطالبنا بالمساواة بين الأبناء ، فإن ذلك يجعلنا نفقد الاحساس الطبيعي والتلقائي الذي نستطيع به ان نحب كل طفل حبًّا مستقلاً

ان التقدير الذي يطلبه الطفل من والديه هو التقدير الطبيعي الذي لا ادعاء فيه .

إن ما تقدم من مناقشة بيني وبينك ايها القارىء ، مقنع .

أليس كذلك ؟ . . لكن ألاحظ ان هناك عدداً جديداً من الأسئلة تجول في عقلك وتبحث لها عن اجابة .

هيا اذن نتقدم خطوة اخرى .

ولنحاول ان نتعرف على عدد من اسباب النظرية التي تفسر لنا لماذا نتعامل دائماً دون أناة أو صبر مع طفل معيّن من اطفالنا ودونما أسباب منطقية لذلك .

إننا بصراحة قد يخيل الينا اننا نكره هذا الابن .
ونشعر بالذنب لذلك .
فهل هذا صحيح ؟

لماذا نفقد الصبر بسرعة مع أحد الأبناء ؟

نعم ، أنت احياناً تكره احد ابنائك كراهية مؤقتة . .

نعم ، أنت تتصيّد له أي هفوة في الكلام او السلوك لتنزل عليه غضبك وسخطك .

نعم ، أنت تشعر بالذنب لنفاد صبرك الدائم مع ابن معين من أبنائك .

لا تنزعج . .
اليك التفاصيل التي تنقذك من الغرق في دوامة الاحساس بالذنب .

كتبت لي السيدة « ف » رسالة تقول فيها :

حتى اربح عقلي وحتى لا اكون أما غير طبيعية فلقد حاولت ان أتصل بأكثر من أسرة كثيرة الأبناء لأعرف هل مشكلة اسرتي موجودة في مثل هذه الأسر ام لا ؟ . واكتشفت ان المشكلة التي نعاني منها انا وزوجي موجودة في معظم الأسر الكثيرة الأبناء . واعترف عدد من الآباء والأمهات بخجل شديد بأن هناك ابناً من ابنائهم ، وغالباً ما يكون الثالث أو الرابع ونادراً ما يكون الأول او الأخير ، هذا الابن لا يشعرون نحوه بذلك الحنان التلقائي الذي يشعرون به نحو بقية الأبناء ، وكل الآباء والأمهات الذين قالوا ذلك انجبوا عدداً كبيراً من الأبناء بناء على رغبتهم وهكذا عرفت ان الطفل الذي لا يشعرون نحوه بالحنان التلقائي لم يأت رغم انفهم . .

ونحن انجبنا ستة ابناء كلهم في صحة جيدة ، ويتمتعون بجاذبية رائعة . . لكن هناك لحظات في عمر الطفل يصبح فيها عبأ ثقيلاً على الأبوين ونحن نشعر بالضيق نحو ابننا الثاني منذ ان كان عمره سنة واحدة واستمر هذا الاحساس بالضيق حتى الآن . .

هناك لحظات نشعر فيها انا وأبوه ان كل كلمة ينطقها او كل حركة من حركاته انما هي استفزاز لنا . . ولذلك فمن الطبيعي ألا يشعر هذا الابن بالطمأنينة التي يشعر بها بقية اخوته . . وانا وأبوه نعرف ان هذا خطأ ونحاول بأقصى طاقاتنا ان لا تكون علاقتنا به على هذا النحو . وأحب ان اعرفك بأن الأسر التي تبادلت معها الرأي في هذه المشكلة لم تفدني أي منها بأي سبب واضح

هذا الشعور بنفاد الصبر دائماً مع ابن معين ، ولا بد ان تعرف انك ستسعد كثيراً من الآباء والأمهات عندما تتناول هذا الأمر بالتوضيح والتفسير . .

انتهى خطاب السيدة « ف » واعترف لها بأنها استطاعت ان تعبر عن أحاسيس الذنب التي يعاني منها الآباء والأمهات في مثل هذه الحالة . وانا أختلف معها في اعتقادها في ان الوالدين ينفد صبرهما مع أي ابن إلا الابن الأول . ليس ذلك صحيحاً . كما انه ليس من الصحيح ان هذا « الصبر النافد » يصيب الآباء والأمهات في الأسر الكثيرة العدد فقط فهو يصيب ايضا الآباء أصحاب الأسر الصغيرة العدد . وليست عندي احصاءات . ولكن من خبرتي الشخصية ، أعرف انها صفة شائعة في الأسر ، كبر عدد اطفالها أم صغر . .

واحب ان أقرر هنا انني لا اعرف طرقاً سهلة للتغلب على مثل هذا « الصبر النافد » وكل ما استطيعه هو ان انبه الى عدد قليل من التفسيرات التي توصل اليها العلماء في مجال توجيه الأطفال .

مثال ذلك . .

هناك أم تظل مغتبطة وسعيدة بأحد الأبناء الذي يذكرها بأخيها الكبير الذي تعتز به ولكنها تمتلىء بالغيظ لأقل هفوة من ابن اخر يشبه في شكله وسلوكه اخاها الذي ولد عندما كان عمرها عامين وكان ميلاده انذاراً لها بعدم الأمان لأنه حصل على كل اهتمام ابيها وامها وملأ نفسها غيرة لمدة طويلة ، ذلك لأنه نزعها من عرش اهتمام الأب والأم . فإذا اعترفت هذه السيدة لنفسها بذلك فإنها تستطيع ان تقلل من حجم مشاكلها مع طفلها الذي يشبه اخاها الأصغر . .

لكن اذا كانت مشاعر هذه الأم ، المشاعر المسببة للضيق مدفونة في اعماقها لأنها اضطرت الى ذلك في طفولتها فإن هذه المشاعر تتسرب الى الظهور الآن على مسرح علاقتها بابنها وتسبب قدراً مزعجاً من التوتر بينها وبين هذا الابن الذي يشبه اخاها الأصغر .

ولنفترض ان هذه المرأة كانت في طفولتها قد شعرت بالخجل والعار بسبب كراهيتها لأخيها المولود حديثاً وكان سبب شعورها بالخجل الشديد والعار هو ان

والديها استنكرا كراهيتها لهذا الأخ المولود كما انها اكتشفت انها تكره هذا الأخ وتحبه في آن معاً .

وبين الحب والكراهية يولد الصراع وتعيش الطفلة الاحساس بالذنب وتهرب من هذا الصراع بأن تكبته تماماً ولا تعبر عنه ابداً . . وعندما كبرت هذه الطفلة وانجبت ابناً يشبه هذا الأخ . . فإن الكراهية الممتزجة بالحب تطل برأسها ويطل ايضاً الاحساس القديم بالذنب وتصبح علاقتها بابنها علاقة نفاد صبر دائم . .

قد تكون هذه الفكرة غير مقنعة لعدد من الأمهات ولكني اقول انها مقنعة لي علمياً ، إذ على مثل هذا النوع من الأمهات ان تراقب نفسها جيداً أثناء لحظة ضيقها من تصرف ابنها الذي ينفد صبرها معه بسرعة . . إنها ستكتشف ان تصرفاتها لحظة الضيق هي نوع من تصرفاتها القديمة التي كانت تتمناها عندما كانت تضيق بأخيها الصغير حين كان عمرها عامين . .

والآباء . . أيضاً .

الآباء يتساوون مع الأمهات في ذلك ، فالوالد قد يقع فريسة للتوتر المزعج ونفاد الصبر من احد الأبناء فيحاول دائماً ان يعتني بهذا الطفل الذي يضيق به ويكره تصرفاته ويلومه لأقل خطأ أو حتى بدون سبب ويفشل الأب في محاولاته . إنه يجد نفسه مرغماً على الضيق بابنه هذا دون سبب . ويعاني الآباء الاحساس بالذنب وهذا يزيد حالة الابن والأب تعقيداً .

ومثل هذه الحالات هي التي تجعلني كطبيب انصح الامهات والآباء بأن يتركوا الفرصة للابن الأكبر لكي يعبر عن غيرته من الوليد الجديد . . على ان لا يسمح له بأن يسيء التصرف مع هذا الأخ . . يجب ان لا نجعل الطفل يشعر مطلقاً بالعار العميق من غيرته . . ولا بد ان نخفف هذه الغيرة تدريجياً بأن نقول للابن الأكبر « نحن نعرف ان هذا الأخ المولود يسبب لك الضيق احياناً ، ولكن عليك ان تعرف انه صغير لا يفهم تماماً ماذا تريد » .

او ان نقول له « نحن نعلم انك تتمنى ان يعود هذا الطفل من حيث جاء» .

ان مثل هذه الكلمات تجعل الطفل الكبير يشعر انه « مفهوم » من والديه ويملك « حبهما » ويتمتع بالإحساس بالأمن . وبأن هذا الوليد القادم ليس لصاً استولى على قلب الأب او قلب الأم . ومن شأن ذلك ان يحمي الطفل ايضاً من الاحساس بأنه شرير ويؤكد له ان احاسيسه طبيعية للغاية .

ان نفاد الصبر الدائم من بعض صفات احد الأبناء يمكن ان نبحث عن جذورها في أعماقنا نحن الآباء والأمهات . لأن هذه الصفات التي تسبب لنا الضيق قد تكون احدى الصفات الموجودة فينا او صفة قديمة كانت موجودة فينا وتضايقنا ايضاً .

مثال على ذلك ، وهو مثل عادي ومنتشر . . الأب الذي كان في طفولته جباناً ، واستطاع ان يتخلص من هذه الصفة عندما كبر ، إلا ان ذاكرته ما زالت تعي بشكل واضح مشاعر العار والخجل والتعاسة التي كان يسببها له هذا الجبن . مثل هذا الأب الذي تألم من هذه التجربة المريرة وعانى منها وانتصر عليها تعود له المشكلة مرة أخرى لو لاحظ اية بادرة خجل او خوف في سلوك ابنه . انه يعتبر ان هذا الابن سيكون جباناً . وقد يظن البعض ان هذا الأب قادر على ان يعالج هذه المسألة مع ابنه وان يساعد ابنه على التخلص من الجبن او التردد او الخجل او الخوف ، لكن هذا الاب في الواقع قد يساعد في زيادة المشكلة بالنسبة للابن ، على الرغم من محاولاته التي يبذلها لمساعدة الابن . .

قد نسأل لماذا ؟ لقد مر الأب بمثل هذه المشكلة وانتصر عليها ، فلماذا لا يساعد ابنه على الانتصار عليها . . .

ما دمنا نريد ان نجيب عن هذا السؤال فإن علينا ان نتتبع سلوك الأب الفعلي امام هذه المشكلة .

ان اول ما يصدم الأب الذي كان جباناً وهو طفل هو ظهور هذه الصفة في ابنه ، مما يجعله عصبياً فاقد الصبر ، سريع الغضب مما يدفع الطفل الى العناد بدلاً من فهم الموقف الذي يعاني منه الأب نفسه وبدلاً من التعاون مع الأب لحل هذه المشكلة . والسبب الثاني الذي قد لا يعيه الأب نفسه هو ان « جبنه القديم »

قد اصبح الآن حذراً وشكا وتردداً ومحاولة دائمة لاخفاء العيب القديم وذلك يؤثر في الطفل بطريقة لا شعورية لأن الابن يضع امامه في السنوات الأولى مثلاً اعلى هو الأب . لذلك فإن الابن يكتسب بمنتهى البساطة تلك الصفة التي كان الأب لا يحلم ابداً ان تكون موجودة في ابنه . هذا المثل للأب الذي كان « جباناً » في الصغر .

وبنفس الأسلوب نستطيع ان ننظر الى الأب الذي خاض كفاحاً طويلاً اثناء الطفولة لينتصر على احساسه بالأنانية او ليهزم عناده مع اسرته ومع الآخرين او يمنع نفسه من العدوان على الآخرين . او ليمتنع عن الكذب الذي كان يتصف به ووقع بسببه في كثير من المشاكل .. هذا الأب سيتصرف مع ابنه بنفس الأسلوب الذي يتصرف به الأب الذي كان « جباناً » في طفولته . وهكذا نجد ان الصفة القديمة التي كان يكرهها الأب في نفسه أثناء الطفولة عندما تظهر في الابن فإن الاضطراب يسود العلاقة بين الأب والابن .

ولكن الحالة تبلغ درجة من السوء لا حد لها لو كان الأب قد نسي تماماً المشكلة التي كان يعاني منها في طفولته وظهرت في ابنه .

إننا احياناً كما نعرف ننسى المشاكل القديمة المؤلمة .. لكن هناك مخزن لها في العقل البشري اسمه « اللاشعور » . هناك يمكن ان تستريح هذه المشكلة الى ان يأتي الوقت الذي تظهر فيه اعراض المشكلة دون ان تظهر المشكلة نفسها ، وعندما يحدث ان ينسى الأب مشكلة مريرة عانى منها في طفولته واكتشفها تظهر في ابنه لا يعرف لماذا يضيق بوجود هذه الصفة في ابنه .. إنها صفة لا يعرف الأب انها تسللت الى الابن منه شخصياً .

وطبعاً عندما تكون ذاكرة الأب غير قادرة على وعي تلك الصفة التي كانت فيه ويكرهها ، واصبحت هذه الصفة موجودة في الابن ، يكون ذلك الاب اشد نقداً لابنه وأقل صبراً وتأنياً معه . يحدث كل ذلك دون ان يفهم لماذا ..

وحتى نشير الى عدد آخر من الأسباب التي تعرقل سعادتنا بأبنائنا وسرورنا بهم وتسبب لنا نفاد الصبر دائماً من احدهم ، حتى نشير الى ذلك لا بد ان نعود الى

خطاب السيدة « ف » الذي نشرت تفاصيله في مقدمة حديثي عن نفاد الصبر الدائم مع احد الأبناء . انها تقول انها تعتقد ان السبب في حدوث نفاد الصبر هو الأسرة الكبيرة العدد وثبت ان ذلك غير صحيح . . ونقول انها خلال حديثها مع الأسر الكثيرة العدد لاحظت ان الآباء والأمهات كانوا يريدون انجاب عدد كبير من الأطفال . لذلك فليس من المعقول ان نعتبر ان الضيق بأحد الأبناء ليس ناجماً عن ان هذا الابن جاء رغم انف ابيه وامه .

لكن السيدة « ف » تخطىء ايضاً في ذلك . فليس كل ما نطلبه في الحياة نحققه ونحن راضون عنه او اننا لا نفكر دائماً في اجراء بعض « التعديلات البسيطة » في امنياتنا . . اننا نبدأ دائماً ، ونحن نختار الأحلام التي نحققها ، « بالأهم » ثم « بالمهم » . وقد نستغني عن « المهم » في سبيل تحقيق « الأهم » ولكننا نشعر بعد ذلك بقليل من الندم .

ومن المؤكد اننا نسعى إلى تحقيق اهدافنا من حيث دوام الصحة وسعادة العيش ، لكن بعد ذلك هناك الكثير من اهدافنا ورغباتنا يمكن ان نناقشها ونعرف كيف نختار من بينها ما يمكن ان نصل اليه او نسعى الى تحقيقه

انا اذن اوافق السيدة « ف » على ان معظم الاباء والأمهات اصحاب الأسر الكبيرة انجبوا بارادتهم هذا العدد الكبير من الأطفال ولكن اريد ان اسأل :

- هل لو منحوا الفرصة بمعجزة سحرية ان يعودوا مرة اخرى الى سنوات اختيار اهداف الحياة ، هل سيختارون انجاب هذا العدد من الأطفال ؟

قد تكون الاجابة نعم ، لكن من المؤكد ان هناك لحظات من الأسف والندم تمر بهؤلاء الآباء والأمهات ، وخصوصا الأمهات . ان الأم تعرف متاعب الحمل والولادة ، تسعة شهور من الألم ثم ليلة طويلة من الوجع العنيف هي ليلة الولادة ثم متاعب السنوات الأولى من حياة الطفل التي تتطلب رعاية وعناية خاصة من الأم . فكيف تكون الحال عندما يتبين ان هذا الطفل مخيب للأمل بأي وجه من الوجوه ، او حين تقابل الأسرة ظروفاً مرهقة وصعبة لأي سبب من الأسباب . وغالباً ما تمر كل اسرة بسنة او أكثر لا تكون فيها احوال حياتها كما

نتمنى . فإذا كانت هناك متاعب مفاجئة من أي جهة مثل عمل الأب ، أو موت قريب عزيز من اقارب الأم او الأب ، أو مرض احد افراد الأسرة، أو نشوب خلافات بين الأب والأم ، او عدم انسجامهما ، عند ذلك لا بد ان تقل الفرحة تتقلص السعادة التي يستقبل بها الوالدان ميلاد طفل جديد .

ونحن نعلم ان الواقع لا يستجيب أحياناً لتنفيذ رغباتنا او تحقيقها.

ان قلوبنا تتمنى ونحلم ، ولكن الواقع في بعض الأحيان يختلف . قد يحلم الأب او الأم بمجيء الطفل ولدا او بنتا ، قد نحلم بأن يكون الطفل جميلاً فاتناً او تلميذاً موهوبا يصبح في المستقبل عالماً له مكانة او لاعباً رياضياً او بطلاً . . ونحن نعرف اننا في اعماقنا نخفي صورة سرية لما نفضل ان يكون عليه الطفل . ومهما حاولنا ان نكون معقولين ومنطقيين فإن هناك توقعاً ما ، نتمناه نحن الآباء والأمهات . وقد يختلف هذا التوقع من انسان لآخر ، إلا انه موجود ، ونتمنى ان يتحقق حلمنا وان يأتي الطفل مطابقاً للصورة السرية التي نحتفظ بها له في اعماقنا . .

وعندما يجيء الأطفال الى الحياة فالصفة الغالبة عليهم هي الحاجة الى حنان الوالدين ، لكن هذا لا يمنع الطفل الوليد من ان يعرض نفسه للتعاسة هو واسرته نتيجة اعتماده كلياً على الأسرة في تحقيق مطالبه . كما ان هناك آلام الخروج الى الحياة التي قد تكون مزعجة لأي سبب صحي كالمغص مثلاً . لكن هذه التعاسة ما تلبث ان تزول ، لأن الأسرة تتعود على متاعب الطفل . والطفل يجد في معظم الأحيان ما يطلب من الرعاية والعناية . . .

وعندما يمر عام . . يبدأ الأب والأم في ملاحظة ان الطفل يحاول ان يعبر عن استقلاله . وقد يأخذ هذا الاعلان شكل العناد وعدم التعاون مع الوالدين مما يسبب الضيق للأب او للأم . وبما ان الأطفال ليسوا كلهم نسخاً متكررة ، بل تختلف شخصية كل منهم عن الآخر فإن الأب والأم لا يستطيعان التكيف بسرعة طبقاً لهذه الاختلافات بين شخصيات اطفالهم . ولكن عندما يكون الطفل كالاصبع المجروح لسبب ما من حيث وجود اعوجاج في شخصيته فلا

يمكن ان نشعر ان هذا الطفل هو الذي كنا نتمناه . صحيح ان معظم البدايات الخاطئة يستطيع الآباء تصحيحها بعد فترة قصيرة ، لأن معظم الآباء يتعلمون كيف يستمتعون بهذا الغريب الذي دق باب حياتهم فجأة ، لكن هناك بعض الآباء الذين لا يستطيعون التكيف مع هذا الضعيف رغم محاولتهم الجادة للوصول الى ذلك . وبعض الآباء يتعلمون بالتدريج كيف يتعاملون مع الطفل صاحب المشاكل الكثيرة ، لكنهم اذا كانوا من النوع المفرط في الحساسية فإنهم يواصلون توبيخ انفسهم لعدم قدرتهم على تحمل متاعب الطفل منذ البداية .

لقد اوضحت عدداً من الأسباب التي تؤدي الى احساس بعض الآباء بعدم القدرة على الاستمتاع والاغتباط بطفل من اطفالهم بقدر ما يفعلون مع بقية اخوته . . ويقف دائماً الاحساس بالذنب وراء معظم الأسباب التي تزيد من متاعب الاباء . ويظهر هذا الاحساس بالذنب عندما يسمح الاباء للطفل بأن يسلك السلوك الذي لا يمكن ان يسمحوا به لولا وجود هذا الاحساس بالذنب مثل عدم الإصغاء الى الكلام ، وعدم التعاون ، واحياناً الوقاحة . وهناك سببان لذلك على الأقل . أولهما ان الاباء يشعرون ان من حق الطفل ان يعاقبهم قليلاً . والسبب الثاني : ان الابرياء لا شعورياً يرحبون بسوء السلوك الواضح لأنهم يجدون فيه سبباً يبرر عدم قدرتهم على الاغتباط بهذا الطفل ، وعندما يشعر الطفل انه افلت بخطئه من العقاب فإنه هو ايضاً يشعر بالذنب . فهو يتمنى من اعماقه ان يوقفه احد عند حده ، واحياناً يتمنى ان يعاقبه احد وعندما لا يحدث ذلك فإن الطفل يتمادى في سوء السلوك لكي يشد انتباه من حوله الى ضرورة عقابه . . ولقد تأكد لدينا في هذا الزمن الذي نعيشه ان الطفل المدلل اكثر من اللازم من والديه ، او الطفل الذي يتسامح معه ابوه وامه جداً . . هذا الطفل يستمر في استفزاز والديه وكأنه يقول في يأس :

ـ الى أي حد من السلوك السيء يمكن ان اصل حتى توقفاني عند حدي وتجعلاني اسلك السلوك المهذب . . ؟

وطبعاً لا بد ان ينفجر احد الوالدين بالغضب في نهاية الأمر . . مما يجعل الطفل يرضخ ويعود الى السلوك المهذب . ان الوالد الواثق من حبه لابنه يجب ان

يعاقب هذا الابن من وقت لآخر عندما يفعل ما يستحق العقاب لأن الأب والابن يشعران ان العقاب قد جاء في ميعاده الصحيح ويظل سلوك الطفل جيداً لمدة طويلة . .

ولكن الوالد الذي يعاني من الشعور الدائم بالذنب وانه غير جدير بدوره كأب ورب لأسرة فإن الاحساس بالذنب يهاجم هذا الأب بعد ان يعاقب ابنه . ان الاحساس بالذنب يصبح احياناً كموج جارف يهز اعماق الأب ويظهر ذلك في صور مختلفة . . فالأب الذي لا يثق بنفسه قد يسمح لابنه بأن يرد بالكلام او الفعل على عقابه له . واحياناً اخرى قد يصرف النظر عن عقاب الابن او قد يتظاهر بأنه لا يرى الطفل لو عاد الى الخروج عن قواعد السلوك . .

الأب الذي يعاني من الاحساس بالذنب ينبه الطفل بصوت لا اقناع فيه . لذلك لا يسمح الابن لنفسه بالرضوخ الى اوامر الأب .

الأب الذي يظل متوتراً عدة ساعات ويساوره الاحساس بالخجل من نفسه يصبح احياناً كالطفل المخطىء ، فينصرف بصورة تستفز الابن فيرد الابن على معاقبة الاب بنفس المستوى ، أي ان الابن يتصرف كأن والده هو الذي يستحق العقاب . .

في مثل هذه الحالات ، فإن هناك رسالة من احساس الأب يستقبلها الابن . . رسالة تقول : إن الأب خجول من عقابه لابنه ، وغير واثق من ان الابن اخطأ وغير متأكد انه يستحق دوره كأب . . ويرد الابن على هذه الرسالة من الأحداث التي تشبه الدوامة التي لا تنتهي . ونحن كآباء نقع في هذه الدوامة احياناً ، عندما نتخيل اننا عاقبنا الطفل بلا سبب او لسبب تافه . لكن معظمنا كآباء يمكنهم ان يعودوا الى الاعتدال والتوازن قبل ان تظل علاقتنا بأحد الأبناء هي علاقة الاحساس الدائم بالذنب فنظل محاصرين في هذه الدوامة . ومرة أخرى علي ان اتذكر خطاب السيدة « ف » التي لم تقل لي أية أسباب تجعلها هي وزوجها يخطئان في الأسلوب الذي يعالجان به مشكلة الطفل غير المفضل لديها . وإني لأشعر من رسالة السيدة « ف » انها وزوجها يحبان ابناءهما الى درجة كبيرة .

ولعل هناك سبباً معقولاً جعل الوالدين يعتقدان ان احد اطفالهما صعب المراس لا يمكن التفاهم معه ، ولأن السيدة « ف » في تلك الدوامة التي شرحتها منذ قليل . . وهذا واضح جداً في كلمتها التي تقول فيها « ان كل كلمة ينطقها هذا الطفل تضايقنا وان كل سلوك يسلكه يجعل اعصابنا متوترة » . وطبعاً لا يمكن ان يصبح الطفل شرساً او كريهاً الى هذه الدرجة من تلقاء نفسه . لا بد ان يكون قد تعلم تماماً كيف يثير اعصاب امه وابيه وكيف يجعلهما يضيقان به الى اقصى درجة . ولا بد انه عرف باحساسه ايضاً انهما يشعران بالذنب ولا يستطيع احدهما ان يوقفه عند حد معين .

عندما تصل عيناك ايها القارىء إلى هذه الكلمات فلا تظن انك عثرت اخيراً على وسيلة حاسمة لتربية ابنك الذي يستفزك وتضيق به صدراً فقد تظن ان الحل هو ان تقسو على ذلك الابن ، وان تستمر في معاملته بجفاء لكي تضع حداً لهذا الاستفزاز المستمر .

ولكن القسوة قد تكون سبباً في ان يستمر الطفل في عناده وان يتمادى فيه ، والمعاملة بجفاء قد تجعل الطفل يصر على ان يكون مستفزاً بصورة اكبر . واذا اردت ان تعرف الحل الأكيد ، فهو يتلخص نظرياً في هذه الكلمات « لا بد ان تصر انت وزوجتك او انت وزوجك على ان يسلك الابن السلوك السليم اولاً بطريقة « ودودة وحازمة » . . ولتتخيل ان الابن حصان صغير نعلمه السباق ، ومن ثم يجب ان يكون زمامه في أيدينا دون توتر . . حتى لا نصبح في حالة من الضيق النفسي والعصبي الدائم . . .

إن كلمة « الود الحازم » صعبة التطبيق كما يعلم كل اب وكل ام . . وخصوصاً لوجود تاريخ سابق من التوتر بين الأب وبين الابن الذي يثير الضيق . .

هناك حقيقة يجب ان يعلمها كل اب وكل ام . . ان الاب والأم عندما يتفقان على سياسة « الود الحازم » مع الابناء فإنه من البداية سيحدث الصدام بينهما وبين الابن المشاكس . واذا أصر الوالدان على تثبيت سياسة « الود الحازم »

كدستور دائم للعلاقة بينهما وبين الابن المشاكس فإن الطفل يعلم انه لا فائدة في مقاومة هذه السياسة ، ويصبح سعيداً بهذا الأسلوب الجديد الذي يأخذ فيه حقه من الود وينال العقاب المناسب عندما يخطىء .

عندئذ يشعر الآباء ان احساسهم بالذنب تجاه هذا الابن قد زال ، وحينئذ يشعران بالسعادة . فبدلاً من ان تشدهم دوامة كراهية الابن واحساسهم بالذنب الى القاع ، بدلاً من ذلك تصبح هناك علاقة بناءة تنمو بينهم وبين الابن . .

اما اذا استعصى ذلك على الابوين فلا بد من استشارة احد الاخصائيين النفسيين ليضع اطاراً لعلاج مشاكل اسرة هذا الابن الذي تضيق به .

هل يمكن ان تنجح علاقتك بحماتك ؟

الحماة احياناً تلعب مع زوجة الابن دور الشرطي الذي احيل على التقاعد . وتنظر بعيون ملؤها الحسرة الى السيدة التي خطفت ابنها . وتحاول ان تفرض سيطرتها على جو البيت . ومجال الخلاف الدائم بين الحموات والزوجات او بين والد الزوجة وزوج البنت هو تربية الابناء .

بيد ان هناك حماة يمكن لزوجة الابن ان تظفر بصداقتها .

وهناك حماة اخرى لا بد من ان تحكم الرقابة عليها .

وما ينطبق على الحماة ينطبق ايضاً على والد الزوج . او والد الزوجة .

ليس هناك طبيب اطفال لا يرى خطوط التعاسة التي تكون مرتسمة احياناً على وجه الأم او الأب . والسبب هو ان الجدة او الجد يتدخلان بشكل مباشر ومثير للضيق في أسلوب العناية بالطفل .

ان كلا الأم والأب يحاول ان يعلم نفسه قواعد العناية بالطفل صحياً باسلوب علمي .

ويدور الصراع بين الكبار « الأجداد » كطرف اول وأم الطفل وابيه كطرف ثان . .

فأم الزوج تشعر انها مجني عليها ـ لأن زوجة الابن لا تسمع كلامها في فن رعاية الابن . ان الحماة تظن انها الخبيرة الأولى في التربية . . ويجب على زوجة الابن الطاعة . وام الزوجة نفسها تشعر احياناً ان ابنتها تتفاخر عليها بقواعد التربية الحديثة وفي ذلك اتهام غير مباشر للأم المتقدمة بالسن بأنها لم تتعلم قواعد التربية السليمة وانها يجب ان تعرف انها جاهلة . هكذا تقتنع الحموات والأمهات .

والد الزوجة قد ينظر الى زوج ابنته قائلاً :

ـ انا افهم اكثر منك في قواعد تربية الأطفال . . ان المسألة علمياً . .

ويستمر والد الزوجة في القاء سيل من النصائح والارشادات ليس لها علاقة بالعلم ولكن هدفها ان يثبت انه « يعرف » اكثر مما يعرف زوج ابنته . . وهكذا نجد ان هناك صراعاً خفياً بين الاجداد او الجدات كطرف وبين الأزواج

والزوجات كطرف آخر .

مثلاً والدة الزوج التي تقول لزوجة ابنها :

ـ كل ما أتمناه ان يكون الطفل شبه ابيه وان يكون له ذكاء اسره والده ولباقتها . . هنا تشعر ام الطفل بالاهانة .

ولنلق الآن نظرة على خطاب وصلني من احدى الامهات . . تقول فيه :

ـ كل ما افعله منذ ميلاد ابني معرض للنقد المستمر من حماتي . . خصوصاً في مسألة تدريب طفلي على التبول والتبرز . حماتي تقول انه يجب علي ان افرض على الطفل ان يتعود على ضبط نفسه منذ شهوره الأولى ، لأن ذلك ممكن . وانا ارفض ان اجبر الطفل على ذلك . حماتي تطلب مني ان احترس وانتبه لأن عدم انتباهي يجعل الطفل يحاول ان يكتشف كل شيء بنفسه وقد ينتج عن ذلك ان يقع الطفل في مأزق او يصيب نفسه بأذى ، كأن « يخبط » نفسه في شيء . حماتي تصر على انها تعرف اكثر مني في مسألة تربية الأطفال ، لأنها اكبر مني واكثر خبرة . حماتي تؤكد كل لحظة انني وزوجي مخطئان ، لأننا لا نسمع كلامها . وهنا يجب ان اعترف ، انني احياناً كثيرة ارفض ان انفذ أياً من ارائها المفيدة ـ لا لشيء إلا لأسلوبها الديكتاتوري الذي تحاول ان تفرض به آراءها ، وهي تعتبر ذلك الرفض لأفكارها نوعاً من الاهانة الشخصية لها . . وحماتي تزدري من صميم قلبها هواياتي وصداقاتي ، هذه الهوايات والصداقات التي لا تمنعني من القيام بواجباتي تجاه ابني او زوجي . إنها تصفني بأنني غير متزنة وتصرفاتي طائشة . وعندما ندعوها للاقامة معنا في الاعياد مثلاً ـ مرتين او ثلاثا كل عام ـ فإنها تجعلني انا وزوجي نشعر بالذنب حين ننبه على المربية الخاصة بالطفل الى الاهتمام بطفلنا . اننا نفعل ذلك حتى لا نرهقها ، ولكنها تأخذ هذه التوجيهات على انها اهانة كبيرة لها . وانا شخصياً أفضل ان اترك طفلي مع امي في بعض الأحيان ، لكن حماتي تقف لذلك بالمرصاد ، وتدعي انها اولى بذلك . وتحاول ان تمارس عواطف الكرم والشهامة لتخفي انانيتها ، وتصر على ان أترك معها الطفل » .

قد يعتقد القارىء ان هذه الحماة غارقة لأذنيها في سلسلة من

الأخطاء . وقد يتحيز الى الأم التي قالت هذه الكلمات بدون مناقشة . لكن لا بد ان نتمهل ونناقش بعض العوامل التي توضح مدى « انانية » هذه الحماة ، علينا ان نعترف بأننا لم نسمع سوى رأي زوجة الابن فقط ، من زوجة ابنها . وعلينا ان نتذكر ايضاً اننا قبل ان نناقش مواقف هذه الحماة ، علينا ان نعترف بأننا لم نسمع سوى رأي زوجة الابن فقط ، أي اننا لم نسمع سوى احد اطراف المشكلة . انني أشك في ان احداً قد يحتار عندما يسمع هذه المشكلة من الحماة في مثل هذا الخلاف بين الحماة وزوجة الابن - يتغير رأينا كثيراً عندما نسمع رأي الحماة - لكن لنتخيل اننا نشاهد الحماة وزوجة الابن وهما يتصرفان وجهاً لوجه .
انني أتصور اننا سنشاهد زوجة الابن وهي تتصرف بصورة غير مباشرة حتى تجعل الصراع ضرورياً بينها وبين أم زوجها . ان وجود الاثنتين معاً ، دون تفاهم واضح المعالم ، يجعل الصراع أكيداً ، لأن احداهما ستعتدي على وظيفة الأخرى او خبرتها ، الحماة ستعتدي على احساس الأم بأنها المسؤولة عن ابنها ، والأم ستعتدي على احساس الحماة بأنها صاحبة خبرة اكثر منها في مجال تربية الأطفال .

ولا اريد ان اؤكد انني اعلم ما يدور في تفاصيل الصراع اليومي بين الحماة وزوجة ابنها ، لأني لا املك الا سطور الرسالة التي نشرتها . لكن لقائي مع عدد كبير من الأمهات الشابات يكشف لي عن ان المشكلة الرئيسية التي تواجه الأم الشابة هي عدم قدرتها على تحمل تدخل الحماة في كل صغيرة وكبيرة من تصرفات زوجة الابن . ان رسالة هذه الأم الشابة تقول لي كلمات اخرى لم تكتبها صاحبة الرسالة .انها تقول لي « أنا استسلم لرأي حماتي دون مقاومة » .

ولقد يثير ذلك دهشة القارىء فيقول « كيف يكون ذلك مع ان هذه الأم الشابة تصر على رأيها في عدد من المسائل ، مثل مسألة رفضها لرأي الحماة في تدريب الطفل على عادات التبرز والتبول والطعام وضرورة الانتباه الشديد لكل سلوك من الطفل حتى تحميه من الأضرار التي تسببها له محاولاته لاكتشاف ما حوله . كل ذلك صحيح وصحيح ايضاً ان الأم الشابة تتردد قبل ان تلقي بتعليماتها الى مربية الطفل او الخادمة التي تتولى شؤونه وتستسلم لمسألة اصرار

الحماة على بقاء الطفل معها ومنعه من الذهاب الى بيت جدته لأمه كما تتمنى الأم الشابة . وأهم ما يؤكد لي الظن بأن تلك الأم الشابة تستسلم بسرعة لرأي حماتها هو ان سطور رسالتها مليئة بالاحساس بأنها مجروحة الكرامة من تصرفات الحماة وتشعر انها ضحية لهذه الحماة ، وكل ذلك يؤكد على ان العلاقة بينهما ليست سليمة .

اني اعتقد ان المشكلة الأساسية هي ان مثل هذه الأم الشابة تخاف ان تجرح مشاعر حماتها وتخاف ان تغضبها .

وهناك عدة عوامل تصنع هذا الموقف .

الأم ما زالت صغيرة السن وقليلة الخبرة . لذلك فعندما ترزق هذه الأم بطفل ثان وثالث فمن المؤكد ان فرصتها في عدم الاستسلام للحماة ستكون جيدة . إنها لن تكون مستسلمة لهذه الدرجة امام حماتها ، لأن خجلها امام حماتها سيقل وستكون اكثر حسماً فذلك الخجل سببه انها مبتدئة في تربية الأطفال وخبرتها قليلة . لقد تعلمنا من العلاج النفسي ان الفتاة المراهقة تتطلع الى منافسة امها في اعماق اللاشعور ، إنها تشعر ان دورها قد جاء لتكون فاتنة وتستمتع بالحياة الرومانتيكية وانجاب الأطفال . ان المراهقة تشعر ان امها يجب ان تعرف ان الفرصة قد ضاعت عليها ، وعلى الأم ان تفسح لابنتها مجال التقدم للاستمتاع بالحب . ان أي فتاة جريئة يمكن ان تعبر عن هذا الاحساس بالتنافس مع امها في كلمات واضحة . وهذا هو احد الأسباب التي توضح لنا لماذا يبدأ تمرد الشباب بأخذ شكل المشكلة الحادة اثناء المراهقة ، لكن الفتاة او الأم الصغيرة السن التي تربت في بيت محافظ قد يختلف احساسها قليلاً . انها تكبت الاحساس بالتنافس مع امها او حماتها . لذلك نجدها في حالة استسلام ، خوفاً من الاحساس بالذنب . إنها تستسلم حتى ولو كانت تعرف ان رأيها صحيح ، فهي تتنازل عن هذا الرأي . وهناك ايضاً نوع من التنافس بين زوجة الابن والحماة . ففي اعماق اللاشعور من الحماة احساس بأن زوجة الابن هي المرأة التي نجحت في سرقة الابن الغالي . والمرأة الشابة المليئة بالثقة بالنفس قد تتمتع بهذا النجاح في علاقتها

الزوجية . لكن زوجة الابن الحساسة قد تعاني من بعض الاحساس بالذنب لأنها نجحت في الاستيلاء على زوجها ، وحرمت امه منه ، خصوصاً عندما تكون الحماة من النوع الذي يصعب ارضاؤه . ولعل العامل الحاسم هو طبيعة اخلاق الحماة ، لا من حيث غيرتها وحبها للسيطرة واصرارها على فرض رأيها وحسب ، بل كذلك من حيث مهارتها في اقتناص فرصة حساسية زوجة ابنها . ان ذلك الاقتناص لهذه الفرصة يسبب لزوجة الابن الإحساس بالضيق ويخلق نوعاً من العداء الروحي بين الحماة وزوجة الابن ، لان زوجة الابن لو كانت واثقة من نفسها ومعلوماتها في تربية الطفل لاستطاعت ان تضع حداً لتدخل حماتها . أما زوجة الابن المغرقة في الحساسية وفي الخوف على مشاعر الحماة ، فإنها تكون ضحية نموذجية لأي حماة تجيد فن استغلال احساس الآخرين بالذنب .

هناك « تمازج » بارع بين الشخصيتين . ففي الحقيقة ، ان الأم تحاول ان تكشف عيوب زوجة ابنها ، وكذلك تحاول زوجة الابن ان تكشف عيوب حماتها واي بادرة في الاستسلام لرأي الحماة ، كفيلة بأن تدفع الحماة الى مزيد من استغلال الفرصة لاهانة زوجة الابن ، كما ان خوف زوجة الابن من جرح مشاعر حماتها يدفع الحماة لكي تستغل ببراعة أي فرصة تبدو فيها وكأن مشاعرها قد جرحت، وأنها تشعر ان زوجة ابنها قد اهانتها . وهكذا تبدأ لهجة الأوامر تظهر على لسان الحماة « أنا لا اسمح بأن تقولي لي دلك » ويصبح أي خلاف في الرأي هو « اهانة شخصية » للحماة . وكبت زوجة الابن استياءها من هذه الاهانات المتتالية ومن سيطرة الحماة يجعلها تتألم ولا تعرف كيف تتصرف لتضع حداً لهذا الألم . ان زوجة الابن تصبح كالسيارة الغارقة في الرمال ، تغوص اعمق واعمق كلما حاولت الخروج . وبمرور الأيام والشهور ، وعندما يصبح الألم كالقدر لا يمكن ان نزيله ، نبدأ في الاستسلام لنوع من الرضا بالعذاب كالحزن على أنفسنا . ونبدأ في اجترار آلامنا ونستمتع بسخطنا ، أو نروي من خلال الدموع آلامنا للآخرين ونستمتع بتعاطفهم معنا .

وهذه الألوان من فنون البحث عن الرضا تقلل من اصرارنا على ضرورة العثور على حل واضح لمشكلتنا . فنحن نغرق في دوامة الحزن بدلاً من البحث

عن قرار نصنع به سعادتنا . . كيف اذن يمكن لزوجة الابن الحساسة ان تنقذ نفسها من بحر الهوان الذي تغرقها فيه حماتها المتسلطة ؟

الطريق الى ذلك ليس سهلاً في البداية ، ولكنه ممكن بالتدريج والتدرب .

على زوجة الابن ان تتذكر انها وزوجها مسؤولان عن تربية الابن قانونياً واجتماعياً وفعلياً ولهذا فيجب ان يتمسكا بالاحتفاظ بحق اتخاذ أي قرار وكل قرار يخص الابن . واذا حاولت الحماة ان تثير أي شك من الشكوك في اعماق زوجة الابن حول أي أمر يخص الطفل الصغير ، فإن على زوجة الابن ان تستشير الطبيب الذي يشرف على علاج الطفل . ومن المؤكد ان الطبيب سيقف بجانب الأم الشابة ضد حماتها ، لأن معظم الحموات يقفن دائماً ضد الطب والطبيب .

وعلى الأب ان يؤكد ثقته بزوجته وان يعلن ذلك لأمه بوضوح وان يؤكد لها انه هو وزوجته يتحملان مسؤولية الطفل ، ويجب ان لا يتدخل احد في ذلك الأمر . . لا بد ان يكون الأب حازماً وحاسماً مع امه في أي مناقشة بينها وبين زوجته . على الأب ألا يستسلم لرأي امه او ان يوافق عليه ، بل عليه ان يؤيد زوجته بحزم ودون نفاد صبر . واذا ظن ان امه على صواب في أي نقطة . . فعليه ألا يعلن هذا التأييد ، بل عليه ان ينتهز الفرصة للانفراد بزوجته وان يناقشها فيما يراه صواباً من رأي أمه .واعظم الخطوات اهمية بالنسبة للام التي يتملكها الخوف هو ان تعرف في وضوح ان احساسها بالذنب والخوف من اغضاب الحماة هما اللذان يجعلانها هدفاً لاهانات الحماة ولسيطرتها ، وعليها ان تعرف أن ليس هناك ما يجعلها تخاف او تخجل . باختصار ، يجب ان تلبس الأم الشابة نوعاً من الدروع السميكة تحمي بها نفسها من المخاوف وتسير بها الى هدفها بأسلوبها الخاص دون ان تشعر بالحرج .

وهنا قد يطرح السؤال التالي نفسه :

ـ هل يجب على الأم الشابة ان تثور في وجه حماتها حتى تحصل على استقلالها في تربية ابنها ؟

والجواب انها ربما احتاجت الى ذلك مرة او مرتين لأن معظم البشر الذين

تفترسهم الضغوط يشعرون بنوع من عدم القدرة على رفع هذه الضغوط مرة واحدة . وهذا الاحساس يرهقهم ولا يعرفون كيف يسيطرون على أنفسهم عندما يواجهون استفزازاً شديداً ، وعندئذ ينفجرون انفجاراً عارماً . لكن على الأم الشابة ان تحذر من غضبها الشديد في وجه حماتها . ان الحماة التي تكون من النوع المتسلط تعرف في اعماقها ان ضيق الأم وغضبها الشديد دليلان على الخوف والجبن ، وهذا يشجعها على استئناف التسلط والاهانة .

وعلى الأم الشابة ان تتأكد من انها في المدى الطويل سوف تزداد ثقة بنفسها ولا تسمح لحماتها ان تتدخل في أي شأن من شؤون تربية الأبناء او معاملة الزوج ـ وستعلم كيف تقول رأيها في صوت واثق دون ان تغضب ـ ستقول « هذا هو افضل طريق بالنسبة لي ولطفلي » او « الطبيب هو الذي ينصح بذلك » . ان النبرة الواثقة الهادئة تكون عادة ذات فعالية كبيرة في اقناع الحماة بأن الأم قادرة على حل مشاكلها بنفسها . .

ان على الأم دائماً ان تنفذ ما تراه صحيحاً دون ان تلجأ الى حماتها ، فإذا حاولت الحماة ان تثير سلسلة من المشاكل لأي سبب فإن على الأم ان تبدو طبيعية ، وان تتفادى المناقشات حول رعاية الطفل بقدر الامكان . وعندما تصر الجدة على المناقشة والجدال فعلى الأم ان تظل هادئة ، وان تغير موضوع الحديث بلباقة ـ وعندما تحاول الحماة ان تثير الأم بكلمة « احلم ان يكون الطفل جميلاً وذكياً مثل ابيه » . فعلى الأم ان تعتبر المسألة نكتة دون ان تظهر ان ذلك هو جرح لمشاعرها . ان كل ما تهدف اليه هذه الخطوات هو ان ترفض الأم الشابة ان تقف موقف الدفاع عن نفسها وألا تسمح لكرامتها بأن تجرح ، وان ترفض ان يثير احد اعصابها . وبعد ان تتقن الأم هذه المبادىء الأساسية في الدفاع عن نفسها ، عليها ان تتقدم خطوة الى الامام بأن تتعلم عدم الهرب من الحماة بل مواجهتها ، وألا تخاف من سماع رأي الحماة ، وهذا يجعلها قوية ويقنع الحماة بالحقيقة .

« ان دور الجدة ينحصر في ابداء الرأي دون الزام الأبناء بتنفيذ هذا الرأي » .

لقد اهتممت حتى الآن بالمواقف الأساسية بين الأم والجدة وتجاهلت الخلافات في الرأي بين الاثنتين حول المسائل الأخرى مثل تشجيع الطفل على الطعام وتدريبه على طريقة التبول والتبرز وتنبيهه الى ما يجب الابتعاد عنه لنحميه من الحوادث الصغيرة وتعليمه كيف يأخذ حذره .

لم اقل رأيي في تلك المسائل ، لا لشيء إلا لأنني واثق من ان الصدام بين اي شخصيتين يجعل فرص اختلاف الرأي لا حدود لها . وقد تكون المرأتان عملياً تتبعان نفس الأسلوب في معاملة الطفل ولكن مناقشاتها الشفهية لا تنتهي حتى يوم القيامة لأن وجهات النظر تختلف . وعندما تكون هناك شخصيتان مختلفتان فأنا لا أسأل نفسي أيهما على صواب ، لأني ألاحظ ان كليهما يجد متعة في العثور على الفروق بين وجهة نظره ووجهة نظر من يختلف معه وذلك حتى تستمر المعركة . واذا ما أحس احدهما ان هناك نقطة اتفاق تقرب بينه وبين الشخصية التي يختلف معها فإنه يحاول الهرب منها بسرعة . والآن علينا التوقف لنعرف انه قد حدثت تغيرات عنيفة في عالم تعليم العناية بالاطفال في السنوات الأخيرة . وذلك يحتاج الى اتساع افق كبير من أي جدة او حماة حتى تتقبل تلك التغيرات العميقة من حيث تعليم وسائل تربية الطفل وحتى تستطيع ان تضبط نفسها وتبتعد عن الشك والقلق وذلك لأن أي جدة او أي حماة غالباً ما تعلمت ان الطفل لو تناول طعامه في غير المواعيد المحددة فإن ذلك يسبب عسر الهضم والاسهال والقيء وان الانتظام في مواعيد التبرز هو الأساس الهام للصحة وان التدريب المبكر على التبرز هو الذي يحفظ هذا الاساس الهام لصحة الطفل.. ونحن نعرف ان اقناع الجدة او الحماة بتغيير هذه المعتقدات مسألة صعبة ، ولكن عليها ان تتقبل هذه التغيرات بسعة افق . ان المرونة في مواعيد الرضاعة مسألة مرغوب فيها وليس مسموحاً بها فقط . وان تدريب الطفل على عادات التبرز والتبول يجب ألا يتم بالاكراه ضد ارادة الطفل . هذه الاراء الجديدة لا تدهش الأم الشابة في هذه الأيام لأنها طبيعية بالنسبة لها . وحتى تستطيع ان تفهم موقف الحماة او الجدة ، يتعين عليها ان تتخيل نصيحة جديدة مثيرة ، كأن يشير عليها احد الناس بأن يأكل الطفل الوليد اللحم المشوي ، أو ان يستحم في ماء بارد .

ونحن نعرف ان كل فتاة من بنات هـذه الأيام تتمنى ان تثبت جـدارتها ولذلك فعندما تصبح هذه الفتاة اماً فإنها في البداية تكون حـساسة لأي نصيحة اذا قيلت من امها او من حماتها ، حتى ولو كانت النصيحة معقولة ، وحتى اذا قالتها الأم او الحماة بمنتهى اللباقة . . لذلك فهي ترفض هذه النصيحة . ونحن نعرف ان معظم الأمهات الشـابات لم يتجـاوزن فترة المـراهقة إلا قليـلاً ، وفي قلب كل منهن رغبة اكيدة في اثبات جدارتها لدرجة رفض أي نصيحة بضيق صدر بالغ ، ولذلك فعلى الجدة دائماً ان تقلل من اقتراحاتها ونصائحها الى ادنى حد ممكن .

ان الأم الشابة قد تبالغ احياناً في رصد المعارك بينها وبين حماتهـا . لقد شاهدت بعض الأمهات الشابات يحاولن الخروج على كل القواعد مثل الرضوخ لطلب الطفل الطعام في أي وقت ومثل تأخير تدريبه على عادات التبول والتبرز ومثل السماح للطفل بالاخلال بكل قواعد آداب تناول الطعام او التغاضي عن وقاحته وقاحة مسرحية ، كل ذلك لا لأن الأم الشـابة تؤمن بهـذه التصرفـات ولكن لأنها كانت تعرف لا شعورياً ان هذا سيزعج الجدة تماماً ـ وهكذا تكون فرصة الأم الشابة لتصطاد اكثر من عصفور بحجر واحد ـ فهي من جهة تغيظ الجدة غيظاً لا حدود له وهي من جهة اخرى تنتقم منها لكثرة ما عارضتهـا في السـابق ، كما انها تريد ان تثبت للجدة انها « ذات ذهنية قديمة » وانها جاهلة وكل نصائحها خاطئة ، وتريد ان تؤكـد لها انها افضـل منها لأنها ام شـابة متعلمـة مثقفة . . وطبعاً معظمنا كآباء وكأجداد نأخذ من مبادىء التربية الحديثة او القديمة اسلحة في معاركنا العائلية وقلما ينجم عن ذلك ضرر بالغ ، بل انه احياناً عراك لا يخلو من لذة . لكن الكارثة تأتي لو استمر ذلك كحرب ضارية ولفترة طويلة من السنين .

وقبل ان انهي هذه المناقشة ، اريد ان اقول انني اخترت الحالات التي تتصف بالتوتر العنيف لأوضح الأسباب الأساسية في توتر العلاقـة بين الحمـاة وزوجة الابن . ولكن علينا ان نتذكر ان هناك اسراً سعيدة نجد ان الانسجام هو الطابع السائد فيها بين الاجيال المختلفة ، وغالباً ما يكون الخلاف في الآراء حول

اسلوب تربية الطفل الأول . بعد ذلك تسير امور الحياة دون مناقشات بالغة الخطورة .

ولا بد ان اقول ان بعض الأزواج من الشباب يفضلون السكن بعيداً جداً عن منازل آبائهم حتى يبتعدوا تماماً عن نصائح الحموات ، وتحاول الأم عندما تنجب طفلها ان تأخذ ارشاداتها من الأطباء وهذا تصرف لا اعتراض عليه . ولكن علينا ان نعرف ان الأم الصغيرة الشابة وخصوصاً في بداية ميلاد الطفل تحتاج الى وجود امها او حماتها بجانبها، لأن الطبيب ليس معها طوال الوقت .

ان النصح ليس معناه فرض النصيحة ورفضها بعد ذلك ، إنما معناه طلب النصيحة عندما نحتاجها ونفكر فيها . . فإن بدا لنا ان هذه النصيحة غير مقنعة أمكن ان نرفضها دون ضجيج ، لأن النصيحة التي لا تعجبنا ليست فرصة لاستنكار كل ما يصدر عن الجدة او الحماة . وعلينا ان نعرف ان الجدة تفرح عندما يطلب احد نصيحتها ولن تحزن كثيراً عندما يرفض احد بلباقة وهدوء تطبيق هذه النصيحة .

وعلينا ان نعرف ان الأجداد المسنّين، يحتاجون الى فهم الحقيقة الأساسية التي يجب ان تحكم علاقتهم بأبنائهم الذين تزوجوا . إن هؤلاء الأبناء لهم حياتهم المستقلة ـ هم اصحاب القرار في كل مسألة تتعلق بهم وللابناء الكبار الحق في طلب النصح ـ وليس للآباء الحق في الزام الأبناء بتطبيق هذه النصائح . . أقول ذلك لأننا بهذا الأسلوب نستطيع ان نربي الطفل في جو بعيد عن الخلافات وفي اسرة تعرف كيف تتمتع بحياتها لا اسرة تحترف ان تعيش وسط المشاكل التي لا جدوى منها سوى تدمير الحياة ببطء .

خلافات الزوج والزوجة . . هل تؤثر في الأبناء ؟

ان تكون الخلافات كثيرة . . فهذا لا يهم

المهم هو ان نجد دائماً أسلوباً للتفاهم نزيل به أي خلاف .

والمهم ايضاً ألا تعرض خلافتنا الأبناء الى الاصابة بالقلق الدائم وعدم الاحساس بالطمأنينة والاستقرار .

هناك شيء يجب ان يقال بادىء ذي بدء .

ان معارك الاباء والأمهات وخلافات الاباء مع الأمهات تثير في النفس الرغبة في الصمت .

إنها عادة خلافات يسهل حلها بين الاثنين لكن عندما يتدخل احد في هذه الخلافات فإن الأمر قد ينقلب ضد من تدخّل وتصبح سيرة هذا المتدخل مزعجة لأحد الأطراف .

ولكن لأن الخلاف بين الازواج والزوجات يحدث فلا بد ان نتحدث عنه ولا مفر من ذلك .

وطبعاً هناك اختلاف في مقدار وطريقة التعبير عن عدم التفاهم وعدم الانسجام الطارىء في العلاقة الزوجية . هناك مثلاً نوع من الأزواج او الزوجات يملكون قدرة كبيرة على ضبط النفس .

فلا يرتفع لهم صوت .

ولا يشكون لأحد .

بل ان منهم من لا تنمّ عيونهم عن الكره والبغضاء حين يتحدثون مع من هم على خلاف معهم .

وهناك طبعاً فئة نادرة جداً هي تلك التي تقدم الاعتذار فوراً ، اذا بدرت أي بادرة خلاف مع ازواجهم او زوجاتهم .

وهؤلاء هم الذين يخافون من ان تستمر حالة الغضب مدة طويلة ، لدرجة انهم يسرعون دائماً الى الخضوع والاستسلام .

وهذه كلها انواع شتى من الخلاف. بمعنى ان هناك خلافاً يحتوي على قدر قليل او بسيط من الغضب ـ وتلك هي سنة الحياة ـ .

اننا لا نستطيع ان نعيش طول العمر في حالة اتفاق دائم مع شريك العمر ـ أو شريكة العمر ـ لا بد ان تختلف آراؤنا .

لا بد ان نتناقش .

لا بد اننا لا نوافق على شيء ما في هذا الرجل او تلك المرأة .

ولكن هذا النوع من الخلافات الخفيفة ليس مجالنا لأنها مجرد خلافات في الراي لا ينشأ عنها اضطراب كبير في سير الحياة الطبيعي ، بل ولا ينتج عنها أي مرارة في اعماق الزوجين .

ولنا هنا ان نقرر ان هناك نظرية تقول : ان الطفل الذي ينشأ في كنف والدين غاية من الانسجام والاتفاق في مشاعرهما ـ تكون تربيته تربية ناقصة لا تؤهله لمواجهة الحياة ـ ذلك ان الطفل سيعرف كغيره من الأطفال والكبار ان هناك غضباً يبحث لنفسه عن تعبير . هناك غضب هادىء يحتاج الى تعبير هادىء أيضاً وهناك غضب ثائر يبحث لنفسه عن تعبير إنفعالي ثائر .

صحيح انه من الأفضل ان يتعلم الطفل حقيقة الغضب من اناس آخرين غير والديه ، وصحيح انه من الأسلم ان يرى انقلابات الزواج الكئيبة التي تشبه انقلاب سيارة في الطريق ، في شخصيات اخرى غير شخصيات الأب او الأم ، لأن اطمئنان الطفل الشخصي والأساسي يحتاج دائماً الى تماسك العلاقة بين الوالدين ويحتاج الى انسجام الاثنين في مواجهة مسؤوليات الحياة وصحيح ان عدداً كبيراً من هؤلاء الذين نشأوا في بيوت قادرة على التمييز الدقيق بين الصواب والخطأ هم الذين تقدموا في الحياة لأن اباءهم كانوا يكتمون الغضب فلا يظهر بشكل حاد لأن هؤلاء الآباء حاولوا ان يبتعدوا بأبنائهم عن آثار الغضب

العنيف ، ذلك ان الغضب العنيف بين الوالدين تنعكس آثاره على الابناء ، ولكن من الصحيح ايضاً ان كتمان الغضب بشكل صارم لا يمنع الأطفال ابداً من الاحساس بوجود شيء ما غير طبيعي في سماء العلاقة بين الوالدين .

وتوضح لنا العيادات النفسية ذلك .

ان الأطفال يشعرون بما هو غريب في حالة آبائهم المزاجية ، بل اننا نذهب الى مدى القول بأن بعض الأبناء ، يؤثر فيهم الخلاف غير المعلن تأثيراً أشد من ذلك الخلاف الصاخب الذي ينتهي بسرعة . بل ان بعض الاراء العلمية الحديثة تقول ان احد اسباب « الربو » في سنوات الطفولة الأولى هو الخلاف المكتوم بين الزوجين .

ان ذلك الصمت المليء بالغيظ المكتوم بين الزوجين بعد أي خلاف قد يستمر طوال النهار وقد تتخلله أكثر من مناقشة حادة تنفجر لمدة دقائق وتنقل الصورة العامة للخلاف الى الأبناء . وان اختلفت تفاصيل الصورة .

وليس معنى ذلك اننا ندعو الى ان تقذف الزوجة زوجها بطبق عندما تغضب منه ولا نتصور ان يصفع الزوج زوجته اذا شعر بضيق منها ،طبعاً لا احد يستطيع ان يدعو الى ذلك وليس هناك أي داع لممارسة ما يساوي كسر الطبق على رأس الزوج او ضرب الزوجة .

ان هناك انواعاً من الاهانات البالغة التي تساوي ذلك والتي تدمر الروابط الوثيقة بين الزوجين وتصيب الحالة العاطفية بنوع من الشروخ التي يصعب اصلاحها .

ان ذلك لو حدث امام الطفل فإن آثار هذا الخلاف المهين لأحد الطرفين تستمر في تدمير اطمئنان الطفل الى زمن بعيد .

انها تدمر الاحساس بالامان في اعماق الابن وتجعله يشعر ان « النموذج العاطفي » يهتز ويجعله يتشكك في معظم العلاقات التي هي من هذا النوع ويستمر احساس الابن بالعار والخجل والذنب .

ويستمر ايضاً احساس الطرف المهان في الخلاف بالعار والاثم والذنب ، وهذه الاثار لا يمكن ازالتها لمدة طويلة .

لذلك نجد ان النصيحة الأولى التي توجه الى الزوجين عندما يختلفان هي « لا بد من ضبط الأعصاب » لأن آثار ذلك تنعكس على الأبناء .

ان العيادات النفسية تشهد آلاف الحالات من الأبناء الذين نشأوا وسط ظروف عائلية مليئة بالخلاف الشديد ، ان هؤلاء الأبناء يشعرون في الكبر بأنهم ليسوا كبقية البشر . . وتنعدم فيهم الثقة بالنفس ، فيخافون من اقامة علاقات عاطفية سليمة ويتذكرون ان معنى تكوين أسرة هو الوجود في بيت يختلفون فيه مع طرف آخر ويتبادلون معه الاهانات .

إننا نذكر حالة فتاة من العيادة النفسية . هذه الفتاة التي ظلت ترفض الزواج لمدة طويلة وتدخل سلسلة من التجارب العاطفية وتدمر امكانية وصول أي من هذه العلاقات الى الزواج . . هذه الفتاة نشأت في اسرة ريفية .

الوالد متوسط الثراء والأم ثرية .

العلاقة بين الأم والأب لم تتم بصورة طبيعية . . لم يختر احدهما الآخر عن دراسة او حب لكن الاختيار تم بطريقة تبدو غريبة في زماننا الذي نعيشه .

كان الأب قد بلغ سن الأربعين وكانت كل علاقاته النسائية قبل الزواج مع المحترفات من النساء اللواتي تقوم العلاقة بينهن وبين أي رجل على أساس ان يدفع الرجل ثمن اللذة الطارئة .

وشاهد هذا الرجل جسداً جميلاً في بيت احد الأقرباء سأل عن اسم هذا الجسد فقالوا له الاسم .

وبإحساس الخوف من الشيخوخة اندفع الرجل الى الشراء السريع للبضاعة الجميلة .أي الزواج في أيام قليلة وبحكم عوامل كثيرة اهمها الرغبة في الهرب من المنزل الذي تعيش فيه وافقت ذات الجسد الجميل على الزواج .

تمر ايام من البهجة المصطنعة يحاول خلالها كل طرف ان يسيطر على الآخر .

تشعر ذات الجسد الجميل انها تعيسة مع الرجل الذي يكبرها كثيراً .

يكتشف الرجل ان ذات الجسد الجميل لا تعرف كيف ترضيه - إنها تمثل عبئاً عليه - إنه مطالب بأن يدخل علاقة حب متساوية مع امرأة وهو لا يعرف ذلك . . ووسط الكدر النفسي الشديد :

تولد الطفلة الأولى .

وتشاهد الطفلة رحلة محاولة الأم للسيطرة على الأب ومقاومة الأب لهذه السيطرة وتنام الأسرة كل ليلة في جحيم المعارك .

تنمو الفتاة على أساس واحد .
هو الخلاف بين الأب والأم .
ويأتي عدد آخر من الأطفال اخوة لها .

وتدور محاولات في الأم لجذب الأطفال ناحيتها ويحاول الأب ان يجذب الأطفال الى ناحيته ويستمر الصراع داخل أعماق الفتاة وأخوتها ونعرف ان الحياة وسط هذه الأسرة لا بد لها من انفصال الطرفين . . الأب والأم .

تشعر بالعار من سلسلة المعارك الصاخبة .

تحس بالخجل لأنها ترى الجيران يشتركون في حل هذه الخلافات .

تتخلف الفتاة في الدراسة . تنجح بصعوبة . تكون كثيرة الخيال . ينحرف الخيال الى الكذب .

تعيش في دوامة رفض هذه الأسرة .
تدخل الجامعة وتحاول ان تجرب حياة عاطفية .
تبدأ اول علاقة . تستمر العلاقة شهوراً وتنتهي الى الفشل .
انها تكتشف ان امها تسكن تحت جلدها .

تبدأ دائماً في تعذيب الشاب الذي يدخل معها في علاقة .
يهرب الشاب .

تستمر الفتاة في سلسلة من العلاقات التي تحطمها دون ان تكتمل بمسيرة الحب والفرحة .

ونجد ايضاً نماذج كثيرة من الشباب الذين يخافون من الاقدام على الزواج .

نجد في رأس هذا الشاب سلسلة من المعارك والاحساس بالخجل من تجربة انه كان عضواً في اسرة كثيرة المعارك بين والديه .

اذن ما الحل ؟ . .

هل نخفي الخلاف الذي ينشأ بين الزوجين اذا كان الطفل حاضراً ؟

هل نسمح بتدخل الطفل في الخلاف ليقول رأياً قد لا يناسب احد الطرفين وتزداد المشكلة تعقيداً . .

من المؤكد ان تأجيل مناقشة الخلاف ومحاولة السيطرة على الانفعال حتى لا يفلت ، مريح بالنسبة للطفل . ولو حاول الزوجان ان ينسى كل منهما اساءة الآخر وان يتصرف بصورة مرحة فإن ذلك افضل .

ولكن اذا كان في نية احدهما ان يكتم الخلاف ويظل يردد كلمات مبهمة دليل « الاشمئزاز » و« الغضب » او ان ينظر نظرات طويلة ـ يحدق فيها بمن هو امامه ليخيفه او يعلن عن كراهيته الصامتة له او يظل متوتراً لمدة طويلة .

ان حدث ذلك اثناء وجود الطفل معهما فإن ذلك يثير شكوك الطفل وينقل اليه القلق والتوتر والخوف .

اذاً ما الحل ؟
الحل ان توقف المعارك مؤقتاً .

ومن المهم ان يظهر الوالدان للطفل ان هذا الخلاف مسألة عرضية وان

نشرح للطفل بواقعية وهدوء أن الخلاف أمر طبيعي يأتي الى حياة كل انسان ويذوب بسرعة .

اما اذا حدث الخلاف ودخل الابوان حجرة مغلقة او اصدرا الأمر الى الابن بأن يخرج من الغرفة ، وبدأ الطفل يسمع اصواتاً غاضبة ثم يخرج الوالدان وعلى خدّي الأم خيوط من الدموع وعلى وجه الأب تجاعيد الأسى والنفور ويشعر ان كليهما يعاني من الاحساس بالذنب لأنه كان سيء الحظ في اختيار شريك الحياة ، عندئذ لا بد ان يشعر الطفل ان الموقف غاية في السوء .

لذلك نقول ان المهم ان يحاول الزوجان امام طفلهما ان يكونا طبيعيين .

فإذا سمع الطفل صوت الغضب يعلو من خلال باب مقفل . . .

ثم وجد ملامح الصمت المليء بالغيظ على وجهي الوالدين، فإن ذلك يجعل الابن ينظر الى الوالدين بنوع من عدم الثقة بل وأقول بنوع من عدم التقدير . . لذلك لا بد من ان نكون واقعيين وان نحصل على ثقة الطفل ، بأن نقول مثلاً :

كنا في حوار كالشجار ، ولكن لماذا لا نفعل نحن جميعاً شيئاً آخر ، نلعب او نخرج .

لعل القارىء يحس انني الف وأدور في ساقية ، قائلاً لنفسه « أليس هناك وسيلة للحياة دون خلاف » .

وانا اقول ان نشوء الخلاف ليس كارثة ، بل انه ضروري ، ولكن لا بد ان نجعله غير مزعج للطفل ولا بد ان نذكر الطفل اننا اناس منطقيون نرغب في بناء حياتنا .

ليس المهم اذن هو طريقة الخلاف او على ماذا يكون الخلاف بين الأب والأم او حتى عدد مرات الخلاف .

انما أهم ما يجب ان ننتبه له هو . . ما تأثير الخلاف على العلاقة الأساسية

بين الزوجين وهل نختار طريقة التعبير المتحضرة ذات الأسلوب الراقي في أي خلاف او صدام بين الاراء ؟

والمهم ايضاً ان يؤكد الوالدان للابناء ان الحب بينهما قوي وان الاحترام بينهما قائم ـ وانهما لا يختلفان حول اهداف الحياة الأساسية وهي تربية الابناء ومساعدتهم في بناء المستقبل ـ وان الخلاف كان حول مسائل ليست خطيرة . . إنه خلاف مثلاً حول توجيه دخل الأسرة الى مزيد من اوجه الاتفاق المفيدة او ان الأقارب يجب ان يعاملوا بطريقة لا تسمح لهم بالتدخل في الحياة الشخصية للاسرة ، وانهما يحاولان دائماً ان يضعا نهاية لهذا الخلاف .

وكلما كانت قدرة الزوجين على انهاء الخلاف سريعة كلما قل شعور الاطفال بألم هذه الخلافات . .

ولكن يجب ان نقف قليلاً عند كيفية ازالة اثار أي خلاف والاستفادة تربوياً منه .

ان احد الأسباب الرئيسية في قلق الأطفال الصغار من خلاف الآباء هو ان فكرتهم عن الغضب فكرة عنيفة للغاية .

انهم متوحشون صغار

انهم لا يعرفون ان الغضب له درجات .

فمثلاً الطفل الصغير عندما يغضب من احد الوالدين فهو يرغب في ان يقضي عليه مؤقتاً ، ولكن لأنه يعرف انه يعتمد تماماً في حياته على الوالدين بل ويحبهما ايضاً ، فهو يعاني من القلق والاحساس بالذنب . انه لم يملك الثقة بنفسه ولا بقدرته على السيطرة على مشاعر رضاه او سخطه وهو لم يصل الى درجة النضج الكافية التي يدرك بها انه بين كل عشرة ملايين معركة تكون هناك واحدة فقط هي التي ترتكب فيها جريمة قتل .

والطفل لا يظن ان ابويه يشعران بأحاسيس اجرامية وحسب ، بل يتمادى في الظن بأنهما قد ينفذان الجريمة .

والاخصائي النفسي الذي يعمل مع نوع معين من الأطفال الذين يعانون من القلق والاحساس بالذنب ، هذا الاخصائي يقضي وقتاً طويلاً حتى يصل الى اقناع الطفل ان الغضب « احساس » . . والجريمة « فعل » .

وان مشاعر الغضب مسموح بها لأنها لا تؤذي احداً ، ويمكن للانسان ان يعبر عن مشاعره الغاضبة بالكلمات . . وهذا طبعاً يفرح له الطفل جداً .

انه يعرف اخيراً ان الغضب شيء يختلف عن الجريمة . ويجعل التحسن يبدو واضحاً في حالة الطفل وتزول عنه احاسيس الذنب والقلق .

لذلك نقول انه من الأفضل للوالدين ان يوضحا للطفل حقيقة الخلاف وانهما ما زالا يحب احدهما الآخر حتى لا ينزعج وحتى لا يسبب له هذا الانزعاج سلسلة من الاضطرابات لا نهاية لها .

يجب ان يوضح الوالدان للطفل ان الكبار ايضاً يغضبون ويختلفون « ويتضايق » بعضهم من بعض ولكن كل ذلك ينتهي لتبدأ رحلة الحياة صافية بعد ذلك .

واكرر مرة اخرى انه لا داعي لأن يلعب احد الوالدين دور « الشهيد » المعتدى عليه والمغلوب على أمره . يجب ان لا يحدث ذلك من احد الوالدين لأنه يملأ نفس الطفل بقلق وضيق نحو واحد من اثنين يراهما هو كأعز وأثمن ما يملك . انهما وسيلة الحياة ومصدر الحنان . إنهما الأب والأم .

ولست اعني ان على الاباء والأمهات ان يستمرا دائماً في توضيح مسائل الخلافات كلها للاطفال . فليس من المعقول ان نظل نحن الكبار نختلف ونتشاجر ، ثم نحول الصغار الى قضاة دائمين .

كما لا يجب ان نتحول نحن الكبار الى مفسرين دائمين لسلوكنا ولتصرفاتنا .

ان ذلك شيء غير مستحب سواء منا نحن الكبار او من الابن الذي نرهقه

نحن ايضاً بنوبات معاركنا ثم بنوبات القلق التي تتسرب إلى اعماقه ، ثم اخيراً بنوبات التفسير لغضبنا .

اننا نعرف ان الخلاف بين الازواج شيء يحدث ، وطبيعي ان يحدث . . المهم دائماً ان نعرف عدد مرات الخلاف وان نقللها وان نتحكم نحن في مشاعرنا اثناء الخلاف ولا نحاول ان نعكس ذلك على الطفل . ان بعض الزوجات ينظرن الى الابناء على انهم السبب الوحيد الذي يربطهن بهؤلاء الآباء . ان بعض الأزواج ينظرون الى الابناء والنظرة تحمل معنى واحداً : «لو لم يكن عندي ابناء لكنت تخلصت من الحياة مع هذه الكارثة التي تزوجتها ويا لي من مغفل حين تزوجتها » .

ان ذلك مما يسمى « حالات الطلاق العاطفي » أي ان ينفصل كل من الزوجين نفسياً عن الآخر وهذه الحالات تسبب الانزعاج الكامل للطفل . تجعله ينظر الى الحياة بقلق . تجعله يقع في سلسلة لا متناهية من العقبات النفسية . تجعله يكره الحياة نفسها لأنه يعاني من الاحساس بالوحدة او يعاني من الاحساس بأنه عبء على الابوين .

اننا لا نطلب بأن نمثل على الابناء تمثيلية نكون نحن ابطالها ، ونقول للابناء ان الحياة تسير بلا خلاف .

ان ذلك مستحيل . .

اننا نعرف ان الأزواج الذين بلغوا درجة فائقة من النضج العاطفي ويتمتعون باحترام متبادل مع زوجاتهم يمرون ايضاً هم وزوجاتهم بفترة يكتشفون فيها ان الخلاف ضروري حول مسائل معينة ، مثل طريقة الانفاق ، او طريقة اختيار كل طرف لاصدقائه ، اصدقاء الزوج قد لا يعجبون الزوجة ، صديقات الزوجة قد يعترض عليهن الزوج . طريقة تفصيل ملابس الزوجة قد يعترض عليها الزوج . طريقة حديث الزوج مع صديقات الزوجة قد لا تعجب الزوجة . مستقبل الابناء نفسه قد يكون مجال مناقشة بين الزوجين او طريقة تأديب هؤلاء الأبناء ، وهكذا . .

ان الأزواج والزوجات يكتشفون دون قصد منهم ، انهم عرضة للاختلاف في الرأي خصوصاً في السنوات الأولى من الزواج .

وأي زواج ناجح يكتشف فيه الطرفان اثناء كل مناقشة بعض النقط التي يختلفان فيها . هنا نعرف ان الزواج كالتعليم . يجب ان نستفيد من الدروس . إننا نكتشف كل ما في اعماقنا لطرف آخر وهو يكشف لنا ما في اعماقه .

اذن لماذا لا نتعلم من كل مناقشة ؟؟
انّ « تعلمنا » هو الذي يوفر علينا سوء التفاهم .
نقلل عدد مرات الخلاف .
نزيل اسباب الخلاف قبل ان تنشأ .

وقد يكتشف احد الزوجين انه يملك عادة مستفزة او ان رأيه في مسألة ما غير معقول ، اذن فعليه ان يعترف بذلك وان يتخذ قراراً حاسماً وصامتاً بأن يتراجع عن هذه العادة . وان يتنازل عن الرأي غير المعقول .

مثال ذلك الزوج الذي يصر على شراء ملابس جديدة لنفسه ، بينما البيت يحتاج الى ثمن هذه الملابس . . والمثال نفسه يمكن ان « ينطبق بقوة » على المرأة احياناً اكثر مما ينطبق على الرجل .

وعلى الرغم من ان « الاسراف » كريه كصفة في احد الزوجين ، فإن الطرف المسرف يجب ان لا ينال العقاب والتوبيخ واللوم دائماً .

انما يجب ان يتلقى نصيبه الكامل من الحب والحنان والرعاية والفهم ، وان يحاول طبعاً علاج عيبه أعني الاسراف .

وذلك المثال ينطبق على بقية العادات الأخرى التي يعترض عليها احد الزوجين .

وعلينا ان نعرف ان الحب يحسم الكثير من الخلافات في حالات الزواج الناجح . وعلينا ان نعرف ايضاً ان الحب عندما يختفي من البيت الذي يعيش فيه

الزوجان فإن الخلافات تصبح ضيفاً دائماً في هذا البيت .

ان بعض علاقات الزواج تتحول الى علاقة بين اعداء لا يعلنون عن عدائهم بشكل مباشر ، والذي يحدث . . ان يبحث كل طرف للآخر عن اسباب ليخوض معه معركة ويخلق له توتراً ويسبب له مشاكل .

ومما لا شك فيه ان المسائل التي يمكن ان يثور حولها الخلاف في كل اسرة لا حصر لها ويمكن ان ينفخ فيها احد الزوجين لتصبح ناراً تحرق البيت نفسه .

ان ذلك يحدث عندما تملأ الكراهية قلب احد الزوجين وتصبح الحياة خالية من المحبة والسلام واذا ما استمرت أصبحت جحيماً بينهما .

ان هذه الأوضاع تهدم نفسية الانسان سواء كان طفلاً او زوجاً او زوجة . .

من المحتمل ان يكون القارىء قد افترض من خلال حديثي هذا ان هناك حالات زواج مثالية وحالات زواج فاشلة جداً ، لكن هناك اعداداً لا حصر لها عن حالات الزواج التي هي ليست فاشلة تماماً وليست ناجحة تماماً .

ان حالة الانسجام والاتفاق يرتفع ميزان حرارتها وينخفض من يوم ليوم ومن اسبوع لأسبوع ومن شهر لآخر ومن سنة لسنة .

والمسألة تتوقف على أسباب كثيرة في اعماق الزوجين وفي المجتمع الذي يعيش فيه الزوجان وبعضها واضح تماماً وبعض هذه الأسباب لا يعرفه حتى الزوجان نفسهما . فبعض الأفراد نشأوا في جو اسرة لا ينتهي فيها الخلاف الذي يتبعه الحب والغفران ولا يستمر الحب او الغفران فترة طويلة ، بل ينقلب مرة اخرى الى سلسلة من المعارك الكبيرة او الصغيرة .

وتستمر الحياة في هذا النوع من الأسر ، لا يستقر فيها الحب كثيراً ولا يستقر فيها الخلاف كثيراً .

ان هذا النوع من العلاقات الأسرية موجود .

والازواج والزوجات يتمتعون فيه بالبحث عن القلق ويجدون لذة في هذا السلام الآتي من بطن الحرب ، وهذا الحنان المولود من براثن الكراهية ، رغم انهم قد يستنكرون ذلك لو رأوه في غيرهم ، هؤلاء الأبناء الذين ينشأون في مثل هذه الأسر يتبعون ايضاً في اغلب الأحيان نفس الأسلوب .

ويتعرضون ايضاً لتخمينات الجيران عندما يسمع الجيران ضجيج المعارك ويكون مضمون هذه التخمينات ان الطلاق سيدق باب هذه الأسرة الكثيرة المعارك ، ولكن الطلاق لا يأتي . .

وهناك عامل آخر يكون السبب في قيام الخلاف في الأسرة .

هناك بعض الأسر يولد فيها طفل يشبه اباه تماماً او طفلة تشبه الأم تماماً ، وهذا التشابه الشديد يدفع الأب مثلاً الى التحيز الشديد للابن الذي يشبهه وقد يدفع الأم ايضاً الى التحيز للفتاة التي تشبهها ، وفي أي مناقشة بين الأم وبين الولد الذي يشبه اباه او عندما تعاتبه على خطأ ما فإن الأب يعترض ويعلو صوته بالاعتراض والرفض لهذا العقاب .

ويحدث ذلك ايضاً لو انب الأب البنت التي تشبه امها ، فإن الأم تعترض على ذلك .

هنا يتبادل الوالدان الاتهامات بخصوص هؤلاء الأطفال .

كل واحد يتهم الآخر بأنه متحيز لهذا الطفل وظالم لتلك الطفلة او العكس .

وعلينا ان نلاحظ ان الأطفال يستغلون ذلك بمنتهى الذكاء ، ويحاولون اثارة المزيد من الخلافات بين الزوجين ، وهكذا نجد ان الوالدين نفسهما قد اصبحا « لعبة في ايدي الأطفال » .

اخيراً ، نحب ان نقول اننا في العصر الحاضر نعرف الكثير من الأسباب التي تقف وراء الخلاف في الحياة الزوجية . ولقد تقدمت البحوث الاجتماعية والنفسية في عصرنا بصورة كبيرة ، وفي كل مكان هناك اخصائيون يعملون

لمساعدة الأزواج على فهم المشكلات التي تقابل الحياة الزوجية وكيف يمكن الانتصار عليها . . ومن الأفضل طبعاً ألا تصيب الكبرياء أي طرف من الزوجين بحيث يمتنع عن الذهاب الى احد الاخصائيين ليبحث عن علاج للمشكلة التي تواجه الحياة الزوجية ، ان هذا النوع من الكبرياء يؤكد صفة الجهل في أي انسان يرفض حل مشاكله علمياً .

ان المرونة مطلوبة لأن الحياة يمكن ان تكون بها اكثر اشراقاً .

وهناك ملاحظة اعرفها شخصياً وهي ان المرأة غالباً هي التي تكتشف ضرورة الاستفادة من مكاتب حل مشاكل الزواج ، والرجل غالباً هو الذي يرفض .

ان العلم قد استطاع التوصل الى القدرة على تنقية جو الاسرة . . فلماذا لا نستفيد من ذلك ؟ .

وقصارى القول نعلن اننا يجب ان نعرف ان من يطلب حل خلاف في الأسرة باسلوب علمي ليس هو الخاسر . . .

وأن حلبة مصارعة الثيران لا تشهد الثور وهو يهجم دون داع على مصارع الثيران ولكن هجوم الثور يأتي دائماً بعد ان يرفع المصارع علمه الأحمر امام الثور .

هنا تبدأ المصارعة ـ أليس كذلك ؟

كل أم تحتاج الى الترفيه عن نفسها

الطفل عادة هو ديكتاتور صغير يسرق وقت الأم . يمنعها من ان تتمتع بصحبة الكبار .

انها تشعر بالذنب لو اهملت طفلها وخرجت الى نزهة مسائية مع الأب . وتشعر بالضيق والتوتر عندما تظل محبوسة بين جدران المنزل لترعى الطفل .

لكن . . الأم انسانة اولاً واخيراً . والانسان يحتاج الى الراحة .

ألستم معي في ذلك ؟ .

الاجهاد هو النتيجة الوحيدة التي يمكن ان تراها على وجه تلك الأم .
لقد جاء طفلها بعد ان اشتاقت كثيراً الى ان تكون أماً .
ها هي مسؤوليات الأمومة تزحف عليها .
ها هي تعيش القلق على صحة الطفل .

ان الأربع والعشرين ساعة التي تمنحها لنا السماء كل صباح يستهلكها هذا المحبوب .

ولكن . .
هل يمكن ان يستمر هذا الحال ؟

إنها اصبحت سجينة لرعاية طفلها والاشراف عليه . وهي تسمع من الصديقات بالتليفون عن الحياة الاجتماعية ، عن الحفلة التي اقامها فلان وفلانة . وكانت ليلة جميلة . وتسمع عن قائمة من الأفلام الجديدة التي تعرض في السينما . . وهي تنظر الى الاعلانات في التليفزيون بمنتهى الأسف . إنها لا تستطيع الذهاب الى أي فيلم من الأفلام . وهي لن تستطيع حتى ان تستمتع بدعوة أي اسرة لزيارتها ، ذلك ان طلبات الطفل لا تنتهي ،ثم مع من تترك الطفل ؟ .

انها تنظر الى ابنها على أساس انه قيد جديد من لحم ودم .

ديكتاتور صغير يسرق الوقت . يمنعها من ان تتمتع بصحبة الكبار .
وقد تسأل نفسها :

ـ ماذا يمكن ان يحدث لو تركته وحيداً في الشقة وخرجت لأشتري ما أريد .
هذه الأسئلة تراود ذهن الأم . لكنها فور ان تفكر فيها تصاب بالرعب والخوف وتتهم نفسها بالطيش .

وليست هذه الأم حالة غير طبيعية او شاذة بين الأمهات .
ان كل ام تحتاج الى الترفيه عن نفسها .

ان الحزن ينتاب احياناً قلب أي ام تشعر انها محاصرة في تنفيذ وصايا الحب المتفاني للأبناء .

انها تشعر بالحزن من فرط الاحساس بأنها معزولة وسط جزيرة من المسؤوليات . وتعترف المرأة دائماً بأن اكثر متاعب الأم يأتي من الاحساس بأنها فقدت حريتها .

ترتفع هذه الكلمة في أعماق المرأة وعلى لسانها في كل مكان متحضر . . امريكا وانجلترا وفرنسا وفي البلاد التي تحررت حديثاً وشاركت المرأة فيها في تحمل مسؤوليات الحياة العامة .

ان الفتاة في أي بلد من تلك البلاد في عصرنا تأخذ حقها كاملاً او ناقصاً في مسائل الخروج من المنزل ومرافقة صديق . وهناك دفاع كامل عن حق الفتاة بالحب في الثقافة الغربية وهناك محاولات للدفاع عن هذا الحق في بقية البلدان التي تسعى الى التقدم الاجتماعي .

وكل فتاة تشاهد الأفلام الامريكية في عالمنا . . تكاد تفقد صوابها . . لأن اسلوب العلاقات الغرامية الذي تتبعه الفتاة الامريكية مثلاً قد يثير دهشة أي فتاة من ريف أوروبا ، وعندما تدخل البنت الامريكية المدرسة الثانوية فإنها تبدأ في القول لوالديها بأنها أصبحت صاحبة الرأي الأول في مستقبلها وحياتها .

وهنالك عدد من الفتيات يخترن التعليم الجامعي وهذا يعني ان الفرصة تصبح امامهن عريضة للاختيار بين العمل أو الزواج او العمل والزواج معاً .

وفي المجتمعات الحديثة كلها بدأ العمل يأخذ نفس الجدية التي كانت

تعطيها المرأة قديماً للزواج كهدف يجب ان تحققه . الهدف الآن لمعظم نساء الدنيا هو العمل الذي يرضي شخصيتها والزواج الذي يؤكد لها انوثتها . وما ان تصل المرأة الى العمل حتى تعرف انها اصبحت مسؤولة . . ان الأجر لا يأتي إلا بجهد يجب ان تبذله . وعندما يأتي الزواج فهي تتحمل مسؤوليتين ، الأولى هي العمل والأولى ايضاً هي الزواج ولا بد من ان توفق بين دورها الناجح كامرأة عاملة تحلم بالترقية والتقدم في مجال عملها وان تجيد ايضاً هذا الدور الناجح لها في الحياة كزوجة . وهنا يذوب الحلم في الحرية اللامسؤولة التي كانت تمر في خيالها من قبل . فكثير من الفتيات يحلمن بأن يتعلمن لتهرب الواحدة منهن من قيود السيطرة العائلية وتحلم ايضاً بالزواج كفرصة للتعبير عن انوثتها . ولكن المرأة تفاجأ عندما تصل الى العمل والزواج ، اذ تجد انهما يتعارضان . يسببان لها الارهاق . فما ان ينتهي العمل حتى تبدأ واجبات المنزل وهي تحلم ان تحقق فيهما النجاح .

وعلينا ان نقول ان مساعدة الزوج للزوجة ما زالت قاصرة بعض الشيء . ان الزوج لا يتحمل هذا العبء الكبير . الرجل غالباً يضع عمله اولاً ، ويمارس مساعدة الزوجة في معظم الأحيان كنوع من التفضل والمجاملة . وعندما تبدأ متاعب الحمل في الطفل الأول فإن باب الأمل في الانطلاق امام الزوجة وحصولها على حقها من الترفيه يصبح مسدوداً . ان الانطلاق سيصبح له شكل آخر ، انه انطلاق في تعلم وسائل العناية بالطفل الوليد .

وما ان يأتي الطفل الى الحياة ، حتى تشعر الأم انها اصبحت محاصرة بين الخوف على الابن وبين رغبتها في اداء عملها ورغبتها في ادارة امور المنزل . ويصبح يوم العطلة يوماً من العمل الشاق وعلينا ان نعترف ان الأم الموظفة التي انجبت اكثر من طفل هي اقل المخلوقات البشرية فراغاً . واقل المخلوقات استمتاعاً بأي ترفيه ، واقل الكائنات حظاً من الفسح والاجازات . صحيح ان اليوم لا يخلو من ابتسامات يكون السبب فيها هو الطفلة التي تقوم بتفصيل الملابس لعروستها ، او الولد الذي يعلم ابناء الجيران كيف يقولون الحروف الأبجدية او الراحة لأن الابن خرج من دائرة المرض وصحيح ايضاً ان المرأة

اختارت الزواج كهدف ولا تستطيع الاستغناء عن العمل لأنها تساعد به الأسرة ، بل ان دخل المرأة اصبح يمثل جزءاً أساسياً من دخل الأسر المبتدئة . ولكن هذا لا يمنع المرأة من ان تشعر بأنها تفقد الاحساس ببهجة الحياة . ان الحياة ليست إلا اربعاً وعشرين ساعة كل يوم . هذه الساعات لا تكاد تفي بالمسؤوليات التي يجب ان تقوم بها المرأة .

وكثيراً ما تحلم المرأة دون ان تدري بهذه الحياة البدائية التي يتمتع فيها سكان الحضارات الأكثر بساطة حيث يختص الرجل بالعمل وتختص المرأة برعاية البيت وليس هناك بيوت ازياء تخرج الجديد من طراز الملابس وليس هناك انواع جديدة من العطور وليس هناك آلات حديثة تدعي شركات الانتاج انها تسهل الحياة للأسرة رغم ان هذه الآلات في معظم الأحيان تغرق الأسرة في الديون . . وهذه الحضارات البسيطة لا تدعي لنفسها ان الانسان مفروض عليه ان يلعب دور البطل . المرأة بطلة لأنها تنجب وتشغل وظيفة . والرجل بطل لأنه يساعد زوجته في أعمال المنزل ورعاية الأطفال ويحمل هموم عمله ايضاً . ان هذه الحضارات البسيطة لا تغش احداً ، ولا تقبل اللعبة المكشوفة في الحضارة الغربية حيث ترتسم ملامح الشقاء على الرجل والمرأة معاً لأن الحياة تزداد صعوبة يوماً بعد يوم . في هذه الحضارات البسيطة في جزر الهند الشرقية مثلاً او اواسط افريقيا او الريف الانجليزي او الفرنسي او أي ريف في بلاد البحر المتوسط لا نجد احداً مرهقاً بهذه الصورة التي ترهق بها المرأة التي تعيش في مدينة كبيرة من مدن الحضارة الحديثة وايضاً لا ترهق الرجل . ان تقسيم العمل واضح تماماً ، لا يوجد تداخل في الوظائف الأسرية كالذي يوجد في المدن الكبرى . وهكذا لا يعيش الانسان هناك وهو جامد او كافر بحياته . بل ان الطفل عندما يكبر قليلاً يساعد الأسرة . الفتاة ترعى الأخوة الصغار . الولد يخرج مع ابيه بعد المدرسة ليتعلم اسرار عمل الوالد ، سواء أكان فلاحاً أم تاجراً أم غير ذلك . ولهذا فإن المرأة في المجتمع البسيط تعيش احلاماً واضحة ولذيذة . . تنضج ، تتزوج ، تنجب اطفالاً ترضي نفسها برعاية الطفل ورغاية الزوج .

اما الأم في المجتمع المتحضر فالطفل فيه قد يمنعها من الخروج من المنزل

في سهرة سيقضيها الزوج مع الأصدقاء ، او يمنعها من الخروج الى السوق ، او يحرمها من الاستمتاع بزيارة صديقاتها لها لأن الطفل وقت الزيارة قد يبدأ في فرض سلسلة من المتاعب . وهكذا تشعر المرأة بأنها وحيدة بل مسجونة في سجن اسمه الوحدة . إنها محاصرة طوال النهار . الصباح في العمل . بعد الظهر في المنزل لتنفيذ مطالب البيت وتنفيذ مطالب الطفل وقد تسأل المرأة نفسها او تسأل السماء « لماذا تم خلقي على هذه الصورة التي تبدو كصورة لآلة تدور كل يوم في مواعيد محددة ووظائف محددة ومسؤوليات لا تنتهي . . . » . .

واكبر ما يسبب للمرأة الألم هو احساسها بأنها لا ترفه عن نفسها . هذا الاحساس الذي يصيبها بالملل تماماً . انها لا تستطيع الحصول على مربية اطفال بسهولة . . . إنها لن تستطيع ان تصحب الطفل الوليد الى مجتمعات الكبار . إنها لن تستطيع اذن ان تخرج كما يحلو لها مع الزوج ، بعد انتهاء أوقات العمل . باختصار ، إنها لن تملك الحياة الاجتماعية . .

وكثيراً ما أسمع الأمهات وهن يؤكدن حبهن الصادق للأبناء وللزوج ، ولكنهن يؤكدن ايضاً ان هناك احساساً بالملل من فرض العزلة التي تنشأ عند انجاب طفل او اثنين .

قد يقول احدهم . . .

ـ اذن ما فائدة دور الحضانة ؟ ولماذا لا تعمل دور الحضانة كالمستشفيات ليلاً ونهاراً ؟ والأم التي تريد ان تخرج مع الزوج الى حفلة او سينما او مسرح يمكنها ترك الطفل في دار الحضانة . ان ذلك يبدو مشروعاً خيالياً قد يفكر فيه احد الناس لكنه لا يتحقق . ان دار الحضانة التي تعمل في الصباح ليست في أغلب الأحوال صالحة لاستقبال طفل واحد . ولا تتوافر فيها الشروط الجيدة الصحية والانسانية . بل ان في امريكا نفسها تحاول الأسرة كل يوم ان تعثر للابن على دار حضانة تسد اوجه النقص التي كانت في دار الحضانة السابقة وفي نظام المربية التي تجلس مع طفل لعدد محدود من الساعات لقاء أجر معين ، هذا النظام ان وجد في بعض البلاد قد يكون غير موجود في بعض البلاد الأخرى . .

هل معنى ذلك انه لا حل ؟ .
طبعاً لا . . ان هناك اكثر من حل .

مثلاً ، ان تتفق زوجات الحي على ان تقوم واحدة منهن برعاية عدد محدد من أطفال الحي لتخرج بقية الزوجات في نزهة ، على ان تقوم كل واحدة بدورها لمدة يوم في الأسبوع ، عندئذ ستجد المرأة وقت فراغ تصاحب فيه الكبار وترفه عن نفسها مع الزوج . . وتتخلص لمدة ساعات من عبء الاهتمام بالطفل .

الحل الثاني ولا بد ان تنفذه جميع الزوجات هو : ضرورة الخروج مع الطفل والأسرة في احد ايام الأسبوع الى الحدائق .

ان ذلك مفيد جداً بالنسبة للطفل ومفيد جداً بالنسبة للأم ويجعل الزوج ايضاً يخرج عن رتابة الحياة الاسبوعية . ان الأسرة بذلك تحطم الملل .

قد تقول احدى الزوجات « ان الموارد المالية لا تسمح بالخروج يوماً في الاسبوع » .

لكني ارى ان ميزانية أي اسرة يجب ان يخصص فيها بند للترفيه ، لأن الترفيه هو تجديد للنشاط واقبال جديد على الحياة .

اني اذكر انه في بداية الزواج حين كان اطفالي صغاراً ، كانت زوجتي تأخذهم كل عصر الى الحديقة الكبيرة بالمدينة ، وكانت تضرب لصديقاتها المواعيد في هذه الحديقة فيزول بذلك الاحساس بالملل .

وأنا أسأل دائماً هذا السؤال :

ـ ان المحلات الكبيرة انتشرت في كل مكان ، لماذا لا تفكر ادارة هذه المحلات في انشاء دور حضانة مؤقتة تضم ملاعب والعابا ومربية . . وعندئذ يمكن للأم ان تدخل المحل لتشتري حاجاتها وهي مطمئنة، ان طفلها يلهو ويلعب . .

باختصار ، ان أي مدينة كبيرة يمكن ان توفر لسكانها يوماً من المتعة والترفيه

عن طريق النوادي الموجودة بها . . وعلى الجمعيات النسـائية والهيئات الاجتماعية الأخرى تقع مسؤولية تنفيذ المشاريع التي تتيح للأسرة ان ترفه عن نفسـها .

ان الترفيه ضروري للأم حتى لا يخيم الحزن على قلبها ، وحتى لا تشعر انها محصـورة ضمن التزامـات تنفيذ وصـايا الحب المتفـاني للأبنـاء وانها تعاني من الاحسـاس بأنها معزولة وسط جزيرة من المسؤوليات . اقول ذلك بالنسبة للمرأة لأني واثق ان الرجل ايضاً يفكر في ذلك ويتمنى ان يحققه لنفسه ايضاً ، فلماذا لا نبدأ في التنفيذ فوراً . . .

كيف تعلم ابنك قواعد السلوك المهذب

بعض الآباء يظن ان الطريقة الوحيدة لتربية الأبن هي القسوة .

بعض الأمهات تظن ان الابن يجب ان ينفذ كل الأوامر حالما يسمعها .

ونفاجأ أحياناً بتمرد الأبناء .

ونفاجأ أيضاً في بعض الأحيان بأن الأب أو الأم يتركان للابناء الحبل على الغارب .

لا يوجهان لهم أي كلمة نقد ونجد تغيراً بسيطاً وقاتلاً على ألسنة الآباء والأمهات . التفسير هو ان قواعد التربية الحديثة تفرض أن نترك الحرية للابن !!

فوجئت ذات صباح بخطاب من سيدة تعترض فيه على ما جاء في بحث بأحد كتبي وكانت كلماتها تقول :

ـ لماذا تقلل من اهمية تعليم الابناء كيف يكونون مؤدبين ؟ إنني لـي رأياً يخالف رأيك تماماً . فأنا أرى ان اطفال هذه الأيام قد زاد تدليلهم بحيث اصبحوا فاسدين ويتصـرفون بـوقاحـة . ألا يهتم اباء هـذا النوع من الأطفـال بسـلوك ابنائهم . . ؟ هل يفرح هؤلاء الآباء لأن لهم ابناء يوجهون الاهانات للغير ؟ الا يلاحظ احدهم مقدار الألفاظ البذيئة التي يتفوه بها ابناؤهم ؟

انني أؤمن أنه نوع من الظلم يقع على الاطفال عندما ننسى نحن الآباء ان نزرع فيهم بذور الأخلاق القويمة . ولا بد للآباء ان يغرسوا في الأبناء الاحساس باحترام الغير » .

ولم تذكر كاتبة الرسالة من هي . ولم تذكر أي شيء عن بيئة الأطفال الذين وصفتهم في رسالتها بأنهم بلا أخلاق . وحاولت ان ارسم لها صورة في خيالي . لا بد انها جدة عجوز تلعن هذا الزمن كله بكل عاداته وتقاليده ، لأن احفادها يسببون لها الضيق وتوتر الأعصاب دائماً . وانها تحاول ان تقدم النصائح لوالدة هؤلاء الأطفال ، ولكن هذه الأم لا تفعل شيئاً أكثر من ان تقول لها . .

ان دكتور سبوك قال في كتابه كذا . .

احسست اني اما مخطىء دون ان ادري في كتابة أبحاثي عن تربية الأطفال ، وإما ان هذه الأم تحاول ان تضع قفلاً على شفتي حماتها ليس له مفتاح .

وعدت الى البحث الذي كتبته والذي حددته تلك الجدة في رسالتها . ووجدت ان البحث يبدأ بالجملة الآتية :

« ان تعليم الطفل ان يقول « كيف حالك » او « اشكرك » هو في الحقيقة آخر الخطوات اهمية » .

ووجدت البحث ينتهي بكلمة « طبعاً ليس هناك أي خطأ في ان يتعلم الطفل كيف يكون مؤدباً » . وكنت اقصد بالتحديد . . ان تعليم قواعد السلوك للابن يجب ان يتم وسط احساس الابن بالصداقة مع الأسرة . . وان التأديب سيتحول بذلك من واجب يجبر الطفل عليه الى احساس داخل الطفل بأنه حتى يكون صديقاً لنا فإن عليه ان يكون مؤدباً . ذلك لأني أرى ان إجبار الطفل على ان يتعلم أدب الجلوس على المائدة في عمر مبكر . . وادب التصرف في الحفلات وهو ما زال في سنته الثانية مثلاً ، أرى ان ذلك يجعل الطفل في حالة يكره معها السلوك الذي نجبره عليه ويتصرف احياناً عكس ما نريد .

إنني اوافق على أنني لم اشرح فكرتي جيداً في ذلك البحث الذي اشارت اليه السيدة صاحبة الرسالة ، على الرغم من وضوح الهدف تماماً فيما قلت . . . إلا انه يصعب على الانسان المتوتر من طفل شقي ان يفهم مقالاً عن تربية الأطفال تمام الفهم إلا اذا كانت الأفكار محددة تماماً . ولذلك فمن السهل اتهام كاتب المقال بأنه مخطىء ، أقول ذلك لأنني انا شخصياً أكاد افقد اعصابي من الغيظ عندما اجد نفسي وسط اطفال يملأون المكان شقاوة وعبثاً ثقيل الدم ، لأنه عبث خارج على قواعد السلوك . باختصار انهم اطفال غير مهذبين . . وهنا اجد رغبة عميقة في قلبي وهي ان أضرب هؤلاء الأطفال وان ألقي على آبائهم محاضرة في فن تأديب الطفل ، لأن الآباء الذين يتركون الحبل على الغارب لأطفالهم انما يسيئون الى هؤلاء الأطفال اذ على كل طفل ان يتعلم اداب السلوك وحسن التصرف مع والديه ولأن الأطفال عندما يتعلمون قواعد التصرف السليم فإنهم يستطيعون عندما يكبرون تقدير مشاعر الآخرين ، والمحافظة على كرامة الناس، والنجاح في كسب الأصدقاء ، والتوفيق في اختيار شريك الحياة المناسب ، وايجاد

الوظائف المناسبة والناجحة ، والتفوق على غيرهم في مجال العمل ، ويجعلون طعم الحياة مليئاً بالبهجة حولهم ، ويراهم الناس فيشعرون بالسعادة .

وأنا واثق ان كل الآباء يوافقون على هذا الرأي ولكن الموافقة على رأي ما مسألة سهلة جداً لا تكلف الإنسان شيئاً ، انها تكلفه كلمة « انا موافق على ان يكون ابني مؤدباً » . والكلمة طبعاً خلاف السلوك . ذلك ان كل انسان منا قد يختلف مع الآخرين عندما نناقش الاجابة على اسئلة من النوع الآتي :

أي نوع من الأخلاق الحسنة نعلمه للأبناء ؟

إلى أي حد يمكننا ان نسير في تعليم الابناء هذه الأخلاق الحسنة ؟ وما هي الوسائل التي نعلم بها ابناءنا قواعد السلوك السليم ؟

ان كلمات « اخلاق حسنة » و« سلوك سليم » تختلف تماماً من عصر الى عصر ، ومن مجتمع الى مجتمع ، لا أحد يشك في ذلك . ففي العصر الفيكتوري في انجلترا كان الطفل المهذب هو الذي يجلس مع اسرته على مائدة الطعام وهو صامت . كأن الصمت هو الصفة الأولى للطفل المؤدب . ولم يكن مطلوباً من الطفل الصمت وحسب ولكن مطلوب منه ايضاً ان يرى ما يحدث امامه دون ان يركز سمعه على أي كلام يقال امامه . باختصار ، مطلوب منه ان يلغي ما خلقه الله له من حاسة الكلام ويميت في أذنيه حاسة السمع . . ولكم ان تتخيلوا طفلاً لا ينطق ولا يسمع . . إنه دمية إذن ولها عينان .

إنني اشك كثيراً في ان احداً منا في القرن العشرين يرضى لابنه بذلك لأننا . . نرى ان ذلك ضار بالطفل . إننا نعرف الآن في القرن العشرين ان كلمات الطفل تسعدنا . . ومعظم الآباء يشتاقون الى سماع كلمات الطفل لما فيها من براءة وايجاز وتركيز وخفة دم . ان كلمات الأطفال هي منبع الفلسفة كما يقول اساتذة الفلسفة . . وهم يوضحون للطلبة اول الدروس في شرح معنى كلمة « فلسفة » . ونحن نشعر ان كلمات الطفل الأولى هي وسام من الحياة يدخل مباشرة وسط احتفال عاطفي غامر في قلب الأب والأم . . ونظل نفرح بأسئلة الأطفال التي نكتشف فيها ذكاء الطفل .

إننا نرى ان الحوار الودود مع طفل عذب وجميل ، يعطينا احساساً بالصداقة النقية والألفة التي تحطم احساسنا بالوحدة وتجعلنا نمشي وسط حديقة مزينة بآلاف الورود النضرة . ان الطفل بكلماته يكتشف العالم ويقبل عليه . وليس كالكبار . . ان الحديث مع الكبار لا يخلو ابداً من المجاملة ومن رتابة الحوار العادي عن الصحة والأحوال . . تلك الكلمات التي ماتت في قلوبنا لكنها ما زالت على ألسنتنا .

وما زلت اذكر مثلاً انني عندما كنت طالباً في الجامعة ، كنت ادعو اصدقائي وصديقاتي الى منزلنا لنحتفل ونبتهج بأي مناسبة وكانت امي تنزعج جداً من أسلوب حوارنا نحن الشباب . . كنا ننادي بعضنا بعضاً بالاسم الأول لكل واحد منا ، وكانت امي تضرب كفاً بكف على « هوان الأخلاق وضياعها في هذا الزمان » . . وتظل تردد كلمات الاعجاب بعصرها ، عندما كان الشباب ينادي اقرب صديق له بكلمة « يا سيد فلان » او « يا آنسة فلانة » ، ولا يسقط هذا الحاجز إلا بعد عشرة طويلة . . وكنت الحظ في عيونها اعجاباً خفياً بسعادة أي فتاة في عصرها عندما تسمع شاباً يقول لها « يا آنسة فلانة » . وكنت اقول لها ان « العصر يختلف » وان الجيل السابق كان يصر على وضع حواجز بين كل فرد واصدقائه ، في عصرنا فكل انسان يشكو من كثرة الحواجز والموانع حوله . ولذلك فهو يرحب بتحطيم اصدقائه هذا الاحساس بالوحدة وبخروجه من سجن الحواجز بالكلمة الحنون . لكن امي ترى ان ذلك عيب . . تماماً كما ترى ان الفتاة التي تضع المساحيق واحمر الشفاه قبل الزفاف فتاة غير مهذبة . . ولكن البنات في هذا العصر حطمن هذا التقليد القديم ولم تسقط السماء على الأرض ولا امتنع القمر عن الظهور او كفت الشمس عن الشروق كل صباح . وعلى ذلك فعلينا ان نعرف ان السلوك الحسن « يختلف من مدينة الى اخرى . ابن الريف في فرنسا يذهل عندما يرى باريس . . فتاة الريف الفرنسية المتدينة تكاد تصعق بمشاهد الحب التي يتبادلها الشباب والبنات على نواصي الشوارع في باريس . والأوروبي عندما يعبر الأطلنطي الى امريكا سيجد ما يزعجه من عدم تمسك الأطفال بآداب التربية المهذبة . . سيشعر الأوروبي انه طفل لا يحبس نفسه في

اطار الرسميات بل يحاول ان يملأ الدنيا المرح والجرأة . وقد يجد الأوروبي ان الطفل الأمريكي وقح لأنه يضع ساقاً على اخرى امام والديه وتكون اقدامه في وجه من يجلس امامه . والأمريكي ايضاً قد يجد في الأوروبي ما يمكن ان نسميه عيباً خطيراً . . . فالأوروبي يمضغ الطعام بصوت مرتفع ويضع الطعام على ظهر الشوكة بالسكين ، وهكذا نجد ان ابناء الحضارة الواحدة وهي الحضارة الغربية يأخذ بعضهم على البعض الآخر الاخطاء في التربية . . »

اما الخلافات بين وجهات نظر ابناء البلد للأخلاق الحسنة والسلوك السليم فهي موجودة ايضاً ولنأخذ بعض المجتمعات الارستقراطية في بعض مدن امريكا . البنت في هذا المجتمع يجب ان تتعلم تحية الآخرين باحناء الرأس قليلاً وخصوصاً عندما تحيي اصدقاء ابيها ، وهذا يجعل اصدقاء الأب يشعرون ان صديقهم قد احسن تأديب ابنته . ولكن لو استعملت البنت المشط او المرآة امام اصدقاء الأسرة فهذا خطأ كبير ، لأن مكان استعمال المشط هو الحجرة الخاصة اما بالنسبة للشاب فلا عيب عليه ان استعمل المشط امام الآخرين او حتى ان يقص اظافره في حضور الآخرين . . هكذا نجد ان بعض المسائل الصغيرة تختلف من مدينة الى اخرى . لأن البنت في بعض المدن الامريكية يجب ان تصافح اصدقاء أبيها ويعتبر من الخطأ الفاحش لو استعمل الابن المشط في تسريح شعره امام الآخرين .

مثال آخر . . هناك عادة ارستقراطية في جميع بلدان العالم وهي ان يغطي الانسان بيده الفارغة تلك اليد الأخرى التي تمسك بعود الخشب الرفيع ، الذي ينظف به أسنانه بعد الأكل . لكن احياناً ننسى انفسنا ولا نغطي اصابعنا التي تمسك بعود الخشب الصغير الذي ننظف به اسناننا ، هنا سنجد أكثر من احتجاج ، هنا سنجد من يقول ان بيته متخلفة . هنا قد نشك في اننا سنحصل على الاحترام الكامل ممن يلاحظ تلك الهفوة البسيطة في « قواعد السلوك » .

لكن علينا ان نتذكر حقيقة هامة ، هي اننا لا نشكو من سوء تصرف أي شخص اجتماعياً إلا اذا كنا « لا نحب » هذا الشخص . . إننا ننظر اليه بعيون مفتوحة كعيون الصياد الذي يترصّد فريسة ، نلتقط أي خطأ في سلوكه لنفضحه

وقد ننسى نفس السلوك الذي يسلك إنسان نحبه ونشعر بالألفة معه . انا شخصياً أشعر بذلك في اعماقي رغم تقدمي بالعمر، ورغم انني التقي بفئات كثيرة من البشر ، ورغم انني اؤمن في صميمي بأن لكل انسان هفوات ، رغم كل ذلك أشعر بالنفور من شخص ما ، وانزعج من أي صوت عال يحدثه بفمه وهو يمضغ الطعام مثلاً . ولهذا فأنا اشك ان أي انسان يستطيع ان يضع لائحة محددة من بنود محدودة يجب على كل انسان ان يراعيها وان يتصرف حسب قواعدها ليكون « مؤدباً » في نظر الآخرين، وليس ذلك دعوة مني للاخلال بالقواعد المألوفة للسلوك الطيب المحبوب . . ولكنه دعوة لعدم « المخالفة » . . لأن الانسان آخر الأمر انسان وليس آلة الكترونية تنفذ الأوامر وليس الهاً منزهاً عن الخطأ .

نعود مرة اخرى الى الطفل الذي نتمنى نحن ان ننشئه على العادات والآداب التي نراها مناسبة . علينا ان نتذكر ان الطفل عندما يكون في الشهر الثالث من عمره يكاد يسحرنا بابتسامته . إنه يبدو كمخلوق لطيف ووديع ورقيق ونكاد نصفه بالذكاء ونظل نتنبأ له بالمستقبل الرائع . كل ذلك لأنه يسحرنا نحن الكبار بابتسامة مبتهجة ويمنح هذه الابتسامة لأي انسان آخر ، سواء كان هذا الانسان صغيراً أم كبيراً مؤدباً أم عير مؤدب ، شرساً او طيباً ، من اهله او من غيرهم ، جميل الملامح او قليل الحظ من الجمال . ان ابتسامة الطفل هدية مجانية يقدمها لكل من يراه . وهناك طبيب نفسي مشهور هو د. رينيه سبيتز قرر ان يدرس ابتسامة الطفل الرضيع . هذا الكائن الذي يفتح فمه باتساع وسرور ويكاد يضحك بصوت عال حتى لو كان من امامه يرتدي قناعاً من اقنعة الحفلات التنكرية . وخرج بنتيجة تقول « ان الانسان يولد بنزعة فطرية تفضل ان تبادل الآخرين الحب لا ان تبادلهم الكراهية . وان احساس الكراهية دخيل على النفس البشرية . وان لا بد للطفل من ان يتعلم الكره حتى يعرف الكراهية . . لكنه لو نشأ في بيئة لا تعرف الكراهية فإنه لن يكره ابداً . وهكذا نكتشف ان الطفل عندما يبلغ الشهر الخامس او السادس يبدأ في الضجر والملل والضيق عندما يقترب منه الغرباء ولا يرضى ان يلمسه احد .

هذا الاحساس هو بداية تحديد العالم الذي يحبه وهو اسرته . وهو يخص امه بأكبر قدر من الحب انها مانحة الطعام والحنان معاً . وعندما يحاول ضيف ان يلمس الطفل فإنه يصرخ رغبة في الهرب ولن يمنح طفل ما اي غريب أي ابتسامة ما لم يألفه . ويستمر هذا الخوف او الرغبة في الابتعاد عن الآخرين اوحتى الخجل منهم حتى سن الثانية او الثالثة . . ولكن يجب الا ننسى ان كل هذه المظاهر تنطوي على رغبة في الحب . كيف ذلك ؟

لا بد ان نشرح :

ان الطفل عندما يبلغ عامه الأول يصرخ في أي وجه غريب ، ولكنه يقبل على نفس هذا الشخص إن هو قدم إليه لعبة أو أي شيء يثير اهتمامه ، ويعود الطفل مرة اخرى في ارجاع اللعبة الى هذا الشخص . . وهذا تعبير عن الود الذي يستطيعه الطفل في تلك السن .

ومن الواضح ان الطفل عندما يبلغ العام الثاني يكون اكثر قدرة على اقامة الصداقة مع الآخرين . وتزداد هذه القدرة عندما يبلغ الطفل عامه الثالث ، بل ويصبح الطفل شجاعاً الى حد يفوق شجاعة الكبار عندما يبلغ الرابعة من العمر .

ولذلك فأنا أقول انه يجب على الآباء ان لا يجبروا الطفل في سن الثانية او الثالثة على تعلم اداب المائدة لأن ذلك ينبه الطفل الى نقائصه ويجعله يخجل بسرعة من هذه النقائص . وبالتالي فهو ينظر الى الآخرين بارتياب . وعندما ارفض ان يعلم الآباء أبناءهم وسائل المجاملة التقليدية للضيوف انما اقصد بذلك ان اترك للطفل فرصة الاستمتاع هو بالتعرف بالناس . . بدلاً من ان ارسم له او ترسم له طريقاً محدوداً . ان الطفل في سن الثالثة او الرابعة يريد ان يأخذ فرصة كاملة ليصاحب الناس بطريقته الخاصة . . وعلينا ان نعرف جيداً الحقيقة التي تقول « ان الطفل في سن الثالثة او الرابعة او الخامسة عندما ينشأ في اسرة سعيدة سعادة عادية بمعنى انه يرى قدراً كافياً من التعاطف بين الأب والأم ويشعر بأمان معهما ، هذا الطفل يمتلىء بحب العالم كالطفل الذي عمره ثلاثة شهور ، انه طفل يحب

الأطفال الصغار ويحب الكبار ايضاً . ويسهل عليه تماماً ان يرتبط بصداقات متعددة .

وأهم من كل ذلك ما يلي :

ـ ان الطفل يتميز في هذا العمر بدرجة من التقليد الشديد لأي انسان يعجب به وهو يحاول بكل ما في طاقاته ان يقلد من يحبه في طريقة تناول الأكل ، وان يقلد نفس نبرات الصوت ونفس الكلمات بل تكون له نفس الهوايات التي لوالديه او للآخرين الكبار الذين يحبهم ، وان ذلك يستمر معه طول العمر في بعض الأحيان . ان ميول الطفل واتجاهاته تتحدد بمن يحبهم في هذه الفترة من العمر . فالمعاملة الرقيقة التي يعامل بها الطفل الجنس الآخر عندما يكبر ، هذه المعاملة يكتسبها من معاملة ابيه لأمه ، وكذلك لطفله . ان درجة استمتاع الطفل عندما يكون شاباً ومنافسته لزملائه من الشبان بل ومشاعره الأساسية نحو الجنس الآخر وتحقيق مكانته التي يرجوها لنفسه ، كل ذلك اساسه المثال الأول وهو الأبوان .

ان الطفل قرد صغير . . يختلف عن القرد بقدر الذكاء الكبير الممنوح للانسان . . لذلك فهو يمسك بأدوات المائدة بالطريقة التي يمسك بها والداه تلك الأدوات وينطق اللغة بنفس الطريقة واللهجة ، وعلى هذا فالأوامر لا تنفع في تعليم الطفل ، إنما الذي يعلم الطفل هو ان يتصرف امامه الكبار بالطريقة التي يحبون هم ان يتصرف الطفل بها ، دون ان يتكلموا أمامه عن طريقة التصرفات التي يطلبونها منه . ان الطفل يحبهم هذه حقيقة .

ان الطفل يقلدهم هذا هو الواقع .

لماذا اذن نغرق الطفل في الأوامر ؟ . . هذا هو السؤال الذي لا اجابة عنه سوى اننا نتصرف امام الطفل بطريقة غير التي نطالبه ان يتصرف بها . . ومعنى هذا ان الوالدين لن يستطيعا ان يعلما الطفل أي شيء لا يقومان به بأنفسهما ولا يشعران به في اعماقهما . وقد يفهم احد من حديثي هذا انني متحمس غاية الحماس لتأكيد فكرة ان الطفل يأخذ من ابيه وامه المثل الأعلى . هذا صحيح .

وصحيح ايضاً ان الطفل يتعلم من المجتمع الذي حوله . وصحيح جداً ان الطفل لا يستطيع ان ينفذ امراً لا يرى الكبار يطبقونه على انفسهم . . واكرر مرة اخرى الطفل كائن مقلد .

ان الطفل يحتاج الى التوجيه والتصحيح عندما يخرج عن اطار المألوف ، ولكن لا بد ان يتم ذلك بهدوء ودون اشعار الطفل بأنه ارتكب خطأ جسيماً .

إن ذلك هو بداية الطريق الى اقناع الطفل بحقيقة مجهولة لديه تماماً ، وهي انه عضو في مجتمع . ان الطفل يغرق حتى اذنيه في رعاية أبيه وامه ولا يتذكر تلك الحقيقة الهامة : اعني انه عضو في مجتمع .

ولكي يتأكد لديك ايها القارىء ان الطفل لا يعرف ذلك ، عليك ان تتذكر أي مشهد يضم طفلين في الثانية من العمر يلتقيان لأول مرة ستجد ان كليهما يقترب من الآخر . سيتوقف كل منهما عن التقدم عندما يكتشف ان المسافة بينهما اصبحت ثلاثين سنتيمتراً فقط . سيحملق كل منهما في الآخر . وستبدو على ملامح كل منهما درجة كبيرة من الجدية والصمت والاحترام ولكن بدون أي ترحيب اجتماعي . ثم يتنبه كلاهما الى نفسه . اما بالنسبة لطفل في سن الرابعة او السادسة او حتى الثامنة فإن كل طفل ينظر الى الآخر بنوع من الفضول . وهو يفتح فمه كدليل على الدهشة عندما تتقدم امه نحو أي شخص لتحييه ويبقى مندهشاً الى ان تنبهه الأم الى ان يحيي هذا الشخص . قد يسأل احد الآن : متى اذن نبدأ في تعليم الطفل اداب السلوك الاجتماعي ؟

ونقول :

ـ ان الأمر يتوقف على قدرتنا نحن الكبار على ان نجعل الطفل لا يخجل . ومدى سلوكنا نحن لأن الطفل يقلدنا . فالأب الذي لا يهتم بالرسميات قد يكتفي بأن يحيي ابنه الآخرين بكلمة واحدة فيها ود الطفولة البريء . لكن هناك اباً آخر يصر على ان يخضع للرسميات وبالتالي يصر على ان يقول الابن نفس الكلمات التي تعارف عليها الناس للتحية ، مع ضرورة ان يصافح الطفل الآخرين باليد .

ان الكبار هم الذين يضعون البذور الأساسية لسلوك الطفل . . بمعنى ان الآباء يفرضون السلوك الطبيعي او المصطنع أي وفق قواعد المعاشرة . . إنني اقول ان من حق كل اب ان يعلم ابنه ما يريد بشرط واحد هو ان يكون الأب ذكياً ولبناً ومقنعاً للابن وان يتفادى احراج ابنه او دفعه الى وحول الخجل امام الآخرين . ان ذلك شيء صعب على الأب الذي يشعر انه مليء بالنقائص . لذلك نجد الأب المليء بالنقائص والعيوب وعدم الثقة بالنفس . . نجد مثل هذا الأب يشعر بالخجل فور ان يظهر ابنه أي خطأ . . وبالتالي يؤنب الطفل بمنتهى القسوة وقد يهدده بالعقاب وذلك حتى يبدو الأب امام الغرباء كأنه يعرف الأصول . لمثل هذا الأب نقول : ان الغرباء يعرفون انك تعرف الأصول لكنك لا تطبقها في حياتك . وانت تريد من ابنك ان « يمثل » دوراً في مسرحية اسمها احترام الآخرين . . وليس المطلوب هو ان « يمثل » الطفل هذا الدور . . إنما المطلوب ان يقتنع بما يفعل . والطفل لا يقتنع بالعصبية والتوتر .

وعلى ذكر العصبية والتوتر نذكر المشهد الذي يتكرر كثيراً عندما يتدخل الطفل في حوار الكبار وكثيراً ما يكون عند الأسرة ضيوف ويكون هناك حوار بين الآباء وبين هؤلاء الضيوف . وفجأة يبدأ الطفل في قطع الحديث الدائر ليروي بعض اسرار الأسرة . . كاختلاف الأب والأم في شأن النفقات او مشاجرتهما بسبب تأخر الأم في منزل والديها اكثر مما ينبغي . ان الحرج يملأ الأب والأم ويبدآن في مقاطعة الطفل الصغير وتوجيه اللوم له رغم ان الخطأ ليس خطأه انه بريء ويريد ان يشترك في أي حوار فيقول بعض ما يعرف . . وعندما يزجره الأب او الأم فإنه يعرف احدى الوسائل التي تضايقهما ويجيد استعمالها في الوقت المناسب . إنني اعرف اسرة ظلت تشكو من ابنتها لأنها تنقل اسرار البيت واستدعى الأمر علاج هذه الطفلة نفسياً وقالت للطبيب النفسي :

- انني اعرف ان ذلك يؤلم أبي ويجرح امي وهما يستحقان اللوم وجرح المشاعر لأنهما كثيراً ما يجرحان مشاعري ويفضلان بقية اخوتي علي . .

ان هذه الطفلة بدأت في كشف بعض الأسرار دون ان تقصد ، ولكن العقاب المستمر لها هو الذي جولها الى استغلال هذا الضعف في أسرتها لتعاقب به

الأبوين . وأريد ان اقول انه ليس كل طفل مزعج هو ابن لأسرة لا تعرف الأدب او الأخلاق الحسنة . إنني اعترف ان هناك عدداً من الأطفال يتميزون بسوء الأدب . ويبدو من ظواهر الأمور ان عدد هؤلاء الأطفال كبير ، لكن الحقيقة انهم قلة قليلة جداً . والحقيقة ايضاً ان اباءهم يرغبون في تأديب هؤلاء الأبناء ولكنهم لا يعرفون السبيل الى ذلك . وفي ذهني الآن صورة هؤلاء الأطفال الذين يجلسون إلى مائدة الطعام بعد ان يبدأ الجميع في تناول الطعام ويتركون مائدة الطعام دون ان يعتذروا . . ثم هؤلاء الأطفال الذين يشاطرون الوالدين أحاديثهما بانتظام واصرار ولا يهتمون لوجود الزوار ويبدأون جولة من الالحاح لتنفيذ مطالبهم فور حضور أي ضيف الى المنزل . وهؤلاء يمكن علاجهم بالتنبيه البسيط ومن خلال رحلة صداقة مع الابن . .

وهناك الصنف المزعج من الأطفال الذين يتعمدون الوقاحة في الرد على الوالدين ويتلفظون بألفاظ وقحة مثل « كلب » و« حمار » و« ابن كلب » وهكذا .

من المؤكد ان بعض هؤلاء الأطفال يسمعون هذه الألفاظ من ابائهم لكن البعض الآخر من هؤلاء الأطفال ينتمون ايضاً لآباء يقدرون مشاعر الآخرين . وهنا يجب البحث الجاد عن الأسباب . . وأفضل مكان للبحث يجب ان يتجه اليه الآباء هو العيادات النفسية ومكاتب ارشاد الأسرة لتوجيه الأبناء اذا زاد الأمر عن الحد المعقول .

لكن لماذا لا نشير الى احدى العبارات التي لعبت دور المجرم في حق الأخلاق والمشاعر الانسانية خلال النصف الأخير من القرن ؟

انها العبارة التي تقول « عبر عن نفسك دون كبت » . . لقد انتشرت هذه كالشرارة ولست أدري هل أيد علماء فن التربية وعلم النفس هذه العبارة ام لا ؟ إنني واثق من ان احداً من أهل العلم لا يمكن ان يؤيد هذه العبارة . . إنما قال العلماء « عبر عن نفسك دون كبت وبانضباط » . والمقصود بالانضباط هو عدم الخروج على الطبيعة البشرية . . ومراعاة مشاعر الآخرين . أنا لا أنكر ان كثيراً من أساليب التربية المتعددة قد سببت الارتباك والحيرة لبعض الأسر ولكن هذا لا

يمنع ان كل اساليب التربية اشارت الى ضرورة التوجيه الحازم لمنع الطفل من ان يكون مضراً لنفسه او للآخرين . وكل مدارس التربية متفقة على ضرورة عدم القسوة على الطفل . وأجمعت كل مدارس التربية ايضاً على ضرورة عدم الافراط في التدليل .

إن الأطفال يتقبلون « التوجيه الحازم النابع من الحب العميق » . . ان الاطفال في معظم الأحوال يفرحون لأن الوالد قد وضع حداً لوقاحتهم . وعلينا ان نعرف ان الطفل الوقح طفل غير سعيد وقلق لأنه ينتظر في اعماقه من يوقفه عند حده .

ان هذا الزمان الذي نعيش فيه يرفع شعارات التحرر من الماضي إلاّ أن التحرر من الماضي لا يعني قط اطلاق العنان لنزعات شريرة تفسد احساس الطفل بطفولته . ولا اعتقد ان هناك عالماً واحداً من علماء التربية يعترض على الحقيقة التي تقول « ان الطفل يحتاج الى الحرية ليعرف انه مسؤول وان الطفل يحتاج الى الحب الذي يحميه من نفسه ويحمي الآخرين من شروره » .

ألستم معي في ذلك ؟

الطفل يساعد الأسرة في الأعمال المنزلية

احياناً تشكو الأم من ان ابنتها ترفض القيام بأي مشاركة لها في اعمال المنزل .

احياناً تشكو الأم من ان الابن يرفض كلياً شراء ما تريده الأم من أشياء .

احياناً يقف الأب مندهشاً ، لأن الابن لا يريد ان يتحمل مسؤولية المشاركة البسيطة في أعمال البيت .

وتصبح مشكلة .

لكن . . . لماذا لا نبدأ نحن الآباء والأمهات في تعليم الأطفال كيف يساعدوننا في اعمال المنزل . . لأننا نعيش في عصر تذوب فيه فكرة الخادم او الانسان الذي يقوم نيابة عن كل الأسرة بكل عمل في المنزل ؟ .

وليس المهم هو عدد الأعمال التي نسندها الى الطفل . . ولكن من المهم ان يشعر بأنه ملتزم ومسؤول عن مشاركة الأسرة في ترتيب أمور الحياة داخل المنزل .

ما زلت اذكر تلك الحكاية . .

قالت لي زوجتي بعد الزفاف مباشرة وبصوت فيه الكثير من الخجل :

ـ أنا لا اعرف مسؤولية الدخول الى المطبخ . واخشى ان تظل تـطلق ضحكات السخرية كلما قدمت لك طبقاً من الطعام صنعته بنفسي .

وبالفعل احسست انني في ورطة . .

ان مرتبي لا يسمح لي بأن استأجر طباخاً . وكنت اعرف ان دخلي كطبيب ناشيء لا يسمح على الاطلاق بأن اتناول انا وزوجتي طعام الغداء والعشاء في مطعم .

وقلت لزوجتي .

ـ لا يهم . سنشتري كتاباً في فن الطهو . وستسألين والدتك عن الأطعمة التي تجيد هي اعدادها .

وكتمت زوجتي ضحكة خجل اخرى .

ولما سألتها عن سر هذه الضحكة . . قالت :

ـ كثيراً ما رفضت ان ادخل مع والدتي الى المطبخ . كنت أقول لها دائماً ان زوجي سيستأجر لي طباخاً .

وعندما اطلعتها على أرقام دخلي ، كان ذلك كفيلاً باقتناعها بأن تتنازل عن هذه الكبرياء الكاذبة ، وانه لا مفر امامها من ان تسأل والدتها .

وأعترف . . ان زوجتي اصبحت الآن « طباخة » ماهرة .

وكثير من الأزواج ينظرون بعيون فيها ألم وندم وعتاب الى الحماة لأنها مسؤولة بشكل او بآخر عن عدم تعليم ابنتها فن الطبخ ،وكثير من الأزواج يتندرون في أيام الزواج الأولى على أسلوب وطريقة اعداد الزوجة للطعام . إنها لا تعرف كيف تطبخ .

وكثيرات هن الزوجات اللواتي نجد في عيونهن نظرة اسى لأن الزوج غير

مرتب ، فوضوي . . يخلع « سترة » البدلة في مكان ويلقي بأوراقه الهامة في مكان آخر وينسى ان يعلق ملابسه على المشجب ، وينسى ترتيب اوراقه او المكان الذي وضع فيه حمّالة مفاتيحه ويبدأ كل صباح في رحلة من الأسئلة عن أماكن الملابس وعن مكان ، حمّالة المفاتيح او أوراقه الهامة .

ليس هذا فقط . . . ولكن هناك خلافات كثيرة تنشأ نتيجة عدم قدرة احد الزوجين على القيام بمسؤوليته الصغيرة نحو نفسه كعضو في اسرة تستأجر بيتاً ، وكل طرف فيه يعتمد على الطرف الآخر . الزوج يعتمد على الزوجة في ترتيب المنزل ، والزوجة تعتمد على الزوج في ان يعتني بنفسه وبملابسه على الأقل .

وهكذا نجد ان البيت لا يصبح عشاً للزوجية السعيدة . . إنما هو مكان يعجّ بالفوضى والاهمال والأسى ايضاً .

من هنا نستطيع ان نقول ان هناك اختلافات كثيرة في بعض الأسر بخصوص الأعمال المنزلية وكيف يمكن ان نقسم العمل داخل الأسرة ؟

ان بعض الأسر تؤمن بأنه ينبغي ان يكون لكل فرد فيها دور يقوم به ، لأن الزمن تقدم واصبح الأب مشغولاً والأم مشغولة ، ولا بد ان يساعدهم الأبناء في القيام ببعض واجبات الأسرة . . ولكن هناك بعضاً من الأسر التي لا يؤمن فيها الأب او الأم بأن يقوم الطفل بالمشاركة في اعمال البيت . ان الأب لا يثق بقدرة ابنه على ان يشتري شيئاً من السوق ، والأم لا تطمئن الى غسيل ابنتها للاطباق الصينية . وعندما يسند الأب الى ابنه مهمة شراء شيء ، ولا يوفق الابن ، فإن الغيظ يملأ قلب الأب ويقول « خائب منذ خُلقت . . لا تعرف كيف تدبر حياتك » . وعندما لا توفق الأبنة في غسيل الأطباق او تكسر احدها ، فإن الأم تصرخ « كيف ستديرين بيتك ؟ لا شك أن زوجك مغضوب عليه ليتزوج من مهملة مثلك » . . وهكذا يكفر الآباء والأمهات بقدرة الابن او البنت على المساعدة في اعمال المنزل وتكون النتيجة ان يعيش الابن او الابنة معزولين تماماً عن المشاركة في اعمال الأسرة . وهناك بعض الآباء والأمهات الذين يتذكرون الأيام الخوالي ، عندما كانوا اطفالاً ، وكان اباؤهم يرهقونهم بالعمل في المنزل .

وهؤلاء الآباء والأمهات يقولون كيف أرهق أبنائي بالعمل طوال الوقت كما حدث لي ؟ ان الانسان لا يعيش طفلاً إلا مرة واحدة . ولهذا يجب ان يتمتع الطفل بحياته كما يرغب » .

ولكن ، ليس هذا هو الرأي الصواب . ان الكل يتمنى ان يعثر على اجابة مناسبة عن الأعمال التي يمكن ان توكل الى الأبناء . . وفي أي عمر يمكن ان يشارك الطفل في عمل المنزل . . وهل يجب ان تدفع له الأسرة اجراً على ذلك ؟ وهل يمكن ان تتسامح مع الطفل عندما يهمل في اداء واجبه في العمل الذي عهدنا اليه به ؟ .

باديء ذي بدء أقول يجب على الأب ان لا يهمل مطلقاً مشاركة ابنه في المساعدة في بعض اعمال البيت لأن هذا يجعل الطفل مهملاً في بقية المسائل ، مثل اهمال التمسك بالأدب والمجاملات الاجتماعية وتقدير ظروف الآخرين ، وهذا يخلق لنا ابناء انانيين ومزعجين ليس لنا فقط ، ولكن للجيران ايضاً وفي المدرسة . ويجعلهم عندما يكبرون يرغبون في الاعتماد على غيرهم . إنهم يتوقعون مثلاً ان يقوم انسان آخر بعملهم في وظائفهم . وعندما يتزوجون فإنهم يتوقعون ان يقوم شريك الحياة بكل مسؤوليات الأسرة . وهكذا نجد ان الفشل يلاحق هذه الفئة من الابناء ، لأنهم عندما يكبرون لا يعرفون الا رؤية العيوب في كل من يشاركهم الحياة . يبحثون عن عيوب الزوج او الزوجة وكذلك عن عيوب زميل العمل . . يسرعون في البحث عن « مشجب » يعلقون عليه مسؤولية أي فشل في حياتهم ، لا يعتبرون انفسهم ابداً مصدراً لأي فشل ، رغم ان الحقيقة هي انهم مصدر الفشل ، ولذلك فأنا أرى أنه من الخطر البالغ على شخصية الطفل ان نمنعه من العمل بدعوى اننا نحن الآباء والأمهات أكثر قدرة على انجاز هذا العمل بصورة أسرع وأكثر مهارة . .

إننا جميعاً نعرف ان الطفل يرغب في ان يساعد اسرته . يرغب في ان يساعد نفسه . يفرح عندما يعرف كيف يملأ لنفسه كوب الماء . ويفرح عندما يعرف كيف يرتدي ملابسه وحده . ويمتلء بالاغتباط عندما تسند اليه الأسرة

للمرة الأولى شراء شيء من السوق . وكل مدرسة او مشرفة في مدارس الحضانة او المدارس الابتدائية تعرف ان الأطفال يظهرون رغبة في مساعدتها، إن هذا الاحساس لن يزداد في النمو إلا عندما تنهيأ لهم الفرصة لمساعدة الآخرين . وعلى هذا فإن المدرسة تطلب المساعدة من الأطفال . وهكذا يجب ان نعرف نحن الآباء اننا مسؤولون عن غرس الاحساس بالمسؤولية في الأطفال ، ومسؤولون عن تشجيع رغباتهم الأولى في مساعداتنا . ولكن لست اريد ان يظن احد اننا يجب ان نجعل همنا الوحيد في محاصرة الابناء بالواجبات المنزلية والزامهم بعدد ساعات معينة من العمل اليومي في خدمة البيت ورعاية أمور الأسرة . . ان هذا ايضاً خطأ . أما الصواب فهو ان نطلب من الأطفال مساعدتنا بروح طيبة ومليئة بالتشجيع ، وبذلك نجعل الطفل يساعدنا في اعمال البيت والفرحة الدائمة تملأ قلبه ، ونجعله يقبل على مساعدتنا وهو واثق من نفسه ومن تقديرنا له . إن أي اب أو أي أم ينجبان طفلاً ويعرفان كيف يتعاملان معه، يكوّنان أسرة تعرف أنها لا تستمتع وتغتبط بابنها فقط ، لكنها اسرة تعرف ايضاً الحقيقة التي تقول انه لن يكون انساناً سعيداً في المستقبل البعيد ، ما لم تعلمه كيف يتعامل مع الآخرين ويتحمل المسؤولية واحترام الواجبات . والأمر يختلف من اسرة الى اخرى ، ويتوقف على ظروف الأسرة وتقاليدها . فالأسرة ذات الثراء التي تعلم كل افرادها تعليماً عالياً تستأجر في العادة خادماً يقوم بمعظم الأعمال المنزلية ، ولهذا فالابنة التي تنشأ في مثل هذه الأسرة تكتفي بالمذاكرة وتطالبها الأسرة بالتفوق ، ولكن يجب ان تطالبها ايضاً بالمحافظة على نظام حجرتها وان ترتب هي هذه الحجرة نفسها . ولكن في الأسرة المتوسطة التي لا تستطيع استئجار خادمة . . إلا لمدة يوم واحد في الأسبوع . . . ينبغي للأبنة ان تساعد الوالدة في غسل الأطباق وترتيب المنزل وتنظيفه .

والابن الذي يخطو نحو سن الشباب عليه ان يساعد الأم ايضاً ، وان يشتري ما تطلبه من السوق، ويساعد الأب في ترتيب شؤون الأسرة .

إن مساعدة الطفل لأسرته يمكن ان تبدأ من سن السادسة وذلك بأن يتعلم كيف يرتب فراشه ويغسل الطبق الذي يتناول فيه طعامه . . ولا داعي ابداً لتلك

السخرية الغبية التي تقارن بين عمل الذكور وعمل الاناث . ان البعض احياناً يقول « هذا عمل غير مناسب للصبي ومناسب للبنت » . ان هذا القول يدفع الصبي الى الكسل والترفع عن بعض الأعمال التي يجب ان يساعد بها الأسرة .

قد يقول البعض . . لماذا لا تعطينا فكرة واضحة عن الأعمال التي يستطيع الطفل القيام بها في مختلف مراحل العمر . . ؟

إنه بقليل من الملاحظة نعرف الاجابة عن هذا السؤال . الطفل الذي يبلغ الثالثة من العمر يستطيع ان يضع « المناديل » بجانب الأطباق اثناء اعداد المائدة للطعام . . ويستطيع ان يناول أمه قطع غيار ملابس اخيه الرضيع عندما تقوم الأم بتغيير ملابس ذلك الطفل . والطفل في هذا العمر يستطيع ايضاً ان يقوم بجمع لعبه التي يبعثرها هنا او هناك . . ويضع هذه اللعب في المكان المخصص لها . وليس معنى ذلك ان نجبر الطفل على ترتيب اشياء الأسرة بمفرده ، ان ذلك طبعاً فوق طاقة الطفل ، لأنه لا يملك الصبر اللازم لتلك العملية . . والطفل الذي يبلغ العاشرة من العمر يستطيع القيام بترتيب كل حجرات المنزل بمعاونة الأم والأب . ان كل ذلك العمل يمكن ان ينتهي في ساعة واحدة من الزمن .

قد يقول احد الآباء انا أشك في قدرة الطفل على معاونة الأسرة . . إنه طفلي . . لا يستطيع ان يتذكر او يحل واجبه بمفرده . . فكيف يمكن ان أحمله بعض مسؤوليات العمل في المنزل . .

إن مثل هذا القول ينافي الحقيقة . . لأننا اذا عودنا الطفل على تحمل مسؤولية بعض الأعمال المنزلية سيعرف بالتأكيد كيف يقوم بواجبه الرئيسي وهو الدرس وحل الواجب المدرسي . إن غرس الاحساس بالمسؤولية في اعماق الطفل ينبغي ان تبدأ منذ العام الثالث وبالتشجيع وليس بالارهاب والقهر .

لكن . . هل نحدد اجراً للطفل جزاء قيامه بجزء من اعمال المنزل ؟

ان الأمر طبعاً يختلف من اسرة الى اخرى . . وذلك حسب الامكانات المادية لكل اسرة ويمكن طبعاً تخصيص جزء من دخل الأسرة لهذا البند . ويمكن

ان يشجع هذا الطفل على كسب بعض المال . . ثم نوع العمل نفسه الذي يقوم به وهل هو مسل له أم لا . . . ان الطفل عندما يعرف انه سينال اجراً بعد ان يتم عملاً ما فإن ذلك يشكل حافزاً له كما هو حافز بالنسبة للكبار ايضاً . ولكن هل معنى ذلك ان نعطي الطفل « نقوداً » كلما قام بأي عمل بحيث تصبح على لسانه كلمة كم ستدفع لي ؟ إنني اثق في أننا سنقول في هذه الحالة « إننا جميعاً نؤدي الكثير من الواجبات للأسرة دون ان نأخذ عليها اجراً » .

الأجر اذن مهم بشرط ألا يتحول الى شيء مطلوب على كل عمل يؤديه الطفل . ان النقود محبوبة من الكبار والصغار . . والنقود التي يأخذها الطفل كأجر على عمل هي نقود لذيذة جداً لأنها جاءت بعد ان مارس مسؤولية ما وانجز ما عليه من واجب ، وهي تتيح للطفل ان يشتري بعض الأشياء التي قد لا تشتريها له الأسرة . . إنني اعرف ان بعض العمارات الإسكانية الكبيرة يتفق فيها عدد من الأطفال على تنظيف السلم لقاء اشتراك تدفعه كل اسرة . اعرف شباباً لم يتجاوزوا الرابعة عشرة اتفقوا مع سكان الشارع على زرع بعض نباتات الزينة في الشارع وتنظيف الحديقة العامة للحي . . وكل ذلك لقاء اشتراك بسيط . ان هذه الأعمال الصغيرة والاضافية التي يخلقها الطفل لنفسه ليأتي منها بثمن سترة جلدية جديدة أمر لا يضر احداً بل هو يفيد الجميع .

إن الأمر بطبيعة الحال يختلف من مجتمع الى مجتمع . . قد يكون ما أقوله صالحاً للمجتمعات الغربية التي يفرح فيها الابن لأن والده يسمح له بأن يغسل معه السيارة . . ان الطفل يعتبر ان ذلك هو بداية النضج . ولكن الأمر قد يختلف في مجتمع آخر عندما يظن الأب ان عمل الابن هو نوع من العار الذي يجب ان يخجل منه الابن والأب معاً .

لكن ما زال هناك سؤال جدير بأن نبحث له عن اجابة . . وهو :

ـ ما الذي يجعل الابن في بعض الأحيان يرفض مساعدة الأسرة في عمل ما ؟

ان رفض الطفل وعصيانه ينبع من انه يشعر بالاهانة . ولنتصور نحن هذه

الحكاية التي حدثت لشاب ناجح الآن في مجال هام من مجالات الحياة . . لكنه ما زال يشكو التوتر :

كان طفلاً في السابعة من العمر . الوالد رجل متدين جداً . التدين احياناً يدخل الأسر المتوسطة كوسيلة للهرب من مواجهة المشاكل . وكان الوالد يهرب من صداقة الأبناء الى ارتداء قناع القسوة الدائمة ـ غير مسموح لأحد الأبناء ان يتحدث الى الوالد ـ واذا كان لأحد الأبناء طلب ما فلا بد ان يقوله للأم اولاً ثم تنقل الأم طلب الابن الى الأب . وقد تحمل الأم موافقة الأب على الطلب او رفضه . والكلمة في فم هذا الأب كانت تخرج كالأمر الذي لا مناقشة فيه ولا رجعة فيه ايضاً . وفي احد ايام الشتاء الباردة جداً ، دخل الأب الى المنزل . كان الابن قد أوى الى فراشه منذ دقائق . . وكان الخادم في اجازة . قال الأب للأم « هل نام الولد منذ مدة ؟ » اجابت الأم « منذ قليل » قال الأب اريد ان اوقظه ليحمل معي من العربة بعض الفواكه، والعربة في «الجراج» امام الباب. قالت الأم « ولكن الدنيا برد » . وكان الابن يسمع هذا الحوار وكان يومه مليئاً بالشغب . فقد خرب عدداً من اقفال المدرسة وعاقبته المدرسة لمدة حصة كاملة . لم يهتم إلا بالعناد مع الجميع ـ خاف بينه وبين نفسه ان تكون المدرسة قد اتصلت بالوالد في العمل . وعندما سمع الحوار بلغ به الخوف حدًا كبيراً، وعلى حد كلمات الابن « خفت الى درجة لم اعرفها من قبل ومن هذا الخوف وجدت نفسي شجاعاً . وجدت نفسي قادراً على ان اقول للأب « لا » . كان الدم متجمداً في عروقي . وكدت أبول على نفسي . ولكني رغم كل هذا الخوف كنت على استعداد لأن ادخل مع الأب في معركة . . ارفض فيها أي طلب له وليحدث ما يحدث » . وبالفعل اتجه الأب الى سرير الابن ليوقظه . قال الابن للأب « وما الذي يجعلك توقظني بعد ان نمت ؟ » . قال الأب « أريد منك ان تنزل معي الى الجراج لتحضر أكياس الفاكهة » .

قال الابن : « انا لن أنزل . . انا نمت . . ولا يمكن ان اقوم من نومي لأني اخاف ان اصاب بنوبة برد وزكام . . . دهش الأب للغاية من ردّ الابن . قال : هل تعصي لي امراً ؟

ـ قال الابن : انا لا اعصى الأوامر ، ولكن المسألة انني نمت .

صمت الأب ولم ينم الابن من الخوف . شعر ان الأب سيترصد له في الغد محاولاً ان يتصيد له أي خطأ ليضربه . وظل خائفاً . قال الابن :

ـ ان خوفي من الأب وصل معي الى درجة كبيرة . . لم اكن اهتم إلا بتحطيم قبضة هذا الخوف واصبح رفضي بعد ذلك لأي عمل يطلب مني ولو عاقبني . . عادة لا اتخلى عنها . .

هذه القصة تبين لنا ان رفض الأبن للمشاركة في عمل ما وشعوره بأن كل أنواع العمل كريهة وان أي عمل هو اجراء ظالم ، وان كل ما تطلبه الأسرة من الابن هو نوع من الاهانة له . هذا الاحساس لا يأتي عادة إلا في ظل ظروف من الخلاف الشديد بين الأسرة وابنها او ابنتها . ان السبب في رفض الابن او الابنة للقيام بأي عمل للمساعدة في اعمال المنزل ينبع من رفض الابن او الابنة للقيام بأي عمل للمساعدة في أعمال المنزل،ينبع اساساً من نبرة صوت الأب او صوت الأم ، ومن اسلوب تعبير الأب او الأم عندما يكلف الطفل بعمل ما ، او يذكره احد بمسؤولية ما يجب ان يقوم بها .

ان هناك اسباباً كثيرة تجعل الأب او الأم في حالة ضيق من الأبناء بعد اية فترة من اللعب والاخلال بنظام البيت او كسر بعض الأشياء أو خصام الأبناء وخلافاتهم طوال النهار . وهكذا نجد نحن الآباء انفسنا نقع بسرعة في خطأ تغيير نبرة الصوت . . وتتحول الكلمات على فمنا الى اوامر . ونشعر بلذة غريبة ـ نخفيها نحن ـ هي لذة الاحساس بالسيطرة . ان ذلك احساس يسكن في اعماقنا منذ طفولتنا . فكثيراً ما سبب لنا آباؤنا الغيظ والضيق والكبت بسلسلة لا متناهية من الأوامر ، ونجد انفسنا ونحن اباء في موقف اللذة ونحن نعيد التمثيلية ويختلف فيها دورنا . فقديماً كنا ابناء نمتلىء غيظاً من ابائنا وحديثاً نلعب دور الأب ونسبب الغيظ والضيق للأبناء بسلسلة من الأوامر . . يحدث ذلك رغم اننا اكثر ثقافة في معظم الأحيان من ابائنا ومن المؤكد اننا كنا نشعر ونحن اطفال بالضيق من أسلوب ابائنا وامهاتنا عندما كانوا يكلفوننا بلهجة مليئة بالأوامر القيام ببعض

اعمال البيت . إننا يجب ان نراقب انفسنا حتى لا يتسرب هذا الضيق في شكل اوامر متوترة الى ابنائنا .

لكن هناك بعض المجالات المبهجة يجب ان نتذكرها . .

اولاً : يجب ان نتذكر ان رغبة الطفل هي ان ينمو وان يكبر وان يفعل الأشياء نفسها التي يفعلها الوالدان . والطفل لا يرغب فقط في ان يؤدي الأعمال التي تثير مشاعره مثل قيادة السيارة وانجاب الأطفال ،ولكنه يريد ايضاً ان يؤدي اعمال المنزل واصلاح ما يمكنه اصلاحه مثل اعمال السباكة . واننا نعرف ايضاً أننا لا نستطيع ان نمنع طفلاً في الثانية من العمر من الكنس بالمكنسة اللهم إلا بالقوة ولا نستطيع ان نمنع طفلة من ان تشترك مع امها في عجن الكعك إلا بالقوة ايضاً .

والأب يضطر الى ان يؤنب ابنه حتى يبعده عن مائدة يجلس عليها الأب ليصلح شيئاً ويكون ابتعاد الطفل ضرورة ليركز الأب على ما يفعل . وهكذا نجد ان الابن يرغب دائماً في ان يساعد اهله ان وجد فرصة للتشجيع وليس التوبيخ . ان الطفل يشعر بالزهو والفخر عندما نطلب منه ان يفعل شيئاً يجيده . ولا بد لنا ان نعرف ان الأطفال كالكبار تماماً ، الطفل يسعد غاية السعادة عندما يتم عملاً ما . إنها متعة الاحساس بالمهارة .

لكن علينا ان نلاحظ ان هناك مشكلة يجب ان نعرفها جيداً . ان هناك اختلافاً بل وتنافراً بين رغبات الأب والأبن ، وفي نظرة كل منهما الى اعمال البيت . ان المحافظة على نظافة البيت وغسل الأطباق بسرعة وتجفيفها ، ثم وضعها في مكانها الذي تحفظ فيه . . كل ذلك واضح انه من اهتمام الكبار . . لأن الكبار يحبون النظام ويحبون ان يفخروا ببيوتهم . . ويهمهم ايضاً أن يأخذ الضيوف والجيران عنهم فكرة طيبة . ولا يعني ذلك أي شيء بالنسبة للأطفال . ان الطفل يحب ان يعد بيده الطعام وان يغسل الأطباق او السيارة لا لشيء إلا لأنه يريد ان يقلد امه او أباه. وعندما يبلغ الطفل العاشرة من عمره ويعرف ان الأب سيعطيه قدراً من النقود لقاء عمل ما فإنه يقوم بالعمل من اجل لذة

الكسب . ولهذا يجب علينا ان نعرف نحن ان الأبناء يختلفون في اهدافهم عنا نحن الآباء . ولذلك لا بد من ان نطلب منهم القيام بالأعمال التي نريد ان يقوموا بها وان يكون ذلك بلهجة وديعة . . وفيها احساس بالصداقة . . وان نساعدهم نحن في اداء هذه الأعمال . كل ذلك يمكن ان ينمي في أعماق الطفل الثقة والحب والرغبة في تحمل مسؤولية القيام بالأعمال التي نريده ان يقوم بها . ولكن اذا تسرعنا في القاء الأوامر وطلبنا ان يقوم الأطفال بكل الأعمال وحدهم فإن حماس الطفل منهم يتلاشى كالبخار الذي يتسرب بسرعة . ومن المؤكد ان اشراك الأب لإبنه في القيام بعمل ما . . يعطي الابن الاحساس بالمساواة والصداقة والاحساس الطيب الذي تخلقه الصداقة .

ولنتصور معاً اللذة التي يشعر بها الطفل الذي يبلغ الثانية او الثالثة بعد ان يمضي ساعة او اكثر في اللعب بلعبه المختلفة ويخرج لأمه فرحاً ومشرقاً وان كان ايضاً متسخ اليدين ، بل وقد يكون قد كسر احدى اللعب ، ثم تقول له امه :

ـ هيا نجمع لعبك مرة اخرى في المكان المخصص لها .

وتمضي الأم وابنها الى جمع اللعب والحديث عنها والضحك معاً على هذه الألعاب . . من المؤكد ان الطفل سيشعر بلذة وسعادة لا حد لها وهو يجمع لعبه مع امه .

ولنتصور معاً ان الأم طلبت من ابنتها التي تبلغ السابعة او الثامنة ان تدخل معها المطبخ لغسل الأطباق ، وتبدأ الفتاة في غسل الأطباق ، وتبدأ الأم في تجفيفها ويتخلل ذلك حكاية عن رأي الأم في الطفلة . . وكيف انها مطيعة . . وكيف انها تعرف كيف تقوم بواجباتها ، قطعاً سيسبب هذا درجة كبيرة من الانسجام بين الأم وابنتها .

والأب عندما يخرج مع ابنه الذي يبلغ العاشرة لشراء حاجات الأسرة ويضع الوالد يده على كتف ابنه ويبدأ حواراً عن اصدقاء الابن ومن منهم المتفوق في اللعبة الرياضية او مناقشة في القصة التي يقرأها الابن هذه الأيام او حواراً عن النادي الذي يشجعه الابن او الأب ، من المؤكد ان هذه المسيرة القصيرة ستعزز

من روابط الصداقة بين الأب وبين الأبن .

ان هذه الأوقات لن تتطلب أي جهد من الأب او الأم كي يوفرها لأبنه او ابنته . انها رحلة من الصداقة والتعاون تجعل الجو في الأسرة صافياً . .

ان البذرة التي نضعها في احساس الأبناء بالرغبة في مشاركة الأسرة ينبغي ان تبذر في سن الثانية او الثالثة . ومهمة الآباء قد تكون صعبة في البداية ، وتعهد هذه المهمة بشكل دائم ومستمر قد يبدو مرهقاً في بعض الأحيان ، ولكن علينا ان نعرف ان الصداقة بين الآباء والأبناء من الممكن ان تثمر بعد خمسة عشر عاماً . ان الهدف هو خلق التعاون بين الطفل وأبويه . . والوالدان هما المثل الأعلى الذي يتخذه الابن .

ولذلك لا يمكن ان نرهق الابن بواجب لا يستطيعه . . ولا بد لنا من ان نقدم الشكر والتقدير للطفل كما نفعل نحن مع الكبار عندما يؤدون لنا خدمة . وقد يتمرد الطفل بعض الأحيان على القيام بأي عمل في المنزل . هنا يمكن ان نلجأ الى الحزم ، وليس معنى الحزم هو اللوم والنقد ، ولكن معنى الحزم هو الاصرار الهادىء ذو النظرة البعيدة لكي ينجز الابن العمل الذي نطلبه منه .

عند ذلك لن نجد الأزواج الذين ينظرون بعيون فيها ألم وندم وعتاب الى الحماة لأنها مسؤولة بشكل او بآخر عن عدم تعليم ابنتها الطبخ ولن نجد كلمات السخرية على ألسنة الأزواج بالنسبة لإدارة العروس لمنزلها . ولن نجد نظرات الأسى في عيون الزوجات لأن الزوج غير مرتب وفوضوي ويحتار كل يوم وهو يبحث عن شيء ضاع منه في وسط الفوضى التي يمارسها ويعيشها .

علينا ان نعرف اننا نربي الأبناء من اجل المستقبل ولهذا فلا احد منا يمانع في ان يجعل ابنه سعيداً بمسؤولياته ويجعل الآخرين يشعرون بالسعادة بابنه لأنه يقوم بمسؤولياته كلها كاملة .

الاذاعة . التلفزيون . مجلات الأطفال . السينما
أثر كل ذلك في الأطفال

ان القيم التي يؤمن بها الأبناء يتحكم فيها الآباء : على الأقل في السنوات الأولى . لذلك فلا بد من الرقابة على كل ما تقع عليه عيون الأبناء وان نتناقش معهم بشأن مزايا وعيوب هذا التيار الجارف من الفساد او من الثقافة !!

انني افتح عيوني جيداً على ما تحويه برامج الأطفال في الاذاعة . فأجده مسلياً وكذلك اطفالي . لكني اكاد اقع في براثن الرعب عندما اسمع اغنية ليست عاطفية ولكنها تعبر عن جوع جنسي حاد وتؤديه مطربة معينة بأسلوب المحترفات واخشى ان تلتقط اذن طفلي هذه الأغنية . وأمام التليفزيون نادراً ما أجلس لا لشيء إلا لأني اعتبره احد لصوص الوقت ولكن حتى لا اغضب زوجتي التي تحب التليفزيون جداً فأنا اجلس معها في بعض الأحيان . أجد بعض المتعة . اجد بعض الثقافة . تزعجني الاعلانات . وأكاد احطم جهاز التليفزيون احياناً لأعبر عن ثورتي وضيقي عندما أرى طفلي يحملق مشدوهاً أمام مشهد غرامي حاد يعتدي على بكارة طفولته . او عندما يعرض التليفزيون سلسلة مثيرة عن الجريمة وكيفية القيام بها وأسلوب تنفيذها وابتكارها . وافاجأ بأن مجلات الأطفال تنحرف في بعض الأحيان في تيار من التشويق الذي يهدف الى تدمير معنويات الطفل ،فقد تعلمه بعض المجلات كيفية خداع الآخرين ، وقد تتفنن احدى المجلات في خلق بطل اسطوري يحصل على ما يريد دون مجهود . وهذا لا يمنع ان هناك بعض المجلات تخضع نفسها لنظام صارم ودقيق في محاولة فهم نفسية الطفل ومحاولة بناء هذه الشخصية على أسس سليمة وانا آسف لأني بدأت هذا الموضوع بموقفي الشخصي . ولكن الحياة كلها سلسلة من المواقف الشخصية التي تعطي آخر الأمر نتيجة موضوعية عامة . وها هي السنوات قد طالت والأحاديث التي تختلف حول اثر ادوات الاعلام في الطفل من تليفزيون واذاعة وصحافة اطفال الى افلام السينما . المشكلة التي تثار دائماً في أي حديث عن الأطفال يكون طرفاً فيها مدى تأثير اندفاع اجهزة الاعلام الى الجنس والقتل والحصول على كل شيء بأي طريقة

وبأسهل وسيلة . ولا يمكن ان تجتمع الأمهات في حديث عن الأطفال دون ان يعلو وجه أكثر من أم حالة الحزن والغضب لأن التليفزيون يسرق من الأبناء وقت المذاكرة ويمنع المراهقين احياناً من القراءة المفيدة .

وهناك عدد من رجال القضاء والمحللين النفسيين يؤكدون انه عندما يتم سؤال احد الشباب المنحرف عن فكرة الجريمة فإن الإجابة تكون « من رواية بوليسية ، او من برنامج في التليفزيون او من فيلم سينما . وطبعاً هذا يؤكد وجهة نظر هؤلاء من ان هناك تأثيراً لهذه الأدوات الاعلامية على انحراف الأطفال . ولكن هناك عدداً آخر من الاخصائيين النفسيين الذين يرفضون ان يسيروا مع هذا التيار الى النهاية . ويعترف هؤلاء بأن بعض ما يراه الأطفال في التليفزيون او يقرأونه في مجلات الأطفال او يشاهدونه في السينما ، كل ذلك يؤثر بشكل او بآخر في بعض الأطفال لكنه لا يؤثر في معظم الأطفال . ان الطفل الذي يملك استعداداً للانحراف قد يلتقط فكرة الجريمة في مثل هذه الوسائل الاعلامية ولكن الطفل الطبيعي لا يمكن ان يتحول الى الانحراف والقتل مهما قرأ من أمثال هذه الكتب او شاهد من أمثال هذه الروايات .

والحقيقة ان موقف الآباء والأمهات يتذبذب باتجاه هذه الناحية او تلك . احياناً يكونون ضد وسائل الاعلام واحياناً يكونون معها .

وانا اريد ان اقول ان الطفل يكون قيمه الأساسية عن الحياة من تقليده لوالديه . ان الأبوين اللذين يرتبطان معاً بالحب لا تواجههما مشكلة من هذا النوع لأن الابن ينشأ على الحب وعلى الفهم ويتكون ضميره بصورة حية . لكن ماذا عن الطفل عندما يكبر ويبدأ في الاستقلال التدريجي عن والديه ؟ . انه يتأثر بجو المدرسة والزملاء والآباء وامهات اصدقائه واقاربه والمجتمع المحيط به . وقيم المراهق لا تتغير كثيراً عن قيم اسرته رغم ان المراهق يميل الى التمرد ويرغب في تقليد اصدقائه ولكن علينا ايضاً أن نذكر ان المراهق يختار اصدقاءه من دائرة الناس الذين في مثل مستواه الاقتصادي والاجتماعي . واحياناً أجد انه من المبالغة الشديدة ، ان نغرق في القلق بخصوص اثر وسائل الاعلام في الأطفال . اننا ننسى عندما نغرق في القلق اننا نحن الأجيال القديمة قد سمعنا أن آلاف

الحكايات كانت السبب في الأحلام المزعجة . ولكني اريد هنا ان اضع حداً فاصلاً بين ما يمكن ان تحكيه الأم لطفلها وهو مجرد كلمات وبين ما يمكن ان يراه الطفل على الشاشة . إنه يرى كل شيء يتم بصورة واقعية وفعلية واعتقد ان هذا يؤثر بدرجة ما أو على الأقل يبث الذعر في الطفل. ان الطفل عندما يستمع الى حكاية تحكيها الأم فهو يترك للخيال مهمة تصوير هذه الحكاية . والأم طبعاً تختار الكلمات الحنون وتحاول ان تفسر بصوت هادىء احداث الحكاية . وهي تؤكد له دائماً ان كل ما تحكيه هو مجرد خيال . وهي تؤكد له ايضاً ان أي فعل شرير هو مكروه منها ومن الطفل نفسه . لكن اعتقد ان الأمر يختلف عن « تصوير » ذلك كحقيقة واقعة على شاشة السينما او التليفزيون . ان القوة هنا حقيقية والشر هنا حقيقي . وهذا يعمق في نفس الطفل احساساً بأن الشر منتشر وواقعي . ونحن نسمع من الأمهات الكثير من التعليقات عن افلام القسوة المنتشرة وكيف ان الأطفال يقلدون هذه الحركات . وعندما تحاول الأم ان تمنعهم من القيام بمثل هذه الحركات فإنهم يقولون « ان هذا يحدث في التليفزيون او السينما » . وأقول لنفسي : قد لا يسبب هذا التقليد انحرافاً مباشراً في سلوك الطفل ولكن مما لا شك فيه انه يؤثر بشكل او بآخر في التقليل من تماسكهم الاخلاقي ويكون لديهم فكرة سيئة عن المجتمع الانساني .

واريد ان اؤكد هنا على موقف الآباء والأمهات امام الأدوات الاعلامية التي تنحرف عن رسالتها وتدمر نفسية المجتمع ببطء . ان هذا الموقف هو الذي يحدد مدى تأثر الطفل بهذه الأشياء التي يراها او يقرأها . ان على كل اسرة ان تدقق وتميز بين ما يمكن ان يراه الأطفال وبين ما يجب ان يمنعوا الأطفال من رؤيته . ان احتقار الوالد لأحد البرامج التليفزيونية ينقل إلى ابنه بحيث يصبح موقفاً للابن من هذا البرنامج . ان الابن يتعالى بدوره عن مشاهدة أي شيء لا يرضى عنه والده . وكذلك الأمر بالنسبة للبنت . والأب عندما يرفض بهدوء واصرار احدى المجلات السيئة التي تفسد ذوق الابن فإن الابن سيقلد والده . ان الطفل هنا سيتعلم ، دون اوامر ودون ضغوط ، أي قيم يختارها لنفسه . أما اذا تركت الأسرة الحبل على الغارب في تلك المسألة فإن الطفل لن

يستطيع ان يميز بين ما هو ضار وما هو غير ضار . ولا بد هنا من ان اعترف بأن الأطباء والاخصائيين النفسيين استمروا لعدة سنوات مضت يقولون انه لا مانع من ان يعبر الأطفال عن مشاعرهم العدوانية المختفية في الأعماق وان ذلك ممكن عن طريق اللعب الضاحك او سماع القصص التي تحمل قدراً من العدوان .
وهنا احب ان اسجل اننا يجب ان نتنبه تماماً الى القدر الذي يشاهده الطفل من العنف وكيف يصرف عن نفسه مشاعره المكبوتة . . انني لا امانع مثلاً في ان يشاهد الطفل فيلماً من « الكرتون » يصور الأسد وهو مغلوب من الفأر . ولا أمانع في ان يرى فيلماً تكون فيه البطة قائدة منتصرة على النمر . ان هذا يسبب سعادة للطفل . ولا امانع بأن يشاهدوا فيلماً عن انسان صغير ضعيف يوقف عدوان رجل (شرير) عند حده ما دام هذا الشرير يؤذي مشاعر الآخرين ويسبب لهم الضرر . اما ان يشاهدوا ثلاثة اشخاص يدبرون جريمة قتل ويبدأون في تنفيذها بنجاح وان يشاهدوا كيف تموت الضحية وهو انسان ايضاً بين اصابع رجل يخنقها فهذا شيء صعب ومؤلم وقاس على نفسية الطفل .

لكن هناك مناقشة تحدث في الأسرة عندما ترفض الأسرة ان تسمح للطفل بأن يرى برنامجاً معيناً من برامج التليفزيون فإن الطفل قد يعترض ويقول في غضب « ان هذا البرنامج من أروع البرامج وآباء اصدقائي يسمحون لهم بمشاهدته فلماذا تعترضون دون داع على مشاهدته ؟ » والآباء الذين يتمتعون بقوة ارادة يمكنهم ان يرفضوا هذا المنطق ويستطيعون فرض ارادتهم على الأبناء . فإذا كان بعض الآباء الآخرين لا يهتمون بتربية ابنائهم فعلينا ألا نكون مثلهم . ان الاهمال او عدم الاهتمام مسألة تتعلق باحساس الأب او الأم بمدى المسؤولية نحو الابن . إنني لا ادعو للتزمت ولكني ادعو الى الجدية ، والمسافة بين الاثنين متروكة لاتساع افق الآباء والأمهات انفسهم . ان الاباء الذين يضعون القواعد الأساسية للنظام وللسلوك في المنزل من البداية لا يجدون مشكلة في منع الطفل . لكن يجب ان لا نقع في الشك والقلق من اجل ان الطفل يشاهد ما يريد . ان علينا ان نعيد المسألة الى وضعها الطبيعي بهدوء وباقناع ودون قسوة . ان الأسرة بسلوكها الطبيعي هي التي تحدد للطفل احترام مواعيد النوم والسلوك على المائدة وتمنع

الطفل من الكذب والألفاظ البذيئة . والطفل يتشكل بمدى سيطرة اسرته على نفسها في احترام كل من الأبوين لهذه القيم . فالأب الذي يحترم ميعاد النوم يعلم الابن هذه العادة والأب الذي يرفض الكذب ولا ينطق بالكلمات البذيئة يتعود ابنه على ذلك . ولكن ما ان تبدأ المراهقة حتى يفلت الأمر من يد الآباء قليلاً . ان الابن يعلن انه اصبح مستقلاً ومن حقه ان يرى ما يريد وان يفعل ما يريد والآباء يقعون في الحيرة . إنهم لا يعرفون ما الصواب وما الخطأ ؟ هل القسوة واجبة ام ممنوعة . وانا اعتقد ان كل ما حول الآباء من آراء حول الصواب والخطأ مسألة غير مستقرة في أي مجتمع من المجتمعات . ولكن عندما يكون الآباء على ايمان بقيم محددة ثابتة فإنهم لا يشعرون بالتردد ولا يقعون في الحيرة . إن الأمر حساس في المسائل الاخلاقية . والأب الواثق من نفسه يملك القدرة على الاقناع وكذلك الأم الواثقة من نفسها . ان الوقوع في التردد يشعر به الابن فيبدأ في استغلال الفرصة لمزيد من التحدي ومزيد من الاصرار على ما يطلب . إنما عندما يكون الأب حاسماً وهادئاً فإن الطفل يقتنع .

ان هذا الزمان الذي نعيش فيه قد ازدحم بالآراء المتضاربة في فنون التربية سواء بين علماء النفس او بين المستوى الاقتصادي المتغير بالنسبة للأسرة . ان الآباء يقعون في التردد والحيرة من كثرة هذه الآراء المتضاربة . لكن عندما يناقش الأب نفسه ويقتنع بما هو صواب فعليه ان يقنع به الابن بالمناقشة الهادئة المقنعة .

وهذا الزمان الذي نعيش فيه تنتقل فيه الأسر في بعض الأحيان من الطبقة الفقيرة الى الطبقة الغنية . والملاحظ ان الانتقال السريع من الفقر الى الثراء وضعف السيطرة الاخلاقية من الآباء على الأبناء يزيد من نسبة الانحراف وكذلك نسبة الانتحار . ان على الأب والأم في حالة الانتقال من الفقر الى الغنى ان يلتفتوا الى هذه المشكلة الاخلاقية . ان زيادة النقود ليس معناها التخلي عن القيم ، ان الرقابة الفعالة الدائمة من الآباء على الأبناء توفر للابن ضميراً حساساً يرفض به ان يرى فيلماً مرعباً او برنامجاً تلفزيونياً مليئاً بالاعتداء على القيم الأخلاقية . لقد شهدت العيادات النفسية حالات عديدة من الأطفال الذين يعانون من الخوف الزائد والأحلام المزعجة لأن الآباء لا يمنعون هؤلاء الأبناء من رؤية ما يزعجهم .

ان علينا ان نمنع افزع من التسلل الى نفسية الأبناء لأن الطفل نفسه غير قادر على ان يقوم بدور الرقابة على نفسه في سنوات حياته الأولى . ولذلك فعندما يرى فيلماً مرعباً فهو لا يمتنع عن رؤية فيلم آخر مرعب ايضاً ولهذا فأنا اطالب الآباء بأن يكونوا على علم بأن مسؤولياتهم تحتم عليهم حماية الطفل من أي أذى نفسي يقع عليه خصوصاً في مرحلة العمر التي تقع بين الثالثة والسادسة . وأنا أقول ذلك نتيجة خبرة شخصية . فقد كنت ادعو اطفالي واصدقاءهم الى السينما التي تعرض بعض افلام « الكرتون » وكانت بعض هذه الأفلام مرعبة يضحك لها الكبار ، أما الأطفال فقد كان الفزع يظهر على ملامحهم . ان الحيوان المتوحش الذي يلتهم حيواناً آخر في أحد مشاهد فيلم « كرتون » يثير الرعب في نفس الطفل . ان مشهد زوج الأم القاسي في فيلم « كرتون » يجعل الطفل يتقمص دور الطفل الذي يعاني من عذاب زوج الأم . ان علينا ان نحمي اطفالنا من الرعب والفزع بكل الوسائل ما دام ذلك في استطاعتنا .

ولنناقش الآن مشكلة الجنس واثارها في الأطفال والأبناء .

ان هذه المشكلة تثير قلق الآباء والأمهات خصوصاً وان الرقابة تكاد تكون معدومة على الاعلانات والاذاعة والتليفزيون والسينما وكذلك ايضاً الرقابة على الافلام . ان السينما الآن « مزدحمة » بالمشاهد الجنسية الخالصة . وليس الهدف من هذه المشاهد سوى الاثارة فقط . ان البعض يحترف « الاثارة » لأنها وسيلة كسب سهلة ومضمونة . والفيلم الذي يخلو من مشهد جنسي يخاف المنتج في كثير من الأحيان ان يقدم على انتاجه . والجنس الآن له مختصون وله صناعة وتجارة وموزعون ودور للسينما في العالم كله تشهد التعليقات الجارحة من المراهقين . إنهم يتوقعون الحركة القادمة ويحلمون بتفاصيل اشد اثارة . أما الأطفال فنحن نعرف ان الطفل شغوف بمعرفة حقائق الحياة الجنسية . ولكن لماذا نفجعهم بعرضها بهذه الصورة البذيئة والهمجية ؟ لماذا لا نعلمهم هذه الحقائق بالتدريج ، ان الطفل يسأل اباه او أمه فإن وجد اجابة عاقلة ومتزنة وعلمية وخالية من الخجل فالطفل يقتنع . وان لم يجد الطفل سوى اجابة ملأى بالأوامر والنواهي فهو يسأل اصدقاءه او اخوته الكبار . والمدرسة تعطيهم بعض الدروس التي توضح بعض

الحقائق وعندما يبلغ الطفل من المراهقة فإنه يبدأ في البحث عن الحقائق الكاملة في الكتب التي تحكي عن مثل هذه الموضوعات .ويحاولون ان يدققوا في الكلمات جيداً لعل الكلمات تنطق بأكثر مما تحمله من معنى . وطبعاً فإن أفلام السينما والتليفزيون والقصص التي تنشر في المجلات تحمل ايضاً بعض التفاصيل المثيرة بل تحمل الكثير من تلك التفاصيل المثيرة . وعلينا ان نلاحظ ان هناك فرقاً كبيرا بين النضج العاطفي والبلوغ الجنسي الواعي . ان بعض الأبناء يغرقون في الخجل ويرفضون ان يعرفوا أي معلومات زائدة عن الحد والبعض الآخر يتلهف للحصول على كل المعلومات ويعتبرها ايضاً ناقصة . انه يريد انّ يعرف اكثر . واذا كان جو الأسرة هادئاً متديناً وعصرياً في نفس الوقت ، نجد ان الطفل يأخذ القدر الكامل من المعلومات التي تتناسب مع عمره . ويستطيع الأب الهادىء العصري المتدين ان يختار الكلمة الواعية العلمية البسيطة التي لا تخدش بكارة عقل الطفل وروحه ولا تسبب له القلق . والمدرس ايضاً له دور في ذلك . إنه قادر على ان يتناول التشريح العلمي بجسد الانسان ووظائفه العضوية بصورة موضوعية وطبعاً لا يلمس من قريب او بعيد التفاصيل الشخصية مثل علاقة الأب بالأم رغم ان بعض الأطفال يتبادلون المعلومات الخاطئة عن علاقة الوالدين الجسدية بصورة تكون لها صدمة على نفس الطفل . وأيضاً بعض الأفلام تفعل ذلك . انها تحاول ان تزيد معلومات الطفل بدون احترام لمشاعره ، وهي عادة لا تصور ذلك في اسلوب واقعي انما تنقل المسألة في ظل من الأجواء المتوترة وهذا كله يجعل الطفل قلقاً ينظر الى المستقبل بنوع من الخوف وعدم الثقة .

* * *

نتنقل الآن الى مناقشة شكوى عدد من الأمهات والآباء من « سرقة » التليفزيون لوقت الدرس وإتمام الفروض المدرسية وكيف انه يمنع تربية روح القراءة الجادة في الطفل . إن الأبحاث التي اجريت لبحث هذه الظاهرة لم تكن كافية ولم تصل الى نتيجة محددة في هذه المسألة . كما ان نظم التعليم تختلف من بلد الى آخر . المدارس الابتدائية الامريكية مثلاً لا تكلف الطفل بأي فرض منزلي لأن ابحاث علم التربية اكدت ان هذه الفروض هي عبء على التلميذ ولا تفيده

رغم ان الأمر يختلف بالنسبة للمدارس الألمانية او الفرنسية مثلاً حيث الفروض المدرسي يعتبر ضرورياً . اما المدارس الثانوية الامريكية فتؤكد اهمية دور الفرض الدراسي الذي يقوم الطالب به في المنزل وذلك حتى يتفتح ذهن الطالب الى ضرورة البحث العلمي المستقل . ولهذا فالطالب الذي يملك العزيمة والنظام بالقدر المناسب يمكنه ان يضع في اعتباره القيام بواجبه نحو المذاكرة قبل أي شيء . ان الفيلم المثير الذي تعرضه السينما او البرنامج المثير الذي يعرضه التليفزيون لا يمكن ان يلهي طالباً يؤمن بأن المستقبل الناجح اكثر اهمية من كل ذلك .

ان عادة تأجيل المذاكرة كل يوم او تأجيل العمل المفروض ان يقوم به الانسان الى ميعاد آخر . هذه العادة تساعد على هروب الانسان من مسؤولياته ليجلس امام التليفزيون . إنني اجد انه ظلم للتليفزيون ان نلقي عليه مسؤولية تضييع الوقت رغم كل المشتهيات واللذات ووسائل الاغراء المتقدمة . ان داخل كل انسان قدرة على ضبط نفسه ويجب ان يستعملها حتى لا يهرب من مواجهة مسؤولياته بالجلوس امام التليفزيون .

ورغم كراهيتي الخاصة للتليفزيون كجهاز يسرق الوقت فإنني أرى ان بعض الدول لا تترك هذا الجهاز في أيدي شركات الاعلان او لادارة تهدف الى الكسب .لكن هذه الدول تضع في هذا الجهاز امكانيات ثقافية لا حدود لها . ان التليفزيون منذ اختراعه حتى الآن اضاف الى خبرات وثقافة الأطفال الكثير من الجيد والرديء معاً . فلماذا لا تستخدمه كجهاز ثقافي تعليمي ومسل في نفس الوقت .

اما عن الخوف من مجلات الأطفال التي تمتلىء بقصص البطولة الوهمية والتوجيهات وتمنع الطفل من القيام بواجبه نحو تنمية عادة القراءة الجادة ، فإنني اقول عن كل ذلك ان الاباء باستطاعتهم ان يختاروا ما يقرأه الأبناء كما ان الأطفال انفسهم فور ان يدخلوا مرحلة المراهقة يتجهون لاختيار كتب ذات قيمة هامة ليرفعوا من مستواهم الثقافي . كما انني احب ان اؤكد ان رغبة الانسان في القراءة

بحد ذاتها قيمة يجب الحفاظ عليها في الأطفال . والجو الثقافي في الأسرة هو الذي يدفع الأبناء الى المزيد من القراءة الجادة . ان والداً لا يطيق الصبر على قراءة رواية لتورجينيف لا يمكن ان نأمل منه بأن يطالب ابنه بأن يقرأ لهذا الكاتب ولا يمكن ان نأمل من الأبن ان يقرأ هذا الكاتب بمفرده اللهم إلا في الحالات النادرة التي يكون فيها الطفل موهوباً يملك الرغبة في المعرفة .

* * *

هكذا تتضح امامنا الصورة كاملة .

هناك تيار من الهزل وعدم الجدية والاسراف في عرض الجرائم كأفلام ولصوص وهناك اسراف في تصوير الجنس . وهناك تيار اخر جاد غير هازل يريد ان يقدم الفائدة الممتعة في وقت واحد . فأي التيارين يمكن ان يعجب به الآباء ؟ .

من المؤكد ان المسألة نسبية تتوقف طبعاً على المستوى الثقافي والظروف الاجتماعية المختلفة . ان بعض الآباء قد يملكون الأمل في تربية الأبناء على أفضل المثل العليا الثقافية والاجتماعية وبعض الآباء يترك المسألة للظروف التي يمكن ان يمر بها الطفل بنفسه .

وموقفي الشخصي هو انني أساند هؤلاء الذين يرفضون التيار الهازل التجاري الذي يهبط بقيم الأبناء وأنا معهم ضد هذا التيار . فليرفعوا صوتهم عالياً في المجتمع وليكافحوا من أجل صيانة قيم الأطفال من هذا العدوان الصريح على ثقافة الطفل وعلى اخلاقه . وعلى الوالد قبل ان يختار فيلماً ليشاهده مع اطفاله ان يعرف ماذا يحكي الفيلم ومستواه الفني عن طريق قراءة نقد الصحف له . كما يدقق الأب بالضبط في اختيار الابن لاصدقائه . ان الفيلم صديق لقيم الطفل او عدو لها وهكذا المجلة وهكذا البرنامج الاذاعي او التلفزيوني .

ويجب ان لا نقف موقف المتردد امام عدو يدمر عقول ابنائنا بل يجب ان نقتل هذا العدو بالامتناع عنه سواء كان هذا العدو كتاباً او فيلماً او برنامجاً في

الراديو او التليفزيون وان نحتج ضد هذا العدو بالرسائل الى الصحف والى أصحاب هذه البرامج ومن خلال المؤسسات السياسية القائمة في المجتمع .

من واجبنا ان نحول ادوات الاعلام في المجتمع الى خدمة المستقبل وليس الى تدميره .

واريد ان أتوقف عند التليفزيون لأنه اختراع خطير يمكن ان يكون وسيلة تربوية وتعليمية هادفة . إنه يمكن ان يقدم لنا عصارة الثقافة الانسانية بكل ما يملك من امكانيات . انه يملك السيطرة على البصر والسمع ويمكن ان يشرح للأبناء كافة العلوم بمنتهى الدقة والتسلية .

ان الأطفال هم ثروة المستقبل . هكذا يجب ان تكون نظرتنا اليهم ولا نتركهم بين أنياب الذئاب تجار الجنس والهزل .

ألستم معي في ذلك ؟

كيف نختار لعب الأطفال

يريد الأب والأم للابن ان يكون سعيداً . والسعادة تأتي للأطفال من اللعب .

كيف نشتري لعبة الطفل ؟
ما الذي يسعد الطفل ؟
هل نخاف على اللعبة ونحرم الطفل منها ؟
الأسئلة كثيرة في هذا الموضوع
وهذه هي الاجابات .

في اليوم الأول لميلاد ابني الأول خرجت فرحاً . . لا تكاد الدنيا تسع فرحتي به . كنت ارى قطعة صغيرة من اللحم يمكنها ان تصرخ ويمكنها ان تبكي . . وحاولت ان أدقق النظر جيداً لأعرف هل يستطيع هذا الكائن ان يبتسم ؟

طبعاً كنت أعرف ان هذه الأفكار ليست معقولة . ولكن من قال ان في لحظات الحب الأولى أي نوع من العقل .

مشيت في الشوارع . أتمنى ان اشتري له شيئاً . دخلت محلات ملابس الأطفال . اشتريت له بعض الملابس الجديدة . وعندما خرجت من المحل احسست انني لم اشبع بعد من الرغبة في ان ادخل بالسعادة على طفلي .

ذهبت الى محلات لعب الأطفال . اشتريت له كمية هائلة من الألعاب المناسبة واشتريت له دباً من المطاط ، وعدداً من الحيوانات الأليفة .

وفجأة تنبهت الى الحقيقة .
كنت في طفولتي محروماً من الألعاب بشكل ما .
في زماننا كانت اللعبة بالنسبة للطفل شيئاً غير هام .
اما الآن وفي هذا العصر . . فالمسألة تختلف تماماً .

وقررت ان ادرس هذا الموضوع . ان اسأل نفسي واسأل خبرتي بعد مرور كل تلك السنوات من العمل في ميدان طب الأطفال ورعايتهم نفسياً . . وكان لا بد من أن أبدأ بالاجابة عن السؤال الحائر .

ـ ما هي افضل لعبة تسعد الطفل ؟
وكانت الاجابة هي . .

افضل اللعب ما يستطيع الطفل ان يصنعها بنفسه ، او يكتشف بنفسه طريقة خاصة لاستعمالها . وأتمنى ان اعود طفلاً مرة اخرى لألعب بعدد لا بأس به من لعب الأطفال . وهذه ليست امنيتي وحدي ، إنها امنية معظم الآباء والأمهات عندما ينوون شراء لعبة جديدة للابن .

ان معظم الآباء المنتشرين على وجه الكرة الأرضية قد عانوا مثلي بشكل او بآخر ، من الحرمان من شراء لعبة او اكثر . .

اما الآن فيندر ان يوجد طفل في أسرة متوسطة او حتى اقل من المتوسطة ليست لديه لعبة او اثنتان .

لكن هناك مشهد يحزن له القلب حقاً ، خصوصاً قلب طبيب الأطفال او الاخصائي النفسي الذي يتعامل مع الأطفال . هذا المشهد هو وجود لعب كثيرة للطفل . . ولكنه محروم منها ، تمنعه امه من اللعب بها حتى لا يكسرها ويتلفها . ان عيون الطفل تحتار في اختيار من تكره . هل تكره اللعب ، ام تكره الأم التي تحرمه من اللعب بلعبة ؟ .

ان هذا الموقف يؤثر في مشاعر الطفل بشكل قاس ويجب ان نبتعد عنه تماماً .

فمن المعروف والبديهي اننا نشتري اللعب حتى تسعد الطفل .

وأهم حقيقة عن لعبة الأطفال هي ان الطفل لا يحب ابداً ان يستسلم لتعليمات مصمم اللعب او لرأي المصنع الذي انتج اللعبة . الطفل يحاول دائماً ان يستعمل لعبته بشكل جديد ، بطريقة جديدة يبتكرها هو ويختارها بنفسه وقد تتلف هذه الطريقة التي يختارها لنفسه تلك اللعبة .

ولكن علينا ان نسأل أنفسنا كلما دمر الطفل لعبة هذا السؤال :
ـ لماذا اشترينا اللعبة ؟

سنجيب :
- اشتريناها حتى يلعب الطفل بها .

ولهذا يجب الا نحزن ويجب ألا نمنع الطفل من اللعب بلعبته كما يريد وان نشرح له بصورة ودية ، ضرورة صيانة اللعبة وضرورة ان يضعها في مكان محدد بعد ان ينتهي لعبه بها . وعلينا ان نعرف ان الطفل يهوى ان يخلق مواقف درامية مع لعبه جميعاً ويحاول ان يعبر عن مشاعره وهويلعب.واذا كانت اللعبة محدودة بطبيعتها وقاصرة على نوع واحد محدد من النشاط فسريعاً ما تصبح هذه اللعبة تافهة لا اهمية لها في رأي الطفل ومن ثم فإنه يهملها ولا يطيق الالتفات اليها . وكلما زادت وسائل استعمال اللعبة وتعددت كلما زادت اثارة لخيال الطفل وزادت ما يستشعر من سعادة في اللعب بها . ولهذا فإن لي رأياً محدداً بهذا الصدد، هو ان المكعبات والقوالب الخشبية او البلاستيك هامة جداً بالنسبة لمعظم الأبناء من الذكور وفي بعض الأحيان لبعض البنات . . وهي من أكثر اللعب اثارة لخيال الطفل . . ويسهل على الطفل ان يفهمها وتثير عنده الانتباه .

ان صندوقاً كبيراً ممتلئاً بهذه اللعب يحتل مكاناً هاماً في بيتي وهو يضم مئات المكعبات التي استعملها ابنائي منذ ان كان عمر الواحد منهم عاماً الى ان اصبح عمره اثني عشر عاماً . . يغضبون عليها حيناً ويهملونها حيناً آخر ولكنها لا تلبث ان تحتل دائرة اهتمامهم مرة اخرى . ولقد صنع ابنائي من هذه المكعبات والمربعات والمستطيلات مباني كبيرة تشبه مبنى الأمم المتحدة واكبر عمارة في العالم « الامبايرستيت » وصنعوا جراجات للسيارات وانفاقاً وحظائر للطائرات واخرى للمواشي ، وجسوراً معلقة وجسوراً أرضية وقلاعاً للجنود واحياء سكنية ، كل ذلك من صنع الخيال .

وكل مدارس الحضانة او المرحلة الابتدائية فيها مئات من المكعبات والمربعات وهي تعتبر من المحتويات الضرورية لأي مدرسة ابتدائية او دار حضانة . وكل يوم يخرج جديد في عالم المكعبات التي تناسب كل عمر . وهناك مكعبات تصلح لبناء بيوت ومكعبات تصلح لتدريب الخيال . . ومكعبات اخرى من ألوان كثيرة . . وليس هنا مجال للدعاية لأي من مصانع لعب الأطفال ،

ولكن من خبرتي كطبيب اقول ان المكعبات عالم رائع يتعلم منه الطفل كما يشغل اكبر مقدار من وقته . وقد يفكر البعض ان ثمن هذه المكعبات مرتفع قليلاً وخصوصاً تلك المصنوعة من الخشب الصلب او اللدائن المقاومة للكسر . ولكن اذا قارنا الثمن الذي تدفعه فيها بمدى الفائدة التي يجنيها الطفل من اللعب بها . . كان الثمن قليلاً للغاية . انها تجعل احلام الطفل قابلة للتنفيذ . إنه يستطيع ان يقضي ساعات ليصمم احدى افكاره وبالتالي فإنها تكسبه سعادة انجاز هدف كان حلماً بالنسبة اليه . . وتجعله يشعر بالثقة بنفسه . وعندما يهدم ما بناه فإنه لا يفعل ذلك إلا لاكتشاف خطأ ما يرغب في اصلاحه او رغبة في بناء شيء جديد ، هدف جديد . وهكذا يصبح ثمن اللعبة دون الفائدة التي يعطيها للطفل .

هناك ما يدهش الأطفال ايضاً غير المكعبات . . وهو عالم السيارات وعربات النقل والحافلات والقطارات ، إنها تثير اهتمام كل الأطفال من كل الأعمار وتجذبهم الى عالم الشارع والسفر والرحلة . . ولكن الاهتمام بها هو عند الذكور اكثر منه عند الاناث لأنها رمز القوة والرجولة . وتدهش البنات والأولاد لأنه يمكن استعمالها في اكثر من مجال وخيال ، فابن الثانية من العمر يدفع العربة بارتباك ورغبة في اظهار القوة على ارض الحجرة ، والطفل الذي يبلغ السادسة يفكر في انشاء طرق للقطار الذي اشتراه ويفكر في انشاء محطات لهذا القطار . والطفل الذي يكون في الثانية عشرة يكاد يضع تصميماً دقيقاً لما يحدث في الواقع . . اما عندما يبلغ الإنسان السادسة عشرة ، فإنه يستطيع ان يصنع بنفسه عربة القطار او نموذجاً للسيارة .

إنني اتذكر طفولتي عندما كنت ارى قطارات اللعب الكبيرة غالية الثمن . . ولم اكن اجرؤ على ان اطالب بشراء واحدة منها حتى لا ارهق ميزانية الأسرة . كانت سعادتي لا حد لها عندما كنت اذهب الى بيت خالي والعب بذاك القطار الذي اشتراه لأبنائه ، واشترك معهم في تنظيم محطاته ونتفق معاً في ادارته . وأول ما فعلته بعد زواجي ومولد ابني هو شراء عدد من هذه القطارات له . اشتريت اولاً القطارات التي تمشي بالنابض ، وبعدها احضرت له نماذج طبق

الأصل من القطارات الحقيقية . وملأت حجرته بعربات النقل والحافلات . ملأتها بنماذج للدبابات التي (تنقلب) وتقوم بحركات بهلوانية . . وكنت احاول في حماس ان ارضي رغبتي في تعويض ما فاتني انا في طفولتي بأن اشتري له كل شيء كنت محروماً منه . . واعترف انني في الشهور الأولى لولادة الطفل كنت انا الذي العب بهذه الألعاب وانه كان يخاف من بعضها ، وهكذا ظهر انني انا الذي يحصل على السعادة بهذه الألعاب ، تلك السعادة التي تمنيتها لنفسي من طفولتي ، وعرفت انني انما كنت احاول ان ارضي نفسي لا ان ارضي طفلي . . وزاد في ذلك الاحساس ابني الثاني الذي حاولت معه ايضاً ان اعلمه هذه الألعاب . . ولكنه لم يستطيع ان يلعب بها . . خاف ايضاً كأخيه . . واحسست انني يجب ان اراجع نفسي . يجب ان احترم ما يطلبه عمر الطفل من ألعاب .

ان الطفل ـ كي يستمتع باللعبة ويحصل منها على خبرة تقوده الى النضج ـ لا بد ان نترك له قيادة الأمر بنفسه ، وان يتبع ما يقوله له خياله ، بهذا فقط تصبح اللعبة مفيدة . إنها يجب ان تكون « معلمة » له . . ولا بد ان « يخضعها » لأفكاره . وعندما يجد نفسه في حاجة الى مساعدة احد الوالدين لادارة المتراكم من المشاكل الطارئة مع لعبته . . فلا بد ان يساعده الوالدان . ان بعض الآباء يرفضون باحساسهم هذا الدور في معالجة مشاكل الطفل مع لعبته . انهم يظنون انه دور ثانوي ، دور جانبي . . . وان الابن يلعب الدور الحقيقي والأول . ان الأب يتحسس اللعبة احياناً كأنها كانت نقوداً خرجت من جيبه منذ قليل وهي الآن امام طفل قد يحطمها . ان هذا الاحساس خاطىء تماماً . اننا يجب ان نترك للأطفال ادارة شؤون العابهم حتى يستطيعوا التعلم منها . لا يهم ان يكسر الطفل اللعبة . . لا يهم ان تحطمت بين يديه ، لكن من المهم ايضاً ان نشتري نحن له الألعاب التي يمكن ان تدوم . ولا بد لنا ان نتمتع نحن بالدور الثانوي في مسألة اللعب ، وليكن الطفل هو البطل الذي يدير كل شؤون لعبته .

ولا مانع ابداً في ان نشتري للطفل بعض الألعاب التي تفيده عندما يصبح اكبر . . فمثلاً بدلاً من ان نشتري له دراجة صغيرة ذات عجلات ـ يمكن ان نشتري له دراجة اكبر قليلاً تنفع من سن الثالثة حتى الثامنة . . وهي بطبيعة

الحال لا بد ان تكون دراجة ذات عجلتين ويمكن ان تسند العجلة الخلفية بسنادتين . ان ذلك يدفع الطفل الى الاسراع بالنضج .

انني اذكر هذه الفرحة العارمة التي عاش فيها ابني عندما احضرت له في عيد ميلاده الثالث عجلة من مقاس ١٨ . ذلك المقاس الذي يصغر حجمه قليلاً عن العجلة الكبيرة التي يركبها الشباب.وطبعاً اشتريت له « العجل الذي يسندها » بحيث اصبحت عجلة كبيرة في نظره وفي الوقت نفسه تقيه خطر الوقوع المستمر على الأرض . ان اصراره ومحاولاته الدائمة لركوبها ونجاحه في ذلك . . يؤكد ان الطفل قادر على ان يتعلم من لعبته وقادر ايضاً على ان يحترم قواعد المرور .

وانتقل الآن مع الطفل في سنوات عمره . فهو ما بين الثامنة والعاشرة يهوى نماذج السيارات ويهوى تصميمها وتصميم الطائرات والقطارات والسفن . وهذه الأنواع من الألعاب الشائعة والتي يمكن ان يفككها الطفل ويعيد تركيبها ، لا تعلمه المهارة اليدوية وحسب ولكنها تولد فيه الاحساس بالانتصار الدائم بتركيب الآلات . . وتعلم التاريخ ايضاً . . وتخلق لدى الطفل خيال المخترع . لقد وقعت انا شخصياً في هوى هذه الألعاب وانا كبير وكنت ألعب بها مع ابنائي . وأجمل ما في الأمر هو اهداء الطفل عندما ينجح في الدراسة صندوقاً لأدوات النجارة مثلاً او صندوقاً من الأدوات التي تصمم بها الألعاب المختلفة مثل القطارات والسيارات والجسور .

ومن الأفضل ان نجعل الطفل هو الذي يشتري بنفسه العابه التي يريدها . ان ذلك يخلق ترابطاً بينه وبين لعبته .

وعندما اقول ان ادوات النجارة تعتبر هدية مثيرة لاهتمام الطفل . . فقد تصرخ بعض الأمهات ويفتح بعض الآباء افواههم في دهشة قائلين : « إننا لا نفكر في تلك الأدوات فالمطرقة قد تقع على اصبع الطفل والمنشار قد يجرح يده والمِسْحَجة التي يجعل بها سطح الخشب املس قد تمزق ملابسه » . انها العاب في نظر الكبار مؤذية جداً ، لكن الحقيقة غير ذلك تماماً ، انها تعلم الطفل الدقة

والحذر ، والانتباه واجادة ما يفعل . ان هناك في كل اسواق العالم مطارق ومناشير رخيصة وهشة ، وبيعها للأطفال هو نوع من الغش والاحتيال . . لأن الطفل لا يستطيع ان يتم بها عملاً ما . ان المخباط يجب ان يكون ثقيلاً بالقدر المناسب لكي يدق به الطفل مسماراً . والمنشار يجب ان تكون اسنانه حادة ليستطيع ان ينشر به الخشب . اما الخوف على الأطفال من هذه الألعاب فيمكن ازالته تماماً بالاشراف على الطفل لحظة استخدامه لهذه الألعاب . ولقد رأيت بعينيّ بعض الأطفال في سن الخامسة والسادسة يصنعون العاباً خشبية صغيرة بهذه الأدوات . والأطفال في الثامنة والتاسعة يمكنهم استعمال المسحجة والزوايا التي يعالجون بها الخشب كما يمكنهم استعمال الأدوات الحديدية التي يثبتون بها الخشب بعضه ببعض . . وعلينا ان نأخذ المثل من الأطفال الذين يلعبون بأعواد الخشب والمكعبات . . انها قادرة على ان تشغل الطفل لمدة ساعات ، فما بالك حين نتيح له فرصة لكي يصنع بنفسه هذه اللعب .

قد يقول احد الآباء :

ـ كل ما ذكرت هو لعب للأولاد ولم تذكر لعباً للبنات .

هناك حقيقة مؤكدة وهي ان ما يصلح للطفل يصلح ايضاً للطفلة ، لكن نحن نحصر الطفلة دائماً بلعبة العرائس . نشتري للطفلة « عروسة » تهتم بها . انا شخصياً اشتريت لابني عروسة ليلعب بها وقلت له انها هدية . . وان اخته القادمة ستشاركه اللعب بها . . وظل مدة شهور يطعمها ويسقيها ولكنه مل بسرعة مسألة ان يصنع لها فستاناً وقال لي « انا لا اصنع لنفسي السروال» إنني اشتريه جاهزاً أنا لا أحب ان انتظر « الخياط » وانت لا تحب لي ان اظل انتظر الملابس الجديدة . . انني احب ان ارتديها فور ان اشتريها فلماذا تطالبني بأن أصنع ملابس العروسة ؟ !

وضحكت وعرفت انا وعرف ان العروسة ليست لعبته وتوصل الى ذلك بنفسه ـ وعندما بلغت ابنتي الثانية من العمر وقعت في غرام هذه العروسة . . لكنها ايضاً كانت تلعب بلعب اخيها ، ولكن الحنين الى العروسة هو الأصل عند الفتاة . انها اكثر اللعب انتشاراً عند البنات . وعروسة الأطفال في عصرنا لا

تغلق عينيها وتقول « بابا » و« ماما » فقط . . لكنها تشرب وتلد ايضـاً ، ولقد استشارني احد مخترعي لعب الأطفال في فكرة صناعة دمية على شكل ام تلد طفلاً ثم ترضعه . . وضحكت يومها وطلبت منه ان أفكر في الأمر . . وما زلت افكر فيه حتى الآن ولم ابد رأياً .

وكل بنت في عصرنا تمتلىء بالرغبة في امتلاك احدث نماذج للعرائس . . وتفرح أي بنت بها ويزيد من الاحساس بالفرحة انواع « التمثيليات » التي تجعل الفتاة تشعر بأنها ام صغيرة . . انها تفصل ملابس العروسة ، وتقوم بالباسها الفساتين ، تغير لها هذه الملابس . تحمي العروسة . تسرح لها شعرها . تتمشى بها . تطعمها . تأمرها . تجعلها تنام . تجعلها تتعلم . ان العروسة في حياة الطفلة تعيش بطلة لألف مسرحية وتمثيلية ، فالطفلة تلعب معها دور الأب ودور الأم والصديق وتجعلها تعيش معها حياة المدرسة والمغامرات والقصص التي تقرأها واخبار الجيران وحياة البيت بما فيها من مناقشات بين الأب والأم . . ولأن ملابس العروسة تأخذ جزءاً كبيراً من تفكير الطفلة لذلك فأنا أطالب بأن يكون مع كل عروسة عدد من الفساتين. ونحن نعرف ان المصانع تقدمت في هذا المجال بصورة كافية . واصبح هناك « حجرات نوم » صغيرة الحجم للعرائس التي تلعب بها البنات . . وهناك ثلاجات صغيرة لوضع زجاجات الارضاع الخاصة بالعروسة الدمية ، وادوات غسل لملابسها ، وكلها تخلق بهجة لا حد لها بالنسبة للطفلة .

وهناك العاب تثير في الطفل الرغبة في التحدي والمنافسة وتعلمه « لعبة الحياة » كلها من خلال الذكاء وتقبل الفشل والتفكير في الانتصار . انها الشطرنج وما يماثلها من ألعاب .

وطبعاً لا داعي لذكر كرة القدم او الكرة بأنواعها . . فالأطفال يقعون في هوى هذه الكرة بكل احجامها ويثير نشاطهم جداً ان يلعب بها الكبار معهم .

وهناك لعب كهربائية كثيرة ـ كالمنارة البحرية ومحطات ضخ البترول ومحطات البنزين وعربات المثلجات والدجاجة التي تبيض بيضاً وفي داخل البيض فراخ . .

كل هذه الألعاب تشد اليها الطفل للوهلة الأولى لكنه لا يلعب بها اكثر من نصف ساعة ويجدها محدودة المجالات لا تثير خياله ولا تنمو معه ولا تعطيه غير خيار واحد . . هي اما ان يحتفظ بها كما هي ، واما ان يفكر في تدميرها . ان مشكلة هذه اللعب هي ان تركيبها الداخلي معقد وان اسلوب اللعب بها غير مشبع لكل ألوان النشاط الحيوي الذي يمتلىء به الطفل .

ولنناقش الآن لعب الرماية . . بدءاً برمي السهام وانتهاء بالمسدسات والمدافع وكل ادوات الحرب . ان ادوات الحرب يمكن ان تنتشر في المجتمع الذي يحارب عن عقيدة . . ان احداً لا يستطيع ان يعترض على ذلك . صحيح ان علماء النفس في امريكا وفي اوروبا قد اصبحوا يرون ان ذلك خطير على التكوين النفسي للطفل . . لكن من الذي يستطيع ان يقنع مجتمعاً يحارب من اجل حياته بأن يمنع تدريب اطفاله على العاب القتال .

قديماً كنت اظن انه من الأفضل ان يبتعد الأطفال عن هذه الألعاب ، لكنهم يصلون الى سن التجنيد ويحاربون العدوان . يرون الظلم واقعاً في العالم ، وعندما ينتهي الظلم من العالم سنقول « لا داعي لتعليم الأطفال هذه الألعاب » . ان هذه اللعب ذات عنف مزيف . ولكن هناك عنفاً حقيقياً في العالم يجب ان يتنبه له الطفل من البداية ليعرف في أي عالم يعيش ولأي مجتمع ينتمي . ان علم نفس الطفولة يرى ان تلك الألعاب تعلم الطفل العدوان ، ولكني ارى انها تعلم الطفل في أي أرض يعيش . . صحيح اننا يجب ان نعلم الطفل البناء والخلق . . ولكن من قال ان المدفع لا يبني ؟ انه يبني حرية بلاد تريد لها مكاناً تحت الشمس . ان كلمات التحضر والمدنية وتبادل الحب بين الشعوب واحترام الحقوق المشروعة للانسان ، كل هذه الكلمات ما زالت خيالاً لا يتحقق في الواقع والى ان تطبق بحق . . فعلى الآباء ان لا يمتنعوا عن تعليم اولادهم اللعب بألعاب الحرب .

ان هذه ليست دعوة للآباء ليحولوا اولادهم الى تقديس اخلاق القتل والجريمة لكن هي دعوة لأن يشرح كل اب لابنه ظروف مجتمعه الذي يعيش فيه .

ولكن هناك بعضاً من هذه الألعاب التي يبدو الغباء جلياً في انتاجها، ومن يصنعونها يفتقدون الذكاء . مثل الطائرة التي تطير . . والعجلة التي تطير في الهواء والصاروخ الذي ينطلق من قاعدة . . انها لعب تثير الملل بسرعة وتجعل اعصاب الأسرة شديدة التوتر .

لكن موقفي يختلف كل الاختلاف فيما يتعلق باللعب التي تشرح للمراهق مثلاً كيف يصنع طائرة . انه ينفق الساعات في صناعة الطائرة ويحصل منها على لذة البناء والاختراع . .

وفي قلبي غضب عظيم على اعلانات لعب الأطفال التي نسمع عنها في الراديو ونراها في التلفزيون .

إنهم يستغلون قلب الأطفال النقي ويعرضون العاباً سريعة التلف غالية الثمن . ويجب ان تقف الدولة ضد هذا النوع من الألعاب الخادعة . . لأن الغش يكلف الآباء ثمناً كبيراً . . والاعلان يلح على عين الطفل واذنه والطفل كائن لا يعرف ان هناك في العالم من يحترفون الغش والمكسب عن طريق الخداع . ويجب على الأب ايضاً ان يكون حازماً في عدم شراء مثل هذه اللعب . إن أي لحظة تردد تجعل الطفل يحاول النفاذ في تلك اللحظة الى ضرورة امتلاك اللعبة . . ان شرح الحقيقة للطفل بأن هذا الاعلان كاذب وان هناك لعباً افضل منها وأنفع فعلاً كفيل بأن يحل المشكلة . اما اذا كان الطفل كبيراً ، أي يقترب من المراهقة . . واراد ان يشتري لعبة من نقوده الخاصة فليس امامنا نحن الكبار سوى ان نوضح للابن في ما اذا كانت اللعبة ملائمة ام لا . اننا نقدم النصيحة فقط ونتركه يشتري ما يريد ما دام ما يشتريه ليس شيئاً خطيراً .

ان علينا ان نعرف ان التجربة وحدها هي التي تعلم الطفل كيف يوازن بين رغبته في لعبة ما وبين عدم جدوى هذه اللعبة . ان قدراً من التجارب التي يفشل فيها الطفل في الحصول على متع متعددة من لعبة ما تجعله يحذر بعد ذلك من شراء أي لعبة اخرى غير مفيدة . ان نية الأطفال سليمة ومن يخدعون هذه النية كثيرون وهم تجار اللعب البراقة التي سرعان ما تتلف. وهؤلاء يحاولون ان

يسيطروا على الطفل بنفس الطريقة التي يسيطرون بها على الكبار . . يريدون ان يقع الطفل فريسة للاعلانات الخلابة ، ولكن لا بد ان يتعلم الطفل رفض ذلك . لا بد ان يتعلم كيف يتفادى الدوران في فلك الاعلانات الكاذبة .

وثمة انواع اخرى من الألعاب لم اتحدث عنها بعد . إنها « الاراجيح » وتنس الطاولة التي يمكن ان يستمتع بها الطفل في احد النوادي ، او توضع في أي مكان فسيح في البيت .

وأشك في أن يكون في البيوت الحديثة مكان لطاولة « البينج بونج » او لارجوحة ، لذلك أقول ان الطفل يمكن ان يستمتع بتلك الألعاب في احد النوادي . ان هذه الألعاب تجعل الطفل يعيش داخل احساس المنافسة والتعاون . . وهي ترفه عن روح الطفل وتعلمه استقبال الاصدقاء لأنها كلها ليست العاباً فردية .فمثلاً الارجوحة ذات المقعدين المتقابلين . . تجعل الطفل يشعر بأنه يرتفع الى أعلى وقادر على ان يرفع واحداً آخر يجلس امامه الى أعلى ايضاً . . وهناك لعبة شد الحبل والقفز مع حركة الحبل وكرة السلة .

قد يظن بعض الآباء والأمهات انني اغفلت الأطفال الرضع . . وأولئك الذين لم يبلغوا بعد العام او العامين . وأنا أقول . . ها أنا أتذكرهم ، ان أهم ما يمكن ان يشغل الطفل في هذا العمر قبل ان يتعلم الجلوس هو اللعب التي على شكل طيور ذات الوان متألقة ، وايضاً الأجسام المطاطة التي يمكن ان تترجرج امامه ، هذا بالاضافة الى الألعاب ذات الأصوات الموسيقية . . ان الطفل الرضيع يظل يحملق في هذه الألعاب لمدة ساعات وهو يناغيها . وهناك ايضاً الأطواق الملونة وحلقات التسنين التي يعضها الطفل . . والحيوانات المصنوعة من القطن . ومن المهم جداً تلك اللعب التي تعوم كالبط والأوز والغزلان ، إنها مهمة اثناء الاستحمام لأنها تسهل مهمة الأم في التعامل مع الطفل اثناء وجوده في الحمام .

وعندما يبدأ الطفل في المشي فإن اللعب التي تشد اهتمامه هي اواني الطهو : الحلل والملاعق . . والدق على الحلل بالملاعق . . واكثر ما يزيد الطفل

سعادة هو قدرته على نقل شيء من مكان الى آخر . ثم هناك السلم الموسيقي والبيانو الصغير ـ ذلك ان هذا العمر هو عمر الايقاع ، لذلك تجد الطفل يسعد تماماً بالكرسي الهزاز في الشهر السادس . .ويسعد غاية السعادة بالحصان الهزاز . كما انه يمتلىء بالاغتباط عندما يعرف كيف يصعد درجات سلم خشبي صغير في المنزل .

من المؤكد انني لن استطيع ان اضع جدولاً شاملاً لكل الألعاب التي يمكن ان يلعبها الطفل . . وكل ما اردته هو ان اعطي فكرة عامة .

وأتذكر الآن هوايات يجد فيها الطفل الناضج الذي تجاوز السابعة متعة كبيرة . . كمجموعات الطوابع النادرة والنقود التي تصدر في بلاد مختلفة . . وعينات من الصخور واحجار البحر ، ومجموعات الفراشات ودودة القز . ان هذه الهوايات تضمن للطفل سعادة بالغة اذا ما تعلق باحداها . . ولكن يجب ان أنبه الى ان بعض الأسر تعطي الطفل مجموعات جاهزة من طوابع البريد مثلاً ، ان هذا يقتل شغف الطفل بهواية الجمع بنفسه للطوابع او للصخور . واجبنا ان ننمي في الطفل هذه الهواية بأن ندله عليها فقط وان يبذل هو الجهد لجمع طوابعه .

هل نسيت ان أشير الى الرسم والألوان وورق « القص واللصق » او الطين « الصلصال » لا ، لم انس ذلك . حتى لو نسيت فالإنسانية كلها تعرف ان التاريخ بدأ . . عندما بدأ الانسان ينقش تاريخه بالألوان على جدران الكهوف .

وكل مدارس الحضانة والمرحلة الابتدائية تجد من الأطفال اقبالاً على اللعب بالصلصال وورق القص واللصق والألوان التي يرسم بها الأطفال وهناك معارض سنوية وجوائز عالمية لرسوم الأطفال .

ان الألوان وورق « القص واللصق » تفجر طاقات الفنان داخل الطفل وتجعله يرسم عالماً جديداً من البيوت والحدائق والمناظر والحيوانات

كم اتمنى ان اعود طفلاً لألعب بكل الألعاب الممتعة التي يقدمها عصرنا

للأطفال . ان الطفل الآن سعيد جداً قياساً الى الحرمان الشديد الذي عاناه اطفال الأجيال السالفة . وعلينا ان نتذكر ان هناك اطفالاً في العالم لا يجدون هذه الألعاب لأن مجتمعاتهم فقيرة ، لذلك لم أتوقف طويلاً عند نقطة تعليم العاب الطفل القتالية : المسدس والمدفع والدبابة ، لأنها ستصبح لعبة هؤلاء الأطفال عندما يحاولون ان يقيموا العدل في مجتمعاتهم . .

رحلات السفر مع الأطفال

لا بد ان نثير خيال الطفل بالحكايات الواقعية في المكان الذي سنذهب اليه ، لأن ذلك يجنّب الطفل العذاب في وسائل المواصلات ، ويجعله ايضاً شغوفاً بالسفر معنا . .

عندما تبدأ شهر العسل مع زوجتك ، او عندما تبدئين شهر العسل مع زوجك ، فإنه لا يخطر في بال احد منكما انه قد يأتي بعد تسعة شهور من هذا اللقاء الوردي طفل صغير . هذا الطفل يطلب منكما التفكير في كل صغيرة وكبيرة من حياته . واحياناً تكون التفاصيل الصغيرة في الحياة اليومية قادرة على ان تملأ نفس الأب او الأم بالضيق والملل . ان جهل كل منهما ببعض الأساسيات البديهية قد يكون مصدر عذاب لا حد له .

من منا نحن الآباء والأمهات يفكر في ان السفر مع طفل صغير مشكلة ؟ لا احد يفكر في ذلك في الأيام الأولى للزواج . .

لكن ما ان يأتي الطفل . . حتى تضطر الأسرة الى الرحيل من مكان الى آخر ، من بلدة الى اخرى . قد يكون السفر بالطائرة او القطار او السفينة او السيارة . ومن يتصور طفلاً يقبل الجلوس على مقعد ثابت لمدة ساعات طويلة ؟ لا بد للطفل من ان يتحرك . لا بد له من ان يثير قدراً من المشاكل . . او لا بد للأم والأب من خيال بارع وسرعة تصرف .

هناك ام افادتني بخبرتها المدهشة في هذا المجال . انها فنانة تعمل عازفة على الكمان وزوجها « قائد » لاحدى الفرق الموسيقية ، ويعيش الاثنان في امريكا . وتضطر الأسرة الى الانتقال من بلد الى آخر ، ذلك ان الفرقة الموسيقية التي يعمل بها الأب تنتقل من بلد الى بلد . والأم تحب الأب وترى انها يجب ان تكون معه في كل مكان . وهذه هي رسالتها التي نجد فيها الكثير من المعلومات المدهشة الرائعة لفن معاملة الطفل ورعايته اثناء السفر . . تقول في الخطاب :

« ان زوجي يعمل في فرقة موسيقية . هو القائد وانا عازفة على الكمان . وكانت حياتنا لمدة سنوات هي رحلة من الحب المتجدد . فكلانا يحب عمله جداً . ان الموسيقى بطبيعتها الرائعة تجعل الانسان شفافاً وقوياً وقادراً على ان يعيش مع العواطف الحارة دائماً . وكنا ننتقل من بلد الى آخر كالفراشات . نسافر . ننطلق . حياتنا مليئة بالشجن والحب والانسجام ،انها حياة عاشقين ، لا يمكن ان يدخل اليها الملل . تتجدد الألفة بينهما دائماً . وفجأة وبعد ثمانية اعوام من الزواج السعيد للغاية ، بدأت اعراض الحمل تظهر . صحيح ان الحمل كان فرحة كبيرة بالنسبة لكلينا ، وذلك ان هناك سؤالاً دائماً في قلب كل زوج وكل زوجة . . هو . . هل انا قادر على الانجاب ؟ هل انا قادرة على ان اكون أماً ؟ . . وسلسلة اخرى من الأسئلة التي تجعل السعادة تتأرجح بين الأحلام الرائعة والخوف من العجز عن تحقيق جزء هام من هذه السعادة . ولكن تفاصيل ايام الحمل تدفع الألم الى حياة الأم . ان طعم الحياة يختلف . تشم الأم روائح لا تشمها في العادة . تجد نفسها احياناً منتفخة . تحرص على تنفيذ تعليمات الطبيب .

وهكذا عرفت ان عليّ ان اختار بين ان اكون أماً او عازفة للموسيقى . وقررت ان أكون أماً . وقررت ايضاً ان أكون بجانب زوجي في كل رحلاته وحفلاته . وعندما جاء ابني احسست انني اقتربت من ان اصبح « سجينة » يجب ان اختار مرة اخرى بين السفر مع زوجي او البقاء مع الطفل ولكنني قررت ان احطم هذا الاحساس بالسجن . قررت ان اسافر مع زوجي في رحلاته وان نصحب طفلنا معنا في هذه الرحلات . اتخذت هذا القرار وكان طفلي في نهاية شهره الثاني فقط .

إنني أتذكر تلك الأيام الطويلة التي مرت . ان طفلنا الآن يقترب من السادسة أي ان هناك ستة اعوام من الخبرة في السفر مع طفل واحد الى اكثر من مكان والى اكثر من مدينة .

في البداية كنت عصبية جداً ، وكذلك كان زوجي . وكان مصدر التوتر في حياتنا هو اننا لم نتعود بعد على نظام الحياة مع طفل . وكنا نعرف ان السفر هو

جزء من عملنا . ولكن ثقتي في انني صاحبة خبرة بفن السفر ، جعلتني لا أتردد كثيراً في تنفيذ ما قررته وهو ان آخذ طفلي معي الى أي مكان اسافر اليه مع زوجي . كنت اجيد فن الاستمتاع بالسفر .

صحيح ان الأمر يختلف بين ان يكون السفر مع آلة كمان وبين ان يكون مع طفل صغير ، وبالتالي كان عليّ ان امشي في طريق مليء بالشوك والمتاعب . ولكن بعد ست سنوات استطيع الآن ان اهنىء نفسي على انني أنا وزوجي وطفلي نعيش في سعادة لا حد لها . ونحن جميعاً في صحة جيدة ونملك قدرة كبيرة على التكيف مع أي ظرف وأي مكان . ووجدت نفسي ارغب في ان اقول لك . . كيف يمكن ان تسافر الأم مع طفلها دون ان تنزعج او تزعج الآخرين . ان عدداً كبيراً من الناس يسافرون الآن ومعهم اطفالهم ، والمطارات ومحطات القطارات تعجّ دائماً بالأمهات والآباء الذين يصحبون معهم اطفالهم الصغار . ونجد على ملامح الأمهات والآباء نوعاً من الشفقة على الطفل من مشقة السفر . وترى ايضاً احساساً بالعجز عن فهم او تصور كيف يمكن ان تكون الرحلة مع الطفل . وأثناء سفري انا كثيراً ما شاهدت اشياء عجيبة وغريبة ، كان من الممكن ان اتلافى حدوثها بقليل من النصح والتعلم . مثلاً هناك امهات تسافر الواحدة منهن مع طفلها في رحلة تستغرق ٤٨ ساعة ولا تحمل معها غير زجاجتين اثنتين احداهما للماء والثانية لاطعام الطفل . وعندما تنكسر احدى الزجاجتين تكاد الأم تفقد صوابها لأن الطفل يجوع ويبدأ بالصراخ، وقلب الأم يتمزق . وقد صادفت في رحلاتي نادلا في احد القطارات يحتفظ معه بعدد من «الحلمات» التي يمكن تركيبها على أي زجاجة . ويقدم « الحلمة » للأم التي تنكسر منها زجاجة طعام طفلها بعد ان يعقمها ليتم تركيبها على أي زجاجة لاطعام الطفل . وقال لي هذا النادل :

- انني ارى عيون الأمهات تمتلىء بالجزع والخوف من ان يموت الطفل من الجوع . والطفل نفسه لا يرحم عندما يكون جائعاً . ان صراخه يعلو لا ليزعج الأم فقط ، بل انه يزعج ايضاً كل اهل المكان . واذا كان المكان قطاراً فلك ان تتصوري العذاب الذي يعيشه الركاب بسبب صراخ طفل جائع . ولقد لاحظت

ان بعض الأمهات يتملكهن الخوف الشديد على الطفل ، وتحاول الواحدة منهن ان تخلط البيض المسلوق بقليل من الماء وتحاول ان تجعل الطفل يأكل هذه الخلطة اللينة والطفل يرفض هذا النوع من الطعام لأنه لم يجربه قبل ذلك . إنه لم يأكل بعد أي شيء جامد . ولذلك فقد احتفظت دائماً في القطار بهذا النوع من الحلمات الصناعية التي يسهل تركيبها على أي زجاجة لتكون في متناول أي أم تسافر مع طفلها وتتعرض لمثل هذا الموقف . وطبعاً استطيع ان اعقم الزجاجة والحلمة في الماء الساخن .

هذه هي خبرة النادل . وأنا أيضاً استطيع ان اعرض خبرتي في هذا المجال :

لقد تعلمت انني يجب ان احتفظ دائماً بوشاح من الصوف او دثار صغير او كنزة صغيرة للطفل ومع الكنزة سروال من الصوف . سروال ذو ارجل طويلة وليس سروالاً قصيراً . . . ذلك ان الجو قد يكون حاراً . وقد تكون التذكرة التي تحملها الأم للقطار مكتوباً عليها ان هذا القطار مكيف الهواء . وطبعاً كذلك تذكرة الطائرة . لكن من فينا يضمن ان اجهزة التكييف لن يصيبها العطب ؟ . ما يدرينا ان الجو داخل القطار او الطائرة لن يصبح شديد البرودة نتيجة أي عطب في جهاز التكييف ؟

وتعلمت ايضاً ان احمل معي مياهاً للشرب اما في وعاء «ترمس» أو اشتري زجاجة مياه معدنية من أي دكان . ذلك ان نوع المياه قد يختلف من بلد الى بلد . هناك بلاد تكون فيها المياه التي في الصنبور صالحة للشرب . . وهناك بلاد اخرى تكون المياه فيها غير صالحة للشرب . وحتى اوفر على نفسي متاعب الاسهال او الامساك فإنني احمل ترمس الماء . وغالباً ما اشتري زجاجة المياه المعدنية حتى اجعل السفر ممتعاً بالنسبة للطفل عندما يشعر انه يتناول نوعاً خاصاً من المياه اثناء السفر . وطبعاً لا انسى ابداً أن احمل معي عدداً كافياً من زجاجات الارضاع ، حتى اذا ما انكسرت واحدة آخذ غيرها . واحتفظ معي بزجاجة فيها عصير البرتقال الذي يحمي الطفل من البرد ويمنع ايضاً الامساك . لأن الطفل الذي لم يسبق له السفر قد يكون عرضة للامساك . وعلى الأم طبعاً ان تفعل

مثلي ، لقد كنت اضع معي دائماً كمية لا بأس بها من السندويتشات والفاكهة والبسكويت او أي طعام خاص بالطفل ، لأن عربة القطار الخاصة بالطعام قد لا يكون فيها مكان او ان مواعيد تقديم الطعام في الطائرة لا تناسب مواعيد طعام الطفل او رغبته في تناول الطعام لأن الطائرات لا تحسب الزمن الذي يستغرقه الانتقال من المكان الذي يسكن فيه المسافر الى المطار . ويغيب عن المشرفين على الطائرات في بعض الأحيان ان هناك طفلاً قد يجوع . ان زجاجة من اللبن المبستر وعدداً من البيض المسلوق وسندويتشات الجبن ، كل ذلك يسهل حمله . وهذه الأشياء عادة تمثل الفارق بين رحلة بلا مشاكل مع الطفل ، ورحلة اخرى تعيسة من كثرة المشاكل التي يسببها الطفل . وعلينا ان نعرف ايضاً ان الطائرات قد تكون مجهزة بزجاجات المشروبات الروحية . . ولكن في معظم الأحيان لا يوجد في الطائرة كوب واحد من اللبن . وطبعاً لا تعارض الطائرات في ان تحمل الأم لبناً لطفلها .

ولماذا لا تخبىء الأم احدى العاب الطفل الصغيرة وتظهرها كمفاجأة سارة للطفل ، عندما يبدأ مله في الرحلة ، أوبتظهر عليه علامات الارهاق او التوتر ؟ ان لذلك مفعول السحر على نفس الطفل . إنه يفرح وتتجلد بهجته مرة اخرى . يجد ما يسليه . وهناك وسيلة اخرى هي ان تصحب الأم معها كتاباً مصوراً من تلك الكتب الملونة الزهيدة الثمن والمطبوعة طباعة جيدة . ان هذه الصور المسلية تخلق للطفل عالماً سعيداً . وغير هذا وذاك . . يمكن للأم ان تصحب معها عدداً من الألوان وكراسة رسم صغيرة ، ويبدأ الطفل في الرسم . لكن لا بد ان احذر الأم من ان تصحب معها كتاباً يقرأه الطفل . فالرحلات الطويلة مليئة بالاهتزازات . وذلك يرهق عيني الطفل . فالطائرات تهتز والقطارات كذلك والسيارات ايضاً . وارهاق الطفل لا داعي له بطبيعة الحال .

ومن اهم ما يجب ان تتذكره الأم وهي تستعد للسفر علبة من البسكويت المملح . . ان ذلك شيء يشبه المعجزة بالنسبة للطفل ومعدته . فمعدة الطفل قد تعلن التمرد على اهتزاز الطائرة او القطار او السيارة . والبسكويت المملح استخدمه القدماء في علاج النساء اثناء فترة الحمل لمقاومة

القيء . . وهو نافع جداً بالنسبة للطفل ايضاً . اذكر اني اثناء رحلاتي كثيراً ما وزعت البسكويت المملح على الكبار والصغار الذين سافروا معي . ثم هناك شيء آخر . . هو المناديل الورقية . انها سهلة لتنظيف أي شيء ولمواجهة اي طارىء . ولعل اروع ما يوضع في حقيبة الأم المسافرة هو مفرش من النايلون او البلاستيك الكبير الحجم . ومن الأفضل ان يكون مع الأم مفرشان من النايلون ومن النوع الذي لا يشغل اي حيز من الحقيبة . وذلك حتى تضع الأم واحداً على فراش الطفل في الفندق الذي تنزل فيه او على فراش السرير الذي ينام عليه الطفل عند الأقارب الذين تنزل الأسرة في ضيافتهم ، وذلك طبعاً في حالة الطفل الصغير الذي يبلل الفراش كما يمكن ان يوضع هذا المفرش ايضاً على المقعد الذي ينام عليه الطفل في الطائرة او عربة النوم . ان هذا المفرش النايلون سهل الحمل . وقد تسأل أي ام « ولماذا المفرش الثاني ؟ » وانا اجيب انه هام جداً . . حتى تفرشيه فوق السجادة التي يلعب عليها الطفل وخصوصاً اذا كان يهوى اللعب بالألوان والصلصال . ان المفرش هنا يؤدي وظيفة حمايتك من عيون الآخرين التي تطالبك بأن تعلمي ابنك كيف يحافظ على السجاد . . وهو في سن لا يعرف فيه فن المحافظة على أي شيء سوى متعته الشخصية . وهو يحمي السجاد من البقع ، وهو رخيص الثمن ومهدىء لأعصاب الأم ولأعصاب صاحب الفندق . بل مهدىء لأعصاب الأسرة التي تنزلين في ضيافتها . ومن المؤكد ان الأم عندما تصحب معها طفلاً ، تفضل ان تنزل في شقة مفروشة من تلك الشقق الصغيرة الموجودة في الفنادق . لأن الطفل يأخذ حريته فيها ويمكن للأم ان تنظف بنفسها المطبخ حتى تعد طعام الطفل بنفسها . . وتنظيف المطبخ اسهل طبعاً من ان يتناول الطفل طعامه في مطعم خارجي ويكون عرضة للاصابة بنزلة معوية، فضلاً عن امكان رفضه تناول الطعام وسط مجتمع غريب مليء بهؤلاء الذين يأكلون ويحدثون الضجيج . والشقة المفروشة افضل ايضاً لأن الطفل عندما يلقي ببقايا طعامه على الأرض يمكن للأم ان تنظفها ، بدلاً من تعرض الأم في مطعم عام لعين النادل محذرة من اسلوب تربية الطفل الذي لا يجيد بعد استعمال ادوات المائدة بشكل يرضى عنه أصحاب المطعم . ان الطفل قد تقع منه بقايا الطعام على الأرض ولكنك اذا كنت قد وضعت المفرش

النايلون تحت الكرسي الذي يجلس عليه الطفل يصبح من السهل تنظيفه دون ازعاج لأحد . ان كل امرأة تسافر كثيراً مع الأطفال تعرف جيداً ان اصحاب الفنادق لا يرحبون كثيراً بالأطفال. ان الطفل بالنسبة الى صاحب الفندق كائن مزعج رغم الابتسامة التي يرسمها على وجهه . ان الطفل عندما يأكل بيضة نصف مسلوقة قد يجعل عقل صاحب الفندق يفكر في ثمن السجادة او المفرش الذي على المائدة . انني اعرف ان بعض اصحاب الفنادق يرفضون نزول الأطفال في فنادقهم ، ولذلك فعلى الأم دائماً ان تحجز مكانها في الفندق قبل ان تصل اليه ، لأن بعض الفنادق تكتب «لا يسمح باستقبال الكلاب او الأطفال». وعلى الأم ان تتذكر دائماً انها لا بد ان تحمل معها بعض الحلويات التي تعجب الطفل اثناء السفر . وانا شخصياً احمل بعض الحلويات اثناء رحلاتي لا لطفلي فقط ولكن للأطفال الذين يتفق وجودهم معنا اثناء السفر . وطبعاً انا استأذن والدة أي طفل قبل ان اعطيه أي قطعة من الحلوى . كل ذلك حتى يمكن انقاذ أي رحلة طويلة من بكاء الطفل .

بقي شيء اخير يجب ان اقوله للامهات اللائي قد يصحبن ابناءهن في رحلة سفر طويلة . لا بد من شراء حقيبة صغيرة للطفل ليحملها بنفسه . ولست بذلك ادعو بالطبع الى شراء حقيبة فخمة غالية الثمن ولكني اقصد شراء حقيبة متواضعة يمكن ان يحملها بنفسه . ان ابني وهو في الثانية والنصف كان يفرح للغاية وهو يحمل حقيبة صغيرة فيها السندويتشات التي ستأكلها الأسرة وقليل من الحلوى . وعندما كبر قليلاً بدأ يملأ حقيبته بالسيارات الصغيرة ، والمفاتيح القديمة والأقلام الملونة . وعندما نكون في القطار ويتسرب اليه الملل من النظر من النافذة يمكنه ان يفتح حقيبته ويختار لعبة او يبدأ في رسم ما يعجبه على قطعة من الورق . ان على كل ام ان تعرف هذه الحقيقة : ان الطفل منذ الثانية والنصف يعرف أفضل طريقة للعب وتسلية نفسه اثناء السفر ، يعرف ذلك اكثر مما تعرف الأم نفسها .

نسيت ان اقول شيئاً آخر . .

نسيت ان اقول ان الطفل كالقطة يجب ان يكتشف بنفسه المكان الذي يصل اليه ،ومهما كان وصولك الى الفندق مرهقاً بعد رحلة شاقة فلا تنسي ابداً ان

تجعلي الطفل يستكشف بنفسه المكان الذي وصل اليه . إنني كأم ، تعودت على السفر الدائم ، لا انسى ابداً ذلك اليوم الذي وصلنا فيه انا وزوجي وفرقة الموسيقى الى احدى المدن . وفور ان دخلنا الفندق قررنا ان ننام . . وحاولت ان اجعل ابني ينسى تلك العادة ، عادة استكشاف المكان الجديد الذي نزل فيه وهي عادة متأصلة في كل اطفال العالم . وبالفعل اتجهنا جميعاً . . كل واحد منا الى سريره . وفجأة وبعد ساعتين من النوم . . قام ابني من الفراش وايقظني وايقظ والده . وحاول والده ان يقنعه بكل الطرق انه في الصباح يمكنه استكشاف كل ما يريد ، وان الفرقة الموسيقية ستحتاج الى وقت كبير في التدريب وان « بابا » مرهق للغاية . لكن الطفل لم يقتنع . وبالفعل قمت انا معه لأجعله يرى المكان كله ويستكشف الفندق . ومن هذا الدرس عرفت ان الطفل هو قط صغير يجب ان يرضي حب استطلاعه وان يعرف اين هو بالضبط » .

هذه هي رسالة الأم التي تعودت السفر . لقد شرحت بالتفصيل كل شيء عن السفر مع طفل صغير .

لكن هل هناك بعض النقاط التي نسيتها الأم ؟

اعتقد ذلك .

مثلاً السفر مع طفل رضيع . ان اهم ما في السفر مع طفل رضيع هو اعداد زجاجات طعام الطفل . فإذا كانت مدة السفر يوماً واحداً ، يمكنها ان تستعمل « الترمس » وان تحتفظ بعدد من الزجاجات المعقمة التي يسهل استعمالها . وعندما يحين موعد اطعام الطفل يمكنك ان تفرغي بعض ما في الترمس باحدى زجاجات الطعام المعقمة . ان من اصعب اللحظات اثناء السفر مع طفل رضيع هو اكتشاف ان الزجاجة التي يرضع منها الطفل ليست معقمة . واسهل طريقة للتعقيم بطبيعة الحال هي ان تغلي الأم الزجاجة في الماء قبل الرحيل ثم تضعها في اناء معقم آخر . واحتفظي ايضاً بقطعة صغيرة من الصابون وفرشاة لغسل الزجاجات اثناء السفر . وذلك حتى تنظفي الزجاجة فور انتهاء الطفل من تناول طعامه .

وعلى الأم ان تعرف جيداً انه اذا كانت مدة السفر يوماً واحداً فإن زجاجة

واحدة او زجاجتين تكفي للرحلة . أما اذا كانت مدة الرحلة اكثر من يوم فإن من الأفضل ان تحتفظ الأم بعدد اكبر من الزجاجات . . وان تعد كل وجبة قبل اطعام الطفل مباشرة .

ويجب ان لا تنسى الأم ابداً أنها تحتاج الى « قمع » من البلاستيك لصبّ الماء من « الترمس » الى زجاجة اطعام الطفل . وايضاً لا بد من وجود علبة من السكر .

كذلك يجب ان يكون مع الأم الوعاء الذي يمكن ان يقضي فيه الطفل حاجته « القسرية » وعدد من « الملفات » . ان ذلك امر في غاية الأهمية .

هذه التفاصيل الصغيرة يجب ان لا تنساها الأم ابداً ، لأننا احياناً نفرح بفكرة السفر للراحة او الاستجمام او لتغيير الجو . ويكون ذلك كارثة صغيرة من فرط سلسلة العذابات الثانوية المتوالية . ان بطن الطفل هو مَلاكم صغير يمكنه ان يهزم بالضربة القاضية قلب الأم . فالأم لا تطيق ان يتعذب ابنها ابداً بسبب الجوع .

واذا كان الطفل قد بلغ السن التي يمكنه معها ان يأكل الأطعمة العادية ، فلا بد للأم من ان تأخذ معها بعض المعلبات التي يهواها الطفل .

ويجب ان لا تستمر الأم في الالحاح على الطفل بأن يتناول اكبر كمية من الطعام . فشهية الطفل للطعام في اثناء السفر قد تتقلص قليلاً . والالحاح عليه يضايقه . انه ليس مثلنا يعتبر السفر فرصة للتخلص من كل القيود سواء أكانت نظاماً في الطعام او غير ذلك . ان الطفل في بداية السفر يندهش ، ثم يمل ، ثم قد يتعرض الى رغبة عميقة في المشاكسة ليحطم هذا الملل . وقد يبدأ باحدى نوبات التمرد . ان اسلوب حياة الطفل اثناء السفر مثلاً في قطار يهتز على عجلات امر يضايقه . ويضايقه ايضاً استمرار رحلة السيارة . او حتى الطائرة . لذلك كله يجب ان لا نجبر الطفل على تناول الطعام بكثرة .

ومن الأفضل ان تمتنعي تماماً عند السفر عن ان تشتري للطفل الواناً من الطعام مثل « الحلوى » او « المهلبية » او « الارز باللبن » . . او « الجاتوه » . .

او اللحم البارد او السمك البارد او البيض . لأن هذه الألوان من الطعام قد تحمل خطراً داهماً وهو التسمم او . . الاصابة بأي نوع من الحميات . لأنها في أغلب الأحوال تتعرض لخطر التلوث بالميكروبات نتيجة تنقلها بين اكثر من يد . والآباء والأمهات في غنى عن تعريض اطفالهم لهذه الأخطار التي قد تكون براقة لأنها حلوى او لأنها اطعمة جاهزة . من المؤكد ان الأم تفضل ان تتعب قليلاً في اعداد سندويتشات للأسرة على ترك المسألة في يد القدر وانتظار ما يأتي به الطعام المكشوف والمعروض للبيع في القطارات او على الطريق اثناء السفر بالسيارة .

واريد الآن ان اتحدث عن صعوبات ومميزات السفر بالسيارة . ان للسفر بالسيارة متاعب خاصة . . وله ايضاً فوائد خاصة ويمنح المسافر فرصاً لا يمنحها له السفر بالقطار . أهم هذه المتاعب هي الملل بالنسبة للطفل . . ان ملل الطفل يزيد ويرتفع الى درجة عالية اثناء السفر بالسيارة لأن حيزها ضيق نسبياً . الأب عادة مشغول عنه بالطريق . الأم قد تكون مرهقة لسبب ما . ويصبح الطفل شرساً رافضاً للطعام . ومشتت الافكار ولا يجد ما يلهيه او يسليه . . ثم هناك اخيراً « الدوار » الذي يسببه السفر بالسيارة ويسمى « دوار السيارات » . ان بعض الأطفال تصيبهم الرغبة في القيء عند السفر بالسيارة . ولذلك فلا بد من الوقوف من فترة الى اخرى حتى يمكن للأب الذي يقود السيارة ان يستريح قليلاً وحتى يمكن للطفل ان يتعرف بمكان جديد وارض جديدة يقف عليها ولو لمدة خمس دقائق . ثم ليقضي حاجته ، يتبول او يتبرز او تتناول الأسرة كلها بعض عصير الفاكهة الطازج الذي عصرته الأم قبل السفر مثلاً او حتى زجاجة من المشروبات المثلجة . وايضاً يجب ان تختار المكان الذي تقف فيه السيارة . يجب ان تقف السيارة عند مكان فسيح ومأمون ، ويعطى الأطفال فرصة للعب والمرح دون الحاجة الى التحذير كل ثانية . ويفضل ان يكون المكان حقلاً او كازينو يطل على الخضرة او الكازينو المرفق بمحطة البنزين . ولا يمكن بطبيعة الحال ان نعتبر مجرد الوقوف لملء خزان العربة بالبنزين الفرصة الوحيدة التي تتاح للأطفال اثناء السفر للراحة واللعب . ان الوقوف عند محطة البنزين لملء خزان السيارة هو اجراء رتيب وليس فيه فرصة للأطفال لكي يعدوا أو يعلبوا .

كما ان ترتيب اماكن جلوس المسافرين في السيارة له اهمية كبيرة . ان معظم الآباء والأمهات يفضلون الجلوس في المقعد الأمامي ويتركون الصغار في المقعد الخلفي . ان الكبار ينسون ان صغارهم يشبهون صغار السمك ويمكن للسمك الصغير ان يتشاجر طبعاً وان يملأ الدنيا شغباً وضجيجاً . فإذا حدثت مشاجرات بين الابناء ، فلا بد ان يتنازل الآباء والأمهات عن عادات ايام الخطوبة عندما كان من السهل ان يجلس الأب والأم معاً على المقعد الأمامي ويتركا الفرصة للأحلام اللذيذة . ان « الأحلام اللذيذة » افرزت اخيراً اطفالاً يمكن ان يجعلوا الرحلة مليئة بكلمات مثل « أسكت يا ولد » « عيب يا بنت » ، ولذلك فمن الضروري ان يجلس احد الوالدين في المقعد الخلفي حتى يمكن التفرقة بين الأطفال وان يأخذ احد الأبناء مكانه بجانب من يقود العربة من الأبوين . . هذا حتى نضمن رحلة خالية من مشاجرات الأبناء .

وحيث يكون اطفال لا يمكن ان يكون الهدوء دائماً . ان الطفل لا يستطيع ان يظل جالساً لمدة طويلة . . لذلك لا بد من ان تكون هناك مساحة تتيح له الحركة . ومن المؤكد ان ذلك الأمر يعتبره الآباء خطيراً . . لكنه ضروري بالنسبة للطفل . لذلك يمكن السماح للطفل بأن يظل واقفاً على ارضية السيارة ، لأن الوقوف فوق المقاعد امر خطير جداً . . ليس في حالات التصادم فقط . . ولكن ايضاً في حالة استعمال «الكابح» فجأة . وهناك عربات تراعى في تصميمها مسألة ركوب الأطفال حيث يوجد مكان خلف المقعد الخلفي يمكن ان يكون مأموناً ويمكن ان يلعب فيه الطفل . . حتى الطفل الرضيع او الذي يتعلم الحبو يمكنه ان يلعب فيه بمنتهى الامان . وتتيح له ايضاً ان ينام . وهناك شيء تلفت الأنظار اليه اعلانات الصحف عن السيارات الجديدة ، انها تقول « هذه السيارة للأسرة لأنها ببابين فقط وليست بأربعة ابواب» ورغم انني لا اميل الى تصديق الكثير من الاعلانات لما فيها من مبالغة . ولكني اصدق اعلانات السيارات في هذا المجال . ان السيارة ذات الأبواب الأربعة تكون مزعجة لأن الطفل قد يعبث بأحد الأبواب فيفتحه رغم تأمين الباب . وفي ذلك خطر بطبيعة الحال . ولكن هناك بعض شركات السيارات التي تنبهت الى ذلك الخطر فانتجت نوعاً من

الأقفال لأبواب السيارات يضمن الأمان بالنسبة للأطفال .

كما ان هناك مقاعد خاصة للأطفال يمكن ان تزود بها السيارة وذلك يساعد على بقاء الطفل سعيداً الى درجة كبيرة . ومن الأفضل ايضاً في حالة الطفل الرضيع ان نصطحب معنا ذلك السرير الصغير الذي يمكن حمله باليد الواحدة حتى يمكن ان ينام فيه .

ولعله من اهم القرارات التي يجب ان تتخذها الأسرة اثناء السفر مع الأطفال في سيارة هو عدم السفر ليلاً . يجب التوقف عند الغروب . ويمكن تعويض ذلك الوقت عن طريق النهوض مبكراً .

هناك نقطة ايضاً احب ان اتحدث فيها الى الرجال . وهي الفخر الذي يشعر به الرجل عندما يقطع مسافات طويلة بسرعة . ويمكنه ان يتحمل الجوع والارهاق . ان الرجل احياناً يقطع الطريق بسرعة ناسياً ان معه زوجة واطفالاً . هنا احذر الرجل من ان يستسلم لهذا الغرور . ان عليه ان يتذكر ان الطفل يحتاج الى الراحة وان الزوجة تحتاج الى التقاط انفاسها وانه نفسه يجب ان يستريح ولا يستسلم لنزعات تدمير الذات . ولهذا افضل دائماً ان يتفق الرجل وزوجته على اماكن الاستراحات قبل بدء الرحلة . . صحيح ان الرجل قد يفكر في مثل هذه الاتفاقات وينساها فور القيام بالرحلة . . وصحيح ايضاً انه يحب اسرته ويفضل ان تصل الى هدف الرحلة وهي في منتهى الراحة ولكن الاحتراز مقدماً مستحسن .

الجيران واطفال الجيران

يجب ان ندافع عن حقوقنا حتى لا يتمادى احد من الكبار او الصغار من الجيران او غيرهم في الاعتداء على حريتنا . .

عندما تبدأ خطواتك الى الشارع الذي تسكن فيه فإن هناك خاطراً قد يزعجك احياناً وهو متاعبك مع الجيران . ونحن الآباء والأمهات لا نعاني فقط من أن بعض الجيران يراقبوننا ويرغبون في معرفة اسرارنا وتتحول عيونهم الى ميكرسكوبات قوية تريد ان تكشف لهم ما في افكارنا ، ولكن قد نعاني ايضاً من ان بعض اطفال الجيران يملأون الدنياصخباً وضجيجاً .قد يلعبون بصوت عال في فناء المنزل اثناء فترات راحتنا . قد يتسللون الى المنزل نفسه بحجة اللعب مع ابنائنا ويقلبون الأرض رأساً على عقب .

وتدور في رؤوسنا اسئلة حول هذا الأمر .

ما هي افضل الطرق التي يمكن ان نتبعها مع طفل الجيران الذي تعود ان يزعجنا في أوقات راحتنا ويتسلل مثلاً الى منزلنا ؟ . هل نشكوه الى امه ؟ . هل نصرخ في وجهه نحن ونتولى تأديبه ؟ . هل نأخذه من يده وندق جرس شقة اسرته ونقول لهم « تفضلوا خذوا طفلكم المزعج ؟ » . . وماذا تفعل بزمرة من الأولاد . . متوسط عمر الواحد منهم عشرة ، ويملأون الشارع ضجيجاً . وقد يتبادلون القذف بالأحجار او ان يلعبوا الكرة ، وقد يحطمون زجاج النوافذ . إنهم جيش صغير يترك وراءه دائماً الخراب ، فكيف تعالج ذلك الأمر ؟ . هل نقف كالحراس والخفر لنمنع الفوضى والدمار من الاقتراب من منزلنا . هل نستعمل العصا في تأديب هؤلاء الأشرار الصغار به . وماذا تفعل مع الطفل الشقي الذي يأتي مع اسرته في زيارة لنا . . ؟ هل نعلق لافتة في حجرة الصالون مكتوب فيها « ممنوع العبث بالتحف الموجودة في هذه الحجرة » . ؟

ان الغيظ يملأ قلوبنا من امثال هؤلاء الأطفال . ومع ذلك لا نستطيع ان نمنعهم من العبث بكل ما في حجرة الصالون ولا نستطيع ان نقول للآباء « لا تصحبوا اطفالكم اثناء زياراتنا » . والغيظ ايضاً يملؤنا عندما لا نستطيع ان نطرد الأطفال الذين يزورون بيتنا ليلعبوا مع أطفالنا .

وهذا خطاب وصلني من احدى الأمهات تقول فيه :

« قل لي ماذا افعل مع اطفال الآخرين ؟ لم اعد اعرف حدود واجباتي ومسؤولياتي . لقد درست الكثير من علم النفس في احدى كليات المعلمين . وقلبي يحب الأطفال وهم ايضاً يبادلونني الحب لأنهم يعرفون انني عادلة معهم . واطفالي ثلاثة ، الأول في سن السادسة ، والثاني في عامه الرابع ، والثالث اقترب من نهاية عامه الأول. هؤلاء الأطفال الثلاثة عندما يغرقون في النوم او عندما يلعبون في حجرتهم ، فأنا انتهز هذه الفرصة لأنجز اعمالي المنزلية . . ولكني افاجأ بأبناء الجيران يتسللون الى بيتي واحداً بعد الآخر . كل دقيقة يدق جرس الباب ويدخل واحد منهم ويبدأون في ايقاظ اولادي او في اللعب معهم . . ثم هناك ما هو اسوأ من ذلك، أصبح اطفال الجيران يضرب بعضهم لبعض المواعيد للقاء في منزلي دون استئذاني ودون دعوة من اطفالي . . وكنت اتمنى لو كان بيتي يتسع لهم جميعاً ، ولكن الحقيقة انني أزعج للغاية منهم . إنني استطيع ان اتحمل طفلاً واحداً فوق اطفالي . . ولكن معظم اطفال الجيران يحضرون لزيارتي ولمدة تزيد عن ساعة او اثنتين وهذا ما لا يطاق . لقد تنقلت الى ست شقق مختلفة خلال السنوات الثماني التي مضت على زواجي ، وواجهت نفس المشكلة العسيرة في كل منزل من هذه المنازل الستة . إنني اتساءل لماذا لا تراقب كل اسرة اولادها ؟ . .

أليس من المفروض ان يعرف الأب والأم اين يلعب الأبناء ؟ .

لقد ظهر لي ان معظم الآباء لا يبالون ولا يريدون ان يبالوا بذلك .

واضرب مثلاً على ذلك . في العام الماضي كنا نسكن في مدينة اخرى غير المدينة التي نسكن فيها هذه الأيام . . وكنت كل صباح اقوم من النوم على صوت

جرس الباب لأجد امامي طفلتين صغيرتين تريدان اللعب مع اطفالي . وطبعاً أرحب بهما من باب اللياقة وتظل البنتان عندنا حتى المساء . واضطر طبعاً الى ان اخرج معهما لتوصيلهما الى منزلهما. ودارت في ذهني افكار كثيرة. تساءلت ألا تقدم لهما امهما الطعام ؟ . لقد كانت كل منهما تطلب مني الطعام وتلحان في طلبه . . بل وتنقضان على طعام ابنائي ويدور بين ابنائي وبين البنتين شجار صعب . واضطر طبعاً الى تقديم الطعام لهما . وفي احدى المرات رأيت ان امتنع عن تقديم الطعام لهما . . لكن كلا من البنتين طالبتني بأن أحضر لهما طعام الغداء . واصبح ذلك عادة لهاتين الطفلتين . وطبعاً لم اجد مفراً من ان اطلب من اسرة البنتين عدم السماح لهما بالحضور عندي باكراً واعتبرت اسرة البنتين ان قصدي هو الاهانة . ولكن صبري كان قد نفد فعلاً . . لأني لا استطيع ان ادير شؤون بيتي من ضجيج الأطفال ولا استطيع ان اتحكم في تربية ابنائي او ان اعلمهم شيئاً . فهناك اطفال آخرون معنا في المنزل طول الوقت . انني لا انسى ابداً هذه السلسلة المتتالية من الحوادث . . لم يكن جراج سيارتنا الموجود بالمنزل مغلقاً ووجدت الأطفال يهجمون عليه ويكسرون زجاج السيارة الأمامي . ولا انسى كيف كنت كل مساء لا اجد شيئاً في مكانه . ويبدو المنزل وكأنه في حاجة الى ترتيب ، ولعب الأطفال مبعثرة هنا وهناك .

ويكفي ان تعلم ايها الطبيب انني خرجت اثناء كتابة هذا الخطاب اليك اربع مرات خارج المنزل حتى اطلب من ابن الجيران ان يكف عن القاء الطوب على ابني الجالس هادئاً في حديقة منزلي. ويكاد يفتك بأعصابي في هذه اللحظات ان ام هذا الطفل واباه موجودان بالمنزل . . وانه يلقي على طفلي الأحجار امامهما . واليوم صباحاً ضاع قلمي الحبر وهو ثالث قلم يضيع خلال هذا الشهر . ويكفي ان تعلم انني اضطر الى اغلاق جميع النوافذ . . كلما اردت ان انشر الغسيل على سطح المنزل . وانني اضطر الى مراقبة الأطفال عندما يكونون داخل بيتي . وقبل ان اكتب اليك هذا الخطاب بدقائق اكتشفت ان اطفال الجيران كسروا الدراجتين اللتين اشتريتهما من مالي ليلعب بهما اطفالي . وهناك جماعة من ابناء الحي دقت الباب منذ قليل . . هذه الجماعة تريد اقتراض القبقاب

الجديد الذي يتزحلق به ابني في صالة « التزلج » . . واخبرت هذه الجماعة انني لا استطيع ذلك . لأني بالفعل لا اعرف من الذي يكسر الأشياء ويفسدها عندما يستعملها عدد كبير من الأطفال . وطبعاً لا يمكن ان تتحمل ميزانية بيتي ان اشتري لعباً لأبناء الجيران كلهم . ولا ادري من اين يأتي الآباء والأمهات ببرودة الأعصاب التي تجعلهم يتحملون منظر تكسير احد اطفالهم للعبة طفل آخر دون ان يشتروا واحدة غيرها ويعطوها لأسرة الطفل الذي كسرت لعبته » .

انتهى خطاب هذه الأم . وواضح تماماً انها ضاقت ذرعاً من فرط الغيظ والدليل على ذلك انها تنتقل من موضوع الى آخر دون ترابط في الأفكار . . اللهم إلا فكرة واحدة تسيطر على كل الأفكار المطروحة في هذه الرسالة وهي ان هذه الأم متألمة غاية الألم مما يفعله بها اطفال الجيران .

وليس هناك شك في ان كثيراً من الأطفال لا تتحملهم بيوتهم ولا يعثرون عند اهلهم على الحب او الحنان او الصداقة او الفهم . . ولذلك يهربون سريعاً من هذه البيوت الى الشارع او الى بيوت الجيران . والأم التي تظهر مشاعر الود والترحيب بالأطفال لا بد ان تجد نفسها محاصرة بعدد ضخم من هؤلاء الأطفال الذين لا يجدون الحنان في بيتهم ومع اسرهم . والأم التي تستطيع ان تعطي الحنان وتثير السرور في قلوب الأطفال تصبح جذابة تماماً كما يخرج الحاوي الفراخ من جيبه . والآباء والأمهات الذين يشترون لأطفالهم اللعب وادوات التسلية كالدراجات والعربات وغيرها يجدون المنزل قد امتلأ عن آخره بأطفال الجيران .

هذه الحالة لها مميزات كثيرة . إنها تفيد في حالة الطفل الوحيد . . لأنها تجعله يتعلم كيف يتعامل مع بقية الأطفال ويتعاون معهم ويستمتع بصداقتهم . ان شعبية اي أم عند الأطفال ومقدار جاذبية منزلها لهؤلاء الأطفال تفيد الطفل من حيث انها تجعله محبوباً من الآخرين وتجعل سيئاته تتراجع امام حسناته . ولكنها في المدى الطويل لا يمكن ان « تضمن » حب بقية الناس لهذه الابن . ومع ذلك فإن هذا الحب الذي يحيطه به الأصدقاء في طفولته يمنحه الالتفات الى مميزات

حب الآخرين له . وبذلك يمكن ان يعمل دائماً للحصول على حب الآخرين والتفوق عليهم ايضاً دون ان يثير كراهيتهم . وهناك ايضاً ميزة اخرى لوجود بعض اطفال الجيران مع الابن . ان ذلك يتيح للأم ان تعرف مع من يلعب طفلها . . ويتم ذلك تحت اشرافها . وانا كطبيب اذا خيرني احد بين ان يلعب طفلي عند الجيران او تأتي زمرته كلها عندي فأنا أفضل حضور الزمرة عندي في منزلي . . قد يكون سبب ذلك الرأي انني لست اماً ولن اتحمل أي نتيجة من نتائج وجود الأطفال في منزلي .

لكن هناك بعض الأسس البسيطة التي يجب على الأب والأم الاصرار عليها حتى يمكن ان نتلافى المشكلات التي تحدث وتشكو منها الامهات . وهذه الأسس تختلف بطبيعة الحال من اسرة الى اخرى . فأنا مثلاً اضع نظاماً واضحاً ومحدداً للأطفال . لا يمكن ان يخرج احد ابنائي للعب قبل التاسعة صباحاً . ولا يمكن ان يخرج قبل ان يشارك امه في ترتيب المنزل . . وغير مسموح لأحد ابنائي ان يستقبل ضيفاً قبل هذا الميعاد . طبعاً يحدث ذلك اثناء فترة اجازات الأولاد من المدارس . . وهناك الأساس الثاني وهو ان الطفل يجب ان يعود الى المنزل قبل الخامسة والنصف بعد الظهر وان على اصدقائه ان يعودوا الى بيوتهم في هذا الوقت . واذا أراد احد ابنائي ان يدعو احد اصدقائه الى العشاء او الغداء فلا بد ان يتفق مع امه اولاً فإن كانت ظروفها تسمح بذلك كان بها . . وان كان الأمر غير ذلك فغير مسموح له بدعوة احد على العشاء او الغداء . وانا ضد فكرة ان يحرج الطفل امه او اباه بأن يدعو أحد اصدقائه امام اسرته ودون اتفاق سابق مع الأسرة . في هذه الحالة ارفض بأدب تنفيذ هذه الدعوة . وأقول « كنت اتمنى ان يتناول صديقك العشاء معنا لكن هذه الليلة لا . ومن المؤكد ان ذلك سيحدث في مرة قادمة » . ان ذلك يعلم الطفل ويعلم اصدقاءه ان المنزل له ادارة يجب استشارتها لا ان يفرض عليها احد الأمر الواقع .

أما عندما يخرج ابناء الجيران عن الحدود ويبدأون في اثارة الضجيج والعبث بأشياء المنزل ؛ فأنا لا أتورع عن غلق باب المنزل بعد اخراج كل الأطفال وأصرخ بصوت عال غضباً منهم . . لأن بعض اجزاء المنزل تكون مجهزة

لأغراض اخرى غير اللعب . مثلاً حجرة الطعام فيها الأطباق الصيني والأواني الزجاجية . حجرة المكتب فيها اوراق الأب . حجرة النوم ليست للعب . الحجرة الوحيدة التي يمكن ان يمارس فيها الأطفال هواية اللعب هي حجرة الأطفال نفسها . . انني لا اسمح لهم بفتح احد الجوارير لأن احدهم قد يفتح جارور الصيدلية الصغيرة ولا اضمن مثلاً ان تمتد يد طفل الى احدى زجاجات الدواء التي قد تكون سامة ،ولا اضمن اقتراب الطفل من أي مكان يسهل ان يكسر فيه لوح زجاج فوق رأسه .

إنني اؤمن ان من حق الأم ان تكون صريحة وحازمة عندما يأتي اطفال الجيران الى بيتها وان تحدد لهم المكان الذي يلعبون فيه وألا تسمح لهم بأي عبث في أي مكان في المنزل وان تعلن رأيها بوضوح وصراحة في أي سلوك لا يعجبها وان تعتذر لأطفال الجيران ولا تسمح لهم بالدخول الى المنزل في الوقت الذي تريد فيه المنزل هادئاً او في الوقت الذي يكون وجود ابناء الجيران فيه غير مرغوب فيه . وهناك آلاف الطرق التي تعتذر بها في حزم وحسم مثل قولها « اطفالي مشغولون الآن مع ابيهم . ان المذاكرة الآن أهم من اللعب ، اذ ان والد الأطفال نائم وهو لا يريد ان يوقظه أي صراخ » . وهكذا نجد ان هناك وسائل يمكن بها ان تصرف الشياطين الصغار عن مضايقتنا .

ثم . . هل نسمح لأبناء الجيران ان يستعملوا لعب ابنائنا ؟ هل نسمح لهم بذلك رغم احتمال ان يكسروا هذه اللعب أو يتلفوها ؟

الاجابة عن هذا السؤال تختلف من اسرة الى اخرى . قد تجد اسرة تقول ما المانع من ان يلعب الأطفال بهذه اللعب . ان مشاركة ابناء الجيران لأبنائنا في نفس اللعب يعلم ابناءنا كيف يكونون كرماء . واننا لا نخشى على اللعب من التلف لأن كل لعب الدنيا معرضة للتكسير او الضياع .

وبعض الأسر الأخرى لا تطيق ان تدع الطفل نفسه يلعب بألعابه وتحبس عنه هذه اللعب في صندوقة وتجعله يتفرج عليها ولا يلعب بها ولو لمس احد ابناء الجيران أي لعبة للأبناء فقد تكون المسألة كالكارثة التي حلت بالأسرة .

اذن ما الحل ؟

الحل هو ان نسمح لأطفالنا بأن يلعبوا بلعبهم وان يشركوا من يريدون معهم . وان يدافعوا عن هذه اللعب لو حاول احدهم اتلافها او تخريبها او تكسيرها . وعندما تحاول جماعة من الأولاد اغتصاب لعب الأبناء وافسادها فيجب على الأم ان تخرج وتتصرف بمنتهى الحزم وتضع حداً لمحاولة هذه الجماعة اثارة الشغب والازعاج . على الأم ان تكون واضحة في حزمها وقوية في صرامتها .

وعندما يدق باب البيت وتفتح الأم لتجد بعض الأطفال من ابناء الجيران يطلبون اللعب بلعب احد ابنائها ويكون هذا الابن غائباً عن المنزل ، كأن يكون في المدرسة مثلاً او عند احد اقاربه وبالتالي لا يستطيع حماية لعبه ضد سوء الاستعمال . . فواجب على الأم ان تقول :

- آسفة . . ابني ليس هنا ولا استطيع التصرف في لعبه .

وهكذا تستطيع الأم ان تضع القواعد الأساسية والضرورية لوضع حد لمدى استغلال ابناء الجيران للعب ابنائها او لحنانها . ان الأم صاحبة حق ولا يستطيع احد ان يتدخل فيه او ان يعارضها فيه ، هذا الحق هو حق وضع الحدود لمدى عبث ابناء الجيران وشغبهم . إنها تستطيع ان تقول بلهجة حازمة :

- ان الأصول هنا في بيتي ان يتصرف الأطفال بشكل مهذب .

ولكن كيف تتصرف الأم اذا اصر احد الأطفال ان يكسر النظام المفروض ؟ .

قد يعتقد البعض ان استدعاء أم الطفل . . اسلوب غير سليم . . لأن هذا معناه ان الأم نفسها غير قادرة على التفاهم مع هذا الطفل . ان الطفل يشعر في اعماقه انه انتصر على هذه الأم وهزمها وانها غير جديرة باحترامه لأنها تبوح بأسراره . لكن اذا استطاعت هذه الأم ان تتفاهم مع ابن الجيران وان تسيطر عليه وان تفرض عليه النظام والطاعة ، فإن هذا الطفل سيظل دون شك

يحمل للأم الاحترام الكامل وسيظل يحافظ على احترامه لنفسه واحترامه للقواعد التي تضعها الأم في منزلها . ان هذا الاحترام المتبادل سيجعل الطفل يشعر بالثقة في نفسه وبثقة سيدة غيرامه وهذا طبعاً شيء يجعل الطفل غاية في الرقة والانضباط معاً .

لكن من المؤكد ان هناك استثناء لهذه الحالة ، من المؤكد ان هناك طفلاً مزعجاً غاية الازعاج يتصرف بوقاحة لا حد لها . وهنا لا بد من ان تقول الأم لوالديه ، وامامه ، وبهدوء . . عما يفعله هذا الطفل من تصرفات مشينة او عما يتفوّه به من ألفاظ لا تقرّها القواعد العامة للاخلاق . وعلى كل ام ان تعرف ان اعادة ابن الجيران الى اسرته بعد ان يتصرف تصرفاً غير لائق امر منطقي وحازم ويجعل الطفل يشعر انه انسان غير مرغوب فيه نتيجة لهذا السلوك السيء وان كنت ارى ان هذا الأسلوب من معاملة ابناء الجيران الشرسين يجب ان يكون اخر حل لا لشيء إلا لأنه يجعلك تظهرين بمظهر الضعيفة امام الطفل . ولذلك اكرر دائماً وأطالب كل ام بأن تجعل ابناء الجيران الذين يترددون على منزلها للعب مع ابنائها، يتصرفون في حدود هي وضعتها . وبالحنان المقرون بالحزم يمكنك ان تكتسبي ثقة ابن الجيران الطفل ويمكن لهذا الطفل نفسه ان يحب الظهور امامك بمظهر الطفل المتزن .

اني اعرف ان هذا الطريق شاق بالفعل . بل هو من أصعب الطرق . . ولكن لماذا لا نختار اصعب الطرق حتى يتعلم ابناؤنا ايضاً أننا لا نتهاون ابداً في نظام البيت ؟ صحيح ان أعصابنا جميعاً تحتاج في هذا العصر الى الراحة وصحيح ايضاً أننا يجب ان نكون حازمين وجادين لنتمتع بالراحة طول الوقت .

لكن ، هناك سؤال يدور في الذهن وهو :

ـ الى أي حد يمكن للأب او الأم ان يكونا حازمين مع ابناء الجيران ليتصرفوا حسب القواعد المرعية ودون خروج على النظام ؟

ان كل واحد منا يتذكر من أيام طفولته صورة ذلك الجار الذي كان يتصف بالشراسة واحتراف تدمير حريتنا في اللعب والانطلاق . كلنا يتذكر كم كنا نكره

هذا الجار الذي يبدو وكأنه يعادي الأطفال . ورغم ذلك كان الواحد منا كطفل يستسلم للقوانين التي كان يطالب بها هذا الجار وان كان الواحد منا لا يترك أي فرصة تتاح له حتى يغيظ ذلك الجار ويجعله يفقد اعصابه . وكل منا ايضاً يتذكر بعض هؤلاء الكبار من الجيران الذين كانوا يعاملوننا بنوع من الاحترام . . فكنا نحترمهم وكانوا يحترموننا ويحبوننا وكنا نفرح لمجرد رؤيتهم .

وعلى هذا يظهر لنا بوضوح ان ليس هناك ارتباط بين ان يكون الانسان حازماً وبين ان يكون إنساناً مكروهاً وغير مقبول من الناس . الحزم يمكن ان يتم في اطار من الحب . والكراهية لا تحدث ابداً إلا اذا كنا نحن الكبار نزعج الأطفال جداً . وفي الحقيقة ان الجار الخجول والذي يتهاون في حقوقه والذي يصل به الأمر الى حد الخوف من اغضاب الجيران وابنائهم ، هذا الجار كثيراً ما يكون « لقمة سهلة الهضم » لدى هؤلاء الأطفال الذين يجيدون انتهاز الفرص . ويكون احترام هذا النوع من الجيران صعباً في نفوس هؤلاء الأطفال .

وهكذا نرى ان جوهر المسألة هو الروح التي نعامل بها نحن الكبار هؤلاء الصغار فإذا كنا ودودين ونثق في انفسنا فإننا نستطيع ان نقنع الطفل بأن يطيع قواعد السلوك القويم . . ولكن اذا ظهر اننا نحن الكبار نعاني من الذبذبة وعدم الثقة بالنفس ، فلا بد ان يعاملنا الطفل بالخروج الكامل عن طاعتنا . ان الطفل يملك « راداراً » حساساً يلتقط به احساسنا نحوه . . فإذا كان الاحساس هو الثقة به فإنه يثق بنا . . واذا كان احساسنا نحوه هو عدم الرضا عنه وعدم قدرتنا على حسم ضعفنا الشخصي فإنه يتمرد .

ويجب ان لا نبدأ نحن بتوجيه الطفل ناحية السلوك السيء . قد يثير ذلك دهشة القارىء ولكنه الحقيقة . ان بعض الآباء يعتقدون ان الحزم هو الغضب الدائم من الطفل وان التربية هي السخط الدائم على الطفل ولكن ابن الجيران لا يستسلم ابداً لمن يضطهده ، قد يتحمل الطفل ذلك لمدة دقائق او ساعات ، لكنه لا بد ان ينفجر فينا ليطلب لنفسه الانتقام .

لذلك اؤكد مرة اخرى على ان الروح التي تعامل بها ابن الجيران هي التي

تحدد سلوك الطفل نفسه . ان العلاقة بيننا وبين اطفال الجيران تنطبق عليها نفس المبادىء التي نعامل بها نحن الآباء اطفالنا او نفس معاملة القائد لجنوده او رئيس العمل للموظفين الذين يعملون تحت إمرته . ان القائد الحنون الذي لا يثق في نفسه ولا يعرف ماذا يريد ان يخجل من ان يطلب من جنوده ما يريد . . هذا القائد لا بد ان ينهزم في اول معركة لأن المسألة تصبح ادارة لجماعة متنافرة لا رئيس لها وتسود فيها الفوضى وتنعدم كفاءة مقاتليها . والجنود الذين يتبعون مثل هذا القائد يصيبهم القلق وينتشر بينهم الاحساس بعدم الامان . والقائد الذي لا يثق في نفسه ويظهر هذا النقص في كل قرار ويعامل الجميع بمزاج حاد قلق . . يغضب بسرعة ويرضى بسرعة ، يشك في كل من حوله ، ويشك في كل قرار يصدره . هذا النوع هو اسوأ انواع القادة لأن جنوده او من يعملون تحت قيادته يجدون اللذة في مخالفة اوامره وتنفيذ كل ما يخشاه . وتستبد بهم الرغبة في النكاية به واستفزازه . وحتى عندما يعاقبهم بشدة فإن هذا العقاب لا يؤثر فيهم لأنهم يشعرون دائماً بالظلم .

اما القائد الحازم الصارم الذي يتمتع بالثقة بنفسه ويعرف تماماً كفاءته ، هذا القائد يستطيع ان يحفظ النظام . وان يضع كل امر في مكانه وقد يكرهه الذين يعملون معه لشدته .

وهكذا نستطيع ان نعرف ان القيادة الحكيمة هي التي تجمع بين الثقة بالنفس والحب الصادق لمن نقودهم . وان تكون افكارنا دائماً واضحة عن قدرات كل واحد منهم ، وهكذا يمكن ان نصل الى الاحترام والحب المتبادل والاحساس بالمتعة ، لأننا قادة من طراز يحبه كل من يعمل معه بل ويحاول كل من يعمل مع هذا النوع الناجح من القادة ان يعطي كل ما عنده وهو يشعر بالرضا والاستمتاع .

هنا يمكن ان نعود الى الأم التي ارسلت تلك الرسالة المليئة بالتوتر والغيظ . ان مشكلة هذه السيدة ليست مع ابناء الجيران ولكن المشكلة . . هي مشكلتها مع نفسها . انها تحاول ان تمثل دور من تفهم الأطفال ، وتظن ان فهم الطفل هو التهاون معه والاستسلام له . وهي لم تفهم تماماً ماذا تعني سياسة « الود الحازم »

ولا بد ان هناك مشكلة في اعماقها ، تجعل حمايتها لنفسها امراً مستحيلاً ، لذلك تعاني من شغب الأطفال واقتحام منزلها كل دقيقة . ولكن قبل ان نفحص مشكلتها ، علينا ان نعترف بأن هناك دائماً بين الجيران صنفاً من البشر يتصف بالسماجة ومحاولة فرض نفسه على بيوت الآخرين .

وهذا الصنف من الناس يملك من الجرأة ومن قلة الذوق الشيء الكثير . ولا يستطيع هذا النوع ان يراعي مشاعر الآخرين . هذا النوع من الناس يجب علينا ان نتفاداه او ان نختلف معه لنقطع كل صلة به وان نكون واضحين في أننا لا نرغب في صداقته بكل صراحة ووضوح حتى يمكن ان يفهم السر وراء عدم ترحيب الآخرين . وهناك نوع آخر من البشر يفرضون انفسهم على الانسان بأسلوب ذكي ومدرب . انهم في حالة حذر وتحفز دائم لكي يهجموا عليك ويحطموا احساسك بحاجتك الى ان يبقى بيتك بدون ضوضاء . هؤلاء يتقدمون خطوة خطوة ، وبصورة هادئة لا يمكن ان نتنبه اليها . وهم يدركون انك حليم وانك تستسلم درجة درجة . وهكذا تجد نفسك آخر الأمر فريسة لهذا النوع من الناس .

وعلينا ان نعترف لأنفسنا بصراحة ووضوح ان كل انسان منا لا يستطيع ان يرحم الضحية التي تبدو سهلة . ان هناك حيواناً شريراً في داخلنا يحاول ان يفترس الأضعف . لكن هذا الحيوان الذي في داخلنا نستطيع احياناً ان نربيه بحيث يمكن ان يكون أليفاً لا يزعج احداً واحياناً يكون هذا الحيوان شرساً يفرض نفسه على الآخرين ونحن نختلف فيما بيننا كبشر في الصفات والأخلاق . فبعضنا يكون صاحب روح مليئة بالخير فيلبي طلبات الآخرين بسعادة ، يفرح عندما يقترض احد ملابسه او نقوده ، يشعر بالسعادة عندما يستطيع ان يقوم بمهمة العناية بطفل الجيران . ولكن هذا النوع الطيب من البشر قد يفترسه الآخرون . وبعضنا لا يمكن لأحد ابداً ان يفرض نفسه عليه . إنه نوع يعرف ان هناك حدوداً لكل انسان . لا يتخطى هو حدود احد ولا يسمح لأحد ان يتخطى حدوده .

وعلينا جميعاً ان نعرف كيف نضع حداً لهؤلاء اصحاب الدم البارد الذين يفرضون انفسهم على الآخرين حتى لا نتحول دون ان ندري الى نوع من العبيد

نجد لذة في طاعة الاخرين ونحاول ان نستجدي تقديرهم بأي وسيلة، وتكون النتيجة النهائية هي اننا نفقد احساس البهجة بحياتنا الخاصة ، ونفقد ايضاً تقدير الآخرين لنا ونقع في حيرة لأننا لا نستطيع ان ننقذ انفسنا من هؤلاء المتطفلين على حياتنا وتضيق بنا الحياة معهم .

ولكننا نخاف ان نقول ما في اعماقنا . ان الانسان الذي يسهل من فرض المتطفلين انفسهم عليه يكون غالباً انساناً لا يجب ان يغضب منه احد . إنه انسان اخطأت اسرته في أسلوب تربيته لأنها اتخذت اسوأ الأساليب في التربية وهو التهديد للطفل بعدم حبه . ان هذا التهديد يقتل في الطفل الاحساس بالآمان ويقتل في الطفل الاحساس بضرورة الدفاع عن نفسه ويحاول دائماً ان يستجدي حب الآخرين . ان هذا الطفل عندما يكبر تظل في وعيه تلك الكلمة التي سمعها كثيراً في طفولته .

« إننا لن نحبك بعد الآن اذا ظللت انانياً ولا تحترم الآخرين وتخرج على الأصول وتتصرف بوقاحة » .

انه يخاف بالفعل من فقدان حب الوالدين وفي الكبر يخاف من فقدان حب الناس . وكان يجب ان يقول له الآباء :

يجب ان لا تكون قليل الأدب . ويجب ان لا تكون انانياً ويجب ان لا تفقد احترامك للأصول .

ان ربط فقدان الحب بأي شيء ، يهز احساس الطفل بالأمن . . وبالتالي قد يحوله في الكبر الى انسان مستجدٍ للحب . إننا كآباء يجب ان لا نجعل الطفل يشعر في أي مرحلة من مراحل عمره بأنه منبوذ ولو حتى بمجرد نظرة اليه . ان الطفل لا يستطيع ان يفرق بين كراهية والديه لسلوكه وبين كراهيتهما له ، لذلك يجب ان نوضح ذلك تماماً حتى لا نجعله يحيا في خوف من فقدان الحب والحنان . . وخصوصاً في المرحلة المبكرة من العمر ، لأن كل طفل يشعر تماماً ان امنه واطمئنانه يتوقف على استمرار حب والديه له . وعندما يغضب الآباء من الطفل يجب ان لا يتحول هذا الغضب الى صدمة مفزعة للطفل بحيث ينزعج منها

طول عمره وحتى لا يكبر وفي قلبه خوف عظيم من غضب الآخرين وحتى لا يرضي الآخرين على حساب نفسه . . وحتى لا يعجز عن الدفاع عن حقوقه ويقاوم اعتداء الآخرين عليه وحتى لا يقبل مثلاً ان يخدعه احد التجار ويقبل بضاعة رديئة دون ان يحتج ، ويقبل القيام بكل العمل في وظيفته خوفاً من فقدان حب الرئيس، وحتى لا تصبح عظامه طرية يسهل معها افتراسه. يقترض منه الأصدقاء النقود ولا يردونها ويعتبره الأقارب ضعيفاً ويقع في حالة الغيظ الدائم ويكتم هذا الغضب ويقول لمن يؤذيه ما معناه انه على استعداد لتقبل الأذى مرة اخرى .

ومن المؤكد ان الأم التي نشرت رسالتها كانت تعاني من مثل تلك المشاعر في طفولتها لذلك استسلمت لعدوان اطفال الجيران والجيران انفسهم . إنها تخاف ألا يحبها الآخرون ولهذا تستسلم لكل عدوان . وكان يمكن ان تنال حب الآخرين بدلاً من استخفافهم بها وببيتها ، لو كانت قادرة على ان تدافع عن حقوقها ولا تقبل أي تعدٍّ على راحتها . وتمنع ان يستغلها احد . وهي تستطيع ان تكون حذرة من ضعفها وان تقاوم هذا الضعف بأن تضع قواعد صارمة يجب أن لا يتخطاها احد ، وان تعتذر في هدوء وبرودة اعصاب لهؤلاء الذين يرغبون في تدمير حياتها . وهنا سيكتشف الجيران واطفال الجيران انها لم تُذْعن مستسلمة لهم وانها قادرة على ان تكون شجاعة وجريئة ضد هؤلاء المستغلين . وهذا سيمنحها في النهاية حب الآخرين وتقديرهم .

وهناك مشكلة اخرى من مشاكل الجيران توضحها احدى الأمهات في رسالة لها. انها تشكو من ان سائر الجارات يوجهن النقد الى اساليبها في رعاية الطفل . وكما يتضح لي من سطور رسالتها انها تثق في نفسها وتتمتع بضمير حساس وتبذل كل الجهد والوقت والتفكير لتعتني بطفلها او اطفال الجيران بينما تظل الجارات يوجهن اليها النقد وهن اقل منها قدرة على العناية بالأطفال . وتظل الجارات يوجهن لها الأسئلة المليئة بالنقد المحرج واحياناً يوجهن لها كلمات اللوم او السخرية لأنها مثلاً تتخذ احتياطات شديدة عندما يصاب طفلها بالزكام او تظل تراقب الأطفال بمنتهى اليقظة عندما يلعبون في الحديقة او عندما تصر على ان ينام

الطفل ولو ساعة واحدة اثناء النهار خصوصاً عندما يكون عمره بين ثلاث سنوات وخمس ، او عندما تضيع وقتها في اقناع الطفل بالمنطق والمناقشة بدلاً من ان تضربه او تعاقبه .

صحيح ان الآباء والأمهات يختلف بعضهم عن بعض في اسلوب معالجة الأمور ، ولكن هذا الاختلاف نادراً ما يثير متاعب او مشاكل مع الجيران . وعندما تتخذ المناقشات شكلاً دائماً وحاداً فإن الانسان يشك عادة في ان هناك اسباباً اخرى تدفع الى هذا النوع من النقاش . وفي ظني ان الأم التي توجه لها الجارات النقد ليست متساهلة وليست قاسية رغم ان جيرانها ينتقدون تصرفاتها . وفي رأي آخر ان هذه الأم تشعر انها موضع النقد دائماً دون ان تفطن الى ان احساسها هو الذي يضخم لها نقد الآخرين وانها ، دون ان تدري ، تمتدح نفسها دائماً مدعية انها من افضل وارقى الأمهات في مجال رعاية الأطفال . وهذا التفاخر هو الذي يجعل الجارات يقفن ضدها لأنها تريد ان تظهر بمظهر افضل من مظهرهن وهي بذلك تثير في اعماق الجارات الاحساس بالذنب فيبدأن عليها هجوماً لا ينتهي . . هذا الهجوم ينبع من الرغبة في الدفاع عن النفس . ان الجارات يدافعن عن انفسهن ضد تفاخر تلك الأم ، لأنه لا يوجد انسان يخرج على الأصول ويوجه النقد لانسان آخر إلا اذا كان متأكداً من انه على حق وان كل ما يحاوله هو ان يقتنع الانسان الآخر برأيه وانه لا داعي ان يظل واحد يمثل بمفرده دور الانسان الفاضل .

وعندما يتمتع الانسان بالثقة في النفس فإن اراءه تتميز بالهدوء والاطمئنان وتكون لديه القدرة على احترام آراء الآخرين . وحتى عندما ينتقد احد الناس رأيه او وجهة نظره ، فإن هذا النقد لا يترك اثراً . ولا بد لنا ان نعرف ان كل مناقشة تحتاج الى اثنين وان كل واحد من الاثنين يشك في بعض ما يعتقده رغم انه يدافع عنه . ولهذا فالأم التي تشك في نفسها وتعاني من الاحساس بأنها معرضة دائماً للنقد ، هذه الأم تشك ايضاً في أساليبها وغير مقتنعة تماماً بما تتبعه من وسائل . وهي على الأغلب تعاني من عدم الاطمئنان في حياتها وتحاول ان تعوض ذلك بأن تقوي ثقتها بنفسها عن طريق نقد الآخرين والقاء اللوم عليهم .

وطبعاً لا تتحمل الجارات هذا الموقف فتبدأ كل جارة في وضع أي سلوك لهذه الانسانة تحت ميكرسكوب النقد الحاد .

وأنا لا اريد ان اطلب من الآباء والأمهات عدم الدخول في مناقشات عن أساليب رعاية الأطفال . ان كل اسرة تشعر بالحاجة الى ان تسأل وتقارن حتى تصل الى الاقتناع بالمبادىء الأساسية للتربية . وكل اسرة تحتاج الى ان تتبادل المشاعر والعطف في مواجهة المشكلات التي تصادفها من وقت لآخر . ان الأب مع الأم يحتاجان الى سماع كلمات المشاركة الوجدانية من غيرهم ، من اولئك الذين وقعوا من قبل في مثل هذه المشاكل . وكل اسرة تعرف ان المناقشات والأسئلة يمكن ان تكون مفيدة وقد تحمل رأياً جديداً .

وكل الناس من كل مهنة . . موظفين او عمالاً أو محامين او فلاحين . . يجدون متعة في مناقشة اعمالهم وما يقابلهم في تلك الأعمال من عقبات او انتصارات . ولكن اذا كانت نتيجة المناقشة بين شخصين بشأن تربية الأطفال ، هي التوتر ، فهذا دليل على وجود حساسية ما لدى احد الطرفين . ومن الأفضل ان نتحاشى مثل هذه المناقشات خصوصاً مع الأفراد الذين يثورون بسرعة .

ولكن كيف يمكن ان نتوقف عن مناقشة انسان يصر على المناقشة ؟
الاجابة بسيطة ولكنها صعبة .

لا نرد عليه . لا نناقشه . او نغير الموضوع او ننهي اللقاء بلباقة او نظهر عدم الاهتمام او نسمع فقط ونحرك الرأس من أسفل الى أعلى ومن اعلى الى اسفل دون ان ننطق بكلمة . وليس معنى ذلك اننا اقتنعنا بما يقولونه امامنا او اننا وقعنا في حالة عدم القدرة على النقاش . انما معنى ذلك ان هذا الأمر الذي يقول فيه انسان رأياً هو حر في ان يقول ما شاء دون ان يقنعنا نحن . ويجب ان لا ننسى ان كل شخص يكثر النقاش، تكون لديه اسباب كثيرة تدعوه الى عدم الثقة بنفسه لذلك فهو يكثر المناقشة . وهذا النوع من الناس يطير فرحاً عندما يلتقي بانسان واثق من نفسه لا يمكن اثارته يسمع ما يقوله ويمنحه العطف أيضاً .

عندما يغضب منك طفلك

يمكنك ان تسمحي له بأن يعبر عن مشاعر الغضب . . لأنها مسألة طبيعية .

ولكن لا تسمحي له بأن يخرج عن حدود الأدب .

في أوائل الفترة الأولى من القرن العشرين كان من الصعب على الابن ان يقول لوالده او أمه « أنا غاضب منكما » . لم يكن هناك ابن يجرؤ على ذلك . انا شخصياً كنت ارتجف لو فكرت في اعلان غضبي من أبي أو أمي . ولم اسمع عن طفل في ذلك الزمن يستطيع ان يعلن ذلك الغضب .. اللهم إلا تلك الفئة القليلة من الأطفال المتشردين الخارجين على قانون الأسرة والطفولة عموماً . وكان من أبشع الأفكار هو ان يقول طفل لوالديه « أنا اكرهكما » .. ان تلك الأفكار لم تكن تخطر ببال أحد .

بيد ان كل طفل حتى في ذلك الزمن القديم كان يغضب من والديه من فترة الى أخرى عندما يظن ان الوالدين اوقعا به العقاب ظلماً وعدواناً او انهما يفضلان عليه احد الأخوة او انهما رفضا طلباً معقولاً له . ولكن الطفل لم يكن يعلن عن ذلك الغضب إلا بقليل من الغيظ وتقطيب الحاجبين واعلان نوع من الاستياء بالصوت او بالكلمات .

وعندما بدأ علم توجيه الأطفال يتقدم ، أصبح من المؤكد ان احد المشاكل الأساسية بالنسبة للطفل المشاغب الدائم القلق هي مشكلة انه قد يكون مصاباً بإحساس شديد بالذنب لأنه يشعر بكراهية شديدة نحو احد افراد اسرته .. وهو يتصرف باعتقاد راسخ بأن رغباته الكريهة تجاه هذا الفرد الذي يكرهه سوف تتحقق . ويخشى ان يكتشف احد الوالدين انه السبب في حدوث مكروه للفرد الذي يكرهه هذا الطفل المشاغب القلق .. ويخاف ان يعاقبه احد الوالدين بأقسى الوان العقاب ، او يصبح الوالدان من أشد اعداء هذا الطفل ، وقد يظن

انهما سيطردانه من المنزل ويحرمانه من الحب . وفي الحقيقة ان الخوف ، خوف الطفل من مشاعر الغضب قد يستبد به الى الدرجة التي يكبت فيها هذه المشاعر ويخزنها في اللاوعي . . فإذا تم دفنها هناك فإنها قد تلعب الدور الأساسي في خلق عرض من اعراض الأمراض النفسية ، كالفزع او السلوك العصبي . وقد يتطور الأمر الى أن تؤدي هذه المشاعر الى خلق احد اعراض المرض العقلي او تسبب احد الأمراض الجسمانية والتي لها أساس نفسي مثل الطفح الجلدي المزمن .

ولذلك فإن اخصائي توجيه الأطفال يجرّب، أثناء محاولاته لاكتشاف اسباب المرض العصبي او النفسي ، أن يقنع الطفل بأن هذا الاحساس الشديد بالذنب ليس له مبرر . . لأن الأفكار الغاضبة والمشاعر والامنيات لا تؤذي احداً وان عند كل انسان مثل هذه الأفكار عندما يغضب .

ان كل انسان « يكره » احياناً من يحبهم . وان هذه « الكراهية » المؤقتة لا تؤذي احداً وان والدي الطفل لن يصابا بشيء من السوء اذا عرفا حقيقة مشاعر الابن . ومن أصعب الأشياء هو ان نوضح للطفل الخائف القلق المشاغب . . انه يملك فعلاً احاسيس عدوانية . . لأن الطفل نفسه خبير قدير في اخفاء هذه الأحاسيس عن نفسه . . ولهذا فإن الطبيب النفسي للأطفال يمشي على الشوك ويستخدم كل مهاراته وبصيرته لالتقاط علامات الضيق والغيظ والاستفزاز التي يخفيها الطفل بمهارة وذلك حتى يمكنه ان يلفت نظر ذلك الطفل الى عدم خطورة هذه المشاعر . واذا حدث ان تأخر الطبيب النفسي مرة عن ميعاده مع الطفل وعن الميعاد التالي او تخلف الطفل في احدى مراحل العلاج ، ففي استطاعة الطبيب النفسي ان يقول « أظنك تضايقت مني لأني تأخرت المرة السابقة » . وهنا سيعلن الطفل احتجاجه بكل صدق ويقول «لا». لم اشعر بالضيق . . لأني اعرف مقدار شغلك . والطبيب النفسي يستطيع ان يقدم العاباً من الدمى لهذا النوع من الأطفال ويطلب من الطفل ان يلعب بها من حين الى حين وان يختار الطفل تمثيلية يعطي فيها لكل دمية دوراً . ويحاول ان يراقبه اثناء اللعب . وعندما يكون الطفل منهمكاً في العاب من النوع الذي تختلط فيه الحقيقة بالخيال ، والواقع بالرغبات المكبوتة ، ويستعمل في لعبه التمثيلية قدراً من الدمى فإنه يختار دمية لتلعب دور

الطفل ودمية اخرى تمثل دور الطبيب . . و« تعترض » الدمية الأولى الدمية الثانية . وهنا يستطيع الطبيب النفسي ان يقول « أظن أنك ترغب احياناً في ان تفعل ذلك لي » . ويجيب الطفل « لا » . ثم يصمت قليلاً ويضيف « أنا احبك لأنك تحاول ان تعالجني » .

وهناك تمثيلية يسند فيها الطفل الى دمية دور الطفل والى دمية اخرى دور الأم وتقول الدمية التي تلعب دور الطفل للدمية التي تلعب دور الأم « انا اكرهك » . . فتسأل الدمية التي تلعب دور الأم « لماذا » . . فتجيب الدمية التي تلعب دور الطفل « لأنك يا امي اقسمت ان آكل هذا النوع من الأكل الذي لا احبه » . هنا يمكن للطبيب النفسي ان يقول « لعلك تتمنى ان تقول مثل هذا الكلام لوالدتك عندما تجبرك على أكل نوع من طعام لا تحبه » .

هنا يقول الطفل « لا » .

ويصمت الطفل قليلاً ويقول « أنا لا اغضب من والدتي عندما تفعل ذلك فهي تريدني ان آكل حتى اصبح قوياً سليم البنية » .

وفي تمثيلية ثالثة يلعب الطفل مع الطبيب النفسي لعبة العسكر والحرامية . ويطلب الطفل من الطبيب النفسي ان يحبسه في السجن لأنه سرق بنكاً . وما ان يبدأ الطبيب النفسي في تمثيل دوره حتى تنتاب الطفل نوبة من الانفعال والسرور ، ويحاول ان يمسك بمسدس ويحاول ان يضرب الطبيب ويهرب . هنا يقول الطبيب « انك ترغب ان تؤذيني وتخاف من انني سأعاقبك » .

وهكذا تستمر الألعاب على هذا الحال . الغرض منها ان يفرغ الطبيب كل ما في اعماق الطفل من احاسيس الذنب . وان الانسان يتعجب عندما نرى كيف ينكر الطفل باصرار وعناد الوان المشاعر العدوانية الواضحة تجاه أي انسان آخر . وفي بداية العمل في علم توجيه الأطفال كان العلماء يعتقدون ان الطفل الذي يكبت غضبه ثم تسنح له الفرصة للتعبير عن هذا الغضب فإنه سيهدر كالبحر الهائج . يحكي كل شيء في جلسات التحليل النفسي وعندئذ سيقول كل شيء عن كراهيته للاخرين وهذا سيشفيه . . حتى ان لم نشرح للطفل الأسباب

الحقيقية للغضب او الدوافع التي تختفي وراء خوف الطفل . لكن التجارب اثبتت ان هذا التحسن الذي ينتج عن مثل هذه الانفجارات ليس إلا عارضاً مؤقتاً لا يستمر طويلاً . لأن اعراض المرض النفسي او العصبي تعود الى الطفل ولا تختفي هذه الأعراض إلا عندما تتاح الفرصة للطبيب النفسي ان يكتشف الجذور المدفونة في اعماق الطفل والتي تسبب التوتر وان يشرحها الطبيب للطفل .

وهناك خطأ آخر كان العلماء يقعون فيه اثناء بداية ظهور علم الطب النفسي للأطفال ، وهو السماح للطفل بأن يعبر عن غضبه بأن يكسر العابه ويحطمها أو يعبث بكل ما في الحجرة او يضرب الطبيب النفسي . ولكن التجارب أثبتت ان ذلك يحول الطفل الى انسان عدواني ومدمر ويصبح من السهل عليه دائماً ان يكسر كل شيء بدعوى انه ينفس عن غضب مكبوت . وهذا مزعج لأي انسان سواء كان صغيراً أم كبيراً لأن ترك الطفل يفعل ما يشاء قد يؤدي الى ان يؤذي هذا الطفل نفسه او يؤذي الآخرين ويجعل الطفل يفقد الثقة بنفسه ، ويشك في كل من حوله . ونحن كعلماء نلاحظ في بعض الأحيان ان بعض الأحداث المجرمين الذين يرتكبون افحش الجرائم واقساها يتركون رسالة في مكان الجريمة البشعة مكتوب فيها « اوقفوني » . « امنعوني » . « اجعلوني أتحكم في نفسي » . « إنني أتوسل اليكم ان تفعلوا ذلك » . ولهذا تراجع علم الطب النفسي عن مسألة ترك الحبل على غاربه للطفل الغاضب ، لأنه ايضاً يجعل الطفل متشككاً في قدرة الطبيب على العلاج . وهو يزيد من اعباء الاحساس بالذنب بما هو فوق طاقة الطفل ، مما يزيد المشكلة تعقيداً . ولهذا ادرك العلماء ان هذا النوع من التعبير عن النفس يؤدي الى مزيد من المتاعب للطفل . ولهذا فإن الطب النفسي يطلب ان يعبر الطفل لغوياً عن حالته الانفعالية دون ان يصاحب ذلك سلوك عدواني . ان مقاومة السلوك العدواني تعطي نتائج ايجابية يستريح لها الطفل نفسه . ونحن نحب ان نعلم الطفل كيف يتكلم عن مشاعر الغضب حتى يقل احساسه بالذنب . لكن التعبير بالسلوك يطلق طاقة العدوان دون ان يعرف احد كيف يضع نهاية لها .

وعن طريق مساعدة الطبيب النفسي يتعلم الطفل كيف يعترف بأنه كان في بعض الأحيان يمتلىء ضيقاً وغيظاً من الطبيب نفسه ومن والديه . ومن المؤكد ان الطبيب يستطيع ان يستمع الى هذه الأحاسيس التي تعبر عن العداوة والكراهية بهدوء وبدون انتقام ، مما يعلم الطفل انه ليس هناك خطورة من التعبير عن احاسيسه بالكلمات ، وان الكبار دائماً اناس يمكن الاعتماد عليهم . وبعد هذا يستمر الطبيب النفسي مع الطفل في اكتشاف المزيد من اسباب سخط الطفل وعلى وجه الخصوص تلك الأحداث البعيدة التي مرت بالطفل في مراحل سابقة واساء الطفل فهمها . وكل هذا يؤدي الى ان تقل حدة توترات الطفل العصبية التي تعمل بشكل يثير قلق الطفل وتسبب له الأعراض المرضية . وهنا تهدأ حالته .

ان التقاليد الأخلاقية ما زالت تعلمنا ان الغضب ذنب كبير ، خصوصاً بين افراد الأسرة الواحدة ، ولكننا ، نحن البشر ، لم نحمل هذا الاحساس بالذنب على محمل الجد ، واستطعنا ان نضحك ونسخر من الأحداث التي تدور بين أهل الأسرة الواحدة من عداءات ومشاجرات وخلافات ومع ذلك فإن هناك بعض البشر يتمتعون بضمائر متزمتة بشكل مبالغ فيه . وقد يكون بعضهم من الكبار او من الأطفال ، وهؤلاء يكبتون مشاعر الغضب الى حد كبير ويشعرون بالذنب ويقعون فريسة لهذه التوترات النفسية . ان الجيلين اللذين يعيشان الآن في هذه الكرة الأرضية يعرفان تماماً انه قد انتهى عصر التقيد المتزمت بهذه التقاليد الأخلاقية الصارمة . . كما ان البشر قاموا بتغيير اكتشافات الطب النفسي بشأن عمق واتساع الأساب العدوانية والدوافع الجنسية . وكانت التفسيرات كلها تؤيد عدم التزمت . وهناك آلاف المحاضرات والمقالات والكتب التي تعلم منها الآباء ان غضب الطفل مسألة طبيعية خصوصاً في اوقات التوتر العصبي . واصبح بديهياً بالنسبة لكل أب وأم ان يعرفا ان الابن قد يكره احدهما او يكره احد اخوته لبعض الوقت وان الكبت الشديد يمكن ان يسبب امراضاً عصبية . واصبح معظم الآباء يعتبرون ان هذه الأحاسيس امر مقبول في الطبيعة الانسانية . انهم انفسهم يشعرون بالغضب ، فلماذا يحرمون ذلك على الأطفال ؟ وهؤلاء الآباء

هم من فئة الآباء الذين يتمتعون بالثقة في النفس لأنهم يقبلون الحقائق العلمية بهدوء وتفهّم .

لكن هناك بعض الآباء والأمهات انتابتهم صدمة افقدتهم القدرة على التوازن واصبحوا ينظرون الى كل ما يقال عن الغضب . . وعن الأضرار الناتجة نظرة مليئة بالشك والقلق . ومع هذا فهؤلاء الآباء يسمحون لأطفالهم بأن يعبروا عن مشاعر الغضب كلما لاحظوا ان هناك بوادر لسلوك عدواني في الطفل . وفي بعض الحالات القليلة يشجع هؤلاء الآباء ابناءهم على التعبير عن سلوكهم العدواني . وقد ينطلق الطفل الى غير ما حدود ، وقد يعجز الأب أو الأم عن السيطرة على الابن .

ولقد كتب لي عدد كبير من الآباء والأمهات اصبحوا يعتقدون انهم فشلوا الى درجة كبيرة في منح الحب لأطفالهم، لأن الأطفال لا يسكتون ابداً عن توجيه الاهانات والسباب للآباء طوال النهار . وهذا التفسير الذي قاله الآباء والأمهات في رسائلهم خاطىء للغاية . ان الأطفال غير المحبوبين لا يهتمون كثيراً بأن يوجهوا اللوم الى آبائهم لحظة بعد اخرى . وفي اعتقادي ان هؤلاء الآباء والأمهات من النوع الممتلىء بالمشاعر الحنونة نحو ابنائهم، لكنهم يتسرعون بلوم انفسهم كلما حدث خطأ ما او حدث أي شيء على غير ما يتمنون . ولذلك يظنون ان ما يظهره اطفالهم نحوهم من مشاعر العداء من وقت لآخر لا بد ان له سبباً وجيهاً ، ومن ثم فإنهم يتركون اطفالهم يعبرون عن مشاعر العداء او الغضب بالسلوك المباشر المليء بالوقاحة . ويعتبر الآباء ان هذه طريقة مثالية لتفريغ الأطفال من مشاعر العدوان . . وانها نوع من الحب الذي يقدمونه للأبناء . ولكن ذلك خطأ جسيم . ان الأب او الأم حين يستسلم معتذراً للابن عن أي خطأ ، يحس الطفل ان الأب او الأم سيرضخ لأي لون من ألوان « العقاب » يوقعه عليه الطفل .

هنا يشعر الطفل انه « مهان » في شخص والده .

هنا يدافع الابن عن كرامة ابيه بمزيد من القسوة على الأب نفسه ! !

ان الطفل يريد ابا قوياً . يريد أماً حازمة . لا يرضى لكبريائه بأن يكون والداه من النوع « الخنوع » . ويعرف الطفل ان قسوته على احد والديه ليست هي الأسلوب السليم لمعاملة الابن لأبيه او أمه . لذلك يتمنى في اعماقه ان يضع احد الوالدين حداً لهذا السلوك غير السليم . لذلك ايضاً يتمادى في القسوة ليزيد من التنبيه بالغضب والعنف بأنه لا بد ان يتحرك الأب او الأم ليمنعه من التمادي في السلوك الخطأ .

والآن اريد ان اربط بين هذه الأفكار بأسلوب اكثر اقناعاً واعبر عن رأيي بطريقة افضل. إنني اؤمن ان الآباء والأمهات في هذه الأيام يتمتعون بمميزات كبيرة تفوق آباء وامهات الأزمنة القديمة . ذلك ان آباء وأمهات هذه الأيام قادرون على الاعتراف بأن هناك مواقف كثيرة في تربية الطفل تثير غضبه وضيقه وان هناك الواناً من الكبت والمطالب غير المقبولة من الآباء يطالبون بها الأبناء ، خصوصاً في السنة الأولى من العمر حيث يتعلم الطفل كيف يتفادى الأشياء القابلة للكسر او الكهرباء او الأدوات المنزلية الخطرة كالسكاكين والأمواس والأبر وغيرها . ويتعلم ايضاً كيف يجلس على كرسي التبرز والتبول. وقد ينام في لا وعي الابن احساس بالضيق من والديه لأن هناك طفلاً جديداً قد ولد في الأسرة ويسبب ذلك غضباً دائماً للابن من والديه ومن المولود الجديد . وعندما يصبح الابن مراهقاً في السادسة عشرة يرفض بعض الأوامر التي لا يقبلها وتسبب له الغضب والضيق ، مثل الأمر الصادر من الأب للابن بأن يعود مبكراً الى المنزل ومثل رفض الأب في الأسر المقتدرة ان يقرض ابنه مفتاح السيارة ، وهكذا نجد ان في كل مرحلة من مراحل النمو هناك بعض الأسباب التي تبدو غير معقولة في نظر الأبناء ، وقد يكون هناك ايضاً بعض المشاكل التي تغضب الأبناء مثل نفاد الصبر وعدم القدرة على المناقشة . . لأن اعصاب الأب مثلاً ثائرة نتيجة لخلاف بينه وبين رئيسه في العمل او نتيجة لخلاف بين الأب والأم .

وانا اؤمن انها ميزة كبيرة للأطفال الذين يربيهم اباؤهم بطريقة لا ذعر فيها ولا خوف او صدمة . . نتيجة ما يظهر الطفل احياناً من مشاعر الكراهية المؤقتة . اقول انها ميزة كبيرة لأنها تنقذ الأبن من الوقوع في مصيدة الاحساس العنيف

بالذنب بسبب هذه المشاعر . وفي استطاعة الأم او الأب مساعدة الطفل في تصفية أي خلاف ينشأ بعد أي انفجار او عاصفة في مجال الأسرة وخصوصاً الطفل الحساس جداً او الذي يفرط في تأنيب نفسه . لا بد ان يقول الأب او الأم كلمات معناها : ان كل طفل في الدنيا يغضب من والديه.. وهذا لا ينفي ان الابن يحب والديه . والوالدان يعرفان ذلك ويفهمانه ولا يقلل ذلك من حبهما وتقديرهما للابناء . ويستطيع الأب ان يذكر للابن كيف انه كان يغضب قديماً من ابيه او امه . واذا شعر الأب او الأم ان احدهما اخطأ وتصرف بطريقة خشنة ظالمة مع الابن ، مما سبب ضيق الابن وغضبه ، فمن الأفضل ان يعترف الأب او الأم بذلك بوضوح ، ويعتذرا بصراحة دون خوف من ان يفقد الاعتذار احدهما الكرامة، ولكن دون مغالاة حتى لا يفقد احدهما هيبته امام الابن .

واعتقد ان من حقي وواجبي ان اقول ان الابن يتعلم الألفاظ الخشنة والوقحة من الوالدين ، لذلك فمن حقي وواجبي ان اطالب الآباء بألا ينطقوا بألفاظ السباب او أي تعبير من التعبيرات غير المهذبة امام الابناء . ان كل اب مطالب امام نفسه وامام ابنه بالاحترام، وبالمحافظة على مركزه كقائد للأسرة ولا يعطيه هذا المركز القيادي الحق بأن كل تصرفاته وكلماته فوق المناقشة . ان الأب كقائد للأسرة يعلم الأدب والأخلاق الحميدة . وان الأب مطالب بأن يكون مؤدباً وان يطالب الابن بانتهاج الأدب ايضاً لأن هذا يخلق في الابن احترام البشر الآخرين سواء كانوا جيراناً او معلمين او رؤساء في العمل او حتى خادمة . ان احترام الانسان شيء يتعلمه الابن من الأب . . وان لم يتعلم ذلك من الأب فلن يتعلم ابداً احترام الآخرين .

وباسلوب آخر اكثر تحديداً . اذا كان طفلي غير مهذب معي فلن اسمح له بذلك ، كما انني لن اتصرف معه كخصم لي او كند لي . وايضاً لن اتصرف معه كما لو كان قد ارتكب جريمة لا غفران لها . وكل ما افعله هو ان اقول له بلهجة جادة وحازمة وهادئة انني لا اريد منه ان يتكلم معي بهذه الطريقة ، لأن ذلك من سوء الأدب وان هذا الأسلوب خطأ .

ولا يمكن بطبيعة الحال ان انسى حالة الطفل الذي تعلم ان يقول كثيراً

كلمة « أكرهك » او « لا احبك » كلما رفض والده او والدته له طلباً او عاقباه لذنب ارتكبه . هذا الطفل قد يكتشف في كلمات « اكرهك » او « لا احبك » مفتاحاً سحرياً يجعل الأب او الأم خاضعين تماماً للاحساس بالذنب ولذلك ينفذان له مطالبه . ولنا ان نتصور ان احد الوالدين يكون من هذا النوع الذي يفتقد الثقة بالنفس او النوع المتردد او قليل الخبرة . ان طفلاً لهذا النوع من الآباء يعذب اهله ويعذب نفسه لأنه عن طريق ذلك الرضوخ الدائم لمطالبه يفقد القدرة على ضبط مشاعره ورغباته . وانني اشكر الله ان هذا النوع من الآباء والأمهات نادر وقليل لأن معظم من عرفتهم من الأمهات او الآباء كانوا اصحاب خبرة وقليل منهم يكون شكاكاً في قدرته او كفاءته كأب أو كأم وخصوصاً بالنسبة للطفل الذي يثير مشكلة من هذا النوع .

وهناك امثلة واضحة بسيطة منها حالة الأم التي تبنت طفلاً ولا تستطيع ان تتخلص من الاحساس بأنها لا تملك أي حق في الاحتفاظ به . فعلاقتها بالطفل يسيطر عليها الاحساس بأن كل ما تفعله هو خطأ في حق الوالدين الشرعيين لهذا الطفل بل وفي حق الطفل نفسه ،او حالة الأم التي يكون ابنها مصاباً بعاهة لا دخل لها بها . ومع ان الطبيب يؤكد لها انها غير مسؤولة عن حدوث هذه العاهة . . فإنها تشعر بأنها مخطئة وانها السبب في حدوث هذه العاهة . وفي معظم هذه الحالات يكون السبب في رضوخ الأم للطفل هو الاحساس بالذنب الراسب في الأعماق ويكون ايضاً الاحساس بالنقص وبعدم الكفاءة ، هذا الاحساس الذي يحتل حيزاً كبيراً في ضمير الأم . وقد تكون هذه الأم نفسها على درجة رائعة من الحزم والحنان والمنطق مع بقية ابنائها .

وفي استطاعتنا ان نكتشف فوراً عدم صدق الطفل عندما يدعي انه لا يحب امه او يكرهها . انه في الحقيقة يمثل . لماذا لا تلاحظ الأم نغمة التمثيل الظاهرة في قول الطفل لهذه الكلمات ؟. ان في ضمير الأم الحساس جداً استعداداً لتقبل الاتهام بأنها غير جديرة بحب الطفل واقل ما يذكرها بذلك من تصرفات ، يحرك هذا الاحساس بعدم الجدارة .

وعلينا ان نعرف ان اطفالنا يتمتعون بقدرة هائلة ، على الاحساس

بمشاعرنا العميقة، وهـذه المشاعـر المليئة بـالحب والعطف هي التي تحـافظ على الاستقرار النفسي للابن . وعندما يصبح سلوك الابن قبيحاً فإن السبب قد يكون مختفياً في علاقة من علاقاته . . سواء بالمدرسين او الأصدقاء او الأخوة او الآباء .

لكن هناك سؤالاً يجب أن نطرحه :

هل يتقبل الآباء بدون وعي الاستسلام والاذعان للسلوك القبيح ؟

عندما تريد ان تجيب عن هذا السؤال اقرأ هذا الفصل من البداية مرة اخرى .

الطفل الذي يتعرض لمضايقة رفاقه

من الأفضل للوالدين ان يزرعا الثقة بنفس الطفل الخجول او « الهياب » بدلاً من المغالاة في الخوف على حياته .

عندما دخل طفلي الى المنزل صامتاً تظهر على وجهه علامات الأسى كدت افقد الصواب . ان صحته سليمة ، والكل يحبه ، فما الذي حدث بالضبط ليصبح صاحب هذا الوجه الوردي السعيد ذا سحنة صفراء كئيبة كأنه عجوز في ملابس طفل ، وبعد طول استجواب قال لي :

لقد ضربني فلان على ظهري وجرى ووقعت في الطين . واعترف انني تمنيت ان يكون ابني قد انتقم لي ، فقديماً كنت تلميذاً صغيراً في روضة الأطفال . ولم اكن قوياً . لكنني ذات مرة قررت بعد عام كامل من الخوف من احد الأطفال وكان يتزعم زمرة الأقوياء في الروضة ، قررت ان اضرب هذا الطفل الزعيم ، وليكن ما يكون . وبالفعل هجمت على هذا الزعيم فجأة وبلا سبب وضربته . اذهلت كل الأطفال بتلك القوة الخارقة . . لكني بعد ان ذهبت في اليوم التالي الى الروضة قررت ان اعتذر للزعيم وان اقول له « يجب ان نكون اصدقاء » . واصبح وهو الزعيم الشرس ينظر لي بريبة وشك ويخاف ان يدخل معي في معركة . ولم اكن افكر في شيء كل صباح إلا انني قد اتعرض لغدر هذا الزعيم أو أن اخوض معه معركة لست مستعداً لها . وتنفست براحة عندما انتقلت من هذه المدرسة الى مدرسة اخرى . . استرحت لمدة اسبوع ولكن بعد نهاية اول اسبوع كان لا بد ان توجد فئات أخرى وان يحدد كل منا مكانه هل هو زعيم ام تابع ؟ أو صديق للجميع ؟ وهو دور اخترته لنفسي .

وكثير من الأمهات يكتبن لي . تقول لي الأم في لهجة عصبية هذه الكلمات :

ـ لماذا لا تكتب عن الأسلوب الذي ينبغي ان يعلم الآباء به اطفالهم كيف يواجهون الخلافات بينهم وبين من هم في مثل عمرهم . اننا يجب ان نعلم الأطفال كيف يدافعون عن انفسهم ودون ان يتحولوا الى اطفال شرسين يفرحون بايذاء الآخرين .

وكل الأطفال الذين يحترفون ايذاء الأطفال الآخرين كانوا ضحية لأخ اكبر او لوالد او عم او خال ، احد هؤلاء الأقارب يوجه الاساءة والاهانة لهذا الطفل فيبحث الطفل عن طفل آخر يفرغ فيه هذا العدوان . قد تكون الاساءة التي نالت الطفل من احد الأقارب في صورة سخرية . ومعظم الأمهات يعترفن بأن الذكور تنتشر بينهم هذه المشكلة . .

وانا في حدود اسرتي لا اجد اننا نفتقد روح السرور والدعابة . نحن اسرة تعرف جيداً الفرق بين الدعابة التي تستثير الضحك لدى الجميع وبين « السخرية » التي تهدف الى ان تجعل احداً منا يتألم او يبكي ، او ييأس او يغضب . ونحن لا نمارس هذه السخرية في منزلنا ، إنما نحن نعرف الضحك الذي يسعد الجميع . ولأضرب لك مثلاً ايها الطبيب . . احد زملاء ابنتي في اللعب استدرجها لتلعب معه ثم حبسها في « قبو » منزله ، وتركها هناك لمدة طويلة ، وشعرت ابنتي بالانزعاج والخوف . مثل آخر . . اخذ طفلان احدى لعب ابني التي يحبها . وابني في الثالثة من العمر . واخفى الاثنان هذه اللعبة وقالا انها فقدت واصبح ابني في حالة يرثى لها من الانزعاج . انه يريد لعبته .

وانا لا اعرف كيف استطيع ان اساعد ابنائي على عدم القلق الشديد من مثل هذه «المكايد» دون ان أقع انا في شرك اقناع الطفل بالاستسلام لعدوان الآخرين . واريد ايضاً ان يتعامل اطفالي مع اقرانهم بنفس المعاملة . ان من يضرب طفلي او يؤذيه اتمنى ان يضربه ابني وان يؤذيه ايضاً .

هذه هي رسالة الأم . وهي تفتح باب مناقشة لمشكلة هامة . وتطالبنا بأن نحدد الفرق بين « العبث الرقيق » و« المزاح السمج القاسي » وتتساءل هل حقيقة ان الذكور هم اسوأ من يحترف « المداعبات الثقيلة » ؟

وهذا الاتهام يجب ان اتوقف عنده لأقول انني لا اثق كثيراً في ان هناك أي فرق بين المزاح القاسي الثقيل والمزاح المليء بالتعاطف لأن الاثنين لهما ، في الأساس ، هدف واحد هو التعبير عن درجة ما من الغيظ ورغبة الى حد ما في ان تسيء الى من امامك حتى ولو إساءة صغيرة . فهناك والد طيب يسخر من ابنه الطفل الذي بدأ يثير الازعاج . وهذا الأب يفعل ذلك كأسلوب لطيف ليعيد الابن الى صوابه بدلاً من ان يقسو عليه او يؤنبه بعنف . ان اعماق هذا الأب طيبة بالفعل وهو يحاول ان يسخر برقة من ابنه حتى لا يجرح مشاعره جرحاً عميقاً . وبنفس الأسلوب قد يسخر انسان كبير من صديقه الطيب وبطريقة غير مباشرة يتقبلها المجتمع بوصفها طريقة يوضح بها الرجل الساخر انه مليء بالغيظ من صديقه .

وهناك فرق كبير في مدى السخرية عندما يوجه ولد كبير الاهانة والسخرية الى احد الأطفال الصغار ، دون ان يكون هذا الطفل الصغير قد فعل أي شيء يستحق عليه الاهانة ، او ان يحكي ولد كبير لشقيقه الطفل قصصاً مرعبة او يقسو عليه بالخداع والمكر لمجرد ان يستمتع برؤية اخيه وهو يتألم . في هذه الحالة فإن المسألة هي تنفيس عن مشاعر « سادية » يراد بها الحصول على لذة تعذيب الغير بدون سبب . ولكن حتى في هذه الحالة ، فإن الولد السادي يتحكم لدرجة ما في مدى التعذيب الذي يوجهه الى اخيه الطفل ، لأنه يلجأ الى حكايات خيالية ، ولا يستخدم العصا مثلاً في ضرب الطفل . صحيح ان الولد السادي لا نستطيع هنا ان نوجه اليه اتهاماً بأنه قام بمضايقة وتعذيب اخيه عامداً متعمداً . . لأنه لم يترك اثراً مباشراً لهذا العذاب ، ولكن الحقيقة انه ترك اثراً غاية في السوء من الناحية النفسية . إنه بالفعل قام بالتعذيب بأسلوب غير مباشر .

ولا بد لي هنا من ان اعلن اتفاقي مع هذه الأم بأن جنس الذكور عموماً هو الجنس الذي يسيء استخدام السخرية والمزح الثقيل . والأسباب التي يمكن التفكير فيها ستعود بنا الى القضية القديمة . . هل الولد يختلف في المزاج والحالة النفسية عن الأنثى ؟ . واذا كان هناك اختلاف بالفعل ، فهل له مصدر وراثي ام خاضع لأسلوب التربية في المجتمع ؟ . وبما اني سأناقش هذه المسألة بالتفصيل في

احد الفصول القادمة فإنني الآن اؤجل رأيي الشخصي . . وهو ان معظم الأولاد الذكور يولودون وفي طبيعتهم قدر كبير من العدوان يفوق ما لدى معظم الاناث . ونحن نعرف ايضاً ان المجتمع الانساني في معظمه يقبل ان يعلم الأب ابنه ان السخرية هي احدى الوسائل المقبولة ، بل وتنال عليها الاعجاب ما دمت تستخدمها للتعبير عن الضيق او العداء . وتتطور السخرية الى ان تصبح احد الفنون الرفيعة في المجتمع لأنها تتميز بالذكاء والقدرة على الابداع .

ومعظم النساء والبنات لا تستطيع الواحدة منهن ان تعبر عن مشاعرها العدوانية في اسلوب « نكتة لاذعة » . انني الاحظ ان المرأة عموماً تعبر مباشرة عندما يكون لها حق في ذلك ، وعندما تكره او يصيبها الضيق . واحب ان اقول ان سخرية أي أب من ابنه ما دامت حسنة النية وهادئة فلا بأس بها . ولكن سخرية الأب عندما تكون حادة فإنها تؤذي الابن ، خصوصاً اذا كان الطفل حساساً للغاية لأن الطفل عموماً هو كائن خبرته قليلة في الحياة ، ولا يعرف « الدنيا » بكل تفاصيلها الحسنة والرديئة بصورة تسمح له ان يصنع لنفسه جلداً سميكاً تتكسر عليه سهام السخرية . والطفل ايضاً يرفض ان يتمتع احد بالضحك على حسابه . ان الطفل يشعر في سن مبكرة جداً بالذل التام عندما يجعله احد هدفاً للسخرية او الضحك . ويظل سنوات طويلة يحاول ان يتعلم كيف يمكن ان يرد بالكلمات على أي هجوم يكون هدفاً له .

وانا اتفق مع الأم في رأيها الخاص بأن الطفل الذي يوجه الاهانات الى الآخرين ويتصرف بصورة تؤذي المشاعر لا بد ان يكون قد تلقى هذه الاهانات من شخص آخر في الأسرة . لكن احب ان اضيف ان السخرية وحدها لا تكفي حتى تجعل الطفل سادياً يستمتع بايلام الاخرين . لا بد ان هناك ايضاً نوعاً من القسوة او الجفاف في المعاملة التي يلقاها الطفل سواء من الرجال او النساء .

نصل الآن الى نقطة هامة ، وهي كيف يمكن ان نحمي اطفالنا من ان يستعمل احدهم قوته لايذاء الطفل ؟ كيف نعلم الطفل فن الدفاع عن نفسه ، او حتى كيف يمكن ان ندافع نحن عن طفلنا ضد عدوان الآخرين ؟ .

قد يفكر احد الآباء في ان الحل المثالي هو ان ينتقل من مسكن الى آخر ، ان يوفر على نفسه العذاب فيرحل عن الحي بأكمله الى حي آخر . وهذا صعب في هذه الأيام لأن معظم بلاد الدنيا تعاني من أزمة المساكن . وحتى عندما يستطيع احد الآباء ان يعثر على مسكن آخر ، فهناك طفل عدواني آخر سيظهر في حياة ابنك الحساس السريع التأثر . ان في كل مكان انساناً عدوانياً يظهر بسرعة في حياة أي اسرة جديدة في الحي . إنه يظهر في خلال الساعة الأولى لوصول الأسرة الى بيتها الجديد كأنه يقع من السماء او كأن الأرض تنشق ليظهر هذا الكائن العدواني من بطنها .

هل في استطاعة الأب ان يحمي طفله الحساس من براثن الطفل العدواني الذي قد يعتدي على ابنه بالضرب ؟

في بعض الأحيان تكون الاجابة عن هذا السؤال : نعم .

ولكن في بعض الأحيان يمكن حماية الطفل دون حاجة الى ان يضرب الطفل المعتدي . ان عدوان الأطفال الذين هم في الخامسة من العمر يمكن ان يوقف بمجرد نظرة بعين تحمل التهديد الى الطفل العدواني . والأطفال في هذا العمر يمكن ان نجعلهم ينضبطون ما دام هناك واحد من الكبار يراقبهم . ولكن هذا الانضباط مؤقت . فسرعان ما يعود الطفل الشرس الى العدوان على الطفل الضعيف الحساس .

ويمكن للأم اللطيفة المعشر ان تقنع احد ابناء الجيران الذي يتراوح عمره بين السادسة والعاشرة ان يكون لطيفاً ورقيقاً ، وان يتخلى عن عدوانه ، وخصوصاً اذا كان هذا الطفل ابناً لوالدين يستطيعان معاقبة ابنهما ان اشتكى منه احد الجيران . أما الأم التي تمتلىء بالغضب وتضرب ابناء الجيران وتسب الطفل العدواني سباباً عنيفاً . . فإن أطفال الحي كلهم يتخذونها هدفاً سهلاً للعدوان وينظرون اليها بحقد ويضعونها هي واطفالها في القائمة السوداء ويفكرون جميعاً في أساليب اذلال ابنائها واذلالها هي نفسها .

ان الطفل البالغ الشراسة وقلة الأدب لا يتراجع إلا مؤقتاً وعندما تحين له

الفرصة فهو ينقض كالذئب على الفريسة . ولذلك فهو يظل متحفزاً للأم ولأطفالها ليريهم من فنون العدوان والمضايقة الشيء الكثير . وهذا الطفل عادة لا يفتقدان والدين يحكمان الرقابة عليه او ان احدهما او كليهما لا يهتم بشكوى الجيران او ان كليهما على قدر من الوقاحة يرفض معه تصديق الحقيقة المؤلمة وهي ان ابنه ثقيل الظل ، سمج التصرفات ، سخيف المعشر ، معتد دائماً على حق الآخرين .

وانا اعتقد ان أي أم تستطيع ان تجنب ابنها الكثير من المتاعب خصوصاً في السنوات الأولى التي لا يذهب فيها الطفل الى المدرسة . ان أي أم لو خصصت كل يوم جزءاً من وقتها للاشراف على لعب طفلها مع الآخرين خارج البيت فإنها تستطيع ان تعزز مكانة ابنها وسط الجماعة لمجرد مراقبتها للآخرين . . ولا اقصد بذلك ان تظل الأم متأهبة طوال الوقت لتدير العاب الأطفال . ولا اقصد ايضاً ان تقف الأم لتلوم أي طفل يعتدي على طفلها ، ولكن أقصد انها عن طريق التودد والملاحظة وحسن معاملة الأبناء الآخرين تضمن لطفلها معاملة حسنة ، وتجعل بقية الأطفال لا يخرجون عن الحدود وان تسير الأمور بالنسبة لابنها سيراً حسناً ، وتجنب بقية الأطفال أي شرّ من أي طفل شرس من ابناء الجيران . واذا شاهدت الأم بدايات التوتر والشغب والاهانة ، فإنها تستطيع بكل هدوء واطمئنان وثقة ان تفصل بين الأطفال وتمنعهم من الانقسام الى فريقين متحاربين ، أو تجعل الحرب نفسها تتوقف اما بأن تتوسط بين الأطفال وتعطي حلاً يرضي كل الأطراف ، واما لتمنع تعدّي فريق على فريق آخر . وفي المدى الطويل يمكن للأم اللطيفة الهادئة اللبقة ان تتحكم في جماعة من الأطفال بهدوء ودون إشعارهم بالتطفل عليهم ، وتستطيع ان تساعد ابنها الحساس المتردد على ان يجد له مكاناً وسط الآخرين . بل ويمكن لمثل هذه الأم ان تخلص ابنها الحساس من خطأ الوقوع دائماً كفريسة لغيره وذلك بأن تصحبه لمدة أشهر قليلة ليلعب مع جماعة من الأطفال في احد النوادي وعادة ما يكون الأطفال في النوادي غير عدوانيين . والأب الماهر الذكي السريع التصرف مع ابنائه يستطيع ان يشترك في اللعب مع فريق الأطفال وذلك حتى يساعد ابنه على ان يجد مكاناً محبوباً بين الآخرين ويجعل الابن يتعلم كيف يقبل

بعض المداعبات دون خوف او خجل . واذا كنا حقيقة نبحث عن الحل الشامل الناجح لمشكلة عدوان الآخرين وازعاجهم لأحد ابنائنا او لهم كلهم ، فلا بد ان نبحث لماذا يكون بعض الأطفال فريسة سهلة لذلك . . بينما يستطيع البعض الآخر ان ينجو بنفسه من براثن أي عدواني يحاول ان يفرض عليه المهانة والعذاب .

قد يقول قائل . . إنها مسألة تتعلق بالقوة الجسدية او بالمهارة في الدفاع عن النفس او بأن الولد تعلم كيف يرد الاهانة باهانتين . وقد يكون ذلك حقيقياً كعامل مساعد ولكنه ليس العامل الأساسي . ففي بعض الأحيان يكون هناك طفل ضخم الصوت قوي الجسم هدفاً لأن يضطهده طفل اصغر منه . واحياناً نرى طفلاً ضعيفاً يستطيع ان ينسجم وان يفرض نفسه على مجموعة من الأطفال الذين يتميزون بشراسة فائقة .

والحقيقة ان هناك بعض الأطفال يغرون الآخرين بمضايقتهم والعدوان عليهم . وكأن فيهم صفات مميزة توضح للعدواني كيف يزعجهم . كأنهم مصنوعون من طينة يسهل معها ازعاجهم من الآخرين . . كما يلتقط النحل من الأزهار الرحيق . وقد تكون الصفة التي تجذب السمج الى ممارسة ازعاجه لأحد الأطفال هي سرعة الغضب . ان بعض الأطفال يمكنهم ان يتصفوا بالهيبة ويمكن ان يلعبوا بسهولة مع الآخرين . لكن هناك لحظة ينفجر فيها الواحد منهم غاضباً ويكون اسلوبه في الغضب مضحكاً ومليئاً بالرعونة . وهنا يجد الأطفال لذة في مشاهدة انفجار واحد منهم كالبركان ، ويستمتعون باغاظته ويجدون في ذلك سروراً لا حد له . انهم يتفننون في العثور على وسيلة يجعلون بها هذا الطفل يغضب، لأن غضبه يمدّهم بسيل عارم من الضحك والسعادة. وغالباً ما يكون هذا الطفل من النوع الحساس الخجول . ويرى فيه الأطفال تعبيراً من الشك في النفس وعدم الود وهو لا يهاجم احداً بالكلمة او السلوك . ويبدو دائماً كأنه يخشى ان يهاجمه احد . ويبدو وكأنه يكره بقية الأطفال وينفر منهم . كل ذلك يدفعهم الى الاعتداء عليه . ومن المؤكد ان هذا الموقف الذي يقفه الطفل يكون نتيجة لسلسلة من التجارب المريرة التي عانى منها . . . وهي تجارب كان فيها

موضع سخرية الآخرين ولا احد يستطيع ان يلومه في ذلك .

ويقفز سؤال هام هو :
ـ لماذا بدأت علاقات الطفل بالمجتمع هذه البداية الرديئة ؟

الاجابة عن هذا السؤال تحتاج الى معرفة عدد من العوامل في السنوات الأولى من عمر الطفل واليها تعود طريقة تكوين طباع الطفل ومزاجه . وانا اعتقد انه من وقت لآخر يولد طفل نستطيع ان نقول انه مذعور ذعراً فوق المألوف. وتجري احداث الحياة معه في ظروف تعيسة نوعاً ما قد لا تؤثر في طفل آخر، لكنها مع هذا الطفل المذعور تزيد من درجة ذعره وتجعله انساناً سيء الظن كثير الشكوك . وفي بعض الأحيان تكون الأم هي السبب في حدوث ذلك لابنها ، لأنها عن طريق الحماية الزائدة تخلق في اعماق الطفل احساساً بأنه لن يكون في امن وسلام إلا اذا كان معها وإلا اذا اتقى شرور بقية الخلق لأنهمخ خطر يجب ان يتفاداه الانسان . وفي بعض الأحيان يكون الابن الأول في أسرة غاية في الحب والترابط ، هذا الابن بطبيعته يتعلم ببطء لذة الأخذ والعطاء والتفاهم والضحك لا لشيء إلا لأن السنين الأولى في حياته كانت تتميز بالرقة الشديدة والحنان والدفء والخوف من سرعة غضب الوالدين لاعتداء أحد الاطفال الاشقياء عليه. وفي مجال آخر يكون الوالدان فيه من ذوي النجاح وثقتهما بأنفسهما كبيرة والحنان الذي يمنحانه للطفل معقولاً . ويأخذ هذان الوالدان كل الأمور بجدية معقولة ودون مبالغة . ولهذا فإن ابن هذين الوالدين يمكنه ان ينفصل في الوقت المناسب عن حماية اسرته له في الحياة اليومية ، ويعتمد على نفسه ويتجه الى الأطفال الآخرين دون حذر او خوف فيتقبله الأطفال الآخرون بنوع من الود .

علينا ان لا ننسى قطان الطفل مثل الانسان الكبير تماماً يجد في العالم المحيط به ما يتمنى ان يجده . ومعنى ذلك انه اذا اراد الصعوبة في علاقاته مع العالم المحيط به فسوف يجدها ، واذا اراد ان يجد كل شيء سهلاً فلا بد انه يعثر عليه . ان السر يكمن في شخصية الطفل . ان الطفل العدواني لن يستطيع ان يعثر في اعماقه على

الاغراء بايذاء وجرح مشاعر الطفل الواثق من نفسه مثلما يجد هذا الإغراء عندما يلتقي بطفل آخر فاقد للثقة بنفسه، خائف من الآخرين . هذا الطفل الذي لا يتمتع بالثقة بنفسه ويمتلىء بالخوف هو الفريسة السهلة لأي عدواني شرس .

وليس معنى ذلك اننا اصدرنا حكماً قاطعاً على كل طفل يعاني من شيء من الخوف بأنه انسان سيدهمه الهم والغم والسخرية في كل مكان وان حياته ستضيع في سلسلة لا تنتهي من العذابات . لا . اؤكد مرة اخرى «لا». ان معظم الأطفال الذين يتصفون بالقدرة على التكيف الاجتماعي في أي ناحية من النواحي يمكنهم ان يجدوا لأنفسهم رفقة مريحة ويعثرون على طريقهم للتخلص من هؤلاء الشرسين، وبعض هؤلاء الأطفال يتفوق وينجح بصورة مذهلة لأنهم يكتسبون قدرة على فهم مشكلاتهم .

لذلك فمن المهم ان نفرق منذ ايام الطفولة المبكرة بين هؤلاء الذين ينجحون في اكتساب الثقة بأنفسهم والقدرة على حماية انفسهم ، وبين هؤلاء الذين لا يستطيعون ذلك . وهذا الصنف من الأطفال يمكن ان يستفيد من تقدم الطب النفسي في هذا المجال .

اما الأم التي نشرت جزءاً من رسالتها فهي لا تشكو من مشكلة طفل واحد مضطهد من بقية الأطفال . ولكنها تشكو من ان عدداً من اطفالها يضطهده سائر الأطفال . وهي تسألني عن حل وتتساءل هل يمكن ان تعلم اطفالها ان يردوا العدوان بالعدوان .

انا شخصياً لا أحاول ان اعلم الطفل كيف يرد العدوان بالعدوان . . ولكني لا أمانع ابداً في ان ارى طفلاً يأخذ حقه بيديه من الآخرين . ان الطفل الذي يجيد التكيف الاجتماعي يبدأ منذ الطفولة في معارك حقيقية مع من هم في مثل سنه . . ويتدرب في اللعب مع الآخرين . ويجب ان لا نعزل الطفل عن بقية الأطفال . . لأن ذلك يسبب له التوجس ويجب ان لا نمنع الطفل ايضاً من ان يرد العدوان عن نفسه لأنه بذلك يعلم الآخرين ان له حقوقاً يجب ان يحترموها ، كما ان للآخرين حقوقاً يجب عليه ان يحترمها . ويجب ان لا نتدخل نحن الكبار في المعارك الصغيرة ما دامت تتم بروح من اللعب وما دام كل طفل لا يصيب الآخر

اصابة خطيرة او يؤلمه ألماً نفسياً عنيفاً . واذا كان لا بد ان نتدخل ، فلا بد ان يتم ذلك بصورة تلقائية . ويجب ان لا نوجه اللوم للطفل الذي اعتدى على طفلنا امام طفلنا اللهم إلا في الاساءات البالغة ويجب ان نشجع ابننا على رد العدوان بهدوء ودون انفعال . . واما اذا كان طفلنا كثير العدوان دائم الشجار فلا بد ايضاً ان نستفيد من خبرة الطبيب النفسي .

وانا شخصياً أعتقد انه من الخطأ ان نعلم الطفل ان يستعمل العنف دائماً لأن هذا قد يمنع الطفل من ان يكون انساناً لطيف المعشر وهو امر قد يقف عقبة في سبيل حصول الطفل على حب الآخرين . واقول ان التوتر الشديد الذي يصيب الأم عندما لا يرد ابنها العدوان الذي وقع عليه، أقول‌ه‌ هذا التوتر لا يسمح للطفل إلا بأن يلجأ اليها في كل صغيرة وكبيرة . اما اذا ناقشه ابواه في هدوء وفي رحابة صدر فذلك قد يجعله يفكر في الدفاع عن نفسه ، او على الأقل فقد يفكر في ان يتفادى هؤلاء الأشخاص المشاكسين . ومن المهم دائماً هدوء الوالدين إلا في الحالات الخطيرة . وهنا اريد ان اقول ايضاً ان تدخل الوالدين بمحاولة اقناع الطفل برد العدوان عليه قد يأتي بنتيجة عكسية لأنهما لو فعلا ذلك بنزق فإنهما لن يستطيعا ابداً الوصول الى اقناع الطفل بذلك . وعلينا ان نعرف نحن الكبار اننا يجب ان لا نتحول الى صغار مرة اخرى وان نفقد القدرة على التفكير ، وان ننسى ان أي خبرة جديدة في حياة الانسان تجعله قلقاً ومهموماً ، سواء كانت تلك الخبرة هي عاصفة من المطر والرعد والبرق او هي كلب ينبح . ان الطفل الصغير دائماً يتجه بعينيه الى والديه ليستوحي الالهام والفهم ومفتاح الموقف الذي يمكن ان يدخل به في مجال هذه الخبرة الجديدة . ويتعامل مع هذه الخبرة الجديدة على الضوء الذي تمده به أمه وأبوه في هذا المجال. فالأم التي يستحوذ عليها التوتر والغضب والحيرة لمجرد ان طفلها عاد من الشارع وهو يبكي ، وتخرج صارخة باحثة عن السبب في بكاء الطفل وتنذر بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وتهدد كل انسان يقترب من طفلها ، هذه الأم ترتكب خطأ فظيعاً في حق الطفل فهو لن يفكر ابداً في حماية نفسه . . بل سيلجأ اليها دائماً لحمايته . وهي بطبيعة الحال لن تستطيع ان تمنعه من الانخراط في المجتمع. ولن تستطيع ان تمنع المجتمع من

التقرب اليه . ان كلا منا يسعى لأن يكون عضواً في مجتمع والمجتمع عادة فيه الخير والشر . وإذا لم نعلم الطفل كيف يعتمد على نفسه في مواجهة الأعداء ، فأغلب الظن اننا نقتل فيه روح الشجاعة . . ولكننا اذا رحبنا دائماً بعدوانه على الآخرين فإننا ، ودون ان ندري ، قد نقتل فيه الضمير الحساس الذي يقيس به الأمور . وليست هذه دعوة لأن نكون جامدي الاحساس امام بكاء طفل لأن آخرين اعتدوا عليه ، وليست كذلك دعوة لأن نقف مكتوفي الأيدي امام عدوان طفلنا الدائم على الآخرين ، إنما اذا جاء طفلنا يشكو من العدوان عليه فلا مانع من مشاركته بهدوء ومحاولة تهدئة خاطره وأن نعيده مرة أخرى حيث كان ونحن نبتسم . . مؤكدين له انه يستطيع ان يرد العدوان عن نفسه . وقد يفشل في المرة الثانية . . وعلينا ان نجرب في المرة الثالثة . . فمن المؤكد انه يستطيع انْ يعمل على رد العدوان الواقع عليه ، ومن المؤكد اننا نستطيع ان نشرح له ذلك بهدوء ، وسيتعلم بمرور الوقت . وطبعاً يمكن ان نتدخل في اللحظة الحاسمة التي قد يصيبه فيها ضرر بالغ .

كان ذلك يحتاج الى وقت . . لذلك فلا داعي على الاطلاق لأن ينفد منا الصبر . يجب علينا ان نقابل ذلك بهدوء لا ببرود ، وذلك حتى يستطيع الطفل ان يصل الى الحدّ الذي لا يخاف فيه من الآخرين ، ولا يكون دائم العدوان عليهم . . إنما يحصن نفسه ضد أي خطر لحظة ان يبدأ الخطر . . وان يملأ قلبه بالحب عندما يتطلب الأمر ان يحب من هو معه .

ولهذا فلست ارحب ابداً بأن ترتبك الأم لأقل خطر يتعرض له الطفل .

ولهذا ايضاً فلست ارحب ابداً بأن تجلس الأم كالصنم تتشاهدابنها يتعرض لسلسلة من الاهانات ولا تتدخل لأنه اذا اتخذت الأمور طريقاً ينذر بالخطر الحقيقي ، فإن توجّه الأم نحو الابن بدون قصد ودون اشعاره بأنها توجّهت لحمايته ، كفيل بأن يعيد الأمور الى وضعها الطبيعي وينقذ الطفل من الخطر ويقويه ايضاً على رد الهجوم .

اعرف انها مشكلة صعبة .

ولكن من قال ان الحياة طريق مفروشة كلها بالرياحين .

ألوان القلق على المولود القادم

عندما يكون المولود في ايامه الأولى ، يكون هناك أكثر من سبب يدعو للقلق على صحته . وهناك اكثر من كلمة يجب ان يعرفها الأب والأم معاً .

علينا ان نرفع ايدينا الى السماء شاكرين لأنها امدت البشرية بهذا القدر الكبير من الجهد لتتغلب على عدد من المشاكل لم يكن اجدادنا يعرفون لها حلاً . ذلك ان احدى الميزات التي يفخر بها عصرنا اننا استطعنا ان نخفض نسبة الموت بين الأطفال الرضع والأطفال الصغار . فقديماً كان الموت يقف على اعناق معظم الأطفال متخذاً اشكال امراض لم نكن نعرف لها حلاً . . مثل الالتهاب الرئوي والسعال الديكي والحمى القرمزية والدفتريا والاسهال الشديد . ولم يكن احد يعرف اي شيء عن اخطار فترة ما بعد الولادة مباشرة . ولكن الأمر تغير الآن . تحكمت البشرية في الأمراض التي تصيب الطفل إبّان أيامه الأولى . هناك ادوات التطعيم والمضادات الحيوية وتعقيم اللبن . وتنبه الأطباء والعلماء الى مشاكل الأيام الأولى في حياة الطفل واستطاعوا ان ينتصروا على معظم الأمراض . لكن هناك بعض الأطفال الذين يولدون قبل الميعاد وبعضهم يكون ناقص التكوين . . والعلم يحاول ان ينتصر ايضاً على هذه المشاكل .

والحمد لله ان نسبة كبيرة من الأطفال يولدون في حالة طبيعية حجماً وكمال نمو. لكن بعضهم تعترضه بعض المتاعب. فبعض هؤلاء لا يستطيعون التنفس بسهولة . وهناك بعض الأطفال يظل لونهم تعلوه الزرقة . وبعض الأطفال يولد وفيه عيب جسماني . وغالباً ما يكون السبب هو القلب او الرئتان. وهناك اطفال يولدون مصابين بالأرق او بالصفراء . وبعضهم يتطور به الأمر الى التشنج او الشلل وبعض هذه الحالات يصعب على الأطباء تشخيصها على الرغم من ان الآباء يثقون ثقة لا حد لها بالتقدم العلمي ويؤمنون ان في

استطاعة العلم ان يحقق المعجزات . هذا صحيح . . ولكن العلم لم يكتشف بعد كـل وسائل العلاج لبعض الأمراض . فمثلاً نحن في أيام ميلاد الطفل الأولى لا نستطيع استعمال اشعة اكس لا لشيء إلا لأن الصورة نفسها لا تكون واضحة ولن تخرج بشكل يوضح ما نريده ان يظهر . . فالطفل لن يستطيع ان يحبس انفاسه حتى تظهر صورة الأشعة غير مهتزة . والفحص على العمود الفقري للتأكد من عدم وجود أي تلف به او في المخ لا يمكن ان يكون مؤكداً . وقد يكون هناك نزيف خفيف نتيجة لادخال احدى الأبر اثناء عملية الولادة . وقد تكون هذه الأبرة قد مزقت احد الشرايين الصغيرة في العمود الفقري . وطبعاً عندما يكون الطفل المولود ضعيف التنفس او ذا لون غير طبيعي او يظهر في حركاته انه يتألم بصورة غير طبيعية فالأم يصيبها القلق وتدور في رأسها آلاف الأفكار وتظل حائرة . . هل السبب هو آلام الجنين لحظة خروجه من البطن ؟ . . او السبب هو الأمراض التي اصيبت بها الأم اثناء فترة الحمل ؟ .

واريد ان اطمئن الأمهات أن ليس هناك علاقة وثيقة بين لحظات الميلاد وبين الآلام التي قد تتعرض لها الأم . ان ما يصيب الأم من ألم اثناء الولادة لا ينتقل الى الطفل. فالأمراض المعدية فقط هي التي يمكن ان تؤثر في الجنين مثل الحصبة الألمانية خلال الشهور الثلاثة الأولى من الحمل او مرض الزهري الذي لم تعالجه الأم . لكن من الصحيح ايضاً ان فرصة تعرض الطفل المولود الى اضطرابات في التنفس موجودة . . هذا اذا كانت عملية « الوضع » طويلة او ان الأم تعرضت لمضاعفات شديدة اثناء أيام الحمل الأخيرة . وذلك لا يحدث في معظم حالات الولادة . وعموماً فإن الولادة اذا كانت طبيعية فإن الطفل يكون على ما يرام . ولهذا فليس هناك أي سبب يجعلنا نقول ان الصعوبة او العسر في عملية الولادة هما سبب الأمراض التي تصيب الطفل اثناء الأيام الأولى التي تلي الميلاد . وعلينا ان ندرك ان غالبية الأطفال التي تصاب في الاسبوع الأول بضعف التنفس او امتقاع اللون يمكن ان يتم شفاؤهم بسرعة ولا تظهر عليهم بعد ذلك أي أعراض مرضية . لكن الوالدين يصابان بصدمة كبيرة عندما يقول لهما الطبيب ان الابن الوليد يعاني من بعض الاضطرابات . ان الحزن والغم والهم

تمسك بتلابيب الأب والأم ويحاولان اخفاء ذلك دون جدوى . ويحاولان كمعظم البشر الهرب من الصدمة . فقد لا يسمعان جيداً ما يقوله الطبيب وقد لا يلتفتان في البداية الى تحذير الطبيب وقد ينصب اهتمامهما نحو انواع من المشاكل الثانوية مثل القاء أسئلة كثيرة على الطبيب لا تتعلق بالمشكلة الأصلية . وبعد ان تمضي بضعة اشهر يستطيع الوالدان ان ينظرا الى المسألة بواقعية ويحاولا مناقشة تلك الأزمة التي مرت بهما بسهولة ويسر . ولكن الطبيب هو الذي يغرق عادة في القلق . إنه يعلم ان حالة الطفل يمكن ان تتحسن ويمكن ان تسوء . . ويحاول ان يظهر بمظهر المتفائل . ورغم ذلك فهناك نسبة بسيطة من الأطفال تولد وهي في حالة سيئة جداً . ويعتقد الطبيب ان الحياة لن تطول بهم أكثر من اسبوع أو يخاف من ان يكون نمو الطفل غير سليم . وهنا يجب على الطبيب ان يوضح الحقيقة كاملة امام الأب والأم ليعرف كلاهما الأمر الواقع . وذلك قد يكون امراً سيئاً بالنسبة للأم وللأب ولكن لا بد ان يعرفا الحقيقة بدلاً من كتمان الأمر على الأسرة . إنني لا انسى ابداً ما حدث منذ سنوات معدودة عندما جاءني والد يقول لي بصوت فيه ارتعاش وفيه اندهاش :

- « إن لون الطفل متغير . وهو يرفض الطعام . ولا اعرف شيئاً عن عالم الأطفال . إنه طفلي الأول » .

وبالكشف على الطفل وضح تماماً أنه مصاب بحالة تسمم شديدة نتيجة لالتهاب رئوي حاد وعرفت في اللحظات الأولى ان هناك تقصيراً في العناية بالطفل منذ لحظة ميلاده . وكنت اصر كل يوم ان أقول للأب كلمة واحدة ولمدة خمسة ايام :

- « انه افضل من امس . ان حالته ما زالت كما هي . لم يتقدم المرض ولم يتأخر . وانا اعتبر عدم تقدم المرض علامة على ان الطفل قادر على المقاومة » .

وكنت ارى العذاب على وجه الأب ولكنه ايضاً كان يحترم الحقيقة . ان علاج طفل في الأيام الأولى، يحتاج الى مراقبة دائمة وقدر كبير من الفحوص قبل ان يتضح التشخيص . والعلاج - شكراً للعلم - يتقدم باستمرار في هذا المجال .

لكن . . هناك حقيقة اخرى يعلنها د. ستيوارت ستيفنسن العالم النفسي الذي قضى سنوات من عمره يجمع المعلومات عن مشكلات سلوك الأطفال الذين عانوا في حياتهم صعوبات مرضية في اعقاب ايام الولادة الأولى . وتقول هذه المعلومات ان الطفل الذي واجه صعوبات مرضية خطيرة ايام حياته الأولى يعاني عادة من مشكلات في السلوك . . وعند تفسير هذه الظاهرة يمكننا القول بأن الأسرة تسرف في الحساسية وهي تعامل هذا الطفل . وتخاف عليه دائماً من المرض . وهذه الألوان من الخوف تستمر مع الأب والأم لفترة طويلة . حتى عندما يثبت لهما ان أساس هذه المخاوف باطل وبلا معنى . ويفرط الوالدان في حماية الطفل بل ويبالغ كلاهما في العناية به وقد يؤدي ذلك الى ان يصبح الطفل مشكلة دائمة . إنه يسبب مشكلة عندما يأكل ، لأنه لا يأكل جيداً كما تتمنى امه . ويسبب مشكلة عندما ينام . لأنه لا ينام النوم الكافي في نظر ابيه . ويظل هذا الطفل مصدر قلق لوالديه . ويتمادى في الاعتماد عليهما وتكون النتيجة . . ان العناية الزائدة تقود الى التدليل الزائد . والتدليل الزائد يقود الى إفساد الطفل . وهذا القلق في حياة الأب او الأم يظهر بوضوح في حالات الأطفال الذين يولدون قبل مرور مدة الحمل وهي تسعة اشهر . ان الطفل المولود قبل موعد ولادته الطبيعي قد يكون وزنه دون الحد بكثير. واذا سارت الأمور طبيعية في اسابيع الميلاد الأولى ، فإنه بالتأكيد يستطيع ان يقاوم في اغلب الأحيان جراثيم الأمراض المعدية. لكن الأمهات لا يعتقدن ذلك والحقيقة ان ظروف مقاومته للأمراض تكون مساوية تماماً لظروف مقاومة أي طفل عادي لأي مرض كما انه ينمو بطريقة طبيعية ، لكن هذا الكلام العلمي لا تقتنع به الأمهات والآباء بسهولة .

وهناك مسألة تزعجني شخصياً فأنا لا أكاد اصدق ان الأم ليست راضية عندما يكون ابنها في شهره السادس او بعد عيد ميلاده الأول في غاية الصحة ، ومع ذلك تظل الأم تشكو من انه ضعيف وانه لا يأكل . وتظل الأم تلح في طلب « وصفة طبية » يمكن ان تجعل الطفل يأكل كثيراً حتى تصبح صحته جيدة . . وحتى يمكن ان يكون طبيعياً مثل بقية الأطفال . وعبثاً أحاول ان اقنع الأم بأن

طفلها طبيعي جداً . ومعظم هؤلاء الأمهات يكون السبب في انزعاجهن الدائم هو ان الطفل ولد قبل الميعاد . إنني أرى دائماً ان الآباء والأمهات الذين يولد اطفالهم قبل الميعاد عرضة لأن يعانوا من القلق والتوتر. ولا تنتهي هذه التوترات او ذلك القلق في ايام او اسابيع ، انما تستمر لفترة طويلة . يحدث ذلك رغم ان الأطباء يؤكدون للأهل ان الطفل قد اجتاز الخطر . وأنا اجد العذر لهم . إن منظر الطفل وهو داخل هذا الصندوق الزجاجي المعقم المسمى « حاضنة » لمدة اسبوع او اكثر بعد الميلاد يثير قلق الأم وقلق الأب الى حد كبير. ويجعل مشاعر الحب التي ينظر بها الأب والأم الى الطفل مجرد مشاعرتعرف الشفقة ومشاعر تبحث عن حل لمشكلة عويصة ومؤلمة . لذلك يتولد احساس لدى الأب والأم بأن الطفل يجب ان يظل تحت الرعاية الطبية حتى وهو سليم قوي وطبيعي مثل بقية الأطفال . وعندما ينقل الوالدان هذا الطفل الى المنزل فإن كل تصرفاتهما مع الطفل ترتدي طابع الخوف الشديد عليه . ولا يصدق احدهما انه طفل طبيعي مثل بقية الأطفال العاديين ويحاولان ان يقوما عنه بكل المسؤولية . ويخاف الأهل على هذا الطفل من أي نزلة برد أو من ان يراه أي انسان مصاب بالزكام . ان هذا القلق الشديد المؤلم الذي يصيب الوالدين هو مسألة طبيعية خصوصاً عندما يكون الطفل ما زال صغيراً الى حد لا يستطيع معه العناية بنفسه . ولكنه يصبح قلقاً غير طبيعي عندما يكاد هذا الخوف يصبح جنوناً دائماً .

ولنا ان نتذكر ان الطبيعة اختصت كل الحيوانات الثديية بالقدرة على رعاية الأطفال . ان اناث الأسد والنمر والدب والكلب ، كل منها تقوم بواجبها في اطعام الطفل وحمايته . وتعلمه كيف يمكن ان يتحمل مسؤولياته . وتلك الاناث تغضب وتحزن لكل ما يصيب ابناءها من سوء . بل انني اعرف ان بعض اناث الحيوانات ترفض الطعام حزناً على أي وليد تفقده . ونحن البشر من نفس السلالة ، نحن قمة الحيوانات الثديية ، ولذلك فالقلق على صحة الطفل امر طبيعي ورثناه عن الأجداد. ولنعد مرة اخرى الى ما نحن فيه ، ولنسأل السؤال الذي يعذب الطبيب والأهل في وقت واحد . السؤال يقول :

ـ « ما هو افضل اسلوب يمكن ان يختاره الطبيب ليقول للأسرة حقيقة

الأزمة التي يمر بها الطفل المولود حديثاً؟ . وإلى أي درجة يمكن للطبيب ان يكون صادقاً وجريئاً من غير ان يجرح مشاعر الأسرة ؟ »

إن بعض الأطباء يقولون : ان الطب الحديث يوصي بأن يعرف الأهل كل شيء عن حالة المريض وخصوصاً عندما يتعامل الطبيب مع اسرة متعلمة . فإذا كان الابن مريضاً فالحالة تستدعي ان يشرح الطبيب كل الأسباب التي تقف وراء المرض وخطوات العلاج وانواع الأخطار التي تحيط بالطفل المريض . . ومتى نتوقع الوصول الى بر السلامة والصحة . وأنا كطبيب افضل ذلك رغم انني اعرف قدر العذاب الذي يعيشه الآباء والأمهات الذين يمرون بمثل هذه الظروف . واعتقد ان الصراحة التامة وقول الحقيقة الكاملة يمكن ان يكون قاتلاً للاعصاب في بعض الأحيان ومعذباً للآباء والأمهات . لذلك فأنا أرى ان يختار الطبيب الكلمات الصريحة والتي تبعث على التفاؤل . ومعظم الأطباء من اصدقائي يفضلون هذا الأسلوب في الصراحة . إنني اوافق على انه اذا كانت حالة الطفل سيئة فعلى الطبيب ان يقول للأهل « ان حالة الطفل تتطلب الاهتمام الكامل والرعاية الدقيقة » . وان يكون الطبيب نفسه هو اول المهتمين بالطفل . ان معظم الأطفال الذين يمرون بأخطار شديدة بعد الولادة مباشرة يكتب لهم الشفاء ويسيرون في طريق الصحة . والطبيب يجب ان لا يصاب بالذعر وينقله بالتالي الى اسرة الطفل . إنني اؤكد ان خطورة أي حالة لا تمنع الطبيب من ان يكون جاداً في مواجهتها ولا تمنعه ايضاً من ان يكون رحيماً وان يكون متفائلاً .

أما اذا كانت الحالة قد وصلت الى درجة من السوء يصعب معها ان يجد الطبيب ذرة تفاؤل واحدة . . فمن حق الأسرة ان تعرف الخطر المحيط بالطفل ، لكن اذا كان سبب المرض غير واضح كما هو الحال في كثير من الأعراض التي تصيب الطفل المولود حديثاً . . مثل امتقاع اللون واضطرابات التنفس والضعف الشديد فأنا اؤكد مرة اخرى ان الحكمة تستدعي ان نقول الحقيقة بأسلوب متفائل . إننا نعرض الاحتمالات بطريقة توحي بالأمل لأن الأب المرتبك الحائر او الأم القلقة المرهقة من آلام الوضع لن تستطيع ان تستوعب كل ما يقوله الطبيب . سيفسر الأب القلق والأم المتوترة كلمات الطبيب على انها

طريق الى اليأس وينتاب القلق عقول الآباء والأمهات وتظل الأفكار تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال وهذا هو أسوأ ظرف يمكن ان يحيط بطفل مريض بعد الميلاد مباشرة . ان الطفل اذا كان مصاباً بمرض واحد وليس بعدة امراض فمن المؤكد ان حالته يمكن السيطرة عليها . وعندما يتطلب الأمر اجراء اختبارات وتحاليل وفحص ، فعلى الطبيب ايضاً ان يخبر اهل الطفل بذلك لأن علم الأب والأم بعدد الاختبارات المطلوبة يجعلهما يستعدان نفسياً لمواجهة الخطر . ولكن اذا كانت اسئلة الأبوين محددة وصريحة وقاطعة ، فعلى الطبيب ان يجيب اجابة امينة واضحة تحمل كل الصراحة .

وخلال السنوات التي كنت اعمل فيها على رأس قسم طب الأطفال والعلاج باحدى الجامعات كانت الأسر التي تتردد لعلاج اطفالها في هذا المستشفى غاية في التعاون مع الأطباء . وكان الأطباء ايضاً غاية في التعاون والتفاهم . وكان فريق الأطباء والباحثون والممرضات يحاولون بكل جهد ممكن ان يساعدوا الآباء على تعلم كيف يمكن ان ينشأ الطفل نشأة صحيحة سليمة . كنا نجابه حالات غاية في الخطورة لأطفال ولدوا حديثاً ونقوم بعلاجها ومواجهتها . وكنت ارى الاجهاد يختلط بالسعادة على وجوه اطباء المستشفى والممرضات عندما نستطيع ان نعاون طفلاً على تخطي فترة الخطر . وكانت خبرة مفيدة لكل العاملين . وبعد مرور عام على علاج عدد كبير من الحالات الخطيرة ، قررنا ان نسأل الآباء والأمهات عن القلق الذي صاحبهم اثناء الأزمات الصحية التي مر بها اطفالهم بعد الميلاد . وسألناهم ايضاً عن رأيهم في الطريقة التي يجب ان يعالج بها الأطباء هذه الأزمات . وكان جوهر ما قاله هؤلاء الآباء والأمهات هو :

« نحن لا نريد ان يخدعنا الطبيب . لكن يجب ان لا يقول لنا اشياء غاية في التعقيد وتحمل التهديد . نحن نحتاج ان نعرف الحقيقة بهدوء وعلى قدر الثقافة الطبيعية العادية » . .

ووافق معظم الآباء والأمهات على ضرورة ان تتاح لهم فرصة التعرف بالطبيب الذي سيعتني بالطفل قبل ان يحين ميعاد الولادة . صحيح ان هذه الفرصة لا تتاح قبل الولادة ولكن علينا جميعاً ان نضع ذلك نصب اعيننا وعلينا

ايضاً ان نتعرف بالطبيب الذي سيفحص الطفل بعد ان يولد وان تتم هذه المعرفة قبل الولادة . وسوف اشرح هذا الموضوع قليلاً . وأقدم الاقتراحات للآباء والأمهات الذين يصاب لهم ابن بمرض خطير يكون فيه تحديد المرض او سير العلاج امراً يكتنفه الغموض والشكوك . وانني اقترح على الوالدين في مثل هذه الحالة ان يوجها كل الأسئلة التي يريدان معرفة اجاباتها بكل وضوح . وافضل ان يكتب الآباء هذه الأسئلة . . ذلك ان القلق الناتج عن مناقشة المرض مع الطبيب يجعل نصف الأسئلة يتبخر من رأس الأب او الأم . واذا ظهر ان الطبيب لا يستطيع ان يعطي اجابة قاطعة ومحددة في احدى النقط فليس المطلوب من الأبوين ان يجبرا الطبيب على ان يدخل بهما في منطقة « التخمين » . صحيح ان ذلك مثير لقلق الأبوين ولكن لا بد للطبيب من فرصة ليحدد بصراحة ووضوح نوع المرض وخط العلاج .

واذا لم يشعر الوالدان بالراحة والاقتناع بتفسيرات الطبيب المعالج او لأسلوب العلاج فمن حق الأسرة ان تسأل دون خجل عن طبيب آخر يشترك مع الطبيب المشرف على العلاج . ان بعض الأمراض تحتاج الى خبرة اكثر من طبيب واحد وذلك حتى تتاح للوالدين فرصة الاقتناع ، وحتى ينتهي التوتر والقلق وتتاح للولد فرصة الشفاء .

المبالغة بأخطار المرض والاستهانة به ، كلاهما مضر

الطفل قرد صغير يقلد والديه حتى في المرض . ان سلوك الطفل هو المرآة التي نرى فيها سلوك الآباء حتى اثناء المرض !!

من اصعب الأمور التي تواجه الزوجين في بداية الحياة معاً تحت سقف واحد ، نظرة كل منهما الى المرض . زوجة تحب الاستسلام الفوري لأعراض المرض وتلجأ للسرير وتطلب الطبيب وتقيم الدنيا وتقعدها لأن حادثاً عظيماً ورهيباً قد وقع وهو اصابتها بمجرد صداع خفيف كمقدمة لزيارة الزكام . وقد يكون زوجها من النوع الذي ينظر الى الصداع على انه مجرد ارهاق بسيط يمكن علاجه بتناول قرصين من الاسبرين . وقد ينظر الى زوجته على انها « تتدلل » وقد « يحتقر » بينه وبين نفسه اسلوبها في محاولة جذب اهتمامه . وقد تنشأ معركة بين الاثنين لمجرد زيارة الصداع لرأسها . وقد يستسلم لها ويستدعي الطبيب ويتحسر هو على اجر زيارة الطبيب ولكنه يكتم غيظه ويترك الأمور تسير سيرها الطبيعي بعد ذلك . ومن المؤكد ان الإقامة تحت سقف واحد فيه قدر كبير من المواقف التي تختلف فيها آراء الزوجين ومنها الموقف من المرض .

أنا مثلاً كطبيب كانت السنوات الأولى لزواجي مليئة بالمناقشات الهادئة التي تخفي وراءها نوعاً من الصخب بخصوص المرض . فعندما تلتهب جيوب أنف زوجتي ويأتي الزكام كانت تستسلم فوراً للمرض وتظل في البيت ولا تذهب الى العمل . وعندما كانت درجة حرارتها ترتفع كانت ترقد في السرير وتطلب حضور الطبيب ليفحصها ويصف لها العلاج الفوري . وتخضع لنظام تناول الدواء بكل دقة وتمطر الطبيب بسيل هائل من الأسئلة عن ادق التفاصيل والاحتمالات . اما انا فكنت عندما اصاب بمرض اعمد الى التجاهل واتخذ منه الأسلوب الأول الذي اعامل به اعراض المرض . . وما لم يكن الأمر خطيراً فإني

لا ارقد في السرير . كنت اواصل العمل رغم ان هناك إمكان نقل العدوى للمرضى الذين يترددون على عيادتي وإمكان التسبب ببعض الضرر لبعض من زملائي فضلاً عن الضرر الذي قد يصيبني شخصياً . واذا فحصني احد الأطباء وقرر انني احتاج الى علاج وتناول ادوية . . كنت اسأل الطبيب هل لي حرية الاختيار في تناول الدواء أم لا ؟ فإذا كان المرض خفيفاً وفي استطاعة جسدي ان يقاومه طبيعياً كنت اترك جسدي يقاوم المرض طبيعياً ولا استعمل الدواء ، واذا كان المرض خطيراً ولا استطيع مقاومته منفرداً كنت اتناول الدواء مكرهاً . انني بطبيعة الحال افضل تحمل أي ألم دون تناول دواء . هذه طبيعتي . مثلاً انا اتحمل ان يحشو الطبيب احد اسناني ولا افضل ان يخدرني طبيب الأسنان لهذه العملية . وكنت دائماً أشعر بالانزعاج الشديد والضيق البالغ عندما أرى زوجتي تستسلم فوراً لأعراض أي مرض . وكنت بكل فخر اتجاهل اعراض مرضها واوضح لها انني ارى أنه يجب عليها ان تغير موقفها وان تتجاهل هذه الأعراض الخفيفة لأي مرض تافه . . وان تترك لجسدها فرصة مقاومة المرض . وطبعاً كانت تنظر الي على أنني انسان أحمق اقول كلاماً لا يمكن ان تتحمله . . وتتعجب كيف اقول مثل هذا الكلام وانا طبيب . هل انا غير مؤمن بمهنتي ؟ .

والحقيقة ان رأيي كان فيه بعض الصواب وبعض الخطأ وزاد في المشكلة انني كنت اقضي ساعات طويلة في علاج امراض اطفال الآخرين . كنت اخاف على هؤلاء الأطفال من العدوى واشعر بالذنب لاستمراري في العمل واكفر عن ذلك بالسؤال الدائم عن أي طفل يزورني في العيادة عندما اكون مريضاً . وعندما بدأت أفكر في كتابة رأي محدد في هذا الموضوع ، جلست اتأمل الظروف التي تؤدي الى اختلاف انسان عن انسان آخر بالنسبة للمرض ومقاومته .

إن الاختلاف في وجهات نظر الأفراد بخصوص المرض يعود بطبيعة الحال الى الطفولة وكيف كانت أسرة الطفل شخصياً تنظر الى المرض . فالأسرة يختلف موقفها عادة في النظرة الى مرض « الابن » عن موقفها بالنسبة الى البنت . فالأب او الأم يقولان دائماً للابن :

- « انت رجل . وعيب ان تبكي او ان تتألم » .

والولد عادة يتردد اكثر من مرة قبل ان يشكو لأمه أي ألم او حتى من اهانة وجهها اليه احدهم . والابن في الغالب يتعلم من والده كيف يتحكم في أمر نفسه وكيف لا يستسلم لأي ألم وانه لا بد ان يتصرف بنفسه في المواقف الصعبة بينما تسمح الأسرة للبنت عادة بأن تعبر عن انفعالها وان تطلب مساعدة والدها او والدتها اذا واجهت موقفاً صعباً . ان البنت دائماً تضع نفسها تحت عناية أي انسان آخر اذا كانت الظروف تستدعي ذلك .

وها هو د. « ابسكالونا » يكتب دراسة عن الأمهات الشابات . . ويكتشف اثناء دراسته ان الأم عادة تندمج في دور المرأة بحكم التربية . انها اكثر تدليلاً من الابن واكثر طلباً للاسترخاء والاستمتاع . وعندما تدخل مستشفى الولادة لأول مرة تطلب دائماً مزيداً من العناية والرعاية . والأم الشابة تتصرف عكس الأم الكبيرة الناضجة المجربة . إن الأم المجربة يمكنها بعد ان تضع الطفل ثم تتولى رعاية نفسها بنفسها . تستطيع ان تستحم وان تنظف نفسها وان تتدبر امورها .

ومن الحقائق المعروفة طبياً ان الرجل يختلف عن المرأة في مسألة طلب الرعاية والحنان . ان تقارير الأطباء تؤكد ان الرجال الذين ينفعلون بكثرة يصابون بقرحة المعدة او الاثني عشري .وهم في الأصل يعانون من رغبة شديدة في طلب الحنان والعناية . ولكنهم يكتمون هذه الحاجة الانسانية تماماً . . وتكون نتيجة هذا الكتمان هو المزيد من التوتر الذي يؤدي بالتالي الى الاصابة بهذه القرح . ومن الطريف في هذا المجال ان نشير الى احصاء ينص على ان اربع قرح من خمس تصيب الرجال ، انما تحدث نتيجة كتمان الرجل للألم وعدم طلب المساعدة في المواقف الصعبة . وفي هذا العصر اصبحت نسبة النساء اللائي يصبن بهذا المرض في ارتفاع بشكل مضطرد . وهذا يرجع الى طبيعة التطور الذي حدث في دور المرأة في الحياة . إنها ايضاً اصبحت تحاول ان تكتم طلبها للمساعدة والحنان واصبحت تحمل قدراً من الهموم . وبذلك يمكن للمعدة والأثني عشري ان تصابا بالقرحة .

ومهما يكن من امر فإن هناك « تقاليد » يفرضها كل مجتمع بشأن تقبل

الألم . وهي تختلف من مجتمع الى آخر . فمثلاً في قبائل الهنود الحمر في امريكا تعلم القبيلة الطفل كيف يعذب نفسه حتى يتحمل الألم دون ان يظهر أي انفعال ولو قليلاً . ولا بد له ان يكتم تماماً الاحساس بالألم . وفي ذاكرتي صورة اخرى تبدو غريبة بعض الشيء لذلك لا انساها . فعندما كنت اقضي سنوات التدريب النهائية باحدى المستشفيات كنت طبيباً حديث التخرج وكان من واجبي ان اشرف على ردهة كبيرة يرقد فيها عدد كبير من المرضى . وكان احد المرضى اجنبياً من بلد آخر . ولم يكن مرضه خطيراً . لكن زواره كانوا اكثر من المعتاد . وكان هو يتحمل آلام المرض الخفيفة دون أي قلق او خوف ولكن معظم اقاربه الكثيرين كان يبكي ويصرخ حتى ان واحدة من اقاربه أغمي عليها من فرط البكاء والصراخ والعويل . ولقد اطلقت عدداً من الصرخات الرهيبة جعلتني انا شخصياً أكاد أتجمد من الرعب . واخيراً اتضح لي ان اسلوب مشاركة هذه البلدة التي ينتمي اليها هذا المريض هو ان يبكي اقاربه حتى يتم شفاؤه . وطبعاً ذلك يختلف تمام الاختلاف عن « التقاليد » التي تعلمتها في مجتمعي . ان الانسان منا اذا كان يعاني من ألم ما فإنه يضغط بأسنانه على شفتيه ويكون صوته منخفضاً ضعيفاً لا يكاد تظهر الحروف على شفتيه ولا يكاد يسمعها احد .

ولقد مر على عملي وقت طويل قبل ان اكتشفت ان التقاليد في تحمل آلام المرضى تختلف من بلد الى آخر ، ومن مجتمع الى مجتمع غيره . ان القدرة على ضبط الألم هي ميزة تتصف بها بعض المجتمعات وان المبالغة في مشاركة المريض الحزن عليه هي طريقة بعض الناس في التعبير للمريض عن مشاعرهم نحوه .

ولكن . . ما أثر ذلك في تربية الطفل ؟ . .

هذا السؤال يهمنا هنا . ونستطيع نحن الأطباء ان نصف كيف يقيم بعض الوالدين الدنيا بالغضب والحزن بسبب بعض الصداع او بعض آلام المرض التي يشكو منها الواحد منهم . وهذا التصرف امام الطفل يجعله يعبر عن الألم بنفس الطريقة التي يعبر بها والداه عن الألم . ان الطفل « يتشرب » اسلوب التعبير من الوسط المحيط به . لذلك فالآباء والأمهات الذين يتمتعون بطاقة كبيرة على تحمل الألم تنشأ عند اطفالهم قدرة كبيرة على تحمل الألم .

وانا ارى انه من المستحسن ألا نغالي في التطرف . لا نغالي في التعبير عن آلامنا . ولا نغالي في كتم التعبير عن الألم . لا بد لنا من ان نكون طبيعيين نتمتع بالصفة الانسانية العادية التي لا تدعي الاستشهاد لمجرد ان هناك قدراً من الألم يمكن ان نتحمله ولا ندعي البطولة ايضاً عندما يكون هناك الم غير عادي ونحاول ان نكتمه .

ان طفلنا يتعلم منا فإذا كان الطفل يصاب بخوف شديد بسبب اصابته بنزلة برد او أي مرض هينّ ، هذا الطفل سيكون دائم الذعر مسبباً للقلق والضيق كما ان احداً لن يصدقه اذا ألمت به كارثة حقيقية لأنه يبالغ في كل شيء . اما اصدقاؤه وزملاؤه فسيعتبرونه انساناً بلا كرامة ويبعث على الملل . واما الطفل الذي يحاول دائماً ان يتجاهل أي ألم يصيبه فإنه يعرض نفسه للخطر ويعرض الآخرين ايضاً لهذا الخطر لا لشيء إلا لأنه تعود كتمان الألم ، كما ان اسرته تعودت ذلك وهو يخلق لنفسه المشكلات التي لا حدود لها . والمثال الحي على درجة اهمية كلمات المريض هو ان الأطباء وخصوصاً اطباء العظام يعتمدون على كلمات المريض في وصفه الألم ويعتبرونها الأساس في بداية الفحص الطبي لتحديد المرض .

وهذه المشكلة تبدأ في الظهور بشكل واضح عندما يبلغ الطفل عامه الثالث او الرابع ، فهذا العمر يكون هو عمر الحساسية الشديدة بالنسبة للألم والمرض والموت . . ويملك الطفل في تلك الفترة من العمر الاستعداد الكامل للقلق . . ويبدأ الطفل في طرح الأسئلة عن الفرق الجسدي بين الذكر والأنثى . ويمكن ان نرد السبب في ذلك الى شدة حب الاستطلاع والاهتمام بالأسباب وبالنتائج . والطفل في هذه المرحلة من العمر يقارن بين نفسه وبين الآخرين . إنه يستطيع ان يتصور ما يمكن ان يشعر به من الآلام التي تلحق به او يراها تنزل بالناس . لذلك فإن الطفل في هذه الفترة من العمر يصاب بالخوف بسهولة عندما يشاهد احداً يتألم او عندما يرى جرحاً يسيل منه الدم . ويغرم الطفل في هذه الفترة بالفكرة القائلة بأنه يمكن اصلاح أي شيء يتلف . والطفل يفتش في جسده بحثاً عن خدش لكي يربطه بالشاش والشريط اللاصق . ولهذا فإن الطفل يضطر الى

الاعتماد على أسرته ليتلقى منها التوجيه والارشادات بخصوص التصرف بشأن أي ألم او جرح او مرض .

ويستطيع الأب والأم طبعاً ان يوضحا للطفل المسائل الخاصة بالألم والجروح والمرض بطريقة واقعية . اذن لا بد للأب والأم من خبرة ومعرفة حتى يتم تبسيط الأمر بصوت فيه نبرة هادئة . فعندما يتألم احد امامه ويبالغ بإظهار ألمه لا بد ان نقول « لا داعي للمبالغة » .

وعندما يكتم احد الماً فوق ما يستطيع نقول امام الطفل « ان ذلك ضار به » ويجب ان نطبق ذلك على أنفسنا . فلو اصيبت الأم بانهيار كامل لمجرد جرح بسيط حدث للطفل ، فلا بد ان يتخيل الطفل ان هناك كارثة حلت به وان الخطر يحيط به من جميع الجهات . واذا قال الأب بصوت مليء بالتأكيد والحزم « انت تجعل من الحبة قبة ، وجرحك هذا الذي تتألم منه مجرد جرح بسيط لا يسبب كل هذا الألم » فإن الطفل يحاول بكل جهده ان يخفي آلامه حتى يظل والده يحترمه وحتى يحترم نفسه .

والصحيح أيضاً اننا كآباء يجب ان نعلم ابناءنا عدم المبالغة فيما يصيبهم من جروح او آلام . . ولكن ليس هناك ما يدعو ان نعلم الطفل كيف لا يرحم نفسه . اننا يجب ان نعلم الطفل كيف يكون واقعياً ، حقيقياً ، لا يبالغ في التهويل ولا يبالغ في الكتمان . ومن هنا يتعلم الطفل كيف يقدر الألم ويعرف ما هو المرض، وكيف يمكن ان يعتني بنفسه ومتى ينبغي له ان يقرر دون تردد التوجه الى الطبيب . وكيف يستطيع الطفل ان يشارك من معه اذا ما اصيب بجرح او مرض . والى أي درجة يمكنه ان يعبر عن مشاعره تجاه الآخرين المصابين بجرح او بمرض . ان ذلك هام للغاية . ان الطفل عندما يتعلم كيف يواسي انساناً متألماً او كيف يعتني بانسان مريض ، يجد نفسه محبوباً ومحترماً من الآخرين . اما اذا اكتشف الأب او الأم ان الابن يبالغ من اجل جرح صغير او من ألم طفيف نتيجة وقوعه على الأرض . . مثلاً فعلى الأم او الأب ان يطمئن الطفل بصوت هادىء وواقعي ليس فيه أي نبرة للانزعاج . ولا بد ان نوازن بين

كلماتنا وبين انفعالنا حسب الموقف . لأننا عندما نبالغ نورث الطفل المبالغة وعندما نهون من المسألة بعنف فإننا نعلم الطفل الكتمان الشديد . . اما عندما نكون واقعيين فلا بد للطفل ان يكون واقعياً هو الآخر . ومن وقت لآخر تواجهنا مشكلة الطفل الذي يصر بالحاح على انه خائف جداً من أي جرح او أي ألم او أي مرض رغم ان اسرته من الأسر المتزنة التي لا تبالغ في الخوف على الطفل ولا تبالغ في اهمال أي مرض يصيبه . هنا يمكن ان نسأل انفسنا « هل قلق الطفل امر طبيعي ام انه خوف يعبر عن حقيقة اخرى لا شعورية . واذا كان خوف هذا الطفل شديداً للغاية ولا يتناسب ابداً مع الواقع ، هنا يجب على الأسرة ان تستشير الاخصائي النفسي . اما اذا كان الخوف شديداً ويكون الهدف منه هو مجرد الحصول على العطف فذلك انذار للأم بأنها لا تهتم اهتماماً كافياً بطفلها ولا تشعره بالحنان إلا عندما يعاني من الألم. ان بعض الأطفال«يستجدون» الحنان باستغاثات كاذبة يطلبها الطفل منادياً الأم او مدرسة الحضانة او المدرسة . إنه يهول في أي خدش صغير او حتى خدش وهمي يخترعه لنفسه لا لشيء إلا لأنه يشعر ان العالم حوله صارم لا يعطي حناناً إلا للمرضى والضعفاء فيتجه الى « ابتزاز » الحنان بهذا الأسلوب .

ولقد حدث ان رن التليفون اكثر من مرة في بيتي او عيادتي او مكتبي صباحاً وكنت اسمع صوت ام تشكو لي من ان طفلها يمثل عليها دور المريض حتى لا يذهب الى المدرسة . وتخاف الأم ان تتجاهل شكوى الابن حتى لا تعاني من الاحساس بالذنب. . . لأن ابنها قد يكون مريضاً بالفعل وهي لا تعرف كيف تتصرف . إنها حائرة . هل ابنها « ممثل ماهر » للمرض ؟ . هل ابنها مريض فعلاً . . ان اعماقها تحدثها ان صوته ليس صوت انسان مريض ولكن صوت انسان ممثل من الطراز الأول . وهي لا تريد لطفلها ان يخدعها ، وهي ايضاً لا تريد ان تظلم ابنها ، كما ترغب رغبة صادقة في ان تعلم ابنها ان «ادعاء المرض» شيء رديء في الانسان . وانا كطبيب ارجح دائماً ان تأخذ الأم شكوى الطفل على انها شكوى جادة ولا يهم ان يضيع يوم من أيام الدراسة . ولا أتردد في ان اوجه الأمر الى الطفل بأن يظل في السرير وابدأ في قياس حرارته كل ست ساعات .

واضعه تحت الملاحظة الدقيقة . فإن كانت صحته جيدة وتناول طعامه بصورة طبيعية ، فإنني اصدر اليه الأمر في اليوم التالي بأن يقوم من السرير وان يذهب الى المدرسة. سيتم كل ذلك بهدوء وحزم وردع، ليس فيها قسوة او تأنيب وانه لأمر طبيعي ان يشعر الطفل احياناً بكراهية مؤقتة للمدرسة لأنه نال فيها عقاباً من أحد المدرسين او تشاجر مع طفل آخر وانهزم امامه . إن الانسان الناجح يجد نفسه احياناً غير راغب في الذهاب الى العمل او يتهرب من اداء واجب اجتماعي بنفس الطريقة التي يتهرب بها الطفل . ولكن اذا بلغت حالة الخوف من الذهاب درجة كبيرة وفيها قدر هائل من الذعر . . فعلينا ان نبحث عندئذ عن جذور المسألة حتى يمكن ان نطفىء شرارة كراهية العلم في مهدها . هنا يجب ان نذهب الى المدرسة لنعرف بالضبط ما الذي يخاف منه الطفل ؟ . وماذا يمكن ان تقدمه لنا ادارة المدرسة لتشجيع الطفل على الذهاب الى المدرسة . واذا تكرر الخوف من الذهاب الى المدرسة بدون سبب ظاهر وواضح فعلينا ان نتجه فوراً الى الاخصائي النفسي حتى نعالج الأمر في بدايته لأن الطفل الذي يمتنع عن المدرسة لفترة كبيرة يصعب عليه ان يعود اليها .

والآراء ووجهات النظر تختلف من بلد إلى بلد بل من مكان الى مكان بخصوص التقاليد الخاصة والمعتقدات الخاصة بالأمراض والآلام. فحيث ينتشر الجهل فإن المرض والألم هما من عمل الشياطين . ونسأل السماء عن اسباب المرض . ويلجأ الأهل الى السحرة . اما في البلاد المتقدمة فهناك العلم والتقدم . ولكن هذا لا يمنع من انه حتى في الدول المتقدمة تختلف النظرة الى المرض من انسان الى آخر . فهناك من يربط بين اعراض الصداع الذي يصيبه دائماً وبين مرض احد اقاربه الخطير الذي أدى الى وفاة هذا القريب ، رغم انه لا علاقة حقيقية او علمية بين هذا الصداع وبين موت القريب . وهناك ملايين الامريكيين الذين يؤمنون بأفكار خرافية عن بعض الآلام والأمراض ، مثل الايمان بأن الحبل السري يلتف حول رقبة الجنين وهو في بطن امه عندما تصعد الأم على كرسي لتتناول شيئاً من على رف عال . وهناك فئة من الناس تربط بين اعراض أي مرض ويتهمون نظام الغذاء على انه المسؤول الوحيد عن كل

الأمراض . وهناك ايضاً من يظن ان المرض هو عقاب من السماء للتكفير عن الذنوب التي ارتكبوها .

هذه المواقف التي يتخذها الكبار لا تختلف في جوهرها عن المواقف التي يتخذها الأطفال . ولقد ظهر ذلك واضحاً لدى العلماء الذين يعملون في ميدان علم نفس الطفولة . . فالطفل الذي يتردد بشكل منتظم على عيادة احد الأطباء النفسيين يتعلم بشكل تدريجي ان الطبيب لا يعالجه بل ينقذه من العقاب . وعندما يشعر الطفل بحرية كبيرة في التعبير عن افكاره في الحكايات التي يحكيها للطبيب او في الرسوم التي يرسمها او المسرحيات التي ابطالها دُمَى فإنه في كل احوال المرض او الحوادث التي يحكيها عن حياته او حياة والده ووالدته او اخوته يظن ان السبب في كل ذلك هو عقاب على الرغبات الشريرة التي مرت بخياله . وتندرج تحت هذا الباب ايضاً تلك الطريقة التي يعبر بها الطفل او يقلد اسلوب تربية الوالدين له عندما يقولان وهو يخرج مسرحية من الدمى ويقول على لسان الدمية التي تلعب دور الأم .

ـ لقد جاءك الزكام لأنك لم تلبس الحذاء او الخف .

او يقول :

ـ لقد وقعت من فوق العجلة لأنك تسوقها بسرعة ودون انتباه كامل .

ـ ان الصداع الذي في رأسي سببه انت . انك لم تكف طوال النهار عن العراك والصراخ .

ـ ان وجع معدتك سببه انك اكلت الكثير من الحلوى دون ان تعرف الحد الذي تقف عنده . لا بد ان تتعلم متى تتوقف عن الأكل حتى لا يصيبك الألم .

ـ لا تلعب بهذه العصا او تلك المسطرة او هذا القلم . انك قد تفقأ عينك بها .

بعض الآباء والأمهات في اثناء تعليمهم، الطفل العادات السليمة والسلوك الحميد، يسرد كل الوان المصائب والكوارث التي يمكن ان يتخيلوها. وأنا أنبه على الأم والأب الإقلال من استعمال الكوارث كوسيلة لتربية الطفل، لأن

ذلك يعلم الطفل ان يتحمل مسؤولية رعاية نفسه وحمايتها دون خوف بالغ من الاصابة بكارثة . وذلك ايضاً حتى تقلل الأم من مشاعر الأثم التي تنتاب الطفل . فالطفل بطبيعته انسان . والانسان عندما يغرق في سلسلة متابعة من التهديدات ، قد يفكر في عصيان مصدر التهديد . وعندما يبدأ في العصيان فإنه يقع في الاحساس بالذنب . . ويظل يفسر أي الم او مرض بأنه تمرد على الأوامر الصادرة له من الأب او الأم . ان الانسان احياناً يبحث عن الاحساس بالذنب كما لو كان ذلك هدفاً له . . ونحن نعرف ان الأطفال تدور في افكارهم رغبات وامنيات دنيئة في بعض الأحيان . إنهم يتمنون مثلاً ان يؤذي احد الأب او تحدث له مصيبة او ان يعاقبه رؤساؤه . الطفل يحلم بمن ينتقم له من السلطة التي تقهره . وعندما يتحقق ذلك بمحض الصدفة ، عندما يصبب الأب مكروه . . فإن الطفل يقع في الاحساس الذنب . . ويقع في سلسلة لا متناهية من عمليات تأنيب الضمير . ومن الأفضل طبعاً ان نبني جداراً قوياً بين الطفل وتعوّده على الاحساس بالذنب . إننا نفضل ان منع الاحساس بالذنب من ان يأتي في مكانه غير المناسب . لذلك فلا داعي ابداً لأن نقنع الأطفال بأنهم السبب وراء الأذى الذي يصيبهم او ان نتهمهم بأنهم السبب في ايذاء الآخرين ما دام ليس هناك أي دليل على سوء النية . . بل حتى عندما يكون احد الأطفال في حالة غضب ويؤذي طفلاً آخر عامداً . فهذا الطفل الغاضب هو بطبيعته انسان هادىء وظريف ومحب للآخرين فلا بد ان نؤكد له انه لم يقصد طبعاً ان يؤذي احداً على هذا النحو . وعليه ان يعتذر لمن اخطأ في حقه حتى يحتفظ لنفسه بالكرامة لأن معنى الكرامة الذي يجب ان نعلمه للطفل هو ان يحترم نفسه ويحترم الآخرين .

اما اذا كان الطفل من الصنف السمج الدنيء ، فإنه هو واسرته يحتاجون الى مساعدة الاخصائي النفسي بدلاً من ان نوجه له اللوم والتأنيب . ان اللوم والتأنيب لا يأتيان بنتائج محمودة بل بنتائج ضارة تدفع الطفل الى المزيد من مضايقة الآخرين والاعتداء عليهم .

واذا اصيب احد افراد الأسرة بمرض خطير فمن الأفضل ان نتذكر ان احد ابناء الأسرة قد يخفي في نفسه اعتقاداً غير صحيح بأنه السبب في حدوث المرض

لدى هذا الانسان الذي اصابه المرض . ولا بد للأب وللأم ان يوضحا للابن في كلمات بسيطة بأن سبب المرض الذي يصيب احداً في العادة هو جرثومة او عدوى . ولا بد ان يدور حوار بين اسرة الطفل والطفل حتى يتضح لنا مدى فهم الطفل او عدم فهمه انه ليس له علاقة على الاطلاق بهذا المرض الذي اصاب الانسان الذي قد يكون الطفل قد تمنى ان يصيبه مكروه . فإذا ظهر للأم او للأب بأي شكل من الأشكال ما يوحي بأن الطفل يعاني من الاحساس بالذنب فمن الضروري ان نناقش المسألة بكل صراحة بحيث نعيد الاطمئنان الى اعماق الطفل كأن نقول له مثلاً :

ـ لا تتوهم انك كنت السبب في مرض اختك لأنك كنت غير لطيف معها وضربتها وآلمتها في يوم كذا . ان ذلك ليس هو السبب في مرضها . انها مريضة بسبب جرثومة اصابتها . والطبيب الآن يعالجها وستشفى قريباً . المهم ان تحافظ انت على صحتك .

علينا دائماً ان نتقي الأطفال من الاحساس بالذنب .

وعلينا ان نتذكر اننا قدوة لهم . . لذلك فلا داعي لأن نهول في امراضنا ولا ان نستهين بها .

لا بد ان نكون واقعيين .

هذه الكلمات سهلة . ولكنني اعرف ان تطبيقها يحتاج منا الى اعادة نظر في سلوكنا . ودعني اهمس في أذنك :

ـ أليس رائعاً اننا ونحن نربي ابناءنا نعيد تربية انفسنا ايضاً ؟ . .

متى يبدأ تكوين شخصية الطفل ؟

انها تتكون في وقت مبكر الى مدى يدعو الى الدهشة
ويظل نموها مستمراً من خلال مواقف الحياة .

كيف تكون لي شخصية قوية ؟

سؤال قد يوجهه المراهق لنفسه . لكن لا احد يتخيل ما يقوله بعض العلماء من ان الطفل ايضاً يوجه هذا السؤال لنفسه منذ اليوم الأول للميلاد . إنه يسأل نفسه من خلال الصرخات الأولى التي يطلب بها الطعام او يبحث فيها عن حنان الأم . وحتى لا نبتعد كثيراً عن اعماق هذا الموضوع . . لنبدأ من ذلك الصوت القلق المتوتر الذي توجهه أم أو يوجهه أب الى أحد الأطباء .

السؤال الذي على فم الأم او الأب يقول :

ـ هل انت تعتقد بالفعل بأن شخصية الطفل تتكون على وجه التحديد عندما يبلغ العام الثالث من عمره ؟

هذا السؤال يشغل بال الآباء والأمهات وخصوصاً بالنسبة للطفل الأول عندما يشرف على نهاية العام الثالث. والأم تعترف عادة بأن تربية هذا الابن لم تكن حازمة ولا سهلة وان هناك بعض التوترات والازعاجات خصوصاً في العام الثاني . وكانت اكثر المتاعب بسبب الأكل والشرب والتدريب على التبول والتبرز ، ومحاولة تعليمه كيف يفعل ذلك بانتظام . وبعض الأطفال يحاربون امهاتهم على كل هذه الجبهات في وقت واحد . وعندما ينهزم الطفل في معركة ، فإنه يحاول ان يعاند بصورة مبالغ فيها حتى ينتقم لجرح كرامته ويظل يعلن ثورات الغضب من وقت لآخر او يحاول ان يكون حاد المزاج او يعلن انه خائف لدرجة تزعج الأم . وطبعاً يزيد من خطر كل هذه الألوان من المقاومة ان الأم تشعر بالتعب والضيق امام تصرفات هذا الطفل . وعلى الرغم من انها ام تفهم واجبها تماماً وتحاول ان

تبذل كل جهد وكل اهتمام بطفلها وهي تعي ذلك جيداً . إلا انها تشعر بالذنب من اجل هذه التوترات العصبية وهي تريد ان تنهي حالة الحرب بينها وبين ابنها . . لذلك نسأل بكل اخلاص : « هل هي السبب في انحراف مزاج الطفل وعناده وهل اصبح الأمل مفقوداً في ان يعود الى الصراط المستقيم » .

كثير من البشر ينتابهم الشك او الضيق واحياناً السخط عندما يسمعون أي كلمة تشير الى ان شخصية الطفل تتكون منذ ايام ميلاده الأولى . وما زلت اذكر اليوم الذي عرفت فيه شريكة عمري اول مرة . انها زوجتي جين التي كانت تدرس علم النفس . . وكانت تعمل كاخصائية نفسية في عيادة الارشاد النفسي للأطفال. قالت لي ما معناه ان شخصية الطفل تتكون إبّان الأسابيع الأولى لميلاده . وكنت انا طبيب اطفال ولم اكن قد درست شيئاً في علم النفس وقلت لها على الفور بلهجة ساخرة :

ـ هذا كلام فارغ ونوع من الضحك على العقول .

وبعد مرور فترة من الزمن وبعد دراستي لعدد كبير من نفسيات الأطفال اكتشفت ان السبب في ان معظمنا يرفض تصديق هذه الحقيقة هو اننا كبشر نرفض فكرة ان هناك انساناً آخر يقرر مستقبلنا ، او مستقبل اطفالنا سواء كان هذا الانسان ديكتاتوراً او عالماً نفسياً . ان تلك الحقيقة تجعلنا نشعر اننا امام انسان يريد ان يسرق حريتنا وان يقتل ارادتنا . . تلك الارادة التي نشعر نحن معها بأنها أعظم ما نملك في هذه الحياة . ولكن هذه الحقيقة تريد ان تلغي قدرتنا على الفهم والاقناع وتجعلنا مجرد دُمى خشبية يحركها غيرنا وكأننا لسنا قادرين على التعبير او التغيير والتبديل في كل مراحل حياتنا . إننا نختار الأصدقاء . نختار المهنة . نختار الحب . نملك الخبرة . نملك تاريخاً من العمل . نملك القدرة على بذل الجهد في عملنا الذي يحقق لنا دخلاً . فكيف اذن يقول لنا احد ان شخصيتنا تم تشكيلها منذ ايام ولادتنا ؟ ان شخصيتنا من صناعتنا نحن . .

ولكن لنحاول التشبث بالهدوء ولنفهم جيداً ان الحقائق العلمية يمكن ان تكون مقنعة . إننا عندما ندرس مراحل نمو الطفل سواء كان ذلك في المدارس

الابتدائية او في كلية تدرس علم النفس ، فليس هناك ما يؤكد ان هناك ملامح للشخصية الانسانية تتحدد في خطوط واضحة عندما يبلغ الطفل عامة الثاني او عندما ينهي عامه الثالث ، فهناك طفل هادىء وبشوش ويظل قادراً على الاحتفاظ بحب الناس لسنوات عديدة . وهناك طفل آخر يمتلىء بالغيرة ويعمل ملحًا على تحقيق مطالبه ، وتبدو فيه الرغبة في الاستقلال عن الآخرين منذ البداية . وهناك طفل ثالث شديد الحذر يحاول ان يعرف تفاصيل ما هو مقبل عليه ولا يحاول ان يفعل شيئاً جديداً إلا بعد التأكد من قدرته على النجاح . هناك طفل يتميز بالاندفاع ،والإقدام ولا يبالي بأي خطر . إنه شجاع الى درجة الحماقة، مقدام دائماً. ويتمتع بروح المغامرة. وكلما كانت المغامرة جديدة كلما زاد شعوره بالسعادة. وقد نجد طفلاً في الثالثة من العمر يتصف بالاتزان والثقة بالنفس في أي موقف، بينما نجد ان طفلاً آخر يصيبه الجزع والخوف والجبن لأقل مغامرة مثيرة . وهناك طفل اجتماعي ، حلو المعشر يتقبله الناس بحب ويتقبل هو الناس بحب وفي الوقت نفسه قد يكون هناك شقيق لهذا الطفل يختلف عنه تماماً . يهرب من الناس . يخاف الغرباء . يصاب بالاكتئاب لمجرد وجوده وسط جماعة من الناس بينما يستطيع هذا الطفل الهارب من الناس ان يختار اصدقاء له . لكنه يجب ان يلتقي بكل واحد على حِدَة. وهو لا يشعر وسط فئة منهم بالراحة . وهو يشعر بالسرور عندما يكون وحيداً . وقد تمر خمس سنوات وهذه الصفات والعادات موجودة لدى هؤلاء الأطفال ، ولكنها قد تتغير بعد ذلك . وهنا يطرح هذا السؤال نفسه :

- هل هذه الصفات والعادات تولد مع الطفل وتنمو بسبب خبرات مرت بالطفل في سنوات عمره الأولى ؟ هل هي موروثة ام مكتسبة ؟

هذا السؤال لم نجد له اجابة نهائية .

هناك ابحاث ودراسات في هذا الموضوع ولكنها قليلة وتتناول بعضاً من الموضوعات العامة مثل الحيوية الزائدة ، او الهدوء والانطواء او الجرأة او التردد او الحذر والشجاعة وهي كلها صفات تنمو باستمرار في مراحل النمو . لكن من

الصعوبة بمكان ان نقدم الدليل على ان هذه الصفات كانت موجودة منذ لحظة الميلاد. فالطفل المولود حديثاً ليست له مظاهر سلوك يمكن ان تتضح من خلالها شخصيته . فهو في الأسابيع الأولى ينام ، يصرخ ، يرضع ، يناغي ، ينام مرة اخرى. اما ان يصرخ بعنف او برقة ، فهذا يعتمد طبعاً على مدى الجوع وعلى المدة التي يمكن تحملها. ولكن البشر الذين يحتكون بالأطفال بحكم عملهم مثل مربيات دور الحضانة، او ممرضات قاعات الولادة، هؤلاء يعتقدون ان صراخ الطفل يولد معه ، لأنهم يلاحظون التفاوت بين الاطفال المولودين حديثاً . اما الأمهات اللائي يعتقدن بوجود الفروق الفردية منذ لحظة الميلاد فهن اللائي يلدن التوائم . ان الواحدة منهن تقول « ان المرأة عندما تضع طفلاً واحداً لا تذكر ما كان عليه الطفل من اخلاق خلال السنة الأولى من عمره . اما التي تلد توأمين فإنها تلاحظ فوراً ان هناك اختلافاً بينهما في كل شيء . وبسرعة تستطيع الأم ان تفهم « شخصية » كل منهما وتستطيع ان تتنبأ برد فعل كل واحد منهما في أي موقف .

قد يقول قائل :

ـ ان هذه مسألة ثانوية .

الا انني احب ان اقول ان معظم الأطباء والعلماء النفسيين يؤمنون ايماناً قاطعاً بأن العادات الاجتماعية المحددة جداً مثل الطيبة والخبث او الامانة والخداع او تحمل المسؤولية او التهاون في القيام بالواجب ، والاقتصاد او التبذير . والابتعاد عن الخمرة او الميل لها والوقوع في هوى الحل والمباح او الانحراف ، كل ذلك من العادات ليس موروثاً على الاطلاق . ان الطفل يتعلمها ويكتسبها خلال خبرات الحياة . وهذه العادات الاجتماعية مختلفة تماماً عن « المزاج » الذي يولد به الطفل .

ولكن اذا وافقنا على ان قلق الطفل يتكون بشكل محدد الملامح مع وصوله الى نهاية عامه الثاني او الثالث . . فليس معنى ذلك ان هذه الشخصية لن يصيبها التغيير بعد ذلك . ان الحقيقة التي نعرفها جميعاً هي ان الانسان يتغير من وقت الى آخر . ولا احد يستطيع ان « يتجمد » في قالب واحد. إن الانسان مثلاً اذا انتقل

من وظيفة الى اخرى افضل فقد يعثر في اعماقه على كنز كان يبحث عنه طويلاً ولا يجده وهو الثقة بالنفس . وقد يكون هناك شخص ظل طوال عمره غاية في الرقة والتواضع والخلق الحسن حتى الستين او الخامسة والستين وفجأة ينقلب الحال فيصبح عديم الثقة بكل شيء . والعكس ايضاً صحيح ومعظم الناس تعرف ان كل انسان يمر بفترات متعاقبة من التوتر والراحة ، من زيادة التفاهم مع الناس والرغبة في معاشرتهم ثم الرغبة في الابتعاد عنهم وتفضيل الوحدة ، ومن التفاؤل البالغ والسرور والشجاعة الى والإحباط والحزن والجبن .

والشيء الواضح جداً في فترات الطفولة هو ان الطفل لا يحتفظ بنفس الشخصية لفترة طويلة . فهناك مراحل ينمو فيها ويتطور ويتحرك ويحتك بالمجتمع . وهو في حركته هذه قد يهتز من الداخل ، وقد تؤثر فيه الظروف المحيطة به في الخارج . ولهذا فإن شخصيته تظل في رحلة كأنها القارب الذي يصارع الموج العالي او القارب الذي يسير على صفحة من المياه الهادئة . ولكن هناك بعض الملاحظات التي تجمعت لي بحكم الخبرة الطويلة . منها مثلاً ، ان الطفل الذي يسعى الى الاستقلال منذ الفترة ما بين عامه الأول وعامه الثالث يعطي اشارة الى انه قد يتجه الى التمرد والعناد وقوة الارادة . ثم تهبط هذه الموجة من التمرد لتبدأ رحلة من الطاعة والهدوء والاقتناع . وبعد ان يمر العام الثالث على الطفل فإنه يبدأ في محاولة التشبه بوالديه . ان هذه المحاولة تسعد الطفل . وهنا نرى ان « بصمة » الأب على الابن تصبح واضحة . وتصبح البنت مرآة لأمها . ان ذلك التقليد والرغبة في تقمص شخصية الكبار يعدل في شخصية جميع الأطفال بنسب مختلفة . . ترتفع تلك النسبة في بعض الحالات وتقل في الحالات الأخرى . وعلى مسرح سنوات العمر بين السادسة وفترة المراهقة نرى استعراضاً ملخصه ان الطفل يندفع في الاتجاه المضاد . فهو في هذه المرحلة من العمر يقاوم ان يكون نسخة من ابيه . ويحاول ان يقلد اصدقاءه . وطبعاً يتوقف ذلك على وجود صداقات له . . وهل هي صداقات متعددة وسطحية ام انها صداقات عميقة . وهل يقبله الأصدقاء في محيطهم ام لا . فإن كان الطفل تنقصه القدرة على الألفة والقدرة على الحصول على الحب فهو يبذل

كل الجهد ليلتحق بشلة ما من الأصدقاء وهو لا يقبل بسهولة ان يلجأ الى والده وامه ويلقي بنفسه في احضانهما مثلما كان يفعل من قبل . لعل المهرب الوحيد الذي يمكن ان يلجأ اليه هو القراءة في حياة ابطال التاريخ او الانغماس في هواية علمية او ادبية او رياضية . . وهذه الخبرة لها تأثير كبير في شخصية المراهق ومستقبله . وقد تجد ان الطفل الانطوائي الخجول الذي قد بلغ عامه السابع يبدأ في التمرد على هذا الخجل ، ويحاول ان يتعلم فن اكتساب الصداقة . فإذا وجد هذه الصداقة فإنه يبدأ في الثقة بنفسه .

وتبدأ مرحلة المراهقة . انها تفتح آفاق المستقبل . وفيها اكثر من طريق . فالى اين يمشي الطفل ؟

ان مشاعره تكون حادة وقدرية ومفاجئة للآخرين . قد يسبب له النضج الجسدي بعض الخجل . وقد ينطوي على نفسه . بينما نجد انساناً آخر في نفس العمر كان يعاني من انه غير اجتماعي قد اصبح اجتماعياً من الدرجة الأولى ، وقد يحظى بصداقة احد اقرانه المقربين ممن يشاركه نفس الهوايات او قد يتخذ من مدرسه مثلاً اعلى يحبه الى درجة العبادة .

إن كثيراً من المسائل تتحدد من خلال وجود الصديق الذي ينجذب اليه قلب المراهق ، عندما يكون المراهق مستعداً لبدء رحلة اكتشاف ذاته وتحقيقها من خلال الصداقة ، كما ان التغير الجسدي كما قلت من قبل له اثر كبير . ان هناك بعض الخجل وبعض الشعور بالألم لسبب او اكثر . قلق الشاب مثلاً من طوله المفاجىء مع عدم نمو شعر اللحية . ظهور حب الشباب . وعدم انتظام فترة الحيض الشهرية لدى البنت ومصاحبتها بآلام شديدة . كل ذلك يسبب الخجل والضيق بل والألم النفسي . وقد تكون تلك الآلام عقبة كبيرة بالنسبة لبعض المراهقين ، وقد تمر وكأنها شيء طبيعي جداً بالنسبة للآخرين . ولنتصور مثلاً الخجل الذي يصيب شاباً على اعتاب المراهقة سميناً للغاية . . ويفشل دائماً في ممارسة أي نشاط رياضي ويثير حوله دائماً السخرية والاستهزاء ، هذا الشاب قد يعثر على ارادة التحدي التي يتحول بها الى انسان قوي البنيان وله عضلات يخشاها

الآخرون . وقد يصبح بطلاً في فريق كرة القدم ويصبح فتى الأحلام عند أكثر من حسناء .

ونحن نعرف ان الفترة ما بين الثالثة عشرة والتاسعة عشر خصوصاً بين الاولاد الذكور تكون مليئة بالتمرد والعصيان والثورة على كل شيء وقد يتجه البعض الى الانحراف .

ويحاول المراهق في هذه الفترة ان يدمر كل ما هو مألوف ويوجه النقد الشديد للتقاليد الاجتماعية . وقد يتحول هذا التمرد الى طاقة تبني مستقبلاً دائماً . قد تكون ثورة المراهق هي بداية جديدة لاكتشاف جديد في العلم . ان احلام المراهقين التي قد يسخر منها احدهم هي في الغالب التي تصنع تطور العلوم . صحيح ان عدداً قليلاً من الشباب يقصر احلامه على اعلان تمرده بتصرفاته الغريبة وخروجه على كل ما هو مألوف ، إلا ان ذلك ما يلبث ان يختفي ، ويستقر المراهق ليصبح مواطناً عادياً متعاوناً .

والنتيجة النهائية تتوقف طبعاً على طبيعة الشخصية قبل المراهقة كما انها تعتمد الى حد كبير على الفرص التي يمنحها المستقبل للمراهق بعد النضج في العمل .

ثم يأتي الزواج . هذا القدر الذي لا نعرفه . ان كل انسان ينجذب دائماً الى الجنس الآخر . وفي فترة المراهقة نجد ان هناك « حدة » دائمة واشتعالاً دائماً . وينتقل قلب المراهق او المراهقة من قصة حب الى اخرى . وفي النهاية يجد أن قلبه اصبح أسير إحداهن، وكذلك الأمر بالنسبة للفتاة . وينتهي الأمر الى ان تضيق دائرة الاختيار لتصبح هناك واحدة فقط في قلب الرجل الناضج ، ويصبح هناك رجل واحد في قلب المرأة الناضجة . وكل رجل او امرأة يجد في شريك الحياة الذي يختاره « ميزات معينة » يطلبها بشدة ويحتاجها . ان لحظة توقيع وثيقة الزواج هى لحظة استكمال لحاجات نفسية يشعر بها الطرفان . وهكذا نستطيع ان نقول ان اتخاذ القرار بالزواج يتم بحكم التربية السابقة وبحكم الظروف التي مرت بها الشخصية من قبل . وكل من الرجل والمرأة يحدد

لاشعورياً المواصفات التي يطلبها في الشخص الذي يشاركه رحلة العمر قبل ان يتم الزواج ، بل وقبل ان يلتقيا . وطبعاً يحدث بعد ذلك الكثير من التغييرات لأنهما يشتركان في مسكن واحد ويتحدد مستواهما الاقتصادي بدخل معين . . ثم هناك الاطفال والأصدقاء . وتبدأ ايضاً رحلة اكتشاف بعض الصفات التي لا يحبها أي منهما في الآخر . ويحاولان ان يسيطرا على هذه الصفات لأنها لم تدخل ضمن بنود اتفاق عقد القران . ان ذلك يحدث للطرفين . . للرجل والمرأة معاً . وليس هناك شك في ان الزوج يستطيع ان ينمي الايجابية والاخلاص والولاء في قلب الزوجة . . ويستطيع ايضاً ان يضعفها . والزوجة ايضاً تستطيع ان تفتح نوافذ المستقبل والسعادة امام زوجها . . وتستطيع ايضاً ان تفعل عكس ذلك . وكل واحد منا له فرصة اختيار عمله في الحياة ، هذه الفرصة قد تكون كبيرة وقد تكون محدودة . لأنها محاطة بظروفنا نحن وبظروف المجتمع . لكن من المؤكد ان العمل نفسه يتدخل في تحديد الكثير من صفات شخصية الفرد منا والتأثير عليها . فهناك انسان لا يعمل ويجد السعادة الكاملة والنجاح في كسله . وهناك آخر يصبح كالوردة الذابلة الجافة وهناك ثالث نجد ان النجاح يجعله يتوهج بالسيطرة بينما نجد انساناً رابعاً يضفي عليه النجاح التواضع ومشاركة شعور الآخرين .

اظن انه اصبح الآن من المؤكد ان شخصية الطفل تتحدد بشكل واضح الملامح منذ العام الثاني والثالث من العمر والا اصبح الأطفال بلامعنى او ملامح مميزة . وكيان اي شخصية قد يستقرويستمر، تماماً كما يظل شكل المنزل واضحاً رغم تعرضه الدائم للكثير من التغييرات والتجديدات والاضافات . ان كيان شخصية الطفل لا يظل كما هو بطبيعة الحال . ان هناك طفلاً يتغير الى حد كبير وطفلاً آخر لا يتغير إلا بقدر محدود . والمسألة متوقفة على آلاف المؤثرات التي نمر بها في رحلة الحياة من خير وشر ونجاح وفشل . كل ذلك يتأثر به الطفل اثناء مراحل النمو .

بعض الفروق بين الصبي والبنت

اننا نندهش عندما نرى صبياً في الثالثة من العمر يتعجب من ان البنت وحدها هي التي تستطيع ان تحمل طفلاً في بطنها عندما تكبر . إنه يريد ذلك ايضاً !!

لكنه يفضل ان يلعب دور الرجل فور ان يبلغ الرابعة من عمره ، كما تفضل البنت ان تلعب دور العروس .

منذ ان وجد الانسان والحرب مشتعلة بالنسبة لهذه المسألة، ومن يجرؤ ان يفتح فمه ليقول رأياً في هذا الموضوع، تُحِط به السهام من كل الجهات. فهناك فئة من الرجال يمكن ان تطالب بقطع رأسه، وهناك فئة من النساء يمكنها المناداة بقتل هذا الانسان. المهم ان كل من أبدى رأياً في هذا الأمر كان يتعرض لحملة ضارية ومضحكة.. تلك هي مسألة الفروق بين الرجل والمرأة.

فها هو حزب من النساء اسمه «نصير المرأة» وهو مكون طبعاً من النساء اللائي يمتلئن سخطاً على المزايا التي يتمتع بها الرجل. هذا الحزب يعترف بوجود فارق بين جسد المرأة وجسد الرجل. فارق طبيعي واضح. ولكن هذا الحزب يؤمن ايماناً قاطعاً انه فيما عدا الفروق الطبيعية لا توجد اي فروق اخرى. لا توجد فروق نفسية او فروق عضلية. ان هذه الفروق من صناعة الوهم. صنعها الرجال لأنفسهم وتوهموا بالباطل ان لهم صفات ومميزات وخصالاً معينة ليتفوقوا بها على المرأة. وهذا هو نوع من الخداع ولا بد من ان يوقفهم احد عند حدهم حتى لو تطلب الأمر ثورة على هذا الاستعمار المسمى استعمار الرجل للمرأة!! لأن هذا الاستعمار يزيد من مكاسب الرجل ويجعل المرأة مجرد جارية له. وليس من المعقول ان نعيش في عصر تم فيه تحرير العبيد وما زالت المرأة فيه غير محررة.

وليس هناك ادنى شك في ان الرجل منذ بداية الانسانية قد ادعى لنفسه حقوقاً ومميزات وحصل عليها خصوصاً فيما يختص بثلاث نقاط هامة. هي حق الملكية والزواج والعمل. والزمن الذي نعيش فيه تدور فيه حرب شديدة تضطر المرأة لدخولها ضد الرجل حتى تحصل على حق التعليم والانتخاب ودخول

مجالات العمل التي كانت ممنوعة عليها من قبل . .

وحكاية هذا الخلاف كلها تعود الى الزمن الذي كان قبل التاريخ . . عندما عاش الانسان الأول على الصيد والحرب . وطبعاً كان الرجل قوياً وقاسياً للدرجة التي كانت تسمح له بالقيام بهذه الأعمال. وأيضا كانت القوة والقساوة صفتين لازمتين لفرض الاستقرار والتقاليد في الكهف الذي كان يعيش فيه مع زوجته . ولم تكن هناك فرصة للمرأة حتى تنادي بأي حق من مثل الحقوق التي تطالب بها اليوم ، لكن البشرية تقدمت في الحضارة . . واصبحت العلاقات الانسانية اقل ضراوة . . على الأقل في النزاع العضلي بين الانسان والانسان او بين الانسان والحيوان . واصبحت وسائل كسب العيش متمدنة . . واستطاعت المرأة خلال القرون الماضية ان تثبت قدرتها وكفاءاتها في بعض المجالات . وحاولت المرأة ان تطرق ابواب ضمير الرجل ليمنحها المساواة ويذيب حواجز العبودية والقيود . ولكن طبعاً بلا فائدة . كانت ابواب ضمير الرجل مغلقة تماماً . وطبعاً كما يحدث في كل ثورة ، هناك من يضحي وهناك من يستفيد وهو جالس في مكانه . لذلك ظل عدد كبير من النساء ينتظر ، بينما كانت النساء المقاتلات بالذكاء يحاولن كل يوم الوصول الى اليوم الخالد ، يوم المساواة في الحقوق والواجبات. وقد نقل التاريخ تصريحاً على لسان زوجة شوسر وهو رجل عظيم كان يعيش في مدينة « باشا » خلال القرن الرابع عشر . . التصريح يقول « ان ما تريده المرأة فعلاً هو السيطرة على الرجل . ولقد عثرت المرأة على اكثر من سبيل سري ومهّدت اكثر من طريق للوصول الى هدفها بالمكر والذكاء والمهارة ، وذلك من اجل تحقيق الهدف ، وهو السيطرة على الرجل ، بينما تسمح المرأة للرجل بأن يسير في طريق الوهم والغرور ، الوهم بأنه صاحب السلطة العليا ، وانه السيد وانه المتصرف في كل الأمور » .

ولكن يجب ان لا تخدعنا الحقيقة التي تطلقها النساء بأن المرأة قد حرمت من حقوقها ظلماً لأن ذلك يقودنا الى منطق خاطىء ونعتبر المرأة اسيرة للرجل تماماً . لا لقد كانت هناك حقوق للمرأة لا يستطيع الرجل ان ينالها . . مثلاً حق الأمومة .

وما لي وهذا الحديث الذي قد يجعل حزب انصار المرأة يركز هجومه على شخصي ، وأضيع في متاهات الصخب والمظاهرات .

لقد حسدت المرأة الرجل طويلاً وحقدت عليه لما تخيلته من مزايا وفروق ينفرد بها ، دون ان تنظر المرأة جيداً الى جوهر هذه الحقوق ، وهل هي تستحق ان تطلب من اجلها المساواة التي تنادي بها ام لا ؟ . صحيح ان كفاح المرأة بالنسبة للحصول على حق التعليم الجامعي كان كفاحاً شريفاً وعادلاً ، وصحيح ان المرأة قد خاضت المعارك الضارية لتكسر الحواجز وتمشي الى نهاية الطريق الذي كانت تتمنى ان تصل اليه . حدث ذلك في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين . وطبعاً سارت المرأة الأوروبية والامريكية في هذا الطريق واصبحت المرأة في معظم مدن العالم ذات الثقافة الغربية تتشبه بالرجل في الهوايات والاهتمامات وطريقة المشي والكلام والضحك والملابس ، كما ان حزب انصار المرأة يعرف تماماً ان الرجال يتمتعون بكل المزايا ، ولم يستطع هذا الحزب ان يبحث ليكتشف ان هناك فئة من الرجال يشتاقون فعلاً الى حياة المرأة ويتمنون حقيقة ان يتمتعوا بالمزايا التي تتمتع بها المرأة . . وان لم يجرؤ احد منهم على ان يقود مظاهرة يطالب فيها بالمساواة بينه وبين النساء ولا يستطيع احدهم ان يجمع رجالاً امثاله يعتلون سطوح العمارات ويصرخون قائلين :

ـ نريد المساواة بالنساء . .

ومهما يكن من امر فإن القضية ما زالت مستمرة والصراع يهدأ حيناً ويشتعل حيناً آخر . وهناك آراء كثيرة في هذا الموضوع . لكن معظم هذه الآراء تحتاج الى ادلة حتى تصبح مقنعة . .

وهؤلاء الذين ينادون بأن المرأة كان يمكن ان تشبه الرجل لو وفّر لها المجتمع نفس وسائل التربية التي يقدمها للرجل . هؤلاء ايضاً يقولون ان الفتاة الصغيرة تعاملها اسرتها ويعاملها المجتمع بصورة مختلفة عن الولد . ان هناك « قالباً » يصب فيه المجتمع « المرأة » ، وهناك « قالب » آخر يصب فيه المجتمع « الرجل » . يحدث ذلك منذ اليوم الأول للميلاد . وطبعاً من المستحيل ان نتأكد

مما اذا كانت الصفات التي تملكها البنت او يملكها الصبي تعود الى طبيعة فطرية موروثة ، أم أنها راجعة الى التربية والتعليم ؟ . وليس عندي اي دليل اقدمه بهذا الشأن .. انا شخصياً أرى انه برغم عدم وجود فوارق محددة وفاصلة في الطبيعة النفسية بين الذكر والأنثى عند الميلاد، إلا ان هناك أيضاً فروقاً تطفو على السطح منذ ساعة الميلاد. وبعد ذلك تنمو هذه الفروق وتصبح واضحة المعالم ويصبح من السهل ان نميز بين الفتى والفتاة . طبعاً بدرجات متفاوتة تزيد او تقل حسب اساليب التربية . ومن خلال ملاحظاتي كطبيب اطفال ، أرى ان الذكور عادة يتميزون بالقلق والعناد والاصرار منذ الميلاد ، وان اكثر الاناث يستسلمون لتيار الحياة السهلة ، حتى وهن في عربة الأطفال الرضع . ان الذكر يحارب حتى ولو مع نفسه . والفتاة تسترضى وتستمتع دون حرب . وهناك صعوبة دائمة ايضاً في تدريب الذكور على عادات التبول والتبرز . انهم اكثر عناداً من البنات في هذه المسألة . وعندما يكون عمر الطفل بين السنة والسنتين وعندما لا نفرق بين لعب الاولاد والبنات ، فإننا ايضاً نجد بعض الفروق الواضحة .

عندما يزورني في عيادتي الطبية طفل للكشف عليه فإنه يأخذ مني جهاز فحص الأذن ليعبث به ، وهو جهاز يعمل بالبطارية وبه عدسة توضح للطبيب حالة الأذن من الداخل . وعندما يقع هذا الجهاز في يد الطفل فإنه يظل يحاول ان يفك بعض اجزائه او يحرك أي شيء فيه يمكن ان يتحرك ويحاول ان يفصل المرآة العاكسة . . ثم يحاول ان يدير هذا الجهاز . ويبكي كثيراً عندما تنتهي الزيارة لأنه يريد ان يأخذ هذا الجهاز معه الى المنزل . وهذا مثل بسيط على حب الأجهزة الميكانيكية ومحاولة فكها واعادة تركيبها رغم عدم معرفته بفائدتها . وكثيراً ما حاولت ان اقدم جهاز فحص الأذن لطفلة في نفس العمر لكن اي فتاة كانت تبتسم في سعادة كأنها تشكر لي ذلك . وتنظر الى الضوء الصادر من هذا الجهاز وقد تلحس الضوء بطرف لسانها، ثم تترك الجهاز بهدوء . ولا تحاول ان تفك فيه أي شيء مثلما يفعل أي طفل. ولا تغيب عن ذاكرتي ابداً طفلة في عامها السابع كان مفروضاً عليها ان تظل « محجوزة » لمدة شهر كامل في حجرتها

باحدى شقق عمارة شاهقة في نيويورك . وكان هذا هو الأسلوب المتبع في علاج حالات الحمى الروماتزمية في تلك الأيام . وقد بدأت الطفلة تخطو الى الشفاء بعد مرور سبعة ايام . انتهت فيها مظاهر المرض . ولكن اجراءات الحماية من المرض كانت تتطلب بمفهوم ذلك العصر ان تظل المريضة في السرير ، او على الأقل في المنزل . وطبعاً هناك الملل الذي يمكن ان يصيب طفلة في السابعة محكوماً عليها بالحبس لمدة شهر . وكانت الطفلة ووالدتها يجلسان معاً وقتاً كبيراً . وكانت المتعة الوحيدة المتاحة للطفلة هي ان تنظر من النافذة التي تطل على حديقة الحي التي تمتلىء بأطفال بين الثالثة والعاشرة. وكانت الفتاة تحكي لي ان الأطفال يلعبون طوال النهار بالشكل التالي : بعض الفتيان يقيمون مسابقات في الجري اما على الأقدام واما بالدراجات . وكان الفتيان الأكبر قليلاً تستهويهم لعبة « عسكر ولصوص » . كل منهم يمسك مسدساً يصدر صوتاً كصوت المسدس الحقيقي بينما تفضل البنات اللعب بركوب الدراجات او العربات الصغيرة او الاعتناء بالدمى الصغيرة المصنوعة من البلاستيك . وكانت الفتاة المريضة تعترض طوال الوقت على اسلوب الفتيان في اللعب. فالصبي يحب ان « يرعب » أي بنت بالمسدس الذي في يده . وتحاول أي بنت ان تتجنب هذا الهجوم . لكن الفتيان لا يتوقفون عن مهاجمة البنات . وكل بنت تحاول قدر استطاعتها ان ترد الهجوم . ونظرات الشراسة والشر تملأ عيون الفتيان وهم يطلقون المسدسات الصوتية .

وانا اول من يعترف بأنه لا يوجد ما يمكن ان يسمى غريزة القتال عند الذكور تدفعهم الى استعمال المسدسات واصدار صرخات الحرب . ان صغار الصبية يتعلمون ذلك من الكبار . يتعلمون استعمال المسدس ويقلدون تلك الأصوات والحركات من مشاهداتهم في السينما والتليفزيون او سماعهم مسلسلات الاذاعة . وهناك ايضاً عدد قليل من البنات قد تحمل الواحدة منهن مسدساً . لكن البنت التي تفعل ذلك لا تحمل مسدس اللعب على انه شيء جاد وخطير كما يفعل الصبي ، انه مجرد لعبة . وانا اعتقد ان الذي يدفع الصبي ليلعب دور المقتحم والقاسي والمعتدي هو « النموذج » الذي يراه في الكبار وفي

المجتمع . وهو شيء طبيعي في المجتمع بالنسبة للرجل . والولد يتمنى عادة ان يكبر فجأة ليكون قوياً يخافه الجميع . اما الفتاة الصغيرة التي قد تفضل اللعب بالمسدس وبألعاب الفتيان فهي عادة تكون حادة المزاج ، وتريد ان تصل الى مرتبة الصبي الذي قد تفضله الأسرة ، ويكون ذلك في الغالب ضد طبيعتها التي تتمناها لنفسها . ويقف وراء ذلك دافع ما للتنافس والرغبة في الانتصار فضلاً عما تشعر به من متعة وراحة في هذا النوع من اللعب ، لكنها راحة مؤقتة تنتهي بعد فترة من الزمن .

واذكر مقابلة لي مع احد الصحفيين وكان يقضي معنا عطلة نهاية الاسبوع حدثني فيها عما رآه في احد الضواحي السكنية . . وكان العمال يحفرون الأرض ويستخدمون الديناميت في اعمال الحفر . وكان الذي يلتف حول العمال هم الرجال والفتيان . لم يستهو هذا المشهد امرأة واحدة كأن الرجال والفتيان هم الجنس الوحيد الذي يجد السعادة البالغة والمتعة الكاملة في الانفجارات . اما الزوجات والبنات فمنهن من اعلن ضيقه بتلك الانفجارات ومنهن من انصرفن الى اعمال المنزل وكأن شيئاً لم يحدث . ولم يجد الصحفي امرأة او طفلة تهتم بأمر هذه الانفجارات .

وانا ألاحظ إنه من سنوات العمر الأولى نجد ان احاسيس الطفل الفطرية ، الايجابي منها والسلبي على السواء، تتبلور في ظاهرة التقرب الشديد من أمه. ونجد ان الطفل في عامه الثالث او الرابع يتكلم عن رغبته في الزواج بأمه بينما نجد ان البنت تشعر باقتراب شديد ناحية الأب . وتتكلم ايضاً عن رغبتها في الزواج بأبيها . واللعبة المفضلة في تلك الأعمار هي لعبة « العريس والعروسة » ان كل طفل وطفلة يمتلىء رغبة بمعرفة الاجابة عن السؤال « من أين يأتي الأطفال ؟ » . ولذلك يمثلون دور الآباء والأمهات . وطبعاً يفضل الولد دور « الزوج » وتفضل البنت دور « الزوجة » .

ونحن ننسى ايضاً شيئاً قد يضحك له الرجال او الشباب المراهق ، هذا الشيء هو غضب الولد الصغير واحساسه بالضيق عندما يقول له احد ان البنت

فقط هي التي تستطيع ان تحمل الطفل في بطنها . انه يقول احياناً في عناد « لكنني اقوى من أي بنت واستطيع ان احمل الطفل ايضاً » . وتستمر رحلة الاقناع بهدوء . ومعنى ذلك في رأيي هو ان الرغبة في الخلق والابداع جوهر اصيل في كل طفل سواء كان ذكراً أو أنثى . وعندما يتخطى الطفل عامه السادس او السابع نجد ان الصبي يضطر تدريجياً الى النظر بعيون واقعية الى الحياة . لذلك ينكر هذه الاحاسيس الرومانسية نحو والدته ويتنازل طفل السادسة او السابعة عن لعب دور « الزوج » في لعبة العروس والعريس ويتجه الى اتخاذ « صنف البنات » عدواً له . ويتمنى ان ينجح في الحصول على صداقات الذكور الذين في نفس عمره سواء في المدرسة او الحي . إنه يبدأ في التفكير في ان تكون له «جماعة» . ويصبح ايضاً مليئاً بالأفكار الخلاقة . انه يبدأ في التفكير في الاختراعات التي تفيد المجتمع . يبني نماذج من الطائرات والصواريخ ، ومخازن للخشب ويقيم قضباناً للسكك الحديدية ، ويبني محطات للقطارات . وقد يقع في هوى جمع طوابع البريد او الاحجار البحرية ، او انواع العملات المختلفة المستعملة في كل البلاد . ان قدرة الابتكار تتوهج في الطفل في هذا العمر واذا احسن الأهل والمدرسة اسلوب رعاية هذه المواهب ضمنت المجتمعات البشرية طاقات هائلة من العلماء . واذا لم يكن الأمر سوى شعلة صغيرة تنطفىء بعد حين في نفس الطفل ، فهي ستكسبه قدراً من المهارة . أما الاناث ، فرغباتهن وميولهن بالاتجاه الى الاختراع والخوض في مثل هذه التجارب هي اقل من رغبات الاطفال الذكور . ثم تبدأ المراهقة حيث تبدأ معها مظاهر السلوك المبكر للطفل كرجل وللفتاة كامرأة . ونجد ان الموهبة تتفتح . نجد من يتجه الى كتابة القصة او الشعر او المسرح او الرسم او تأليف الموسيقى . وهواة العلوم منهم يجدون لذة كاملة في مجال نوادي العلوم التي تصقل مواهب الاختراع على اسس علمية . وهناك ايضاً في هذا العمر من يستطيع ان يضمن لنفسه النجاح في مهنة التجارة او العمل بالمصانع . المهم ان هذا العمر اذا كان صاحبه موهوباً فإن الموهبة كفيلة دائماً بتحطيم كل حواجز الدهشة التي تمتلكنا ونحن ننظر الى انتاج المراهق الموهوب .
وهناك ملاحظة قد تغضب حزب تحرر المرأة . . الملاحظة هي ان عدد الرجال الذين يصلون الى قمة التفوق في أي مجال من مجالات العلوم والفنون اكثر جداً من

عدد النساء اللائي يتفوقن في هذه المجالات . وحتى لا يزداد غضب المتعصبات للمساواة بين الرجل والمرأة نقول حقيقة يعرفها علماء الاجتماع جيداً . ان على الرجل ان يحصل على المال وان يدعم مركزه في عمله . إنه يعتمد على نفسه كقوة اقتصادية . اما المرأة فهي تملك نسبياً احساساً بالامان لأن هناك من يرعاها ، الزوج او الأب . وان مهمة المرأة الأساسية « في عقلها الباطن » هي العناية بالأطفال وتدبير شؤون المنزل . هذا تراث ترثه المرأة من المجتمع . كما ان عدداً كبيراً من مجالات العمل الذهني او اليدوي لم تكن المرأة تستطيع ان تخوضها حتى وقت قريب . ولكن هناك ايضاً حقيقة اخرى يجب ان نضعها في الاعتبار . وهي ان المجالات المختلفة التي اخذت فيها المرأة فرصة مساوية للرجل مثل التأليف والرسم والموسيقى . . هذه المجالات لم تتفوق فيها المرأة بنسبة كبيرة ولم تصل نسبة النساء اللائي وصلن الى القمة في هذه المجالات حدًّا ملحوظاً . والتفسير الذي اجده لهذه الظاهرة هو ان المرأة عادة اقل عدوانية من الرجل ، لا تقتحم مجالات العمل بنفس الدوافع العدوانية المتحفزة التي يقتحم بها الرجل هذه المجالات . ولو ان المرأة قامت بأعمال المنزل وتربية الأبناء بنفس الأسلوب الذي يتبعه مثلاً صاحب المصنع او الفنان المنهمك في عمله ، لأصبح البيت قطعة من الجحيم . . لأن هذا الأسلوب الذي يتبعه صاحب المصنع او الفنان يكون في الغالب مليئا بالعدوان . كما ان هناك احساساً بالخلق عند المرأة ، انه احساس تتميز به وتجد لذة في الرضاء عن نفسها وعن حياتها عندما تحمل الجنين في احشائها ، وعندما تربي طفلها . وعلينا هنا ان نتذكر ان الطفل الذكر الذي كان يعاني من احساس بخيبة الأمل وهو في الرابعة من العمر لأنه لا يستطيع ان يحمل ويلد مثل البنت ويعاني من الحرمان من هذه الميزة الايجابية الفطرية فهو حين يكبر يضطر الى أن يعثر على بديل للتفوق على المرأة .

وهناك تطور غاية في الأهمية في حياة الطفل يبدأ في نحو السادسة من العمر ثم يأخذ بالتزايد في اطراد . انه يحاول ان يتخلص تماماً من قيود الارتباط العاطفي بوالديه . ويظهر ذلك من خلال اهتمامه الشديد بالمسائل المجردة . . مثل الجبر والحساب والهندسة والطبيعة . والاطفال من الجنسين يشعرون بذلك . ويرغبون

في ان ينتقلوا من مرحلة الاهتمام بكل ما يخصهم شخصياً الى مرحلة ما يخص الآخرين . يملكون رغبة الانتقال من « الذاتية » الى « الموضوعية » . ولكن الذكور يشعرون بضرورة هذا الانتقال اكثر من الاناث . ولهذا فالذكر يتجه الى التجريد بصورة كبيرة من الحماس والحب . . ولا داعي لأن يظن احد ان هناك تفوقاً دائماً من الذكور على الاناث في المواد الرياضية (الحساب والهندسة والجبر)، ان هناك عدداً لا يتسهان به من الذكور تعترضهم صعوبات كبيرة في هذا المجال وقد يكون السبب في ذلك هو الارتباك امام مسائل الحساب والرياضة او انخفاض مستوى الذكاء . كما ان هناك ايضاً عدداً ملحوظاً من البنات يقعن في حب هذه المواد الرياضية ويتفوقن فيها . وتدل اختبارات الذكاء على ان هناك اعداداً كبيرة من الصبيان والبنات يتساوون في الذكاء الحاد والمهارة . ولكن اختبارات القدرات تقول عادة ان الولد قد يتفوق في العلوم الرياضية على البنت . وانا شخصياً اقابل كل يوم عدداً كبيراً من شكاوى البنات بسبب كراهيتهن للحساب ولا اجد شكاوى كثيرة من المواد الرياضية على ألسنة الأولاد الذكور . والذي يثير دهشتي ان بعض البنات اللائي يشكين مر الشكوى من المواد الرياضية يملكن من الذكاء ما يسمح لهن بحل مسائل هذه المواد ، لكن الأمر يبدو كريهاً ، وبلا جدوى . وكأن الحساب علم غير طبيعي بالنسبة لهن ويستحق كرههن وعداءهن . وايضاً هناك كثير من النساء الناضجات عندهن هذه الاحاسيس بالنسبة لعمليات مراجعة الحسابات . وهذا امر يمكن فهمه ، لأن المرأة عموماً بحكم طبيعة تربيتها تحتفظ بمشاعرها الطبيعية لتواجه الحياة بواقعية وباحساس ذاتي ، بينما نجد الرجل على عكسها ، يتعلم انكار احاسيسه ويكتمها بصورة كبيرة . ان الرجل يتحكم في عواطفه بحكم التربية . والرجل في الواقع يملك طاقة كبيرة يمكنه ان يستغلها في التفكير الموضوعي والمجرد من العواطف ، ويمكنه ان ينظر الى الأمور النظرية بفهم شامل . وهذا لا يظهر بين الاطفال فقط ولكن بين الكبار الناضجين فعندما يناقش النساء والرجال احد القوانين التي تبدو منطقية ومرتبة ، بصورة عادلة ، فإن الرجل يقول « ان القانون معقول ومفهوم » ، لكن المرأة تقيس المسألة بعواطفها وتقول « القانون احياناً ليس له

قلب او مشاعر » . نعم القانون فعلاً في معظم الأحيان بلا مشاعر . . لأنه قانون . . هذه حقيقة . . وهي حقيقة لا تقبلها المرأة . ان احساس المرأة الرقيق يجعلها تعترض وتشعر بالضيق، بينما الرجل ينظر الى القانون كقاعدة لحماية الأهداف الاجتماعية دون أن ينظر اليه بعيون عاطفية . . و . . . وهناك حد فاصل يمكن ان نراه واضحاً للتمييز بين الصبيان والبنات هو موقف كل من الجنسين امام الخطر . ان الرجل او الولد يجد في اعماقه رغبة في مداعبة الخطر والاقتراب منه في معظم الأحيان ، بينما المرأة او البنت تقف دائماً بجانب التعقل وضبط النفس والحكمة والحزم امام الخطر . ان المرأة عموماً ترغب في الابتعاد عن الخطر ، لذلك نجد ان الأولاد الذكور فقط هم الذين تنتابهم رغبة كبيرة في التوغل في اعماق البحر عندما تذهب الأسرة الى « الشاطىء » . وهم الذين يريدون التسلق على أي شيء عال . وهم الذين يغامرون بقيادة عربات السباق . وتتساءل الأمهات والزوجات :

ـ ما هذا « الجنون » الذي يصيب الابناء او الازواج للاندفاع نحو الخطر ؟

والاجابة ، هي ان الرجل بعامّة ينتابه قلق بشأن مسألة شجاعته او قوته ويحاول دائماً ان يكون الفائز الأول في أي منافسة . والرجل يجد دائماً لذة كبيرة في اختيار قدرته وقوته ، وذلك يمنحه الاحساس بتأكيد الذات . وهو احساس لا يهتم فقط بالفوز مرة واحدة ، فالرجل يريد ان يفوز دائماً . ومواجهة الخطر تؤكد للرجل اللذة بالتحدي ، بينما نجد ان المرأة تشعر بالضيق والضجر والانزعاج ، ليس فقط بسبب ان الرجل يلقي نفسه دائماً في مواجهة الخطر ، ولكن ايضاً لأن روح الرجل تمتلىء بالسرور اثناء مواجهة أي مغامرة مثيرة وخطرة .

وما دمت اتحدث عن الرجل فلأتحدث عن علاقة الرجل بالسيارة . ان السيارة بالنسبة للرجل غالباً ليست مجرد وسيلة مواصلات للراحة وحسب ، ان السيارة بالتأكيد شيء اكثر من ذلك ، فهي رمز للقوة وانه قادر على ان يصل دائماً الى هدف وان يدخل في منافسات مع غيره من الرجال وان يفوز باعجاب المرأة . وهذا هو السبب في ان الرجل يضع دائماً في حسابه فكرة شراء سيارة . . رغم انه عندما يحاول بالفعل شراءها فهي ترهقه مادياً . وهذا هو السبب في ان حجم

السيارات ظل يتضخم في الطول والعرض والارتفاع ومقدار السرعة ومدى قوة المحرك منذ عام ١٩٥٠ حتى الآن . وان كان هذا الاتجاه الآن يتراجع تحت ضغط ظروف ازدحام المدن ، كما ان هناك طبعاً نوعاً من الاندفاع الأحمق نحو السرعة بلا جدوى . إنني ارى ان الرجل احياناً ينظر الى سيارته كما ينظر الى امرأة جميلة ويعاملها معاملة خاصة . وعلى العكس من ذلك نجد ان المرأة تقف موقفاً عملياً في النظر الى السيارة ، إنها ليست اكثر من وسيلة للمواصلات . لكن هناك استثناءين بالنسبة لبعض النساء . . الاستثناء الأول هو ان المرأة تحب السيارة ذات السقف المتحرك رغم غلاء ثمنها في بعض الأحيان . . ورغم عدم جدواه ايضاً . والاستثناء الثاني هو ان بعض النساء تجد لذة في شراء عربة السباق تدليلاً على الاناقة ليس إلا . . رغم انها في استعمالها اليومي لهذه السيارة لا تستفيد بمميزاتها . ان ذلك نوع من الاندفاع نحو تحقيق رغبة ما قد تكون غير منطقية .

ان الرجل عموماً يحاول ان يعبر عن رجولته بواسطة السيارة . يقودها بصورة أسرع من المرأة ، وبقدرة ثبات كبيرة . ويتفادى الخطر الذي يواجهه بسهولة . رغم انه ايضاً يتميز بنسبة من حوادث السيارات تزيد على نسبة حوادث السيارات التي سببها المرأة . ان طبيعة الرجل تميل الى العدوان ، لكنها ايضاً طبيعة تستطيع ان تملك الوعي الشديد بقواعد قيادة السيارات والمرور . ويحاول الرجل المتزن في اغلب الأحيان ان يعاون غيره وان يطيع اشارات المرور ويشعر في اعماقه بضرورة ذلك . . حتى في لحظات الغضب . والرجل العادي الذي يتمتع بالثقة في نفسه يحاول دائماً ان يستوعب حركة مرور السيارات التي تحيط به ، اثناء قيادته لسيارته . ويجد نوعاً من الفخر في ان يسمح في بعض الأحيان لسيارة بأن تسبقه .

اما المرأة فعندما تقود سيارة فهي تسبب الضيق للرجل الذي يقود سيارته في نفس الطريق ، لأنها عادة تقود السيارة ببطء وليس لديها اية رغبة عدوانية تعبر عنها بجنون السباق . وكثيراً ما تسبب المرأة تعطيل حركة المرور لأنها تخطىء في معظم الأحيان في القيام ببعض حركات الدوران في الشارع ، ويسهل عليها ان ترتبك . . ويظهر عليها السرور ايضاً عندما ترتبك وترتبك معها حركة المرور لأنها

تثير حولها اهتمام بقية السيارات التي يمتلىء اصحابها بالغيظ . اما الرجل فإنه عندما يعطل حركة المرور فأغلب الظن انه لا يفعل ذلك عامداً متعمداً إنما لعطل حقيقي اصاب السيارة .

وهناك فرق آخر بين الذكور والاناث . ان المرأة عموماً لا تجد حرجاً في ان تطلب مساعدة احد عندما تقع في مشكلة ما . انها تطلب مساعدة احد المارة لو واجهتها مشكلة في الطريق ، وتطلب مساعدة الاخصائي في أي مجال عندما تقابلها مشكلة ما في أي مجال . لكن ذلك يبدو صعباً على الرجل . ولنضرب مثلاً على ذلك . زوج يركب سيارته وبجانبه زوجته ويسيران في طريق ما يقود الى مدينة اخرى . وقد يفقدان الاتجاه الصحيح للوصول ، فتقول الزوجة « هيا نقف ونسأل هذا الرجل الذي يمر هناك » . لكن الزوج يجيب بسرعة « لا أنا واثق من اننا سنصل الى الطريق الصحيح بعد قليل » . ويستمر في قيادة السيارة ويستمر في « الخطأ » . وتتكرر نفس الكلمات بين الزوج وزوجته بلا طائل ، الى ان تنتصر الزوجة ويسأل الزوج احد الناس ، على مضض ، عن الطريق الصحيح .

وفي معظم الأحيان نسمع من الاخصائي النفسي للاطفال عبارة تتكرر على ألسنة الكثير من الأمهات :

« انني ألاحظ منذ مدة ان طفلي غير طبيعي . وكلما طلبت من زوجي ان نبحث عن حل فإنه يقول دائماً لا » . فالمرأة دائماً قلقة ومن الأفضل ان نصبر قليلاً ، فقد يمر الطفل بهذه المشكلة وينتصر عليها .

والزوج هنا ليس اقل حباً لابنه من الأم ، فهو يعاني معاناة الام قلقاً على الابن . ولكن يفضل ان ينتصر الابن بمفرده على المشكلة .

وهكذا نرى ان الرجل عموماً يحب الاعتماد على نفسه ، ولا يلجأ الى طلب المساعدة إلا عندما يكون الوضع بالغ الخطورة وعندما يعجز بالفعل عن تحمل مسؤولية النتائج التي تترتب على هذا الوضع أو ذاك . والرجل عموماً يتألم عندما يعترف بأنه في حاجة الى معاونة احد . ذلك ان الرجل عموماً يشعر انه لا بد من حل اموره بنفسه ، وذلك لأنه ورث واجب الاعتماد على النفس من الآباء

ومن المجتمع . ويمكن هنا ان نوجه اللوم الى أسلوب التربية التقليدي الذي يفرض على الذكر ان يكون دائماً ميالاً الى الاستقلال التام دون الاستعانة بخبرة الآخرين . واسلوب التربية التقليدي خاطىء ايضاً في عدم السماح للطفل العادي بأن يعبر عن ضعفه وأن يطلب مساعدة احد ، اذا وقع في ازمة ما . ويعتقد بعض الأطباء ان هذا الرفض لطلب المساعدة عند الرجل هو الذي يسبب له احياناً قرحة في المعدة .

وليس هذا بالطبع حكماً قاطعاً على كل الرجال بأنهم شجعان ، وانهم لا يطلبون العون من احد ، وليس هذا ايضاً شهادة لكل النساء بأنهن يتخذن جانب الحيطة والحذر في مواجهة أي مشكلة .

ان الرجل يمكن ان يتعرض لمشكلة تقهره فعلاً ، وكل ما يفعله هو انه يحاول غالباً ان يؤجل اعلان الهزيمة اطول وقت ممكن . وبعض الممرضات اللائي امضين مدة كبيرة في المستشفيات وتعاملن مع آلاف المرضى ، يقلن ان الرجال عموماً يحاولون التقليل من شأن امراضهم حتى ولو كانت امراضاً خطيرة ، كما ان الرجل يقاوم البكاء على عكس المرأة . لكن الممرضات ايضاً يقلن انه لا يوجد اكثر من الرجل طفولة عندما يتخلى عن قناع ادعاء القوة وعندما يعلن صراحة عن قلقه بشأن مرضه ، عند هذا لا يرفع الرجل يده عن الجرس الذي يدعو به الممرضة في معظم اوقات الليل والنهار ويشكو من اتفه الأسباب ، ويطلب من الممرضة ان تقدم له تسهيلات او ان تلبّي له بعض المطالب التي يستطيع ان يقوم بها هو بنفسه دون حاجة الى المساعدة .

وأخيراً نقول اننا كلما ازدادت خبرتنا بالجنس البشري سنظل نكتشف مزيداً من الفروق بين الرجال والنساء ، ولن نكف عن الدهشة لوجود مثل هذه الفروق . واحياناً نجعل منها مادة للضحك او « للمناكفة » المتبادلة بين الطرفين ، واحياناً تكون مصدراً للشكوى والحزن . لكن من المؤكد ان الرجل دائماً يجد القدرة على الانسجام مع المرأة حتى عندما تختلف معه في المزاج او الهواية ، والمرأة تجد القدرة على التآلف الرحيم مع الرجل الذي يختلف عنها في الطباع والميول .

ان الفروق في الطباع كالفروق الجسدية تماماً ، هي التي تجذب الرجل الى المرأة وتجذب المرأة الى الرجل ، وانه من الخطأ الفادح ان نحاول التقليل من هذه الفروق ، لأن كل فرق خلقه الله بين الرجل والمرأة انما شاء ان يجعل الحياة به مصدراً للمتعة والانسجام ، لا ان تكون الحياة مصدراً للشكوى واليأس والأسى .

هل نربي الطفل على الطاعة ام على التفرد في الرأي

بعض الآباء يقعون في خطأ اصدار الأوامر الى الابناء .. إنهم يريدون الابن آلة مطيعة لتنفيذ كل الأوامر .. وهم يريدون ان يجردوه من شخصيته ليجعلوا منه نسخة سخيفة عن شخصياتهم .

وبعض الآباء يعثرون على الطريق الصحيح وهم يضعون أسس بناء شخصية الطفل ليكتشف ما في اعماقه من مواهب .

هل تريد ان يكون ابنك مثل بقية ابناء الآخرين ، مجرد انسان ترعاه لينمو وليحصل على وظيفة ويضمن رحلة العمر في سلامة ، ويموت بعد عمر طويل دون ان يترك أي أثر ؟

ام انك تريد ان يكون ابنك صاحب شخصية متميزة تغير في المجتمع وتضيء الطريق امام الآخرين .

لقد حفلت السنوات الأخيرة بمئات من الكتب والمقالات التي تفضح تماماً أسلوب حضارة الغرب . . تلك الحضارة التي تحاول ان تجعل من كل انسان نسخة من الانسان الآخر دون ان يشعر احد انه مجرد نسخة مكررة خرجت من مطبعة كبيرة اسمها « حضارة الغرب » . انه طفل لا يبتدع كثيراً رغم ان كل من حوله قال له « انك حتى تكون عظيماً يجب ان تفعل « كذا » . وكلما نفذ الطفل الأمر وحاز على اعجاب الاخرين . . ازداد اندماجه في الدور المرسوم له لكي يصبح حيواناً مستهلكاً لما تعطيه هذه الحضارة من اشياء . انني اشعر بداخلي بالتمرد الشديد على هذه الحضارة التي تحاول ان تجعل الأطفال كلهم متشابهين ، وتخدعهم ، وتقتل فيهم امكانات الابداع .

ولقد سألني اكثر من أب هذا السؤال :

ما رأيك ، هل يجب ان نربي الطفل على التفرد وان يجد في اعماقه متعة في مناقشة كل امر يلقى اليه . . ام نجعله انساناً مطيعاً لكل الأوامر ونصبه في قالب الطاعة ؟ .

وقد فجرت اسئلة الآبـاء في اعماقي هـذه المشكلة التي اراها تزداد من حولي . . وكنت قبل ذلك افكر في مسائل عامة اراها ايضاً خطيرة . مثل « ماذا بعد هذا التقدم الصناعي الشديد الذي نعيشه امريكا والغرب ؟ . ولماذا تكون بعض القيم العليا في المجتمع غاية في التفاهة ؟ . ولماذا تبدو كرتنا الأرضية عاجزة تماماً عن حل مشكلة « الأمية » ؟ . وهل رغبة المرأة المتزايدة في العمل ستؤثر في رعاية الأطفال ؟ . وهل جاذبية تربية الأطفال قد غادرت قلوب الأمهات ؟ .

وما ان نظرت حولي حتى وجدت ان معظم الناس قد اصبحت لها اخلاق القرود . . يقرأون اعلانات في الجرائد والسينما والتليفزيون عن عربة جديدة ، فيرهقون انفسهم بالحصول عليها . يسمعون عن علاج جديد لمشكلة ما فيبدأون في استعمال هذا العلاج دون التأكد التام من انه هو العلاج الصالح بل دون استشارة طبيب . وحتى اذا ظهر كتاب جديد فإننا قد نرى اقبالاً عليه لمجرد اننا قرأنا مقالاً مثيراً عنه دون ان نقرأ الكتاب بعد ان نبتاعه . والمرأة تقلد تسريحة شعر امرأة اخرى ، والرجل تذهله ملابس احد ابطال الأفلام فيبدأ في تقليدها . والناس الذين حولي هم في الغالب طلبة واطباء ورجال ونساء لهم اطفال . . وهؤلاء ايضاً يمثلون نخبة المجتمع المثقفة .

صحيح انه في سنوات الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي عاشتها امريكا في عام ١٩٣٠ وما بعدها . كان هناك عدد من الشباب الذي عايش اليأس ولمسه باليد . . فانتقد كل ما يراه من اساليب المجتمع لمعالجة الأمور . . وكانت هناك اعادة نظر شاملة بل ومتطرفة في السياسة والفلسفة والفن . أما بعد ذلك بسنوات فقد قل عدد المتطرفين والرافضين لتقاليد المجتمع والذين يحاولون البحث عن طريق آخر للمستقبل . وهذه مسألة تخيب امل المفكرين والفلاسفة الذين يؤمنون بأن الانسان ان لم يبدأ الاحتجاج او الابتكار في شبابه فإنه لن يفعل ذلك في المستقبل ، وسيمضي بقية العمر سجين تقاليد القواعد الاجتماعية المتبعة التي نشأ عليها . انه يدخل في دنيا الموظف المرتجف من انقاص مرتبه من اول الشهر والشره الى مزيد من المال دون جهد .

ولكن قبل ان اغرق في اليأس من الحاضر فلا بد ان اعود بذاكرتي الى أيام

دراستي في الجامعة في العشرينات . كان البطل الرياضي هو النموذج الذي نشجعه دائماً ونلتف من حوله . وفي كلية الطب كان « مساعد الجراح » هو صاحب الكلمة النهائية عند اقتراح أي شيء وعلينا ان ننفذ رأيه . انه انسان يجب ان يطاع . وكان الطلبة في الغالب يتظاهرون بأنهم لا يبذلون جهداً كبيراً في المذاكرة حتى لا يطلق عليهم احد لقب « فئران الكتب » . وكان هناك عدد قليل يهتم بالسياسة وبشؤون المجتمع العمالي وهذه القلة كان الجميع يعتبرها شاذة . وكانت المهنة التي تجد احتراماً رائعاً بين الشباب هي التجارة والسمسرة لأن كلا من المهنتين تمهد للثراء السريع ويقضي الانسان فيها حياته كما يريد غنياً متنعماً ومستمتعاً بمباهج الحياة . كان « القالب » الذي يضعنا فيه المجتمع هو ان نكون « انانيين » ، « باحثين عن المال » . . نعيش بلا نضج .

ولكن الأمر تغير الى حد كبير بعد ذلك . ان الطلاب الذين اعاشرهم واعلمهم اليوم ، أرى في عيونهم الذكاء والوعي الكامل بالمبادىء الانسانية ومع ذلك فإن الرغبة ايضاً في الامتلاك تسبق كل شيء ، لأنها القاعدة الأساسية في المجتمع الامريكي . واذا كان لا بد لنا من ان نجد متهماً في هذه الجريمة فإنه « المثل العليا » في ثقافة الغرب . إنها تضع نموذجاً للحياة يجب ان يتبعه الانسان ليحيا في راحة رغم ان هذا النموذج مزعج لأنه في معظم الأحيان يلغي انسانية الانسان . فالانسان ليس فرداً ، إنه يملك آلة عظيمة هي الدماغ ووظيفتها التفكير الابداعي . وانني افرح اشد الفرح عندما اجد انساناً يتمرد على فكرة « القطيع » ليفيد الآخرين . إنني اشعر بأنه لا بد من محاكمة هذه « المثل العليا » في المجتمع الغربي التي تشجع على الطاعة العمياء في كل امر من الأمور . وانها تدعو الانسان باسم محبة الآخرين والواقعية ، الى ان يكون مستسلماً لمثل المجتمع العليا ومنهكاً من فرط الجري وراء المال . وانا باسم « التكيف الاجتماعي » نجعل الحياة آلة نسخ للمتشابهين . ان الأب الامريكي يهتم بتربية ابنه على أساس انه يجب ان يحظى بحب الآخرين واحترامهم ونفسر نحن الامريكيين هذا التكيف الاجتماعي بأنه الطاعة الدائمة والدخول في القالب الاجتماعي . أما الأسرة الفرنسية مثلاً فهي تختلف في ذلك عن الأسرة

الامريكية ، إنها تطالب الابن بأن يضع لنفسه اهدافاً في الحياة وان يطبق المثل العليا للأسرة وهو حر بعد ذلك في اختيار الطريق . لكن لا يوجد مجتمع في حضارة الغرب كلها يسمح للانسان بأن يتمرد على « القالب » ، رغم ان الانسان بطبيعته وفي فترة الشباب يرغب في ان يتمرد على القالب وان يجد لنفسه مسلكاً آخر غير مسلك الأب او المجتمع ويمكنه ان يكون مبدعاً وعبقرياً وخلافاً اذا احيطت هذه الموهبة بالتشجيع وإذا لم يحاول احد ان يقتل فيه الموهبة . إنني لا انكر اعجابي بهذا الاستقلال النسبي الذي يتمتع به الانسان الفرنسي عندما يعبر عن رأيه في أي موضوع . . وما زلت احلم بمجتمع ينمي في الطفل الموهبة . . ويبتعد به عن القالب . . لكن هذا الحلم فيما يبدو ، ما زال بعيد التحقيق .

ان اختلاف الثقافات والتقاليد من مجتمع الى آخر في اسلوب تربية الأبناء هو الذي يمكن ان يطور المجتمع او « يجمده في قوالب » .

والآن لنبحث عن الفرق بين الانسان المصبوب في قالب وبين الانسان الذي تتفجر فيه الموهبة. وكيف يمكن ان نصنع القالب وكيف يمكن ان نحطم القالب .

إن الذي يتحكم بداية في ذلك الأمر هو علاقة التفاعل بين الأسرة وبين الطفل اثناء نموه وتطوره ، ولا أظن ان ذلك الأمر سهل . فليس من السهل طبعاً ان تعقد الأسرة اجتماعاً وتتخذ فيه قراراً بأنها اختارت لأبنها بأن يدخل « قالب » المجتمع الذي بفرضه على الابناء حتى يكونوا ناجحين ومطمئنين بعيدين عن المشاكل او تتخذ الأسرة قراراً بعكس ذلك بأن يكون الابن انساناً مستقلاً عبقرياً يتمرد على المجتمع ويطوره ويؤثر فيه وينميه ويفتح امامه آفاقاً من العلم او التطور السياسي . ليست المسألة طبعاً بهذه السهولة وإلا لكان كل أب وأم قد اتخذ هذا القرار فوراً ودون أي تأجيل .

ولننظر الى هذه المسألة بقليل من الهدوء . ليس هناك أي شك في ان الوالدين اللذين دخل كل منهما قالب المجتمع واصبح كلاهما خاضعاً من اعماقه باعجاب وتقدير ، للتقاليد والأصول والعادات المتفق عليها اجتماعياً . . هذان

الأبوان يميلان بطبيعة الحال الى تربية اطفالهم على الطاعة وعلى تقبل الدخول في قالب المجتمع بمنتهى السهولة . وبما . ان الطفل كائن مقلد ويرى في اسرته المثل الأعلى فإنه غالباً ما يكون مطيعاً وغالباً ما يقبل الدخول في « قالب » المجتمع بمنتهى التسامح والرضا . وطبعاً لا احد من الأبوين يدري انه يستطيع لو عاش في ظروف اخرى وفي مجتمع اكثر توفيراً لحاجات التربية الانسانية لربما انفجرت فيه طاقات ابداعية لا حدود لها . ان الطفل يحاول ان يكون شبيهاً لأبيه . وكذلك ايضاً نجد الأمر في الأسرة التي تعود الأب فيها على الرأي المستقل ، والتفكير قبل التدبير ، وعدم التسليم بالقواعد الاجتماعية ، واخضاع كل شيء للمناقشة وكذلك الأم . فمن المؤكد ان ابناء هذه الأسرة سيتميزون بالفردية والاستقلال والمناقشة والقدرة على ابداء الرأي . لكن هذا المعنى ما زال يحمل قدراً كبيراً من الاتساع . فليس هناك تطابق كامل في كل الأسر بين الآباء والأبناء . ان بعض الأفراد الذين يتميزون بالتطرف تكون اسرهم محافظة . . وهذا امر تأسف له الأسرة طبعاً . وهناك والدان ينغمسان في الانطلاق والتحرر وقد يفاجأ هذان الأبوان ان احد ابنائهما اصبح طفلاً تقليدياً ، بلا أي فردية ، يخضع تماماً للعرف والتقاليد الاجتماعية . وهذا يثير الدهشة والتعجب .

وهذه الأنماط طبعاً قد يكون السبب فيها الثورة او التغير الفجائي في موقف الطفل نتيجة لمناقشته لنفسه . ويمكننا ان نرى بعض العوامل التي تلعب دوراً مؤثراً بشكل واضح في بعض مراحل النمو بالنسبة للطفل .

فعندما يكون الطفل في مرحلة من العمر تتراوح بين عام وثلاثة اعوام . . يتجه الى الرغبة في اعلان استقلاله بشكل واضح يفرح له الأبوان احياناً . وهو عادة يظل يتردد في اختيار ما يأكل ويختار الوان ملابسه خصوصا في عامه الثالث . وهو يرغب ايضاً في ان يؤكد لأسرته انه قادر على ان يتحكم بعادتي تبول والتبرز ويحاول ان يتمرد على اوامر الأم ويفكر في اكثر من طريقة ليدبر بها اموره . انه يحاول ان يرتدي ملابسه بمفرده ويحاول ان يقود الأسرة الى المكان الذي يحبه عندما تقرر الأسرة الخروج للنزهة .

وعندما يصطدم عناد الطفل بعناد الأم نكتشف صراعاً بين الارادتين ،

صراعاً طويلاً قد ينهزم فيه الطفل فيصبح شخصاً سلبياً لا يفكر إلا في تنفيذ ما هو عكس اوامر الأم . . سواء كان يريد ذلك فعلاً أم لا . ونحن نشاهد ذلك في الكبار الناضجين الذين نجد على ألسنتهم كلمة « لا » ، ينطقونها بصورة آلية رداً على كل اقتراح او أي فكرة .

وعندما يكون الطفل بين عامه الثالث وعامه السادس ، يدخل الصبي في منافسة مع والده ، والفتاة تدخل في منافسة مع والدتها . وبتكرار هذه المنافسة يكتشف الصبي والبنت انها بلا جدوى ، لا لشيء إلا لأن الآباء والأمهات اكبر منهما سناً ويتمتعون بذكاء اكبر . ويتفوقون عليهما في المهارة والدقة . . لذلك فإن الطفل يشعر في اعماقه بهزيمة ملخصها « أنا لا استطيع ان اكون كبيراً . . اذن فلماذا لا أقف تحت ظل الكبير » . لكن عدداً من الأطفال لا يستطيع تقبّل الهزيمة طائعاً مختاراً . ان الواحد منهم يشعر بأنه مظلوم في هذه الهزيمة . ويدفن في اعماقه هذا الاحساس بالهزيمة . ويظل هذا الاحساس مكتوماً الى ان يأتي الوقت الذي ينفجر فيه هذا الاحساس ويثور . إنه وقت المراهقة . حين يمر الفتى أو الفتاة بمرحلة تشبه مرحلة الميلاد فعلاً . فهو يحاول ان يحدد ملامح شخصيته كرجل وهي تريد ان تحدد ملامحها كامرأة . ان الاثنين يقفان على أبواب عالم الكبار . وكلاهما يشعر بأنه سيملك درجة من النضج الجسدي لا بأس بها . كما ان الذكاء والقدرة على تدبير الأمور لم تعد بعيدة جداً كم كانت في الطفولة . ويتأكد لدى الشاب والفتاة احساس بأن الواحد منهما قارب ان يكون قادراً على ان يكون مسؤولاً عن نفسه ويتدبر شؤونه الاقتصادية دون مساعدة أحد . وباختصار ، انه قد اصبح شخصية مستقلة . كما ان الدوافع الجنسية تعلن عن قوتها . وهذا يحرك في الشاب القدرة على اعادة التنافس مع الأب بل والثورة عليه . هذا الأب الذي طال زمن سيطرته وطال زمن تحكمه في كل شيء في حياة الابن . لقد بدأ الابن يناقش بمنتهى العنف كل آراء الوالد . ويناقش بمنتهى الحدة كل المثل العليا التي يرددها الأب . بل ويناقش ايضاً مسألة الدين واسلوب الحياة في المجتمع . لكن يجب ان لا ننسى ان هناك عاملاً هاماً في هذا الصراع . إنه ليس صراعاً بين الأب والابن فقط ، ولكنه

صراع بين الابن ونفسه ايضاً . لقد قلد الأب طويلاً ، ومن ثم فإن الكثير من عاداته هي نتيجة لهذا التقليد في المرحلة السابقة من عمره . ولهذا فنحن نجد الثورة لا تهدأ في نفسية المراهق . إنه يناقش ويحتج . ويحاول ان يجعل سلطة الأب مرحلة انتهت بالفعل . ان المناقشة الحادة والاحتجاج الصاخب يضخم من اصغر الأمور ليجعلها كبيرة تشغل حيزاً من التفكير . ويكتشف الشاب بينه وبين نفسه ان التمرد ايضاً هو تمرد ضد نفسه . انه يحتاج الى ان يضع حداً للشد والجذب بين طرفين . انه يريد ان يكون نسخة متطابقة مع الأب في كل الوان السلوك والوظيفة وطريقة النظر الى الامور وطريقة اتخاذ القرار . وهناك دافع آخر مضاد ، يريد الشاب ان يكون في الناحية الأخرى المضادة للأب . إنه متمرد . لا بد ان يكون مختلفاً عن والده بأي طريقة وان يتفوق عليه وان يهزمه . وعندما نسأل هذا الشاب عن المستقبل الذي يريده وأي نوع من العمل يتمنى ؟ فإنه يفكر كثيراً . إنه يريد ان يستفيد من خبرة الأب ويريد ان يتمرد عليه في نفس الوقت ، ويدرس امكانيات المجتمع ويحاول ان يقارن بين المهن المختلفة . . قد يقول انه سيختار مهنة ابيه ولكنه يضع شروطاً لتطوير هذه المهنة سواء في الزراعة او التجارة او العلم . ويظل يتكلم عن احلامه . وقد ينفجر قائلاً إنه لا بد ان يكون انساناً أفضل من الأب في نفس مجال العمل . ويظل يقذف والده بوابل من الاسئلة والاقتراحات ويحاول ان يستغل اكبر قدر من الوقت ليكتشف اي جديد في مجال عمل ابيه لا لشيء إلا ليثبت ان والده كان متخلفاً وانه كان بطيئاً وانه كان يستطيع ان يكون افضل من ذلك .

لكن بعض الأبناء يعلنون التنافس مع الأب باسلوب آخر ، ويهربون من مهنة الأب كأنها مرض خطير يؤدي الى الدمار . والواحد منهم يقول على الفور عندما تسأله « لا ادري ماذا سأكون في المستقبل لكن من المؤكد انني لن اسير في نفس الطريق الذي سار فيه ابي . سأختار عملاً آخر . ان عمل ابي لا يعجبني» . وكثيراً ما يعود مثل هذا الابن عن قراره بألا يكون مثل ابيه ويختار نفس الطريق الذي سار فيه والده من قبل لا لشيء إلا لأنه اثناء الدراسة الجامعية خاف من المنافسة وخاف من المغامرة . . لذلك قرر ان يريح نفسه باختيار نفس مجال عمل الأب .

أما عن البنت ، فمنذ زمن قريب كانت الفتاة التي تدرس بالجامعة هدفها اللاشعوري هو مجرد التمرد على أسلوب حياة الأم . وقد نجد فتاة بين الفتيات اللائي لهن امهات ممن يحملن شهادات جامعية واحدة تمتنع عن الذهاب الى الجامعة لنفس السبب ، هو التمرد على اسلوب حياة الأم .

إن عيادة طبيب الأطفال تمتلىء بنماذج لأمهات شابات تتحمس الواحدة منهن في تطبيق اساليب التربية الحديثة ورعاية الطفل الى حد الهوس . . وعندما نبحث عن تفسير لذلك نجد ان جدة الطفل ـ والدة الأم الشابة ـ مذعورة من هذه الأساليب الحديثة في التربية . وكلما زاد ذعر الجدة ، ازدادت الأم الشابة تطرفاً في آرائها .

ولا احد يستطيع ان ينكر ان هذا التنافس بين الاجيال الذي يشتعل احياناً كحرب لا هوادة فيها ، هو المنبع الأساسي للتقدم الانساني . لذلك فلا داعي للبكاء على حظ الجيل الجديد العاثر او غير المسؤول . . الى آخر هذه القائمة من الاتهامات التي يكيلها كل جيل قديم الى كل جيل جديد . ان المقياس الأساسي الذي يمكن ان تتحدد به فاعلية كل انسان هو . . . هل يصل هذا الانسان في نهاية المطاف الى درجة من النضج تكفي لتجعله قادراً على ان ينسجم مع حقائق المجتمع الذي يعيش فيه .

ان هناك اسئلة كثيرة تدور دائماً في عقل الجيل القديم . اسئلة عن المال ، هل سيصرف الشاب ماله ضد مصلحة نفسه ام سينمي الثروة ؟ . هل سيحاول ان يقف بجنون احمق ضد التقاليد فيجلب العار ام انه سيتحدى التقاليد ليضع تقاليد افضل منها ؟ . هل سيظل الابن مجرد انسان تائه في عالم الاحلام الكاذبة التي تمتلىء بالأخطاء أم انه سينزل الى الواقع ليجعله مضيئاً بالعلم والتقدم ؟ . ولو وقع الابن في خطأ ما فهل سيستطيع ان يصحح الخطأ ام سيستمر فيه دون ان يكتشفه ؟ . هل سيظل الابن محاصراً بالعجز عن التعبير عما يضايقه ام سيحاول اكتشاف وسائل لوضع حد لهذا العجز ؟

ان الابن احياناً يحمل اقتراحاً جديداً عن طريقة ترتيب الطعام في الثلاجة

مثلاً . وقد يحمل في الغد رأياً آخر ، وقد يرفض في اليوم الثالث تناول طعام غير طازج . وقد يقول مرة ان طريقة تدريس العلوم يجب ان تطور . ولقد يعلن انضمامه الى جماعة من انصار السلام في العالم ، كل ذلك يحدث بينما قد يهمل دروسه وعلومه فهل نستسلم له ام نوجهه ؟

ولكن ما ان نبدأ في التوجيه حتى يبدأ الابن في المزايدة علينا فيقوم بواجبه كاملاً .

ولهذا فإنني ارى ان اسئلة الآباء عن طريق تربية الابناء « هل تدخل الابن في قالب ام تجعل الابن قادراً على التفرد وباحثاً عن التفرد ؟ . . الاجابة عن ذلك لا نصنعها نحن وحدنا انما يصنعها معنا الآخرون ايضاً . ولأننا يجب ان نقاوم ايضاً هذا التيار الجارف لخلق نسخ متشابهة من البشر ، يجب ان نطور حضارة الغرب بصورة تسمح لها بأن تدع ازهار العبقرية تتفتح .

ولهذا فليس لنا ان نقول كلمة حاسمة في هذا الأمر . ان الأب الذي دخل في احد « قوالب » المجتمع قد ينجب ابناً متمرداً على ذلك ومهما حاول الأب ان يجعله مصبوباً في قالب فإن الابن سيرفض وسينجح في هذا الرفض . وكذلك الأب الذي تعود على ان يرفض القوالب الاجتماعية ، فإنه قد ينجب ابناً تقليدياً يغرق في احترام الأصول والقواعد .

ان على كل اب ان يؤمن ان معظم الأبناء سيختارون الطريق الخاص بهم في تلك الناحية دون حاجة الى ان يبذل الأب جهداً خارقاً للطبيعة ولكن اذا لاحظ الآباء ان احد ابنائهم يتجه الى الشراسة ، والعنف والانحراف . . فعلينا ان نسرع الى طلب معاونة الاخصائي النفسي . . فليس معنى الخروج على القالب ان يصبح الابن مجرماً » .

وعلينا ايضاً نحن الآباء ان نعرف الحقيقة وهي انه ليس باستطاعة احد ان يخلق عامداً متعمداً ابناً مصبوباً في قالب او ابناً متميزاً . . ان ذلك يتمثل في حركة المجتمع نفسه .

لقد رأيت كثيراً من الآباء يحاولون ان يجعلوا ابناءهم يتفوقون في نفس

مجالاتهم كالزراعة ، او ميدان الموسيقى ، او الألعاب الرياضية ، فلا يقابل الابن اباه إلا بالرفض التام لهذا المجال . والسبب طبعاً هو المحاولة الحمقاء لفرض هذا المجال بالقوة على الابن .

ان الطفل ليس قطعة من الطين في يد نحات ، إنه كائن حي ، يعيش آلاف التجارب ويمر بمختلف الظروف . وعملية محاولة اكراه الابن على انتهاج طريق معين يفشل فيه الابن ويصاب من جرائه الأب بالارهاق العصبي .

ان كل ما نستطيع ان نحيط به ابناءنا هو الأمن والاطمئنان وترك الحرية لهم للاختيار . صحيح انه يمكننا ان نحدد اطارات معينة ومعقولة لسلوك الابناء مثل الأب والاحساس بالمسؤولية ونحن قادرون على ذلك عندما نكون نحن قدوة لهم على هذا الطريق ، لكن لن ينجح احد في اكراه الابن على ان يكون مثلما يريد الأب . . إلا اذا اراد الابن ذلك . والجدير بالذكر ان معظم الآباء والأمهات لا يجدون الوقت الكافي لاكراه الأبناء على ان يكونوا مجرد نسخ منهم او نسخ من احلامهم . كما ان الآباء والأمهات يتمتعون غالباً بطاقة من الحب والتفاني تسمح للابن ان يختار طريقه .

اكتساب الطفل للعلم والمعرفة مهمة لا تنتهي

انك تحلم بأن يكون ابنك ماهراً ، هذا من حقك .

ولكن من حق الطفل عليك ان تجعل رحلة المهارة مشوقة ولذيذة ، بحيث يقبل الطفل عليها باستمرار ، ويتدرب عليها عدة شهور .

ثم اخيراً تستطيع ان تهنىء نفسك بأن ابنك قد اصبح ماهراً في كافة المجالات التي تُفسحها له مراحل العمر .

عندما نبدأ في تعليم الطفل أي شيء جديد فعلينا ان نعرف ان ذلك ليس امراً سهلاً او بسيطاً بالنسبة للطفل . ان هذه هي الحقيقة الواضحة التي يجب علينا نحن الآباء ان نضعهـا في رؤوسنا ونحن نفكـر في تعليم الابن أي شيء جديد . ان بعضنا يتعجل كل شيء ، ويظن ان الطفل مثله تماماً يمكنه اتقان كل ما يريده الأب او تريده الأم في أقصر وقت ممكن .

لا . .

ان المسألة تشبـه المعارك العسكـرية والحـرب الشاملة التي تستمـر عدة شهور . وحتى لا نستاء نحن الآباء فإن علينا ان نعرف ان تعليم الطفل أي عادة جديدة يمر بثلاث مراحل واضحة جداً .

ولنبدأ بأمثلة من الخطوات الأولى للطفولة عندما نبدأ في تعليم الطفل مثلاً عادة « الجلوس » وسيتضح لنا ان العملية معقدة وتزداد تعقيداً مع تقدم العمر . ولكن المراحل الثلاث تظل دائماً واضحة . ان الطفل عادة يتعلم ان يقف على قدميه وهو في الشهر السادس او السابع من العمر . وطبعاً نحن الكبار نساعده على ذلك في البداية ، نقدم له ايدينا ليمسك بها . نعلمه كيف يسند نفسه الى شيء ، كرسي مثلاً ، حائط ، حاجز السرير ، وهكذا . . وهو يحاول كل مرة ان يقف بمفرده . انه يدفع نفسـه الى أعلى بعد ان يتسلق بيديه أي شيء يساعده على الوقوف . إنه « يزحف » بيديه اولاً . ولكنه لا يثق بنفسـه تماماً ، لذلك نجده قد يعود الى وضع الجلوس مرة اخرى ، ويحاول ان يتعود على وضع الجلوس . يحاول ان يتمكن منه جيداً . إنه يشعر بأنه لا بد ان يتقن وضع الجلوس اولاً حتى يتمكن

من القيام والوقوف . وفي كل مرة يكون الطفل نائماً على ظهره في الشهر الثالث او الرابع يفرح جداً عندما تساعده الأم على الجلوس . ويكفي ان تقدم الأم لطفلها يديها حتى يبدأ هو في محاولة شد نفسه الى اعلى . إنه يشد رقبته وكتفيه ويرفع ذراعيه ويحمر وجهه من كثرة الجهد الذي يبذله . يفعل الطفل كل ذلك حتى يساعد نفسه على الجلوس . ولنا ان نتعجب من القدرة التي وضعها الخالق العظيم في هذا الطفل الذي يعرف انه قد آن الأوان ليتعلم شيئاً جديداً ويحاول ان يبذل الجهد . . ويحاول اكثر . . كأنه يعلم تماماً ان عليه واجباً لا بد ان يقوم به . ولعل ذلك يعود على ما أظن الى دافع فطري في الطفل . كأنه « يعلم » انه من صنف المخلوقات التي يتحتم عليها ان تعرف القيام والجلوس . . مثلما ينهض المهر الصغير المولود واقفاً على قوائمه الأربع ، لأنه يملك الدوافع الفطرية للحصان . وقد يكون الطفل في هذه السن المبكرة متأثراً بما شاهده من سلوك والديه ويرغب قطعاً في ان يتشبه بهما. أما في حالة الأطفال المعوقين امثال أولئك ممن فقدوا البصر . . فلا بد من تشجيعهم ومساعدتهم حتى يتعلموا الوقوف والجلوس والمشي ، لأنهم يعانون من الحرمان الأساسي الذي يجعلهم يتنبهون الى أنهم يستطيعون القيام بمثل هذه الأفعال . إنهم لا يعرفون ان هناك وقوفاً او جلوساً او سيراً لأنهم لا يرون ذلك . لهذا يجب مساعدتهم .

ونحن نشعر بالسعادة والضحك عندما يأتي اليوم الذي يستطيع الطفل فيه ان يجلس منتصب القامة لمدة ثوان قبل ان يقع مرة اخرى على سريره . ثم يحاول مرة اخرى ان يشد نفسه كي يجلس او يقف . . حتى ولو كان ذلك مؤلماً له . ومنذ اللحظة التي يحاول فيها الطفل الجلوس ويستطيع السيطرة التامة على طريقة جلوسه فإنه يبدأ في معاندة الأم عندما تريده ان يرقد ليرضع زجاجة اللبن . . او لتغير له ملابسه المبتلة . انه يفضل ان يظل جالساً وليست المسألة انه يفضل الجلوس فقط ولكن رأيه في الجلوس يعتبر مهماً. انه اول قرار جاد يتخذه في حياته . انه يعتبر عملية اجباره على الرقود سواء للرضاعة او لتغيير الملابس المبتلة اهانة كبيرة له ولكرامته واعتداء على حريته . ويظل يطلق الصرخات الى ان يتلهّى بلعبة ما . وكلما زادت المرات التي تجبره امه فيها على الرقود لتغيير الملابس او لتناول

الطعام فإنه يعارض بعناد فكرة ان الرقود شيء في مصلحته . إنه اجراء ضده وضد كرامته . وتمضي الأيام وهو سعيد بقدرته على الجلوس . إنه وضع عملي للغاية خصوصاً عندما يريد ان يفعل أي شيء .

وهكذا نجد ان الطفل ينهي المرحلة الأولى من مراحل تعلم أي شيء . انها مرحلة المحاولة . المحاولة فقط . لا يهم ان يكون قد نجح في المحاولة أم فشل .

ثم تأتي المرحلة الثانية وهي التمكن التام من اتقان ما اراد ان يتعلمه . وهو عندما يبلغ هذا الهدف . . فإنه يفضل ان يتباهى به وان يحافظ عليه وان يعتبر أي شيء ضد ذلك اهانة له .

ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي القدرة على الافادة من المهارات التي تعلمها وتوظيفها في مصلحته .

ونستطيع ان نتبيّن هذه المراحل الثلاث بمنتهى الوضوح عندما يحاول الطفل تعلم مهارة الوقوف . ولا يمكن ان نمنع انفسنا من الاعجاب والاشفاق في وقت واحد لمحاولات الطفل لتعلم الوقوف . ان هناك اسابيع تمر قبل ان يستطيع الطفل اتقان مهارة الوقوف على قدميه . هذه الأسابيع هي محاولة من الطفل للتعرف على المشكلة التي تواجهه. واحساسه يدله على ان الوقت حان ليتعلم مهارة جديدة . إنه يرفع يديه الى اعلى . انه يمسك بيده حافة السرير او جدار الحجرة التي يجلس فيها ، ثم يحاول ان يمد ساقيه بصورة تجعله في وضع استعداد للوقوف. يشعر الطفل ان ساقيه ليستا من القوة بحيث تساعدانه على انجاز هذه المهارة الجديدة التي يريد ان يتعلمها . يكتشف الطفل ايضاً ان ذراعيه ليستا قويتين بحيث يقويان على تحقيق الهدف الذي يريده، وهو الاستعانة بهما للتمسك بشيء يساعده على الوقوف. ومع ذلك لا يتطرق اليأس الى قلب الطفل . إنه واثق من ان هناك لحظة نجاح سوف تأتي في حياته . وبالفعل تأتي لحظة النجاح . إنه يستطيع ان يتسلق بمفرده حافة السرير او جدار الحجرة او يد الكرسي . لكن فرحة النجاح لا تستمر طويلاً . هناك بعدها لحظات من الضيق والتوتر تمر به وبوالدته . فبعد ان يتعلم الطفل كيف « يشب » بمفرده وكيف يسند

جسمه الى أي شيء وكيف يسرع الوقت وتمر اللحظات . . يشعر الطفل بالتعب . ويحس ان قوته لا تساعده على الاستمرار في الوقوف وهو لا يعرف كيف يمكن ان يجلس . ويعلن الفشل بالبكاء والصراخ . إنه ينادي بالصرخات أي انسان يمكن ان ينقذه من وضع الوقوف المرهق . وعندما تأتي أمه مشفقة عليه وتساعده على الجلوس فإنه يفرح لمدة ثانية واحدة ثم يبدأ في التمرد على وضع الراحة « الفاشل » الذي وصل اليه . إنه ارتاح عندما وصل الى الجلوس لكن هذه الراحة كانت نتيجة مساعدة احد ما . إنه ينفجر غضباً ويحاول ان ينسى التعب والارهاق اللذين مرّا به ويقف على قدميه مرة اخرى . إنه يتعلق بأي جدار بيديه . وفي المرة الثانية لهذه المحاولة يشعر بالضعف والانهاك في مدة بسيطة لا تتجاوز عشر دقائق . ثم يصرخ مرة اخرى طالباً النجدة. فتأتي امه مرة اخرى لتجلسه . ثم ينسى تعبه فيبدأ ثانية في تسلق جدار أي شيء حوله ليقف . . وهكذا تستمر اللعبة ليكتسب بها المهارة . إنه يعرف انه حسن الحظ . انه يعرف انه تعلم مهارة الجلوس في مدة لا تزيد على ايام معدودة وهو عندما يستسلم لليأس ويصرخ من متاعب الوقوف ، ينادي المنقذ ، أي منقذ بالمنزل ليعود به الى الوضع المريح الذي اتقنه وهو الجلوس . ان الجلوس لا يرهقه ، ان ساقيه قصيرتان يمدهما الى الأمام . ومؤخرته لينة الى حد ما . انه يستريح في وضع الجلوس .

ولا يتعب الطفل فقط من محاولة اكتساب مهارة الوقوف . انما يرهق ايضاً والدته واباه . ان « الخضة » و« الانزعاج » والخوف على الطفل يدغدغ كل مرة خيال الكبار . واخيراً يتقن الطفل حالتي الجلوس والوقوف .

وتأتي بعد ذلك مرحلة اخرى من الرغبة في الحصول على المهارات . انه يرغب في ان يتعلم المشي . ويبدأ الطفل في رحلة الاستعداد . انه يصبح كسفينة تحاول ان تنزل الى المحيط . إنه يدور حول السرير زحفاً ويدور في انحاء الحجرة التي يجلس بها . ويمد يده من حين لآخر ليمسك بها أي شيء . انه قد يسحب احدى لعبه ، وقد يسحب أي شيء آخر . ويقف . ويسند نفسه على كرسي او حائط . ويتدرج في الخطوة الأولى . وتبدأ الخطوة الثانية . ويفوز بالتشجيع . ويشعر بالسعادة . يعود الى التعب . . يحاول ان يجلس . يتمرد على نفسه .

ويقف مرة اخرى. يستعين طبعاً بأي جدار ويكرر المحاولة . ويرقب العيون التي تحيطه بالحب ، وهو يمشي مستنداً الى شيء ، حتى يتعلم المشي دون ان يسنده احد . وعندما يصل الى تلك المرحلة فإنه يشعر ان المشي اصبح مهمة اجبارية . اصبح لا يستطيع ان يعتمد على احد الكبارليحمله ،ويظل في حالة ضيق لبعض الوقت ولكن المشي في حد ذاته يصبح متعة للطفل . إنه يبدأ في التجول في جميع الاتجاهات . ويبدأ في تعلم صعود درجات السلم وسحب اي شيء من مكانه ومحاولة اكتشاف كل ما تسحبه يده. وهو لا يحدد عادة أي هدف لحركته. إنه فقط لا يكف عن الحركة. وبعد ذلك بشهور ينتقل من المشي الى الجري اللذين يكتشف انه بهما يستطيع ان يصل الى أي مكان. . وهو ايضاً يستطيع ان يستريح كلما تعب . لقد تعلم قديماً كيف يجلس . واذا اردنا وصف المرحلتين الأولى والثانية، وهما مرحلتا التجربة وحسب، ثم اتقان المهمة، فإننا نجد ان الطفل فيهما « مضطر » و« مجبر » لأنه يحاول ان يكون كبيراً. والطريق الى تقليد الكبار يرهقه وليس هناك مفر من ذلك . ثم يصل في المرحلة الثالثة من مراحل التعلم الى مرحلة التكامل ومعرفة الهدف من تعلم هذه المهارات سواء كانت الجلوس او المشي او الجري . إنه يفهم تماماً كيف يربط مهارة باخرى وكيف يمكن ان يستعمل هذه المهارات عند الحاجة . وينبهنا د. ميرتك ماك جرو العالم النفسي المتخصص في دراسة نمو الأطفال الى ذلك فيقول ان الطفل يحاول في البداية ان يقلد . ثم يكتشف قدرته على الاتقان ثم بعد ذلك يستطيع ان يعرف التوقيت الذي يمكنه ان يستخدم فيه هذه المهارة . والدكتور ايفني هندريك ـ لاحظ ان هذه العوامل الجبرية التي تدفع الطفل الى تقليد الكبار واتقان المهارات للوصول الى النضج تظهر ايضاً بوضوح في بعض الوان نشاط المراهقين . مثل رغبة المراهق دائماً في ان يفوز وان يتقن ما يعمل وان يحاول ان يسيطر على كل ما حوله . . هذه الدوافع الحيوية هي التي تدفع الطفل الى الاستمرار في التدريب ، والتمرين حتى يواصل النمو .

ويمكن طبعاً ملاحظة هذه الدوافع خلال مراحل الطفولة . فالطفل خلال عامه الثاني ، يظل يهز بدالة الدراجة ذات الثلاث عجلات قبل ان يحرك البدالة

ليدفع العجلة الى الامام . وعندما يجلس الطفل على العجلة بعد ذلك فإنه يتلذذ بهز البدالة قبل ان يتحرك بالدراجة . ان ذلك يمنحه متعة السيطرة على الآلة . وهي متعة كبيرة يعتبرها بحد ذاتها هدفاً . ان الدراجة في حياة الطفل ليس الهدف منها ان يصل الطفل بها الى مكان ما بقدر ما يكون الهدف هو اكتساب قدرة السيطرة على آلة ما .

ومن أهم ما يحاول الطفل ان يتدرب عليه منذ عامه الثالث حتى عامه السادس دور الأب ، وايضاً تحاول الفتاة ان تتدرب على دور الأم . ان طفلي الصغير يدخل حجرتي كثيراً ليراني اقرأ أو أكتب . ويقول لي بكلمات بسيطة « أريد ان اكبر وان تعطيني الاقلام والاوراق » . وتتدرج عباراته الى ان يقول « اعطني مكتبك » . اعطني « حقيبتك » « هل لي الحق في ان آخذ مكتبتك وكتبك » . « هل يمكن ان تسمح لي بأن استعمل ادوات الكشف الطبي على المرضى» وعندما يسمع مني الموافقة على كل ما طلب تغمره الفرحة. وكل منا يستطيع ان يلاحظ هذه الفرحة الغامرة في طفله وهو يحاول ان يتدرب على وظيفة الأب . وتظهر هذه المسألة بوضوح ايضاً في البنات . . ان البنت عندما تصر على ان تشتري دمية وان تعتني بها انما تصر على التدريب على دور الأم . . ان البنت تضع الدمية في الفراش وتخاف عليها من نزلات البرد فتغطيها بالبطانية وبعد ذلك تنقلها من السرير لتقوم بمحاولة ارضاعها ، ثم تغير ملابسها ،ثم تحاول ان تضعها في الحمام ثم توجه الطلبات الى الأم لتشتري المزيد من الملابس للدمية وهكذا . وعندما تبلغ الفتاة عامها الرابع او الخامس نستمع الى حوار ممتع بين الطفلة والدمية ، انه نفس الكلمات من خلال نبرات الحنان التي تملأ صوت الأم عندما ترعى الطفل الوليد . وتستمر هذه اللعبة مع الطفلة حوالى ثلاث سنوات . ان الطفلة تتجه دائماً نحو اتقان فن الأمومة .

وبعد العام السادس ينتقل الطفل من مرحلة التدريب على وظيفة الأب وتنتقل الطفلة من مرحلة التدريب على دور الأم . والانتقال يكون الى مجال آخر بعد ان تم للطفل وللطفلة اتقان دور الأبوة والأمومة . وهذا الدور هو ليوم سيأتي فيما بعد . إننا لو قمنا بتسجيل حوار طفلة مع دميتها على شريط تسجيل ، ثم

قارنا هذا التسجيل بحوارها هي مع طفلها او طفلتها عندما تصبح اما ، سنندهش كثيراً عندما نجدها تستعمل نفس كلمات الحب ونفس نفحات الحنان ونفس الأوامر التي كانت تصدرها لدميتها ، ونفس العيوب التي كانت تراها في دميتها . ان الطفلة تسترجع بذاكرتها ما تريد في الكبر من مهارات في فن رعاية الأبناء . والشاب ايضاً يفعل نفس ما تفعله الفتاة انه يوجه نفس العبارات التي كان يوجهها له أبوه .

وتأتي بعد ذلك مرحلة تمتد من العام السابع الى العام التاسع من عمر الطفل . هذه المرحلة لها عندي محبة خاصة . ففي هذه المرحلة يبدأ الأطفال في التفكير في تكوين جمعيات سرية . ان الطفل يبحث عن جماعة من الأطفال تكون لديهم نفس الفكرة ويعقد الأطفال عدة اجتماعات لمحاولة ايجاد مكان يمكن ان يكون مناسباً لعقد اجتماعات هذه الجمعية . ويحاولون ان يضعوا تصميماً لشارة خاصة بجمعيتهم وينتخبون مجلس ادارة الجمعية . ويناقشون قبول او رفض بعض الأولاد كأعضاء في الجمعية . وعندما نسأل انفسنا سؤالاً :

- هل لهذا الجهد المبذول أي هدف واقعي ؟

من الصعب طبعاً ان نجد هدفاً واقعياً لذلك الجهد . فعندما ندقق في الأمر نجد ان الهدف ليس هو اقامة صداقات جديدة . ذلك ان كل اعضاء هذه الجمعية تقريباً يعرف بعضهم بعضاً . وطبعاً ليس هناك سرّ خطير يجتمع حوله هؤلاء الأولاد ، لأنه لو كان هناك سر فإن كلا منهم سيبذل جهداً كبيراً لكتمانه ثم لا يطيق الكتمان فيبوح به . وهم ايضاً يحاولون في اغلب الأحيان ان يكون لهم سر جديد . وانا اظن ان الهدف من وراء ذلك النشاط هو الدافع الحيوي للتطور والنمو . إنهم يحاولون التدرب على ممارسة ألوان التنظيمات الاجتماعية . يفعلون ذلك طبعاً دون ان يدري احدهم ان ذلك هو تدريب لما هو قادم في المستقبل . ففي اعماق كل واحد منهم احساس بأن هناك زمنا قادماً سيكون على الواحد منهم كانسان ناضج ان يشترك في جمعية او حزب يهدف الى اصلاح المجتمع او تغييره وان يرسي اسساً عادلة للشرف . وقد تكون لهذه الجمعيات في الكبر هدف اجتماعي محدد ، كمكافحة جرائم الأحداث مثلاً او حماية فئة

اجتماعية من الاستغلال او توفير الرعاية الكاملة لبعض الفئات الاجتماعية المغلوبة على امرها . او قد يكون هدفها زلزلة المجتمع كله من أساسه لتغيير معتقداته .

ان الاطفال الذين يكونون مثل هذا النوع من الجمعيات الصغيرة اثناء مرحلة من العمر تبدأ في السابعة وتمتد حتى التاسعة ، هؤلاء يدفعهم حب الحياة والتطور الى تكوين هذه الجمعيات . وهم يحاولون دائماً اختيار مكان لا يزعجهم فيه الآباء او المدرسون. ويحاولون ان يضعوا قائمة بشروط يجب ان تتوافر في كل عضو منهم . ويحاولون ان يوجهوا اللوم او العقاب لمن يرفض ان ينتخبهم في قيادة هذه الجمعيات وذلك حتى يثبتوا لأنفسهم وللآخرين انهم يستطيعون القيام بتنظيم انفسهم وادارة شؤونهم وانتخاب من يمثلهم بنفس الكفاءة التي يفعل بها الكبار تلك الأمور . وطبعاً ينتهي هذا اللون من النشاط بعد اكتشافه وإتقانه . لقد ادى دوره في تعريف الطفل بخبرة جديدة . وتذوب فكرة الجمعية وتنتهي فور ان تفقد المسألة حرارة اشتعالها في البداية . تخفت الفكرة لمدة شهر او شهرين ، ثم تشتعل مرة اخرى لتكوين جمعية جديدة ورفاق جدد ومحاولة لفرض السرية على كل نشاط يقوم به اعضاء الجمعية .

وهناك من يبدأ في المراهقة المبكرة اقتحام عالم الحب الرومانسي . انه يقع بالحب شفهياً . انه يقضي وقتاً طويلاً يضيع في الخجل والخوف وعدم القدرة على اعلان المشاعر . ثم يبدأ في تبادل هذه الأسرار العاطفية مع صديق له ثم يدور احوار عن كيفية اقامة حديث مع احد افراد الجنس الآخر . وكيف يمكن ان يحصل الانسان على اللقاء وكيف يمكن ان يتصرف لو حدث هذا اللقاء العاطفي .

وكل منا عاش بخياله آلاف الحكايات العاطفية وحاول ان يحصل على اكثر من وسيلة ليكون جذاباً وفارساً وناجحاً في ميدان الحب . ومن منا لم تسرقه احلام اليقظة لتلقي به في عالم عاطفي لذيذ . ان بعض الكبار يتذكر الآن تلك الحيرة التي كان يغرق فيها عندما كان يفكر في مثل هذه الأمور،وبعضنا كانت تقوده

أحلام اليقظة الى لذة وانشراح بلا حدود . انا شخصياً كان خيالي يصور لي عندما كنت في الرابعة عشرة ان هناك كارثة خطيرة وهمية طبعاً حدثت لاحدى الفتيات الجميلات . فتاة رأيتها مرة واحدة . وافكر في طريقة للوصول اليها واكتشف في خيالي ايضا ان هناك سيارة سباق مات صاحبها في حادثة واوصى لي بملكيتها وأقود هذه السيارة الوهمية لأنقذ حبيبتي . لكني كنت افيق دائماً على حقيقة واضحة وهي انني اجهل قيادة السيارات .

ويتقدم العمر وتذوب الحواجز التي كان يصنعها الخجل او الخيال . ويحظى الانسان بموعد حقيقي مع طرف من الجنس الآخر . ويرتجف القلب برعشات تبدو في الكبر كنسمات رقيقة باسمة . لا تؤدي هذه الارتجافات الى الوقوع في الحب بالمعنى الناضج الذي يعرفه الكبار . . انما هي عادة بداية لعدة سنوات من التدرب على معاملة الجنس الآخر . وطبعاً فإن العلاقات العاطفية في هذه الفترة من العمر تتعرض للشروخ الكثيرة ثم تذوب وتتكرر وتذوب وهكذا . وحتى عندما تكون العلاقة قوية جداً ، فإنها تختلف عن العلاقة التي يمكن ان تقوم بين اثنين يتفقان فعلاً وعملاً على بناء الحياة . . لأن الولد والبنت كل منهما يكون في هذه المرحلة غارقاً لأذنيه في محاولة دائمة لاكتشاف اعماقه ويخاف ان يجرح الآخرون كرامته كما ان الاختيار عادة يكون غير واقعي . الولد قد يختار حبيبة تكبره في السن والفتاة قد تختار حبيباً عنده جيش من الأطفال . ويتضح ذلك احياناً من ملاحظة الكلمة التي تجري على ألسنة المراهقين والمراهقات بأن الواحدة منهن او الواحد منهم يحب الوقوع في الحب من اجل الحب فقط . انه يحب « احساس الحب » نفسه . ومن هذه الملاحظة يمكن ان نقول ان هذه الممارسات العاطفية التي يجد الشاب نفسه فيها او تجد الفتاة نفسها فيها . . إنما هي نتيجة الدوافع الحيوية التي تدفع الانسان الى الانغماس في خبرات تكمل نضجه .

إننا في بعض الأحيان نفاجأ بشكوى من احد المراهقين إذ يكتشف أن له أكثر من علاقة عاطفية في وقت واحد. ان الواحد من هؤلاء يكون أحياناً غارقاً في الاقتناع بأنه يحب انسانة محددة او هي تحب انساناً محدداً . ورغم ذلك

فإنه يندفع الى الرغبة في التبادل العاطفي مع شخص آخر . ان ذلك نوع من الرغبة في التأكد من انه انسان محبوب . وكل ذلك هو مجرد تجارب . وعندما يشكو لي احد المراهقين من ذلك فإنني لا اتهمه بالشذوذ انما اقول له « ان ذلك احساس طبيعي يمر به الانسان الذي في مثل عمرك » .

وعجيبة هي احلام اليقظة . انها تنقذ هؤلاء الغارقين في الخجل والانطواء الهاربين من المحاولة للبحث عن « حب » . ان الخيال يكمل لهم مغامرات عاطفية خلابة . وتمضي هذه الأحلام الى آخر مدى . إنها تعلم الانسان كيف يكون عاشقاً ومضحياً . ثم تصبح بعد ذلك مجرد ذكريات ويتجه الانسان الى الواقع .

ان الطفل الذي ينشأ على أساس اخلاقي طيب ، يملك اساساً قدرة طبيعية على كبح جماح الرغبة في التعدد لأنه احياناً يكون فاقداً للثقة في نفسه وفي قدرته على ان يقيم علاقات من الصداقة المخلصة مع الجنس الآخر . وقد يفقد ايضاً القدرة على ممارسة هذه التجارب العاطفية .

وقصارى الحديث :

ان الدوافع الحيوية التي تملأ الانسان بالحركة والاندفاع والتطلع نحو المستقبل الناضج ، هي التي تقود الانسان منذ الميلاد الى النضج ، في سلسلة متتابعة من التجارب . وفي كل مرحلة من مراحل العمر هناك مهارات يكتسبها الانسان ويملك الاستعداد لها ويخوض تجاربها ويتدرب عليها ويتقن ما يتدرب عليه . ان هذه الدوافع الحيوية قد تكون غير واضحة للآباء والأمهات لذلك تسبب لهم ارهاقاً في الأعصاب . . ولكن يجب ان يتذكر الآباء ان الطفل يدرب نفسه على النضج . ولهذا يجب على الآباء ان يخففوا من حيرتهم ويحاولوا اكتساب صداقة الابن للمشاركة بوعي ، في رحلة بناء الأبناء للمستقبل .

وعلينا ان نعرف ان الأم او الأب يحلم دائماً بأن يكون الابن رباناً رائعاً لسفينة الحياة . وهذا من حقنا . ولكن من حق الطفل علينا ايضاً ان نجعل رحلة

المهارة مشوقة ولذيذة وغير مزعجة بحيث يقبل الطفل على اكتساب المهارات التي تدفعه اليها القوى الحيوية المتدفقة خلال مراحل نموه . ونستطيع اخيراً ان نهنيء أنفسنا بأن الأبناء قد اصبحوا ماهرين في كافة المجالات التي تفرضها عليهم مراحل العمر المختلفة

هل يجب ان يصدق الأطفال اسطورة « بابا نويل »

ان معظم الأطفال الصغار تعتقد انه موجود والاختلاف الوحيد هو الطريقة التي يقدم بها الآباء بابا نويل الى اطفالهم .

احدى الأمهات كتبت لي قائلة انها تتمنى ان تعرف حقيقة رأيي في تلك المسألة! مسألة بابا نويل الذي يظهر كبطل لاسطورة تتكرر في الشهر الأخير من كل عام . ويظهر في احاديث الأطفال والكبار واعلانات الصحف والتليفزيون والسينما . ان بابا نويل ذلك الرجل العجوز الذي له لحية في لون الثلج وابتسامة طفل ويحمل كيس هدايا ويرتدي ملابس حمراء ويمضي في ليلة عيد الميلاد متنقلاً من مكان إلى آخر موزعاً الهدايا على الأطفال . إن الأم صاحبة الرسالة تقول ان مجرد رواية هذه الاسطورة للاطفال انما هو دليل استهانة بذكاء الأطفال . لأن ذكاء الطفل سيكتشف ان تلك الاسطورة مجرد زيف وان « الكبار » يروون اشياء كاذبة . ان الطفل الذكي لن يقبل بسهولة تلك الفكرة التي يظهر من خلالها بابا نويل عندما يتسلل الى فراش كل طفل ليلة عيد الميلاد ليضع الهدايا ، حتى لو صدق الطفل هذه الاسطورة فمن المؤكد انه سيكبر وسيكتشف عدم وجود بابا نويل في الواقع وقد يصدم وقد تسبب له هذه الصدمة احساسا بأن الآباء والأمهات يفتقدون شجاعة الامانة .

كان هذا هو ملخص رسالة السيدة التي تسألني عن رأيي عن بابا نويل .

والحقيقة انني لا احب ان ازعج الآباء والأمهات بالوصايا والنصائح خصوصاً فيما يتعلق بعاداتهم وتقاليدهم التي لا تضر الطفل ان ينشأ عليها . والأسرة التي عندها طفل قد بلغ الثالثة من العمر مثلاً ويحتفل كما يحتفل سائر الأطفال بعيد ليلة الميلاد هذا الطفل لا يقبل ببساطة ان يقول له احد « بابا نويل غير موجود » . لن توجد شجرة عيد الميلاد . لن توجد هدايا . « ان الطفل لا

يقبل ذلك اذا كان قد تعود مع اسرته على الاحتفال بليلة عيد الميلاد (السنوية) . ان كل اسرة لها طقوس وعادات تكاد تصل الى مرتبة التقديس . . وتمارس الأسرة هذه العادات في مختلف البلاد . ان شجرة عيد الميلاد وتلاوة الشعائر الدينية وتجهيز الهدايا وتزيين شجرة عيد الميلاد واعداد الوان الأطعمة المختلفة والاستعداد لزيارة الأقارب وارسال بطاقات المعايدة الملونة ، كل ذلك يكاد يكون طبيعياً في معظم الأسر التي تعيش في بلاد تحتفل بعيد رأس السنة . وطبعاً لا احد من هذه الأسرة يمكنه ان يسمح لقريب ان يقول رأياً يؤثر به في عادات الاحتفال بليلة رأس السنة . ولكن ما دام هناك من سألني ان اقول رأياً . فسأتناول المسألة بشكل عام وليناقش بعد التفاصيل ، في احدى السنوات عندما كان اطفالي صغاراً ، اجتمعنا انا والأبناء لنصنع ديكوراً لاطار المدفأة الموجودة في منزلنا . فمن العادة ان نضع ما يزين سطح المدفأة وما حولها . وكنا نريد ان نرسم مشهداً من مشاهد بلاد الاسكيمو كعادتنا في تلك الأيام . واحضرت ثماني بطاقات من تلك البطاقات التي يمثل كل منها لوحة صغيرة مصنوعة من الورق المقوى وملصوق عليها نوع من النحت البارز المصنوع من البلاستيك ، هذا النحت يمثل العربات التي تجرها حيوانات الرنة ، تلك العربات التي تشتهر بها بلاد الاسكيمو ويستعملها الأهالي هناك وتنزلق على الجليد . وبمرور السنوات تهشمت ارجل تلك الحيوانات وتجعدت العربات لأنها مصنوعة من البلاستيك وانقلب ذلك عند اطفالي الى نوع من السخط والضيق . فسألتهم ان نفكر جميعاً في ان نفعل شيئاً مشتركاً واستطعنا ان نعيد اصلاح العربات المجعدة وارجل الحيوانات المهشمة واعدنا الصورة الى ما كانت عليه من بهجة بواسطة نتف القطن التي تشبه الثلج وكان هذا اسلوباً أفرح الأطفال ، ذلك اننا لم نكن نستطيع العثور على بديل لتلك اللوحات الصغيرة . وفي احدى السنوات اشترينا أغصاناً طويلة لشجرة عيد الميلاد بدلاً من شجرة الصنوبر التقليدية التي نشتريها كل عام . وجمال تلك الفروع حاز اعجاب كل من زارنا وأدهشهم لكن الأبناء لم يستطيعوا ان يتخذوا نفس الموقف المعجب بهذه الطريقة للاحتفال بليلة عيد الميلاد .

على أية حال هناك بعض الأزواج الجدد الذين ما زالوا على اعتاب الحياة ويريدون مناقشة مسألة وطريقة الاحتفال بليلة عيد الميلاد (التقليديـة ، قبل ان يبلوروا اسلوبهم الخاص في الاحتفال طبعاً ان اسلوب مثل هذه الأسر الجديدة في الاحتفال يحتاج الى اتفاق ذلك ان اسلوب تربية الزوج وطريقة احتفال عائلته بعيد الميلاد موضوع البحث يختلف بشكل او بآخر عن اسلوب عائلة زوجته . وبالطبع هناك بعض الأساليب المرنة لذلك الاحتفال ويمكن بطبيعة الحال ان يتم الاتفاق بين الزوجين على الأسلوب الذي تحتفل به الأسرة الجديـدة بما يسعـد الأطفال . ان كل انسان في اوروبا وامريكا يعتقد ان « بابـا نويـل » شخصية تقليدية وأساسية للاحتفال بعيد الميلاد أينما كان ، ووظيفته تختلف بطبيعة الحال من اسرة الى اخرى وايضاً تختلف شخصيته . فإحدى الأسر تجد ان اطفالها يقفون امام الواجهات المزينة والموجود داخلها بابا نويل ويتحدث الأطفال معه . وهناك بعض الأطفال يحتارون تماماً في مسألة بابا نويل . ان آباءهم يتحدثون عنه ككائن سيء السمعة بينما اصدقاؤهم من الأطفال يفرحون بمرأى « بابا نويل » ويقولون عنه انه طيب ويحمل الهدايا لكل طفل . وهناك اسر تتفق على ان يقوم احد افرادها بدور بابا نويل فيغير سحنته ويضع على وجهه لحية كثيفة بيضاء . ويحمل هذا القريب الهدايا الى كل طفل في الأسرة . وهكذا يفرح الأطفال بهذه التمثيلية . وبعض الأسر تجد ان بابا نويل لا يمثل اكثر من رمز معنوي عابر يظهر في غمضة عين ليضع الهدية ويختفي ولا يراه اطفال هذه الأسر إلا في الاعلانات .

وبعض الآباء يستخدمون « بابا نويل » كسلاح لتأديب الأبناء ، وكأسلوب ينضبط به الأبناء . ان بعض الآباء « يلوحون » بأن « بابا نويـل » قد يغضب عندما يتصرف احدهم تصرفاً غير مهذب ومعنى ذلك ان « بابا نويل » قد يتردد في ان يحمل الهدايا الى الاطفال عندما يتصرفون بطريقة خاطئة . وهكـذا يتحول « بابا نويل » الى قاضٍ ويتمنون ان يكون لدى هذا القاضي بعض الشفقة فيفهم لماذا تصرف الطفل بطريقة لا يرضى عنها الكبار . ان الطفل عادة في مثل هذه الأسر يصدق الصورة التي يكونها الآباء عن « بابا نويل » من حيث انـه صارم وحازم . ان الطفل عادة يصدق أباه وأمه ويأخذ كلماتهم على أساس انها صادقة مائة في المائة .

إن كلمة الآباء تؤخذ عند الطفل انها نهائية وتحوي كل الحقيقة . ولذلك فلهجة الآباء في الحديث عن « بابا نويل » يجب ان تكون على شكل مجرد كلمات عن بطل حكاية خرافية تميل فيها اللهجة الى احتمال ان هذه الحكاية ليست واقعية على الاطلاق . ان بعض الآباء يقعون في خطأ الاستمتاع بأن « يرهبوا » الطفل هذا الارهاب غير الواقعي ويستمتعون بأنهم يملكون القوة السحرية في يدهم فيقنعون اطفالهم بأن بابا نويل شخصية حقيقية ويحولونها من شخصية محبوبة الى كائن ارهابي يراقب الطفل ويعطيه الهدية او يمنعها عنه . وهذا ارهاب غير محبب وضار ويعتدي على براءة الطفل ويسبب له القلق . وهذا هو النوع من الآباء الذي تخشى كاتبة الرسالة ان تتشبه به لأنها حساسة الضمير وهي ايضاً من النوع الذي يجب ان تكون كلمته للطفل حقيقة مائة في المائة لذلك فهي تخاف على الطفل من ان يكتشف بعد ذلك ان مسألة بابا نويل ليست إلا لعبة فيها الكثير من الخداع وان الآباء غشاشون .

وانا اعتقد ان هذه النظرية تبسط الأمر اكثر من اللازم وتحمل الأم اكثر مما تحتمل . ان هناك اكثر من دافع عند الآباء يجعلهم يصورون للأطفال ان بابا نويل شخصية موجودة وان اختلفت الطريقة التي يسردون بها حكاية بابا نويل الى اطفالهم . وانا اعتقد ان معظم الآباء في امريكا واوروبا ينشئون ابناءهم وهم يؤمنون بوجود بابا نويل كأسطورة وهم يفعلون ذلك بروح من الحب وباقتناع عميق جداً بأن بابا نويل شخصية تسعد الأطفال بالخيال وبالهدايا وتجعل الأطفال يفرحون .

واعتقد ايضاً ان هناك مجموعة صغيرة ومحدودة من الآباء هي التي تستمتع بخداع اطفالها لأن هذا النوع من الآباء كما سبق ان قلت يبحث لنفسه عن احساس بالقوة اثناء بثهم لمشاعر الخوف في اطفالهم او وهم يطلبون الطاعة المطلقة والتقديس الرهيب من الأبناء . . وعندما يكون الدافع المختفي هو الحصول على رضوخ الأطفال فمن المستحسن ان نعرف ان هذا النوع من الآباء يميل بطبيعته وبحكم تربيته السابقة الى ان يسترعي انتباه اطفاله او ان يرعبهم بأشخاص خرافيين . . كالأشباح مثلاً . وطبعاً ليس هناك أي علاقة بين بابا نويل

وبين الأشباح المرعبة . وهناك نوع من الآباء تحدثت عنه ايضاً من قبل وهو الذي يطلب من ابنائه تصديق كل حرف ينطقه ولذلك يرفض الأب ان يحدثهم اطفالهم عن بابا نويل حتى لا يقود ذلك الى الارتياب والضيق لأن الأب قد خدعه . واحياناً قد يقع الآباء في خطأ تعويد الابن على ان كل ما يقولونه هو الحقيقة المطلقة ، لأن بعض الآباءمن هذا النوع قد يقع دون ان يقصد في مأزق تضليل الابن بطريقة جادة . ان هذا النوع من الآباء قد يتحدث مثلاً عن بابا نويل وكأنه يتحدث عن اهم قضايا الحياة . وان الأب يعني ما يقول بالتأكيد وهذا يدفع الطفل الى الاعتقاد في النهاية الى ان هذا هو الحقيقة واذا اثبت المستقبل كذب ما يقوله الآباء فإن هذا يزعزع ثقة الابن بالأب او الأم . ان هذا النوع من الآباء الذي يطلب من الابن ان يصدق كل حرف مما يقول هو الذي يخاف ويحتقر فكرة ان يحدث اطفاله عن بابا نويل . واعتقد ان كاتبة الرسالة من هذا النوع وان كنت اتمنى ألا تكون من هذا النوع . انني اقول ان القصة ، قصة بابا نويل لا تحتاج الى كل هذا القدر من الجدية والقلق . ان علينا ان نعرف ان الطفل الذي في الثانية من عمره او في الثالثة من عمره او الرابعة لا يضع حداً فاصلاً بين الحقيقة والخيال . ان الأمر عنده ليس واضحاً بشكل قاطع . والمسألة عبارة عن مزيج بين الحقيقة والخيال . ان الاطفال الصغار يصدقون ما يرغبون ان يصدقوه . ان كل طفل صغير قابل بشكل كاف لان يعتقد ويؤمن بنظريتين مختلفتين تماماً في آن واحد . ان الطفل يصدق الأساطير وقصص المجلات وعندما يستمع الى قصة يقرؤها له الأب او تقرؤها الأم فهو يلتهم احداثها الخرافية بشوق شديد . وعندما تنتهي فهو ايضاً يعرف بشكل محدد أنها ليست إلا خرافة . ان الطفل يحب ان يتظاهر ويلعب العاباً يأخذ فيها دور شخص آخر او دور حيوان ويحاول الطفل احياناً ان يسلي نفسه باللعب الوهمي حتى ولو كان بمفرده . اننا نجد الطفل ينظر الى الفراغ ويتحدث مع تلاميذ وهميين ويتخيل انه مدرسهم .

انا اعتقد ان الأطفال يجب ان تسمع من بابا نويل وان يضحكوا بمرح مع هداياه ، بنفس الأسلوب الذي يسعدون به وهم يشاهدون افلام الكرتون والقصص الفاهية . وحتى اكثر الآباء جدية وإخلاصاً لا يجب ان يشعروا

بالحاجة الى القول « ان ما اقرأه لك هو مجرد خرافة » عندما يقرأون رواية خيالية لأبنائهم . والآباء الذين يحاولون الوقوع في الخطأ أثناء الكلام عن بابا نويل . . إنما يتكلمون بنبرة روائية الاساطير . تلك النبرة الممتلئة بالسرور والموحية بالأحلام . إنها نبرة ذات ايقاع رتيب يستمتع به الطفل . عندما يبلغ الطفل الرابعة او الخامسة «هل بابا نويل حقيقة واقعة موجودة؟» على الآباء هنا ألا يكذبوا والا يفسدوا اللعبة المرحة . ان على الأب ان يقول « إنني افترض انه ليس موجوداً . لكني احب ان اتخيل انه موجود بشكل او بآخر » . ان هناك نقطتين من مظاهر الاحتفال بعيد الميلاد السعيد أريد ان اشدد على رأيي فيهما. النقطة الأولى هي الاستثارة الشديدة التي تسبب للأطفال نوعاً من القلق في انتظار هدية عيد الميلاد. وليلة عيد الميلاد المذكورة تحمل الكثير من التوقعات للطفل. ان هناك الملابس الجديدة والهدايا ولا يجب ان تزيد في استثارة الأطفال . ان البهجة لا يجب ان تتحول الى توتر عند الأطفال الصغار . وايضاً ان هناك قلق الآباء ومشاعرهم التي يحسها الأبناء جيداً . ولا يجب ان يزيد توتر الآباء بصورة تنتقل الى الاطفال. ان يوم عيد الميلاد او ليلة الميلاد يبدأ في أغلب الأحوال مبكراً جداً . إنه يوم مليء بالعمل خلاف أي يوم آخر من الأيام العادية . إنه يوم يحمل ممتلكات جديدة للأطفال اكثر مما يحمل أي يوم آخر من أيام السنة . والآباء والأقارب يجدون انه من العسير عليهم ألا يصحبوا الأطفال طوال النهار وهم يشيرون الى الشجرة العجيبة ذات الأضواء والزينات . وهناك بعض الهدايا واللعب التي تأتي للطفل ويحاول الطفل طبعاً ان يستعمل اللعبة وان يستمتع بالجديد الذي يملكه فيظهره ويكشفه ويعلو صوت الأب او الأم محاولاً تعليم الطفل الصغير القاعدة الصحيحة التي يمكن ان يستعمل بها الطفل هذه الألعاب الجديدة . والطفل الصغير عادة لا يملك أي رغبة في معرفة الأسلوب الصحيح لاستعمال هذه الألعاب الجديدة وان الطفل يرغب في الاستمتاع بتلك الألعاب بطريقته وهو في الغالب يرضخ ظاهرياً لصوت الآباء التعليمي ويدعي انه يفهم بوضوح الطرق المثلى لاستعمال الألعاب كما يريد الكبار . وانا اتذكر ما سمعته عن طفلة لم تتخط الس[illegible]ف وكانت تجهل استعمال الألعاب الجديدة التي

تحيط بها والملابس الجديدة وبطاقات المعايدة المرسومة وتنظر اليها باعجاب شديد باهر طوال النهار وتحاول ان تزين بها شجرة عيد الميلاد .

ان عندي بعض النقاط التي يمكن ان يستوعبها الآباء والأمهات الجدد . انني لا استطيع ان انصح بتجاهل بابا نويل او ان اقترح حذف زيارة محلات العاب الأطفال ولكن لا يجب ان ننسى ان يوم العيد عيد الميلاد قد يكون صاخباً مليئاً بشتى الزيارات . تحمل الزيارات فيه طابع اقتحام عالم الطفل مما قد يصيبه بالذعر . ان على الآباء ان يخططوا لهذا اليوم ، يوم الميلاد على أساس انه يوم عادي دون ان يفقد اليوم طعم البهجة وان تنظم زيارات الأقارب دون ان نجرح مشاعر احد وان نسمح للأطفال بأن يلعبوا فيه بتلك الألعاب دون ان يحطموها وحتى عندما يحب الكبار ان يخفوا بعض اللعب او الهدايا عن الأطفال او يؤجلوا فتح صناديق بعض اللعب الجديدة الى وقت آخر فلا يجب ن يتم ذلك بالعنف وقهر الطفل ولا يجب ان يستثار الأطفال الى درجة الألم . وان لم يكن ذلك سيؤلم الطفل فيمكن ان تحتفظ بالهدايا التي لم تفتح الى العام القادم .

إنني اوافق هؤلاء الذين يشعرون ان ليلة عيد الميلاد هي ليلة لها معان روحية واحساس بالمشاركة الوجدانية وايضاً لها معان اقتصادية ، ان ايام عيد الميلاد هي موسم اقتصادي كبير وكل منا يعرف انه يصرف كثيراً في المناسبة . ينفق الكثير من الوقت والمال وشراء الهدايا لكل انسان نحب ان نهديه ونشتري بطاقات المعايدة المرسومة ونرسلها لأي انسان نتبادل معه البطاقات .

إننا يجب ان نعلم الأطفال في هدوء وبحب معنى الاحتفال بالاعياد على اساس انه ابتهاج وفرحة وليس فرصة لانتظار الهدايا ، ذلك ان الطفل الذي يبلغ الخامسة قد ينتظر قدوم العيد - أي عيد كان - بروح انانية للغاية ويظهر من الطمع الكثير ويرغب في امتلاك الهدايا بجشع . ان علينا ان نعلم الأطفال بروح من الحب . ولا يجب ان نتزعج من رغبة الأطفال في الحصول على هدايا لأن علينا ان نعرف انه من الطبيعي ان تكون لدى الطفل رغبة شديدة للامتلاك وانه يركز تفكيره واهتمامه حول نفسه . ومن الطبيعي ايضاً ان يظهر الطفل النهم والكرم

لمن يرتبط به عاطفياً. ان على الآباء ألا يركزوا اهتمامهم على تلك الهدايا التي تأتي من الآخرين . بل من المستحسن ان نشجع الأطفال على ان يصنعوا هدايا صغيرة مثل زينات شجر عيد الميلاد وان يرسموا بطاقات المعايدة بأنفسهم .

وفي سن الثالثة يستطيع الطفل المساعدة في صنع شجرة عيد الميلاد وان يستعمل ورق « القص واللصق » الملون لرسم بعض الأشكال الجميلة على الورق المقوى وان يصنع من ذلك بطاقات للمعايدة ليرسلها الى الأصدقاء .

ان وضوح الاحساس الديني والمعاني الروحية ينتقل الى الاطفال من الآباء وينتقل بطريقة تختلف حسب عمر الطفل وحسب درجة ايمان الأسرة . ان معظم الآباء يرحبون ويوافقون على ان ليلة عيد الميلاد ليلة يعبر فيها المحتفلون عن الحب والكرم تجاه الآخرين وابن الثلاث سنوات ليس طفلاً صغيراً . إنه العمر الذي يبدأ فيه الطفل ممارسة مشاعر الحب والكرم مع الآخرين .

الطفل والدين

لنتحدث الآن عن مراحل النمو الوجداني في الطفل وتأثيراتها المختلفة في موقفه من الدين .

وبعد هذا يمكننا ان نتناول بحث عدد من المشاكل الخاصة بالتربية الدينية التي سألني بشأنها عدد من الآباء والأمهات . ومن البداية احب ان اقول انه من وجهة النظر النفسية فإن الأساس الذي يؤمن به الابن بالله وحبه للخالق العظيم هو نفس الأساس الذي يحب به الوالدان الله وهو نفس الاساس الذي يحب به الطفل ابويه . ان الطفل من لحظة ميلاده عنده الاستعداد لأن يمنح من حوله الحنان والحب . ويظهر هذا بوضوح عندما يبتسم بحماس وشغف حين يبلغ عمره شهراً او شهرين . ان ابتسامة الحب تشبه قدرة الطفل على الجلوس او المشي او الكلام او حتى استعمال اليدين . فإن وجد الطفل الرعاية والحنان من والديه فإن حبه لهما وثقته القوية بهما تزداد يوماً بعد آخر . أما ان لم يجد الطفل من يحبه كما يحدث فعلاً في بعض ملاجىء الأيتام التي تشمئز منها نفس الانسان لفرط قسوة المسؤولين عنها واسلوب المعاملة غير الانساني الذي يلقاه الطفل فيها ، فإن الطفل ينمو ويكبر وهو يحمل في اعماقه اساس عدم القدرة على تحمل المسؤولية واللامبالاة ويكون عديم القدرة على الايمان . وليس عنده طبعاً أي قدرة على حب أي شيء بما في ذلك الله . وقد تتضاءل هذه القدرة على الايمان الى حد اليأس الكامل والالحاد الكامل . .

وما ان تبدأ مرحلة العمر الواقعة بين العام الثالث والعام السادس حتى نجد الطفل يتحدد ادراكه بشكل قاطع ويحدد مدى حاجته الى والديه . إنهما

مصدر الحنان والرعاية . . وهو يتجه اليهما بأحاسيس الحب والود المختلطة بالغيرة الدافئة والحماس الحار ، وهو يؤمن بأنهما اكثر الناس عقلاً واجمل مخلوقات السماء واكثر الناس قوة في هذا العالم . . انه يطلب منهما أي شيء يريده ويسألهما أي سؤال يريد معرفة اجابته . . ويثق في كل كلمة ينطقان بها ثقة مطلقة . . وهو يحاول طوال الوقت ان يقلدهما ويتشبه بكل ما يفعلان ويقولان ويقلدهما في كل الوان السلوك والتصرفات . . فإذا حدثاه عن الله ، فإنه يؤمن بالوصف الذي يصفان به الله حرفياً .

وعندما يتحدث الوالدان الى الطفل عن الاله ، يميلان الى تأكيد الصفات والقدرات الالهية التي يؤمنان بها ويحرصان على ان ينتقل هذا الايمان الى الابن . . فالأب القاسي يحكي عن اله قاس ويسرف في تأكيد هذه الصفة .

والأب الحنون الرحيم يسرف في الحديث عن الاله الرحيم ، كما ان الوالدين يظهران بأنهما ينظران الى الخالق بنفس الطريقة التي ينظر بها الطفل الى والده ويتطلع اليه . ونتيجة لهذا ، فإن الطفل ينتهي الى ان يرسم في ذهنه صورة لله تشبه الى حد ما . . صورة والده وتزيد عنها ان الله أعظم مثالية وجلالاً من الأب .

وتتكون عند الطفل بالتأكيد مشاعر من الحب والثقة والتقديس تكاد تكون متساوية تماماً مع نفس احاسيسه نحو والده .

فإذا كان الأب من النوع الذي لا يمكن ان يحبه الابن ابداً ، فإنني أشك في ان مثل هذا الطفل سيكون قادراً في يوم من الأيام على الايمان بالله او حب عالم السماء . وإنني اتذكر الآن قول احد الاباء لي وهو دارس لمثل هذه الحالات . . ان الطفل الذي يتربى وهو يعتقد ان والده غير صادق ومنافق في صلاته وايمانه بالله ، يكون اصعب الأطفال على الاطلاق في اجتذابه الى الايمان والقيم الدينية .

اما عن الطفل الذي لا يسمع شيئاً عن الله او لا يعرف أي شيء عن فكرة الاله اثناء مرحلة العمر التي تبدأ في الثالثة وتنتهي في السادسة ، فإنه طبعاً لا يملك اي صورة عن الله ولا تتكون لديه أي مشاعر عن الخالق العظيم ،لكن الأحاسيس

التي يشعر بها نحو والده . . سيكون بلا شك لها تأثير عظيم في ما يختاره من معتقدات دينية فيها بعد عندما يبلغ سن النضج . . وبعد سن السادسة او السابعة تصبح من طبيعة الطفل ان يحاول التمرد والخروج من مرحلة الاعتماد الكامل والارتباط القوي والانتماء التام الكلي الذي كان يحس به نحو والديه ، يحدث ذلك مع بقاء الطفل محتفظاً بحبهما ، ذلك الحب العميق المستقر في اعماقه . لكنه يميل الى ان يضع نهاية لمرحلة التقليد الكامل لاسلوب حياتهما والعادات التي يعيشانها، والأسلوب الذي يعالجان به كافة الأمور . إنه يفضل ان تنتهي المرحلة التي كان فيها الوالدان يعاملانه على أساس انه الطفل الصغير الذي يسمع الكلام . . وتبدأ المرحلة التي ينظران اليه فيها على انه رجل مستقل . . كامل الرجولة . . قادر على أن يواجه العالم بمفرده وقوته وحدها دون أي اعتماد على احد . .

وهو يشعر في اعماقه انه يجب عليه ان ينتصر على فكرة ان والديه هما احكم الناس في كل مسألة ولهذا فهو يناقشهما في كل شيء ويستشهد بكلام مدرسه على اعتبار انه اكثر علماً وفهماً . وهو يوجه جزءاً كبيراً من طاقته الانفعالية التي كان يوجهها من قبل الى الاعجاب والافتتان بأبويه وتقليدهما ، الى مجالات اخرى غير شخصية ، مثل تعلم القراءة والكتابة والحساب والعلوم والمهارة اليدوية في الصناعات وغيرها .

ولأنه يشعر بالحاجة الى ان يكون اكثر استقلالاً عن اسرته واكثر نقداً لها وخصوصاً لوالده فإنه يرفض ان يجعل منه المثل الأعلى الذي يقلده بنفس الدرجة التي تعود عليها من قبل . يتجه الى شخصيات اخرى بعيدة عن مجال الأسرة او يتجه الى موضوعات اخرى ليس لها علاقة بالأسرة كلها . انه يعثر على ابطال جدد في المجلات المتخصصة في مجال الأطفال وعلى ابطال قصص المغامرات لأنهم يفوقون البشر قوة وشجاعة ، وقدرة على الايمان والعدل . كما ان الطفل يتجه في هذه الفترة من العمر الى ان يأخذ من الجزء المخصص في اعماقه لاحترام الأب ، ويضيف هذا الجزء الى احترام الخالق العظيم . هذا اذا كانت الأسرة قد رسمت الطفل صورة واضحة عن الله وعلمته كيف يصلي . وعلمته ايضاً كافة التفاصيل

العامة عن قواعد الايمان بالدين . لكن هناك ناحية اخرى في ذلك التغير الذي يحدث في طبيعة الطفل بعد سن السادسة ليست لها علاقة بالدين . إنه يرغب في ان يصنع لنفسه صورة اخرى ، صورة تشبه الى حد كبير الأطفال الذين يعرفهم . إنه يحاول ان يقلدهم في طريقة اللبس وطريقة الكلام وطريقة قص الشعر . ويحاول ايضاً ان يختار بنفسه برامج التلفزيون التي تقدم له الشخصيات التي يعجب بها . ويختار ايضاً ان يقلد بعض عادات المدرسين الذين يعجب بهم في المدرسة التي يتعلم فيها. لكن هل هذا التحول هو تحول شامل عن علاقته الحميمة بالأسرة؟ لا. ان هذا التحول عن اعتبار الوالد مثلاً اعلى ومحاولة تقليد اصدقائه او بعض اعضاء المجتمع المحيطين به هو مجرد تغير ظاهري ، تغير من على السطح فقط . تغير يلمس المظهر الشخصي واساليب السلوك ، لكنه في اعماقه لا يزال يؤمن بالولاء الكامل لوالديه وعنده رغبة متأججة في مشاركتهما في الايمان بما يعتقدان . ولكنه ليس مستعداً على الاطلاق - كما هو الحال اثناء المراهقة - للمناقشة او النزاع في مبادئهما الأخلاقية او السياسية . فإذا ما اكتشف اختلافاً بين عقائد اسرته والأسر الأخرى في هذا الأمر ، فإنه بلا شك سيشعر بأنه اكثر امناً واستقراراً في التحيز المطلق لما يؤمن به والداه . والمثال على ذلك في أي مجتمع من المجتمعات ان الطفل في مرحلة ما قبل المراهقة يؤمن بكافة الآراء السياسية التي يؤمن بها والده . واذا كان والده منتمياً لحزب ما ، فإن الابن يحس بالفخر وهو يعلق شارة هذا الحزب على صدره . ان الطفل يؤمن بآراء ابيه ، في كل ما يقوله صواباً كان ذلك ام خطأ . وهو يؤمن بأن الأب لا يكذب ابداً فيما يقول . وهو يتعصب لمذهب والديه اذا دخل في أي حوار مع أي انسان حول هذا المذهب .

وتكون علاقته بالدين وبالله في هذا السن ذات طابع غير عاطفي نسبياً بمعنى انها لا تتضمن احاسيس حادة متعصبة او مشاعر ذاتية قوية .

ولكن الأمر اثناء المراهقة يختلف . . ان هناك تغيراً عينياً يحدث فعلاقات المراهق الآن، مع الوالدين والأصدقاء وافراد الجنس الآخر تكون اكثر وثوقاً . وتكون ذات طابع حاد ومفرط في الحساسية والقوة . كما ان المراهق المؤمن بالله

يفرق في نوع من التأمل المتصوف في الخالق العظيم كأن الخالق العظيم هو شخص حقيقي واقعي بينه وبين المراهق معرفة شخصية ويتبادل كلاهما الاحساس بالود الشديد . ان المراهق المتدين يصبح متأملاً الى حد بعيد وكثير الاهتمام بنفسه .

وتكون اعماقه مليئة بالأسئلة ذات الطابع المغرق في الشك في نفسه .

إنه يسأل نفسه : هل انا انسان طبيعي . . هل انا انسان محبوب ومقبول من الآخرين . . ما هي أهدافي في الحياة . . ماذا اريد مني هذا العالم . . وهو ينتظر طبعاً ان يجد الارشاد والمساعدة في تعاليم الدين وفي توفيق الله . ولهذا كان الدين يكتسب عند هذا المراهق لأول مرة معنى ذاتياً .

والآن لنناقش اساليب التربية الدينية بهدوء وبقدر كبير من الموضوعية . .

ان مشكلات التربية الدينية لا تظهر ابداً في الأسرة التي ينتمي الزوج فيها الى عقيدة واحدة هي عقيدة الزوجة ايضاً . إن الاثنين يؤمنان بتعاليم دين واحد . ويجدان في هذه التعاليم كل راحة . . ويعيشان مع الايمان احساساً مليئاً بالاطمئنان . وعندما يبدأ الطفل في سؤال والديه عن الخالق العظيم فإن الأسرة المتدينة ذات الدين الواحد تجد أنه من السهل عليها ان تقول للطفل الحقائق الدينية التي تشعر بها وتؤمن بها وتستطيع طبعاً ان تنقل الى الابن بصورة واضحة لا غموض فيها مشاعر الأسرة عن الخالق . ان الأب المتدين والأم المتدينة ، كلاهما يتحدث الى الطفل عن الله كأنهما يتحدثان عن كائن من البشر يشعران نحوه بالحب والاخلاص . . إنهما يحكيان للطفل عن كائن كبير مقدس . ولأن الأسرة تقدس هذا الكائن فإن الابن ايضاً يتجه بدوره الى تقديسه وحبه .

والنصيحة الوحيدة التي احب ان اقولها لمثل هذين الوالدين هو تأكيد التعاليم الايجابية للدين ، تأكيد الصفات الخاصة بالرحمة والحب والمغفرة الى اقصى حد ممكن ، مع التقليل الى ادنى حد من صفات العقاب والانتقام ، خصوصاً في المرحلة التي تمتد بين العام الثالث والعام الثامن من العمر .

وهناك مشكلة صغيرة في التربية الدينية تنجم من حين لآخر في مرحلة

العمر الواقعة بين السادسة والتاسعة وذلك في حالة الوالدين اللذين لا يقومان بأداء الشعائر الدينية ، ولا يتيحان لطفلهما أي تدريب على ممارسة العبادة وطقوسها رغم ان كليهما يؤمن بمعتقدات اخلاقية صارمة لها اساس من الدين وانهما ليسا ملحدين ، ولكنهما يؤمنان بأن الدين هو المعاملة وهو الخير الموجود في اعماق البشر ويقبلان ذلك بمنتهى الاخلاص . إنهما يؤمنان بأن الجنة هي بقدر الجهد الذي يبذله الانسان لسعادة الآخرين . والجنة هي بقدر العمل الطيب الذي يقدمه الانسان الى الآخرين فيتذكرونه به بعد الموت . لكن هذه الأسرة تجد نفسها في «أزق حرج . أما الطفل فيذهب الى المدرسة او يلعب مع ابناء الجيران ويسمع عن الله وعن الجنة والنار . وهو حديث مثير بالنسبة للأطفال . . ان كل طفل يقول للطفل الآخر الذي يحبه «سأسأل الله ان يدخلك الجنة » . ويقول للطفل الذي يغضب عليه « إنني سأشكوك الى الله وستدخل النار حتماً » . . ان هذا الكلام عن « الله » و« الجنة » و« النار » يثير في الطفل اسئلة لا نهاية لها . ويحاول ان يجد اجابة لها عند والديه اللذين لا يقومان بأي طقوس دينية ولا يمارسان أي لون من الوان العبادات امام الابن ويبدأ في توجيه الأسئلة الى الوالدين .

يسأل الابن أباه او أمه اسئلة تبدو كأنها حصار لا ينتهي . .

ـ ما هي الجنة . . ما شكل النار . . لماذا يدخل بعض الناس الجنة ولماذا يدخل الله الآخرين النار ؟ .

ـ هل مصير من لا يؤدي الصلاة ان يدخل النار ؟ . . انني لو دخلت النار سأكون كاللحم المشوي وانا لا احب ان يأكلني احد .

وطبعاً يقع الأب في حيرة شديدة . وتغرق الأم في بحر من عدم القدرة على الاجابة المحددة عن هذه الأسئلة . . وانا ارى ان الأب صاحب الضمير الحساس الذي يجد نفسه في مثل هذا الموقف عليه ان يكون غاية في الأمانة مع الابن وعليه ان يحكي لابنه فلسفته في الحياة . ولكن مهما حاول ان يشرح فإن الكلمات ستظل غامضة . . ان الابن سمع عن عالم الدين المثير للخيال بنوع من الشغف ويسعده ايضاً ان يقع الأب في « مأزق » عدم القدرة على الاجابة وهذا نوع من

السعادة المؤقتة التي قد يعقبها احساس بالتعاسة الأليمة لعدم ايمان الاب بعقيدة واضحة المعالم . ولا بد للأب ان يعثر على الكلمات الواضحة التي يمكن للطفل ان يفهمها . ان عليه ان يبسط بالكلمات حقائق الحياة وان يشرح اسباب الاعياد الدينية . . تماماً كما يحاول ان يشرح للطفل حقيقة القنبلة الذرية ، انه يحاول ان يبسط المعاني .

ولو كنت انا في مكان هذا الوال وحاصرني ابني بالأسئلة فإنني سأجيب :

- انني اؤمن بالله ، وبالجنة التي سيدخلها القوم الذين يحسنون العمل في الدنيا . . وان النار سيدخلها من يسيء العمل في هذه الحياة الدنيا .

ان هذا نوع من التبسيط المعقول والواضح يمكن ان يتقبله طفل في العام السابع لأن الطفل قد يهتم بالعالم المثير للجنة والنار ولكنه يرغب في اعماقه ان يحصل على اجابة حاسمة لهذه الأسئلة التي تملأ عقله انه يريد ان يعرف فعلاً . . هل لأسرته دين محدد كبقية الأسر . . هل تشبه اسرته الأسر الأخرى في الايمان . . ام انها تختلف عنها . ومن المؤكد ان الأسلوب السليم لمعالجة مثل هذا الأمر يجب ان يبدأ في العثور على اوجه للشبه بين ايمان اسرته وبين ايمان بقية الأسر الموجودة في المجتمع ، لأن ذلك يجنب الطفل صعاباً نفسية شديدة عندما يجد نفسه مختلفاً عن بقية الأطفال خصوصاً في مسألة الدين . وحتى اذا كانت للأسرة معتقدات فلسفية تنفي الايمان بالدين فإن عليها ان تؤجل اقناع الطفل بهذه المعتقدات الى المستقبل . فالمستقبل سيكون فيه المتسع من الوقت لمناقشة الطفل في هذا الأمر ، كما ان الطفل نفسه سيجد في نفسه القدرة على مناقشة الدين واختيار المعتقدات التي سيؤمن بها .

فإذا سأل الطفل في البداية عن النار والأسرة لا تؤمن بالجنة والنار فإن على الأسرة ان تجيب اجابة عامة دون ان تذكر التفاصيل للطفل . وفي نفس الوقت يمكننا ألا نخل بالمعتقدات التي نؤمن بها .

فإذا سأل الطفل بعد ذلك :

ـ لماذا لا تذهب الأسرة الى الجامع او الكنيسة للصلاة . . هنا يمكن للوالدين ان يقولا :

ـ بعض الناس يفرض دينهم ذلك ، وبعضهم لا تفرض عليهم ديانتهم ذلك . وهكذا يمكن ان نجيب عن اسئلة الطفل التي هي من هذا النوع .

أما ما سأناقشه الآن فهو بعض المشاكل التي تظهر عندما يكون الزوج والزوجة مختلفين في الديانة او في نظرة كل منهما الى الدين . ان هذا النوع من الأسر يكون قد تكون نتيجة وقوع الزوج في حب الزوجة أو العكس مما قاد الاثنين الى بناء اسرة . . وفي أغلب الأحيان فإن هذا النوع من الأزواج والزوجات يصلون الى اتفاق محدد قبل الزواج بخصوص تنشئة الطفل الدينية وأي دين سيعتنقه الطفل. وفي البداية يسبق الحب كل الاتفاقات وتصر المرأة على ان الحب فوق الدين ويصر الرجل على ان الحب هو سيد الحياة . ويحاولان بتأثير العواطف المشبوبة المتأججة التغلب على مشكلة اختيار دين الطفل القادم . لكن الأمر لا يخلو بعد الزواج من مناقشة للنفس . ان هناك جدلاً خفياً يظهر في اعماق الزوجة وجدلاً في اعماق الزوج . ان هذا الجدل يجب ان نضع له حداً حتى لا ينتقل القلق الى الأبناء . واذا استمرت المناقشة الحادة بين الزوجين فإن السبب وراء هذه المناقشة الحادة يكون على الأرجح احساساً بخيبة الأمل وانطفاء جذوة العواطف وتلاشي الحب. وطبعاً تسبب خيبة الأمل هذه احساساً بالضيق والتوتر العصبي . وتنشب المعارك والمشاجرات . ويكون استعمال الزوجين كليهما لسلاح الدين نوعاً من الرغبة في العثور على أي موضوع للخلاف يمكن ان يثير معركة جديدة وحادة بينهما . ان استخدام سلاح الدين هو اعلان عن عدم إيمان احدهما بجدوى استمرار الحياة مع الآخر .

واعتقد انه اذا كان احد الطرفين ، الزوج او الزوجة ، على خلاف مع الطرف الآخر ، فإنه يخطىء خطأ كبيراً اذا ظن انه يستطيع وحده وعلى نحو دائم ، ان يوجه الولد الى مذهب واحد او دين واحد ، أو يبتعد به عن مذهب اخر ، او دين اخر .

وليس هناك شك في ان الطفل الذي يولد في اسرة مؤمنة بدين واحد وتؤدي فرائض هذا الدين ، ويكون هذا الدين ايضاً هو الدين السائد في الحي او المجتمع ، ويكون الحي او المجتمع نفسه مؤمناً ويؤدي كل فرد فيه الطقوس والصلوات في مواعيدها ، كل ذلك يؤثر في الطفل تأثيراً قوياً طوال عمره .

لكن الأمر يختلف تماماً اذا كان الوالدان ممن لا يقيم للدين وزنا ولا يؤديان واجباته وفرائضه، او اذا كان الأبوان منقسمين في الرأي . . عندئذ لا يشعر الطفل بأي التزام يربطه باتباع أي مذهب او عقيدة او دين . وقد يقرر ذلك بنفسه في مرحلة المراهقة او النضوج على أساس اتجاهاته ومواقفه الأساسية نحو الحياة ، وعلى اساس علاقته الخاصة ، بكل من الوالدين على حدة . . واني لاعتقد بأن اطفال الناس ، او على الأقل احفاد الناس ، الذين لم يواظبوا على اداء الواجبات الدينية واقامة الصلوات ، يجدون طريقهم الى الدين المنتشر في المجتمع في نهاية الأمر ، بشرط ان يكونوا هم انفسهم على درجة كافية من التكيف الاجتماعي .

ان معظم الأبناء الذين ينشأون على حب واحترام آبائهم وامهاتهم ، يملكون دائماً الرغبة في التعبير عن نفس مشاعر الحب والولاء والالتزام . . والاعتماد على اله واحد احد .

انني انصح أي اسرة يكون فيها خلاف بين الأب والأم بشأن الدين . انصح هذه الأسرة بأن يحاول كل طرف فيها ان يبذل الجهد الكامل للابتعاد بالطفل عن مثل هذه المناقشات وان يتفقا على حل وسط او حل يحسم ما بينهما من خلاف حتى ينتهي التوتر بينهما او على الأقل تنخفض حدة هذا التوتر الذي سيكون بلا ادنى شك سبباً أساسياً وجوهرياً في ان يعيش الطفل في شقاء لا حدود له .

وهناك نوعان من رد الفعل نحو الدين هما السبب في قلق الوالدين احياناً . .

اولهما هو ان بعض المراهقين يتعرضون لصدمة عنيفة بسبب التغيرات

الطارئة على اجسامهم ومشاعرهم ، بحيث يكاد المراهق يفقد الاحساس بذاته - اي بشخصيته وبمصيره. وهذا شعور مخيف ومرعب، وقد يؤدي به - في اثناء بحثه عن الطمأنينة والأمن - الى نوع من الأغراق الحاد او الافراط الشديد وبطريقة مثيرة وشاذة في التدين . وانا لا اخاف ابداً على مصير المراهق المتزن الذي يزداد ميله الى العبادة والاتجاه الى بيت الله بكثرة في هذه المرحلة خصوصاً لأن القيام بالشعائر الدينية ينقي النفس من الشوائب ويمد الروح بطاقة خلاقة على القيام بالواجب ويمنح النفس احساساً طيباً بالاطمئنان والأمان . لكن هناك بعض الحالات التي تستوجب اللجوء الى العلاج النفسي تلك هي الحالات التي تهتز فيها العقيدة الدينية لدى الطفل لتتخذ طابعاً من الدروشة وتجعله يعيش في حالة من الهوس . وتحاصره فكرة عقاب السماء على أي خطأ صغير .

اما رد الفعل الثاني اثناء المراهقة والذي يقلق الآباء فهو يختلف تماماً عن رد الفعل السابق . ان بعض المراهقين يحلو لهم ان يتخذوا من الهجوم على الدين الذي يدين به الأبوان وسيلة لاعلان الاستقلال . وطبعاً يرفض الابن ان يذهب الى مكان العبادة . وفي مثل هذه الحالات فإن الابن يحاول بكل جهده ان يعلن استقلاله الكامل عن اسرته اذ ان الاستقلال هو الطرف الآخر الذي يريد ان يصل اليه . انه يعتبر ان الاعتماد على الابوين نوع من الطفولة . وهو يريد ان ينتقل سريعاً من مرحلة الطفولة ليصل سريعاً الى مرحلة النضج . انه يريد ان يعلن حريته الكاملة في اختيار طريقته في الحياة . ولكنه في نفس الوقت لا يمكنه ان يعترف لأحد بهذا القدر من الشك الذي يملأ قلبه واعماقه ، الشك في قدرته على ان يحقق اهدافه . انه فقط يتمرد على الابوين بطريقة لا تفكير فيها . ويتمرد على كل ما يمت الى الاسرة بصلة . ويتخيل ان الأبوين هما العائقان اللذان يجب ان يتخلص من القيود التي تربطه بهما حتى يستطيع ان يشق طريقه في الحياة . وهو يضع والده ووالدته تحت مجهر بقصد البحث عن عيوبهما ويحاول دائماً ان يكتشف لهما أي خطأ في كل سلوك . انه يوجه سلسلة الاتهامات التي لا نهاية لها لكل تصرف من تصرفات الأب او الأم . . انهما في نظره من الطراز الرجعي الذي لا فائدة من اقناعه بحقائق العصر . وان معتقدات هؤلاء

الرجعيين تقليدية تشبه الروايات المأسوية وانهما لا يفهمان حقائق الحياة ، ولا يزالان يعاملانه كطفل . . ان المراهق يظن احياناً ان في استطاعته ان يضع اسس دين جديد اكثر عدالة من دين الآباء وأكثر قدرة على انصاف من هم مثله ممن يعيشون مع آباء لا يقدرون المشاعر . .

وهناك رد فعل ثالث وهو احساس الابن بأن الدين مسألة طبيعية من مسائل الحياة مثل الذهاب الى المدرسة لتلقي العلم ومثل احترام تقاليد الأسرة .

وعندما يصل المراهق الى الثقة بنفسه والى انه بلغ فعلاً مرحلة النضج عند ذلك ستنتهي سلسلة الشكاوى والاتهامات التي يكيلها للآباء .

وهو يصل الى هذا الاحساس بالثقة عندما ينخرط في سلك الجندية او عندما يحصل على شهادة تؤهله لعمل ناجح ، او عندما يتزوج وينجب طفلاً .

انه يبدأ في اقتحام رحلة تحمل مسؤولية الحياة . ويبدأ في الاحساس بالسعادة ويبدأ ايضاً في اعادة النظر في مسألة الدين .

كيف نحدث الأطفال عن الموت

ليست هناك طريقة سحرية تضمن لنا عدم اصابة الطفل بالقلق والشكوك . . ولكن عندما نواجه الطفل بهدوء ونتحدث اليه باطمئنان فإن الاحساس بالأمان ينتقل الى اعماقه

الموت هو احد حقائق الحياة . . وكما يولد الانسان فهو ايضاً يموت والآباء والأمهات يسألون كثيراً هذا السؤال :

ـ وكيف نفسر الموت للطفل الصغير ؟

ويكون مصدر السؤال احياناً هو موت احد اقارب الطفل او احد اصدقاء العائلة . وقد يكون السبب في تردّد هذا السؤال الحائر على ألسنة الآباء والأمهات هو مشاهدة طفل صغير لجنازة او مقبرة او عندما يموت حيوان أليف كان يعيش في المنزل وكان الطفل سعيداً بصداقته واللعب معه .

ومن البداية أقول انني لم اجد حتى الآن جواباً عن هذا السؤال . لا اجد وسيلة مقنعة يمكن ان تستقر في ذهن الطفل وتمنع بها كل الوان الحيرة والقلق وعدم الفهم . ان كثيراً من الآباء المؤمنين بالله . . المواظبين على شعائر الدين يقولون للأبناء :

ـ لقد ذهب الفقيد الى الجنة . او « لقد اختارته السماء » او ان الله كان قد أودعه لدينا كهدية ثم استعادها منا،الى آخر هذا النوع من الاجابات .

ومثل هذه الاجابات قد تقنع طفلاً يذهب الى المدرسة ، ويكون قد سمع الكثير عن الاله والجنة والنار ويوم القيامة . ان هناك مناسبات كثيرة يتحدث فيها الاطفال في هذه الأمور ويتبادلون الخبرات والمعلومات ويمكن ان يتقبل مثل هذه المعاني عن اختيار الله لواحد لكي يموت . ولكن قبل ان يبلغ الطفل مرحلة الدخول الى سن المدرسة فما الذي يمكن ان يقنع الطفل ؟

ان الطفل الذي يبدأ الذهاب الى المدرسة يكون متوسط عمره هو ستة اعوام فما فوق. . ويكون قد تكون عنده شيء من القدرة على التقبل الفلسفي لحقيقة ان الموت هو نهاية كل انسان . وفي نفس الوقت يملك نوعاً من المعرفة بأن الموت في أغلب الأحيان لا يأتي الى من هم في مثل عمره . هذا عن الطفل الذي في سن المدرسة . . اما عن الطفل الناشيء فهو لا يملك القدر الكافي من الادراك الكامل لحقائق الحياة اليومية التي تجعله يتقبل حدوث الموت بسهولة . إنه طبعاً يختلف عن الطفل الأكبر منه عمراً والذي يعرف بعض الحقائق المجردة عن الميلاد والموت ، ويمكنه ان يفهم جيداً ما جرى . إنه يعرف ان الموت معناه غياب الانسان الى الأبد واستحالة رؤيته مرة اخرى . وبعد مدة يمكن للطفل الأكبر سناً ان يطمئن .

وحتى تتضح لنا الصورة يمكننا ان نتخيل ما يحدث لنا نحن الكبار . ان كلا منا تمر به خبرة مرهفة وتجعله يمضي ليلة غاية في القلق نتيجة لشعوره بأنه ارتكب ذنباً او ارتكب فعلاً اضر بأحد او ان هناك خطراً يمكن ان يهدد انساناً آخر . لكن مع شروق الشمس سرعان ما نكتشف ان ٩٥٪ من مخاوفنا وشكوكنا قد ذهبت وضاع اثرها ونندهش ونتعجب كيف تملكنا الخوف والجزع الى هذا الحد المرعب اثناء الليلة السابقة . هذا المثل يمكن ان نطبقه على الاطفال الصغار الذين هم دون الخامسة . ان الطفل الصغير يعيش في حالة من الضبابية وعدم الفهم امام الموت . انه عديم الخبرة ويجهل الاحساس الذي يفرق بين ما هو واقعي وحقيقي وبين ما هو خيالي . وهذا الجهل يجعله يعيش في قلق شديد وتوتر مرهق عندما يواجهه امر لا يعرف عنه شيئاً . ان الطفل بين عامه الثاني وعامه الرابع يتميز بحب الاستطلاع ويكون على قدر كبير من الحساسية المرهفة وقدرة كبيرة على التخيل ، وهو يشعر باحساس قوي بأنه يعتمد اعتماداً كلياً على والديه ، ويخاف خوفاً شديداً من أي خطر على الوالدين . . لأن ذلك الخطر قد يحمل انفصاله عن ابيه او امه ، ولذلك فإن فكرة الذهاب بدون عودة الى عالم آخر وفكرة ان الملائكة يحملون الانسان بجسده ولحمه ودمه الى جوار الله الغفور الرحيم ، هذه الفكرة تزعج الطفل وتزلزل احساسه بالامان دون ادنى شك .

ورغم انني بدأت الحديث بسؤال هو كيف نفسر للطفل الصغير موت انسان آخر . . فقد بدأ من الحديث ان الطفل يصاب بالقلق كما لو كان قلق الطفل هو قلق بشأن موته . .

والفكرة هي ان الطفل في عامه الثالث او الرابع يكون في مرحلة من التطور الوجداني بصورة يطبق فيها كل شيء على نفسه سواء أكان خيراً ام شراً . .

فالطفل عندما يشاهد انساناً يقود سيارة اتوبيس فإنه فوراً يتخيل نفسه في مكان الرجل ويتخيل كيف يمكن ان يقود السيارة بنفسه ، كما يتخيل مدى السعادة التي تمده بها هذه العملية . ويبدأ في تمثيل دور السائق . وعندما يرى الطفل انساناً كسيحاً او مشلولاً فإنه يخاف وينزعج وتظهر عليه علامات القلق . وعندما يسأل عن القبور ولماذا يتم بناؤها . . هنا يصطدم بأول تفسير للموت وتكون كلمته الأولى عن ذلك هي . . وهل سأموت انا ايضاً ؟

وهذا هو السبب في انه يصعب ان نفسر لطفل صغير موت شخص آخر . وفيما يتعلق به ، فإن موته هو يكون موضوع الكلام .

وحيث ان لديه رغبة قوية في ان يبقى حياً وان يظل الى جوار والديه ، فإنه من المستحيل وصف الموت بطريقة تحول دون اقلاقه او ازعاجه بحيث لا يزايله الاطمئنان بصورة ما .

وبعض الآباء ، وانا منهم ، حاولوا ان يجعلوا الموت امراً غير مخيف بأن يفسروه قائلين «ان الناس الكبار في السن جداً تعبوا من الحياة كثيراً ، وآثروا ان يرقدوا ويموتوا في سلام تماماً مثل النوم» . وهذا التفسير ليس مفيداً جداً ، لأن الطفل لا يستطيع ان يتصور ان انساناً يبلغ به التعب الى مثل هذا الحد ، إنه تشبيه محفوف بالخطر ، لأنه يحدث احياناً ان طفلاً من النوع الشديد القلق ينمو في نفسه نوع من الخوف المرضي من النوم خشية ألا يستيقظ ابداً . . فهل هناك حل ؟

لا طبعاً ، اذا كنا نبحث عن ايجاد مزيج سحري قاطع من الكلمات . . فليس هناك كلمات يمكن ان تشفي فوراً وبصورة قاطعة قلق الطفل الذي عنده الاستعداد للقلق .

ان خبراتنا اليومية تبين لنا ان معظم الأطفال تعلموا شيئاً عن الموت وهم دون الخامسة او السادسة من العمر ودون ان يبدو عليهم ما يدل على انهم اصيبوا بقلق لا حدّ له ، او بحيرة بالغة . . إنهم يصنعون لأنفسهم نوعاً من التكيف مع فكرة الموت بشكل ما .

وهذا يتم جزئياً عن طريق الكبت او الرفض او الاستنكار . وفي وسعك ان تلاحظ ان الطفل في اول الأمر يسأل اسئلة قلقة ، ثم فجأة يصبح مهتماً بأمر لا يمت الى الموت بصلة ، وتبدو على ملامحه علامات السرور. وقد يستمر سائر يومه غير مكترث ، ثم لعله بعد ذلك عندما يأتي وقت النوم يعلن فجأة « لن اموت ابداً » ـ وهو يظن ان في وسعه ان يدرأ الخطر ويبعده عنه بقراره هذا ـ او ربما بدلاً من ذلك يعود ثانية الى مزيد من الاسئلة المزعجة وحتى في الكبر فإننا نحاول بنفس الوسائل ان نسيطر على ما يهددنا بالتحطيم ونبعده عنا ، وان كنا عادة لا نفلح في ذلك كما أفلح الطفل الصغير .

وفي أي سن ، عندما يكون الخطر اعظم من قدرتنا على مواجهته ، فإن العقل يحاول ان يتناساه لوقت ما ، ولكنه يعود اليه عندما يذكره أي شيء به ويناضل في التغلب عليه شيئاً فشيئاً .

وقد يحدث ذلك في اثناء النهار ، ولكنه ايضاً تفسير لكثير من احلامنا المزعجة . والطفل الذي يصاب بالاحباط الحاد عندما يعرف الموت لأول مرة ، والذي لا يستطيع ان يخرجه من ذاكرته لمدة طويلة هو الاستثناء وليس القاعدة .

ولعله من النوع الذي كان دائماً مفرط الحساسية ، وشديد الاعتماد على اهله منذ نعومة اظفاره . ولعله اصبح من النمط المصاب بالقلق المزمن وهو في سن الثانية عندما كانت امه تضطر الى تركه فجأة لأول مرة لمدة اسبوع او ثلاثة اسابيع ، وانتابه اليأس خوفاً من الا يراها ثانية فأصبح دائم الخوف .

ولعل امه كانت من النوع الشديد القلق والخوف على سلامته فانتقل اليه بعض من خوفها ، خصوصاً بالنسبة لأي شيء يهدده بالانفصال عنها . ولهذا فإن الطفل الذي يستقر في نفسه فزع ، الى حد الرعب بشأن الموت ، يحتاج الى

مساعدة الاخصائي النفسي لكي يعالج الاضطرابات الأولى التي اوصلته الى هذه الدرجة من الخوف .

وفي اثناء العلاج ، كثيراً ما يتضح ان احد الأسباب الرئيسية التي تسبب قلق الطفل المفرط على سلامته . . هو انه يشعر شعوراً حاداً بالذنب بسبب ما يدور في نفسيته من حين لآخر من مشاعر الغضب والسخط على اعضاء الأسرة الآخرين ، ويتوقع عقاباً فظيعاً على ذلك . وينطبق على الطفل الذي سمع بمرض مثل شلل الأطفال ، واستقر في نفسه خوف ملح منه يرهقه نفسياً . وليس سبب ذلك ان المرض وصف له بطريقة خاطئة ، ولكن لأن لديه مقداراً مخزوناً من الاحساس بالذنب في عقله ، الأمر الذي يجعله يعيش تحت عبء ثقيل من الخوف ، والوساوس ، ومن ثم فإنه يحتاج الى مساعدة الاخصائي النفسي ايضاً .

في كل ما سبق ذكره كنت احاول ان اوضح نقطة هي . . ان الطريقة المحددة التي يفسر بها الموت للطفل ، هي عادة اقل اهمية من درجة القلق الذي يكون مستحوذاً على الطفل ، قبل ان يسمع بمشكلة الموت .

وهناك عامل اخر في منتهى الأهمية وهو موقف الأبوين الأساسي من الموت . . فالأب الذي يخاف هو نفسه من الموت الى حد الرعب ، سواء كان ذلك جهراً او سراً ، سوف يجد صعوبة ومشقة في تفسير ظاهرة الموت فلسفياً لطفله .

وتأتي اسئلة الطفل الأولى عادة ، بصورة مفاجئة ، وعلى غير توقع ، الأمر الذي لا يمهل الأب ليضع التفسير المناسب .

والأم التي لا تقلق بشأن أي شيء والتي لا تخشى موتها ، بل ولا تفكر فيه ، والتي لا تساورها اية مخاوف او وساوس تجعلها تخاف من الكلام عن الموت حتى لا تزعج طفلها تكون بصفة عامة قادرة على صياغة الكلمات المطلوبة بطريقة تتضمن ان الموت بعيد جداً وانه لا يستحق كل هذا القلق من الآن . .

أما الأم او الأب الذي ينظر الى الموت نظرة اكثر مهابة واجلالاً ويملك ايماناً دينياً قوياً بأن الرجوع الى الخالق ، عندما يحين الميعاد ، معناه السعادة النهائية ، فإنه ينقل اطمئنانه الى طفله ، سواء استطاع الطفل ان يفهم معنى كلامه ام لا . .

والأم التي تعتبر ان النظر الى الميت قبيل تشييعه الى مقره الأخير عادة لا جدوى منها ، لن تسمح طبعاً لطفلها بأن يلقي نظرة على جثمان احد الأقارب المسجّى على فراش الموت . واذا ما شاهدت حادثاً في الشارع عندما يكون طفلها معها فإنها تبذل كل جهد لكي تبتعد عنه وتصرف عنه انتباه طفلها . ولا عيب عليها في ذلك ، بل هي على صواب في حماية مشاعر طفلها وعليها ايضاً ان تتماسك وتتجنب اظهار الخوف البالغ لأن الطفل يتشرب منها التأثير الكامل لخوفها بحيث يسري فيه ولو لم تنطق بكلمة واحدة .

وهناك ام اخرى نشأت في بيئة تعتبر النظر الى الميت مسجّى على الفراش قبل دفنه ، من اهم الطقوس المقدسة في الوجود الانساني ، وترى من المناسب واللائق ان تسمح لطفلها بإلقاء نظرة على جثمان قريبها او قريبتها . ثم ان احساسها باعتبار الموت كفيلاً بأن يجعل الخبرة بالنسبة للطفل مختلفة تماماً عما كان من الممكن ان تكون عليه لو كان للأم موقف آخر من الموت .

ولست احاول ان احكم على أي من هذين الاتجاهين المتناقضين اللذين يتخذهما الأبوان وأي منهما هو الأقرب للصواب . .

ففي أي من الحالتين ، فإن الأثر الذي يظهر على الطفل يتوقف الى حد كبير على موقف والديه ، ويتوقف ايضاً على تكوينه النفسي كفرد . ولكن ذلك لا يعني ان صيغة التفسير لا اهمية لها ولا حاجة الى القول بأنه في اية مناقشة دينية لموضوع الموت مع أي طفل ، يكون من الخير تحاشي أي ذكر لعذاب النار .

وحيث اننا نعلم ، ان الرجوع الى الله ، بالنسبة للطفل ، مهما حاولنا ان نضفي عليه من الجمال فلن يكون بديلاً يعوضه عن ارتباطه بأبويه ، لذلك أرى ان نصف له اسرتنا كلها على انها سيصبح كل فرد فيها عجوزاً في النهاية ، وانهم سيموتون ثم يعيشون معاً في الجنة ، وأتجاهل فرق السن مؤقتاً ، حتى يبلغ الطفل مرحلة يزداد فيها استقلالاً وفهماً .

أما بالنسبة للتفسير غير الديني ، فأنا شخصياً اتبع الأسلوب الآتي :

أشير الى ان الموت لن يأتي قبل سنوات طويلة حتى نبلغ جميعاً عمراً طويلاً ويضنينا التعب في الحياة ، ثم أشرح للطفل اننا عندئذ نتوقف عن التنفس ، وعن الحركة والشعور ولكنني ارى ان لا نقارن ذلك بالنوم . .

فإذا كانت مناسبة الحديث هي موت طفل كان طفلنا يعرفه ، فإنني اعترف له بأنه من حين لآخر ، وفي اوقات متباعدة جداً ، يمرض طفل ما مرضاً شديداً ، او يصاب في حادثة ويموت ، ولكني في نفس الوقت اؤكد له ، دون ان تبدو علي اية مظاهر للتوتر قد تجعل تأكيدي يبدو للطفل وكأنني مكره عليه اكراهاً ، ان معظم الناس لا يموتون حتى يبلغوا من العمر عتيًا .

ثم لا البث ان احتضن طفلي واقول له اننا سنعيش معاً لمدة طويلة طويلة طويلة . .

اما الموقف المفزع عندما يموت احد افراد عائلة الطفل فإنه يخلق مشكلات مختلفة تماماً سأتناولها بالشرح والتحليل في الفصل التالي . .

عندما يموت احد افراد الأسرة

موت احد اقارب الطفل المحبوبين يترك غالباً بصمات الاحساس بالذنب في اعماق هذا الطفل .

الموت هو احد حقائق الحياة . فكما يولد الانسان فإنه يموت ايضاً .

لكن ماذا يحدث للطفل عندما يدق الموت باب البيت ليختطف واحداً من افراد الأسرة ؟ الأب او الأم . الأخ او الأخت ، الجد او الجدة اللذين يعيشان مع الأسرة في نفس البيت . . ؟

اذا اقترب الموت من احد افراد الأسرة ، فإن ذلك يثير في الطفل الصغير احاسيس مختلفة . هذه الاحاسيس تختلف تماماً عن تلك الأحاسيس التي يمكن ان يثيرها موت انسان غير معروف لدى الطفل معرفة جيدة او التي تثيرها مناقشة عامة عن الموت . ان ذلك يثير في الطفل سؤالاً هو :

ـ هل يمكن ان اموت انا ؟ . وهل يؤدي موتي الى ان ابتعد عن ابي وأمي ؟

ان هذه الاسئلة تثير قلق الطفل لبعض الوقت ولكن اثرها ينتهي بعد ذلك .

ولكن عندما يموت احد افراد العائلة او قريب لهذه العائلة فإن علاقة الطفل بهذا الموت تكون مزيجاً من الاحساس بالحسرة والقلق وتستمر هذه الاحاسيس بين الحزن والقلق لمدة شهر . ثم مثلاً هناك الاحساس بالافتقاد ، وخصوصاً عند موت احد افراد الأسرة كالأخ او الأخت ، وهناك الحزن الحاد الذي تتكرر موجاته في نفس الطفل . وهذا الحزن ينتج بطبيعة الحال مع الوعي التام بأن من مات لن يراه الطفل بعد ذلك ولم يعد موجوداً في هذا العالم الحي :

اما عندما يموت الوالد او الوالدة فإن حزن الطفل يكون غاية في العنف .

ان الطفل يعلن كل يوم عن حاجته لرؤية من مات . ان صورة الأب او الأم تزور خيال الطفل اكثر من مرة في اليوم الواحد . إنه يشعر في كل مشكلة انه لو ان الأب لم يمت او ان الأم لم تمت لكان من السهل حل هذه المشكلة . إنه كلما احتاج الى تحقيق أي رغبة من رغباته يتذكر على الفور من مات .

وعندما يحسن التصرف فهو يتجه بذاكرته الى الانسان الذي احبه كثيراً واحتاج له دوماً. ان الحزن يحفر في اعماق الطفل بصورة حادة ومرعبة. ويتجدد هذا الحزن والأسى كل يوم . ويستمر ذلك لفترة طويلة من الزمن ، يستمر شهوراً الى ان يشغل الطفل حياته بعلاقات جديدة تشغل هذا الفراغ العاطفي الذي عانى منه بفقد الأب او الأم . . وتختلف المشاعر وطريقة التعبير عن ذلك من طفل الى آخر . ان هذه الفروق تثير الدهشة بالفعل . فالبنت غالباً ما يكون اسلوب تعبيرها عن الحزن هو فقدان الاحساس بالمتعة في الحياة . ويظل الحزن يخنقها الى ان تنفجر الدموع في أي لحظة. هذا اذا لم تستمر في عويل او بكاء قد لا ينتهي. وهناك طفل آخر من نفس العائلة لا يبدو عليه ابداً أي مظهر من مظاهر الحزن . يبدو متجهم الوجه وبلا أي انفعال ظاهري ، كأن شيئاً لم يحدث ونحن نعلم ان هذا المظهر السطحي لا يمثل انعداماً حقيقياً او نقصاً في المشاعر ، وانما كل ما في الأمر ان الطفل يملك شخصية مدربة وهو قادر على ضبط انفعالاته والتحكم فيها .

ومعظم الآباء يلاحظون اختلافاً وتفاوتاً شاسعاً في مدى وكيفية ردود الأفعال بين اطفالهم بالنسبة لأنواع الحزن او القلق . او احداث الحياة اليومية .

ان المشاعر تطفو على السطح بسهولة وبسرعة في البعض ، ولكنها تختفي على الفور عند البعض الآخر . ومعظم البنات اللاتي عشن حياة هادئة سعيدة يتركن للدموع ان تعبر عن السخط او خيبة الأمل عندما تلغى مثلاً حفلة او نزهة او دعوة لحضور حفل زفاف احدى الصديقات ، ودموع الحزن ايضاً تسيل في اثناء استماعهن لجزء مؤلم او محزن من قصة او رواية .

ومعظم الأولاد - في امريكا على الأقل - يتعلمون كيف يتحكمون في

دموعهم ويزموا شفاههم ، بمجرد ان يبلغوا سن السادسة او الثامنة على الأكثر . وهناك نفس الفروق بالقياس الى الاحاسيس الأخرى. فالبنات عندما يغرقن في السرور قد يصحن ويصرخن من الفرح ولكن الأولاد يميلون في الغالب الى التحفظ في اعلان المشاعر كنوع من التعبير عن احترام الواحد منهم لكرامته وكبريائه . وهم يستعملون تعبيراً متزناً جرى عليه العرف مثل : رائع او جميل .

وعندما يتشاجر الصبية فإن معظمهم يحاول ان يخوض المعركة في صمت ولا يستعمل سوى قبضة يده . ولكن هذا الفرق العادي بين الجنسين ليس بادىء ذي بدء مسألة تتعلق بجنس الانسان رجلاً كان او امرأة . ففي بعض بلاد الدنيا الأخرى ، بل وحتى في العالم الغربي نفسه ليس هناك ما يمنع الرجال من ان يصرخ بعضهم في وجوه بعض عندما يستبد بهم الغضب .

واذا حدث ان مات عزيز او صديق فإنهم لا يسمحون لأنفسهم بالبكاء فقط وانما يظهرون لعين الامريكي الحائر كما لو كانوا يشجعون انفسهم على الهوس والتشنجات الهستيرية .

والرجل في امريكا وفي بلاد الشرق يتعلم من صغره بوجه عامّ اما بما يسمع واما بما يرى من تصرفات ابيه واقاربه ، ويجد من يقول له « لا تبك » « كافح كرجل » « ولا تكن شبيهاً بالنساء » . . والأهم من هذه العبارات التشجيعية هو القدوة التي يخلفها الأب والرجال والاولاد الآخرون وينشأ عليها الطفل اثناء مراحل نموه .

ولا بد هنا من ان اتناول هذا الاختلاف بين قدرة الصبي على كتم مشاعره سواء كانت حزناً او فرحاً وبين عدم قدرة الفتاة على التحكم في مشاعرها وان اشرح بشكل مبدئي ايضاً كيف انه حتى في نفس الجنس يمكن ان تكون هناك فروق بارزة .. فنحن نشاهد نوعاً من البنات قد يظهرن بمظهر عدم التأثر بالمواقف المحزنة مثل الصبي ولعل هذا النوع من البنات نشأ في اسرة تتميز الأم فيها بأنها مثل الأب في ضبط النفس او لعل البنت تكون قد اتخذت الوالد وليس الأم قدوة في هذا الأمر . وحتى في هذه النقطة يتركز حديثي على الحزن الذي يرعب

الطفل سواء كان يظهر هذا الرعب او يخفيه . لكن هناك شعوراً آخر في نفس الأهمية وقد يكون اكثر ازعاجاً ويدوم وقتاً أطول . وقد يشك المرء اول الأمر حتى في مجرد وجوده . ذلك هو الشعور بالذنب .

ان احتمال شعور الطفل بالذنب بالنسبة لموت قريب ، أمر قل ان سلم به احد قبل ان بدأ الأطباء النفسيون في فهم المشاعر الخفية واسرار الأعماق . ولقد انتبهوا اولاً الى ان شخصاً كبيراً من حين لآخر يكون رد فعله ازاء موت احد افراد الأسرة ليس فقط بالحزن والحداد ، ولكن بنوع اخر من الاكتئاب، الأشد تعقيداً من الحزن ، والذي يظل الانسان فيه شهوراً عديدة ، وهو ينتحل لنفسه الأسباب كأن يقول : إنه لم يستشر الطبيب في وقت مبكر ، او انه لم يقم بالواجب كما ينبغي في اثناء المرض الأخير بل ربما يقول « ان السبب في المرض بسبب سلوكه اللامبالي منذ سنوات » . وقد يشهد اقاربه بأن هذه الاتهامات الذاتية لا أساس لها ولا داعي على الاطلاق ، وانما العكس هو الصحيح . ثم يظهر بعد حين ان مثل هذا الشخص هو فريسة لاحساس قاهر بالذنب . لا بسبب الأشياء التي اداها فعلاً او اهمل اداءها ، والتي كانت في معظمها واهية ووهمية وكان مردّها مشاعر غير طيبة ، ونوايا سيئة ، كان قد اضمرها في نفسه في بعض الأوقات نحو الميت . وفي اعماق نفسه واعمق اغوارها يكمن وهم ، بأن هذه المشاعر بطريقة ما ، طريقة سحرية ، قد سببت الأذى .

وفي بعض بلاد العالم حيث يسود الجهل وتتحكم الخرافة ، يؤمن الناس بأنهم يمرضون لأن هناك شخصاً يقوم بتوجيه سموم سحره الأسود ضدهم .

ويجب ان لا نظن ان مرضى النفوس او المتخلفين او الجهلة فقط هم الذين يؤمنون بالآثار الضارة للنوايا ، أو الأفكار الخبيثة . . ان معظمنا يفخر بتفكيره ومنطقه ، وهذه كلها مصدرها التنشئة العاقلة والتربية الصالحة، لكنا جميعاً نكاد لا نسلم من الخرافة او الوسواس بالنسبة لقوة افكارنا وكلماتنا ونوايانا وان كنا نأبى ان نعترف بذلك علناً وصراحة . إننا نتخطى الشقوق في الطريق الجانبي او نلقي بالملح من وراء ظهرنا او « نمسك الخشب » ونخاف من سير قطة سوداء من على يسار الواحد منا او يمينه ونحب كل الأيام ونكره يوم ١٣ ، واننا نعتقد في السحر ،

لا لأننا نفتقر الى العلم والثقافة ،او التربية العلمية ، وإنما لأن كلاً منا لا يزال يحمل في اعماقه آثاراً او بقايا من الطفل الذي كانه ذات يوم .

وعندما بدأ المحللون النفسيون في علاج الأطفال التعساء اكتشفوا مدى ما يشعر به هؤلاء الأطفال من عنف الاحساس بالذنب ، ليس فقط بسبب ما اقترفوه من أعمال عدائية ، ولكن بسبب رغبتهم ونواياهم العدائية التي اضمروها حتى ولو لم يترجموها الى اعمال . ولا غرابة في ذلك عندما تفكر في المسألة بهدوء .

فالأطفال يتعرضون لمناسبات كثيرة يشعرون فيها بالغضب والسخط كل يوم حين يتعرضون لألوان من الأذى والعدوان من الأطفال الآخرين ، فإذا اضيف الى ذلك ما يلقونه مراراً وتكراراً من تأديب الآباء وعقابهم وغضبهم وثورتهم عليهم ظهرت لك المسألة دون غرابة فيها .

والأطفال الصغار يعبرون عما في صدورهم من غضب نحو الآخرين بطريقة مباشرة بالعمل والتصرف وهم يشهدون آثارها في دموع الأخوة والأخوات والأصدقاء ، وفيما يبدو على آبائهم وامهاتهم من الضيق والاستنكار .

وفي استطاعتنا ان نقول ان الأمر يتطلب سنين طويلة من النمو والتطور قبل ان يدركوا ان النية السيئة والرغبة العدائية او الكره او الانتقام وكل الوان المشاعر تعيش في اعماقهم ولفترة بسيطة ولا تجد طريقها الى التنفيذ لا تؤذي اي انسان ، وانما هي مجرد خواطر عابرة زالت بزوال السبب . والآباء والأمهات في محاولاتهم للسيطرة على عداوات اطفالهم السافرة كثيراً ما يحذرونهم من احتمال حدوث آثار خطيرة تترتب على غضب او عقاب ما . . انهم قد يهددون الطفل الذي يصعد السلم بسرعة بأنه قد يتعثر فيقع فتنكسر رجله او يقتل . والآباء ايضاً ، دون ان يقصدوا ذلك ، كثيراً ما يعلمون اطفالهم انه حتى المرض يأتي من عدم الطاعة فيقولون :

« لقد سبب عراكك صداعاً لأمك . . . » . « لقد اصابك البرد لأنك لم تلبس معطفك الواقي من المطر كما قلت لك . . . » . أو تقول له عندما يتبادل هو وأخاه الرش بالماء « عندما ترشه بالماء بهذه الصورة فإنك تسبب له الاصابة

بالبرد » . وهكذا فإن كل الأطفال تدخل في رؤوسهم فكرة ، بطريقة ما ، ان غضبهم يستطيع ان يحدث اذى خطيراً ، وهذا لا يدهشهم وهم يعرفون اكثر من غيرهم مدى قوة وفعالية غضبهم اذا ما اطلق له العنان بلا ضابط ولا رابط .

وحتى في خصوماتهم الصغيرة وعراكهم العابر فإن الأطفال الصغار لا يتورعون عن التهديد بقتل بعضهم بعضاً بسبب مسألة تافهة .

فإذا مات اخ او اخت او احد الابوين بلا سبب فإن احاسيس الذنب تظهر على الطفل . . وهي احاسيس كانت قد رسبت في اعماق اللاشعور منذ الوقت الذي كان فيه على خلاف مع الطفل فعلاً ، او اراد ان يؤذيه او استعدى عليه السماء لتصيبه بمصيبة او صاعقة .

ولهذا فإن الجزء الفطري من ضمير الطفل والذي كان يتكون ويتشكل في سن الثانية والثالثة والرابعة ، يملي عليه ان نواياه الخبيثة التي اخفاها في اعماقه هي التي سببت الموت . على ان مقدار الاحساس بالذنب يتفاوت في الأطفال على اختلافهم ، فالطفل الذي سادت علاقة المحبة والحنان بينه وبين القريب الذي مات ، يقل احساسه بالاثم الى حد كبير عن الطفل الذي كان يشعر دائماً نحوه بالعداوة لسبب ما ، والطفل الذي ينشأ في ظل ابوين شديدي الوطأة يكثران من معاقبته يكون ثقل الاحساس بالاثم على ضميره اشق من الطفل الذي نشأ في ظل والدين يمارسان نوعاً من ضبط النفس والتوجيه البناء بحيث يكون ومقبولاً .

ثم انه مع افتراض تساوي سائر العوامل الأخرى فكلما كبر الطفل ازدادت معرفته بالاسباب الحقيقية للموت بحيث يزيل ذلك آثار احاسيسه البدائية بأن نواياه الخبيثة هي التي كانت السبب في حدوث الموت .

ما هي التطبيقات الخاصة بهذه المعرفة التي تقول بأن الأطفال يشعرون بالذنب ازاء موت احد افراد الأسرة ؟ .

كان الرومان يقولون : لا تذكر سيرة الميت إلا بالخير .

وهذا القول مثل اعلى يمكن للكبار ان يطبقوه . . بمعنى الابتعاد عن الكلام في سيرة الميت . لكن ذلك امر صعب جداً حتى بالنسبة للأطفال ، فإذا ما صورنا

طفلاً مات في نطاق الأسرة على انه كان ملاكاً طاهراً مظلوماً معصوماً من الخطأ ، فإن ذلك يجعل الأطفال يشعرون بالأسى ويغرقون في الاحساس بالذنب لأنهم غضبوا منه ذات يوم او اضمروا له اية نية سيئة ولهذا فيجب على الأسرة عندما تتحدث عن مدى احساسها بفقدان الطفل ان تخفف من الاسراف والمبالغة في المدح . فيقول الأب مثلاً ، مضيفاً بكلام مليء بالفهم والتسامح وليس في لهجة الاتهام او التعريض بأنه كان احيانا يخطىء او يستفز الغير بسبب عناده او صلابة رأيه الى آخر تلك الصفات ثم يضيف الى ذلك :

- « احياناً كنت اضيق بتصرفاته بدون شك » .

مثل هذه الملاحظات ، اذا ذكرت بروح من التسامح يمكن ان تصون ذكرى الفقيد ولا تصبح هذه السيرة ايضاً نقية بلا مبرر ولا تظلم الأحياء وتقلل من قدرهم وانما ايضاً تظهر للأطفال انه اذا كان في استطاعة الأب ان يعترف بالغيظ او الغضب من ذلك الميت ، فإن ذلك ينقذ الأطفال من الاحساس بالذنب ويمكنهم من ان يشعروا ببعض الراحة ، ويغفروا لأنفسهم مشاعرهم العدائية التي مرت بهم من قبل ويعرفوا ان من مات ليس معصوماً من الخطأ ، بل يمكن للانسان ان يختلف معه . وهكذا يستطيع الطفل ان ينفس عن مشاعره العدائية بالكلمات دون خجل او كتمان .

حتى في الحالة التي يكون فيها احد الأبوين قد مات فإن في امكان الآخر ، بدون ضغينة او عداء ان يعترف من حين لآخر بأن الطرف الذي مات كان مثل أي انسان آخر ، فتقول الأم : أتذكر يا بني كيف كان ابوك يغضب عندما كنت تترك دراجتك خارج المنزل ، او عندما كنت تستعمل ادواته او عندما كنت تغرق بالبكاء او ترفض الأكل لقد كان يقابل مثل هذه الأمور بنوع من المبالغة الغاضبة احياناً ولا بد انك احياناً كنت تتضايق من ذلك .

ولعلنا عند هذه النقطة يمكن ان نثير الموضوع الأوسع :
هل يجب ان نتناول اصلاً سيرة الموتى ونتحدث عنهم ؟

واعتقد ان معظم الآباء والأمهات سوف يذهلهم هذا السؤال مفترضين ان

مثل هذا الحديث امر لا مفر منه ثم هو شيء طبيعي ومقبول .

لكن هناك فئة من الناس الذين يتألمون أشد الألم بسبب ذلك لدرجة انهم لا يكادون يذكرون اسماء أقاربهم الموتى مجرد ذكر . وهم اما ان يظهروا ضيقهم واما على الأقل يغيرون الموضوع اذا تناول الأطفال سيرة الميت أو أتوا على ذكره .

ولعلك تتصور ان الطفل اذا كان يحس شعورياً او لاشعورياً بأنه مسؤول بدرجة ما عن موت الفقيد او الفقيدة فإن رفض الأب او الأم بطريقة صارمة السماح بذكر الميت او التكلم عنه ، إنما يزيد من حدة شعور الطفل بأن الأذى او الشر الذي اخفاه في اعماقه قد لعب دوراً في موت الميت .

واحياناً قد يحدث ان الأم او الأب يبالغ احدهما في رسم صورة مثالية سامية للطفل الذي مات او يستعمل هذه الصورة متعمداً لكي يؤثر في سلوك الأخوة والأخوات كأن يقول مثلاً :

ـ من المؤكد انك ترد ان تكون طفلاً وديعاً ، او اميناً او صادقاً ، او مجداً مثلما كانت اختك . ترى ماذا يكون رأيها لو انها عرفت ما فعلت اليوم ؟ .

وهذه الطريقة ظالمة وضد الأمانة طبعاً سواء بالنسبة لمن ماتت او بالنسبة لأخيها او اختها عندما يصدر عنها خطأ يستدعي اللوم لأن الأخ او الأخت ـ بالاضافة الى الاحساس بالاثم ـ لا يمكنهما الافلات من الشعور بشيء من النفور على نحو ما ، او الغيرة من تلك الأخت الراحلة المثالية التي لا تشوبها شائبة والتي لا تزال هي المحبوبة المفضلة . ومن وقت الى آخر نجد ان الأبوين اللذين عجزا عن الصبر ، او عن تقبل فكرة موت احد اطفالهما ، يأملان من طفلهما الآخر او اطفالهما ان يحققوا لهما ليس فقط ما انجزه الطفل الذي مات ، وانما ايضاً الآمال التي رسماها وأراداها له قبل موته . وقد تستبد بهما هذه المسألة لدرجة انهما يسميان الطفل الجديد باسم الطفل الراحل .

ولما كانت هذه الآمال والأماني مستحيلة التحقيق بالنسبة لأي شخص فإنها تجبر الطفل الجديد على الاحساس بالفشل او الخيبة ـ عاجلاً او آجلاً ـ في نظر ابويه وفي نظر نفسه .

وقصارى الحديث في هذا الأمر هو ان القدرة على التحدث بشكل طبيعي عن علاقة الاحياء بالاموات بدون افتعال او مثالية زائفة ، لا تكفل مساعدة الأطفال على تكيفهم مع حادث موت اخ او اخت او أب أو أم وحسب ، ولكنها تكفل في نفس الوقت بأن تساعد الأبوين بصفة خاصة في المدى الطويل على النسيان مهما كان ذلك السبيل مؤلماً لهما مؤقتاً .

ولا داعي طبعاً لأن نقول ان الطفل الذي يعيش نوبات الحزن ويتألم أشد الألم والذي يستمر معه الحزن وقتاً أطول من المتوقع والذي يمتلىء ليله بالكوابيس وبالخوف وبالفزع نتيجة لاحساس بالذنب ، لا بد لنا من ان نطلب له العلاج النفسي في عيادة احد الأطباء .

كيف يتقبل الطفل مشهد الجسد العاري

ليس المزعج هو حجم العري الذي يراه الطفل من جسد الأب او الأم او من جسده هو او جسد اخته . .

انما المزعج هو الأسلوب الخاطىء الذي يتخذه بعض الآباء والأمهات نحو ذلك الأمر .

ما هي الحدود التي نبيحها للطفل ليرى الجسد عارياً . .

وما هو الممنوع الذي يجب ان « نمنع » الطفل مشاهدته من اجزاء جسده او اجساد افراد الأسرة .

ما مدى العري ، او الحياء ، او الاحتشام ، والى أي حد يعتبر هذا او ذاك مفيداً او صحيحاً او سلبياً في نطاق الأسرة ؟

والجواب الوحيد الذي انا متأكد منه ، هو أنه لا يوجد جواب بسيط عن هذه الأسئلة :

وفي بداية هذا القرن وما تلاها من سنوات قليلة ، كان كثير من الناس ممن تأثروا بدراسات فرويد يظنون ان الجواب بسيط وسهل . فلقد ذكر فرويد ان كثيراً من الأمراض النفسية مثل الخوف الشديد او الهستيريا او العجز الجنسي الذي يصيب بعض الناس انما يصيب اولئك الذين مرّوا في طفولتهم بفترة من التحريم والحيرة المثيرة بشأن حقائق الحياة . . وطبعاً كانت الحالات المرضية التي كشف عنها فرويد والمحللون النفسيون الأول بصفة عامة ، حالات لبشر تربوا في الفترة التي تعتبر نهاية العصر الفيكتوري ، وهي فترة كانت تتميز بطابع مع التربية المغرقة في الحشمة ، والحياء ، على نحو غير عادي .

فقد كان العرف السائد بين الناس المهذبين بألا يذكر المرء كلمة « سيقان المرأة » علانية . وانما يعترف بأن للنساء اطرافاً فقط ! !

أما المرأة الحامل فقد كانت آداب العصر تقضي بأن يقال بأنها « في حالة

دقيقة » او « حرجة » او غيرها من مثل هذه الألفاظ « المهذبة » . وعندما نبه فرويد اول الأمر الى حقيقة ان معظم الأطفال في سن الرابعة والخامسة يبدون اهتماماً بالغاً وبريئاً بحقائق الحياة ، حدثت ضجة عنيفة في اوساط المجتمعات المحافظة واصيب الناس بصدمة واطلقوا عليه « الرجل الخبيث العقل » . اما اليوم وقد اصبحنا لا نخاف مسألة الجنس الى ذلك الحد ، واصبح العلم يوضح لنا كل شيء . . فقد اصبح اي أب او ام يتمتع بالإدراك وله طفل ، يستطيع ان يرى دلائل هذا الاهتمام والشغف بمعرفة حقائق الزواج والانجاب .

وعلى كل حال ، فقد كان معقولاً جداً بالنسبة للناس الذين تأثروا جداً بنظريات فرويد وأعجبوا بدراساته ، الناس الذين كانوا مهتمين بألوان الأمراض النفسية ومشكلات الحياة الزوجية ، كان منطقياً جداً بالنسبة لهؤلاء الناس ان يصلوا الى نتيجة هي . . انه بمقدار ما تقل السرية والغموض والاحساس بالعار بمقدار ما تزداد الصحة النفسية بالنسبة للجيل الناشيء .

ولهذا فقد اكدوا للآباء والأمهات اهمية ان يكونوا اكثر صراحة وحرية في اجابة اسئلة اطفالهم . . ولكن هناك بعضاً من الناس ممن لم يتقيدوا بالخجل الضيق ، هؤلاء كانوا يتعمدون شيئاً من العري في البيت ، شاعرين بأنهم يحسنون صنعاً ويرضون ضمائرهم . . لأنهم بذلك يساعدون على تربية اطفالهم . .

ومع مضي السنين وزيادة الخبرة ، أصبح من الواضح ان الابتعاد عن الأمراض النفسية والمتاعب في الحياة الجنسية ليس بهذه البساطة . . ذلك ان بعض الأطفال اصيبوا بالحيرة نتيجة افراط ابائهم وامهاتهم في التعري ، وخصوصاً ذلك النوع من التعري الذي تكمن وراءه روح خاطئة .

ويمكن ان نفهم مدى تعقد مسألة مقدار ما نستر وحدود ما نكشف ، وتأثير ذلك في الآخرين ، اذا دققنا النظر في مدى اختلاف العادات في مختلف بلاد العالم ، وفكرنا في القواعد البعيدة عن المنطق التي نتبعها نحن .

ان بعض البلاد ما زالت ترى في تحجب المرأة دليلاً على الحياء . . وتستنكر السفور ولا تقره ، في حين اننا نعتبر السفور ظاهرة طبيعية كتعاقب الليل

والنهار . اما في جزر « بالي » فالنساء يعرين اجسامهن حتى الخصر ، ولكني اشك في ان هذه الظاهرة تجعل رجال « بالي » في حالة استياء دائم . وفي زماننا هذا في امريكا ، تكاد تكون من العادات الطبيعية للرجال على الشواطىء ان يعروا اجسادهم الى ما تحت الوسط ، على الرغم من ان منظر بعضهم فظيع ، في حين ان ذلك الأمر كان منذ خمسين عاماً ، من الخطايا البشعة فعلاً . . والنساء على الشواطىء لا يرتدين اليوم سوى«المايوه» . وانا لنلاحظ ان الأجزاء العارية من المرأة على الشاطىء والتي قد لا تلفت نظر الرجال اطلاقاً جديرة بأن تثير ملاحظة كل رجل في مكان آخر غير الشاطىء في أي مناسبة تضم الرجال والنساء ، خصوصاً اذا كانت المرأة من النوع التافه طويل اللسان .

وقد يوحي اختياري للأمثلة بأن النساء فقط هن الراغبات في لفت الانتباه اليهن . ولكن الرجال في الواقع ، لديهم نفس الحافز ايضاً .

بيد ان حضارتنا تسخر من الرجال الذين يسرفون في ذلك ، كما ان النساء ، لكونهن اعقل واحكم بالطبيعة والفطرة ، لا يعجبن بالاجسام ولا يقعن تحت تأثيرها الخلاب مثلما يحدث للرجل عادة .

ان الشبان الذين يستعرضون اجسامهم على الشاطىء ويلعبون كرة اليد ساعات طويلة ليبرزوا عضلاتهم يظفرون بالحسرة وخيبة الأمل لأنهم لا يجذبون اليهم جمهوراً كبيراً من المعجبات الجميلات .

ولعل هذه الأمثلة تكفي للتدليل على ان العري في حد ذاته ليس بالتأكيد امراً مزعجاً . . ولعلك تقول ، وفي خيالك العادات المختلفة على الشواطىء وفي قاعات الاستقبال ، ان العادة والعرف والمألوف هي التي تحدث الفرق . . ان ذلك طبعاً امر حقيقي . .

ولكن ، المسألة الأهم هي ، بالتأكيد ، ما نحاول ان نفعل ازاء ما نعري وما نستر ، وهل نحن نحاول ان نجذب الانتباه بطريقة مثيرة ؟

وطبعاً ليست المسألة مجرد ما نحاول ان نفعل على مستوى الوعي ، ونحن نعرفه ونعترف به ولكن ما نحاول ان نفعل لا شعورياً ودون ان ندرك ذلك .

ولعلك تظن ان كلامي هذا يتضمن انه من الخطأ ان نلفت الأنظار الى انفسنا . وليس هذا ما اعنيه ، ان ذلك جزء طبيعي من الطبيعة الانسانية ، وهو السبب الرئيسي الذي يحفزنا الى البحث عن ملابس تلائمنا وتناسبنا . وهو السبب الرئيسي في استمرار تغير زي ملابس النساء على نحو دائم ، وهو السبب في ان ملابس النساء تظهر شيئاً وتستر شيئاً .

اننا نستعمل ملابسنا ونتأنق في اختيارها ، ونحن نقصد عامدين الى اقصى حد ان نجذب من يروقنا من الجنس الآخر ، وخصوصاً قبل الزواج .

ولكن ، حتى بعد الزواج ، فمن منا الذي بلغ من التأنق والظرف الحد الذي لا يرغب معه ان يظل جذاباً ويحافظ على اناقته باستمرار . ان المسألة في الواقع مسألة نسبة ومسألة نية ايضاً .

ان شالاً من الحرير البراق الملقى على الكتفين وشيئاً من الدلال ، لا بأس بهما في حفلة راقصة عندما تكون الجاذبية والفتنة والدلال اموراً مقبولة ومرغوبة ، بل وموضع احترام في المجتمع نفسه ، ولكن نفس هذه الملابس ونفس هذا المقدار من الدلال في مكتب عمل او محل ، يقابله الناس بالاشمئزاز على اعتبار انه ضد العرف والتقاليد . . ونفس مسألة النسبة والهدف تنطبق على الأثر الذي نحدثه في اطفالنا بسبب ما نلبس وما لا نلبس .

إن أي أم ذكية طبيعية تشعر بالسعادة اذا ما قال لها طفلها البالغ من العمر خمس سنوات وهو يراها لابسة ثوب الخروج ، « انك جميلة يا امي » .

ونفس الأم قد تشتري رداء للنوم لتدخل السعادة على زوجها . . ولكنها لن تلبسه وتقوم باستعراض مفاتنها من اجل ابنها .

بيد ان ما يعقد مثل هذه الأمور ان هناك فئة من الناس تمتلىء نفوسهم برغبة اكثر من المعتاد تحفزهم الى لفت انظار الجنس الآخر ، بواسطة الملابس او بدونها . . وهناك فريق من هذه الفئة يدركون ما يفعلون والبعض الآخر لا يعترفون بذلك على الاطلاق ، حتى لأنفسهم ، والبعض منهم ، دون ان يفطنوا الى ذلك ، قد يجدون لذة في الافراط ، والمبالغة في تعرية ما يجب ان يستر . . امام

اطفالهم . ولعلهم يظنون بكل اخلاص انهم يحاولون ان يربوا اطفالهم تربية سليمة ، ولعلها حالة من تلك الحالات في اسرة يتفشى في كل تصرفاتها التخبط ، هي التي نبهت علماء الطب النفسي الى احتمال ان يكون كشف عورة الآباء ـ أو الأمهات ـ او ما ينبغي ان يستر من اجسامهم وفق العرف ، سبباً لاثارة قلق الطفل .

وهناك وجه آخر في المسألة ، وهو مدى ومقدار ما يباح تعريته أمام رغبة الأطفال الصغار في التساؤل وسط الحيرة والقلق ، عن الفروق بين اعضاء التناسل لدى الذكور والإناث ، الفرق بين هذه الأعضاء لدى الأطفال والكبار .

ويظهر انه من طبيعة معظم الأطفال ان يبدأوا بالملاحظة الدقيقة عن قصد . إذ يتساءلون عن الفرق بين الصبيان والبنات والرجال والنساء . . ويحدث ذلك التساؤل في فترة مبكرة من الطفولة اذا ما اتيحت لهم الفرصة . وهذه الظاهرة تبدأ في عدد قليل من الأطفال في سن الثانية والنصف ، وفي عدد اكثر في سن الثالثة ، وفي معظم الأطفال في سن الثالثة والنصف . والأطفال يندهشون في بداية الأمر ، ثم بعد ذلك بدلاً من تقبل هذا الاختلاف تبدأ الأسئلة . .

وقد تتساءل الطفلة الصغيرة عن سبب هذا الاختلاف . . وقد يتساءل الطفل الصغير عن السبب في عدم وجود عضو تناسلي عند البنت مثل عضوه التناسلي . .

وفي رأينا ، في هذه الأيام ، ان الآباء والأمهات اذا ادركوا ان هذه الاسئلة طبيعية وان هذه المخاوف طبيعية في هذه السن ، فإنهم جديرون بأن يكونوا مهيأون لمساعدة اطفالهم باجابات معقولة مريحة تشبع فضول الطفل ، وفي الوقت نفسه تجعله يتقبل هذا الاختلاف . . كأن يقولوا مثلاً للطفلة :

« انت مثل والدتك » .

ويقولون للطفل : « لقد خلق الله الذكور مختلفين عن البنات »

المهم هو روح الاجابة نفسها ، لأن اية اجابة مهما تكن وافية فإنها لن تهدىء من مخاوف الطفل او الطفلة بحيث تزيلها كلياً . وهناك دليل على انه من

الأسهل على معظم الأطفال ان يصلوا بطريقة ما الى نتائج معقولة بشأن الفروق بين الذكر والأنثى من خلال رؤية غيرهم من الأطفال ، بدلاً من ملاحظة آبائهم وامهاتهم . والسبب الرئيسي في ذلك هو ان مشاعر الحب والغيرة والاحساس بالذنب تكون نحو الوالدين اشد حدة وعمقاً منها نحو الأطفال الآخرين . . ذلك ان مثل هذه المشاعر تحدد موقف الأطفال من أي مسألة . إلا ان الاختلاف بين الكبار والصغار في هذا المجال يمكن ان يكون عاملاً من عوامل الحيرة بالنسبة للطفل الصغير .

فإذا وقعت عين الطفل على عورة ابيه ورأى شعر العانة ، فإنه يحتار في تفسيرها . وكذلك الأمر بالقياس الى الأم او اية امرأة اخرى .

ثم ان الأطفال يقارنون بين انفسهم وبين آبائهم في هذه المسألة اذا ما دخلوا للاستحمام معاً . أما عن مقارنة الطفل بأصدقائه فإن الفروق والاختلافات لا تؤدي عادة الى حيرة الطفل كما هو الشأن مع الأبوين .

وتبقى بعد ذلك ناحية واحدة في مسألة العري يجب ان نبحثها قبل ان نحاول الوصول الى نتائج ، وهي تتعلق بدرجة الحياء بالقياس الى المراحل المختلفة من النمو .

ففي مرحلة العمر ما بين ٣ سنوات و٦ ، لا يوجد غالباً إلا ميل معتدل من جانب الأطفال للحياء إلا اذا دربوا على ذلك تدريباً مقصوداً . . وتعتبر هذه المرحلة من العمر متميزة بلازمة « العرض » التي اصطلح علماء النفس على تسميتها بظاهرة « الرغبة في العري » على اعتبار انها مرض نفسي يجبر صاحبه على اظهار ما يمنع الحياء او العفة من فضحه ، جسمياً كان او عقلياً .

ان الأطفال في هذه المرحلة يميلون الى التلذذ بعرض اجسامهم من حين لآخر .

ولكنهم في سن السابعة يدخلون في مرحلة مختلفة من نواح عديدة . . انها مرحلة تتميز بتحول شديد الى الحياء ، على الأقل في اوقات معينة حتى في نطاق

الأسرة التي تتصرف في البيت كما لو كانت في مستعمرة للعراة . . لذلك نجد الطفل في هذه السن ، عندما يطلب منه ان يخلع ملابسه في عيادة الطبيب ، فإنه ينظر بارتباك نحو الباب المفتوح ، ويسأل هل من الممكن اغلاقه . وقد تغضب الأم امام الطبيب وكأنها تريد ان تقول له : إنها لا تدري من اين جاء طفلها بكل هذا الحياء لأن ذلك ليس من صفاته او صفات الأسرة . . لكن الحياء التلقائي في هذه المرحلة ، مسألة شديدة الاختلاف والتفاوت .

فيوماً يصرخ الطفل ساخطاً اذا ما فتح شخص الباب عليه وهو في الحمام يستحم . . وفي اليوم التالي نجده يخلع كل ملابسه بدون اهتمام او تأنيب للضمير ، على الرغم من ان نصف اعضاء الأسرة يصادف وجودهم في غرفته في ذلك الوقت . . لذلك فإن خير ما يفعل الآباء والأمهات بعد سن السادسة او السابعة هو ان يضعوا في اعتبارهم ان الأطفال من الجنسين يرغبون تدريجياً في ان يخلوا الى انفسهم عندما يغيرون ملابسهم او يستحمون . . ولذلك يجب عليهم ان يتيحوا هذه الخلوة للأبناء على قدر الامكان .

وفي مرحلة المراهقة تصبح الصورة أشد تعقيداً ، فالتطور الجنسي الطبيعي يزيد تدريجياً ما لدى المراهق من حافز لجذب الانتباه ، ولكن معظم الصغار يفعلون ذلك في اول الأمر بافتعال الضجيج او الحديث بصوت مرتفع فقط عند المرور امام جماعة من الجنس الآخر . فالنزعة الى الظهور بمظهر الكبار تكون قوية ، ولكن هناك ما هو اقوى في معظمهم ، وهو الوعي بالتغير الجسماني والشعور بالقلق الذي يبلغ أشده بشأن القدرة على اداء دور الكبار ، والمشاعر المختلطة عن الحب ، او النفور والعدوان تجاه الأبوين . ان الكفّة بالنسبة لمعظم المراهقين تميل بشدة في بداية مرحلة المراهقة ناحية الحياء ، وهو امر ينبغي ان يكون موضع الاحترام ، والتشجيع .

ما حصيلة ذلك كله فيما يتعلق بسلوك الأبوين اذن ؟

ان كل اخصائي او خبير في ميدان الأطفال يوافق اليوم على ان الآباء والأمهات الذين يتحلون بميزة الحياء والاحتشام يجب ان يظلوا كذلك مع

اطفالهم . . إن الأم أو الأب الممتلىء بالحياء والذي يحاول ان يتمادى مع « ادعاء التقدم » بتعرية جسده من اجل تربية طفله ، هذا الأب لا يستطيع ان يتخلص من الاحساس بالحرج في اعماق نفسه ، وهذا الإحساس بالحرج مهما يحاول اخفاءه لا بد ان يظهر للطفل ولا بد ان يضره بدلاً من ان ينفعه . ان هذا الحرج يزعج الابن جداً بدلاً من ان يشيع في نفسه المرونة والموضوعية عندما ينظر الى اجزاء الجسم المختلفة .

ومن جهة اخرى فليس من الضروري او الصحي بالنسبة للأب او الأم الذي يقع بصر الطفل عليه مصادفة وهو في الحمام او عرياناً . . ان يصرخ او يصيح قائلاً : ياه ، او يتصرف كما لو كان الطفل قد ارتكب جريمة . . ان المبالغة في تأكيد سوء العري لا يولِّد سوى الاحساس بالعار الذي لا سبب له واحياناً الرغبة في اختلاس النظر الى العورات . . ان المطلوب فقط هو ان يطلب الأب او الأم من الطفل الخروج حتى ينتهي من الاستحمام ، وهذا لا يزيد عن مجرد التماس تقدمه للطفل لكي يحترم مشاعرك .

والآن فلننتقل الى افراد الأسرة الذين يتعرون اكثر مما يدركون . وبما ان معظم الأطباء النفسيين قرروا من واقع خبراتهم وتجاربهم ان عري الأبوين وكشفهم لما يجب ان يستر ، أمر مزعج للطفل ، فإنني اميل الى ان اقترح على كل الآباء والأمهات ، ان يراعوا ذلك ويستروا ما يجب ان يستر الى الحد المعقول في وجود الطفل . . دون ان يحيطوا الأمر بهالات الانزعاج العفوية التي تحدث في كل اسرة . وانا اعتقد ان اتجاهات الأبوين العامة وموقفهما ازاء العري والجنس ، وتجاه اطفالهما هي اهم العوامل الرئيسية ، وان مدة الوقت وحجم الأجزاء التي تظهر من الجسم هي مسألة ثانوية .

إن معظم الأطباء المتخصصين في ميدان الطفولة يؤمنون بأنه من المفيد بالنسبة للأخوة والأخوات تحت سن السادسة ان يعتادوا رؤية بعضهم بعضاً بدون ملابس ، وبطريقة عرضية في اوقات النوم عندما يكون ذلك طبيعياً . وان نفس هذا المبدأ ينطبق على الأصدقاء عندما يخلعون ملابسهم ثم يرتدونها على شاطىء البحر مثلاً وبإذا الصبيان والبنات يمكن ان يسمح لهم باستعمال نفس دورة المياه في

مدارس رياض الأطفال مع وجود رقابة من الكبار بطريقة غير مباشرة .

وفي الوقت نفسه ، فمن المفيد ان نتذكر انه بين حوالى سن الثانية والنصف وبين الثالثة والنصف يكون نضج او نمو الطفل آخذاً في الازدياد ويبلغ حداً قد يجعله يثير اسئلة معينة قد تتناول بعض مظاهر القلق والحيرة التي تدور في ذهنه بشأن الفروق والاختلافات بين الجنسين . ويبدأ الأطفال في القاء الاسئلة على الأبوين . . ويجب على الأبوين ان يكونا مستعدين لفهمها والاجابة عنها واعادة الطمأنينة والثقة الى نفس الطفل .

وقد تواجه في نفسك سؤالاً نظرياً هو . . هل من الصواب حتى بالنسبة للأخوة والأخوات الصغار ان يشاهد بعضهم بعضاً ما دام ذلك يثير الفضول في نفس الطفل ويتساءل تساؤلات مختلفة ؟

والجواب الوحيد الذي اعرفه هو ان الحياة لا بد ان تخلق الواناً متنوعة من التوترات المزعجة ولو في اعماق اسعد الأطفال في العالم . . تلك مسألة لا مفر منها . ولا مفر من ان يواجه الآباء والأمهات في بعض الأحيان مثلاً الغيرة بين الأخوة والأخوات ، وخيبة امل ابنائهم بالأصدقاء ومشكلات المدرسة .

ثم ان الأطفال الذين لا تتاح لهم ابداً فرصة ملاحظة الجنس الآخر يظلون في حيرة ورغبة في اكتشاف التفاصيل الأخرى الموجودة في الجنس الآخر .

وهناك عدد منهم ، تحدثت معهم بعد ان كبروا واعترفوا لي بأنهم يشعرون بأن جهلهم لم يكن سبباً في سعادتهم ، وإنما كان نقمة وقعت بهم وكان لهذا الجهل اثر تعيس عليهم في مراحل طفولتهم . وكذلك بلغوا مبلغ الكبار أيضاً ولهذا فلا يوجد شيء اسمه نزع كل القلق والحيرة من اعماق الأطفال .

وانما هناك السؤال العملي ، وهو : كيف يمكنك تضييق نطاق هذا القلق وهذه الحيرة الى الحد المعقول ؟

من الطبيعي ان النسبة المعتدلة من التحريم التي فرضت علينا جميعاً اثناء الطفولة والتي نقلناها نحن بدورنا الى ابنائنا ، تلعب دوراً ايجابياً في تحرير عقل

الطفل في اثناء سنوات الدراسة للتفرغ لاهتمامات غير ذاتية مثل الكتابة والقراءة والحساب . .

وفي مرحلتي المراهقة والرجولة فإن الوان التحريم الطبيعية تسهم اسهاماً مقبولاً في خلق النظرة العذرية الى الحب ، وفي تذوق الأدب والفنون وفي اذكاء الطموح لانجاز الأعمال العظيمة في الدنيا .

ان مسائل الحياء والخجل في الجنس من حيث اختلاف الرجل عن المرأة او اختلاف المرأة عن الرجل شيء طبيعي في الانسان . وهي لا تسبب مشكلات الا اذا وقعنا تحت ضغوط شديدة القسوة من التزمت وليس هناك شك في اننا جميعاً كبشر نحتاج الى ان نختلي بأنفسنا ونحتاج الى « الخلوة » في بعض نواحي الحياة حتى نحتفظ لأنفسنا ببعض الأسرار . إننا نفضل احياناً ان يكون لنا مكان نضع فيه اشياء خاصة لها ذكرى خاصة . فكيف اذن نتعجب اذا كان لا بد من الاحتشام عندما يكون ذلك واجباً . !! كذلك لا بد من العري عندما يكون ذلك ضرورة !!

ان هذه هي الطبيعة الانسانية . .

عندما يكون الطفل متعصباً او متحيزاً

الطفل المليء بالتعصب الذي يكره فئة معينة من الناس ينتهي به الأمر الى ان يفقد الثقة بنفسه وان يفقد الآخرون ثقتهم به . .

لأننا بشر فإن حياتنا نصفها عقل ونصفها عواطف ومشاعر واحاسيس ولأننا بشر فكل منا يجد نفسه تلقائياً منحازاً إلى أي شيء او منحازا ضد أي شيء . اننا قد نقع في حب أي فئة من البشر وقد نقع في كراهية أي فئة اخرى . اننا قد نتعصب لرأي معين وقد نتعصب ضد رأي آخر . كلنا نملك مثل هذا النوع من المشاعر ويكون اساسه غالباً هو خبرة قديمة مرت بالواحد منا او بمجرد تصديق لبعض الأوهام التي تقال ضد بعض الفئات . هناك مثلاً من يكره المطلقين او ينحاز لنادي كرة ضد ناد آخر او يتعصب لحرفة معينة . وفي الحقيقة ان الانسان يخسر كثيراً اذا استسلم لعوامل ودوافع التعصب دون ان يدرسها جيداً . ان بعض الأشخاص قد يخسرون الكثير من الفرص لمجرد الوقوع في فخ التعصب او الانحياز ان التمادي في التعصب اوالانحياز شيء ضار بالفعل واني احاول ان اتخيل مدى الارهاق النفسي الذي يقع فيه الابن عندما يسمع من ابيه كلمات مثل « انت انسان غير ناجح انت ولد بلا اخلاق انت لا تستحق ان تكون ابناً لنا انني اكرهك انني لا استطيع ان احبك » . صحيح ان أي اب لا ينطق كل تلك الكلمات دفعة و حدة ولكنه يقولها في موقف مختلفة وعلى دفعات والابن يعاني من ارهاق نفسي نتيجة عدم احترام أبيه له .

واحياناً قد نجد احد الأبناء يعود الى المنزل وهو يشكو من ان ولداً آخر قوي البنية قد قام بضربه وليس من السهل ان نمنع انفسنا من كراهية هذا الطفل الآخر القوي البنية وليس من السهل ايضاً ان نقنع ابننا بأن الذي ضربه كان طفلا عديم التربية .

ولنتخيل ماذا يحدث في المجتمعات المتعصبة عندما يخرج الطفل في الصباح الى المدرسة فيضطهده الآخرون بسبب دينه او لونه او أي شيء من هذا القبيل. ان الآباء يقعون في هوّة من الألم والحزن والحسرة ولا يستطيعون ان يجدوا الكلمات التي يمكن ان تقنع الطفل بأن البشر كلهم طيبون بل ولا نستطيع ان نغرس في نفوس الأطفال مشاعر الحب للآخرين. ان الطفل في المجتمع المتعصب محكوم بمواجهة اختيار واضح .. هو اختيار بين نوعين من الكراهية اما ان يكره نفسه لأنه ينتمي الى اسرة يضطهدها المجتمع بسبب اللون او الدين واما ان يكره المجتمع نفسه لأنه يسمح بعدم احترام فئة منه .. وعادة ما يقع الطفل في براثن هذين النوعين من الكراهية في وقت واحد. ان الطفل الذي ينشأ في مجتمع ويسمح باضطهاد فئة منه هو طفل لا يستطيع ان يصدق ان في قلب أي انسان ذرة واحدة من الطيبة لأن علينا ان نعرف ان الأطفال وحتى الكبار ايضاً يتصرفون دائماً بالأسلوب الذي يتوقعه المجتمع منه. ونحن جميعاً نعرف ان المجتمعات المتعصبة تعاني من تعذيب الفئة المضطهدة وتعاني من ردود فعل هذه الفئة ايضاً. نحن نتوهم اننا عندما نعلم طفلنا التعصب ضد فئة معينة او ضد دين معين نجعل الطفل قوياً ولكن هذا غير صحيح. ان هذا يضع الطفل بين انياب الضعف الكامل .. الضعف غير المفهوم والذي لا سبب له .. فعندما يقول أب أمريكي لابنه ان السود قوم قذرون وان جلدهم ملوث بالطين ولا يمكن للانسان أن يعيش معهم.

ان لهذه الكلمات وقعاً سيئاً جداً على الطفل بل هو يسبب للطفل نفسه نوعاً شديداً من القلق، انه يبدأ بالخوف الذي لا مبرر له من هؤلاء السود.

وفي بعض المجتمعات نجد احد الآباء يغرس في الابن احتقار ابناء طائفة دينية معينة كأن يقول له هؤلاء الناس سيدخلون جميعاً النار يوم القيامة ولن يغفر الله لهم أي شيء. ان الله لا يحبهم.

ان ذلك يدفع الطفل الى الخوف من افراد هذه الطائفة وهو يشعر انه لا بد ان يكره هؤلاء الناس ايضاً والأكثر خطورة من ذلك انه لو عاش مع هذه الفئة في أي مرحلة من مراحل العمر فإنه يبحث عن حقيقة لماذا هو يتعصب او ينحاز ضد

هذه الفئة بل سيظل يبحث عن الصفات التي تجعله يزيد من درجة كراهيته لهذه الفئة .

اننا نحن الكبار ننسى ان كلمات التعصب لا تعدو كونها نوعاً من السموم التي نقتل بها ثقة الطفل بنفسه واننا بذلك نفقده القدرة على التفكير المتزن . اننا نملأ نفوس الأطفال بالقلق ضد فئة معينة من الناس بسبب اللون او الدين او لأي سبب آخر ونظن ان ذلك يقوي من شخصية الطفل، ولكننا في الحقيقة لا نصنع بذلك إلا الشقاء . ان بذرة كراهية واحدة نضعها في نفس الطفل جديرة في بعض الأحيان بأن تجعله يكره المجتمع كله والمستقبل كله دون سبب واضح . ووصف عالم بالجنس البشري قبيلتين في احدى جزر المحيط الهادي بأنهما قبيلتان تحترفان العداء رغم ان كل قبيلة منهما تتميز بالترابط وبالحب وبالقدرة على التفاهم ولكن اهل كل قبيلة يشعرون ان هناك عدواً واضحاً يشتاق الى قتل افراد قبيلته . . هذا العدو هم ابناء القبيلة الأخرى . عندما ننظر الى الحرب العالمية الأخيرة نجد ان الألمان اعتبروا ان بقية الجنس البشري كله كائنات دون مستوى البشر وكانت النتيجة النهائية هي هزيمة الألمان . ذلك ان المتعصب يختلف تماماً عن المؤمن . ان المؤمن يمنح نفسه فرصة التفكير في الآخرين . أما المتعصب فلا يمنح نفسه إلا فرصة واحدة هي كراهية الآخرين . والعيادات النفسية تظهر لنا بوضوح قدر القلق الذي يعانيه أي انسان متعصب . وهناك اختلاف في درجة التعصب بين مختلف افراد الجنس البشري . هناك طفل ينمو وينمو معه الاستعداد لأن يكره كل انسان . وهناك طفل آخر ينشأ في أسرة مترابطة بالحب فنجد انه عاجز عن كراهية أي انسان . ومستشفيات الأمراض العقلية تكشف لنا ان بعض المصابين بمرض البرانويا الذين يتخيلون انفسهم عظماء وعباقرة وان مَن حولهم يضطهدونهم . . هؤلاء المرضى نجد في بعض ظروف تربيتهم من اوهمهم بأنهم ضحايا للاضطهاد . . وبعض هؤلاء المرضى قد يكونون ضحايا وهم يُخيّل لهم واجب دفع البشرية كلها الى الايمان بفكرة معينة وتكون النتيجة ان يقابلهم المجتمع بالرفض وبالاهانة فيدخلوا مستشفى الأمراض العقلية .

وهناك بعض الملاحظات عن الفئة المتعصبة او التي تقع ضحية

للاضطهاد . ان هذه الفئة تشترك في وهم واحد هو ان هناك من يعتدي جنسياً على زوجاتهم وبالمثل بين النساء نجد ان المرأة تتخيل ان هناك واحدة اخرى من الفئة التي تتعصب ضدها قادرة على اغراء زوجها واعطائه قدراً من السعادة الجنسية لا حدلها وهنا نستطيع ان ننظر الى بعض المدن الامريكية التي ينتشر فيها التعصب ضد السود . ان الآباء يمشون في مظاهرات تصل الى حد القتل من اجل منع اختلاط الابناء البيض مع الابناء السود في المدرسة الواحدة ، لأن معظم الآباء البيض يتوهمون ان البنت اذا دخلت مدرسة مع شاب اسود فإنها ستفضل الارتباط بهذا الشاب الأسود ، لأن هذه المدن تنتشر فيها اشاعات خرافية مفادها ان القدرة الجنسية عند السود متفوقة . وقد توصل العلم الى نتيجة واضحة هو ان القدرة الجنسية لا تزيد ولا تقل بحسب الجنس او اللون كما انها ليست احتكاراً لفئة معينة . وفي مستشفيات الامراض العقلية نجد ان هناك ذعراً من العجز الجنسي يكمن في اعماق الانسان المتعصب وهو دليل على عدم الاحساس بالأمن . وليس معنى ذلك ان المرضى نفسياً هم وحدهم المتعصبون لأنه لو كان الأمر كذلك فإنه سيكون امراً غاية في الارهاق بالنسبة للاخصائيين النفسيين .

ومما يؤسف له ان جزءاً كبيراً من مشاعر التعصب والانحياز يتعلمه الافراد بسهولة . ان في اعماق كل انسان رغبة في ان يتعصب ولذلك نجد ان التعصب ينتشر بسرعة بين الجهلة والفاقدين الثقة بأنفسهم .

ان الطفل الناشىء قد يقع في براثن الخوف المؤقت من أي انسان غريب بسبب ملامح هذا الانسان او ملابسه او طريقة كلماته . لكن هذا الامر لا يستمر لمدة طويلة فما ان يبلغ الطفل عامه الرابع او الخامس حتى يبدأ في الألفة مع العالم . لكن ، غالباً ما يبدأ الآباء عندما يبلغ ابناؤهم الرابعة او الخامسة من العمر في غرس احاسيس التعصب في نفوسهم ، علماً بأن هؤلاء الاطفال بحكم الطبيعة الانسانية لا يستسلمون بسهولة لتعاليم آبائهم . لكن ماذا يفعل الطفل وهو يرى مثله الأعلى وهو الأب يصر على التعصب ضد فئة معينة ، انه يقلد اباه دون ان يدري بل يثبت لنفسه انه مثل ابيه تماماً .

ومن المهم ان نعلم نحن الآباء الأبناء الثقة بالانسان حتى يتعلم الطفل

الثقة بنفسه . وانا اعتقد ان السنوات الأولى من عمر الطفل حتى مرحلة المراهقة هي التي تتكون فيها فكرة الطفل عن الآخرين سواء بالحب او الكراهية ، بالتعصب او التسامح والمحبة . ان الطفل يبحث في بعض الأحيان عن طريقة للتخلص من مشاعره العدائية بطريقة يقبل بها المجتمع فيبدأ في كراهية الفئة التي يضطهدها المجتمع . اما اذا جعلنا الطفل يميز بين الأفكار التي تستحق ان يقف الانسان ضدها والأفكارالتي يقف الانسان معها فهذا جدير بأن يمهد الطريق أمام الطفل للموازنة بين الأمور اما اذا كان المجتمع يلقن الأبناء كراهية فئة منه فهذا جدير بأن يعاني منه المجتمع نفسه وهو ما يحدث بالفعل في المجتمع الامريكي عندما نجد ان البيض يعانون من ارتفاع نسبة الجريمة التي يرتكبها السود لا لشيء إلا للتاريخ المظلم الذي عانى منه السود .

ان علينا ان نعلم ابناءنا التسامح والبعد عن الانحياز كي يتعلموا الثقة بالنفس ويتجنبوا الوقوع في براثن القلق الذي لا داعي له والذي يقود في النهاية الى تدمير المستقبل .

المراهق .. كيف يواجه حقائق الحياة

يحتاج المراهق الى صديق من الكبار ولكن ، لكي يحظى الكبير بصداقة المراهق .. فإن ذلك مسألة غاية في الصعوبة . ويجب ان لا نستسلم لعدم الاهتمام بالمراهق او نستسلم للضيق به او حصاره في سلسلة من الأوامر والنواهي .

لنتذكر انه انسان يحتاج الى رعايتنا ..

الحديث مع المراهق صعب . لماذا ؟ :

ليس سهلاً ان نتحدث مع مراهق عن الحب او علاقة الشاب بالفتاة او في مسائل الجنس .

ان الذي يظن ان هذه المسألة سهلة يخدع نفسه والأب الناضج الذي يعتبر نفسه واسع الأفق الى الدرجة التي يمكنه فيها التفاهم مع ابنه المراهق قد يجد صعوبة في ذلك .

ان الدراسات والإحصاءات تشير الى ان عدداً قليلاً من مراهقي العالم هم الذين يتلقون القدر المناسب من التفاهم والحب مع من اسرهم .

ان معظم المراهقين يعترفون بوضوح وصراحة بأنهم يتعلمون كل اسرار الحياة من الأصدقاء ومن قراءة الكتب ومن الخبرة المباشرة .

وهناك اسباب حقيقية لصعوبة التفاهم بين الوالدين والمراهقين .فالانسان يختلف في نواح كثيرة عن كافة المخلوقات الأخرى ، فإن العلاقة الجنسية بين الذكر والأنثى من بني الانسان ، تتضمن قدراً من الحياء ومشاعر الارتباك والشعور بالذنب حتى في اقطار الدنيا التي تختلف فيها العادات والتقاليد اختلافاً بيناً عما هي عليه في غيرها .

وليس هذا الاختلاف القائم بين البشر وغيرهم من المخلوقات والكائنات ، بسيطاً غير هام . ومما تعلمناه وعرفناه من التحليل النفسي ، نفترض ان هذه المشاعر المقيدة خلقت في الجنس البشري كجزء أساسي من طبيعته خلال

سير التطور ، وانها توجد جزئياً في كل فرد بوساطة دوافعه الموروثة وجزئياً بوساطة الخبرات التقليدية لظروف تربيته ونموه في اسرته .

وفي كل الكائنات الأخرى باستثناء الانسان فإن فترة اعتماد الطفل على اسرته هي فترة قصيرة نسبياً ، ثم انها تؤدي مباشرة الى النضج الجنسي الكامل . وليس هناك خطر او تحريم بحكم الدين ، او التقاليد ، او العرف في مرحلة الكبر يفرض على الحيوانات قيوداً او يعلمها ان الجنس مسألة يحوطها الخجل، او ان العلاقات الجنسية بين بعض الحيوانات عمل خاطىء او آثم . ان الانسان بالمقارنة بينه وبين المخلوقات الأخرى ، يقطع مسيرة طويلة ومتعرجة من النمو الوجداني . فهناك عام بأكمله من العجز الكامل في بداية الطفولة ، ثم هناك عامان يكتشف الأطفال اثناءهما انهم مخلوقات او كائنات منفصلة قائمة بذاتها ، وان كانوا في حالة اعتماد مطلق على الأهل ، ومع ذلك يؤكدون استقلالهم الضعيف غير الكامل .

وبين الثالثة والسادسة يصبح الأطفال على درجة من الايجابية في علاقتهم بآبائهم. فالولد في هذه المرحلة ينمي مثله العليا الخاصة بالرجولة عن طريق حبه وولائه لأبيه . وينمي مثله العليا الأساسية الخاصة بالنساء والزواج بأن يصبح مرتبطاً بأمه ارتباطاً رومانتيكياً وثيقاً . لكن الحب الانساني الرومانتيكي يتميز بالغيرة والرغبة في التملك . ونحن نعتقد انه يثير في الولد الصغير في سن الرابعة او الخامسة مشاعر خفية من المنافسة مع ابيه ويجعله يقلق اذ يدور بخلده ان اباه يضمر له نفس المشاعر من المنافسة والغضب عليه . اما البنت الصغيرة ، التي تساور نفسها مشاعر المنافسة مع امها لجذب انتباه الأب ، فإنها تتصور ان امها في حالة ضيق بها واستياء منها . واعلان الأبوين لاستنكارهما لملامسة الطفل لاعضائه التناسلية ، وهو امر ينتشر بين الأطفال في هذه السن ، يقوي فكرة الطفل بأن الأب او الأم غاضب عليه بشأن كل ما يتعلق بأفكاره الرومانتيكية او الجنسية . وهذه الأفكار ترهق الأطفال الصغار وتقلقهم جداً لدرجة انهم لا يريدون ان يفكروا فيها وانما يكبتونها بسرعة في اغوار العقل الباطن حيث تكمن في اعماق اللاشعور .

ونحن نعتقد ، نتيجة التحليل النفسي لآلاف الكبار والصغار ، ومن مواقف اللعب والتمثيل التي يخلقها الأطفال لأنفسهم ولما يلعبون به من دمى ومن الأحلام المزعجة التي كثيراً ما تقض مضاجع الأطفال في هذه السن ان هذا الخوف من غضب الأبوين بخصوص مظاهر الذكورة والانوثة من الناحية الجنسية ، امر منتشر في جميع الأطفال في سن الرابعة والخامسة .

وكلما ازداد الخوف والحيرة والقلق ، فإنها في آخر الأمر تجعل كل طفل يكبت مشاعره الرومانتيكية والجنسية . يحدث ذلك في حوالى سن الخامسة والسادسة والسابعة وخصوصاً بالنسبة لأفراد اسرة الطفل .

وهذه المشاعر تظل دفينة في اللاشعور حوالى السنوات الست التالية . فهذه هي السن التي يدعي فيها الطفل ان البنات منفرات وكريهات بحيث يحتقر أي حديث او افلام سينمائية عن الحب . ولا يقبل المعاملة الرقيقة من امه ويحول اهتماماته وشغفه نحو عمله المدرسي .

وهناك مقارنة تحدث في البنات ولكنهن عادة لا يشعرن بنفس الدرجة من الخوف ولا يكبتن ميولهن الرومانتيكية كبتاً عميقاً دفيناً مثل الأولاد . ونحن نعتقد ان حدوث هذا الكبت ضرورة بيولوجية في جنس يحب بكل هذه القوة ، ومفروض فيه على الاطفال ان يعتمدوا على آبائهم وامهاتهم حوالى خمسة عشر او عشرين عاماً وهم يتعلمون كيف يمضون في الحياة ويتخذون فيها سبيلاً الى النجاح . ثم ان الأسر يصيبها التصدع والتمزق بسبب ما يحدث فيها من الوان الحقد والحسد والغيرة قبل ان يستعد الأطفال لتولي مسؤوليات حياتهم بأنفسهم دون مساعدة من احد .

ان التغيرات التي تحدث في الغدد في بداية المراهقة هي التي تتكفل بازالة هذا الادعاء الكاذب المميز لمرحلة الطفولة المتوسطة بالادعاء بأن مشاعرنا نحو الجنس الآخر يمكن تجاهلها .

وتميل المشاعر الرومانتيكية والجنسية الجديدة الى الاتجاه نحو الابوين مرة اخرى، لا شعورياً،ولكن المراهق يرفض الاعتراف بذلك ويقاومه ، بل ويكون

احيانا في غاية القسوة والمشاكسة مع امه بصورة لا تطاق ان كان صبياً.. ومن الملاحظ ان الصبي بصفة خاصة يكون اكثر ميلاً للنفور الشديد من حنان الأم اذا كان التعبير عنه بالضم او التقبيل .

والبنت قد تتوسل الى امها بألا تذكر لأبيها ان بلغت مرحلة المحيض وتتجدد مرة اخرى المنافسة القديمة مع الأب اذا كان الطفل ذكراً ومع الأم اذا كانت بنتاً وهي تتجدد بشكل قوي شديد وحاد . والطفل في هذه المرحلة يقترب حقاً من النضج ومن المنافسة مع الكبار على نحو جديد . والصبي ، مهما يكن وقوراً ومنطقياً في الظاهر ، لا يطيق في الحقيقة مطلقاً ان يقف ابوه موقف الآمر او الناهي الذي يجب ان تنفذ اوامره ويشعر الصبي في الأسرة المقتدرة بأن من حقه ان يستعمل سيارة الأسرة ويقودها عندما يحتاج اليها .

وتشعر البنت ان دورها قد حان كي ترتدي الملابس الجميلة وتتزين وان تكون الملكة الرومانتيكية ، وانه قد آن الأوان لأمها لكي تتراجع الى مقاعد الشيخوخة .

وعندما كان الطفل في سن الثالثة او الرابعة ، فقد كان لديه حب استطلاع بالنسبة لاسئلة معينة مثل : من أين يأتي الأطفال ؟ وكان للأب او الأم ان يشرح ويفسر ويجيب . وبين السادسة والثانية عشرة من العمر ، اصبحت اهتمامات الطفل الرومانتيكية ذات تعبير قوي ، كما اصبح قادراً على ان ينظر الى النواحي البيولوجية للتكاثر بطريقة علمية تماماً ، مثل نظرته للكرة الأرضية مثلاً وكان ذلك مما يساعد الأب او الأم على اتباع نفس الأسلوب .

ثم بعد ذلك عندما تجبره المراهقة على ان يصبح واعياً وعياً شديداً بمقدرته السابقة الجنسية ، فإن التحريمات الشديدة التي كان العرف والتقليد يفرضها عليه في السنوات الست السابقة تجعله يشعر بالضيق شعوراً حاداً . ثم انها في نفس الوقت تجعله يرفض بعنف وشدة ان ابويه يمارسان الجنس معاً مثل بقية الأزواج . فمثلاً نجد البنت المراهقة تتسربل بالخجل عندما تكون امها حاملاً . وتكاد تستنكر حدوث ذلك لأنه من المخجل جداً ان تتخيل ان والدها قد انجب هو وامها طفلاً جديداً بالطريقة المألوفة لممارسة الحب .

وعلى هذا فإن الأب ، او الأم ، هو من بعض الوجود ، آخر شخص يريد المراهق ان يعترف له باهتماماته الجنسية ، او يسمع منه تفسيراً لها وخصوصاً في حالة الصبي .وكثير من الآباء وجدوا ، عندما يحاول الأب ان يقترح مناقشة ، ان الابن سرعان ما يقول : إني اعرف كل شيء عن الموضوع ، ثم ينظر حوله ليعثر على طريق للهرب يخرج به من هذا « المأزق » الأمر الذي يجعل الأب في حالة من الاحساس الذي يعاني منه عادة من يروي نكاتاً جارحة على مسمع من اصدقائه .

وكل ما اريده من ذلك هو تحذير الآباء بأن عليهم ان يتذرعوا بالصبر والجلد كما لو كانوا يعطون دواء كريهاً لطفل صغير يتجرعه ، ولا يستسيغه .

ومن البديهي طبعاً انه من الأفضل ان تتحدث الأمهات مع البنات ، والآباء مع االأبناء. في هذه المسائل ولكن عندما يعجز الآباء عن التحدث مع الأبناء في هذه الأمور ، وكثير منهم اكثر خجلاً وحياء من الأمهات في هذا الأمر ، فجدير بالأمهات ان يأخذن بزمام المبادرة ويتولين الحديث ، فذلك خير من لا شيء .

وهناك فئة من الناس تدافع عن وجهة النظر القائلة بأن الأمهات يجب ان يتحدثن مع الأبناء والآباء مع البنات . ومن الواضح ان الأسر تختلف وتتفاوت وخير ما يقال في هذا المجال هو ان احسن سبيل هو ما يناسب ويريح كل اسرة على حدة .

وليس من المهم عدد المرات التي تتناول فيها الأسرة الحديث الجاد عن الحب والجنس . ان الأكثر اهمية هو اسلوب الحياة الذي يعيش الآباء والأطفال في ظله معاً طوال حياتهم ، فهذا الأسلوب وما يحتويه من عواطف وانفعالات وتفاعلات هو العامل المؤثر الفعال في المدى الطويل .

والأطفال يكونون مشاعرهم الأساسية عن مفهوم الرجولة ومفهوم الأبوة او الأنوثة والأمومة او الزوجية من معاملة الآباء والأمهات بعضهم لبعض . وعندما تعيش الأسرة مشاعر الحب المتبادل والرقة والاحترام والولاء ، فإن الأبناء والبنات ينشأون وهم قادرون على هذا النوع من العلاقة مع من يختارونه شريكاً لحياتهم .

إن الأطفال وهم يجتازون مرحلة المراهقة من ١٣ الى ١٩ ، لا بد لهم من ان يتقدم احد ليساعدهم على ان يبلوروا معاييرهم أكثر واكثر ، اذا تسنى لهم ان يتناقشوا مع آبائهم بطريقة عفوية - في اثناء الطعام مثلاً - الأمور التي تتعلق بمسلك اصدقائهم وزملائهم من الجنسين فذلك ينير للأبناء الطريق من حيث حقوقهم وواجباتهم وما هو مباح وما هو محرم .

إنهم حقاً وفي قرارة انفسهم يحترمون حكم آبائهم وامهاتهم ويريدون تلقي توجيههم على الرغم من انهم لا يظهرون ذلك دائماً .

ولكنهم في الوقت نفسه يمقترن القهر او الاستخفاف او الاستنكار ولهذا يجب على الأبوين ان يستمعا في حنان واهتمام لما يقوله الأبناء لهما من اخبار او ما يسألونهما من اسئلة . وفي استطاعة الآباء والأمهات ، بطريقتهم واسلوبهم في الحديث والجواب ان يوضحوا انهم يحترمون حقيقة ان الفتى مثلاً ، في هذه المرحلة ، يجب عليه ان يتخذ قراراته بنفسه عندما يكون بعيداً عن البيت ، وانهم يريدون فقط ان ينصحوه ويأخذوا بيده بشكل واعٍ حتى لا يقع في ورطة او مأزق تجعله موضع سخرية اصدقائه او تفقده احترام زملائه في المدرسة الذين لهم في نفسه مكانة خاصة .

وهناك موضوع آخر يجعل المناقشة شديدة الصعوبة هذه الأيام في البلاد المتقدمة مثل امريكا والسويد بين المراهق وبين والديه .

ذلك هو موضوع اختيار الأصدقاء الذين يخرج معهم . فقد حدثت تغيرات هائلة جداً ، فمنذ الحرب العالمية الأولى والعلاقات تزداد تساهلاً واهمالاً على نحو مستمر . والنظرة الى الجنس اصيبت ايضاً بهذا « المرض » أي مرض « التساهل » كما هو الشأن في كل المسائل الاجتماعية الأخرى .

وفي القرون الماضية كان رجال الدين وقادة المجتمع والكبار في الأسرة يتحدثون بنفس الروح والاتجاه في مسائل الاخلاق . ولم يكن معنى ذلك ان الناس كانوا كلهم متطابقين في التصرف وفقاً للقواعد الأخلاقية ، ولكنهم جميعاً كانوا يعرفون ما هي القواعد والحدود ، ومتفقين عليها . وفي القرن العشرين

فقدت هذه السلطات جزءاً من تأثيرها وسيطرتها ونفوذها على كثير من الناس .

ولقد بدأ علماء النفس وعلماء الاجتماع ، في هذا العصر ، يغزون ميدان الأخلاق ويقررون مسلك الناس في أبحاث تنشر على الجميع واليوم يحظى العلم و« الطبيعة » بقدر كبير من الاحترام ، لدرجة ان بعض الناس بعد قراءة أبحاث علماء النفس والاجتماع يميلون الى اختيار قيمهم في ضوء تلك الأبحاث .

وهناك عدد كبير جداً من الآباء والأمهات من أصحاب الضمير والوعي الذين يخشون من اتهامهم بأنهم رجعيون او متزمتون ، يترددون ويحجمون عن توجيه اطفالهم أي توجيه حازم وقد نتعجب عندما نعرف ان المراهقين أنفسهم يشكون من ذلك .وليست المسألة هي أن على الآباء جميعاً ان يؤمنوا بنفس القيم ، ولكن يجب عليهم ان يوضحوا لأبنائهم ما يؤمنون به .

وفي اعتقادي ان الفهم الواقعي الذي حصلنا عليه من الطبيعة الانسانية يجب الا يحدث فينا أي شلل او يصعق ارادتنا في توجيه وارشاد اطفالنا بل يجب ان نستفيد من هذا الفهم الذي يزودنا بالمعلومات والنصيحة حتى لا نسير في طريق الوهم ثم الى الهاوية .

وهناك سؤال أساسي يزعج ، طبعاً ، كل المراهقين ذوي التربية السليمة ، وهو هل كل علاقة جنسية في أي شكل من أشكالها تعتبر « عاراً » .

انهم يشاهدون بأعينهم مواقف واتجاهات في غاية التناقض من جانب عالم الكبار .

ومن السهل طبعاً على الآباء ان يجيبوا بأن العلاقة الجنسية في ظل الزواج الحلال لا عيب فيها ولكن المراهق لا يعيش في ظل زواج وهو بالتأكيد يستطيع ممارسة الجنس وعنده توتر حاد من المشاعر الجنسية .

واعتقد انه مما يزيد المراهق قدرة على الانضباط ، ان يسمع اباه يقول ان علماء النفس يرون ان العار بسبب الجنس جزء راسخ في الطبيعة الانسانية يحس به ويمارسه ويجربه كل الناس في كل مكان . وان هذا الاحساس بالحياء ، أو الخجل

إو العار مركب في الطبيعة الانسانية بقصد ضبط الجنس والتحكم فيه في هذا العالم المعقد الوثيق الصلات والروابط الذي يتحتم على الناس ان يعيشوا فيه ، لكننا نعرف ان الاحساس بالذنب يكون قوياً بصفة خاصة في مرحلة المراهقة ، لأن الذكورة او الأنوثة تأتي فجاة .

وهذا الأمر لا يمكن قبوله منطقياً او نزولاً على احكام العقل اكثر مما هو مستطاع بالنسبة للذنب في حالة السرقة او ايذاء شخص آخر . وتقل حدته تدريجاً نتيجة للنضج والنمو الوجداني المصاحب للنمو العام والخبرة الزواج .

وجدير بالأبوين ان يوضحا ايضاً على سبيل التفسير ان مثلنا العليا الدينية ومثلنا العليا الخاصة بحياة الأسرة ، هي التي توجهنا وترشدنا فيما يتعلق بأي ناحية من نواحي الجنس تعتبر صحية وسامية او خاطئة وآثمة بمعنى انها ضارة ومؤذية للآخرين وللفرد ذاته .

مساعدة المراهق على فهم الحب والجنس

يعيش المراهق الواناً متباينة من الصراع ، لا مفر منها يجب عليه ان يواجهها في مجالات عديدة . لكن هذه المقاومة تزداد حدة وعنفاً بصفة خاصة فيما يتعلق بالجنس . فالشهوة ، او الرغبة الجنسية ، قد جاءت فجأة وهي اكثر الحاحاً ، خصوصاً في الفتيان لكن عندما يتقدم العمر بالشاب نحو المزيد من النضج فسيكون اكثر فهماً وادراكاً لنوع الشخص من الجنس الآخر الذي يناسبه فعلاً . ولهذا فإن الشهوة الجنسية سوف تمتزج بنواح اخرى من العلاقات بين الرجل والمرأة وسوف تخضع لاعتبارات اخرى من الضبط والتحكم مثل الصداقة العميقة والمعاشرة والزمالة والاحترام والميول والمثل العليا المشتركة وخطط وآمال المستقبل،ولكنها في بداية المراهقة تهاجم الشاب فجأة بدون ان تكون مرتبطة باهتمامات او ميول اخرى . انها تعلن عن نفسها بطريقة محرجة ، وكأنها صفعات ظالمة تلطمالفتى الساذج العديمالخبرة والبنت الساذجة العديمة التجربة وليس هناك شك في انها شهوة لذيذة جزئياً ، ومثيرة ، ولكنها في نفس الوقت

يمكن ان تجلب معها اهتماماً خاصاً بالذات يخالطه فقدان الثقة والقلق والاحساس بالذنب . ولعل من امور الجنس المحيرة بصفة خاصة للمراهق في أميركا هو ان الكبار كثيراً ما يظهرون اتجاهات متناقضة امامه ومعه . ففي بعض الأحيان يتحدثون عن الجنس كأنه شيء مقدس .

واحياناً اخرى يتحدثون عن الجنس وكأنه عار كبير وذنب لا يغتفر .

واحياناً ثالثة يتكلمون عنه كما لو كان نكتة تفرض الابتسام المكبوت المتكلف

وهذه الاتجاهات المتناقضة توحي طبعاً الى المراهق بأن الكبار منافقون ، ثم انها تجعل فهم المراهق للجنس اكثر صعوبة وتعقيداً .

ويظهر انه من العسير على الكبار ان يفكروا في الجنس على اعتبار انه امر طبيعي ونبيل ولعل ذلك راجع جزئياً الى ان معظم المجتمعات في اول تاريخها نشأت كأمة شديدة التمسك بمذهب ما ، وما زالت فيها رواسب من سوء الظن بالطبيعة الانسانية ومن النظرة الخاطئة لمفهوم الجنس التي لا تزال عالقة في هذا العصر العلمي .

ولقد رأينا منذ زمن قريب ان بعض المراهقين حاولوا حسم هذا الصراع في اعماقهم بنوع من الشطط انتهى بهم الى ان الجنس والحب ليسا سوى مسألة بيولوجية في اعماقهم .وهذا صحيح فقط بالقياس الى حيوانات مثل الحشرات والأسماك والأرانب والفئران والكلاب . ونحن نعلم ـ كحقيقة لا جدال فيها ـ ان بعضاً من اسمى درجات السلوك عند الأبناء والبنات ومثلهم العليا وما فيهم من ابتكار وروح خلاقة انما هو نتيجة لمقدرتهم على تبادل الحب الحقيقي السليم فيما بينهم .

فإذا حاولوا انكار النواحي الروحية للحب ، فإنهم يقيناً سوف يقعون في هوّة الحيرة وفي المزيد من الارتباك ، الأمر الذي يقودهم في النهاية الى مرارة الاحساس بخيبة الأمل في انفسهم وفي غيرهم ، سواء في علاقاتهم وصداقاتهم وما بينهم من الاختلاط قبل الزواج ، او بعد الزواج . ومن الأفضل ان نوضح

لهم من اول الأمر الفروق بين الذكر والأنثى فيما يتعلق بطبيعة حوافزهم الجنسية . وفي القرن التاسع عشر كان من المعتقدات التي جرى عليها العرف ان الرجال وحدهم هم الذين عندهم الدوافع الجنسية ، اما النساء الصالحات الطاهرات فقد كن مخلوقات بدون هذه الرغبة ثم حدثت بعد ذلك ثورة التمرد ضد الحياء والمغالاة في التدقيق والنفاق الذي يؤدي الى المنطق المزدوج والى تراوح المؤشر في الاتجاه المضاد . فلقد جاهر البعض بأن للنساء نفس الحوافز والرغبات مثل الرجال سواء بسواء .

وفي هذا العصر اخذ البعض يتحدث عن الفروق والاختلافات بين الجنسين ثانية . وبصفة عامة ، فإن الرغبة الجنسية في الفتيان والرجال اكثر الحاحاً بدرجة كبيرة تفوق ما هي عليه عند البنات والنساء . وهي في الوقت نفسه رغبة اقل تمييزاً في اختيارها ، ثم انها سريعة الاستجابة للجنس اللطيف اذا كان جذاباً ومتجاوباً .

لكن الرغبة الجنسية عند الفتى يمكن ان يثيرها وجه جميل فقط ، او قوام جميل حتى ولو لم تكن شخصية الأنثى ذات جاذبية خاصة .

إن المراهق يمكن ان تثيره مجرد الصورة او مضمون القصص او حتى الفكرة الخيالية وليس معنى هذا ان المراهق يفتقر الى النواحي الأخرى من الحب الرومانتيكي فذلك امر يتوقف الى حد كبير على نوع الأسرة التي ينشأ فيها . فإذا كان ابوه من النوع الذي يبدي الشوق والحرارة والرقة والرعاية والحماية والحنان للأمم فإن ذلك يبني اماني الولد لما سيمنحه هو ويعطيه ويبذله من ذات نفسه وعاطفته للمرأة عندما يكبر . وانا لنعلم ايضاً ان قدرة للأم على الحب روحياً تنمو وتنشأ منذ بداية طفولته الأولى عن طريق حبه الشديد للأم الحنون الطيبة عندما كانت عنده اهم انسان في الدنيا . وهذا هو ما يلهمه ، بعد ذلك بسنوات في مرحلة المراهقة ، الوقوع في حب فتاة تشبه امه تماماً في كل الصفات . وتعبير « يقع في الحب » يعني ان موقفه يصبح امام هذه الفتاة موقفاً رومانتيكياً يتسم بالشهامة والتبتل كما يتميز ايضاً بالرغبة الجسدية .

وهو على استعداد لأن يعيش معها في عالم مثالي وان يحيطها بهالة من

الصفات الرائعة والتي قد يصعب ان تكون موجودة فيها واعظم ما يتمناه هو ان يجعلها سعيدة في كل ناحية ، وان يبلغ النجاح في المدرسة وفي الحياة من أجلها وان يحميها .

بل ان رغبته الجسدية كلما نضج تهدف الى حد كبير وبصفة عامة الى لذتها الحسية وهو لا يشعر بأقصى سعادة إلا عندما تستجيب وتوافق .

وكل ما يعنيه من ذلك هو انه عندما يبدأ فتى الانجذاب العاطفي نحو فتاة (وتنجذب هي اليه) فهو مستعد لأن يمنحها اكثر ما يستطيع من الوان الحب وفنون الغرام والهيام والولاء ، فإذا كانت فتاة طبيعية ، فهي تريد ان تكون جذابة ، من حيث شكلها ولكنها اكثر من ذلك تريد ان تكون محبوبة جذابة عنده كشخصية جذابة ولكن الأمر يتطلب وقتاً طويلاً في مرحلة المراهقة حتى يكتشف كلاهما حقاً الصفات التي ترضي حاجاتهما ومثلهما العليا فإذا ما فعلا ذلك فسيزداد شعورهما بالحب ارتباطاً وقوة .

ولكن في اثناء ذلك فإن المشكلة هي ان الرغبة الجسدية قد تبلغ من القوة والاندفاع حداً كافياً لدرجة انه بمجرد ان يجد الفتاة التي تلائمه وتناسبه فإنه سرعان ما يريد التعبير عن حبه لها وهيامه بها . فإذا كان فتى طائشاً يحاول ان يمضي الى غايته وهذه الظاهرة صحيحة بصفة خاصة في المرحلة المبكرة من المراهقة عندما تكون الرغبة الجنسية في قوة اشتعالها وتكون منفصلة عن العاطفة .

فإذا سمحت الفتاة للفتى بالتمادي في التدليل والملاطفة بحيث تسبق اللذة الطارئة النمو الصحيح للحب سرعان ما تصبح اللذة هي الهدف الرئيسي من لقاء الفتى والفتاة وخصوصاً للفتى وقد يقف ذلك كحاجز في سبيل بلوغهما مرحلة الحب والاحترام بعضهما لبعض اكثر فأكثر . والشبان والبنات الذين يملكون احساساً بالمسؤولية يشعرون بذلك ويحاولون ضبط النفس وقمع الرغبة الحسية حتى يتجنبوا التورط في الاثم والعار . والبنات بصفة خاصة هن عادة اكثر قدرة من الأولاد في هذا المجال واكثر ضبطاً لأنفسهن ،والرغبة الجسدية عند معظم الفتيات اقل حدة والحاحاً .

ذلك ان استجاباتهن الجسدية تظل كامنة نسبياً حتى تحركها وتوقظها المحاولات المبذولة للاقتراب من قبل الشاب . ثم ان الفتاة في الغالب اقل من الفتى شغفا الى الانسياق في تيار ما يتمناه الشاب .

قد يجذبها وجه الشاب من اول نظرة ولكن سرعان ما تبدأ بصيرتها في العمل والرقابة ثم بعد ذلك تستجيب الى جاذبية شخصيته بكاملها ، واهم شيء على الاطلاق الى ملاءمته لها كشريك وزوج على المدى الطويل . وكل ذلك لا يعني ان الفتيات لا يملكن الاهتمام الشديد او الشغف الحاد ، بل في الواقع توحي كل الدلالات على انهن ينفقن ساعات اكثر من الشبان ، في تبادل الحديث والتفكير بعضهن مع بعض عن اعضاء الجنس الآخر ونقدهم وتصنيفهم جزئياً على أساس الجاذبية الرومانتيكية الغرامية ولكن على نحو واقعي جداً أيضاً .

ومن الطريف ان نعرف ان الدراسات الاحصائية قد اثبتت ان النساء ، على عكس الرجال ، يحكمن على المرشح للزواج ، على أساس أي نوع من الزوج والأب ورب الأسرة هو اكثر مما يحكمن عليه على أساس موقفه بشأن القضايا الأخرى وذلك لأن الاعتبار الأول ارجح في التقدير .

وفي السنوات الأولى من مرحلة المراهقة ـ ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، يكون اهتمام الفتيات بالفتيان المناسبين كبيراً جداً ، في حين ان خجل وحياء واحجام الفتيان مخيب للآمال جداً لدرجة ان بعض الفتيات يأخذن بزمام المبادرة في كثير من الجرأة والاقدام الى حد مدهش في مطاردة من يروق لهن من الفتيان ، او في التدبير المتعمد لاظهار مشاعرهن بطرق ملتوية .

على انه من اللازم بالنسبة للفتاة ان تعرف منذ بداية المراهقة ان لديها قدرة على الرغبة الجنسية الجسدية القوية . فإذا ما قضت هي وفتى رقيق المشاعر بضع ساعات معاً في خلوة على مدى فترة اسابيع وشهور ، فإن ذلك يزيد الرغبة في الصلة الجسدية المشتعلة بالحدة والعنف معاً .

وكل مرحلة من مراحل هذه الصلات الوثيقة التي تتجاوز فيها العواطف الى الاجسام تخلق مزيداً من الرغبة الشديدة في الخطوة التالية . تلك سنة الطبيعة

البشرية وذلك حتى يمكن للضوابط اللازمة في الجنس البشري ، ان تكسر حواجزها تدريجياً بين شخصين يستعدان للزواج . والمشكلة هي ان الطبيعة تهيء الشاب او الفتاة للزواج في حوالى الخامسة عشرة او السادسة عشرة من العمر . لكن ظروف النضج العقلي والعملي والاجتماعي تتأخر عن ذلك عشر سنوات اخرى .

والاختلاط المبكر والصداقات واواصر المودة بين الفتيان والفتيات ، واستمرار العلاقات على نحو مستمر ، يمكن ان يشجع التآلف القوي حتى قبل سن الخامسة عشرة . ولكن المجتمع المتحضر يفرض على كل شخص ان يتعلم بالمدرسة حتى سن السابعة عشرة او الثامنة عشرة على الأقل ، وهذه الفترة تطول وتطول بالنسبة لكثير من الناس . ولهذا فإن هذه العلاقات المبكرة بين الجنسين يجب ان يغلب عليها الاختلاط السليم وباشراف الكبار حتى نجنب اولادنا وبناتنا الانزلاق الى ما لا يمكنهما ان يتحملا مسؤولياته .

ان هناك نوعاً من حب الاستطلاع الذي يتسم بطابع القلق ثم يتحول الى الألم وهو يسعى الى معرفة ماذا يعني الجنس حقاً وهو يزداد حدة على نحو مستمر خلال المراهقة .

والشبان والبنات الذين يتصفون بالجرأة والصراحة يشكون من ان المحاضرات في المدارس والكليات واحاديث المشرفين والآباء والأمهات والكتب ، ليست كافية ولا وافية . وهذه الشكاوى غالباً ما تكون صحيحة .

لكني اعتقد ، انه حتى عندما تكون هذه المصادر او الاصدقاء أصحاب الخبرة في غاية الوضوح تماماً ، فإن الفتى ، او الفتاة ، لا بد ان يشعر بأنه يخدع او يغش الى ان يقدر له ان يمارس بنفسه علاقة جنسية مقنعة مشبعة . وعند كل فتى كما هو في كل رجل نوع من القلق الدائم الباحث عن معرفة ما يؤكد رجولته بصفة عامة والى شعوره بأن فيه من الصفات والقدرات ما يجعله محباً كفؤاً لمن يحب . ويتفاوت ذلك تفاوتاً كبيراً في الأفراد .

وهذه المسألة لا تظهر على سطح الوعي بشكل واضح في المرحلة المبكرة من

المراهقة ولكنها لا تلبث ان تصبح ملحة بصفة خاصة طوال بقية هذه المرحلة حتى يثبت الشاب ان في استطاعته ان يفوز بالمرأة ويرضيها .

والرجال والشباب ينطوون طوال حياتهم على قلقهم هذا بالنسبة لألوان من المبالغات او الكذب ، او التفاخر والاختيال امام النساء ، او صنوف الغرور التي تجعل الشاب او الرجل يتيه عجباً ، وكأنه يريد ان يبرهن للعالم على رجولته وشبابه في حين انه يجب عليه ان يكون قد نضج وكبر بحيث يجدر به ان يكون اكثر ادراكاً من ذلك .

أما القلق عند الفتيات والنساء فهو بسبب الرغبة في التأكد من انهن يتمتعن بالقدر الكافي من الأنوثة لجذب الرجل الذي يتمنينه ولمعرفة هل ستكون لديهن القدرة على الاستجابة الكاملة له .

وهذا الاهتمام ، طبعاً يصل الى قمته في سن المراهقة عندما يكون هناك أي اساس بعد للتأكد من ذلك الهدف .

أما عند المرأة ، فغالباً ما يقوم الزوج خلال ممارسته للحب معها باعطائها القدرة الكاملة على التأكد من انها تتمتع بكل الجاذبية وان كانت المرأة لا تحتاج الى ان تتأكد من ان الزوج يحبها ويحاول اسعادها خصوصاً اذا كانت عيون الرجال الآخرين تنظر اليها على أنها واحدة من الجميلات اللائي يتمتعن بقدر كبير من الجاذبية .

على ان هناك فئة قليلة من النساء تظل محاصرة بالقلق وعدم الثقة في هذا المجال وتصل بهن درجة عدم الثقة بالنفس الى الرغبة الدائمة والمحاولة المستمرة لاغراء الرجل .

وهناك دافع آخر لظاهرة اقامة علاقات بين الجنسين في مرحلة المراهقة في البلاد المتحضرة اساسها مصاحبة الشاب والفتاة في النزهة او الطعام او السينما ظاهرة اصبحت قوية بشكل كبير جداً . وهي رغبة المراهقين والمراهقات في ان يكون لهم ، صديقة او « صديق » بمعنى رفيق دائم او رفيقة لكي يقلدوا غيرهم ويكونوا مثل بقية الناس وأساس هذه الظاهرة هو التقليد والرغبة في البحث عن

المكانة الاجتماعية والعمل على طلب الاستقرار في الحياة الاجتماعية وفقاً للعرف السائد الآن . وفي الماضي كانت هناك فئة قليلة من الآباء هي التي تسمح بشكل ما للابناء باتباع هذا الاسلوب في اقامة صداقة مع الجنس الآخر حتى تنتهي مرحلة المراهقة . لكن الذين يحافظون على التقاليد كانوا يعرفون ان الخجل والتقاليد الاجتماعية تحتم على الابناء ان يتريثوا وان يصبروا وألا يتعجلوا حتى يتم لهم النضج الكامل ويصبحوا قادرين على الخطبة والزواج ، او حتى « الخطبة » والفشل فيها .

ولكننا في هذه الأيام نجد بعض المراهقين ، الذين ليس لديهم أي استعداد او نضج يجبرون انفسهم على الدخول في السيارة للفوز برفيق او رفيقة ثم يلعبون دور المحبين الغارقين في الحب الى آذانهم . وهناك فتيات تعتبر الواحدة منهن نفسها عانساً فاتها قطار الحب اذا لم تظفر بزوج بمجرد التخرج في الجامعة ، بل المدرسة ، بل انا لنجد إحدى الأمهات تشجع ابنتها وتدفعها دفعاً الى هذا السبيل نتيجة لرغبة كاذبة حتى تؤكد تهافت العرسان عليها او بسبب ما لدى الأم نفسها من طموح او اغراض اخرى لا تمت الى نمو او سعادة ابنتها ،ويبلغ ذلك حد الهوس ومجرد الرغبة في البهرجة والاثارة دون النظر الى العاقبة . والفتيات اللاتي تستبد بهن اللهفة الى ان يكون لهن « اصدقاء » او « رفقاء » دائمون ، تكون الواحدة منهن مجرد « صائدة » للرجل اثناء فترة المراهقة وهذا طبعاً يجرح كبرياء الواحدة منهن . وهذا الاتجاه له آثار مدمرة لنفسية الفتاة . وعندما تصبح الفتاة سهلة المنال للفتى وتبيح له كل شيء تصبح جديرة بأن تفقد الحب والاحترام ، وليس هناك شك في ان مكانتها تهبط في نظر الفتى على الرغم من انه قد يستمر في التودد اليها . وكلما لانت ، زاد الفتى طلباً وامعاناً في الاستمتاع الكامل بما تعطيه .

ومن الأفضل والضروري للفتيات ان يعلمن ايضاً ان الشبان الذين يجدون من الفتاة هذه الألوان من الجذب والاغراء فتكون لقمة سائغة لهم ، تصبح موضع احتقار الشبان وتفقد السمعة الطيبة نتيجة لكثرة حديث الشبان عنها كما تصبح هدفاً لسخريتهم فيما بينهم وتصبح سيرتها كالثوب المليء بالثقوب .

ان السماح بما يجب ان لا يسمح به وعدم احتفاظ الفتاة بقدر من الاحتشام

والسير في طريق البحث عن اللذة فقط سواء من الشاب او من الفتاة او الاثنين معاً قبل ان يلتزما بالحب والاخلاص والتقدير المتبادل ، كل ذلك غالباً ما ينتهي الى عواقب مؤلمة في المدى البعيد بل والى فتور في العلاقة نفسها والى كسر هذه العلاقة بطريقة كريهة لأن إحدهما على الأقل يتسرب الى نفسه احساس بالاثم ، او الملل ، او كره الذات بسبب هذه العلاقة الجسدية البحتة الخالية من الكرامة ، والتي تجعل من الفتاة مستهترة في سمعتها وامانتها لنفسها وحديث كل لسان . هذا طبعاً اذا اقتصر الأمر على « التساهل » فما بالك اذا وقعت الكارثة وانتهى امر الفتاة الى الحمل ؟ ان صدمة الوالدين تكون قاسية وقد يستطيعان الصمود والخلاص مما لحق بهما من مصير ويستعيدان احترام الناس لهما وان كان احتراماً مختلطاً بالرثاء . وقد يمكنهما استئناف حياتهما العادية بمجرد التغلب على احساسهما بالعار ان وجد السبيل الى ذلك .

ولكن الجرح قد لا يشفى ووصمة العار قد تظل الى الأبد كاللعنة بسبب نزوة طارئة في لحظة تهور . كما ان الفتى والفتاة هما اكثر الناس ألماً وشقاء سواء أكانا يدركان ذلك ام لا . فإذا قررا ستر الفضيحة بالزواج وهو غالباً زواج غير مبني على الحب والاحترام المتبادلين فأكبر الظن ان هذا الزواج سوف ينتهي بالطلاق بسرعة . ومثل هذا الزواج ومثل هذا الطلاق لا بد ان يتركا مرارة في الفم وطعماً كريهاً للحياة .

وما أبعد الفرق بين هذا النوع من الزواج وذلك النوع الذي يبدأ بالاحلام وبالطمأنينة الحقيقية الخالية من الاحساس بالذنب او العار او التحدي او الطيش . ثم ما الذي يحدث اذا لم يكن هناك زواج في حالة الحمل سفاحاً ؟ تضطر الفتاة الى ان تتعذب تحت ثقل الأشهر الطويلة المخيفة والتي تعاني فيها من الوحدة والاختباء وهي تعاني متاعب الحمل الطويلة ثم الولادة بدون حب الزوج او عطفه وبدون احترام وتشجيع الاقارب .

ثم ان هذا الحمل السابق لأوانه طبعاً سوف يقطع تعليم احد الطرفين او كليهما ومن ثم فقد ينتهي مستقبلهما بالضياع .

ولعل اشد الخبرات ألماً وأقساها هو العزل والانفصال عن الأصدقاء

السابقين وزملاء الدراسة في سن تكون فيه الصداقات والحياة الجماعية هي اعز واغلى ما في الحياة . واكثر الأضرار التي تلحق بالفتى ، او الفتاة ، في المدى الطويل ، هو فقدان احترام الذات لأنه اصاب حبيبته بالأذى ، واساء الى اسرته . ان شعور الشخص بقيمته وكرامته وعاطفته واحترامه لذاته هو خير ما يجب ان يحافظ عليه حقاً اكثر من أي شيء آخر لكي يحتفظ بوقاره ويشعر بالطمأنينة من يوم ليوم ، ولكي يستمر في بناء المستقبل الناجح . واذا كانت الفتاة من النوع ذي الضمير الحساس فهي تظل غارقة في الاحساس بما تعتبره عارها . فهي تبتعد عن صديقاتها وجاراتها اذا استمرت اقامتها في نفس البلدة وتظل فريسة للمخاوف التي تجعلها تخشى ان تقع في حب فتى آخر في المستقبل لأنها تمتلىء رعباً من فكرة انها سوف تضطر الى الاعتراف ، وتمتلىء قلقاً من تصور ما ستقول لأطفالها فيما بعد ، وفي الوقت نفسه يعاودها الاحساس بالذنب بشأن من كان سبباً في مصيبتها .

وقبل ان انهي هذه المناقشة الخاصة بالحمل اريد ان اؤكدانه كانواضحاً انني كنت اتحدث عن اخطاء الانزلاق في العلاقات الجدية التي تتجاوز الحد الى ما لا تحمد عقباه والتي تبدأ باعتقاد الفتاة ان الاباحية وترك الحبل على الغارب للفتى كفيلة بايقاع الفتى في الفخ للزواج قبل ان تعرف هل بينهما حب حقيقي ام لا ، إنها بذلك تبيع جسدها بثمن رخيص بل تتاجر في روحها لكي تحصل على زوج من الوهم . بيد ان النتائج تكون مختلفة تماماً عندما يكون هناك فتى وفتاة قد اكتملت لهما اسباب النضج العاطفي بحيث ينجذبان بعضهما الى بعض كانسانين يعرفان ما هما مقبلان عليه ، وعندما تشعر الفتاة بأن جاذبيتها وانوثتها وجمالها جزء ثمين غال من كيانها كله . فبعد ان يتعارفا عن قرب يجدان ان ما بينهما من التنافر والتناقض يحملهما على قطع العلاقة القائمة بينهما بدون أي ضرر يلحق بأحد الطرفين . وقد ينتهي بهما الأمر بعد التعارف الوثيق الى ان يتحابا حباً رائعاً . ولكن خطوات هذا الحب في الاشخاص المتزنين عادة ما تكون تدريجية . صحيح ان رغبة الشاب بجسدها تزيد ولكن في الوقت نفسه تزيد رغبته في ان يحمي ويصون من يحبها .

وهذا كفيل بأن يجعل الضبط النهائي وسيلة للتعبير عن الحب بيد الفتاة نفسها وبيد الشاب نفسه . فإذا ما ازداد اقتناع الفتاة بأن فتاها شخص تستطيع ان تحبه وتعتمد عليه فإنها تضع الحدود والقيود لنفسها بحيث لا تتعداها وهذا لا يجعل الشاب الذي يحبها اقل اهتماماً بها ، او يفقد حبه لها وانما على العكس . ان معظم الشبان والشابات الذين نشأوا في اسر ذات مثل عليا لن يسمحوا لأنفسهم بالتورط في أي علاقة غير مشروعة قبل الزواج وليس ذلك بسبب عدم الرغبة ، او قلة الحب وليس ذلك بسبب انهم جبناء او رجعيون ولكن بسبب ان الفتاة بصفة خاصة ، اذا كانت مالكة لزمام نفسها ، تعلم انها بذلك تصون احترامها لنفسها . ثم ان الشاب يحبها جداً لدرجة تجعله يرفض ان يكون سبباً في شقائها ومن الأفضل للطرفين ان يتمهلا في كل خطوة حتى يتأكدا من توافقهما قبل ان يرتبطا رسمياً بالخطبة . ثم بعد ذلك احتراماً لسمعة اسرتيهما واحتراماً لزواجهما المقبل ، كل ذلك جدير بأن يجعلهما يمتنعان عن التهور وان يعلما ان الحلال اشهى واحلى من الحرام .

ولقد تناولت الموضوع كما لو كانت هناك فئتان ، فئة من الطائشين جداً ، وفئة العاقلين جداً . وفي الواقع ان الأمر طبعاً ليس كذلك بالضبط . فإن الأغلبية العظمى هي بين بين .

وعلى هذا اعتقد ان النصيحة التي يجب على الأب العاقل او الأم العاقلة ان يوصيا الابنة او الابن بها يجب ان تكون دائماً :

لا تجعل قلبك كالريشة في مهب الريح . اياك ان تنساق وراء قلة خبرتك لتحقق الشهرة او البطولة المزيفة لكسب اعجاب الجنس الآخر . فإذا خفق قلبك بالحب او الاعجاب وساورك الشك فيجب ان تناقش نفسك وعقلك لأن المناقشة عادة ما تكون هي الصحيحة السليمة التي تقود الى الاختيار السليم في المستقبل .

وفي استطاعة الأب او الأم ، من خلال خبرتهما بالحياة ان يقولا للمراهقين ، خصوصاً للفتاة ، ان بعض الأفراد الذين يشتد اعجابها وهيامها

بهم في بداية المراهقة ، قد يصبحون موضع سخريتها او تلقي بهم في زوايا النسيان والاهمال بعد سنين ، وان الفتاة التي تحترم نفسها تملك فرصة اكبر للظفر بشريك الحياة الملائم ، في نهاية المطاف .

واخشى ان تبدو هذه الملاحظة ذات مضمون رجعي . ولكنها رغم رجعيتها الظاهرية ، فإنها حكيمة كما يؤيد ذلك قطعاً معظم من تجاوزوا سن المراهقة ومعظم الكبار ، سواء منهم اولئك الذين عملوا بها وانسجموا معها بحكمة او اولئك الذين مروا بتجارب فاشلة حمقاء .

المشكلات العملية التي تعترض المراهقين :

عند معالجة بعض المشكلات التي يندفع اليها بعض المراهقين والاسئلة التي يسألونها فإنني ادرك ان اجابات الآباء والأمهات على اختلافهم لا بد ان تختلف اختلافاً كبيراً ، والأمر متوقف على اسلوب نشأة الأبوين وعلى المثل العليا التي يؤمن بها الاقارب والأصدقاء الذين يعيشون معهم ، وانا لا اريد ان افرض افكاري الخاصة فرضاً على الآخرين . ذلك ان افكاري قد تبدو لبعض الناس شديدة التزمت ، لكني اظن انه في استطاعتي ان اكون عظيم النفع بصفة خاصة لأولئك الآباء والأمهات ذوي المعايير السامية الذين يجدون صعوبة في جعل معاييرهم تلك تبدو منطقية في فترة من الزمان تتميز بالاباحية .

وانا لا انحرج من ان اقول للفتاة بكل حزم ، ألا تسمح لأي فتى ابداً بأن يتجاوز حد ما تراه صواباً ولائقاً .

ان الدنيا لم تفرغ من الشباب وهناك انواع مختلفة منهم وليس مطلوباً منها ان تمنح السعادة لعدد كبير منهم . وليس مطلوباً منها ان تصبح معبودة الجماهير من الفتيان. وانما عليها ان تختار من ترى انه اهل حقاً لصداقتها .

ومن الخير لها ان تعلم ان الشاب الذي يشعر نحوها بالانجذاب كانسانة ، هو الذي سيروق لها في الأغلب وتؤثره في المدى الطويل . ان هذا النوع من الشباب لن يهرب منها او يحتقرها بسبب حرصها على نفسها وعدم السماح بما يجب

ان لا تسمح به مهما كانت البداية بريئة . ذلك ان الشاب تمتلىء اعماقه بالشهوة والرغبة والى اثبات نفسه كرجل ، وهذه كلها دوافع تدفعه الى المحاولة بجرأة ، إلا ان الجانب المثالي فيها الذي يعجب به حقاً سيرضيه فعلاً ويفرحه بالتأكيد عندما يجدها حصناً منيعاً لا يقهر ، وان يتأكد من انها ليست سهلة المنال . وان حرصها وحياءها فيما يتعلق بجسدها عندما يقترن باحترامها له كانسان ، هو بالضبط ما يرفعها في نظره ويعلي قدرها وجاذبيتها ويجعله يفكر في ان يتحدى ذلك ويصل اليه من الطريق الشرعي وهو الزواج .

فإذا استطاعت الفتاة ان تفهم هذا الازدواج في قيم ورغبات الرجال ، فإنها بلا شك ستجد طريقها ممهداً واضحاً لكي تشقه بوصفها امرأة لها كرامة يحترمها كل من حولها .

على ان اصعب شيء بالنسبة للفتاة الناشئة بصفة خاصة هو الموازنة الذكية بين التحفظ من جهة وعدم ابداء النفور بالنسبة للشاب كانسان .

ذلك ان الشاب يميل الى الظن انه بمجرد اول خلوة مع الفتاة فإنه يجب ان يقدم ولا يحجم ، وان يكون هو البادىء للامساك بيدها او تقبيلها حتى لا تعتقد الفتاة اذا كانت من الفئة الشديدة الحياء التي تتوقع ذلك انه جبان (وهذه ناحية من نواحي قلقه التي تستبد به بشأن كفايته كرجل) . وهو يظن انها لا بد ان توقفه عند حده ، اذا كانت تأبى ذلك ومن جهة اخرى فإنه يفزع من كونه يلقى الخيبة والصد . ان تردد الشاب الصغير قد يجعله يناقش نفسه لساعات او لأيام وقد يدفعه هذا الاحساس الى ان يخطو فجأة خطوة طائشة وقد ترتاع الفتاة وتتراجع فجأة في ذعر ، او تنفجر في وجهه كالبركان الغاضب .

ومهمة الفتاة هي ان تجعل من الواضح للشاب انها لا تريد منه هذه المبادرات مهما تكن بسيطة وان تسلك في الوقت نفسه مسلكاً يوحي بأنها لا تزال صديقة له وانها تقدر اهتمامه بها فإذا كان شخصاً حساساً فقد تكفيه هذه الاشارة واذا كان الكلام لازماً لوقفه عند حده فلتقله في صراحة وهدوء . ان الشاب حين يحب فتاة حقاً ويريد ان يدعم علاقته بها ، لا بد أن يشعر بالفرح والاطمئنان عندما يعرف بوضوح وصراحة ما تريد وما لا تريد ، ولكن الفتاة الشابة تحتاج

ايضاً الى ان تعلم ان الفتى قد يظل يلح الحاحاً مستمراً لفترة ما ، او يناقشها او يبدي سخطاً وضيقاً لكي يستر كبرياءه المجروحة ، وقد يحاول ان يقنعها بأنها متزمتة ورجعية ، ولكن ، ليس من المحتم عليها ان تدافع عن أسباب سلوكها ، فذلك يطيل هذه المناقشة السخيفة فقط ، ان عليها ان تضبط نفسها وان تتمالك مشاعرها . اما اذا كانت حمقاء فإن الغضب يستبد بها حقاً ومن ثم تفقد سيطرتها على الموقف ولا تستطيع ان تعطيه درساً قد يكون افعل واعمق في المدى الطويل اذا اتسم بالهدوء وضبط النفس . ولكي تتحاشى المضي في هذه المناقشات فإن في استطاعتها ان تستأنف الحديث مرة اخرى من حيث انتهى قبل ذلك ، او توجه الحديث وجهة اخرى بهدوء واتزان .

ذلك قد يرفع عنه ثقل الاحساس بالذنب ، وفي الوقت نفسه يخلق جواً جديراً بالاحترام المتبادل ، بصرف النظر عن هذه الهفوة . ولعل الخطوة التالية هي اقتراح من الفتاة بأنه حان ميعاد العودة الى المنزل . والأهم من ذلك كله والأعمق من حيث الجوهر هو حماية الفتاة نفسها من هذه الخبرات الكريهة ، من خلال ما تتحلى به من السمعة الطيبة العامة .

لذلك فإنها يجب ألا تسمح لنفسها بالخلوة مع فتى او الخروج وحدهما إلا بعد خطوات من الدراسة والمعرفة الجيدة للشاب في مجالات جماعية مختلفة وفي نطاق الأسرة ايضاً . ويجب ايضاً ألا توافق على ركوب سيارته الفخمة وحدهما اذا دعاها لذلك .

في اعماق نفس كل شاب مهما بلغ من الجرأة ، نداء ملح يتمنى فيه ان تصده الفتاة مهما حاول اغراءها . ان الزمام بيد الفتاة اولاً وقبل كل شيء . وعليها وحدها يتوقف تطور المسألة ، ان بيدها وحدها اشارات المرور الحمراء والصفراء والخضراء . وكثيراً ما تكون الرومانسية مؤلمة في مرحلة المراهقة ، لأن الشباب غالباً ما يشعرون بخيبة الأمل فيمن ينعمون بحبه .

ان الشاب والفتاة ينجذبان بعضهما الى بعض بشغف متبادل ويفرحان عندما يكتشفان مدى ما بينهما من اهتمامات وآمال كثيرة .

بيد انه عند الوقوع في الحب يأخذ كل منهما على نفسه عهداً بالاخلاص للآخر ثم يحدث ان احدهما يفقد حماسه بدون سبب وجيه في نظر الآخر ،والأدهى من ذلك انه قد يصبح مهتماً بشخص آخر يتجه اليه بمشاعر الحب والولاء بعد ذلك العهد الذي قطعه على نفسه للطرف الآخر . وهذا الاحساس بالغدر والشعور بخيبة الأمل من الممكن ان يكون شديد الألم وقد يؤدي الى صدمة تجعل الشاب او الفتاة الذي واجه الفشل شديد الشك ويخاف التورط في أي حب او علاقة مع انسان اخر لمدة طويلة .

وكلما استعاد كل من تقدمت به السن ذكريات قصص الحب الأولى الساذجة ، قد تعلو شفاههم ابتسامات ساخرة لهذه القصص المليئة بالسذاجة ، ويحاولون اقناع المراهق بأن الحب الأول مصيره الفشل ، ولكن الكبار عندما يتعلمون ذلك انما يتحسسون ان انفعالات الانسان المراهق وعواطفه تكون شديدة وعارمة وهي عواطف وانفعالات انسان مكتمل الاحساس وان الفشل في الحب يؤذي مشاعره تماماً كما يؤذي الفشل في الحب أي انسان آخر .

اذن ما السبب في فشل قصص الحب الأولى اثناء المراهقة . هناك عدة تفسيرات لهذه المسألة .

ان المراهق بطبيعته لا يحترف الغدر او الملل وليس متردداً في عواطفه ، لكنه قد يجد ان الفتاة التي يخلص في حبها ويضفي عليها الكثير من الصفات المثالية التي ليس لها اساس من الواقع ويتجاهل مؤقتاً الصفات الرديئة الموجودة في هذه الفتاة . . ثم تبرد حرارة هذا الحب ويكتشف المراهق الذي ينمو بسرعة ان هناك اختلافات شديدة بينه وبين الشخصية التي اختارها موضوعاً لحبه ، ويكتشف ايضاً انه خلال شهور قليلة قد بلغ درجة من النضج تجعله يرى ما كان مناسباً له بالأمس غير مناسب له الآن .

وهنا يجب على الأب (او الأم) ان يوجه النصيحة بأن يحمي نفسه من متاعب الفشل من الحب وان يكون حذراً من الاعتراف بالحب دائماً وان يستمر في صداقة أي انسان من الجنس الآخر دون الاعلان عن الحب لأن ذلك قد يؤدي به

الى الفشل في هذا المجال ويسبب له اضراراً نفسية ، ولكن المراهق بطبيعة الحال لن يتقبل هذه النصيحة بسهولة . ان القلب هنا يشتعل بآلاف الرغبات والعالم يضيق كله عن احتمال الكلمات الكثيرة التي يريد ان يقولها أي عاشق لمحبوبته وهكذا نجد ان محاولة كبح جماح المشاعر تكون غاية في الصعوبة فما الحل اذن ؟

لعل افضل ما يمكن ان يفعله الآباء والأمهات هو اقناع الشباب الغارق في الحب بأن يتفق مع الطرف الذي يحبه على الصدق ويعترف كل منهما للآخر بكل شجاعة وصراحة اذا ما هبط الاحساس بالتأجج العاطفي . ان هذا مؤلم ايضاً ولكنه افضل في المدى الطويل بالنسبة للطرف الذي اصابه سهم خيبة الألم بدلاً من ان يعاني اسابيع في شكوك وافكار تسيطر عليه .

واذا وضعنا الدوافع الطبيعية الحيوية الى جانب تلك الدوافع التي تجذب الشباب والبنات أيضاً فمن الخير للشباب ان يعرفوا ان الرغبات تختلط ايضاً وانها تمتلىء بالمتناقضات في الشخصية الواحدة . ان في ذهني الآن اولئك الافراد الذين يستعملون كل ما في طاقاتهم من ذكاء وخدمة لغزو قلوب افراد الجنس الآخر ، وعندما يتم لهم ذلك ويقع الطرف الآخر في المصيدة فإنهم سرعان ما يفقدون شغفهم بالضحية ويتخلون عنها دون رحمة اوحنان،وهذا طريق اناني عدواني بين الجنسين لا يجب أن يلجأ اليه احد . ان الذين يفعلون ذلك عادة يكونون اشخاصاً شعروا باهمال آبائهم وهم يريدون لا شعورياً الانتقام من الآخرين بدلاً من الوالدين . ونحن نميل الى الاعتقاد بأن الكثير من الشباب والرجال هم اصحاب هذا النوع من السلوك ولكن هذه الظاهرة موجودة لدى الاناث ايضاً .

ان معظمنا في الحقيقة لا تخلو نفسه ولو من قدر بسيط من لذة الاحساس بالغزو . وهو شعور يظهر بوضوح وقوة من بداية المراهقة وخصوصاً قبل ان تجد المشاعر الرقيقة الكريمة نحو اعضاء معينة بالذات من الجنس الآخر فرصة لكي تنمو وتتطور . وعندما تتنافس البنات في الفوز بالفتيان ، بتقديم شيء من التساهل فإن ذلك يزيد من حدة الرغبة في الغزو عند هؤلاء البنات نحو الفتيان الذين تلعب البنات بهم ويتخذنهم هدفاً للمباراة . وهناك عشرات من اشكال

الدوافع والحوافز المختلطة التي تتميز بطابع الامراض النفسية في العلاقات بين الجنسين ، والتي تظهر بوضوح في الزواج ولكنها تسبب مشكلات في الصداقات بين الجنسين قبل الزواج ايضاً . ومنها على سبيل المثال الشخص الغيور او الشخص الذي يستبد به دافع لا شعوري لجعل المحبوب في حالة غيرة دائمة وكذلك الشخص الذي يبحث دائماً عن سبب للخلاف ودخول المعارك ، والانسان الذي يبذل كل طاقته ليجرح كرامة الطرف الآخر ويجعله في حالة من الفكر الدائم . وهناك من يقبل وضع الخضوع الذليل ، وهناك ايضاً ذلك الذي لا يختار لحبه إلا انساناً من النوع الذي لا يبالي به بحيث يتخلى عنه عند اول صد منه . وهناك الانسان الذي لا يجد انجذاباً جنسياً إلا نحو اولئك الذين لا يحترمهم سواء كان ذلك من الوجهة الخلقية او الوجهة الاجتماعية .

فإذا ما اوقع سوء الحظ مراهقاً شاباً او فتاة بين انياب خيبة الأمل او اصابه بألم شبيه بواحدة من تلك الحالات السابقة الذكر وكان هو الطرف الآخر في الحب فلعل مما يساعده على تحرير نفسه وشفائها ، اذا استطاع ان يدرك بوضوح وصفاء ان الخبرة الفاشلة ليس سببها تفاهماً بين الطرفين ، وانما مرض نفسي اصيل في الطرف الآخر اصبح صفة اساسية من صفاته . واذا ما ظهر لشخص انه وقع في حب شخص وراء الآخر وهذا ينطبق طبعاً على الجنسين بحيث انه في كل مرة لا يجد الا الفشل وخيبة الأمل بنفس الطريقة فلا بد ان يكون هناك خطأ ما فيه . وعليه ان يذهب لطلب العلاج من الطبيب النفسي . وهناك ناحية في الجنس تسبب ازعاجاً وقلقاً للمراهقين ، وهي « العادة السرية ». ولقد اظهرت الدراسات ان معظم المراهقين يستسلمون « للعادة السرية » من وقت الى آخر ولكنها دلت ايضاً على انها اقل انتشاراً وتكراراً بكثير بين اولئك الذين يملكون تجارب جنسية كاملة . ولهذا فهي بديل ومنفذ للمراهقين والشباب في نمط الحضارة الراهن الذي يفرض عليهم ان يؤجلوا ممارسة الرغبة في التعبير عن احساسهم بالارتواء الجسدي حتى الزواج .

وعادة تستمر « العادة السرية » مع الشباب وتكون مشكلة تؤرق ضميرهم لأن هناك اشاعات تنتشر عن اضرارها وهي اشاعات لا تستند الى شيء من

الصحة إلا في حالة الافراط الشديد . وتنتشر « العادة السرية » بين فئات الشباب التي تحرم من الاختلاط السليم او الزواج . وان الوالد يستطيع ان يقلل من احساس الشاب بأن « العادة السرية » كارثة لا مفر منها عندما يتولى هو شرح هذه المسألة وخصوصاً ان عدداً قليلاً من الشباب الذين هم في سن المراهقة هم الذين يستطيعون مقاومة اغراء العادة السرية كما ان عدداً قليلاً منهم ايضاً هو الذي يعرف ان اضرارها الجسدية او النفسية ليست خطيرة الى هذا الحد الذي يتصوره البعض .

وقد يحاول المراهق الجريء الذي يحب الوضوح ان يسأل : هل العادة السرية خطأ او ذنب كبير ؟

وجدير بكل والد ان يجيب عن أساس معتقداته الدينية والاخلاقية ، ووجهة نظره الشخصية ، هذا طبعاً ، اذا كان بين الأب والابن علاقة صريحة امينة لا خجل فيها ولا خداع . ولكن حتى عندما يجيب الأب : «لا ، انها ليست ذنباً ولا خطأ » فإن هذا الجواب لن يجعل المراهق صاحب المثل العليا يحس براحة تامة او طمأنينة كاملة لهذه العادة وانا اعتقد انه من الخطأ ان يقول الأب ان « العادة السرية » ليست ضارة بل لا بد ان يضع تحفظاً واضحاً هو : « اذا لم يمارسها الانسان كثيراً او يفرط فيها . . »

صحيح انه لا يوجد اساس علمي لهذا التحديد المميز بين ما هو كثير جداً وما هو ليس كثيراً جداً . ثم ان هذا القول لا يفعل شيئاً سوى انه ينقل قلق المراهق الى سؤال عن « ما هو الكثير جداً وما هو ليس كثيراً جداً » . ويجب ان نجعل المراهق يشعر بالمسؤولية نحو بناء نفسه ولا ضرر من قليل من القلق .

ان كل المراهقين لديهم اهتمامات تصل الى حد القلق من وقت لآخر بخصوص هل هم طبيعيون ام شواذ جسدياً وطبياً ونفسياً ، واجتماعياً .

واقل فرق عن الآخرين ، حقيقي او وهمي ، قد يحدث قلقاً بشأن الاتصالات الجنسية التي تخلقها دوافعهم في خيالهم ، والتي غالباً ما تكون اكثر غرابة واكثر اباحة من أي شيء آخر سمعوا به في حياتهم وسبب لهم القلق والحيرة .

ومن الممكن ان نؤكد لهم ان معظم احلام اليقظة ، طبيعي والاستثناء الأساسي من ذلك هو تلك الأحلام التي تتضمن الاعتداء او الاغتصاب . ففي هذه الحالة يجب مناقشة الأمر مع طبيب نفسي .

وهناك بعض المظاهر الأخرى لعدد من الرغبات التي تسيطر على وجه الخصوص على الشباب الخجول الذي يهاب الدخول الى مجال الاختلاط المباشر مع الجنس الآخر فيلجأون الى أساليب اخرى مثل اختلاس النظر بل ونشر الاشاعات في كل فتاة يراها او القاء الألفاظ الكريهة على اسماع البنات عن الطرق او المعاكسات السمجة على النواصي وامام دور السينما والمسارح او محاولة الاحتكاك بأي فتاة وسط أي زحام او ممارسة الشذوذ الجنسي والاعتداء على الأطفال الصغار تحت ستار اللعب . وطبعاً هنا يجب ان يتجه الآباء لطلب مشورة الطبيب النفسي عندما يكون عند ابنهم المراهق مشكلة من هذا النوع .

ومن المهم ان يعرف كل الشباب المراهق بكل وضوح ان هذه الألوان من الشذوذ التي تحمل اغراء معيناً في هذه المرحلة من العمر تحمل اخطاراً حقيقية عليهم . ذلك ان القانون والاخلاق والقيم الاجتماعية تقف بكل حزم وقسوة ضد هذه الألوان المغرية من « الشذوذ » وعليهم ان يقاوموا الانجراف فيها او الاستسلام لتيارها حتى يتجنب الواحد منهم الوقوع في مشكلات كبيرة تضعهم في عداد المنحرفين .

ويحتاج الفتيان الى ان يعرفوا ان قذف السائل المنوي اثناء النوم خلال الاحلام الجنسية شيء طبيعي ويحدث مع كل الذكور الذين لا يستطيعون الزواج بشكل منظم ، وان يعلموا ايضاً ان تكرارها وكثرتها او قلتها وندرتها مسألة لا اهمية لها .

وهناك بعض النقط الواقعية التي تحتاج الى توضيح بخصوص الأمراض التناسلية التي زادت نسبتها بين الشباب في السنوات الأخيرة بسبب عدم الانضباط الشامل في معالجة السلوك الجنسي في المجتمع العام .

هذه الأمراض لا تأتي نتيجة ارتكاب الفعل الجنسي فقط . إنما تأتي نتيجة

ممارسة الجنس مع طرف مصاب فعلاً بميكروبات الامراض التناسلية . . وطبعاً اكثر الشباب عرضة للاصابة بهذه الأمراض هم الشباب الذين مارسوا الجنس مع بغايا محترفات . ومن المفيد ان نذكر هنا بعض اعراض مرض السيلان ، ومنها مثلاً صديد مؤلم يفرزه العضو التناسلي للذكر أو الأنثى .

وهذه الافرازات تظهر في الغالب خلال خمسة ايام او سبعة ايام من الاتصال الجنسي وتكون هذه الافرازات مائلة الى اللون الأصفر ثم يتحول لونها الى اصفر ممتزج بلون اخضر . هذا في حالة الرجل ، اما في حالة الانثى فالأمر يختلف . ان هناك الافراز المهبلي الطبيعي ويكون هناك لون ابيض غير مصحوب بألم او رغبة في « الحكّ » ويظهر ذلك بوضوح اثناء اجراء زرع للجراثيم . اما مرض الزهري فأول مظاهره هو قرحة تظهر عند نهاية العضو التناسلي للذكر . وقد تكون هذه القرحة مختفية داخل مهبل عضو المرأة التناسلي قبل ان يبدأ ظهور الطفح الذي يشبه طفح الحصبة . ولا بد لنا ان نعرف ان الاصابة بمرض الزهري لا تظهر الا بعد اسابيع من الممارسة الجنسية مع طرف مصاب به . ويظهر بعد ذلك طفح شديد على الجسم وخصوصاً البطن والجانبين والاطراف . وأهم ما في ذلك الأمر كله هو ان « السيلان » والزهري يمكن علاجهما نهائياً ويمكن الشفاء منهما شفاء تاماً . ولكن يجب ان يبدأ العلاج فوراً .

وعلى كل مراهق ان يدرك عندما يقع في مثل هذا المأزق ان عليه ان يخبر والده ووالدته حتى يمكن ان يساعداه لأن كتم مثل هذا الأمر منه يترك للمرض فرصة التمكن الكامل . واذا كان من الصعب على المراهق مكاشفة والديه فعليه ان يخبر الطبيب الذي يثق به وعليه ان يحذر الوقوع في براثن طبيب غير كفء حتى لا يزيد المشكلة تعقيداً .

ونظراً لكثرة المشاكل والتوترات بل والمصائب والكوارث التي تحملها مـ ألة الجنس اثناء المراهقة ، فإن هناك سؤالاً شاذاً لا عاماً على ألسنة الآباء و¨ مهات هو :

ـ ماذا نستطيع ان نفعل للأبناء المراهقين . وما هي النصيحة الهامة التي يمكننا ان نقدمها لهم ؟

في اعتقادي الشخصي ان المجتمع العلمي من اطباء وعلماء نفس واجتماع قد اكتسب من الدراية والمعرفة الكثير جداً عن النتائج التي تعود اليها التقاليد الاجتماعية التي تغالي في ادعاء مجاراة العصر والتي انجرف فيها الشباب مع البنات واصبحت العلاقات المبكرة بين الجنسين بلا رقابة واضحة . وهذا يجبرنا على ان نعلن الحقيقة الواضحة تمام الوضوح وهي ان حجم الخسائر والاضرار الناتجة عن تلك العادات العصرية اكثر بكثير من فوائدها . ان هذا النوع من العلاقات سابق لأوانه ويدفع المراهقات الى التنافس لتفوز الواحدة منهن بصداقة احد الشباب .

يحدث ذلك قبل ان يتم في وجدانهم النضج الكامل والقدرة الكاملة على تحمل المسؤولية . وهذا طبعاً يؤدي الى نتائج سيئة تؤدي الى التقليل من احترام فكرة الحب وجعل صورتها مشوهة المعنى في اعماق الأجيال الجديدة .

ان علينا ان نعترف صراحة ان العلاقات المبكرة بين الجنسين تؤدي في معظم الأحيان الى تشجيع الاتصال الجنسي قبل ان يصل المراهق الى فهم مسؤوليات الحب الدائم وقبل ان يعرف تماماً هل من اقام معها علاقة جنسية تصلح شريكة لرحلة العمر ام لا ، وكذلك الأمر مع الفتاة .

واحياناً تؤدي هذه العلاقات الى زواج يتم قبل الأوان ، نوع من الزواج غير الناضج الذي يؤدي الى التعاسة والطلاق وقد تسبب هذه العلاقات بعض حالات الحمل غير الشرعي .

وكل هذا يؤثر في النمو السليم للشخصية ويحطم نفسية الأبناء ويقلل الفرصة امام الابناء ليتموا تعليمهم .

انني اؤمن انه من مسؤوليات الآباء والأمهات ان يقفوا ضد هذا التيار من الانحلال وان يشرحوا رأيهم بكل صراحة ووضوح للأبناء .

فهذا هو دور الأسرة وهذا هو السبب الذي تكمن فيه اهمية وجود الأسرة في المجتمع وطبعاً لن نستطيع ان ننتقل فوراً من الموقف المغرق في التحرر الى الموقف الغارق في التزمت .

ليس هذا هو المقصود ، إنما المقصود هو بذل الجهد الكامل لحماية الأبناء . وسوف يحتاج الآباء الى التعاون بكافة الوسائل مع الجيران والأصدقاء الذين يتفقون معهم في الرأي وسيحتاج الآباء الى التعاون ايضاً مع المسؤولين عن امور المدارس والمؤسسات الدينية والتربوية . ان هذه المشكلة موضوع جدير بالدراسة الجادة والبحث العلمي لايجاد وسائل للعلاج .

واعتقد ان هذه هي مهمة الجامعات ايضاً ، هي وهيئات البحث العلمي . ومن المؤكد ان غالبية المجتمعات الانسانية ستؤيد بحماس أي جهد يبذل لوقف تيار الانحلال ، وضرورة العثور على حلول مناسبة .

واذا كان هناك بعض الآباء يبادر في الوقوف في وجه هذا التيار الجارف للشباب فإن ابناء هؤلاء الآباء سيجدون انفسهم معزولين تماماً عن بقية الشباب الذين سيرفضون بحكم نشاط الآباء الفعال ضد الانحلال وبحكم ان ضمير الشباب حساس بطبيعته ان يكونوا ايضاً أصحاب مثل عليا .

وطبعاً من السهل جداً ان تكون البداية مع الشاب الذي هو في بداية المراهقة ومع الاجيال الجديدة بدلاً من محاولة تغيير اخلاقيات هؤلاء الذين انجرفوا في التيار ودخلوا رحلة العمر الثانية .

وحتى هؤلاء يمكن للآباء اصلاح حالهم عن طريق الصداقة وكلمات الود الحانية . وفي استطاعة الوالدين عن طريق الصداقة المخلصة للأبناء ان يعدلوا من سلوك هؤلاء . ومن المؤكد ان مهمة الأم كبيرة مع ابنتها . انها يجب ان تقول لابنتها باسلوب حنون انه ليس من المعقول ان تكون لها صداقة دائمة مستمرة مع شاب وان تسمح لنفسها بالخلوة معه ، خصوصاً انها لا تعرفه جيداً . وليس عنده القدرة او الاستعداد للزواج .

وارجو ألا يفهم احد كلامي على انه دعوة لمنع الاختلاط بين الجنسين ولكن معناه ان نسمح بالاختلاط تحت الرقابة الفعالة ويجب ان نزوّد الشباب بصدق الحقيقة الواقعية وهي ان معنى الشباب هو الوقت المتسع للحياة والأمل .

ولقد قصد بالشباب ان يكون الوقت المناسب لمعرفة عدد كبير من الناس ،

ولاكتشاف النفس ولم يقصد به مطلقاً ان يكون معنى الشباب الوحيد هو التفرغ لقضاء كل الوقت مع شاب واحد او فتاة واحدة لا تصلح إلا له ولا يصلح الا لها .

ان امام الاولاد والبنات فرصاً كثيرة وكبيرة للتعارف في الحفلات والدعوات في البيوت والمدارس والمناسبات الاجتماعية . وامامهم فرص كبيرة جداً في الاختلاط مع اهلهم في الرحلات التي يقوم بها عدد من الأسر في السيارات او القطارات او الحدائق العامة .

وفي استطاعة الآباء والأمهات ان يبرهنوا للابناء بالسلوك الواقعي المتبصر انهم ليسوا رجعيين الى درجة انهم اصبحوا مجرد آثار قديمة يجب ان توضع في المتاحف وليسوا متزمتين لدرجة تمنع اللقاء بين الشباب المدرك من الجنسين .

ولا شك ان الآباء والأمهات يريدون لأولادهم وبناتهم ان يتّسموا بالمزايا الكاملة والمرح المميز لفترة المراهقة وبذلك تكون السعادة عامة على الجميع بدلاً من ان تكون المراهقة عناء للجميع .

انهم يريدون ان يبعدوهم عن التورط في مواقف تعرضهم للوقوع في براثن التعاسة والشقاء ، انهم يريدونهم ان لا ينزلقوا الى ابواب الجحيم وهم في أول طريق الحياة .

وجدير بالآباء والأمهات ايضاً ان يثبتوا لأبنائهم انهم على استعداد دائماً لمناقشة القواعد والأصول . وكلما زاد نضج الشباب او الفتاة في الخبرة ازدادت امكان تحميلها او تحميله المسؤولية .

وحتى في السنوات الأخيرة من طور المراهقة . فمن رأيي ان الأم يجب ان تشجع ابنتها على ان تتمتع بمعظم حقها من المرح ، او النزهة او التسلية في جماعات وحفلات وتبتعد عن الوان الاغراءات التي توقعها في سلسلة من المشاكل حتى يتم لها اكتمال نضجها وتصل الى السن التي تستطيع ان تقرر فيها بنفسها من ستختاره شريكاً للحياة . لكن هناك سؤالاً ما زال يتردد :

ما الذي يحدث للطاقة الجنسية عندما تحرم من التعبير المباشر عن نفسها ؟ وما هي المنافذ المتاحة للأطفال الذين احسن الاعتناء بتربيتهم ؟ .

ان الاختلاط الاجتماعي العادي بين الشباب والبنات في المدارس والمناسبات الاجتماعية كفيل بتخفيف التوتر الى حد ما ، على الرغم من انه ليس فيه أي تعبير مباشر عن الجنس .

ومن الملاحظ عموماً في المدارس الداخلية للبنين والبنات ان الغياب الكامل لعنصر الجنس الآخر يفضي دائماً الى نوع من الانهماك الدائم والتفكير العنيف في العنصر الغائب بحيث يصبح الشغل الشاغل لهم او لهن .

والجنود الذين يعسكرون في المناطق النائية غير المأهولة بالسكان لا يتحدثون إلا عن الفتيات ولا عن أي شيء في هذه الدنيا سوى النساء .

واني اتذكر الآن بكل وضوح تلك الأيام التي كنت خلالها في فترة التمرين العملي في اثناء الحرب . ان بعض البنات ممن كان آباؤهن في خارج الوطن يخوضون غمار الحرب كن يلقين بأنفسهن في حضني عندما ازور بيوتهن للمعالجة لأنهن كن في سن الرابعة والخامسة وهي السن التي تكون فيها الطفلة شديدة التعلق بأبيها . لقد كن في امس الحاجة الى حنان الجنس الآخر .

والشباب في المدارس الداخلية والكليات يجدون دائماً كل تشجيع بالانغماس بكل نشاط وقوة في الألعاب الرياضية والنشاط المدرسي بهدف صرف اذهانهم عن الجنس . ولقد تعرض هذا الحل البسيط لكثير من النقد والسخرية المريرة . ولكنه يحتوي قدراً عظيماً من الصحة والسلامة .

وفي استطاعة الازواج ان يعترفوا بالحقيقة وهي ان الانهماك في مشكلات الأسرة والعمل يصرف الانتباه عن الجنس الى حد ما ، في حين ان عطلة تخلو من متاعب العمل تزيد الرغبة في الجنس . ومن المؤكد اننا نعرف اليوم ان الطاقة العاطفية التي تجعل المراهق يحلم بمستقبله حلماً مثالياً ، الطاقة العاطفية التي تحفزه للتقدم في مدرسة العلوم او التكنولوجيا او الاداب او الفنون ، كلها تنبع الى حد

كبير من تحول في دوافعه الجنسية وهو ما اصطلح عليه علم النفس على انه التسامي والتعالي .

وتدل الاحصائيات على ان المراهقين الذين يمتنعون عن الممارسات الجنسية يعتبرون أشد عزيمة على المضي قدماً في دراستهم في حين انه عندما يتزوج المراهقون في هذه السن المبكرة او يمارسون اللقاء الجنسي المحرم بانتظام فإن اهتمامهم بالدراسة يميل الى الفتور الى حد كبير كما تميل افكارهم الى الانحلال والانحطاط ايضاً .

وعلى الرغم من ان كلامنا تناول المشكلات الخاصة بالمرحلة المبكرة من المراهقة إلا انه يجب علينا ان نختم هذا الموضوع بكلمة عن العلاقة بين الدراسة والجنس على مستوى الجامعات .

ان الصراع بين الاستمرار في الدراسة وبين حياة جنسية كاملة لا يكون شديد الحدة عندما يبلغ المراهق النضج او الرشد الحقيقي .

ان الجنود السابقين الذين تزوجوا فعلاً من قبل وعادوا الى الدراسة الجامعية بعد الحرب العالمية الثانية كانوا مصممين على الحصول على كل مزايا التعليم ، وكانوا بصفة عامة موضع رعاية اساتذتهم وموضع فخرهم .

ولكن الصورة اليوم مختلطة بالنسبة لطلاب الجامعة المتزوجين .

فعندما تتم احدى الزيجات بعد تفكير وروية بين طالب وطالبة على قدر غير عادي من النضج والاتزان فإن هذا الزواج قد يكون مشجعاً على الاجتهاد في الدراسة ولكن زواجاً آخر اقل استقراراً اذا تم بناء على نزوة طارئة ، قد يصيب مرحلة تعليم الانسان بضرر مؤكد .

فالمسألة ليست مجرد صرف النظر عن الجنس وانما هناك مشكلات التكيف المتبادل التي لا مفر منها في كل حالات الزواج التي قد تصل الى حد الزوابع وتسرق الكثير من الوقت وتبدد الكثير من الجهد بحيث يصبح التركيز على الدراسة مستحيلاً .

ثم ان الحاجة الاقتصادية قد تضطر الزوجة احياناً او الزوج في احيان اخرى الى السعي للعمل والكسب . ثم ان مجيء الاطفال ، بدون سابق انذار او تدبير في الدخل والمسكن ، كفيل بتعقيد مشكلات الميزانية والتحصيل العلمي والتركيز في الدرس والتكيف بين الزوجين .

وفي خضمّ هذه الأيام الذي يسود فيه قدر من الحرية في الحياة الجنسية يتهم المنصرفون عن التفكير في الجنس بأنهم شواذ . ولكنه خطأ كبير ان تقع هذه الفئة من الطلاب في احتمال تصديق هذا المنطق الزائف . والمسؤولون في الجامعات ، وخصوصاً المشرفين الاجتماعيين ، تمتلىء ذاكرتهم بعدد كبير من المآسي بسبب العلاقات الجنسية التي تتم دون زواج وهم يؤكدون ان هذه العلاقات تنقص الاهتمام بالدراسة وتبدد كل الوقت المخصص لها بل وتمنع الطالب او الطالبة من انشاء صداقة سوية وتحصر اهتمامها ـ او اهتمامه ـ في دائرة ضيقة تمنع عنه الوان النشاط الاجتماعي والرياضي والفني وتقلل من كل قيم الصداقة الطبيعية .

وتنحصر صداقة الطالب او الطالبة في تلك الحالة ، في دائرة ضيقة تمنع عنه الحياة الاجتماعية الواسعة وهذه كلها مزايا لا تستطيع سوى الحياة الجامعية والدراسية ان تهيئها بوفرة وبذلك تنساب فرص هذه الحياة العظيمة من بين يديه كذرات الرمال بسبب اتجاهات جنسية خاطئة .

ان الخوف من الحمل السفاح والخوف من الفضيحة والاحساس بالذنب تخلق حالة دائمة من التوتر .

وانا اعتقد ان طالب (او طالبة) الجامعة الذي يريد ان يكون على يقين تام بأنه (او انها) مستعد للزواج ومؤهل له يستحق الاعجاب والتهنئة لأنه يحرص على ان لا يتورط في علاقة خاطئة .

هل نقبل فكرة الطلاق ام نقف ضدها

يكـون الطلاق احيـانـاً عـلاجـاً حـاسـماً للمشـاكـل النفسية التي يعاني منها الطفل عندما يعيش مع ابوين يكره كل منهما الآخر !!

هذه سطور من رسالة لاحدى الامهات اللاتي يعانين من شقاء كبير في حياتهن الزوجية :

- انني احتاج الى من يقول لي رأياً واضحاً عن الزواج الفاشل وآثاره الضارة على الأبناء . واحب ان اعترف انني انا وزوجي عرفنا منذ البداية ان حياتنا معاً كانت احد الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها كل منا . كنا نعرف ذلك جيداً قبل ان يصل طفلنا الى الدنيا. وقد ولد هذا الطفل منذ ثلاثة اعوام . وحاولنا ان نمثل امام الناس دور الازواج السعداء . لكن أي احساس ثقيل مرهق هذا الذي يجعلنا نعيش حياة كلها خداع في خداع . انني افكر كثيراً في تأثير الطلاق في تربية الأبناء . ان المشاكل والخلافات بيني وبين زوجي عميقة وكثيراً ما قلت لزوجي هيا نسأل احد الاخصائيين في مشاكل الزواج لعله يعطينا بعض الارشادات حتى تنجح حياتنا او علينا ان نواجه فشل هذه الحياة بصراحة . ولكن زوجي بدأ يسخر مني وهو يرفض الفكرة . إنه مغرور . بخيل . اناني . لم اره ابداً وهو يصنع خيراً او يقدم معروفاً لأحد . ان حياته كلها عبارة عن نفاق وخداع وجري وراء مصالحه . وهمه الوحيد في هذه الحياة هو ان يشتري سيارة فخمة يركبها ويستمتع بقيادتها . وعندما يدخل هذا الرجل الى المنزل الذي نعيش فيه اشعر انه غريب عني تماماً . ولا يكاد يدخل المنزل حتى يضغط على زر التليفزيون ويضع بجانبه زجاجة الخمر ويبدأ في السكر . ثم ينادي على ابننا ويدور بينهما هذا الحوار .

- بيتر تعال هنا وقبلني انني والدك .

إنه يلقي هذه الكلمة كأنها احد الأوامر الكثيرة التي تعود ان يلقيها ويجب ان تنفذ فوراً فإذا تلكأ الطفل او رفض فإنه يكيل له الواناً هائلة من السباب ويظل يقول له :

ـ امك هي السبب . إنها تجعلك تكرهني .

اما اذا اسرع الطفل وقبل اباه فإن المسألة تمر بهدوء وبدون صوت مزعج ويسود الهدوء جو البيت قليلاً . لكن زوجي لا يهدأ ، إنه يحاول ان يعثر على سبب للنكد والمعارك ، يبدأ في اغاظة الطفل ومشاكسته . إنه يناقشه بصوت مرتفع مليء بالأوامر بأن يكف عن اللعب او يشاكسه وقد يمتلىء الابن بالغيظ والضيق او قد يبدأ في ملاطفة والده والاقبال على مداعبته . وهنا يبدأ الأب في صد الابن ويتفرغ لقراءة الجريدة او يلتفت الى الفيلم المعروض في التليفزيون . وعندما يصر الابن على حقه في اللعب مع الأب فإن الأب « يصرخ » فيه ويزجره ويصدر الأوامر اليه بضرورة التزام الهدوء التام . هذه هي بعض عيوب زوجي . وإنني اعترف ان لي انا ايضاً اخطاء وعيوباً . ولكن قل لي ماذا افعل ؟ وكيف اعيش ان لم اتعاون انا وزوجي لمواجهة مشاكلنا لنضع لها الحلول . ان عمري خمس وثلاثون سنة . ولو حدث الطلاق فلا بد ان احصل على عمل حتى اوفر لنفسي الدخل الكافي لي ولرعاية طفلي ومصاريف تعليمه . إنني اسألك ايها الطبيب : هل هناك عمر يكون فيه الطلاق بين الزوجين امراً غير مزعج للطفل ولا يحمله أي اضرار .

هنا تنتهي سطور رسالة الأم التعسة التي تعيش مع زوج لا تريد الحياة معه . وطبعاً من المستحيل ان اعطي نصيحة قاطعة بأن الطلاق فيه سعادة للأم او للطفل . ان كل زواج في هذه الدنيا يدخله الصراع والخلاف والمشاكل ،والأطفال يحسون بهذه الخلافات وليس هناك وسيلة تمنع الخلاف في الحياة الزوجية . كما ان الطلاق ليس هو الحل الوحيد لانقاذ الأطفال طبعاً من البيوت التي تظهر فيها الخلافات . ان الطفل الصغير يحتار ويقلق وينزعج عندما ينفصل الوالدان . والطفل يعلم علم اليقين انه يحب الأب والأم بالتساوي ويحتاج اليهما ايضاً بالتساوي . والطفل يحتج دائماً على أي خلاف بين الوالدين يؤدي الى

الانفصال . وعندما يتم الطلاق ، فإن الطفل الذي يعيش مع ام مطلقة قد يتوسل اليها بسذاجة حتى تتزوج مرة اخرى . والأبحاث التي اجريت على الأمهات المطلقات تدل على ان كثيراً من المطلقات اللاتي لم يتزوجن مرة اخرى تكون الحياة في نظرهن مليئة بالكآبة . وطبعاً تضطر المطلقة في اغلب الأحوال لأن تبحث عن عمل ان لم يكن لها عمل ، وتعيش في ظروف من المعاناة الاقتصادية بل وتصاب المرأة في هذه الحالة بعقدة الخوف من المستقبل والتوجس من شبح الفقر كما ان علاقات الأم الاجتماعية تنكمش . ففي الغالب لا ترحب الأمهات الزوجات بصداقة المطلقات . وتجد الأم ان هناك صعاباً تواجه المطلقة في العناية بالطفل صحياً واجتماعياً . ويتحول البيت الى سجن صغير للأم المطلقة مع ابنائها . انه بيت بلا انسان آخر يشارك في تحمل المسؤولية ويرفع كرامة الأسرة .

ان الطفل يشعر بأن هناك خطأ ما في هذا الجو . ان هناك جزءاً ناقصاً . والأم تظل تعاني من الاحساس بأن الطفل قد يفكر في أبيه وتدور في حلقة لا نهاية لها ولا امل . وليس معنى ذلك هو ان نزرع اليأس في قلوب الأمهات . وطبعاً ليس معناه ايضاً ان الأمهات بمفردهن لسن قادرات على تربية الأطفال بنجاح . ان عدداً كبيراً من الأمهات استطعن تربية الأبناء بنجاح . وعلى كل حال فالنتيجة النهائية تتوقف على مسألتين ، الأولى : هي قدرة الأم على الاحساس بالرضا بهذا النوع من الحياة . والمسألة الثانية هي قدرة الأم على ان تسيطر تماماً على مشاعرها فلا تصاب بالضيق والاحساس بالذنب بوصفها ضد الأب طول الوقت بالكلمات امام الأطفال ، وتعلن ملكيتها الكاملة للأطفال .

وعندما يدق باب حياة الأم فكرة الزواج مرة اخرى ، فلا بد ان يكون واضحاً تماماً للطرف الجديد ان الأم ترعى اطفالاً وان يحاول الطرفان الوصول الى اتفاقات واضحة محدودة وان تحاول الأم من ناحيتها ان تجعل هذا الأمر مقبولاً من الأطفال . وغالباً ما يقبل الأطفال فكرة زواج الأم خصوصاً اذا كانوا صغاراً في السن ويشعرون بالحاجة الى رعاية الأب او من يقوم بدور الأب ولاسيما اذا كان زوج الأم رجلاً قادراً على ان يتحمل المسؤولية .

ومن جهة اخرى فإن نسبة مزعجة من الزيجات الثانية تتعرض لمشكلات خطيرة ايضاً وهذا يعني طبعاً ان هؤلاء الأفراد يعانون من قلق واضطراب نفسي مستمر اما في الشخصية واما في رد فعلهم اللاشعوري امام فكرة الزواج . ولأن هناك مخاطر شديدة في استمرار او انهاء زواج مضطرب وغير موفق فمن واجب الأبوين نحو اطفالهما ونحو نفسيهما ان يطلبا النصيحة من احد رجال الدين او ان يحصلا على العلاج من احد الأطباء النفسيين ليس فقط في المشاكل التي يتصوران وجودها ولكن ايضاً المشكلة الأساسية وهل يمكن ايجاد حل لها ام لا .

والحقيقة التي لا تخفى ان رفض مناقشة الاختيار بين امرين يتوقف عليهما مصير المرء . . . دليل على خوف داخلي من تحمل مسؤولية الخطأ في حالة ثبوت الاختيار الخاطىء والرجال اكثر من النساء في هذا النوع من الخوف ، الخوف من مواجهة الاخصائي النفسي .

وحتى في موقف الرفض الحاسم الذي يتخذه احد الزوجين للاشتراك في التماس العلاج ، على الطرف الآخر ان يمضي وحده في طلب العلاج لعله يصيب خيراً ويصل الى نتيجة طيبة .

فإذا تحسنت حالة الزوجين واتضح لهما ان المستقبل يمكن ان يكون مضيئاً برحلة زواج سعيدة وانهما سيحافظان على هذا الرباط المقدس فإن ذلك يعتبر نجاحاً للزوجين . اما اذا كانت الحياة من الشقاء بحيث يستحيل ان يعيش الزوجان معاً فالطلاق هنا ضرورة لحماية الطفل في الحياة في منزل مليء بالمشاكل فليس هناك اسوأ من نمو الطفل في جو مليء بالكراهية . ومن الأفضل ان يتم الطلاق على ان يتفق الطرفان على ذلك مع رعاية احدهما للاطفال رعاية حسنة .

وطبعاً لا بد للزوج وللزوجة دائماً ان يحاول كل واحد منهما ان يعرف نفسه اكثر وان يحاول معرفة افضل الوسائل لبناء الاستقرار النفسي اما في الزواج الذي يستمر . . واما في الزواج الذي سيتم . والمشكلة الفعلية ان معظم الأزواج لا يقبلون بسهولة فكرة الذهاب الى الاخصائي النفسي او الاجتماعي . والذي يحدث في اغلب الأحيان ان احد الزوجين وهو الطرف الذي يكاد يختنق تماماً من

فرط مشاكسة الطرف الآخر او عدم قدرته على التفاهم معه ، لا تكون لديه رغبة بانقاذ الزواج ومن ثم فإنه لا يستسيغ فكرة استشارة الاخصائي النفسي بل يعتبر هذه الاستشارة بمثابة اعتراف بأنه مذنب او شك بذلك على الأقل .

وفي أي نزاع او صراع دائم ومستمر بين شخصين فهناك دائماً نوع من التركيبة النفسية التي تخلق نوعاً معيناً من التنافر بين الشخصيتين ويفجر النزاع والصراع بشكل مستمر ودائم . ان المثل القديم يقول انه لا بد من وجود طرفين لقيام معركة . ولا يعني ذلك بالضرورة ان الخطأ متساو في المعنى القانوني او المعنى الاخلاقي .

وسأرسم صورة غاية في البساطة للنموذج الشائع من الاضطراب العاطفي في الزواج الذي يلعب الزوجان فيه ادواراً متشابكة الى درجة دقيقة ومحكمة دون ان يتنبها لها .

ان الشخص الذي نشأ في اسرة كانت تعاني دائماً من ألوان كثيرة من النكد والمعارك المستمرة بين والديه . هذا الانسان عندما يكبر ويتزوج يسعى دون ان يشعر الى خلق المشاكل لا في حياته الخاصة فقط ولكن في حياته العامة ايضاً . وعلينا ان نعرف ان ما كان في الماضي مصدر ألم وخجل يتحول دون ان ندري في الكبر الى مصدر لذة . ان الانسان الذي كان يلعب في طفولته دور الضحية لخلافات الأبوين ويتألم لذلك يصبح هذا الانسان جلاداً في الكبر ويجد لذة في ممارسة هذا الجلد النفسي للآخرين . وهذا النوع من البشر يتوقع دائماً ان تكون حياته الزوجية مليئة بالنكد والخلافات والصراخ وجرح كرامة الطرف الآخر .

ويبدو انهم يجدون ازواجاً يتكيفون مع هذا الأسلوب وتروق هذه الحياة في اعينهم اذ تبدو انماط الحياة الأقل عناداً وقبولا للمشاكل الدائمة في نظرهم ، خاملة بلا طعم .

ولعل احد الزوجين يلعب دوراً اكثر عدوانية في حين ان الآخر يلعب دوراً اكثر استسلاماً . ولكن اذا لاحظ احد ما يقوم بينهما من مشاكل فإنه يجد ان كليهما يستفز الآخر ويتحرش به .

والزوجة التي تصرخ قائلة :

«اياك ان تضربني ايها المجرم»قبل ان تخطر هذه الفكرة في رأس زوجها انما هي مثال واضح على هذا النموذج . وكل طرف من الزوجين يمتلىء بالضيق والسخط والرغبة في الانتقام من الطرف الآخر . ولكنه لا يرى الى أي مدى جرح هو الطرف الآخر وتسبب في ايلامه نفسياً . والعلاقة الوثيقة بين المشاعر الايجابية والسلبية تظهر في هذا النوع من الزواج الذي يتميز بالمعارك والمشاجرات حتى قبل ممارسة الحب بين الزوجين . ويصف علماء النفس هذا النوع من العلاقات بأنه « سادي وماسوشي » وذلك حين يرغب المرء في تعذيب احد ويجد لذة في ذلك . ويجد لذة في ان يعذبه احد . وفي الحقيقة ان كل الناس بدرجات مختلفة وغالباً درجة معتدلة ـ لديهم القدرة على الاستمتاع بتبادل السخرية والازعاج بدعوى الضحك والمداعبة وهذا ما يجعلنا نقبل هزيمة خصم في مباراة او نستسلم لرئيس في العمل يحترف الظلم . ولهذا فيجب ان لا ننزعج عندما نقرأ هذه الكلمات عن حالات زواج نعتبرها « شاذة » . ان هذا الشذوذ موجود في حياتنا الى حدّ ما .

وكثيراً ما يحدث أنه عندما تبدأ الحياة الزوجية في التعثر لأسباب اخرى ، يصبح الشريكان في حالة ضيق وسخط من اخطاء وعيوب بعضهما بعضاً . وفي الوقت نفسه يشعر كلاهما بالذنب في اعماقه ويلقي على نفسه اللوم . ان الطرفين يسبحان في تيار من الاستفزازات يزداد عنفاً مع الأيام .

والحياة الزوجية التي تكون بهذه الصورة المتوترة تسبب ارهاقاً شديداً للطفل حتى لو حاول الوالدان ابعاد الطفل عن هذه المعارك او حاولا اخفاء هذه المشاكل عنه . ان ما يحدث في اغلب الأحيان ان الوالدين يعاملان الطفل كقطعة من الشطرنج ويلعبان به على مائدة خلافاتهما . ان احدهما يبدأ النكد والآخر يرد عليه ويبدأ المعتدي في البكاء على حظ الطفل لأنه نشأ في مثل هذه الأسرة ويستسلم الطرف الآخر لهذا الندب على حظ الطفل . ثم يبدأ الشجار مرة اخرى ، وهكذا . . واذا استمرت الحياة الزوجية بين اثنين على هذا الاسلوب فذلك لأن كليهما يجد لذة في هذا النوع من الحياة مهما بالغ في انكار ذلك . ويكون موقف الطفل مع مثل هذا النوع من الآباء موقفاً غاية في التعاسة . إنه سيفعل

مثلهما عندما يكبر ويتزوج . ان شخصيته يصيبها التشويه البالغ . واذا انتهى الأمر بمثل هذا النوع من الأسر الى الطلاق فأغلب الظن ان الأم التي تملك نزعة دائمة للشجار ستحيل حياة طفلها جحيماً ، لأنها ستختار زوجها القادم من النوع نفسه . وستجعل الزواج القادم في حياتها جحيماً جديداً .

واذا اعاد القارىء قراءة نص الرسالة التي اوردتها في بداية هذا الفصل لشكوى الأم فإن في استطاعته ان يفهم لماذا اشك في أن المشكلة الحقيقية تختلف في جوهرها عن مجرد سؤال الأم هل تطلق ام لا ؟ ان مضمون الرسالة يوحي بأن الأم والأب رهينتان ، في سجن يعذب فيه كل منهما الآخر . ويكون الطفل ضحية الاثنين اذ يستخدمه كل منهما كوسيلة لتعذيب نفسه ولتعذيب الآخر . ان الزوجة تشكو من ان زوجها يدخل المنزل وهو يرغب في التنكيل بمزاج الجميع . ولو سألنا الزوج لأجاب اجابة تتضمن عكس هذا الموقف تماماً ولوجدنا عنده قائمة من الاتهامات لزوجته فهي ـ كما يقول ـ تبدأ في اثارة غيظه فور ان يدخل البيت وتفسر كل سلوك له مع طفله على انه اغاظة للطفل .

وهناك ايضاً دليل آخر على ان هذه الزوجة لا تفهم مصدر الخطأ في علاقاتها بزوجها وهو شعورها بأن الزوج ليس فيه صفة واحدة تستحق الاعجاب وانها اكتشفت ذلك بعد الزواج مباشرة . ان ذلك القول في رأيي غير صحيح تمام الصحة لأنني لا اشعر ان هناك انساناً يتمتع بمثل هذه القدرة الخارقة على التمثيل اثناء فترة الخطوبة . فكيف لم تلتفت هذه الانسانة الى بعض عيوب الزوج قبل الزواج ؟ . وطبعاً ليس هنا مجال للمقارنة بين حالات الزواج المندفع الذي يعرف المراهقين دون دراسة او معرفة جيدة . ان شخصين على درجة من النضج لا يمكن ان يخدع احدهما الآخر بكل هذا القدر من البساطة والسذاجة اللهم الا اذا كان كلاهما يخدع نفسه . واذا كان الزواج قد وصل الى هذه الدرجة من السوء فلماذا تستمر حياة الزوجين تحت سقف بيت واحد لا يجدان فيه أي متعة ولماذا ينتظران الى ان يرزقا طفلاً ؟ . واذا كانت قد اكتشفت كل هذه العيوب فور بداية الزواج فلماذا استمرت فيه ولماذا انجبت من هذا الرجل الذي لا يتمتع بميزة واحدة ؟ .
انني اخشى ان تكون كلماتي تشبه كلمات المحقق او القاضي ولست اريد ان اقف

ضد هذه الزوجة فلو كنت قد قرأت رسالة اخرى من الزوج لانتابتني نفس الشكوك . انما انا اريد ان اؤكد ما سبق ان ذكرته كثيراً وهو ان الرجل والمرأة عندما يقفان على عتبة الحب ويصلان بهذا الحب الى الرغبة في استمراره وان يتخذ شكل الزواج ، عندما يتم هذا الزواج ويبدأ كلاهما في تبادل الاتهامات ومحاولة اعتبار الطرف الآخر مخادعاً ، وعندما يستحيل على الاثنين تسوية الخلافات بالتفاهم فلا بد انهما يحتاجان الى مستشار يفصل بينهما في هذا الخلاف ولا بد ان يختارا انساناً متخصصاً يعرضان عليه هذه المشاكل بمنتهى الصراحة والوضوح .
ولقد تناول حديثي هنا نوعاً واحداً من المشاكل التي تعترض الحياة الزوجية لأنها اكثر انواع المشاكل انتشاراً بين الأزواج ولأنها تتعلق بمصلحة تنشئة الطفل . ومن المؤكد ان الأطباء النفسيين وخبراء شؤون الأسرة عندهم اكتشافات مثيرة عن العوامل النفسية التي تحفر قبر الزواج لتحوله الى طلاق . بعض هذه العوامل قد يكون سطحياً ولكن هناك كثيراً منها مستتر في اعماق اللاشعور . ان الخيانة الزوجية مثلاً يكون سببها في اغلب الأحيان هو عدم الثقة في النفس واليأس من الزوجة او الزوج وليس السبب الحقيقي هو الحب المفاجىء الذي يضطرم بسرعة مع طرف آخر . ان الأساس الذي قبل به أي اثنين فكرة للزواج هو اتفاق كامل على التعاون المتبادل وقد يتحول هذا عقب الزواج الى ان يرغب كل منهما في ولو دون قصد اعتبار الطرف الآخر طفلاً صغيراً. والمرأة التي تتمتع بقدرة على التكيف الاجتماعي ولكنها مسترجلة قد تختار لنفسها زوجاً من نوع مسالم ثم تجد نفسها بعد ذلك غير قادرة على احترامه او الثقة به مهما كان هذا الزوج ناجحاً في الحياة العملية . وهناك رجل قد تعذب في طفولته بالاهانات الكثيرة ودفنت هذه الاهانات في اعماق لا شعوره ، ويجد نفسه في التطبع مندفعاً الى تدمير حياته الزوجية عن طريق اثارة المشاكل مع زوجته . اما احاسيس الحب والمواقف الرومانسية والحياة المثالية التي كانت موجودة قبل الزواج فسرعان ما تتبخر بعد الزفاف لا لشيء إلا لأن هناك رواسب عميقة نحو فكرة الجنس والزواج تظل كامنة في اعماق الرجل او المرأة وتظهر بعد ذلك لتدمر حياة الزوجين وتفسدها .

وبالرغم من اني ادعو الى ضرورة استشارة الاخصائي النفسي إلا أني لا

اريد ان يظن احد ان هذا حل حاسم وسهل او ان المشكلة ستجد الحل المؤكد على يدي الاخصائي النفسي ، بل لا بد من توافر رغبة اكيدة عند الزوجين لحل هذه المشاكل لأن هذه الرغبة هي الطريق الوحيد الذي يمكن ان يصلا به الى التفاهم والانسجام في أشهر قليلة . لكن اذا كان الصراع عنيفاً والموقف غاية في التوتر وكانت اسباب المشكلة مدفونة في اللاشعور فليس من السهل ان يعثر لها احد على علاج حاسم الا بالتحليل النفسي العميق .

واحب ان اقول ان البعض قد يفهم من هذا ان صورة الزواج المثالية هي الحياة بلا مشاكل . ولكن الحقيقة هي ان المشاكل لا بد ان توجد كما لا بد ان توجد القدرة على ايجاد حلول لها عند الزوجين نفسيهما وبواسطة جهدهما المشترك .

ان الحياة الزوجية تحتاج الى مزيد من التفاهم المتبادل الدائم والمستمر . وهناك عوامل كثيرة تؤثر فيها منها مثلاً التوافق الجنسي . وعلى الرغم من ان هناك حالات لا يكون فيها الجنس كاملاً ومرضياً فقد لا يؤدي ذلك الى فشل الزواج اذا كان الزوجان على درجة من الحب تسمح لهما بالتنازل عن هذا الحق في الاستمتاع . وهذه حالة قليلة ونادرة ولكنها يمكن ان تكون منتشرة بين الكبار الذين تعدوا الستين من العمر مثلاً .

والعلماء الدارسون لسلوك الانسان وعاداته خصوصاً لظاهرة الزواج يدهشهم هذا التطرف في مظاهر التعبير عن الحب في المجتمع الامريكي . وانتشار فكرة ان الحب هو شيء يهبط كالصاعقة على الانسان وان من يقع في احضان مثل هذا الحب يعيش سعيداً الى الأبد . والذي يثير دهشة العلماء هو ان نسبة الطلاق في المجتمع الاميركي هي من أعلى النسب. ليس هذا طبعاً عملية تشكيك في اهمية الحب ولكن عملية الزواج في كل بلاد العالم تكون محاطة في اغلب الاحيان بظروف والتزامات واهداف تختلف عما هي عليه من مجتمع الى آخر . فالزواج هو تحقيق لارادة السماء وانجاب الأطفال وتربيتهم ليتحملوا اعباء تكوين اسر جديدة بحيث تكون الأسر كلها سعيدة بالعمل لبناء الوطن وطبعاً مفروض في الزواج انه اتفاق قائم على مشاركة اثنين لتحمل عبء بناء الحياة .

لذلك فإننا نرى احاطة الحب بكل هذه الهالة من السحر دون توضيح جانب المسؤولية فيه مسألة غاية في الضرر بالنسبة للشاب او الفتاة لأن الحب بهذه الطريقة الساحرة التي تصورها افلام السينما ليس موجوداً في الواقع . ان الواقع يقول ان الحب قد يؤدي الى زواج والزواج يؤدي الى تحمل المسؤولية وتحمل المسؤولية ليس معناه القاء عبء الانسان على انسان آخر انما مشاركة هذا الانسان في مواجهة اعباء الحياة . ان ذلك يجب ان يتضح تماماً في اسلوب تعليمنا للأبناء معنى الحب حتى لا يشعر الواحد منهم بعد الزواج انه قد خدع من انسان آخر او يشعر ان الزوج لا يجعل الحياة جميلة كما تقول عنها الروايات وان الزوجة لا تحمل للزوج الهناء والسعادة على اطباق الراحة الذهبية .

ان كل زواج يجب ان يعرف الطرفان فيه قبل ان يتم مزايا وعيوب الآخر . وعلى كل واحد من طرفي هذا الزواج ان يرسم لنفسه الأسلوب الذي يمكن ان يتكيف به مع هذا الزواج . وكلما تقدم عمر الزواج حاول كل طرف اشعار الآخر بأنه قد ازداد فهماً له وان الحنان هو الصفة الأساسية اللازمة لتحمل كل منهما للآخر .

ان السعادة في الزواج هي نتيجة للجهد المشترك الذي يبذله كل طرف وعلينا ان نعلم اطفالنا هذه الحقائق وان نكون قدوة لهم حتى يتعلموا منا ويسيروا في الطريق نفسه الذي سرنا فيه وان يطوروه .

اننا كآباء يجب ان نبذل الجهد لتوضيح المسؤولية في الحب حتى لا يقع الأبناء في فخاخ الرومانتيكية غير الحقيقية التي تنتشر هذه الأيام . ان الحب ليس هو الهرب مع حبيب الى جزيرة مجهولة بعيدة عن العيون ولكنه استكشاف لقدرة الانسان على تحمل المسؤلية .

وهكذا يمكن ان نلغي هذا « الغموض » المثير المنتشر في عقول الجيل الجديد عن الحب .

« وقاية الطفل قبل الطلاق وخلاله وبعده »

من أصعب المسائل طبعاً على الوالدين ان يحاول احدهما اقناع الطفل بأن كلاً منهما اصبح لا يصلح زوجاً للآخر وان الطلاق لا بد من ان يحدث .

ومع ذلك فيجب ان نقول للطفل الحقيقة وان نحميه من الآثار المترتبة على الطلاق .

عندما تكون كل الطرق مسدودة في وجهي الزوجين ، وعندما تصبح الحياه بين الاثنين مسألة مستحيلة ، وعندما تهجم امواج الفشل على سفينة الزواج ويصبح الغرق امراً مؤكداً وعندما ينظر الزوجان الى محصلة الحياة الزوجية . . قد تكون هناك اشياء كثيرة لا بد من بحثها ولكن لعل اهم ما يمكن ان يفكر فيه الاثنان هو :

كيف يقولان للطفل ان الطلاق سيحدث ؟

من المؤكد ان مقداراً هائلاً من الارتباك يحدث . وقد يمنعهما الخوف من الاقدام على اخبار الطفل بالحقيقة . واني اتذكر ان سيدة ظلت لمدة عام كامل بعد الطلاق وبعد ان رحل الزوج عن البيت لا تستطيع ان تبلغ خبر طلاقها لابنها الذي يبلغ من العمر تسعة اعوام . وعندما اكتشف الطفل هذه الحقيقة ظهرت عليه اعراض الخوف والهم والقلق وغرق الطفل في الفشل الدراسي . حدث ذلك قبل ان تخبر الأم طفلها . وعندما اخبرته ازدادت المشكلة تعقيداً . قد يتساءل احد لماذا لم يسأل هذا الطفل امه عن والده طوال تلك الفترة ؟ . ان معظم الاطفال في مثل حالات الخلاف بين الآباء والأمهات لا بد ان يسألوا عن ابائهم وقد سأل هذا الطفل اكثر من مرة وتلقى الاجابة الغامضة : « ان الأب مسافر وان عمله يشغله ليل نهار في مدينة بعيدة» . ولكن في بعض الأحيان يشعر الطفل في اعماقه بأن هناك مسائل معينة يحس الآباء والأمهات بالخجل او الحرج عندما يتكلمون فيها . وكل الاخصائيين النفسيين يقولون ان تغير المسائل العائلية الخطيرة يجب أن يبلغ للأطفال . يجب ان نقول الحقيقة في كلمات بسيطة واضحة

على قدر الامكان لأن الابن يشعر بما يدور في اعماق والديه وينتقل اليه الاحساس بالتوتر رغم ان الآباء لا يعرفون انهم نقلوا الى الابن هذا الاحساس بالتوتر . ان الطفل خبير تلقائي بما يدور في نفس الكبار ، بل انه يفوق الكبار في بعض الأحيان لأنه يملك « راداراً » من الاحساس القوي ، كما ان خبرة الطفل القليلة بأمور الحياة ومشاعره القلقة المضطربة اثناء الأزمات بين امه وابيه تجعله يتصور الموقف بشكل أضخم يتجاوز الحقيقة كثيراً . انه « يكبر » المشكلة وتحتويه بل وتأكل اعصابه . ومن المؤلم جداً للطفل ان يعلم ان قرار طلاق امه من ابيه اتخذه الاثنان فجأة اثناء معركة عنيفة . ان المطلوب من الوالدين ان يحاول كل منهما ان يهدأ نفسياً وان يترك الساعات والأيام تمر ويراجع نفسه ويناقشها فربما تراجع الاثنان عن الطلاق .

وفي بعض حالات الخلاف بين الوالدين قد يفاجئهما الطفل بالسؤال التالي :

هل صحيح انكما اتفقتما على الطلاق ؟

ان هذا السؤال يدهش الابوين خصوصاً لأن خلافهما وصل فعلاً الى التهديد بالطلاق ولكن دون أي نية حقيقية بتنفيذ هذا الطلاق . ويكون السبب في هذه الحالة هو ان الطفل تسربت الى سمعه بالصدفة عبارات الشجار بينهما وهما يحبسان نفسيهما في غرفة بعيدة ويظنان ان الطفل بعيد عنهما ، لكن اذن الطفل الحساسة تستطيع ان تلتقط ما يهدده هو شخصياً بالخطر . وخلاف الوالدين بطبيعة الحال خطر على الطفل . وهنا يجب على الوالدين ان يؤكدا فوراً للطفل انهما لا يملكان أي نية من هذه النوايا على الاطلاق ، لأن ذلك يعيد الاحساس بالاطمئنان الى الطفل .

لكن اذا اتفق الوالدان على الطلاق بعد شهور من المناقشة وبعد دراسة كل جوانب الحياة معاً ، واصبح الطريق بالفعل مسدوداً ، هنا يجب البدء فوراً في مناقشة المسألة مع الطفل ، حتى يمكن ان يفهم الأسباب والنتائج وان حالة التوتر الدائمة التي يعيش فيها الوالدان اصبحت مستحيلة . ان ذلك هام حتى يمكن للطفل ان يهيء نفسه للتكيف مع الظروف الجديدة المترتبة على طلاق الوالدين .

هنا لا بد من طرح هذا السؤال :

كيف يعرض الوالدان الموضوع على الطفل . وما هو الطريق الى ذلك ؟

ان هذا يتوقف بطبيعة الحال على عمر الطفل وعلى اسباب الطلاق نفسها وعلى موقف الأم الأب . فإذا كان الاثنان قد حاولا استشارة احد الاخصائيين الاجتماعيين او النفسيين او احد رجال الدين ، فلا بد ان يكون الطفل نفسياً ودون ان يدري احد الوالدين قد احس بقرب الكارثة وعليهما ان يجلسا معاً للاتفاق على ما سيقولانه للطفل ، والأسلوب الذي يتبعانه في رعايته ومعاملته . واذا لم يكن الاثنان قد استشارا احد الخبراء فعليهما ان يحاولا ذلك . ان استشارة الآخرين مفيدة لأنها تمنحنا رؤية للموقف من زوايا مختلفة اما اذا حدث كل ذلك ولم يصل الاثنان الى نتيجة سوى ان الطلاق يجب ان يحدث فعليهما التخطيط الواضح والواقعي لمناقشة مشكلة ومستقبل الطفل . لا بد هنا من ان نخفي الغضب والكراهية والعداء المتبادل . لا بد هنا من ان يرتفع صوت النضج والأمانة . لا بد ان نعرف ان الطفل ومصلحته وسلامة مستقبله تهمنا . ان احداً لا يشك في ان اول حاجات الطفل في هذه الحياة هو ان يكون له اب وام وبينهما حب قوي لا ينتهي لأن الاثنين هما اساس حياته . والطفل يرغب في ان يكون عالمه الخاص به متماسكاً لا تمزق فيه ولا تصدع . ولكن . بما ان الوالدين قد اتفقا على استحالة الحياة معاً فلا بد من ان نوفر للطفل كل الظروف التي تساعده على استمرار ايمانه بالأب والأم على السواء . ان هذا يجعله قوياً يتحمل صدمة الطلاق . والطفل نفسه يفهم انه جاء الى الدنيا لأنهما ارادا ذلك ولا يمكن ان يتحول الأمر الى عقاب للطفل بعد ذلك . ان الطفل مكون من جزء من ابيه وجزء من امه . وهو نفسياً وجسدياً نبت من ارضهما ، وكلاهما يتمتع عنده بمكانة المثل الأعلى . فإذا حاول أحد ان يقنع الطفل ان اباه مليء بالعيوب فلا بد ان الطفل سيقتنع ايضاً انه شخصياً يحمل هذه العيوب وتلك النقائص لأن الولد مثل والده . وكما تكون اخلاق وصفات الوالد تكون صفات واخلاق الابن . هذا ما يعرفه الابن تماماً .

واذا حاول احد ان يقنع الطفل بأن والدته انسانة سيئة . وهي الانسانة

التي تعني بالنسبة للطفل مصدر الطعام والحنان في السنوات الأولى فسوف يفقد الايمان بنفسه وبها وبكل امرأة بعد ذلك .

ولقد اثبتت التجارب في مجال توجيه الأطفال وحل مشكلاتهم صحة ذلك . واصبحت هذه الأمور حقائق بديهية في مجال دراسة شخصية الطفل .

انا لن نضيء مستقبل الطفل عندما نقول له ان امه تم طلاقها من ابيه لأنها خانته مع رجل آخر او لأن اباه خانها مع امرأة اخرى . ولن نجعل الطفل يصل الى الفهم الناضج لمشكلة ان امه انسانة مشاكسة تجلب النكد وتجعله ضيفاً مقيماً في المنزل وانها انسانة غارقة في التفاهة وانها تجعل الحياة سلسلة من الاهانات ، وتحتقر الأب وتمنعه من ممارسة حقوقه الزوجية . وماذا يفهم الطفل من اتهام ابيه لأمه بأنها متحيزة لأهلها وتقف دائماً ضد اهله ، وانها تقيم الولائم لأسرتها وتكره زيارة اسرته ؟ وماذا يمكن ان يستفيد الطفل من معرفة اتهام امه لأبيه بأنه انسان مستهتر لا يتحمل المسؤولية ؟

ان كل هذه الاتهامات المتبادلة عندما تقال للطفل فهي تؤذيه . تحطم المثل الأعلى الذي يعيشه . تجعله يكره الحياة نفسها ويحتقر نفسه لأن اسرته بهذه الصورة . وليس لدى الطفل أي قدرة على فهم الاسباب الخفية التي رسمت هذا الجو الخانق من الخلافات العائلية . وكل ما يمكن ان يتبقى في نفس الطفل هو الكراهية الشديدة لنفسه والوقوع في براثن كراهية الطرفين معاً الأب والأم ، ويتعذب لأنه يحبهما في الوقت نفسه . ويفقد الاحساس بالاطمئنان ويشعر ان الكارثة التي سيواجهها سببها الحقيقي ان الكبار فقدوا القدرة على ادارة حياتهما بنجاح وقد يتساءل الطفل :

ولماذا الطلاق ؟

انه يكرر السؤال مرة اخرى . لأنه يرغب في اعماقه ان يجد التكذيب الكامل لكل ما سمعه من اتهامات وهو لا يرغب في ان تؤكد له اتهامات كل طرف للطرف الآخر ولا ان تقدم له أسباب جديدة تزيد حياته بالهموم . انه يريد ان يحتج على كل ذلك . وقد يقول :

ان كل ما تقولانه ليس صحيحاً وليس هناك سبب مقنع لحدوث هذه الكارثة . ولهذا فعلى الوالدين ان يوضحا بطريقة مهذبة ولمرات متكررة للابن بأن حياتهما معاً ليست سعيدة وانهما لا يمكن ان يستمرا في حياتهما معاً وانهما حاولا كثيراً ان تعود المياه الى مجاريها ولكن بلا فائدة وان كليهما مقتنع تماماً بأن الحياة ستكون افضل عندما ينفذ الطلاق . وطبعاً يمكنهما الاشارة الى سلاسل المعارك التي كانت تسبب التعاسة لكل اهل البيت . وفي حالة الابن الذي بلغ سن المراهقة فإنه يحاول ان يعرف الاسباب الفعلية التي سببت هذه الكارثة . ويمكن للوالدين ان يحكيا له عن اختلافهما بخصوص المسائل المالية او علاقة كل طرف بأسرته او الى ان حياتهما الاجتماعية لم تعد مناسبة .

المهم هو ان لا ندخل في أدق التفاصيل لأنها تجرح احساس الابن بوالديه وتشوه صورتهما والمهم ايضاً ان يتفق الاثنان على عدم وجود متهم واحد وضحية واحدة بل لا بد ان يؤكد الأبوان ان الفشل في استمرار الحياة الزوجية هو فشل مشترك وان كليهما عجز عن علاج هذا الفشل ولم يجدا وسيلة ناجحة لحسم هذه الخلافات الدائمة . وليس المقصود طبعاً هو ان يهربا من الحقيقة امام الأبناء ولكن المهم ان نقول الحقيقة بطريقة غير جارحة . أعرف انني اطلب اجراءات مستحيلة . اعرف ان « كرامة الآباء » قد تعمي البصيرة عن هذا النوع من الشرح الهادىء للابن . ولكن كيف لنا ان نتصور حياة الابن وهي مشروخة محطمة لسبب ليس هو اولاً واخيراً المسؤول عنه . إننا يجب ان نلتقط لحظة تعقل واحدة لنقول خلالها للابن ان الأب والأم كليهما مسؤول إلى حدّ ما عن حدوث ذلك وهذا هو العدل لأن اللوم يقع في هذه الحالة على الأبوين بالتساوي . وان الفشل هو فشلهما معاً . فمحاولة تشويه صورة احدهما امام الطفل ليست في صالح الطفل ، كما انه ليس في صالحه ايضاً ان نجعله في موضع القاضي ونضع انفسنا في قفص الاتهام حتى يدرس الأدلة ويثبت درجة « اجرام » كل منا او ان نضع الطفل في منصب الطبيب المعالج لمشاكلنا وان يحكم على عيوبنا ونقاط الضعف والقوة فينا . ليست هذه مهمة الطفل .

وعلينا ان نعرف ان الطفل يجب ان يتأكد جيداً وبكل يقين ان والديه لن يتخليا عنه . كل الذي سيحدث هو ان احدهما سيعيش بعيداً عن الآخر . وان

كلاً منهما سيحمل له من الحب مقدار ما كان يحمله له من قبل وان الأب الذي سيخرج من البيت سيرى الابن في اوقات مختلفة ليست متباعدة كما ان الأم التي خرجت من المنزل ستلتقي به في مرات ليست متباعدة ايضاً .

وقد يظن احد الكبار ان تلك الأقوال هي من المسائل البديهية وانها لا تحتاج لأن يقولها احد للطفل . ولكن التجارب تقول ان الطفل يحتاج الى التأكد تماماً من انه لن يفقد احد والديه . بل ان خيال الطفل الصغير قد يتمادى في تصوراته بأنه سيفقد احد اعمدة حياته اعني الأب او الأم ، الى الأبد . ومن شدة الرعب قد يسأل :

وهل انا ايضاً سأقع في كارثة الطلاق ؟ . وهو يقصد بذلك « هل سيتخلى عني والداي الاثنان واظل في هذه الحياة وحيداً »؟ وحتى عندما يعرف انه سيعيش مع امه فإنه يخاف اذا قامت بينه وبينها أي مشكلة او خلاف ان يحدث بينهما ايضاً طلاق من نوع آخر . انه يعيش في خوف دائم من ذلك التصور .

إنني اؤكد على ضرورة ان يمنح الطفل كافة الاجابات عن كافة الأسئلة التي يريد ان يسألها . وان تمنحه الفرصة المتزنة للتعبير عن كل مخاوفه وشكوكه ، وعن ان هذه الشكوك والمخاوف ستظل تساوره من وقت لآخر . وحتى اذا كانت الاجابات التي يتلقاها كافية وواضحة فإن هناك جزءاً من وجدان الطفل يظل رافضاً تمام الرفض لكل اسباب الطلاق مهما كانت منطقية . ولا بد كأمر حيوي بالنسبة للطفل ان نؤكد له انه لا دخل له على الاطلاق بأمر هذا الطلاق . ذلك ان بعض الاطفال قد يظنون انهم هم السبب في حدوث هذه الكارثة ويبدأون في لوم انفسهم . إن هناك رغبة في الطفل في ان يساعد في تخفيف الأزمة بين الوالدين فيعرض نفسه للاتهام وقد يوجه هو الاعتذار للاثنين ولكن طبعاً بلا فائدة ولهذا فهو يدخل كطرف مسؤول عن الطلاق. وهو ليس مخادعاً الى الحد الذي يكون عليه الكبار عندما يعرفون كيفية العثور على متهم آخر غيرهم . ان الطفل لا ينسى - على سبيل المثال - ان اسمه قد جاء مرة اثناء احدى المشاجرات ، فقد يحدث ان يستعمل احد الأبوين عبارة « لولا الأبناء لما رضيت ان اعيش منذ البداية معك » ان هذا يستقر في عقل الطفل على اساس انه السبب في ازمات

الآباء الدائمة . وقد يكون ذلك غير منطقي ولكن الطفل يتشبث برغبة مجنونة في حماية اسرته من الطلاق بأي ثمن . ان الطفل قد يتوسل باكياً لأبيه ويرجوه ان يتوقف عن اجراءات الطلاق . وقد يتظاهر الأب بالموافقة وبأنه سيحاول تسوية المسألة . لكن الأب طبعاً يكون كاذباً في ذلك . ولهذا فلا جدوى من ان يطول عذاب الأبن .

لعلك ايها القارىء تلاحظ اننا نتحدث الآن باسلوب منطقي يجب ان يتبعه الآباء والأمهات عندما يبدأون في الانفصال . إنني احلم بأن يكون أي زوجين قد وصلا الى قرار الطلاق بشراً منطقيين يمكنهم ان يتصرفوا بشكل يحمي مصلحة الطفل . وهذا صحيح في بعض الحالات، أما في حالات اخرى فإن المرارة والحزن والكراهية بين الزوجين قد تعمي العيون عن رؤية مصلحة الطفل . قد يكون الوالدان يفهمان نظرياً اهمية احتفاظ الابن بثقته في كليهما من اجل صحته النفسية وبناء مستقبله ، لكن احدهما قد يتعامى عن ذلك وهو يفسر اسباب الطلاق وخصوصاً عندما « يتشاجر » الوالدان مرة اخرى بخصوص الوصاية على الطفل او الاتفاق على مواعيد زيارة الابن من قبل الذي سيترك المنزل. وطبعاً لا بد ان يتناقش الابوان حول علاقة كل منهما بالطفل في المستقبل . فإذا اخذت الأم حق الوصاية والرعاية للابن فإنها قد تمتلىء بالشك في اخلاق الأب وسمعته وقد تصر على التدخل في اتصاله بالطفل او رؤيته له . وقد يتمادى احد الوالدين في كل مناقشة مع الطفل في تشويه سمعة الآخر بل وتشجيع الطفل على نقد الطرف الآخر والاساءة اليه . والأكثر سوءاً من كل ذلك هو الحالة التي يرتكب فيها احد الوالدين جريمة حرمان الطرف الآخر من رؤية الابن والتسبب في اكبر قدر من الآلام له او اذلاله . واذا دققنا النظر في هذا العداء الشديد بين رجل وامرأة جمعهما فراش واحد ذات يوم واصبح كل منهما الآن منفصلاً عن الآخر فإننا سنكتشف ان هذه الكراهية ليست من النوع المقبول او المعقول . ان فترة الفشل التي قادت الى الطلاق تترك « بصمات » حالة نفسية تشعر كل طرف بلذة تعذيب الطرف الآخر وايذائه بأي صورة من الصور . وبطبيعة الحال عندما يصبح الطلاق امراً واقعاً فإن احساساً بالمهانة يستقرّ في اعماق احد الطرفين ويستقرّ في اعماق كل منهما احساس بأنه بذل الكثير من اجل هذا الطرف الذي اصبح الآن

عدواً له . ويشعر ان هناك سنوات من العمر قد ضاعت في الخداع والغش . وتزداد هذه الحالة عندما يشكو احد الطرفين للاصدقاء او للمحامي الذي يترافع في قضية النفقة . والمحامي دائماً يحاول ان يرضي الموكل ، إنه يبحث عن قائمة طويلة عريضة تتضمن الصفات الدنيئة عند الخصم . وطبعاً عندما يعرض الأمر على القضاء يشعر كل طرف انه بريء تماماً من هذه التهم التي صاغها المحامي بكل دقة ويشعر ايضاً بالاهانة الشديدة ونكران الجميل . ثم هناك احساس خفي هو الاحساس بالذنب . ان هناك لحظات بعد الطلاق يراجع فيها كل طرف نفسه ويبحث عن دوره الذي قام به حتى وصلت الأمور الى هذا الحد من الازعاج لنفسه ولاسرته ، والذي حطم به هذا العالم الصغير الذي عاش فيه بعض لحظات السعادة . وهو لا يستطيع ان يعترف تماماً بأنه المسؤول الوحيد ، انه يسرع بجنون وثبات نحو اثبات ان الطرف الثاني هو المسؤول عن الطلاق . ان كل انسان منا لا يستطيع ان يواجه اخطاءه الكبيرة والخطيرة مواجهة كاملة لأننا لو فعلنا ذلك لوقعنا في هوّة الاكتئاب النفسي . اننا نهرب من مواجهة هذه الأخطاء ونجد في الحياة الاجتماعية السلوى والنسيان . نجدها عند الأصدقاء والزملاء والكل يغفر لنا . لذلك فإن كلا منا يستعمل كل ما في قدرته من ذكاء حتى يوجه للطرف الآخر اكبر التهم ويلقي عليه المسؤولية الكاملة بأنه المسؤول عن الخطأ الكبير . وينتهي به الأمر الى ان يصدق ذلك ويجعل الآخرين يصدقون أيضاً .
وطبعاً يستدعي ذلك ان يدقق الانسان جيداً في شخصية وسلوك من يدخل معه في اجراءات الطلاق . إنه يبحث عن العيوب ويضخمها . وكلما وجد المزيد من العيوب والاخطاء عثر على اشد التفسيرات سوءاً . والانسان يمضي في هذا الطريق دون ان يحس ، وقد يتمادى الى ما هو ابعد من ذلك . فالزوج يظل يبحث عن الوسائل التي يمكن ان يستفز بها الزوجة المطلقة وذلك حتى يجعلها تخطىء في حقه ويستصدر ضدها حكماً اخلاقياً من نفسه ومن المجتمع ضدها . ويجد لنفسه العذر لأنه طلقها ويتكلم عن نفسه بلهجة مليئة بالأسى ومدى الاضرار التي عاناها من سوء معاملة هذه الزوجة المطلقة . ويحاول ان يعثر من المجتمع الصغير الذي يعيشه على من يقتنع بأنه ضحية مسالمة وقعت بين انياب وحش مفترس . ولكن عندما لا يكون للانسان سبب يجعله يشعر بالذنب في أي

مشكلة يمر بها فهو لا يواصل ترديد الحديث عن هذه المشكلة ويفتح أي حوار فيها . إنما يكتفي بأن يقول ان ما فات انتهى والحمد لله واصبح من ذكريات الماضي .

قد يعتقد القارىء اني حاولت ان اضخم من سوء تصرف بعض الأزواج والزوجات الذين يقعون في ورطة الطلاق وعدم احساس أي واحد منهم بأدب السلوك المهذب المتحضر وبالامانة مع النفس . ولكن الواقع يؤكد ما اقول بل قد يضيف اليه صوراً أشد ضراوة . وعند المحامين والقضاة واوراق محاكم الطلاق ما يؤيد ذلك .

إنني بكل اسف ارى ان الشخص قد يكون محترماً ومثقفاً وعاقلاً في عمله وعلاقاته الاجتماعية لكنه عند الانفصال عن زوجته يبدأ في البحث عن الوان من المتاعب الصغيرة التي يتفنن في خلقها لزوجته ، ونفس الكلام ينطبق على الزوجة . واكبر المجالات التي تكون عرضة للنزاع واثارة الضيق هي حق الوصاية على الابن والنفقة ونظام رؤية الطفل خصوصاً اثناء اجراءات الطلاق . وقد يستمر هذا الوضع سنوات تطول او تقصر حسب مدى قدرة كل طرف على الارتفاع الى مستوى الوعي والنضج النفسي الكامل للترفع عن هذه المسائل الصغيرة . ان شكاوى الأزواج والزوجات بعد اتمام الطلاق لا تنتهي ما دام هناك اطفال لهم . وكل طرف يحاول الهجوم على الطرف الآخر او الدفاع عن نفسه . ودائماً نجد كلمة « مصلحة الأبناء » هي الستار الذي يستخدمه للتعبير عما في اعماقه من ضيق او احساس بالمهانة .

واريد ان اشدد التأكيد على المطلقين من الآباء والأمهات انهم يجب ان يرتفعوا الى مستوى من النضج النفسي حتى يوفروا الحماية لأطفالهم من هذه الضغائن والسفاسف والمشاكل المتبادلة التي تحدث اثناء الطلاق . ولا بد لهم من ان يختاروا احد الأصدقاء او احد الاقارب ليكون قاضياً ليحكم فيما ينشأ بينهما من مشاكل بسبب الطلاق . وعلى الانسان الذي قد يُختار ليكون حكماً ان يفكر جيداً وبموضوعية في مصلحة الطفل اولاً واخيراً وان يوجه النصائح للأبوين المنفصلين بخصوص توفير حق رؤية الطفل لكل من الأبوين وان يحاول الوصول

معهما الى اتفاق مكتوب حول كل هذه المسائل . واذا نشب خلاف في المستقبل يمكن الرجوع الى هذا الانسان ليحكم في هذا الخلاف وحتى يكون هذا الاتفاق قابلاً للتطبيق بصورة عملية فلا بد ان نوفر لكل طرف قدراً من المرونة لأن الظرف قد يتغير بالنسبة لأي زوج مطلق او اي زوجة مطلقة ،فقد ينتقل الأب الى مدينة اخرى وكذلك الأم ، كما ان الابن سيكبر وسيفضل الطريقة التي يختار بها قضاء اجازاته مع الوالد او مع الأم . وطبعاً لا بد ان تمر هذه الاتفاقيات برغبات في التعديل من احد الأطراف . وقد يثير ذلك سلسلة جديدة من مشاكل الشك والارتياب وقد تصل الأمور الى حد الغيظ الشديد ويحاول كل طرف ان يعيد النظر في حقوقه مرة اخرى . ان كل طرف قد يظن ان حقوقه هي التي يجب ان تراعى اولاً واخيراً . وهنا لا بد ان نتذكر ان الانسان الذي اتخذه المطلقان حكماً وقاضياً في امورهما عليه ان يؤكد من جديد ان كل شيء او اي تغيير يجب ان تراعى فيه مصلحة الطفل اولاً واخيراً . وطبعاً نحب ان نؤكد ان من حق الأطفال الصغار ان يلتقوا بآبائهم او امهاتهم في فترات قريبة حتى تظل علاقتهم بهم وثيقة وقوية .

فحين يكون الطفل في عامه الأول او الثاني يمكن ان تكون زيارة الطرف المطلق على الشكل التالي : ذهاب الى متنزه عام او نادٍ او ركوب سيارة ولمدة النهار فقط . اما في الليل فيجب ان يعود الطفل الى محل اقامته حتى يستقر وجدانياً والطفل .في عامه الثالث او الرابع يفضل ان يقضي ليلة او ليلتين مع والده مرة على الأقل كل اسبوعين. وطبعاً عندما يبلغ الطفل سن الرابعة او الخامسة يمكن ان يمنح الفرصة لقضاء جزء من اجازة الصيف او الاجازات الأخرى مع الأب او الأم حسب ظروف الطفل نفسه . وفي المسائل المتعلقة بمستقبل الابن والوان دراسته فلا بد ان يستشار الطرف الآخر . وايضاً في حالة اصابة الطفل بمرض خطير يجب ايضاً ان يخطر والد الطفل او والدته . وبالرغم من ان الاتفاق الواضح بخصوص مسائل الابن يمكن ان يتضمن ادق التفاصيل الصغيرة والكبيرة ويمكن تضييق المجالات التي يمكن ان يدور حولها الخلاف بين الأزواج المطلقين الى اقل درجة ممكنة ، إلا ان هذا الاتفاق لا يمكن ان ينفذ بشكل مُرضٍ ما لم يدرك الأب والأم ان الهدف هو مصلحة الابن وان يتنازل كل منهما عن احساسه بالكرامة المجروحة من اجل مصلحة الابن وفي بعض الاحيان تكون هناك بعض الصعاب في ترتيب

مسألة زيارة الابن لأبيه او لوالدته اذا كان الأب مصمماً على ان يسبب المتاعب للأم او العكس . ولكن للمرة الألف نؤكد ان مصلحة الابن يجب ان تكون في احترامه لأبويه وفي ان ينال حقه الكامل من حبهما . وهنا يجب ان يستعمل كل طرف ذكاءه الكامل . ان ارضاء الطفل نفسياً يتم عندما يستطيع ان يستمتع فعلاً برؤية ابيه او امه كما ان كل طرف يجب ان يحاول ادخال السعادة على الطفل بأي طريقة من الطرق حتى يعوضه نفسياً عن عدم وجوده في منزل يضم الأب والأم معاً . وهذا يمكن ان يحدث عن طريق تقديم الهدايا او القيام برحلة تسعد الطفل او زيارة للسيرك . ويجب ان لا تعتبر الأم عودة ابنها من زيارته لأبيه وهو محمل بالهدايا مسألة مزعجة بالنسبة لها او العكس بمعنى انزعاج الأب من عودة الطفل من زيارته لأمه وهو محمل بالهدايا . ان بعض من هم في هذا الوضع يعتبرون الهدايا « رشوة » يسرق بها الطرف الآخر قلب الابن . ان تلك الهدايا مسألة تسعد الطفل وحديثه عنها يمتعه ، ويجب ان لا يشعر الطفل ان هذا الحديث هو مسألة جارحة لمشاعر الأب او الأم .

ان الطفل يعرف ان لا شيء في العالم يمكنه ان يعوضه حنان وحب الأب او حنان وحب الأم وهذه هي القاعدة الأساسية التي يجب ان يقيس بها الأمور كل زوج منفصل او زوجة منفصلة . والتجارب تعلمنا الكثير عن تلك القاعدة . ان مؤسسات توجيه الأطفال والعيادات النفسية تؤكد ان الطفل الذي يفقد حب الأب فعلاً يعاني من القلق النفسي والتوتر . وهكذا الأمر بالنسبة للطفل عندما يفقد حب الأم . ان بعض الآباء والأمهات يفقدون القدرة فعلاً على منح الحب للأبناء وقد يتصورون ان الهدايا يمكن ان تحل محل الحب . والطفل يحتقر من اعماقه هذا الأمر . ان الطفل يحتقر الهدية حتى لو طلبها حين تكون بديلاً عن حب الأب او الأم . ان البعض يظن ان الهدية هي اعتذار عن ذنب وقع في حق الطفل . ولكن هذا الاعتذار لا يقبله الطفل . الا أن تقديم الهدايا واجب على كل حال . وفي بعض الحالات تقتصر رؤية الطفل لأحد والديه اثناء رحلة يقوم بها الأب او الأم . ان جو الرحلة عموماً لا يتيح للطفل الفرصة الكاملة للاستمتاع بحب والده او والداته . ان علينا ان نعرف انه بعد الطلاق ستكون هناك « قطيعة نفسية » تحدث بين الطفل وبين الأب الذي خرج من المنزل او بين

الأم التي غادرت المنزل . ان هذه القطيعة النفسية تطلب ان يتجاوزها الأب والابن معاً . ان الابن يطلب ان يجدد معرفته بالأب ونفس الأمر ينطبق على الأم ايضاً . وهذه « القطيعة النفسية » تحتاج الى وقت حتى ينتصر الاثنان عليها . لذلك فمن الأفضل ان يكون اللقاء بين الابن وابيه بعد الطلاق بعيداً عن جو الرحلات الذي لا يمنح فرصة طبيعية لاعادة التعارف ، بل يفضل ان يكون اللقاء في المنزل الذي يقيم فيه الأب او حتى في الفندق وان يقوم مع ابنه ببعض الأعمال المنزلية او يلعبا معاً لعبة او يقرأ الأب مع ابنه في كتاب يثير دهشة الابن واعجابه . وطبعاً ليس المطلوب ان يكون الوقت كله على هذا النحو ، فمعنى ذلك ان الابن سيتحول طوال الوقت الى خادم ومجيب لرغبات الاب . وهذا طبعاً يسبب الملل للوالد وللطفل معاً . ان كليهما في حاجة الى « اجازة قصيرة » أثناء الوقت الذي يمضيانه معاً حتى يقوم كل منهما بأي تسلية شخصية رغم ان المكان الذي يقيمان فيه واحد . ومن السهل طبعاً ان يحمل الطفل معه العابه وهو ذاهب لزيارة ابيه ومن السهل على الطفل ايضاً ان يقيم الصداقات في الحي الجديد الذي يسكنه الأب بعد الطلاق وان يقضي فيه وقتاً رائعاً . .

وعلى الوالد ان يحذر عدم التفرغ النسبي للابن اثناء زيارته له ، فلا يترك الطفل وحيداً ، اللهم إلا اذا استطاع ان يوفر للطفل نوعاً من التسلية الحقيقية وهذا طبعاً شيء عسير على الطفل ، لأن الطفل يرغب في ان يبقى مع ابيه معظم الوقت خصوصاً اذا كان على الطفل ان يعود بعد ذلك الى بيت الأم . ومن السهل على الوالد بعد ان يعتاد الابن اسلوب الزيارة له ، من السهل على الأب ان يضم ابنه الى زمرة اصدقائه الجدد من اسر الحي وان يخرج الجميع في رحلات او يتجهوا الى احد النوادي .

واذا كان عمل الأب المطلق قد تغير مكانه من مدينة الى اخرى فعليه ان يعرف ان حاجة الابن لرؤيته لا تتأثر ببعد المكان . ان الابن يحتاج الى رؤية ابيه ويشتاق اليه واذا كان انتقال الأب من مقر عمله الى المدينة التي يقيم فيها الطفل مرهقاً من الناحية المادية فعلى الأب ان يكتب رسالة اسبوعية للابن وعليه ان يعطيه الوقت الكافي اثناء عطلات الابن الدراسية . وعليه ألا ينسى عيد ميلاده

وألا ينسى ان يرسل له الهدايا اثناء الأعياد . ويجب ان لا يحدد الأب ميعاد زيارته للابن ثم يخلف هذا الميعاد لأن ذلك يصيب الطفل بخيبة امل ويقلل من ثقة الابن في ان الأب ما زال على عهده بالحب. ولا شك ان هناك بعض الآباء المراهقين بكثرة مشاغل العمل قد يكون لهم بعض العذر في حدوث مثل هذا الخلل في الوفاء بمواعيد لقاء الأبناء . لكن لماذا لا يعتذر الأب عن ذلك ويحدد ميعاداً آخر ويحاول مقاومة أي طارىء يمنعه من لقاء ابنه ؟ وذلك حتى يوفر للابن الاحساس بالاطمئنان وبالراحة النفسية . ذلك ان الطفل لا يتحمل انتظار والد لا يزوره.

ان بعض الآباء في حالات الطلاق قد يلغي ميعاد اللقاء بابنه اكثر من مرة لأنه يجد نفسه في موقف بالغ الحرج لأنه لا يعرف كيف يجعل هذه الزيارة ممتعة للطفل . كما ان بقايا الخلافات والاحساس بالكرامة الجريحة بعد الطلاق بين الأب والأم ، قد يجعل الأب ايضاً غارقاً في الاحساس بالذنب ولا يعرف كيف يتصرف مع ابنه ولهذا فهو يتعمد الغاء مواعيد اللقاء بالابن حتى لا يلتقي ايضاً بأمه التي تثير في قلبه ذكريات المرارة والفشل وهو قد يظن ان هذا الموقف الجديد يضعه في موقف الغريب عن الأسرة . وقد يكون السبب هو عجز الوالد المؤقت عن دفع نفقات الابن او لأن الأم تتخذ من لقاء الأب بابنه فرصة لتعكر صفو مزاج الأب بعد ان نال الطلاق . ان الأم يجب ان تترفع عن مثل هذه التصرفات اذا كانت مقتنعة تماماً بالحقيقة الواضحة وهي ان الابن جزء من ابيه وانه يحتاج اليه .

ان الأب يجب الا يتهرب مهما كانت الظروف من مواجهة الابن لأن ذلك يخلق للابن موقفاً غاية في الضيق والحرج .

أما انا فموقفي الواضح هو انني اتخذت مصلحة الابن موضوعياً فوق كل خلاف .

وهذا الموقف هو خلاصة خبرة تعاملي مع المطلقين والمطلقات اذا ارادوا لأبنائهم نجاحاً في الحياة .

واكرر ان فكرة الابن عن ابيه ، هي نفس الفكرة التي يتخذها عن نفسه ،

وفكرة الطفل عن امه هي نفس الفكرة التي سينظر بها الى زوجته في المستقبل ، وفكرة الأبنة عن ابيها هي نفس الفكرة التي ستنظر بها الى الرجال عندما تنضج . وفكرة الابنة عن امها هي نفس الفكرة التي ستحاول ان تكون عليها في المستقبل .

ولهذا فيجب ان لا يقف الطلاق حاجزاً في تكوين احاسيس الحب في قلوب الأبناء لآبائهم وامهاتهم .

« الطفل الذي تخلى ابوه عنه »

من المفارقات العجيبة ان الطفل في هذه الحالة يكون اشد حاجة الى ان يثق بأن اباه يحبه . .

« لي طفل صغير عمره الآن ٢٢ شهراً وينمو بشكل جميل رائع . وقبل مولده بشهر قال زوجي انه يريد الطلاق ، وانه لا يريد ان يراني بعد ذلك ابداً . لا انا ولا الطفل بعد ان يولد . ولا يمكنني ان اصور لك كيف وقعت هذه الكارثة على نفسي ، ولا كيف اجتزت تلك الأزمة العصبية . والآن اشعر بأنني جمعت شتات نفسي ثانية الى حد معقول ، وانني اجد متعة عظيمة في تربية طفلي بشكل طبيعي ، اما لماذا ارسلت اليك هذه الرسالة ؟ فلأنني احب منك ان تناقش كيف اقول لطفلي ان اباه لا يريد رؤيته ولماذا لا يريد . وأي طريق اسير فيه لأحميه من الأسئلة التي لا مفر من أن يسأله اياها الأطفال الآخرون وربما اتخذوا منها وسيلة لتعيير الطفل ؟

لا يمكنني ان اتصور ان اكذب على طفلي ، وفي الوقت نفسه لا استطيع ان اقول له ان ما حدث هو ان اباه لا يريده ، حتى يبلغ العمر الذي يمكنه ان يفهم ان بعض الآباء يتصرفون بطريقة غير عاقلة » .

ونحن لا نفهم من هذه الرسالة الأسباب التي قادت الأب الى قرار التخلي عن مسؤوليته كوالد .

لقد حدث ذلك قبل مولد الطفل بوقت قصير . وهذا يذكرنا بأن عدداً من الرجال وان كانوا قلة (وبعض النساء ايضاً) يساورهم لا شعورياً شعور بالتهديد والجزع عندما يحين ميعاد مولد طفلهم ، دون ان يفطنوا الى ذلك .

ذلك انهم في طفولتهم الأولى ، قد استقر في اعماقهم نوع من الفزع ،

يزيد عن الحد المعقول ، بأن الطفل الجديد سوف يسرق منهم حب ابائهم ويستولي على كل الحنان .

وهذا الاحساس يسكن في اللاشعور . وينتقل اثره معهم الى الكبر ، دون ان يدركوه ، ويتخذ غالباً شكلاً جديداً أساسه الخوف من فقدان حب الزوج او الزوجة . وطبعاً ، يمكن التأكيد على الفور للغالبية العظمى من هذه الفئة بأن الزوج او الزوجة مثلاً تستطيع ان تحب الطفل واباه كما ان الزوج يستطيع ان يحب الطفل وامه سواء بسواء . وأفضل طريق لذلك هو ان يفتحوا اعينهم جيداً على من حولهم من الناس ، لكي يتأكدوا من صحة ذلك .

ولكن مشكلة ما يقال للطفل الذي تخلى عنه ابوه ولن يعود، لا تزال قائمة بصرف النظر عما حدث ووقع من ان الأب قد هرب فعلاً .

وهي مشكلة معقدة تواجه الأمهات اياً كانت اسباب الطلاق او الهجر .

وهي مشكلة غاية في الصعوبة بطبيعة الحال بالنسبة للطفل والأم ولكنها بالنسبة لكل منهما على حدة على طرفي نقيض من حيث هي مشكلة .

فأغلب الظن ان الأم تشعر بالمرارة والحقد على سلوك الأب الذي قاده الى الطلاق او الهجر . وطبعاً لها العذر في ان تكون ثائرة مغتاظة من فشل الأب وعدم اقتناعه ببذل أي محاولة لاستمرار الاتصال بالطفل . اما الطفل فهو ـ لأنه انسان ـ يشتاق الى حب الأب وحب الأم بالتساوي . صحيح ان الأب غائب ، بل ولا يتصل به ولكن ذلك يزيد من حنين الابن لرؤية ذلك الأب حتى لدى اولئك الأطفال الذين يوضعون ، بسبب تخلي آبائهم عنهم ، في ملاجىء الأيتام او في مؤسسات الكفالة او الحضانة . فهؤلاء نجدهم يتحدثون دائماً عن مدى حب آبائهم لهم وعن انهم سوف يحضرون حالاً للزيارة هذا بالرغم من مرور اشهر وسنوات لا تتحقق فيها هذه الزيارة ابداً. اذن ليست المسألة هي مجرد ان لدى الطفل رغبة في الحصول على الحب من ابيه او الرغبة في الحصول على مظاهر تدل على هذا الحب ، إنما هو ايمان عميق بضرورة ان يكون له اب يحبه .

ولا بد ان يؤمن بأن عنده هذا الأب الذي يحبه اذا اريد له ان ينمو نمواً سوياً كشخصية سليمة .

ان الطفل يبذل كل جهد للتشبث بهذا الاعتقاد ، حتى ولو اضطر الى نسج حكايات من الوهم والأحلام لإثبات هذا الاعتقاد. ولكن الذي يحدث في اغلب الأحيان هو ، للأسف ، ان يغلب الطفل على أمره وينتهي به المطاف الى الاقتناع بأن اباه لم يحمل في نفسه ذرة واحدة من الحب او الحنان ، اما لأن امه قد اقنعته بذلك ، واما لأن اباه نفسه قد قدم الدليل الأكيد عليه ، فلا مفر هنا من حدوث اختلال رهيب في شخصية هذا الطفل .

إنه يشعر شعوراً عميقاً بالكره والسخط على هذا الأب ، ولهذا تتكون في نفسه عقدة تقلل من ثقته بالناس بصورة عامة ، ويصبح موقفه العام من الآخرين موقف التوجس وعدم الثقة ، والأكثر خطورة من ذلك هو انه يحتقر نفسه ويراها غير جديرة بالحنان .

ان الطفل الذي يعتقد حقاً ان احد ابويه لا يحبه وطبعاً انا لا اعني الطفل الذي يحاول اكتشاف اعماق ابيه او اغاظته بأن يقول : « انت لا تحبني » ، انما اقصد ذلك الطفل الذي لا يجد له ابا بالفعل ولا يستطيع ان يؤمن ايماناً حقيقياً بأنه هو نفسه شخص جدير كل الجدارة بأن يكون محبوباً .

إنه يشعر بأن فيه نقصاً او عيباً أساسياً . انه لا يصغر في عين نفسه فقط ولكنه يحس بأن نقصاً اساسياً يكمن فيه هو ، وان هناك شيئاً ما موجود عند بقية الأطفال وغير موجود عنده . وكلما كبر (وارجو ان يتذكر القارىء انني اتحدث عن الفتيات والفتيان سواء بسواء) فإنه يستمر في شكوكه الحساسة التي تجعله يرتاب فيما اذا كان الناس يحبونه حقاً ام لا مهما يبلغ عدد الذين يحبونه فعلاً في الواقع .

وهذا الوسواس يقف كجدار لا يمكن اجتيازه في سبيل علاقاته بأصدقائه وزملائه في العمل ورفاقه في اللعب ، ورؤسائه ، وصلاته الودية بالجنس الآخر ، بل واطفاله اذا قدر له ان يتزوج وينجب .

ان كرامته الذاتية الطبيعية ، وعاطفة اعتباره لنفسه ، ومفهومه لذاته تصاب بالأذى الشديد بطريقة اخرى ايضاً . فهو يفترض انه اذا كان ابناً لأب حقير الشأن هارب من المسؤولية ، فلا بد ان يكون فيه نصيب من الحقارة .

ونفس هذه الصفات تنطبق عليه اذا كانت الأم هي التي هجرت الأسرة وتخلت عن الطفل ولم تبذل اية محاولة ، بعد الطلاق ، للاتصال بأطفالها . وفي استطاعتك الآن ان تفهم السبب في سلامة موقف الأم وانها على حق في ان تهتم وتسأل عما تقول لابنتها اذا قطع الأب كل الصلات بالأسرة ، ولعلك تقع في نفس حيرة الأم التي كتبت تلك الرسالة فلا تدري ماذا تستطيع ان تقوله في ظروف كهذه لكي تتجنب اصابة ابنها بأضرار جسيمة وتضمن له الطمأنينة والأمن واحترام النفس .

ان ما اريد ان انتهي اليه طبعاً هو ان الأم ، التي تكون في مثل هذا الموقف ، لا تشعر إلا بالاحتقار للأب ، ومع ذلك يجب عليها ان تقدم للطفل صورة عن ابيه من احسن زاوية ممكنة ، يجب ان يكون وصفها له وصفاً جيداً في انصع ضوء ممكن . ويجب عليها ان تضع حبها لطفلها فوق كرهها لأبيه وسخطها عليه . وهذا يتطلب مجهوداً جباراً وكرم نفس قد تكون فوق طاقة الاحتمال لأنني اطالبها بأن تتخذ هذا الموقف طوال حياتها لأن الطفل سيظل يسأل عن ابيه . فإذا لم تستطع ان تجد حسنة واحدة تذكرها ، ففي استطاعتها اذا شاءت ان تبدأ ذكرياتها وتحكي عن الصفات التي جعلتها تقع في حب الأب وتغرم به في اول الأمر ثم تذكر بكل امانة مظاهر حبه لها (ان الأم الحاقدة التي تدعي ان زوجها السابق انما خدعها وغرر بها بحيث جعلها تعتقد انه ذو صفات حميدة او انه يكن لها حباً ، تبالغ حتماً في سلامة طويتها ونقاء سريرتها الساذجة لكي تحافظ على شعورها بأنها مظلومة امام نفسها وامام غيرها) . وهي تجد نفسها في حالة تقاوم الرغبة في انكار كل ما قالته :

ويقيناً ، انا لست اقصد انه يجب عليها ان تبلغ حد التطرف في التناقض ومنافاة الطبيعة الانسانية بأن تدعي بأنه كان ملاكاً رحيماً وزوجاً لا يمكن ان يتكرر مثله واباً من نوع نادر في هذا العالم .

ففي مثل هذه الحالة يكون كلامها كالرنين الأجوف الذي لا يصدر عن اناء ممتلىء . ان رنة التزييف وعدم الصدق تكون واضحة كل الوضوح . وعلاوة على ذلك فإن أي طفل ، لن يستطيع ان يرتفع الى مرتبة والد (او ام) خال من

الشوائب ، خال من النقائص الانسانية العادية .

ان تصوير الأب (او الأم) بصورة مثالية ، يفقد الهدف مصداقيته فيصبح كورقة النقد المزيفة لها نقشها وبريقها ولكن ليست لها قيمتها في عالم التداول .

ان اهم ما يتوجب على الأم هو ان تتحاشى اتهام الاب بأنه في جوهره واساسه شخص خسيس دنيء اناني لا ينبض قلبه بالحب ، وان تقول ذلك بصيغة ايجابية ، فإن ما يحتاج اليه الطفل هو ان يعرف ان اباه له صفات تحبب فيه معظم الناس واشد ما يحتاج اليه ، هو ان يسمع ان اباه احبه وما زال يحبه .

ان الكلمات التي يمكن ان تستعملها الأم ومدى المسيرة التي تبلغها في كل حديث تتوقفان الى درجة كبيرة على عمر الطفل ونوع الأسئلة التي يسألها .

سأذكر هنا بعض الأمور التي تستطيع الأم ان تضمنها كلامها ، في مناسبة او اخرى عندما يسألها ابنها البالغ من العمر ثلاث او اربع سنوات اسئلة مثل : « لماذا ليس لنا « بابا » مثل سائر الناس ؟ ! » .

« أين ذهب ؟ » . لماذا لا يعود ؟ وهنا يمكن ان تجيب الأم بالطريقة لآتية :

« والدك وانا احب احدنا الآخر جداً . . وتزوجنا . . واردنا ان يكون لنا ابن صغير نرعاه ونحبه . ثم ولدت وانا احببتك جداً و« بابا » احبك جداً . ولكن بعد فترة حدث بيني وبين بابا عدم اتفاق . وبدأ يحدث بيننا خصام وشجار مثلما يحدث بينك وبين صديقك سامي . وحاولنا بكل الطرق ان نتصالح لكننا لم نستطع . واستمر بيننا الخصام . واخيراً غضب والدك جداً لدرجة انه فكر ان من الأفضل ان يبتعد . لقد رأى انه من الخير له ولي اذا راق الجو هنا واصبح خالياً من الخصام والشجار . ولكنه شعر بالألم جداً لتركك لأنه يحبك جداً جداً . كان يحب ان يحضنك ويضمك بين ذراعيه ويلعب معك . وانا واثقة انه لا يزال يفكر فيك كثيراً ويتمنى ان يعيش معك . ولكنني اعتقد انه يخشى اذا عاد الينا ان يبدأ الخصام والشجار مرة اخرى من جديد » .

ولعل الأم التي تمتلىء بالغيظ والضيق والاحتقار لهذا الأب الذي لا يهتم بابنه ترى ان بعض هذه العبارات عن مدى حب الأب لابنه ، غاية في الكذب وتكاد تكره نفسها لأنها تنطقها .

قد يكون ذلك امراً كريهاً بالفعل ولكنه من المؤكد ان هناك عدداً قليلاً جداً من الآباء الذين يفقدون المشاعر تماماً . . مشاعر الحب والحنان نحو ابنائهم مهما اعلنوا ذلك في لحظات الغضب ومهما فشلوا في التعبير عنها .

ان الأم التي هجرها زوجها قبل مولد الطفل ، لا تستطيع ان تقول له نفس ذلك الكلام وتبالغ في مدى حب الأب لأبنه ، ومقدار سعادته به وحنانه عليه بعد مولده . ولكن في استطاعتها ، ان تتذكر بعض مظاهر حبه للطفل عندما كان مجرد جنين يتحرك في احشائها وكيف كان يحلم باليوم الذي يولد فيه ، (إذ ان الغيرة لا تقتل الحب) او تستطيع ان تسبح مع الطفل على امواج الخيال وتصوره الآن وهو يفكر في ابنه بكل مشاعر الحب والحنان .

فإذا كان الأب ، قد عبر ، عامداً واعياً ، عن نفوره من الطفل المرتقب منذ حملته امه ، ففي استطاعتها ان تضع لوم الهجر والتخلي على عاتق الشجار ، وترد الأسباب الى ما قام بينهما من نزاع ، وهذا جواب سليم صحيح الى درجة كافية ، ولو مؤقتاً على الأقل . وعلى اية حال ، فإن مبدأ الشك لصالح المتهم ، يجب ان تمنحه الأم للأب ليس من اجله ولكن من اجل الطفل .

اما فيما يتعلق بماذا يقول الطفل لاصدقائه وزملائه ، فيمكنه ان يقول ان ابويه مطلقان . وهذا كل ما في الأمر . وهناك عدد كاف من حالات الطلاق في معظم المجتمعات بحيث ان الأطفال يتقبلونه كحقيقة من حقائق الحياة . وعندما يكبر الطفل، ويزداد فهما ووعياً فلعله يسأل: لماذا لا يكتب الأب. على الأقل، رسائل او يبعث هدايا في المناسبات ؟ هنا يمكن للأم ان تفسر ، بان الرجل الذي شعر بكل ذلك الألم والانزعاج لدرجة انه ترك اسرته ، يظل يعاني من هذا الشعور لسنوات طويلة ، ولعله يشعر بأنه اخطأ لأنه ابتعد . وعندما نحس بهذا الاحساس بشأن ما فعلنا ، فإننا نحاول ألا نفكر فيه ، عندما تتكدر العلاقات

بيننا وبين من نحب ، فإننا نشعر بحرج شديد من محاولة الاتصال به . فإذا كانت مشكلة الأب التي أدت الى الانفصال او الطلاق هي ادمان الخمر ، ففي وسع الأم ان تفسر للابن المتزن المعقول الذي يبلغ مرحلة المراهقة على الأقل : ان هذا مرض يصعب الشفاء منه حقاً .

وفي كل هذه التفسيرات فإن الكلمات في حد ذاتها أقل اهمية من الطريقة التي تقال بها او موقف الأم بالنسبة لهذه المشكلة . ان على الأم ان تلعب دوراً حكيماً ، ليس هو دور المظلومة التي تبحث عن العار لتصفه وتصبه على رأس زوجها السابق او التي تحاول ان تنال عطف طفلها عليها وسخطه على ابيه ، ولكن دور الانسانة المتزنة التي تتفهم الأمور .

والأم في هذه الحالة تكون كالطبيب الذي يتحتم عليه ألا يوجه اللوم الى المريض لأن ميكروباً تسلل اليه او اصابه المرض ، او القسيس الذي يصغي بأذنيه واحاسيسه لأي انسان يرغب في الاعتراف ليحصل على التوبة .

الأسرة التي ليس فيها اب

ليس في وسع الأم ان تكون أماً وأباً في آن معاً ، ولكن في وسعها ان تبقي ظل الأب قوياً في البيت وذلك لمصلحة الابناء انفسهم .

هذا في حالة تخلي الوالد عن طفله فماذا عن حالة الأسرة نفسها عندما تعيش دون أب ؟ ان رسائل كثيرة تصلني وكثير من لقاءاتي مع الأمهات تؤكد لي ان هناك احساساً دائماً بالخوف تمتلىء به لهجة الأمهات وهن يتكلمن عن تربية الطفل بدون وجود ابيه . يظهر ذلك في حالات الزوجة الأرملة.او المطلقة او الأم غير الشرعية . ولهذا فالموقف قد يختلف عن موقف الأب الذي هرب من تحمل مسؤولية الابن . ان الأم غالباً ما تقول : إنها لمسؤولية رهيبة ان يتحتم على المرأة ان تقوم بدور الأب والأم معاً فإن المسألة تصبح غاية في الصعوبة . ذلك ان حياة الأسرة العادية الطبيعية تتميز بأن الأب والأم يشتركان معاً في تحمل مسؤوليات تربية الأطفال . اما في حالات الطلاق او الترمل فالأم تقف في معظم الأحيان امام ضرورة اتخاذ قرارات هامة بمفردها وهي في اغلب الأحيان في عصرنا هذا تضطر الى ان تمارس العمل لتؤمن نفقات الأسرة . وعمل المرأة يأخذ جزءاً من الوقت كانت تخصصه للعناية بالطفل .

لكن لماذا نغرق في طوفان من القلق ؟

ان هذا القلق سببه هو ان الأم ترهق نفسها حين تتخيل ان في استطاعتها ان تلعب دور الأب والأم معاً في وقت واحد وهذا شيء مستحيل من الناحية النفسية والواقعية . ان الطفل يحتاج الى أب . . ويحتاج الى ام . انه يحتاج الى الاثنين معاً ولا يتنازل عن حقه في احتياج احدهما . والطفل عندما يفقد احد والديه فإن احاسيسه وكلماته لا تكفان عن السؤال عن هذا الطرف الغائب . وهنا لا بد أن نحمد الله الذي أوجد قدرة مدهشة لدى الابن يعوض بها فقدانه

لأحد ابويه . انه يخلق بالخيال اباً آخر بدلاً من الأب الذي افتقده ، او يخلق اماً اخرى في الخيال غير التي فقدها . أما اذا كان الأب موجوداً ولا يستطيع الطفل ان يراه في كل لحظة ولكنه يراه في بعض الأحيان اثناء الزيارات فإن الابن يتخيل هذا الأب ويتحدث مع هذا الخيال في الوقت الذي يريده .

واما اذا كان الأب قد مات ، فإن الطفل يصنع صورة خيالية للأب مكونة من الصفات التي يسمعها عن ابيه من امه ومن اقاربه ويختار من هذه الصفات ما يعجبه ويحبه بل ويضيف الى صورة الأب التي يتخيلها كل ما يعجب به في عالم الكبار ويفخر الابن بهذه الصورة الخيالية وهي عادة صورة انسان مثالي خال من العيوب . والمثال التالي يوضح الى أي حد يكون خيال الطفل متفوقاً على الواقع . فبعد ان انتهت الحرب العالمية الثانية وعاد الرجال الى اسرهم ، وقال كل رجل لابنه الذي لم يره منذ مدة : انا والدك ، رحب بعض الأطفال بهؤلاء الآباء ولكن البعض الآخر غضب لأن الصورة التي رسمها للأب ليست مطابقة للواقع . لقد خلق الطفل ملامح واخلاقاً وصفات في عالم الخيال لا تشبه من قريب او بعيد صورة الأب العائد من الحرب . وبعض هؤلاء الأطفال رفض بكل وضوح وصراحة ان يكون ابناً لهذا العائد من الحرب ، وكانت هناك سلسلة من المشاكل امتلأت بها العيادات النفسية وكان الهدف هو اقناع الأبناء بآبائهم الحقيقيين .

والطفل الذي لم يعرف ابداً أباه او أمه اما بسبب الموت او بسبب فرار احدهما او لأن الطفل نفسه غير شرعي ، هذا الطفل يرسم صورة مليئة بالحيوية للأب المفقود او الأم المفقودة . انها صورة يستطيع ان يصفها بأدق تفاصيل بل ويمكنه ان يحكي ذكريات لم تحدث في الواقع عن علاقته بهذا الأب او تلك الأم وهو يكون صورة احد الأبوين ـ الأب المفقود ـ من صفات الناس الذين تعرف بهم او الصفات التي يتمنى ان تكون موجودة في الطرف المفقود . وهناك مشكلة معروفة تنجم عن تبني طفل غير شرعي . فمنذ لحظة ميلاده يغرق الابن في احلام اليقظة . ومعظم احلام هذا النوع من الأبناء تدور حول آبائهم الحقيقيين الذين يستحيل عليهم بطبيعة الظروف ان يعرفوا عنهم أي شيء . وعندما يصل هؤلاء الأبناء الى مرحلة المراهقة او النضج فإنهم يبدأون في التفكير في البحث الجاد عن

آبائهم الحقيقيين رغم استحالة ذلك .

إن الانسان بطبيعته بحاجة الى اب وفي حاجة الى ام . هذه هي الحقيقة الطبيعية التي يتحلى بها الانسان ،والانسان يرسم لنفسه الأب او الأم من الوهم اذا اقتضى الأمر ذلك . وبطبيعة الحال فإن الأب الحقيقي المسؤول يشبع حاجة الابن الى احساس بضرورة وجود والد بطريقة طبيعية تختلف تماماً عن الطريقة التي يتخيلها الابن لصورة الأب المفقود . ولكن اذا لم يكن هناك في الواقع اب ، فليس على الأم ان تحاول القيام بمهمة الأب والأم معاً . ان عليها ان تجعل الجو الذي ينشأ فيه الطفل صحياً حتى ينمو بشكل سليم وان تساعده على خلق صورة طيبة عن ابيه .

وهنا علينا ان نعرف بالضبط كيف يؤثر وجود الأب والأم في حياة الطفل في مراحل العمر المختلفة سواء بالشعور او اللاشعور ، وما اهمية كل منهما على حدة . وبعد ذلك نستطيع ان نناقش الأسس التي يمكن ان تقوم عليها معاملة الأم لابنها عندما يموت الزوج او يختفي .

ان الطفل الرضيع عندما يبلغ عتبة الشهر السادس يبدأ في التعرف الى الأشخاص الذين يتولون الاهتمام به ورعايته ويبدأ في تكوين مشاعره وتنميتها بالنسبة لهم . فالأم او من تقوم بدورها هي الشخصية الأولى التي تستولي على اهتمام الطفل نظراً لأنه يعتمد عليها اعتماداً كلياً كاملاً وشاملاً . وهي تفوز بأكبر قسط من وعي الطفل خلال السنتين الأولى والثانية من عمر الطفل لأن الطفل يستمد منها احساسه بالأمن والحب والطعام ايضاً . ولا يكون الأب في هذه المرحلة مهماً بدرجة اهمية الأم ولا يساوي الابن . . حبه لأبيه بحبه لأمه ، إلا اذا كان الأب موجوداً في معظم الأحيان مع الابن . والطفل يتعلم بالتدريج اوجه الخلاف بين ابيه وامه من تصرفات الأب وصوته ونظام حياته . ويتعلم ايضاً من بقية الرجال الآخرين كيف يكون « رجلاً » ويتقبل الفرق بين الرجل والمرأة ويسعد كثيراً بهذا التعلم ، لأنه يعرف ان مستقبله هو ان يكون مثلهم . ومن العام الثالث حتى العام السادس يقلد الطفل اباه ويضع ايضاً اخوته الأكبر منه امام اعينه ليتعلم منهم ويقلد الرجال الذين تربطهم به صداقة وود . إنه لا

يكف عن مراقبة مجتمع الرجال الذي سينتمي اليه ويلاحظ الأعمال التي يقومون بها واسلوب ادائهم لهذه الأعمال وما هو الخطأ او الصواب في سلوكهم وكيف يتصرف بعضهم مع بعض . وكيف يتصرفون مع النساء وكيف يتكلمون وما هي القيم التي يتمسكون بها وما هي الأحاسيس التي يظهرونها في المواقف المختلفة . وما الذي يقال او لا يقال . وكيف يخافون وكيف يكونون شجعاناً . ان الطفل يلعب طول اليوم في هذه الفترة العاباً تتميز بطابع الرجولة ويتخيل نفسه فارساً او قائداً لطائرة او سائقاً لسيارة او يطلق المسدس او يبني البيوت . وعندما يبدأ لعبة الأسرة مع اخوته الصغار او اصدقائه فهو يختار لنفسه دور الأب . وفي عمر الثالثة يبدأ الطفل بمعرفة المشاعر الخاصة بأعضائه التناسلية . وقد يلعب مع غيره من الأطفال في اعاضئهم التناسلية . ومن العام الثالث الى العام الرابع يبدأ الابن في الدخول في رحلة من الحب الرومانسي ،وفي عامه الرابع يقول بصوت مرتفع انه سيتزوج امه ويدخل في منافسة مع والده في هذا الحب . ان الابن يرغب في امتلاك الأم بمفرده . ويبدأ احياناً في العداء مع الوالد بهذا السبب . ويفترض ان الأب يبادله نفس الاحساس بالغيرة ولأن والده اقوى منه واكبر فإن الطفل يصاب بالقلق لأن المنافسة هنا غير متكافئة . ولهذا فإنه يكتمها في اللاشعور . وفي العام الخامس او السادس من عمر الطفل يدرك الطفل الكثير من امور الحياة ويرفض بينه وبين نفسه فكرة امتلاك امه بدلاً من ابيه . ويحاول ان يلعب دور الرجل الناضج فيرفض ان تقبله امه امام الناس كطفل صغير . وينفر الطفل في هذا العمل من فكرة الحب وينفر ايضاً من الجنس الآخر . ويغرق في الاهتمام بواجباته المدرسية او الهوايات الأخرى مثل جمع الطوابع او الاستغراق في ألعاب تحتاج الى ان يستغل كل الذكاء والمهارة . ويصبح كثير المناقشة لأبيه وامه . ويحاول ان ينشر الفوضى وان يثير انتباه من حوله بالخروج عن المألوف . انه يريد ان يصبح اكبر من عمره . ويعجب جداً بالأصدقاء الذين يكبرونه في العمر ويقلدهم في ملابسهم وسلوكهم .

وأنا اعتقد بأن تعلق الطفل بأمه بهذه المشاعر الرومانسية بين الثالثة والسادسة من عمره هي مسألة حيوية واساسية لأنها تعطي للطفل اساساً مثالياً في

المستقبل لاختيار شريكة العمر لأن « الحب » اثناء النضج هو ارتباط عميق بين رجل وامرأة بمشاعر الحنان والألفة والاخلاص . إنه بالنسبة للرجل عملية اختيار لأم ابنائه ولهذا فإن حنان الأم في مرحلة الطفولة من العام الثالث حتى العام السادس مسألة هامة جداً وفي غاية الخطورة لأن منها ينبع اساس اختيار الابن في النضج لشريكة العمر . وطبعاً يمكننا ان نلاحظ هنا اختلاف الانسان عن الحيوان فى هذه المسألة ، لأن الانسان لا يمارس الجنس بقصد الانجاب فقط انما يحتاج بجانب ذلك الى تبادل المشاعر والى القدرة على تحمل المسؤولية . لكن علينا ايضاً الا نسمح بهذا الحنان الذي تعطيه الأم للطفل ان يصبح قيداً على الطفل نفسه ويصبح مرتبطاً بالأم ارتباطاً لا يستطيع الانفصال منه فيما بعد . فالطفل في الأسرة العادية الطبيعية يعرف ان هناك آلاف الأسباب تمنعه من ان يمتلك الأم امتلاكاً كاملاً ، اولها خوفه من ابيه وثانيها معرفته ان مشاعر الأم العاطفية يمتلكها الأب ايضاً وثالثها هو رفض الأم الملتزم بأن تسمح لابنها ان يظل ملتصقاً بها طوال الوقت جسدياً وعاطفياً .

اريد ان اوضح هنا انني وجدت في بعض الأحيان بعض الأمهات تشجع الابن على المبالغة في الارتباط العاطفي بها . ولعل السبب في ذلك هو ان زواجها تبخر منه الحنان وضاعت منه احاسيس الحب ولهذا فهي تعطي كل حنانها المكبوت للابن بدلاً من ابيه . واحياناً تكون الأم من النوع الذي يعشق اعجاب الرجال لا شعورياً ، انها منفتحة دائماً لهذا الغزل ، ولا اعني بذلك انها منحرفة انما اعني انها امرأة تهوى ان يعجب بهاالآخرون. واحياناً أخرى تكون الأم امرأة كارهة للرجال عموماً ومقللة لهم ، وتقيم علاقاتها بابنها على هذا الأساس او تكون واحدة تكره تماماً ان يتميز ابنها بمظاهر الرجولة الواضحة لذلك تحاول ان تستميل الطفل الى اهتمامات انثوية .

وهناك طبعاً اساليب كثيرة تسمح لهذا النوع من الأمهات بأن تجعل ابنها مرتبطاً بها لدرجة تفسد بها حياته ومستقبله واختياراته لشريكة المستقبل . فإذا كان الأب رجلاً كثير الرحلات مثلاً فإن الأم تطلب من ابنها ان ينام بجانبها مما يساعد الطفل على سلسلة من احلام اليقظة يتصور فيها انه يستحق مكان والده .

ومثال آخر : الأم التي تعري من جسدها ما يجب ان يتوارى بدون اهتمام او تعبث مع الابن في نوع من المداعبات التي يجب ان لا تكون إلا بين الرجل وزوجته فقط، او ترقص مع طفلها كأنه هو زوجها. وقد تحتضنه وتضمه بحرارة وقوة لمدة اطول مما يجب ، وهناك ام اخرى تعلن بكل صراحة انها تجد كل المتعة في الحوار مع ابنها والصداقة معه اكثر مما تجد متعة في الحديث مع زوجها . وقد ترتكب الأم جريمة اخرى غاية في الغرابة وهي ان تحول اذن الابن واعماقه الى مخزن تلقي فيه بأدق اسرارها الشخصية او أدق اسرار صديقاتها او اقاربها ، انها تحول الطفل دون ان تدري الى امرأة اخرى تتحدث معها عن الآخرين .

اريد ان اقول بمنتهى الحسم ان هدفي ليس هو ان انشر الخوف في قلوب أي أم طبيعية لأنها تمتلىء بالحب والود والصداقة لأبنائها . انا لا اعني فيما تقدم من حديثي هذا النمط الطيب من الأمهات ، إنما اعني الحالات التي تمارس هذه الألوان من الشذوذ نتيجة لعدم الارتواء العاطفي او لعدم النضج الوجداني . ويؤدي ذلك بطبيعة الحال الى الانحراف المزعج في طبيعة الابن . كما انني لا اقصد ان تتعمد الأم اهمال ابنها او ان تكون باردة العواطف نحوه . ان كلا الطريقين خطأ ، طريق التسيّب العاطفي خطأ ، وطريق الجمود العاطفي خطأ .

ان ما ابغي ان اصل اليه هو ان نجعل علاقاتنا طبيعية في كافة مجالاتها علاقة الزوج بزوجته لها اسلوب، وعلاقة الابن بأمه لها اسلوب آخر ، وعلاقة الأم بصديقاتها واقاربها لها اسلوب ثالث .

ومن الطبيعي انه عندما تكون الأم بدون زوج ، يكون من الصعب عليها ان تظل علاقتها بابنها عادية وطبيعية كما لو كان الحال عندما يكون لها زوج . ان احساس الأم بالوحدة يكون شديداً . ومهما كانت شخصيتها سليمة فلا بد ان تميل الى اتخاذ ابنها صديقاً ورفيقاً لرحلة الحياة وان تزداد صلتهما بعضهما ببعض خاصة اذ لم يكن لهذا الطفل أخ . ولهذا فهي تعطيه من حبها الكثير . ولكن لا بد ان نورد بعض التحفظات لتكون سبيلاً الى الأمان :

إن الواقع يؤكد ان الدافع الحيوي في الطفل الذكر يدفعه الى الرغبة في

تمثيل دور رجل البيت وهذا الدافع يجعل الطفل يمشي في الطريق القويم ، هذا طبعاً ان لم تكن الأم مصابة برغبة تعذيب نفسها او تعذيب الطفل بهذه الأحاسيس المريبة .

إن الطفل الذكر يسعى دائماً الى هدف ان يكون مثل ابيه وان يلعب نفس الدور . ونحن نعرف من الأبحاث النفسية ان الطفل يرغب دائماً في ان يحتفظ لنفسه بالأسلوب الذي يصل به الى الطريق الذي يملأ به مكان الأب دون الاعتداء على حقوق الأب في جسد الأم وخصوصاً عندما تكون الأسرة ذات تقاليد وتكون الأم ذات احترام في سلوكها مع الابن مما يخلق في نفس الابن احتراماً دائماً لذكرى الأب .

ومن اجل احترام الابن لذكرى الأب فلا بد ان تتصرف الأم وان تتكلم عن الأب بصورة مليئة بالتقدير مهما كانت مشاعرها الباطنية مخالفة لذلك. انها تقدم للابن الصورة المثالية للأب لأنها عن طريق ذلك تقدم للابن الصورة التي يجب ان يكون عليها في المستقبل وهي تقدم للابن بسلوكها المحافظ على التقاليد صورة للمرأة التي سيختارها فيما بعد .

ولا اعني ان اجعل قلوب الأمهات اللائي يعشن بدون ازواج ترتجف من الخوف ذلك الخوف الذي قد يكون سببه ان الأم ترغب في معاملة ابنها الذي وصل الى سن الدراسة كانسان ناضج فتخاف مثلاً من ان ترهقه بالحديث عن حالتها الاقتصادية او تأخذه في رحلة او تحتضنه بحنان او تجعله يشعر بأنه مسؤول عن العمل والكسب اذا كانت الأسرة تحتاج الى ذلك . ليس هذا هدفي انما هدفي من كل تلك المناقشة ان تبذل الأم كل جهدها لتعامل الابن في حدود انه ابن فقط وانه ليس زوجاً .

طبعاً ليس هناك أي حرج في ان تعقد مع ابنها صداقة ناضجة وان تعقد صداقات اخرى مع اهل الحي . وعلى الأم ان تشجع ابنها على تنمية مجالات هواياته وان يختار اصدقاءه وان يذهب الى بعض الأماكن وحده وذلك لكي لا يشعر الطفل انه يرتكب جريمة في حق الأم عندما يتركها وحدها .

وعندما يصل الابن الى مرحلة المراهقة فيجب ان يكون دور الأم واضحاً في انها لا تمانع في وجود صداقة بين ابنها وبين فتاة إخرى بشرط ان تعلمه حدود المسؤوليات التي يجب ان يتحملها ، ويجب ان لا تشعر بالغيرة من وجود صداقة بين ابنها وبين فتاة أخرى. ان كل ذلك سهل بالنسبة للأم التي عندها اكثر من طفل واحد لأن الطفل يعرف في هذه الحالة ان هناك عالمين : عالماً للناضجين الراشدين وعالماً للأطفال مثله . ولكن هناك بعض اسباب الخوف الطبيعية لأي أم لا زوج لها ومن ثم فإنها لا تثق في نفسها تماماً ولا تعرف كيف تلبي احتياجات الطفل وقد تقلق من تصور عدم قدرتها على تربيته بصورة سليمة ولا تعرف كيف يمكن ان تواجه معه كل مشكلاته خصوصاً تلك المشكلات التي كان من السهل ان يتولاها الوالد . إنها تعاني من الاحساس بأنها دجاجة رقدت على بيض البط فخرج من البيض بط وليس فراخ دجاجة . وانا اؤمن ان اول الظواهر الصحية في العلاقة بين الأم وابنها ان تعترف ان الاولاد الذكور غامضون بالنسبة لها ويختلفون عن البنات . ان معنى ذلك انها انسانة تحترم الجنس الآخر على اساس انه جنس مختلف عن جنسها . ان الأم التي تعرف كيف تعالج شؤون الأبناء الذكور وتدعي انها قادرة على ذلك كالرجل تماماً ، تخدع نفسها لأنها تفاجأ في النهاية بأن الابن يتمرد ويثور ليصبح رجلاً منفصلاً عنها او يستسلم ويخضع ويصبح كائناً لا هو بالرجل ولا هو بالمرأة . ان الأم عندما تعترف بأنها امرأة فقط ، تخلق في ابنها الاحساس بضرورة حمايتها واسعادها سواء كان عمره اربع سنوات او ستاً. وهذا يساعد الابن ويساعدها في ان تستطيع تربية ابنها تربية طبيعية وبذلك يمكن ان يختار الابن مستقبله كرجل دون ان يحتاج الى الارشادات الدائمة منها . وسوف ينعكس نجاحه في البيت على نتائجه في المدرسة والنجاح مع الاصدقاء . ولهذا فيجب ان لا تقلق الأم بخصوص مشكلات الابن الذي يعيش بلا اب ، ما دامت لا توجد أي دلائل تشير الى ان الابن سيتجه اتجاهاً خاطئاً . وعلى الأم ان تطلب من حين لآخر استشارة احد الأقارب او المختصين في شؤون التربية حتى تتأكد من ان علاقتها بابنها تسير في الطريق الطبيعي . واذا ظهرت أي مشكلة فلماذا لا تطلب النصح من الاخصائي النفسي ؟

ان قلق الأم يزداد دائماً عندما ينتقل ابنها من الطفولة الى المراهقة لأن صفات مرحلة المراهقة تجعل المراهق يميل إلى ان يكون له عالمه الخاص من الصداقة والافكار والهوايات وهو يستمتع باخفاء اسراره متعة حقيقية . فعندما يخرج الابن من المنزل وتسأله الأم « الى أين » سيرد عليها بغضب مكتوم متمرداً وقائلاً « انا خارج » . انه لا يريد ان يفصح عن المكان الذي سيذهب اليه . ان المراهق تمر به مشاعر غاضبة متوترة تهدأ بسرعة وهو يشتاق من حين لآخر لاصطياد مشكلة ما تتيح له التمرد ضد سلطة الأسرة او سلطة المدرسة . وقد يتفاخر باعلان ان أمه من جيل قديم ومن جنس آخر ولهذا فهي لا يمكن ان تفهمه او تقدر مشاعره . ثم هناك التغيرات الجسدية التي يمر بها المراهق ، إنه يزداد طولاً وعرضاً وهذا قد يجعل الأم تتخيل انها عاجزة عن السيطرة عليه .

ان الوسيلة الى تربية الابن تربية سليمة تحتاج دائماً الى مناقشة والى قيم اخلاقية والى اقناع وتشجيع . ان الحالة في المراهقة تختلف عنها في الطفولة . فالطفل يرتبط بأمه ،اما المراهق فهو يتمرد عليها . ان المراهق الذي يستسلم لأمه نادر جداً . وعلينا ان نعرف ان الأم التي تكون بلا زوج تضخم دائماً من حجم المشاكل التي يمر بها ابنها المراهق . ومن الصعب تحديد الطريق الذي تسير فيه الأم لاقناع ابنها بأن يتصرف بمنتهى الاتزان ولكن من السهل ان تصل الى هذا الطريق عندما تبتعد عن التهديد الدائم او التحقير من شأنه او معاقبته فهذه الوسائل تعطي المراهق فرصة التمرد والشك وعدم الثقة . ان المراهق قد يقول لنفسه اذا كانت امي تظن انني سيىء الى هذا الحد فلمَ لا أكون سيئاً بالفعل .

ومن ناحية اخرى هناك عدد وافر من الآباء والأمهات من ذوي البصيرة يتصرفون بصداقة مع الابن لأنهم يعرفون ان المراهق لا خبرة لديه ويحتاج الى الصداقة لذلك يحاولون ان يحصلوا على صداقة الأبناء ولذلك أيضاً فأنا انصح الأم التي هي بلا زوج ان تعامل ابنها على انه لم يعد طفلاً وان تكون احاديثها معه صريحة وواقعية وان تبتعد تماماً عن القاء النصائح في اسلوب جاف بل عليها ان تكون مناقشتها له مناقشة ند لند، ناضج مع ناضجة انها يجب ان تعترف بأنه انسان مستقل له سيادته على سلوكه . ان الابن المراهق عندما يرى ان امه تعامله

كانسان ناضج فإنه يحاول دائماً ان يصصح من سلوكه ، اما اذا دخلت الأم مع الابن في مباراة فرض سلطتها عليه فانه سيتمرد حتماً .

وتستطيع الأم ان تستشير احد الأقرباء في اسلوب معاملة الطفل .

وفي حالة الأم المطلقة التي تكون هناك علاقة بين ابنها المراهق ووالده فإن على الأم ان تحيل المشاكل التي تمر بينها وبين ابنها على الأب لكن اذا رأت الأم ان الأب المطلق يحرض ابنه ضد امه فعليها ان تقول للابن انك تستطيع ان تنفذ ما يقترحه عليك ابوك ولكني ارى ان ذلك ليس سلوكاً سليماً .

ان هدفي هو ان اجعل الأم التي لا تستطيع محاصرة ابنها المراهق بسياج من السيطرة كما كانت تفعل عندما كان طفلاً ولا تستطيع ان تفرض سلطتها كما يستطيع الأب لو كان مقيماً بالمنزل ، ان تحاول تشجيع ابنها على ان يكون رجلاً فتساعده بذلك على النضوج . ان ذلك هام جداً في حياة الأم والابن معاً وهو سبيل الى عدم وجود تمرد او ثورة على الأم . إنما تحل الصداقة محل النزاع بين الاثنين .

ولقد يقول قائل « لقد تناولت علاقة الأم مع ابنها عندما يكون بلا والد . فلماذا لا تتناول علاقة الأم مع ابنتها عندما تكون بلا والد ؟ » . ولهذا سأتناول الآن علاقة الأم مع ابنتها في حالة غياب الأب .

ان علاقة الأم المطلقة او الأرملة او فاقدة الزوج بابنتها تشبه علاقتها بابنها الصبي من بعض النواحي وتختلف في بعض النواحي الأخرى . ان الأم عندما تكون لها ابنة فإن مشاعر الخوف وعدم الثقة في قدرتها على تربية ابنتها ، هذه المشاعر تكون قليلة بل نادرة ،والسر في ذلك ان الأم نفسها كانت « بنتاً » ذات يوم من الأيام وانها تعرف بالتالي احاسيس الفتاة بحكم حياتها الماضية . وهذا يجعل الأم اكثر ثقة في نفسها وفي اسلوب تربيتها لهذه الابنة . ان الابنة نفسها ستكون اسعد حالاً لأن المثل الأعلى الذي ستتبعه موجود في حياتها وهو الأم . ولكن يجب ان لا ننسى على الاطلاق ان الابنة ايضاً تحتاج الى الأب كما يحتاجه الابن تماماً . ان البنت اثناء الأعوام الثلاثة الأولى من عمرها تعرف كيف ان في

العالم نوعين من البشر . نوع هو النساء ونوع هو الرجال . والاثنان محتلمان بعضهما عن بعض وعندما تكون البنت بين عامها الثالث والسادس ، تحتاج حاجة ماسة الى وجود والدتها ووالدها على السواء . فإذا لم يوجد هذا الوالد فلا بد ان تكون هناك صورة له تعطيها لها الأم . وذلك حتى تعرف جيداً ان والدها كان موجوداً . وبطبيعة الحال يجب ان تكون هذه الصورة الخيالية التي تعطيها الأم لابنتها عن هذا الوالد ، صورة مضيئة وذلك حتى لا تكره الفتاة صنف الرجال وحتى تشيع في اعماقها هذا العطش الحي لحب الوالد . واذا كانت الأم لا تعرف كيف تعطي الابنة صورة واضحة الملامح مضيئة التفاصيل او كانت البنت نفسها قد نشأت في ملجأ ، فإنها ستخلق صورة من الخيال لهذا الأب تتكون من الصفات التي تسمعها ومن الصفات التي تراها في الرجال الذين تلتقي بهم في حياتها . ومن المؤكد ان صورة الأب التي تكونها الفتاة وما تعرفه عن علاقة هذا الأب بأمها ستجعلها تكون الفكرة المثالية التي ستختار بها زوج المستقبل عندما تصبح في سن الزواج . ولهذا فأنا أطالب الأم بأن تساعد الابنة في تكوين صورة مضيئة للوالد . كما انني انبه الأم الى ان الابنة ستلتقط اسلوب تعاملها مع الرجالمن اسلوب تعامل الأم مع الرجال سواء في محيط العمل او في محيط الأقارب والأصدقاء . فإذا كانت الأم من النوع الذي يصرح دائماً بأن كل رجل اناني وان كل رجل يحاول ان يتهرب من المسؤولية ، او ان كل رجل هو كائن متوحش قاس ، فإن الأبنة تنظر الى الرجال بمثل هذه الصورة . ان الأم قد تكون كونت فكرتها عن الرجال من خلال خبرتها فيجب ان لا تنقل هذه النظرة الى الابنة حتى لا تضيع حياة الابنة في البحث عن عيوب كل رجل تقابله قبل ان تبحث عن مميزاته وحتى لا تضخم الابنة عيوب كل رجل تلتقي به وينتهي بها الأمر الى احتراف الفشل في علاقتها المستقبلية بالرجال ولا تعرف كيف يمكن ان تختار شريك حياة ناجحاً . ومن هنا فإني أنصح الأم بأن تحاول بكل طاقتها ان تنشىء علاقات طيبة بأسر الأقارب والجيران حتى يمكن للابنة ان تتعامل مع الرجال عن قرب وان تنظر اليهم نظرة طبيعية . أقول ذلك حتى لا تصاب الابنة بنظرة شاذة الى الرجل سواء كانت هذه النظرة مليئة بالمثالية او بالعداء للرجال .

وهنا نصل الى نقطة جديدة من هذا الموضوع .

ماذا يحدث عندما تبدأ الأم علاقة جديدة مع رجل غير الأب الذي مات او الذي انفصل عنها بالطلاق؟ كيف يتقبل الابن فكرة زواج الأم من رجل آخر؟

الاجابة عن هذين السؤالين تفرض علينا ان ننظر الى الواقع . والواقع ان المرأة الأرملة كانت بصورة عامة وفي أميركا على سبيل المثال، ترفض مطلقاً فكرة الزواج مرة اخرى لأن التقاليد كانت تفرض على المرأة ان تظل مخلصة لذكرى الزوج القديم وان تقوم برعاية ابنائها دون ان تجعل رجلاً غريباً يبدأ في التحكم بهؤلاء اليتامى . كما ان المرأة كانت تشك في قدرتها على الاخلاص للزوج الجديد لأن ذكرياتها مع الزوج القديم ستظل ترفرف بين الحين والآخر على سماء البيت ، ولكن مع تقدم الزمن اصبحت المرأة اكثر واقعية واكثر فهماً لحقوقها كما ان « تسلط » الرجل على المرأة قد بدأ يتلاشى . وعلم النفس يؤكد ان المرأة الأرملة هي انسانة صالحة لأن تبدأ حياة جديدة مع رجل جديد وان ينبض قلبها بالحب مرة اخرى ، وان تعيش حياة زوجية جديدة مليئة بالسعادة اذا استطاعت ان تهزم الحزن على الزوج الذي مات وتجد الزوج الجديد الذي يملأ فراغ الاحساس بالوحدة ، هذا الفراغ الكئيب .

اما في حالة المرأة التي انفصلت عن زوجها بالطلاق ، فالأمر مختلف . ان الطلاق في حياة الرجل او المرأة عموماً هو صدمة نفسية تسبب احساساً بالنقص وبالاهانة في وقت واحد . ان المرأة بعد الطلاق تشعر بأنها امرأة ناقصة غير مكتملة وكذلك الرجل ايضاً . وقد يصل الأمر بالمطلقة الى الشعور او اللاشعور بالرغبة العارمة لاثبات انها ما زالت انثى مكتملة وانها تريد ان تقول للانسان الذي طلقها انه انسان فاشل لا يعرف كيف يعيش مع امرأة وانها انسانة ناجحة تعرف كيف تسعد رجلاً آخر وان هناك اكثر من رجل يرغب في الزواج منها . ان المرأة يجب ان تكون واعية لهذه الألوان من الأحاسيس حتى لا تغرق في سلسلة لا متناهية من المشاكل . ان ذلك يجعلها تنظر بعيون الوهم الى كل رجل يتحدث اليها ويجعلها تؤول كل كلمة تصدر من أي رجل اليها على انها اعجاب بها وتجعل من نفسها حديث الاخريات والآخرين لأن سلوكها يتسم بعدم الاتزان . ان المرأة بعد ان تمر بمأساة الطلاق يجب ان تترك لنفسها فرصة التأمل فيما حدث .

ويستحسن ان يكون هذا التأمل تحت اشراف اخصائي نفسي حتى تخرج من تجربة الطلاق وهي بلا آثار للجراح النفسية التي سببها ذلك الطلاق وحتى تتعرف جيداً حدود مسؤوليتها في الفشل الذي حدث وحدود مسؤولية زوجها السابق . ان هذا هام للغاية لا لشيء الا لحماية المرأة من الوقوع في فشل جديد لزواج ينتهي الى الطلاق بمنتهى السرعة .

اما عن موقف الطفل بعد انفصال الأم عن الأب فإنه سيقيم مع الأم ولن يكون اسلوبه في الحياة هو نفس اسلوب الحياة قبل الطلاق . انه يحتاج الى ان يتعود على الوضع الجديد . ويحتاج الى فترة زمنية يتأكد فيها من ان امه لن تنفصل عنه هو ايضاً وان اباه يزوره كل اسبوع او كل اسبوعين . فإذا اندفعت الأم الى زواج جديد فإن الطفل يفقد قدراً كبيراً من الثقة بنفسه والثقة بأمه ويصاب بالقلق الشديد نتيجة لهذه السرعة الشديدة التي تتزوج فيها الأم بعد طلاقها من ابيه . والأطفال عموماً بعد مرور فترة من الطلاق يمكنهم ان يساعدوا الأم على الزواج من جديد . ان الطفل قد يقول لأمه « ولماذا لا تتزوجين مرة اخرى ؟ » انه يقولها ببراءة على امل ان يحصل عن طريق زواجها الجديد على بديل للأب . عندئذ يمكن للأم ان تقول للابن انها قد تفكر في هذا الأمر . فإذا تقدم اليها احد الرجال فيمكنها ان تدعوه الى المنزل او ان تخرج معه ومعهما الطفل اكثر من مرة حتى يمكن اقامة جسر من الصداقة والود بين الطفل وبين زوج الأم الجديد .

واحياناً تكون الصداقة قوية بين الطفل وزوج الأم . واحياناً قد يتعرض الموقف كله الى امواج من الغيرة تزلزل اعماق الطفل او اعماق زوج الأم . ولهذا فيجب على الأم ان تحاول ان تقدم للابن المساعدة النفسية على ان حبها له قائم وقوي . وان على من يتقدم للزواج من مطلقة لها طفل ان يحاول ان يفهم تماماً مشاعر طفل الزوجة . وفي بعض الحالات يكون الطفل من النوع الذي يرفض ان يشاركه احد في امتلاك الأم لأنه يحبها ويعتمد عليها ويغار عليها بجنون ، ولهذا فإن هذه الحالة تستدعي العلاج النفسي للطفل قبل زواج الأم المطلقة او بعد زواجها مرة اخرى . وفي بعض الأحيان يكون الطفل انساناً يحمل التقدير الكامل لهذا الموقف ويحاول ان يعتمد على نفسه في حل مشكلاته ويواجه المستقبل بقدر من الثبات ليحصل على النجاح في الحياة دون الاعتماد على احد .

الطفل مع زوج الأم او مع زوجة الأب

من الممكن ان تسير الحياة هادئة دون ازعاج ، ولكن الأمر يتطلب قدراً كبيراً من الصبر والجهد من كل الأطراف .

وصلتني رسالة في غاية الصراحة التي تثير الاعجاب من حيث وضوحها كل الوضوح في وصف مشكلة زوجة الأب وزوج الأم وابناء الزوج وبناته وابناء الزوجة وبناتها :

اخشى ان يقف شعر رأسك رعباً واستنكاراً اذا عرفت المشكلات والصعوبات التي نعيشها زوجي وانا ، مع ابني وبنته . ابني يبلغ من العمر تسع سنوات وابنته تبلغ من العمر خمسة عشر عاماً وكلانا يحب الآخر ويحترمه ونحاول بكل امانة ان نقتلع المشكلات اقتلاعاً او نعالجها . ومع ذلك فإن كل ذلك يصبح بدون فائدة عندما يتعلق الأمر بمشاعر كل منا نحو الطفلين ، عندئذ تتغلب العاطفة على المنطق ، وفي اول الأمر عندما كانت ابنة زوجي في الثانية عشرة من عمرها حاولت ان اعاملها بنفس الطريقة التي اعامل بها ابني : نفس العقوبات ونفس المحبة ، ولكني لم انجح في ذلك على الاطلاق . لم تظهر اقل ضيق او سخط لأني اقوم في حياتها مقام الأم ، بل في الواقع لقد احبتني جداً . ولكنها لم تكن تطيق ابداً ان احل محل امها في الجزء الخاص بالتأديب او العقاب ، وعقابي دائماً من النوع العادي وليس من النوع القاسي ابداً ، كما انها كانت ترفضه ايضاً رفضاً شديداً من والدها .

وأي تنبيه رقيق او تأنيب او تحذير مثل « من فضلك لا تضعي اللبن هنا » ، كان ينتهي بنوبة من البكاء الحاد وبثورة من الغضب ومن الحقد ، بل بما هو اسوأ من ذلك كله باختلاق الأكاذيب . صدقني ، لقد حاولنا كل المحاولات لنجعلها تنظر الى الأمور نظرة طبيعية ـ وتأكدنا من انها لم تكن خائفة مني حق

تكذب بسبب ذلك ومنحناها كل المحبة والطمأنينة ، ولكن كل ذلك لم يجد نفعاً . فعند اول بادرة من بوادر الاضطراب او القلق تنفجر غاضبة باكية وتندفع الى امها شاكية بكل مرارة . ومع ذلك فهي ترفض ان تعيش مع امها . انها تفضل ان تعيش معنا في بيت ابيها . ومن سوء الحظ ان امها تحابيها وتشاركها في هذه العاطفة ، بل وتحرضها ضدنا . ولما انه كان من المستحيل ان تمضي الأمور بهذه الطريقة ، فقد اجبرت نفسي على ان أكف عن القلق وتوقفت عن محاولة تهذيبها . فإذا كان لا مفر من زجرها احياناً حين تقتضي الضرورة ، فإنني اطلب من زوجي ان يتولى ذلك وان كان هذا نادراً جداً إذ انه لا فائدة منه ولا تأثير ، والنتيجة متعددة ومتنوعة : البنت في غاية السرور . وعلى الرغم من انها لا تزال في غاية الانانية ، إلا انها تسلك السلوك المتوقع من فتاة في الخامسة عشرة . وفيما يختص بي فإني فقدت حبي واهتمامي نحوها وليس في استطاعتي ان استعيد هذا الشعور بالحب نحوها . ان علاقتنا مسرحية هزلية كاملة فنحن نتبادل الحديث والنكات وهي تودني ، ولكني لا اطيق رؤيتها إلا بصعوبة .

وانا اخفي هذا الشعور عنها تماماً ولكن ذلك يجعلني اغرق في الحزن والأسى . قل لي اذا فقدت المرأة كل شعور بالحب نحو ابنة زوجها فماذا تفعل ؟

ثم ان هذا يؤثر في ابني ايضاً ، إذ انني اجد نفسي كثيراً ما انفس عن ضيقي منها ولا اجد امامي سواه لأني اخشى ان يصبح مثلها او يقلدها في سلوكها . وهي تهمل ملابسها الى حد التمزق وتلوث المنزل ببقع الحبر التي لا تزيلها بل تتركها متعمدة ، ثم انها لا تنظف حذاءها ابداً من الطين بحيث اصبحت لا تخلو منه غرفة من غرف الدار لأنها لا تهتم ، بل انها لا تبالي حتى بتجفيف حذائها قبل دخول البيت .

هذه الأمور انما تزيد من كراهيتي لها .

لقد استمعت الى التعليقات المختلفة التي يقولها بعض الأبناء والبنات الذين في مثل ظروفها من ابناء وبنات ومن الأزواج والزوجات الذين يعيشون مع ابناء وبنات من احد الزوجين ، وسمعت ما يقولونه جميعاً بعضهم عن بعض

واتضح لي انهم جميعاً لديهم نفس المشكلة ـ كره اساسي بعضهم لبعض ـ لعلها تلك النزعة القديمة العتيقة الحقيرة وهي الرغبة في التخلص من هـذا الانسان الغريب وهي نزعة قوية الى درجة فظيعة . ولزوجي مشكلاته ايضاً ـ وان كانت ليست نفس مشكلاتي . ومن حسن الحظ اننا وجدنا ان كلينا في نفس الوضع اذ لو لم نكن كذلك ولو كان احدنا فقط هو الذي له ابناء ولم يكن الآخر مثله فلربما مني زواجنا بالفشل . ولكن كلاً منا يستطيع ان يفهم المشكلة فهماً كافياً .

وبدلاً من ان ينتهي الأمر بيننا الى ان يقف كل منا ضد الآخر استطعنا ان نتعاون . ثم ان في استطاعتنا ان نكون معاً في غاية الأمانة والصدق فيما يتعلق بمشاريعنا دون أي نفاق ، وان كلينا قادر على فهم وجهة نظر الآخر تماماً . ومع ان الصورة التي يعرضها كل منا عن نفسه ليست صورة مضيئة للغاية ولكن كلا منا يقول احساسه بالضبط .

وعلى الرغم مما قد تثيره هذه الكلمات في نفسك من فكرة هنا نتيجة لهذا العرض السابق من ان كلينا يكره ابن الآخر . . إلا انني اقول لك ان نفور كل منا من طفل الآخر قد تضاءل بشكل ملحوظ عن طريق قوة الارادة وذلك يثبت لك مقدار ما يمكن عمله عندما تلمس من شريك حياتك فهماً وتقديراً .

هناك عدد كبير من زوجات الأب الشريرات تملأ اخبارهن سطور القصص الخرافية والروايات . وهي تظهر في اخبار الصحف احياناً بطريقة مثيرة .

ومع ازدياد حالات الطلاق والزواج الثاني فلا بد ان يكون هناك عدد كبير من زوجات الأب وازواج الأم واولاد وبنات هؤلاء وهؤلاء . لكن عدد الذين يأتون منهم الى مراكز توجيه الأطفال وغيرها من المؤسسات الخاصة بمشكلات الأسرة ليس بالعدد الزائد عن الحد المعقول ، ولهذا فعلينا ان نفترض ان الغالبية منهم تسير دفة حياتها بصورة ناجحة وموفقة .

وهذه مسألة تلفت الانتباه عندما نحسب كل الاحتمالات الممكنة لألوان العداوة والحقد والغيرة بين اعضاء اسرة عادية لا انفصال فيها ولا طلاق . ان أي زواج بين رجل وامرأة لديها اطفال من قبل يخلق لا محالة مؤثرات جديدة بين كل

الأشخاص الذين تجعلهم الحياة فجأة في عيشة مترابطة الصلات بحكم طبيعة الحياة في بيت واحد .

وفي نطاق الأسرة المتماسكة التي لا انفصال فيها ولا طلاق في المتوسط فإن أشد الصراعات والوان النزاع هي عادة بين مختلف الأطفال من الأسرة الواحدة ، او بين الأبوين .

لكن ابحاث فرويد واتباعه تظهر لنا ان الغيرة او المنافسة التي يشعر بها الولد بالنسبة لأبيه او البنت بالنسبة لأمها ، تميل الى ان تكون بعيدة الأثر جداً في نتائجها رغم انها لا تكون ملحوظة في الظاهر في الأسرة السعيدة المستقرة . ومعظم نتائج هذه الغيرة او المنافسة هي نتائج ايجابية بناءة بالنسبة للطفل السليم . ذلك انها تكيفه وتهيئه للدور المعقد الذي ينتظره في الرجولة . أما في الأسرة المتوترة التي لا تعثر على الانسجام النفسي في حياتها فإنها غالباً ما تسبب امراضاً نفسية او تعيش في نفور يسبب عداوات وخصومات حادة .

وكما شرحت في الفصل السابق فإن الطفل في حوالى سن الثالثة او الرابعة يرغب في ان يعلن انه ينوي الزواج من امه ، في حين تقول الطفلة نفس الشيء عن والدها العزيز .

ولكن الاحساس الكامل بالملكية يخلق في الولد بالتدريج شعوراً بالتنافس العدائي مع الأب وشعوراً مماثلاً في البنت بالنسبة للأم ، مثلما يدفع الحب القائم على أساس الامتلاك رجلاً الى الغيرة على زوجته اذا رأى رجلاً آخر يحاول ان يحل محله . لكن شعور الغيرة والتنافس في الطفل الطبيعي يتولد عنه كبت في العقل الباطن نسبياً لأن الطفل يحس احساس القزم نحو العملاق الذي يرهبه ويحبه وهو الأب .

والاحساس المؤلم المتزايد بهذه المنافسة اللاشعورية مضافاً اليها الشعور الآخر بالواقع والحقيقة عندما يبلغ الطفل الخامسة او السادسة من العمر يرغمانه على ان ينكر رغبته في ان يكون احد الأبوين من الجنس الآخر له وحده . لكن هذا الكبت او القمع ، لتعلق الابن بأمه ومنافسته لأبيه ونفس الوضع بالنسبة

للبنت وابيها ، لا تعني ان هذه المشاعر قد انتهت . انها تظل في الباطن وقد تطفو ثانية في مرحلة المراهقة في شكل منافسة حادة مع الأب او الأم من نفس جنس الطفل او الطفلة الأمر الذي يسبب على الأقل ، مشكلات طفيفة في اغلب الأحيان . اما في الأوضاع العائلية غير العادية فإننا نلاحظ الواناً من الحب والتعلق والمنافسة الرومانتيكية تسبب اضطراباً حقيقياً او مشكلات خطيرة .

وعندما عاد الآباء الى الوطن بعد الحرب العالمية الثانية رأينا انواعاً من الغيرة العنيفة الشرسة لبعض الأولاد الصغار الذين كانوا يستأثرون بصحبة امهاتهم وحدهم دون شريك ، خصوصاً الأولاد المرتبطين جداً بأمهاتهم والشديدي الاعتماد عليهن . وعلى الرغم من ان الآباء يعيشون في البيت ، فإن الأبناء يميلون الى الخوف من آبائهم بشكل مبالغ فيه ، والى معاداتهم علانية او سراً . وبعض البنات الصغيرات ، اللائي يكن عاطفياً أقرب من امهاتهن الى آبائهن ، بسبب تنافر او جفاء بين الابوين ، قد يظهرن من الوان الطغيان على امهاتهن ما يدعو الى الدهشة .

واني اؤكد ذكر هذه الروابط الرومانتيكية والتنافسية مرة اخرى لأنها من الممكن ان تسبب صعوبات ومشكلات عندما يتزوج الأب او الأم مرة اخرى لسبب من الاسباب . ان الابن الذي كاد ، أن يستأثر بحب امه وحده وتكاد تكون له وحده بلا شريك لفترة ما ، ثم يتغير الوضع فجأة ، يميل الى الشعور بالغيرة الشديدة على الأقل في اعماقه ، عندما يأتي رجل جديد الى البيت ، زوجاً لامه ويسرق الكثير من اهتمام امه .

ولقد احسن ديكنز وصف كره زوج الأم في قصة دافيد كوبر فيلد ، كما كشف شكسبير في مسرحية هاملت ابعاد هذه الكراهية ، وليس هناك شك في ان الولد ، على الرغم من توافر الفرصة له ، ليعرف ويحب زوج امه المقبل او والده المقبل مقدماً ، وعلى الرغم من انه قد يظهر بعض التأييد لهذا الزواج ، إلا اننا نعتقد انه لا بد من وجود شيء من الغيرة او التنافس في نفسه . ونفس الوان المتاعب والمشكلات يمكن ان تحدث بين ابنة الزوج وزوجة الأب على النحو الذي تصفه السيدة في رسالتها السابقة الذكر بكل وضوح .

لكن علاقة ابنة الزوج بزوجة الأب لا تزلزل كيان حياة الأسرة غالباً ، لأن بنات الأبوين المنفصلين يعشن في أغلب الحالات مع امهاتهن . والبنت غالباً ترحب بزوج الأم اذا كان شخصية مقبولة وعادلة .

ولكن في مرحلة المراهقة عندما تميل الفتاة الى الشعور بالغيرة والتنافس مع امها كما يكون لها بعض الميل العاطفي نحو الرجال الجذابين من كل عمر ، فقد تغيظ البنت امها لا شعورياً بأن تتودد الى زوج امها وتظهر له انها تفهمه وتقدره وهو امر طبيعي نتيجة لهاتين النزعتين المتلازمتين لهذه المرحلة من المراهقة . ومن الطبيعي ايضاً ان البنت يمكن ان تفعل نفس الشيء مع ابيها اذا لم يكن منفصلاً عن امها . ولكن الأم تميل الى الاحساس بقلق اشد في حالة زوج الأم .

ولكن من الممكن ايضاً ان تظهر روح العداء نحو زوج الأم او زوجة الأب من الجنس الآخر وان كانت لا تتميز بطابع الحدة والمرارة والحقد غالباً ، وحتى في ظل الأسر المستقرة التي لا انفصال فيها ولا طلاق فإن المرء يشاهد احياناً نفس الوان الضيق والنفور .

فمثلاً نرى طفلة في الثانية من عمرها شديدة التعلق بأمها والاعتماد عليها قد تظهر عداء لأبيها عندما يحضر الى البيت للعشاء لأنه يسرق جزءاً من اهتمام الأم . لكنها تكون في غاية الثقة والتعلق به حين لا تكون امها في المنزل . وفي الأسرة السعيدة تختفي هذه النزعة وتزول بمجرد ان تصبح البنت اكثر استقلالاً عن امها وتبدأ بالاحساس بتلك المشاعر الرومانتيكية تجاه والدها وهي في الثالثة من العمر تقريباً او بعد ذلك بقليل .

وليس من الصعب ان نعرف السبب في ان الفتاة التي كانت امها لها وحدها لسنوات قليلة (او الطفل الذي كان ابوه له وحده) قد ينفران من زوجة الأب او زوج الأم .

ان زوجة الأب او زوج الأم لا يزالان من وجهة نظر الطفل او الطفلة « متطفلين » او لصين يسرقان حنان الأب او الأم .

والذي تشير اليه الأم بكل الوضوح في رسالتها السابقة الذكر هو ان المشاعر التلقائية للأبوين تضاعف المشكلة خصوصاً في حالة زوج الأم او زوجة الأب الى حد كبير ، وهي لا تزال تجد ان من الصعب عليها ان تعتقد انها كانسانة كبيرة تستطيع على عكس المتوقع منهاان يكون رد فعلها بحجم هذا العداء والكراهية لطفل صغير او طفلة صغيرة .

ولكن هذا العداء ليس صعب التفسير فحقيقة المشكلة ليست مجرد ان هذه الفتاة البالغة من العمر خمسة عشر عاماً تقلب نظام البيت وتنشر فيه الفوضى وترفض الأوامر والطاعة ولكن الحقيقة ان زوجة الأب امرأة ترغب في الامتلاك الكامل لزوجها وان ابنته تشاركها الرغبة في هذا الامتلاك وتنافسها فيه وخصوصاً ان بعض الفتيات في مثل هذه الظروف يتعلقن بوالدهن اشد التعلق ويبالغن في ذلك . وقد يبالغ الأب ايضاً في الاهتمام بابنته حتى يعوضها عن حنان الأم المفقود فعلاً . وصاحبة الرسالة لا تحدد بالضبط مجالات الخلافات بينها وبين زوجها ولا على أي شيء يختلفان ويتصادمان . ولكني اظن ان الأب يميل الى الوقوف بجانب ابنته اثناء أي نزاع بينها وبين زوجة الأب وهذا يجعل زوجة الأب غاية في الكراهية لهذه الفتاة ، كما ان الأب قد يكون شديد الانتقاد لابن زوجته بل هو يشعر بمشاعر الغيرة على زوجته من ابنها لأنه منافس له في حبها يحدث ذلك لا شعورياً نحو ابن زوجته الذي يأخذ جزءاً كبيراً من زوجته الجديدة خصوصاً اذا اعتقد ان امه قد دللته وافسدته او انه لا يزال شديد الارتباط بها مطالباً بالكثير جداً من اهتمامها او انه في حالة تحفز دائم نحو زوج الأم ويظهر نفوره بشكل واضح له ،فإذا ابدى زوج الأم ـ ولو قدراً بسيطاً من الضيق او الكراهية نحو ابن زوجته ـ فإن الأم تميل فوراً الى الوقوف في صف ابنها وذلك يزيد من حدة سخط زوج الأم ونفوره واعراضه وقد يؤدي ذلك الى ان يحتمي الولد بأمه ويلتصق بها متعمداً حتى يغيظ زوج الأم ويشعره بأنه يحتل المركز الأول في قلب الأم . وفي الوقت نفسه اذا بدت الأم وكأنها تقف في صف زوجها فإن نفور الولد منه وسخطه عليه يزداد عنفاً . وهكذا يجد كل فرد سبباً يبرر ويعبر به عن مشاعره الدفينة من الغيرة .

وعندما اسرد قائمة هذه الاحتمالات المتعددة لنشوب الغيرة فإن اعجابي

يرتفع بالزوجين اللذين تسير حياتهما في ظل هذه العلاقات ، بتوافق وتفاهم .
فكيف يمكن تحقيق ذلك ؟ ان هناك عدداً من العوامل يمكن ان تقود الزوجين اللذين تدير دفة حياتهما في ظل هذه العلاقات الى ان يتفاهما ويتجها نحو الطريق الصحيح .

ان الطفل الذي يعاني من الحرمان من اب او ام ، يريد فعلاً ان يعثر على بديل يحل محل هذا الأب او الأم لأنه يشعر بحاجاته المختلفة بالنسبة للأب او الأم . انه يحتاج الى الأب والأم معاً . يريد ان تكون اسرته هو مثل سائر الأسر الأخرى .

وعلاوة على ذلك فإن الزوج والزوجة اللذين تزوجا من جديد لا بد انهما يحسان بحاجة كل منهما الى الآخر . انهما يتوقان الى الحب والود والرغبة في التعاون في تحمل المسؤولية ، ولهذا فكل منهما يحاول ، عندما يتم له الزواج مرة اخرى ، ان يمنح شريك الحياة كل السعادة وكل القدرة على التعاون .

ولكن كيف يتجنبان الوقوع في المشاكل ؟
اعتقد انه ليس هناك سبيل واحد او علاج واحد .

في كل اسرة ناجحة لا بد ان تنجح الوسيلة الواحدة بطرق مختلفة لأن الشخصيات كلها مختلفة . فهناك زوجة اب تنجح لأنها تحب وتعامل اطفال زوجها مثل اطفالها تماماً . ولقد قلت دائماً بأنه ليس هناك اب او ام يستطيع ان يعامل اثنين من اولاده بالتساوي لأن لكل منهما شخصيته المختلفة .

وهذا هو اسلوبي الوحيد لاقناع الأمهات بتلك الحقيقة خصوصاً في حالات الزواج الثاني او حالات الطلاق . كنت اوصي دائماً بأنه بدلاً من اعلان « حالة التساوي في حب الأبناء » علينا ان نشعر الابن او البنت بالاطمئنان النفسي وانهما ليسا في حاجة الى التنافس او الغيرة من بعضهما البعض اذا كان الأب او الأم يعاملان الابن او البنت بنوع خاص من الحب لأن في كل ابن او بنت من المميزات ما يستحق الحب والتقدير . وهنا ايضاً اقول لزوج الأم او زوجة الأب يجب ان يعرفا ذلك وان يعرفا ايضاً ان هناك شكوكاً في الوضع الجديد . وان كليهما مطالب

بأن يبذل كل جهد ليضاعف من احساس ابن الزوجة او ابنة الزوج بالاطمئنان . وطبعاً لا يستطيع ذلك زوج الأم الأناني او زوجة الأب غير الناضجة،ذلك ان الواحد منهما يشعر بأن هناك من « يسرق » منه اهتمام الزوج الجديد او الزوجة الجديدة . وقد يثق بعض ازواج الأمهات او زوجات الآباء بأن الحل هو ترك مسؤولية تربية طفل الزوجة او طفل الزوج للأب نفسه او للأم نفسها .

وهذا يفيد في كثير من الحالات خصوصاً في الأمور التي لها اهمية خاصة للطفل في بداية الحياة الزوجية الجديدة لأن تكيف الطفل حسب الوضع الجديد ، وتوافقه النفسي حسب مقتضاه لا يتم في لحظة زواج امه بآخر او لحظة زواج ابيه بأخرى .

ولكن هذا لا يكون حلاً لكل المواقف والمناسبات . ان الأم مجبرة على اتخاذ مائة قرار سريع كل يوم عندما يكون الأب بعيداً خارج المنزل .

فإذا استطاعت ان تتبع طريقة لا تترك في نفس ابن زوجها او بنته عقداً او نفوراً فإن ذلك دليل على لباقتها وقدرتها على خلق جو سعيد في الأسرة .

ان ما يطمئن نفس طفل الزوج ويبعث فيه الثقة عندما تضطر زوجة الأب احياناً الى فرض عقوبة مؤذية هو انها بصورة عامة لا تنتظر انتهاز فرصة غياب الأب لكي تجرح الطفل وتعامله بشراسة او حقد .

ولقد تناولت هذه المسألة هنا بهذا القدر من الوضوح لأن هناك ازواجاً للأمهات وزوجات للآباء يتميزون باللباقة وفريقاً آخر لا يملك صفة واحدة من صفات الرقة والذوق .

ان معظم هذا النوع من الآباء والأمهات ، مثلهم في ذلك مثل معظم الآباء والأمهات في ظل الزواج الأصلي العادي ، هم خليط ومزيج بين الاتزان والرقة . . . واحياناً عدم الاتزان وعدم القدرة على تسيير الأمور .

ولكننا ندرك ان في استطاعتنا ان نعامل ونربي احد اطفالنا بكل سهولة

وتعقل في حين ان طفلاً آخر من اطفالنا يرهقنا ويجعلنا نقع في سلسلة من المشاكل وكلاهما من ابنائنا .

وعندما ندعو طفلاً من اطفال اقربائنا ليقيم مع الأسرة في زيارة لمدة اسبوع فإننا غالباً ما نجد انه ما لم يكن شخصاً مهذباً جداً ووديعاً جداً ، فإنه يتصرف باسلوب يملؤنا بالغيظ والضيق وذلك بسبب وجود صفة معينة فيه او بسبب انه يتحدى سلطتنا سراً وعلانية ، وليس هناك شك في انه حتى في أنجح حالات ازواج الأم او زوجات الأب لا بد ان تمر بهم لحظات كثيرة من الكآبة في اول الأمر لكن المودة والنضج والحب يمكن الأزواج آخر الأمر من الاستجابة الواعية لطفل الطرف الآخر وأما حساسيته فلا بد ان يتم التغلب عليها تدريجياً. ان الوضع هنا يشبه وضع الطبيب النفساني المبتدىء الذي يباشر العمل في مركز تدريب العلاج النفسي للاطفال فيحسب ان في استطاعته اجادة التصرف مع كل الأطفال ولكنه سرعان ما يكتشف انه اصبح شديد الغضب ، الى درجة تثير دهشته ، مع اول مريض يتحداه او يخدعه او يسيء التصرف معه .

وبعد مزيد من الخبرة فإنه يتعلم ان كل طفل له في ماضيه او حاضره او وضع اسرته ما يجعله يتحول فجأة الى اتخاذ موقف العداء وينقلب من النقيض الى النقيض وعندئذ يدرك هذا الطبيب ان تصرف الطفل نحوه ليس موجهاً اليه شخصياً بالذات . وعندئذ لا يحمل هذه الأمور على محمل شخصي ولا يعتبر ذلك اهانة له .

ثم انه يتعلم ايضاً كيف يعالج امور الطفل بطريقة احسن حتى لا يفقد سيطرته عليه . ان شعوره بالثقة وبأن الطفل ليس مصدر تهديد له ، يمكنه من ان يتصرف مع الطفل تصرفاً اكثر وداً ويسهل معه كسب ثقته .وعندما اقول ان في استطاعة زوجة الأب (او زوج الأم) ان يتعلم او يستجيب بمزيد من الفهم فلست اعني يقيناً ان في استطاعة أي منهما ان يحل مشكلاته بتجاهل سوء السلوك او التعدي او الخداع . فهذا التصرف لا يقل سوءاً عن التصرف الذي ينطوي على ابداء العداء للطفل . ان الطفل عندما يفلت من العقاب في حالة ارتكابه الجريمة ، فإن ذلك يؤدي الى نتيجتين سيئتين : فهو يشعر في أعماقه بالذنب

ويكون رد فعله لهذا الشعور مزيداً من سوء السلوك لأنه يتمنى لاشعورياً بأن ينال العقاب الذي يعلم انه في اشد الحاجة اليه . وهو يشعر ايضاً بأن زوج الأم (او زوجة الأب) مذنب في حقه لدرجة ما اذا سمح بمثل هذا التعدي ويشعر برغبة تدفعه الى الاندفاع في اهانة زوج الأم (او زوجة الأب) . ومن المستحيل على أي منا ألا ينتهز سانحة شخص مستسلم خاضع .

ان الرجل (او المرأة) صاحب الضمير الحساس لا بد ان يشعر على الأقل ولو بشعور خفيف بالذنب كزوج أم او زوجة اب اذا كانت الأحوال لا تسير سيرها الطبيعي لأنه يدرك ان الزواج الذي ارتضاه لنفسه انما يشكل ما يشبه التهديد بالنسبة لأطفال زوجته او اطفاله . ولكن من المؤكد انه لو ترك الاحساس بالذنب يؤلم ضميره ويفزعه فإنه لن يفعل شيئاً اكثر من خلق حلقة مفرغة من دائرة سوء عذاب يدور فيها بغير ارادة . يجب عليه ان يركز جهده ويجعل مركز انتباهه الوجه الآخر من وجهي العملة . عليه ان يدرك انه اذا احسن اداء دوره فإن الزواج الجديد يصبح نعمة على اطفال الطرفين وعليه وعلى زوجته فينعمون جميعاً في ظل حياة سعيدة . إنه باحترامه لنفسه في ثقة ومطالبته بالاحترام والكرامة من الأطفال يسهل عليهم محبته ويسهل عليهم التكيف مع الوضع الجديد .

ولكن الى أي مدى يذهب زوج الأم في تشجيع طفل زوجته على ان يعامله ويشعر نحوه كما لو كان أباه الحقيقي . اعتقد ان كل طفل لزوج أم او زوجة أب على الرغم من انه قد ينمي علاقة طيبة جداً مع زوج الأم (او زوجة الأب) إلا انه لا يريد ان يعتبر ان هذه العلاقة هي شيء يدعوه الى مخاطبة زوج الأم : يا ابي . ان زوج الأم (او زوجة الأب) قد يكون كل منهما في الواقع أفضل من الأب الأصلي او الأم الأصلية الغائبة ومع ذلك فإنها مسألة بشرية فطرية ان الطفل يريد ان يشعر بالولاء والاخلاص لوالده الأصلي ، وان يحسن الظن به في كل الأحوال والظروف .

ذلك جدير بأن يساعده على الايمان بنفسه إذ انه يعرف انه جزء من ابيه ولهذا فإن على زوج الأم الحكيم الا يشعر بأي اهانة او الم بهذه المسألة بل يجب ان يظهر انه يفهمها ويحترمها .

ومن جهة اخرى فإن ابن الزوج (او الزوجة) اذا كان صغيراً او كان ابوه ميتاً او كان بطبيعته من النوع الشديد الاعتماد على نفسه او من النوع الذي يحب التنافس مع بقية الأولاد الموجودين بالمنزل ، فإنه سرعان ما يؤثر ان يدعو زوج امه بـ « أبي » ويجب ان يعامل كما لو كان واحداً من ابناء الزوج . وقد يبدأ هذا الموقف ثم يغير رأيه عندما يكبر فلا ينبغي عندئذ ان نغضب . ومن رأيي ان زوج الأم (اوزوجة الأب) يجب بصفة عامة ان يقبل ما يحبه الطفل ويتبع رغبته في هذا المجال ما دام لا ينكر الحقيقة الفعلية ولا يشجع الطفل على نسيانها . انه لخطأ بالنسبة للطفل الذي يتذكر اباه ان نوهمه ان زوج امه هو في الحقيقة ابوه . والهدف من قول هذا هو ان ينشأ الطفل وهو مستقر استقراراً عاطفياً على قدر الامكان فإن الطفل يكتشف الحقيقة اخيراً (تماماً كما هو الشأن في حالة الطفل المتبنى) . وقد يصاب الطفل بصدمة بسبب اكتشاف ان والديه قد خدعاه في هذه المسألة الحيوية .

وهذا يثير مسألة اخرى : هل يجوز للطفل ان يحمل اسم زوج امه ؟ او هل يجوز لزوج الأم ان يتبنى طفل زوجته عندما يتبنى لطفل صغير انفصل عن ابيه ويشتاق الى بديل يحل محله ان يحصل على زوج أم طيب يحمل اسمه الأخير كل شخص في الأسرة ، فمن الطبيعي ان يريد الطفل استعمال هذا الاسم ايضاً لكي لا يشذ عن القاعدة ولكي ينتمي لأهل البيت . ولا يعني ذلك في معظم الحالات ان الطفل يريد ان ينكر اباه ، ذلك ان الأمرين يحتلان مكانين منفصلين .

على ان الأب الحقيقي الذي لا يزال متعلقاً بابنه عاطفياً ، قد يعترض على ذلك محتجاً بأن هذه محاولة لاجباره على التنازل التام عن طفله او محاولة لجعل الطفل ينسى من هو ابوه فعلاً . ولو كنت انا مكان هذا الوالد لسمحت للابن ان يحمل الاسم الآخر لأن ذلك يولد في طفله احساساً بأنه ليس غريباً في البيت الذي يقيم فيه كما انني ارى تعزيز الحب لهذا الابن عن طريق الاتصالات الاسبوعية والود وغير ذلك من وسائل التعبير عن الحب . وقد يقترح زوج الأم ، رغبة في الاعراب عن حبه لزوجته ، ان يتبنى الطفل قانوناً وقد يوافق الأب الأصلي اما عن

حسن نية او سوء نية . ولكن اذا سمح الأب بذلك فعليه ان يعرف ان هـذا الإجراء لن يكفل للطفل سوى الاحساس بأنه مطرود من حب والـده الأصلي والفعلي ولن يحقق له ذلك أي اطمئنان بل يخلق في نفسه احساساً يشبه الاحساس بالعار وقد يخلق للأب ايضاً مشكلة هي الخجل الدائم من هذا التهـور الذي اندفع اليه عندما تخلى عن ابنه . واذا حدث التبني في سن مبكرة لا يعي الطفل فيها من امره شيئاً ، يشك الطفل عندما يكبر في ان هناك من انتزعه من أبيه دون موافقة الأب . ان ذلك يؤثر في الطفل تماماً ولذلك يجب ان يؤخذ هذا العنصر في الاعتبار عندما يفكر احد في تبني ابن الزوجة .

وفي رأيي الذي اميل اليه انه ما دامت لا توجد ضرورة ملحة للتبني ، فمن الحكمة الانتظار حتى يصبح الطفل قادراً على الاشتراك في هذا القرار ، على الأقل الى ان يبلغ الثامنة او العاشرة . بل من الأفضل الانتظار حتى يبلغ السادسة عشرة او الثامنة عشرة ويكون قد انتهى من كل تقلبات وتذبذبات طور المراهقة .

وفي مناقشة مثل هذه الأمور مع الطفل فإن من الخطأ تماماً ان يتذرع زوج الأم (او زوجة الأب) او احد ابوي الطفل الذي يكون طرفاً في الزواج الجديد بحجة ان والد الطفل الغائب اقل حباً واقل ولاء من زوج الأم او زوجة الأب . فمهما اشتد تعلق الطفل بزوج الأم فإنه من اجل مصلحته الخاصة ، يحتاج الى ان يحسن الظن بأبيه المنفصل .

والآن يجب ان اعود الى بعض النقاط الطيبة التي ذكرتها زوجة الأب الأمينة في رسالتها في مطلع هذا الفصل . انها يقيناً على صواب في انها وزوجها قد نجحا بسبب حب كل منهما للآخر وقدرتهما على مناقشة النزاع او الصراع ، في وضوح وصراحة . ومن المؤكد ايضاً ان هناك صفة قيمة لا يستهان بها في هذه الزوجة وهي روح الدعابة انها ليست سخرية موجهة ضد أي شخص آخر ، ولكن نفسها تميل الى الفكاهة والى ان تأخذ الأمور بطريقة لا تجعل فيها أي شيء مشكلة لا حل لها . ان كل مشكلة لها حل . واني لأشعر انها تظلم نفسها بالاسراف في لوم نفسها من اجل حقيقة انها لم تحقق مع ابنة زوجها الوفاق التام ولأنها كثيراً ما تشعر في اعماقها بالعداوة او البغضاء نحو ابنة زوجها .

ان شخصية الفتاة وخلقها وعاداتها كانت قد تبلورت واتضحت معالمها عند زواج ابيها بهذه الطريقة للزوجة الجديدة وكلها تنطق بأنها فتاة على جانب كبير من الحماقة كما ان الامانة ليست من صفاتها البارزة ومن هو الذي يتوقع من زوجة اب ان تستطيع ان تغير طفلة تغييراً كبيراً في هذه السن ، ومن هو الذي يتوقع من امرأة على هذه الدرجة من الشرف والنظام في حياتها ان تتقبل مثل هذه الفتاة تقبلاً كاملاً .

انه لانتصار كبير لها ان تتمتع على الرغم من كل ما تقدم بحب هذه الفتاة الى حد ان يكون في استطاعتها ان تقضيا اليوم في شيء غير قليل من المرح والوفاق . لقد عرفت عدداً لا حصر له من الأمهات القادرات الواعيات اللاتي تسبب لهن بناتهن الواناً من الاستفزاز والنكد في هذه السن وعندما تربي ام ابنتها وتنشئها منذ مولدها على صفات معينة فإنها لا تستطيع ان تسمح لنفسها بكل هذه السهولة والبساطة ان تكره البنت وانما يأخذ هذا الشعور قناعاً من عدم الحب خلف الاحساس بالمسؤولية بالذنب .

ولعل حقيقة ان زوجة الأب تلك تستطيع بكل امانة وشرف ان تعترف بشعورها العدائي لنفسها وامام زوجها هي التي ساعدتها وتساعدها على تسيير دفة هذه الفتاة الى حد ما والاحتفاظ بظاهر العلاقات على الأقل في حالة مقبولة من جانب الفتاة .

وسأجازف بالتخمين واضيف بأن هذه السيدة تحب ابنة زوجها في معظم النواحي اكثر مما تدرك والا فكيف كان يمكن لهما ان تسير بهما الحياة على هذا النحو من الود وكيف كان من الممكن للفتاة ان تكون مغرمة بزوجة ابيها الى هذا الحد من الوضوح .

اعتقد ان شعور هذه المرأة بالعداوة التي تبدي خجلها وعارها منه الى هذا الحد انما يتعلق فقط جزئياً بعيوب الفتاة المثيرة للاستفزاز وان مردها اساساً المنافسة العادية والغيرة المعهودة بين الأم والبنت التي تكون في سن المراهقة . ولا شك ان كون هذه الزوجة اقدر على الشعور بالمسؤولية وحملها من ابنة زوجها هو الذي

حملها على تقديم كل هذه التنازلات التي هي في الواقع اكثر مما ينبغي وذلك حرصاً على انقاذ الزواج من الانهيار . ولو انها لم تتصرف على هذا النحو لكانت ظهرت كل هذه الضغوط على الفتاة بدلاً من هذه الزوجة . لقد أدت هذه السيدة مهمة رائعة يجدر بها ان تفخر بادائها وتعتز .

متى يتحتم استدعاء الطبيب ؟

هنـاك بعض أعراض المـرض يمكن ان نراقبهـا نحن ونحتفظ بهدوئنا الى ان نذهب بالطفل الى عيادة الطبيب . وهناك بعض الحالات يجب ان نستـدعي فيها الـطبيب ولو بالشرطة !!

كثيراً ما تكتب الأم الشابة لتسأل في رسالة طويلة تقول فيها :

« أرجو ان تجد الوقت الكافي لتوجه النصائح الى كل أم شابة عن الحالات والظروف التي يجب فيها ان تستدعي الطبيب ليفحص طفلها الوليد : ذلك ان بعض الأمهات قد تهمل الواحدة منهن حالة الطفل الصحية دون ان تدري . . والبعض الآخر قد ينزعجن لأقل ارتفاع طفيف في درجة حرارة الطفل . كما انه لا يخفى عليك ان الاسرة قد تتردد في استدعاء الطبيب لفحص الطفل لأكثر من سبب . احياناً يكون السبب مادياً واحياناً اخرى يكون السبب هو الحيرة الشديدة التي تقع فيها الأم نتيجة لعدم معرفتها بالحالات والظروف التي يجب ان يستدعى فيها الطبيب . ان بعض الأمهات يغرقن في الاحساس بالذنب نتيجة عدم استدعاء الطبيب . . لأن حالة الطفل قد تسوء . واحياناً اخرى تقع الأم في بحر من الخجل . . لأن حالة الطفل لم تكن مزعجة بالصورة التي تخيلتها ، واستدعت من اجلها الطبيب . ان كثيراً من النصائح التي يوجهها الأطباء في الراديو والصحف تحذر من أن العطس واحتقان الحلق المصحوب بارتفاع في درجة الحرارة قد تكون دلالات على الاصابة بأي نوع من الأمراض ، قد يكون المرض نزلة برد وقد يكون الحمى القرمزية . ويتردد عدد كبير من الأمهات ، في رفع سماعة التليفون لاستدعاء الطبيب خوفاً من ان تظهر الواحدة منهن بمظهر الحمقاء التي تبالغ في القلق على طفلها . وقد كنت انا على حافة الوقوع في هذا الخطأ منذ اسابيع عندما ظهرت على طفلي الذي يبلغ من العمر سبعة اعوام اعراض الصداع الحاد وكان الصداع هو السبب الذي دفعني الى استدعاء الطبيب لأن

الصداع مسألة غريبة بالنسبة لطفل في هذا العمر . وكانت النتيجة سيئة هي مرض اسمه الالتهاب السحائي . ولم يكن المرض قد تمكن من السيطرة على طفلي لأن الطبيب اسرع بعلاجه » .

واني كطبيب اوافق بكل تأكيد على ان الأم التي يلمس قلبها الشك او القلق بخصوص أي تغير في صحة الطفل ، عليها ان تتصل فوراً بالطبيب الذي يعالج طفلها دون ان تهمل الأمر او تترك المسألة للظروف . وهل سيعتبر الطبيب ان هذا الاتصال التليفوني لا جدوى منه . . وانه بعد الكشف على الطفل لم يكن هناك أي داع لاستدعائه ؟ وهل ستعاني الأم من الخجل والارتباك عند حضور الطبيب ثم اعطائها النتيجة بأن حالة الطفل سليمة ؟ لنتفق من البداية ان أي إهمال قد يؤدي الى مرض خطير . ولنتفق أيضاً اننا نجد السؤال صعباً على كثير من الأمهات وانه يتحول الى سؤال آخر يقول :

ـ متى يتحتم علينا ان نشعر بالقلق على صحة الطفل ؟

ان المشكلة الأولى التي شغلت تفكيري في الفترة الزمنية التي قمت خلالها بتأليف كتابي « العناية بالطفل »(*) هي : انني لم أجد اثناء خبرتي الطويلة أي تشابه بين أي اثنتين من الأمهات في اسلوب معالجة أمور الطفل . وان الطبيب اذا استطاع أن يقنع احدى الأمهات بالقواعد السليمة لمعاملة الطفل وعلاجه فإن هذه القواعد نفسها ، لن تكون قابلة للتطبيق بالنسبة لأم اخرى . ولنضرب مثلين يقف كل منهما على طرفي نقيض :

لو أنني كنت أؤلف فقط للأمهات اللاتي من النوع الحساس حيث يستبد بالواحدة منهن القلق على الطفل ، لظلت كل كتاباتي تهدف الى طمأنة هذا النوع من الأمهات الى ان كثيراً من اعراض المرض التي قد تبدو مرعبة في الظاهر لا

(*) صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

تؤدي عادة الى مرض خطير . فالاحساس بالألم خلف الأذن في بداية اصابة الأذن بالعدوى لا يدل عادة على التهاب داخلي خطير في داخل الأذن . كما ان الاحساس بمغص وتقلصات في البطن ليس دليلاً على التهاب الزائدة الدودية في معظم الأحيان . ولكن نحن نجد على الطرف الآخر بعض الأمهات اللاتي تستهتر الواحدة منهن غاية الاستهتار وتقابل كل اعراض الأمراض بعدم الاكتراث والاستخفاف . ولو ان الواحدة منهن تقرأ هذه الكلمات لتبادر الى ذهنها أني أقصد أن الألم وراء الأذن ليس دليلاً على أي مرض وأن الأطفال لا يمكن ابداً ان يصابوا بالتهاب الزائدة الدودية ، ولهذا فليس هناك أي داع للاهتمام بأي مغص او الم يصيب بطن الطفل .

والحقيقة أن معظم الأمهات ينتقلن من مرحلة المبالغة في القلق على صحة الطفل الأول . . الى الاهمال الجسيم الذي يصل الى حد الاستهتار بصحة الطفل الثالث او الرابع ، وهذا شيء طبيعي أن يحدث ، وما زلت اتذكر حتى الآن احدى الأمهات التي اثق تماماً في تقديرها السليم للأمور ، ان استدعتني في احد الأيام للكشف على طفلتها الرابعة واستقبلتني قائلة :

ـ انني اكره ازعاجك لكن هناك بعض اعراض المرض على ابنتي منذ ثلاثة ايام انها تشكو من الصداع الشديد والحمى المرتفعة . هل تحسب ان هناك ما يدعو للقلق والانزعاج وحضورك لفحصها . .

ان الحالة كما رأيتها تحمل اعراض مرض يكفي ان يجعل الطبيب يشك في الاشتباه في الاصابة بأكثر من مرض خطير، بدءاً بالالتهاب الرئوي مثلاً الى أي لون من الوان الحميات . وعندما اتصلت بي هذه الأم التي أثق فيها حاولت أن أخفي قلقي عنها وتركت عيادتي على الفور لأزور ابنتها المريضة .

طبعاً من السهل ان اقول لأي ام ان انخفاض الحرارة لا يدل على مرض خطير ، أما عندما تكون الحرارة مرتفعة فالأمر قد يكون خطيراً . لكن هذا

الـرأي ليس صحيحاً تمـام الصحة ، فـالحقيقة ان معـظم الأمراض الخـطيـرة كالالتهاب الرئوي والتهاب الغشاء البريتوني والتهاب عظام الأذن الداخلية يكون غالباً مصحوباً بارتفاع شديد في درجة الحرارة ، لكن جميع هذه الأعراض ايضاً يمكن ان تبدأ مع ارتفاع طفيف في درجة الحرارة . إن الحصبة الألمانية مثلاً وهي من امراض الطفولة المبكرة لا تحمل اي خطر على حياة الطفل . وتتميز بأنها تأتي في مصحوبة بدرجة حرارة ثابتة عند ٣٩ درجة لمدة اربعة ايام قبل ظهور الطفح ، ومن المهم ان نعرف ان جسد الطفل في الشهور الأولى من الرضـاعة لا يملك القدرة الكاملة على مقاومة الميكروبات ، ولذلك فإن درجة الحرارة ترتفع ، وحتى في بعض الحالات المرضية التي يسهل انتقال العدوى فيها لا تغير الصورة . ان أي تغيير في صحة الطفل بعد ان يبلغ عاماً او عامين يعلن عنه الجسم بارتفاع درجة الحرارة عند بداية الاصابة بأي مرض من الأمراض سواء المرض البسيط او المرض الخطير . وطبعاً يتعلم الآباء والأمهات هذه الحقائق من خلال الخبرة مع امراض الأطفال. ومن القصص المعروفة أن طفلاً ما قد تظهر عليه علامات الصحة في الصباح ثم يصاب بفقد للشهية اثناء تناول الغذاء وتقل حيويته بعد ذلك وتنقضي فترة ما بعد الظهر وترتفع درجة حرارته حتى تصل الى درجة ٤٠ وهنا تستدعي الأسرة الطبيب وقد تكون نتيجة الفحص مجرد احتقان بسيط في اللوزتين ولا تمر اربع وعشرون ساعة أو ثمان واربعون ساعة حتى تنخفض درجة الحرارة وتعود الى الطفل صحته ولا يبقى من آثار المرض سوى بعض بقايا الزكام . ان نزلات الرشح الخفيفة واحتقان اللوزتين والانفلونزا تؤدي الى ارتفاع حاد في درجة حرارة الطفل خصوصاً في عامه الأول او الثاني . ولكن عندما يصير في سن الخامسة او السادسة او السابعة فإن الطفل لا ترتفع درجة حرارته دون سبب قوي . وانني ارجح الآن ان الاصابة قد تبدأ بالرشح وبارتفاع طفيف في درجة الحرارة. ولكن عندما يشتد هجوم ميكروب الحمى على جسد الطفل فإن المرض يدخل في مرحلة الخطورة . وفي بعض حالات لأمراض معينة كثيرة يمكن ان نقول ان ارتفاع درجة الحرارة في بداية المرض بسيط جداً وهو أهون بكثير من ارتفاع درجة الحرارة بعد

مرور ايام قليلة من الاصابة بميكروب المرض . ان حرارة الجسم التي تعلن عن ارتفاعها بعد مضي أيام من بدء الاصابة تدلنا غالباً على ان المرض يتمكن من جسد الطفل وقد تظهر بعض المضاعفات التي يصعب علاجها فيما بعد . وسواء كان ارتفاع الحرارة عالياً منذ البداية أم لافإن هذا الأمر ينطبق على اصابات الرشح والتهابات اللوزتين . ان تكرار ارتفاع الحرارة وانخفاضها قد يدفعنا الى التساؤل هل وصلت اصابة الرشح الى الاذنين ام وصلت الى الرئتين لتسبب الالتهاب الرئوي . وخصوصاً اذا بلغ السعال الحاد الى درجة تخيف فعلاً ، وقد نتساءل ايضاً هل تسللت الميكروبات المسببة لارتفاع درجة الحرارة الى الجهاز البولي لتصيب حوض الكليتين بالالتهاب ، أو تسللت هذه الميكروبات الى الغدد الدرقية ؟ انني اقول بكل وضوح وصراحة ان الحرارة التي يتأرجح بين الارتفاع والانخفاض بعد الـ ٢٤ ساعة الأولى من بداية المرض تستدعي ان نتصل فوراً بالطبيب .

قد تقول اي أم : « لماذا لا يكون هناك دليل واضح ينير الطريق امام الاسرة ، لتعرف متى يمكن ان تتصل بالطبيب او لا تتصل به . . وخصوصاً أن هناك بعض أسر تسكن في مناطق بعيدة لا يتوافر فيها وجود الطبيب نفسه ؟ » .

ان هناك قليلاً من النصائح قد تقدم المساعدة للأم . . في البداية ، المظهر العام للطفل ، وهل تبدو عليه دلائل المرض واضحة ام لا ؟ وهل يقوى على مغادرة الفراش ام لا ؟ ، والى أي مدى يكون التغيير في سلوكه بالنسبة لحالته الطبيعية عندما يكون سليماً ، فلو أن الطفل ظهرت عليه علامات المرض . . واجبرته على ان يرقد في السرير وكان منهكاً ، فعلى الأم ان تحاول استدعاء الطبيب لفحصه أو تنقله هي الى عيادة الطبيب .

ان مظهر الطفل وسلوكه في بداية الاصابة بالمرض يهمني كثيراً ، فالطفل الذي لا يأبه بارتفاع درجة الحرارة ويأكل ويلعب كطبيعته لا تزعجني حالته انما الذي يزعجني هو أن يقهر المرض القوة الحيوية في الطفل .

أريد بعد ذلك ان أعدد بعضاً من الأعراض التي تظهر اثناء الاصابة بالبرد

وتتطلب العناية الطبية الفورية . ان اكثر هذه الأعراض انتشاراً هي الآلام داخل الاذنين . هذه الآلام لا تعني ان الأذن ملتهبة التهاباً شديداً ، وان هذا الالتهاب سيؤدي الى نتائج خطيرة . . لأن معظم حالات التهابات الأذن يمكن ان يشفى الطفل منها تماماً ، لكن التهابات الأذن التي تترك بلا علاج وتستمر مدة طويلة في بعض الأحيان قد تعطينا نتيجة . . هي فقد القدرة على السمع . بينما أي التهاب في الأذن يمكن علاجه بسرعة بالعقاقير والأدوية الحديثة والمتقدمة . لذلك ليس هناك اي سبب يجعلنا نهمل العلاج . وهناك عرض آخر من اعراض الاصابة بالمرض يتحتم علينا ان نواجهه بمنتهى السرعة وهو غلظة الصوت او نوبات ضيق التنفس . ان غلظة الصوت قد تكون نتيجة لمجرد التهاب بسيط في الحنجرة ولا يؤدي هذا الالتهاب الى مرض خطير . . كما ان نوبات ضيق التنفس قد يعود غالباً الى مجرد ألم مؤقت في الحنجرة . ومع ذلك فأنا أشدد التنبيه على الامهات في أنه في حالة غلظة الصوت او ضيق التنفس . . يجب على الفور مراجعة الطبيب . . خصوصاً اذا كان الأمر مصحوباً بارتفاع في الحرارة . . لأن ذلك يدل على حالة من التهاب اللوزتين او نزلة البرد التي تؤدي الى نزلة شعبية خطيرة . . او الى التهاب رئوي حاد . . وقد نحتاج معها الى علاج طويل .

لا اعتقد انني وفّيت موضوع نزلات البرد ومضاعفاته الحق الكامل في المناقشة . . لكن ما قلته يكفي في هذا الموضوع .

انني أرى ان معظم نزلات البرد هي التي تسبب الكثير من الامراض التي تصيب الطفل . . لكن هناك مجموعة اخرى خطيرة ايضاً . . هي نزلات المعدة والأمعاء التي تظهر في حالات القيء والاسهال والتي يتعرض لها الطفل غالباً في عامه الأول والثاني . ولهذا فإن علينا ان نوجه عناية خاصة لعلاج هذه الاعراض في اول ظهورها . ومن الضروري ان نستدعي الطبيب فوراً اذا كان براز الطفل قد أصبح مائعاً جداً أو كان البراز مخاطياً او مختلطاً بالدم او اذا صحب ذلك قيء وارتفاع في الحرارة وفقدان تام للحيوية . . لكن بعد العام الثاني من عمر الطفل فإن الاسهال الخفيف لمدة ٢٤ ساعة لا يكون خطيراً ، ومع ذلك يجب ان نستشير الطبيب اذا كان هناك شيء من الآلام في البطن في حالة الاسهال أو أي

عرض من الاعراض التي ذكرتها من قبل .

ومن المؤكد ان هناك مجموعات كثيرة من الامراض تؤثر في أعضاء الجسم المختلفة وهذه المجموعات المختلفة . . معقدة بصورة يصعب علينا ان نناقشها ببساطة ، كما أن معظمها يكون نادراً بحيث يصعب علينا أن نتذكرها لنضعها هنا في هذا الكتاب .

وقد كان من حظ الأم التي كتبت لي الخطاب الذي نشرت جزءاً منه في بداية هذا الكتاب ان طفلها اصيب بحالة مرضية اسمها الالتهاب السحائي ، وهو مرض نادر جداً . ولقد شعرت هذه السيدة ان الصداع الحاد ليس مألوفاً في هذا العمر المبكر بالنسبة للطفل ، وأنه يجب ان تستدعي الطبيب لفحص الطفل على وجه السرعة . . وكان أي اهمال في حالة طفلها قد يتطور الى صورة عنيفة .

وهناك بعض المظاهر التي قد تبدو مألوفة في أي مرض من الأمراض . قد يتشابه مرض خطير مع مرض آخرغير خطير ولكن هناك دائماً احساس الأم الداخلي بالخطر وهي تكتسب هذا الاحساس من خلال تربيتها لأكثر من طفل . فعندما يشكو الطفل من ألم في البطن ويرغب في التقيؤ فإن ذلك قد يدل على ان هناك عدوى لنوع من المرض لا نعرفه بالتحديد إلا بعد الفحص الطبي . ان المغص من الاعراض الشائعة بين الأطفال الذين يواجهون مشاكل في التغذية وغير ذلك من الاسباب التي تدفعنا للقلق على الطفل فقد نظن ان المغص هو التهاب في الزائدة الدودية . لكن التهاب الزائدة الدودية فهو حالة نادرة بلا ادنى شك . فإذا قارنا الالتهاب في الزائدة الدوديه بالأسباب الأخرى التي تؤدي الى أي مغص في البطن فإن النتيجة ستكون وجود مرض ما ليس هو الزائدة الدودية . . وحتى نتأكد من انه التهاب حاد في الزائدة الدودية فإننا يجب ان نفحص الطفل فحصاً جيداً خصوصاً اذا كانت شكوى الطفل من المغص تظهر بصورة لم نرها من قبل في هذا الطفل نفسه . واذا ظلت الآلام لمدة ساعة او اكثر فإننا يجب ان نهتم غاية الاهتمام بصحة هذا الطفل . أما الآلام التي لا تستمر سوى دقائق وتزول بعد ذلك فهي لا تدل بالتأكيد على التهاب الزائدة الدودية . . هنا يمكن ان يدور سؤال في رأس الأم وترغب في ان تقول « ان هذا الحديث كله معقد جداً وهو لا

يفي تماماً بما ارغب ان اعرفه فإنني اشك في ان ذاكرتي قد تستوعب هذا الكلام وحين يصاب طفلي بمرض في الأسابيع القادمة لن اتذكر منه حرفاً واحداً » .

اني اعتقد ان هذا هو رد فعل طبيعي . فليس هدفي ان تصبح كل ام طبيبة متخصصة يمكنها ان تشخص كافة الأمراض . . لأنه حتى الأطباء أنفسهم اثناء فترة دراستهم لا يمكنهم استيعاب كل اسماء الأمراض وانواعها واعراضها ولا يتوقع منهم الكبار من الأطباء ان يقوموا بالتشخيص فوراً . . ان أي طبيب يقضي عدة سنوات في كلية الطب ويقضي ايضاً عدة سنوات كطبيب مقيم في احدى المستشفيات ويدرس الجسد البشري والوان وانواع الميكروبات التي تصيبه . . ويدرس ايضاً اعضاء الجسد التي تقهرها الجراثيم ويدرس كيفية القيام بالاختبار المعملي ليكشف عن نوع المرض . . ويقرأ الكثير من المقررات الدراسية ليعرف الاعراض المختلفة التي تظهر في حالة كل مرض والتي قد تتشابه مع اعراض مرض آخر . . وبعد كل ذلك فإن الطبيب يعالج ويفحص مئات الحالات في المستشفى . . وعندما يبدأ الطبيب في ممارسة المهنة لا يمكن ان يكون عارفاً كل المعرفة التامة بأعراض الالتهاب الرئوي مثلاً او الزائدة الدودية او الالتهابات الداخلية في جدران المعدة والأمعاء . ان هناك كثيراً من النواحي المختلفة والخبرات المتعددة التي يكتسبها الطبيب خلال ممارسته للمهنة . وهناك بعض الأطباء يصلون الى درجة عالية من الاتقان للمهنة الا ان التشخيص يخونهم في بعض الأمراض . . وحتى اثناء علاجهم لأفراد اسرهم . . ان الطبيب في معظم الأحيان يلجأ الى طبيب آخر لكي يستشيره في احد الأمراض التي تصيب احد افراد اسرة الطبيب نفسه . ولهذا فأنا لا أطلب من أي أم خصوصاً التي لم تمر بأي نوع من التدريب ولم تتعلم التفريق بين الخطير وغير الخطير من الأمراض . . لا اطلب منها ان تكون عارفة بكل التفاصيل الدقيقة للامراض المختلفة .

وكثير من الأطفال يقعون على الارض او من مكان مرتفع من على السلم مثلاً وقد تلتوي قدم الطفل او يده تحت ثقل جسده . وقد يسبب ذلك الألم المستمر او العجز عن استعمال اليد المصابة او المشي على القدم المصابة وقد يحدث بعض الورم . في مثل هذه الحالة يجب ان نستدعي الطبيب لأن الأمر يحتاج الى

مهارة الطبيب وقد يحتاج الى الفحص بالأشعة حتى نتأكد من عدم حدوث أي كسر بالعظام . ويجب ايضاً ان نستشير الطبيب عندما تحدث أي اصابة للرأس . . خصوصاً اذا صحبت هذه الاصابة غيبوبة قصيرة ورغبة في النوم وغثيان وصداع وشحوب يزداد باستمرار على ملامح الوجه . إنها قد تكون اصابة بارتجاج في المخ .

نحن نقرأ ونعرف عدداً هائلاً من التحذيرات عن ضرورة ابعاد الأشياء التي يسهل ابتلاعها عن يد الطفل الصغير ، ذلك اننا نقع احياناً في الاشتباه في ان الطفل قد يكون ابتلع مادة نظن انها سامة . . وهناك عشرات من هذه المواد في كل بيت لذلك فإذا ابتلع الطفل أي شيء فمن الأحسن ان نطلب الطبيب بعد ان نحاول ان نجبر الطفل على القيء بأن نضع الأصبع في فم الطفل ونحرك الأصبع حركة دائرية في مؤخرة الحلق . وان لم نستطع الاتصال فوراً بالطبيب فهناك اساليب عديدة لعلاج هذا الموقف ، منها ان كثيراً من المراكز الطبية للاسعافات الأولية موجودة في معظم المدن . . ويمكننا ان نحصل على رأي احد هذه المراكز بعد الاتصال به هاتفياً . . ويجب ان نحتفظ دائماً برقم تليفون اقرب مركز اسعاف قريباً منا ونحتفظ ايضاً برقم تليفون أي مستشفى قريب منا حتى يمكن ان ننقل الطفل بسرعة الى هناك اذا حدثت حالة من هذه الحالات . اما اذا كان البيت يقع في قرية ويبعد كثيراً عن المستشفى . . فعلينا ان نطلب الشرطة لتبحث لنا عن طبيب على وجه السرعة او تجعلنا نصل بسرعة الى احد المستشفيات .
اما عن الجروح التي تصيب الأطفال فهي غالباً ما تكون مجرد خدوش بسيطة او كدمات لا ضرر منها وتشعر الأم من خلال تجاربها بأنها لا تدعو الى القلق وعندما ينسلخ الجلد او يجرح الطفل جرحاً بسيطاً فعلينا ان نغسل الجرح بالماء والصابون . وذلك هو اول اسعاف يمكننا ان نفعله ، اما اذا كان الجرح كبيراً وخطيراً في الوجه حيث يمكن ان يترك اثاراً او كان الجرح عميقاً فإن علينا ان نستعين بالطبيب ليجري عملية خياطة الجرح ويحقن الطفل بالمصل المضاد لمرض التيتانوس .

إنني اعرف قدر الرغبة في الاعتذار عن ازعاج الطبيب عندما يبدأ الأب او

الأم في الاتصال به لاستدعائه لفحص طفلها ، خصوصاً اذا كانا يشعران ان المرض خطير . ولكني اؤمن ان على الآباء مسؤولية المحاولة للتغلب على الارتباك او الخجل عند ضرورة حضور الطبيب . لأنهم حتى لو شعر الواحد منهم بأن الاستدعاء ليس له ما يبرره ، فإنهم يجب ان يعلموا ان فحص الطفل على أية حال مفيد . . وانني انصح دائماً ان يكون لكل اسرة طبيب يعالجها . . ان هذا الطبيب تربطه درجة من الصداقة بالأسرة وهو في معظم الأحيان يدرك ان دعوة الأسرة له للكشف على الطفل ليست دعوة سخيفة . وحتى اذا ظنت الأم ان الطبيب قد يرى ان سبب استشارته تافه فإن من مسؤوليتها ان تستشيره اذا لمست القلق في قلبها على صحة طفلها .

ان صحة الطفل اهم من مشاعر الطبيب وأهم ايضاً من احاسيس الأم لذلك فلها الأولوية الكاملة وهي فوق كل اعتبار .

كيف نعامل الطفل في فترة النقاهة ؟

نحن نستطيع ان نمنح الطفل كل الحنان دون ان نغرق في بحر من العذاب .

عندما تنتهي مرحلة الخطر في أي مرض ، وعندما يبدأ الطبيب في الابتسام لأن الطفل قد وقف على عتبة الشفاء فإن على الأم ان تلاحظ جيداً ان الطفل يجب ان يظل في حالة من الراحة النفسية وان تبتعد الأم ايضاً عن الاحساس بالضيق والضجر معاً ، لأن راحة الطفل النفسية وابتعاد الأم عن الضيق هما المشكلتان اللتان تواجهان اغلب الأمهات في فترة نقاهة الطفل من المرض . ان هناك في بعض الأحيان اسباباً نفسية وجسدية تجعل الطفل في حالة من الملل والضيق وتجعله يتفنن في طلب اشياء كثيرة متناقضة . انه يعيش في احساس الانسان الذي يعيش لحظات قبل الخروج من السجن .

نعم ، ان المرض سجن تضيع خلف جدرانه حرية الطفل والأم معاً .

والتحليل النفسي للاطفال الصغار يكشف لنا ان الطفل بعد اصابته بالمرض او اجراء أي عملية جراحية له، ينظر الى ما اصيب به على انه نوع من العقاب على جريمة ارتكبها . او لأنه قد مرت بخاطره بعض الأفكار العدوانية نحو احد افراد اسرته . ولهذا فإن الطفل يعاني من الاحساس بالذنب اذا مرت في خياله فكرة شريرة تماماً . . انه يعتبر مجرد التفكير في الانتقام من احد هو جريمة يستحق عليها العقاب . ان الطفل يعتقد ان افكاره الشريرة يمكن ان تلحق الأذى بطريقة سحرية ، بمن فكر الطفل في ان يؤذيه . والحقيقة ان معظم الأطفال والكبار يملكون في اعماق اللاشعور بعض هذا الايمان بالسحر . ويؤمنون ايضاً بأن هناك وسائل مضادة خرافية يحمون بها انفسهم من خطر الافكار الشريرة

والظنون السيئة . الأم تدق على الخشب او تلمسه وهي تقول : « ان طفلي لم يمرض طوال فصل الشتاء » .

ونحن الكبار كثيراً ما ننقل بالايحاء الى الأطفال بأن الأمراض تأتي من المعاندة والطيش ، فعندما تقول للطفل بلهجة التحذير والتأنيب :

« انك لم ترتد المعطف ، وانت خارج في تلك الليلة . لو كنت قد سمعت كلامي لما اصابك البرد » .

او عندما تقول :

« ان كثرة معاركك مع اخوتك هي السبب في الصداع الذي يصيب امك » .

اننا بهذه الطريقة نقنع الطفل لا شعورياً بأنه مسؤول عن المرض وانه هو الذي تسبب في مجيء المرض لنفسه او لأحد اقاربه . وبالتالي يقع في الاحساس بالذنب. لقد شعر اثناء المرض بالخوف من هذا « العقاب » الذي جاءه لأنه فعل شيئاً منكراً . ان اعراض المرض ايضاً تخيفه . وخطر المرض نفسه يجعله غارقاً في احساس داخلي بالرعب . والخوف من خطر المرض ينتقل الى الطفل من الأم . ان ملامحها اثناء قراءتها لميزان الحرارة بعد قياس الحرارة تنبىء بالخطر وصوتها المرتجف وهي تتحدث الى الطبيب يجعل الطفل يزداد خوفاً على نفسه . ثم اسلوب معاملتها للطفل اثناء المرض ، هذا الأسلوب المليء بالحنان الزائد والخوف الزائد . كل ذلك يجعل الطفل غير طبيعي . ثم يبدأ الطفل في الاحساس بأن حدة المرض قد بدأت في الزوال . ويبدأ هو في استرداد صحته . ان هذه الفترة يمكن ان تكون من الفترات الصعبة في حياة الطفل . ان الطفل يتعود على الحنان المبالغ فيه ولا تسهل قيادته . ذلك انه من بين ردود فعل الانسان بعد انتهاء مرحلة الخوف أن يبدأ في الاحساس بالثورة على الانسان الذي يعتقد انه كان السبب في ذلك الخوف . وهذا يبدو واضحاً في غضب الأم العنيف على طفلها الذي كاد ان يسقط من النافذة ، او ثورة الأم على طفلها الذي اندفع في

الطريق وكاد ان يقع تحت عجلات سيارة بسبب عدم انتباهه واندفاعه . . ولأن الطفل يظن ان المرض هو نوع من العقاب . . ولأن الطفل يعتقد ان الأم هي التي تعاقبه دائماً . فمما لا شك فيه انه قد يعتبرها لا شعورياً هي المسؤولة الى حد ما عن اصابته بالمرض . انه ايضاً يلقي عليها اللوم لأنها لم تمنع عنه صنوف الأذى التي امر الطبيب بها ابتداء من تناول الدواء المر . . الى العلاج بالحقن . . الى الاستقرار الدائم في السرير ودون مغادرة الفراش . . الى تناول صنف واحد او اثنين فقط من الطعام والحرمان من بقية الوان الطعام . والأم في أغلب الأحيان تزيد من ظن الطفل بأنها السبب الأساسي في مرضه . . ان الطفل يفهم ذلك من اسلوب معاملتها له الممتلىء بالاهتمام غير العادي . . وموافقتها على أي طلب يطلبه . . وصبرها على تحمل مضايقاته . فالأم تقع في خطأ الاعتقاد بأن الابن اصيب بالمرض او وقعت له الحادثة لأنها اهملت رعايته ، ولا يوافق الطبيب دائماً على هذا الظن الخاطىء ولكن الأم لا تتنازل عن هذا الوهم . انه جزء من طبيعتها ان تشعر انها مسؤولة مسؤولية كاملة عن ابنها .

وعندما يظن الطفل ان الأم هي السبب في اصابته بالمرض كنوع من العقاب له وعندما تظن الأم انها باهمالها كانت السبب في مرض الأبن، فإن تينك الفكرتين الخاطئتين . . كل منهما تساند الأخرى . وتستمر رحلة تعذيب الابن والأم معاً خلال المرض بسبب هاتين الفكرتين .

ولكن عندما يبدأ الطفل مرحلة الشفاء من المرض فإن راحة الضمير تبدأ في الاستقرار في اعماقه . لقد قدم الكفارة عن خطاياه ، سواء كانت تلك الخطايا حقيقة او وهماً ، ويرى ان صحته قد بدأت تمتلىء بالحيوية . ولكن قد يكون هناك احساس بالذنب في قلب الأم بأنها السبب في المرض وهذا الاحساس لا يذهب بسرعة . انها تعرف ان المرض لم يذهب نهائياً . . وهي في هذه الحالة قد تعاني من عدم الاستقرار العاطفي والنفسي . ويستمر هذا الأمر بضعة ايام . وبقدر ما يظهر احساس الأم بالذنب في سلوكها مع الابن ، بقدر ما يشجع ذلك

الابن في القاء اللوم عليها ومحاولة عقابها .

قد تسأل الأم :

- « وكيف يظهر احساسي بالذنب لابني ؟ كيف يكتشف هو انني اشعر بالذنب ؟ »

والاجابة عن ذلك في منتهى البساطة ، هي . . ان ذلك يظهر في رضوخها التام لكل طلب للطفل اثناء فترة المرض والسماح له بالتمادي في الدلال واصدار الأوامر . . باختصار . . قد تسمح الأم للطفل بأن يتحول الى ديكتاتور اثناء فترة المرض . وقد يظن احد انني انظر الى التفاصيل الصغيرة اليومية بمنظار اسود ، وانني افترض السوء في الطفل . وانا اقول فقط الحقيقة الموضوعية . . ان هناك حالات متطرفة من الاحساس بالذنب عند الأمهات بأنهن السبب في اصابة الطفل بالمرض . لكن هناك ايضاً بعض الأمهات الواقعيات اللاتي يتبعن الأسلوب العملي في معالجة الأمور . ولذلك فإن اطفالهن يكونون غاية في اللطف والتصرف الطبيعي المهذب اثناء المرض وبعده . إنني فقط اعرض احتمالات تأثير العوامل النفسية حتى تتأملها كل ام تعاني من متاعب الطفل اثناء فترة النقاهة من المرض .

ان على الأم ان تعرف انه من اسهل الأمور هو القاء اللوم على نفسها بأنها السبب في مرض الطفل . لكن عليها ايضاً ان تمتنع عن الوقوع في خطأ الاستسلام التام لكل طلبات الطفل اثناء المرض . ان الأم يمكنها ان تسأل ابنها عن اعراض مرضه في صوت عادي وواقعي وعملي تماماً كما يسأل الطبيب الطفل . . ولا يجب ان تقع في خطأ اظهار القلق الشديد على الطفل فتظل تكرر اسئلتها عليه كل خمس دقائق . ولا اقصد بذلك ان على الأم ان تظهر بمظهر قاس او بمظهر عدم المبالاة . . لا . . انما اقصد ان تظهر الأم العطف وان تشارك الابن مشاعره دون ان تحمل نفسها متاعب الضيق والارهاق والتألم . وعندما تظهر على الطفل اعراض السيطرة والقاء الأوامر وبداية التصرف الديكتاتوري . . فإن على الأم ان تضع حداً لذلك بأن تحزم امرها معه وتقول له

انها لا تسمح له ان يتحدث معها بهذا الاسلوب . . وان وراءها أعمالاً كثيرة يجب ان تقوم بها . واذا ابدى الطفل بوادر الرفض لمشروب طلبه بنفسه منذ قليل . . فإن على الأم ان تقترح عليه ان يحاول تذوقه مرة اخرى حتى يمكن ان تتاح لها فرصة اخرى لتصنع له مشروباً آخر . اما اذا بدأ في مغادرة السرير ويكون هذا ضد اوامر الطبيب فهنا يجب ان تفرض الأم اوامرها على الطفل وتمارس سيطرتها عليه بالطريقة نفسها التي تتبعها معه عندما يكون سليماً في كامل صحته . لأن التمسك بالصبر هنا يكون بلا فائدة ، كما ان التحذيرات من احتمالات تدهور حالته الصحية تكون ايضاً بلا نتيجة عملية . ان التحذير يعطي الطفل الفرصة للاختيار بين تنفيذ اوامر الأم او تحمل النتائج السيئة للمرض . وهو موقف لا يستطيع الطفل فيه ان يتخيل نتائج المرض . لذلك فالأوامر الحاسمة هي الحل الوحيد. وفي هذا المجال ايضاً يجب على الأم ان تحدد لنفسها مقدار الوقت الذي يمكن ان تقضيه مع الطفل. صحيح ان اعمال أي ام كثيرة، ولكن الطفل ايضاً كالانسان الكبير يشعر بالوحدة ويعاني من الملل . بل ان الطفل لا يستطيع ان يبقى حبيس الفراش مدة طويلة بمفرده . وهو بطبيعة الحال يفرح تماماً عندما يجد امه بجانبه تساعده وتؤانسه . إنني لا زلت اذكر سروري البالغ عندما كانت امي تزورني في المستشفى وتقضي معي وقتاً كبيراً وتسقيني ببطء عصير البرتقال بعد ان اجريت لي احدى العمليات الجراحية . . رغم ان عمري كان عشرين عاماً . . فما بال الطفل الصغير ؟ انه بالتأكيد يفرح لوجود امه بجانبه وقتاً كبيراً . اما اذا تمادى الطفل في طلب المزيد من اهتمام الأم وكان ذلك فوق طاقة الأم فمن الصواب في مثل هذه الحالة ان تحدد الأم مواعيد ثابتة يمكنها ان تجلس فيها مع الطفل، ومواعيد اخرى تقوم فيها بأعمالها المختلفة . ان الجدول المحدد هو فكرة غاية في الصواب لأنها تمنح الطفل الاطمئنان . ولكن الأكثر اهمية من ذلك هو لهجة الأم وهي تتحدث للطفل عن تلك المواعيد .ان هذه اللهجة يجب ان تكون حاسمة غير مترددة . . وايضاً يجب ان تكون لهجتها حاسمة غير مترددة وهي ترد على الطفل عندما يناديها بنوع من « الدلع » في اثناء الوقت الذي تكون فيه مشغولة بعمل آخر في المنزل ما لم يكن النداء استغاثة مثلاً . اقول ذلك لأن

الأم احياناً تجد مشاعرها تتأرجح عندما يطلب الطفل منها شيئاً اثناء فترة المرض او اثناء فترة النقاهة . انها احياناً لا تريد الموافقة على طلب الطفل لأنه غير معقول او غير مناسب . . واحياناً اخرى ترغب في ان تنفذ له طلبه مهما كان . . لأنها تحت ضغط الاحساس بالذنب قد تفكر في الاستجابة لطلب الطفل . ويظهر ذلك في نبرات صوت الأم المترددة او الغاضبة وهي تقول « لا » . هذه النبرات يكتشف منها الطفل فوراً تردد الأم وعدم ثقتها في رفضها . . فيبدأ فوراً في تطويق هذا الرفض عن طريق التوسل والرجاء اكثر من مرة . . وقد يختلق اعراضاً مرضية جديدة . . ويبدأ في الحديث بلهجة كلها تحسر على حالته بل وقد يلجأ للدموع التي يمكن وصفها بأنها دموع الدهاء . ولهذا فعلى الأم ان تكون حاسمة تماماً بلهجة تلقائية ومرحة .

والآن ننتقل الى بعض الاقتراحات المفيدة التي ارسلتها الى احدى الأمهات وقد جربت هي بنفسها هذه الاقتراحات واكتشفت فائدتها . ان رسالة هذه الأم الذكية تقول :

ـ عندما تنفرج اسارير الأم وتعلو ملامحها اشراقة التفاؤل في اللحظة التي يعلن لها الطبيب ان شفاء الابن قد اصبح قريباً ، فإنها تواجه بعد ذلك مسألتين مزعجتين :

الأولى على لسان الطبيب وهو يقول « ان الشفاء قريب فعلاً بل قد يكون الطفل قد شفي تماماً ولكني اقترح بأن الطفل يجب ان يظل في السرير عدة ايام » .

هذه هي المسألة المزعجة الأولى .

والمسألة المزعجة الثانية هي على لسان الطفل . . وهو يقول « أظن انني انتهيت من المرض . وماذا سأفعل الان ؟ هل استطيع أن ألعب دون اوامر وتعليمات مشددة » ؟

ان كلمات الطفل تحتوي على الضجر الكامل من كل ظروف الحالة

المرضية . . بل ومن ذكريات المرض نفسه . . لقد اصابه الملل من تكرار الجلوس امام التليفزيون . لقد كره كل الوان التسلية المنزلية . لقد كره كراسة الرسم والتلوين التي تقدمها له الأم . اذن ما الحل ؟

الحل هو ان تبدأ الأم ايضاً في رحلة جديدة مع الطفل . انه يريد منها حكايات جديدة . وارق الحكايات المؤثرة في نفسية الطفل هو ما كان عن الأم نفسها عندما كانت طفلة . او ان تقرأ له قصة مسلية من المجلات الفكاهية .

ان الأم صاحبة الرسالة تقول ان لهذه القصص الفكاهية آثاراً كالمورفين تجعل الطفل يستسلم لنوم عميق . ولكن ماذا سنفعل عندما يستيقظ . . ويطلب الجديد او يعلن التمرد على البقاء في الفراش ؟ لا بد من حلول وافكار .

فما رأي الأم في هذه الأفكار التي اعرضها عليها في السطور القادمة .

لماذا لا تغير الأم ملاءة السرير كل يوم ؟ ان ذلك يجعل الطفل يشعر انه ينام على فراش نظيف .

ولماذا لا تقترح الأم على الطفل ان ينتقل الى أريكة مريحة بالمنزل بعد ان تحولها الى فراش ؟ .

ان تغيير مكان النوم يريح الطفل ويجعله ايضاً يغير المشاهد التي يراها وهذا يمنحه قدراً من الراحة ، بل وقد يجعل الألعاب القديمة التي اصابه الملل منها تبدو جديدة مرة اخرى .

اقترح على الأم ان تشتري جرساً صغيراً وتقدمه هدية للطفل ليستعمله عندما يرغب في مناداة الأم . ان ذلك يقلل من دافع الاغراء بأن يقفز كل ثانية من السرير ليبحث عن الأم . كما ان صوت الجرس في الغالب يكون اعلى من صوت المياه المنسابة من الصنبور (الحنفية) او اعلى من صوت الغسالة الكهربائية .

أقترح على الأم ان تقدم للطفل صندوقاً به بعض زينات عيد ميلاده . . ان هذا الصندوق عندما تقدمه الأم في أي وقت من أوقات العام للطفل له مفعول السحر بالنسبة لنفسيته . انه يجد لذة في اللعب بكل قطعة في هذا الصندوق .

ورأسه يدور بآلاف الأفكار الممتعة حول عيد ميلاده ويتذكر هذا الاحتفال الذي يحضره الأصدقاء وبعض الأقارب والهدايا التي تقدم فيه .

ان الأم صاحبة هذه الرسالة تعمل موسيقية تتنقل مع زوجها من مكان الى مكان . من بلد الى بلد آخر . وكانت تصحب معها صندوقاً صغيراً للعب تخفيه في مكان بعيد . . لأنه لو اصاب طفلها مرض ما اثناء الرحلة فهذا الصندوق كفيل بأن يحبب للطفل الجلوس في فراشه دون حراك . وكان صندوق السفر يحتوي على العاب اخرى . لقد لاحظت الأم ان اغلفة بعض المجلات الخاصة بالأطفال تحتوي على صور لحيوانات يحبها الطفل .كصورة الأسد والدب والفيل . وكان على الأم ان تأتي بورقة كربون لتنقل بعض هذه الصور على ورق « كرتون » من صناديق الأحذية او من أي ورقة قوية متوافرة بالمنزل او بالفندق الذي تنزل فيه . ثم تقص هذه الصور وتعطيها للطفل وتطلب منه ان يلونها بأقلام من الطباشير الملون . وكان هذا له فعل السحر على الطفل وعلى نفسيته . كما انها علمت طفلها كيف يصنع نجوماً ودوائر ومربعات بواسطة مقص صغير . ان ذلك يعطي الطفل القدرة على تخيل انه قادر على ان يصنع بنفسه شيئاً اثناء المرض . ثم هناك المجلات القديمة . ان هذه المجلات عندما نقدمها للطفل لا يجب ان نتوقع منه انه سيجلس هادئاً ليتفرج عليها ويستمتع بها انما يجب ان تقترح عليه ان يصنع منها شيئاً مسلياً . . ليصنع منها مثلاً بيتاً او فندقاً . او قارباً او مسدساً او يبني بها مستشفى وان يقص الطفل بهذا المقص الصغير الصور المناسبة لتصميم بيت او لتصميم فندق او لتصميم مستشفى . ان فكرة تصميم المستشفى تكون في أغلب الأحيان من اكثر الأفكار اثارة للطفل . انه يقص من هذه المجلات صور الممرضات والأطباء وعربات الاسعاف والأكواب ومختلف انواع حجرات النوم والزهور والساعات . . وتستطيع الأم ان تقترح عليه ان يلعب وهو راقد على السرير دور مدير المستشفى الذي يصدر اوامره للجميع . . هذا اذا كان الطفل المريض صبياً . . اما اذا كان الطفل المريض بنتاً . . فالفتاة يمكنها ان تلعب دور الطبيبة الكبيرة الخطيرة التي تصدر اوامرها فتطيعها الممرضات وتستطيع الأم ان تقترح على الطفل المريض ان يعلق هذه الصور في أي مكان من حجرته .

فهناك في كل منزل علبة للازرار القديمة. وهناك آلاف من الأفكار تعطيها هذه العلبة للطفل . بشرط ان تعرف الأم ان الطفل الصغير في السن قد يبتلع احد الأزرار ولهذا فهذه العلبة ليست مفيدة الا للطفل البالغ من العمر اربعة اعوام مثلاً لأنه يستطيع ان يعرف ان ابتلاع احد الأزرار مسألة ضارة به . ويمكن للأم ان تراقب الطفل وهو يلعب بهذه الأزرار وان تجعله يوزعها على اطباق البلاستيك او الملامين بالمعلقة كأنها حلوى يقدمها لضيوفه الوهميين . وفي امكان الطفل ايضاً ان يصنع من هذه الأزرار عقداً يرتديه او يهديه لأمه. وتستطيع الأم ان تقدم للطفل فتلة سميكة يصنع منها مع الأزرار حزاماً يزينه بهذه الأزرار . ويمكن للطفل ان يلعب بالازرار على انها قطع نقدية يشتري بها الأشياء التي يريدها من الدكان الوهمي الذي يفتحه هو ايضاً . وعندما تقدمين للطفل علبة من البلاستك او الألمنيوم ليضع فيها هذه الأزرار فإنها تعطيه ايضاً الاحساس بأنه امتلك آلة موسيقية جديدة .

وهناك عند كل ام عدد من الاقراط التي فقدت بعض أجزائها وعندما تمنحها للطفل فهو يستطيع ان يصنع منها اشياء كثيرة . يصنع تاجاً او لعبة او حتى يظل غارقاً في تأملها . ان طفل السيدة صاحبة الرسالة تحكي عنه قائلة انه قضى يوماً كاملاً يتأمل هذه القطع .

وهناك حافظة الصور القديمة. ان الطفل يجد متعة كبيرة في استرجاع ذكرياته او ذكريات الأسرة . وهو قد ينظر الى صورة امه عندما كانت صغيرة السن ، ويضحك على أزياء ايام زمان . ثم هناك ايضاً « بطاقات » المعايدة الملونة التي وصلت الى الأسرة . انها مليئة بالصور ويمكن ان تطلب من الطفل ان يضع قائمة بالأشخاص الذين يحبهم . وهناك ايضاً قص الورق العادي او ورق الجرائد بصورة هندسية ليصنع منه مفارش يلونها بألوانه .

ان ابن هذه السيدة الموسيقية توصل ايضاً الى اختراع لعبتين جديدتين لنفسه . لقد استخدم ورق الكرتون في بناء مسرح صغير وصنع ستارة لهذا المسرح ثم رتب بعض الصور داخل هذا المسرح الصغير بواسطة الصلصال وبعض المكعبات الخشبية واقترح تمثيلية كاملة وجعل من نفسه المتفرج الوحيد

الذي يشاهد هذه المسرحية الوهمية . واستخدم ايضاً بطاريته الصغيرة كأضواء كاشفة لهذا المسرح .

وبنى هذا الطفل ايضاً بمكعبات الخشب بيتاً له سقف . . ثم وضع على السقف صندوقاً رص فيه بعض الكراسي المصنوعة من الورق المقوى وجعله نادياً سياحياً من الدرجة الأولى .

وهناك فكرة اخرى اقترحتها هذه السيدة . ان أم الطفل المريض يمكنه ان يصنع لنفسه اسطولاً من السيارات بأنواعها المختلفة بأن يقص صور هذه السيارات ويلصقها على الورق المقوى ويضعها في « الكاراج » او يخرجها منه حسب مزاجه الخاص .

وعندما يحين موعد تناول الدواء يتمرد الطفل دائماً خصوصاً اذا كان على اعتاب الشفاء . . انه يمتلك الآن القدرة على الرفض والتهديد بأنه سيتقيأ الدواء بينما الطبيب يطالب الأم ان تجعل الطفل يبتلع الدواء بأي طريقة . ان ام ذلك الطفل اقترحت عليه ان يصنع لها قبعة كقبعات الممرضات من الورق المقوى ترتديها وهي تناوله الدواء وكان ذلك يجعل الطفل يتسلى بمنظر امه ويخفف من مرارة الدواء .

ثم هناك علب السجائر الفارغة . . انه يستطيع ان يصنع منها الافاً من الأشكال الهندسية بداية من صنع قطار الى صنع دُمىً صغيرة الى صنع طائرات ، الى صنع عربات تجرها الخيول .

وهناك حكاية مضحكة ترويها هذه السيدة في رسالتها . . لقد اطلق ابنها المريض على احدى الدمى الخشبية الصغيرة لقب « بوسي » . وكانت بوسي هذه على لسانه تقود الطائرات وتقفز من فوق ناطحات السحاب وتسوق السيارات بسرعة تفوق سرعة الصوت . وعندما سألته والدته عن رأي والدي « بوسي » في كل تلك المغامرات . . قال الابن « ان بوسي ليس لها والدان ولهذا فهي لا تنام في السرير ولا يكشف عليها الطبيب وتأكل ما يحلو لها من الطعام » . وكانت هذه الحكاية دليلاً على ان ابنها خلق بخياله دمية تستمتع بكل الحرية وكان

ينفس بها عن كبته والقيود المفروضة عليه .

وتنهي الأم رسالتها قائلة لكل امرأة كان طفلها مريضاً وانتقل من مرحلة المرض الى مرحلة النقاهة :

ـ ان كل هذه المقترحات هدفها طبعاً ان تريحي نفسك انت ايضاً من متاعب فترة النقاهة . ومن الخير ان تتذكري انك ذات حظ سعيد لأننا نعيش في عصر توافر المضادات الحيوية التي تساعد على الشفاء بسرعة . وهذا بطبيعة الحال افضل من ايام خلت عندما كانت الأم تجلس فقط بجانب سرير طفلها وتبكي . . ولا تجد العلاج الحاسم السريع لمرض الابن او تحمله في عربة تجرها الخيول الى المستشفى .

كانت هذه هي رسالة الأم وهي رسالة غاية في المتعة ومليئة بالخيال النشيط الخلاق . إنني انا طبيب الأطفال لم استطع ان احكي لطفلي حكاية مسلية عن ايام طفولتي . كما ان خيالي لا يمتد بي الى كل هذه الآفاق المتسعة . ان رأسي لا يحمل خيالاً مبدعاً مثل هذا وانا لم استطع ان انجح يوماً في رواية اي قصة عن ايام طفولتي ولا استطيع ان ارشد احداً إلا الى الألعاب التي كنت انا شخصياً العبها او اتمنى ان العبها . انني مثلاً اجد ان الأطفال مغرمون بالسيارات الصغيرة ويمكنهم ان يقضوا عشرات الساعات وهم يلعبون بها . وهناك الآن الكثير من الوان السيارات كلعب الأطفال . وهناك ايضاً القطارات الصغيرة التي تثير رغبة أي طفل . واذكر ان احد ابنائي اصيب بمرض . . وكان عليه ان يرقد شهراً كاملاً في السرير . . وكانت لعبته المفضلة هي ان تحضر له والدته اناء واسعاً ممتلئاً بالماء وتضعه على ارض الحجرة ويلقي في الإناء بالسفن الصغيرة المصنوعة من البلاستيك . وكانت تلك اللعبة تجعله سعيداً للغاية . وهذه الأيام مليئة بتشكيلات لا حصر لها من لعب الأطفال التي يسهل حلها وتركيبها مما يجعل الطفل يقضي وقتاً ممتعاً معها . هناك بعض انواع اللعب يمكن ان يصنع منها الطفل نماذج للطائرات والسفن والسيارات والقطارات والمشاهد الطبيعية وهي تناسب عمر السادسة . . ويصنعون له نماذج بسيطة . وهناك نماذج تحتاج الى صبر يمكن ان تشغل من وقت الصبي المراهق اسبوعاً على الأقل ليصنع آلة جر او

آلة رفع او سيارة نقل . اما بالنسبة للبنات فهناك ادوات الخياطة . ويمكن للبنت اثناء المرض ان تصنع لنفسها عقداً من الخرز او تنسج مفرشاً خلاباً . . او قطعة قماش سميك مصنوع من الكروشيه والتي تستعمل لحمل الأواني الساخنة من على النار . هناك آلاف من اللعب التي تساعد الطفل على قضاء وقت رائع . ان صناعة لعب الأطفال تقدمت بصورة ملحوظة بداية من المكعبات الخشبية التي يبني منها الطفل منازل حتى الأدوات التي يمكن ان يصنع منها اشياء مسلية . ولا بد لنا من ان نعرف ان الطفل دائماً يحب ان يحطم القواعد المرسومة لأي لعبة . ان الطفل قد يستخدم الدليل المطبوع الموجود مع أي لعبة لمدة يوم لكنه بعد ذلك يتمرد على الاسلوب التقليدي والمفروض لاستخدام لعبه . إنه يريد ان يحطم هذا الاسلوب وان يخترع لنفسه وسيلة جديدة لاستعمال هذه الألعاب .

أما الفتاة فينمو عندها باضطراد الرغبة في اللعب بالدمى والاهتمام بملابس هذه الدمى . لكن المشكلة الفعلية التي تواجهنا في الألعاب التي تحتاج الى فك وتركيب هي ان بعض هذه الألعاب قد يكون في مستوى اعلى من قدرات الطفل ولا يستطيع ان يرتفع الى مستواها ولا يستطيع ان يهبط بها الى مستواه . . ولهذا فهو يصاب بالملل بسرعة من هذه الألعاب مع احساس خفيف بالفشل . ولهذا فعلينا ان نضع نصب اعيننا هذه المسألة ونحن نختار لعبة للطفل .

كما اننا يجب ان نعرف ان الطفل يفضل ان يصنع بنفسه لعبته . لأن لذة الخلق عند الطفل لا تعادلها أي لذة اخرى . ولهذا فعندما تصنع الطفلة لدميتها سريراً من صندوق قديم وعندما تفرش هذا السرير بقطع من قصاصة الأقمشة . . فإنها تعيش سعادة لا حدود لها . والطفل عندما يلعب بقطع الخشب الصغيرة ويصنع منها بيتاً فإن ذلك يسعده ايضاً . ان مكعبات الخشب والبلاستيك التي تملأ الأسواق الآن لتنمي في الطفل رغبة البناء تجعل الطفل غاية في السعادة . لكن اذا اكتشف الطفل صعوبة في عملية بناء شيء جديد فإنه يعود الى العابه القديمة . وقد يدمرها ليصنع منها شيئاً جديداً . ان سقف السيارة يصلح لأن يكون صينية صغيرة يقدم عليها الحلوى للضيوف الوهميين . وهذا قد يسبب الضيق للآباء لأنهم دفعوا نقوداً في هذه الألعاب . لكن علينا ان نعرف ان

اللعب جاءت لتسعد الطفل بالطريقة التي يرغب بها الطفل وليس بطريقتنا نحن .

من الرائع ان نتذكر جميعاً ان فترة النقاهة الآن من عمر الطفل قد اصبحت قليلة جداً لأنه منذ ٢٥ عاماً ، كان على الطبيب والأهل معاً ان ينتظرا اكثر من اسبوعين او ثلاثة حتى يزول خطر الالتهاب الرئوي . وكانت الحمى القرمزية هي سجن اجباري للطفل يجعله يقضي في الفراش مدة لا تقل عن شهرين . وكانت الحمى الروماتزمية بمثابة سجن اطول مدة من القرمزية .

باختصـــــار :

كانت امراض الطفولة لا تعالج بالدواء فقط ، ولكن بالدواء والدعوات والتأرجح بين اليأس والألم . وكانت دائماً رحلة المرض في حياة الطفل ورحلة شفائه منه غاية في الازعاج بل انها كانت قطعة من الجحيم .

عندما يفحص الطبيب الطفل

ان عيون الأمهات والآباء تنظر الى الطبيب في لحظة الخطر بوصفه المنقذ ورسول العناية الالهية .

وعلى الطبيب نفسه ان يعرف ان كفاءته تعتمد في الأساس على وجوب معرفته بقدراته وعلى طلب المساعدة من زملائه عندما يكون ذلك ضرورياً

تنظر عيون لأب او لأم احياناً الى طريقة فحص الطبيب للابن بعدم الرضا . انه يفحص الطفل بسرعة . انها تشعر ان صف المنتظرين خارج غرفة الكشف يكون كالسوط الذي يلهب ظهر الطبيب . . فيحاول ان ينهي فحص كل طفل في اقل وقت ممكن والآباء والأمهات يريدون ان يعرفوا اجابة عن سؤال :

- ما هي أسس الفحص الطبي السليم للطفل ؟

ان الاجابة ليست سهلة . ان في امريكا مثلاً اكثر من مائتي الف طبيب . . وكل واحد منهم له اسلوبه الخاص ورأيه الذي يتفق او يختلف عن الآخرين . ومع ذلك فلنحاول العثور على أسس عامة نوضحها للآباء والأمهات .

ان الفحص الطبي هو وجه واحد من اوجه مسؤولية الطبيب امام الحالة المرضية التي يشرف عليها . هناك تاريخ المرض الذي تحكيه الأم او الأب للطبيب . وهناك التحاليل العملية التي قد تكون مطلوبة ،والحقيقة في رأيي ان زيارة الطفل للطبيب مرة كل شهر او ثلاثة شهور للفحص الدوري مسألة هامة . خصوصاً منذ ميلاد الطفل لأن هذه الزيارة تتيح للطبيب الذي تثق به الأسرة فرصة متابعة حالة الطفل الصحية من البداية . اننا لا يجب ان ننتظر الى ان يدق المرض باب حياة الطفل ولكن علينا ان نأخذ حذرنا من البداية . وهذا يجعل

الطبيب اكثر ألفة مع الطفل الذي يشرف على علاجه اذا اصابه مكروه . وهنا ايضاً يستطيع الأهل ان يعرضوا على الطبيب مخاوفهم للمرض الذي اصاب الطفل . . او ان يصف الطفل بنفسه للطبيب اعراض المرض . ويلاحظ الطبيب ايضاً قدرة جسد الطفل على اداء وظائفه المختلفة . . وهذا يوضح للطبيب الحالة المرضية بوضوح . ان تاريخ المرض في رأيي اكثر اهمية من الكشف الطبي نفسه ، لأنه يعين للطبيب نقطة البداية التي يمكن ان يبدأ منها الفحص . وعندما يبدأ طبيب الأطفال في الكشف على طفل مريض فإن سمعه وعقله يتجهان الى المخاوف التي جعلت الأهل يصحبون الطفل الى العيادة . . ويبدأ بعد ذلك في السؤال عن نوع الغذاء وكيف يتقبله الطفل ، ويزن الطفل بأقل قدر من الملابس ويقيس طوله . ويفحص حركة مفاصله في الذراعين والساقين ويفحص الأذن والحلق ويسأل عن مدى حيوية الطفل اليومية في مجالات اللعب وعلاقاته بالآخرين . . ثم يتجه الحديث بعد ذلك الى الهضم ونظام التبول والتبرز وهل هناك تغير ملحوظ في ذلك ام لا . ثم النوم ومدته وهل يستيقظ وينهض من نومه نشيطاً ام خاملاً . وبعد ذلك هل يتقلب مزاجه من الرضا الى البكاء وكيفية حدوث هذا التقلب . وبعد ذلك يبدأ بفحص الجهاز التنفسي وحالة القلب والجلد . ثم مدى فاعلية الطفل وسط اخوته . وهكذا نجد ان الفحص الجسدي للطفل لا يعطي سوى عدد قليل من المعلومات بالقياس الى كمية المعلومات الأخرى التي تعتمد على ملاحظة الطبيب للطفل منذ ولادته اثناء الكشف الدوري عليه وعن ملاحظات الأسرة .

وعندما يكون الطفل في عامه الثاني او الثالث فالطبيب يسأل اثناء الكشف الدوري على هذا الطفل عن نظام التغذية والنوم ومدى اختلاطه بآخرين يحتمل ان يكونوا مصابين بالعدوى . ويسأل الطبيب ايضاً عن مدى انسجام الطفل مع والديه واخوته واصدقائه ومدرسته بل مع نفسه .. وهكذا نرى ان الفحص الطبي

نفسه لا يساعد الطبيب الا في موضوعين هما نمو الطفل . . ومدى سرعة تأثره بالعدوى من أي انسان آخر . وعندما نناقش بدقة مسألة النمو . . ومسألة العدوى فإن تاريخ الطفل نفسه لا تقل اهميته عن اهمية الفحص . . لأن تاريخ الطفل يساعد الطبيب على معرفة أسس الداء عند اخضاعه للفحص الطبي . ان الطفل النحيف او الطفل الممتلىء لا يمكن ان يكشف عليه الطبيب مرة واحدة ودون حديث مع الأم او الأب ليكتشف على الفور اسرار المرض ووسيلة العلاج . إن مظاهر المرض لا تعطي إلا قدراً ضئيلاً من المعلومات عندما يحاول الطبيب الكشف الطبي على الطفل لكن تاريخ الطفل يوضح وزنه مثلاً في مراحل النمو المختلفة ومدى تكيفه مع البيئة خلال الفترة السابقة . وهناك مثالان على ذلك . المثال الأول هو طفل نحيل غاية في الحساسية منذ بداية طفولته . لقد اتضح في الرسم البياني الذي يقوم بعمله الطبيب لوزنه خلال مراحل نموه انه يقل دائماً في الوزن عن الأطفال الذين في مثل عمره ، ثم فجأة واثناء فحص الطبيب الدوري له اكتشف الطبيب ان هناك زيادة لا بأس بها في وزنه . وتقول الأم للطبيب انها غاية في السعادة لأن طفلها يأكل بانتظام وصحته جيدة في هذه الأيام . هنا يمكن للأم وللطبيب ان يشعرابالسعادة رغم ان الطفل ما زال نحيفاً مقارنة بالأطفال الذين في مثل عمره . المثال الثاني وهو عكس المثال الأول . طفل مظهره الجسماني قوي ويؤكد سجل الملاحظات الطبية الموجودة عند الطبيب انه يميل الى السمنة . لكن امه تعلن بقلق شديد انها خائفة من ان يكون ابنها مصاباً بمرض السكري الذي يصيب الأطفال لأن طفلها يشرب الماء بكثرة . . ولا يمكن ان تقتنع الأم بأن ابنها سليم إلا بعد ان تجري التحاليل الطبية للدم والبول للتأكد من خلو طفلها من مرض السكري .

نريد الآن ان نناقش الوسائل الأساسية في فحص الطبيب للطفل ولنعرف حدود اهميتها اثناء الكشف الدوري الذي تجريه الأسرة لطفلها المولود حديثاً او لطفلها الذي كبر وترعرع . ولتكن البداية هي مسألة الوزن . نحن نعرف ان الطفولة معناها وجود كائن انساني ينمو . ولهذا فوزن الطفل هو اول الوسائل التي

تعطينا حقيقة ثابتة . . يتابعها الطبيب . . ويتابع من خلالها نمو الطفل . وهو يفسر الزيادة او النقصان بطريقة سليمة في اغلب الأحوال . والطبيب ايضا يهتم بقياس طول الطفل . لأن هذا يؤكد احدى علامات نمو الجسد . . رغم ان طول الطفل لا يقل عن المعتاد ولا يزيد عن الطبيعي إلا في حالات المرض المزمن الحاد او في حالة وجود مشاكل اسرية ضخمة . وهناك عدد كبير من الأطباء يقيسون حرارة الطفل وانا لا افعل ذلك ايضاً مع الأطفال الصغار او الكبار عندما يحضرون للكشف الدوري اللهم إلا اذا ظهرت اعراض احد الأمراض . لأن الحرارة لا ترتفع في الظروف العادية واذا كانت مرتفعة فغالباً ما تدل على انها مجرد بداية اصابة بالعدوى في الجهاز التنفسي . وهناك حقيقة اخرى هامة هي ان الطفل يعتبر قياس الحرارة بمثابة عملية اهانة للكرامة . . لأنها تتم عن طريق فتحة الشرج . ولكن هناك عدد كبير من الأطباء يقيسون حرارة الطفل بصفة منتظمة خوفاً من بعض الأمراض النادرة التي يكون فيها ارتفاع الحرارة الخفيف هو بداية لمرض خطير . وعلى هذا نرى ان الوجه الأساسي الأول في كشف الطبيب على الطفل هو ما يمكن ان نسميه ملاحظة نمو جسد الطفل وتغذيته ومظهره العام . . وهل تظهر عليه علامات الصحة او المرض . والطبيب هنا لا يستخدم أي اداة من ادوات الكشف او حتى يديه . انه فقط يكون انطباعاً عاماً عن المظاهر الأساسية التي يستمر خلالها في علاج الطفل ويقوم عقل الطبيب في العادة بالمقارنة الفورية بين هذا الطفل وبقية الأطفال الذين في مثل عمره كما انه يكشف على جلد الطفل بنظرة سريعة . وفي حالة الطفل المولود حديثاً الذي ما زال في مرحلة الرضاعة فإن الطبيب يتحسس المنطقة الرخوة من الرأس . . ويفحص بيديه ' اس لكي يتأكد من عدم اصابة الطفل بأي مرض من الأمراض النادرة التي تجعل رأس الطفل ينمو بسرعة او ببطء اكثر من اللازم . ثم يقلب الطبيب بعد ذلك جفن العين الأسفل ليراه ، لأن اي شحوب في الأوعية الدموية هنا يدل على احتمال الاصابة بفقر الدم وهو مرض منتشر خلال الستة اشهر الأخيرة من عام الطفل الأول وخلال العام الثاني كله من عمر الأطفال . واذا وجد الطبيب ان الجفن شاحب فإنه يطلب عد الكرويات الدموية للطفل حتى

يقوم بعلاج فقر الدم ان وجد . ويحاول الطبيب ايضاً ان يلاحظ حدقتي العينين وهل ينظران الى اي شيء بشكل طبيعي ام ان هناك اختلالاً في التوازن في المسافة بين الحدقتين . وعندما يصل الطفل الى سن الالتحاق بالمدرسة . . علينا ان نجري له كشفاً على مدى قوة النظر مرة كل عام على الأقل . . اما عن طريق المدرسة او الطبيب المعالج له او احد اطباء العيون لأن ذلك يدلنا بسرعة على حالات قصر النظر التي يمكن ان تتطور بسرعة في هذا العمر . . او احتمال وجود ما يسميه الأطباء « بالاستجماتزم »(*) وعندما تكون هذه الأعراض موجودة فإن المدرس او الأم يمكن ان يلاحظاها لأن الطفل لا يمسك بالكتاب او المجلة بطريقة طبيعية . كما ان هذا الكشف على العيون ضروري لأنه قد يكشف مدى حالات ضعف النظر البسيطة التي قد لايلحظهاالآخرون ولا يشكو منها الطفل . واثناء فحص العيون فإن الطبيب يتأكد من ان حجم واستدارة حدقتي العين طبيعي ، وفيما اذا كان للضوء تأثير فيهما ام لا؟ كما تتضح صورة الشبكية خلال الفحص بجهاز الكشف على قاع العين . وقد يهمل احد الأطباء أي فحص من هذه الفحوص الكثيرة ما دام مظهر الطفل العام غاية في الصحة ، لكنه يبدأ في اجراء هذه الفحوص بدقة متناهية اذا كانت هناك اعراض لأمراض عصبية او متاعب في العيون . ونحن نعرف ان فحص شبكية العين امر يتطلب التعاون الكامل بين المريض والطبيب اللهم إلا اذا اضطر الطبيب لاستخدام القطرة التي توسع حدقة العين . بعد ذلك هناك فحص سريع للأنف بواسطة البطارية المضيئة . . وهذا الضوء الصادر من البطارية لا يكشف إلا حالات الحساسية او الرشح او التهاب الجيوب الأنفية او يكشف عن وجود أي جسم غريب يكون الطفل قد ادخله في انفه ثم فحص الأذنين بعد ذلك . . خصوصاً طبلة الأذن . وهذا هام للغاية في حالات الأطفال الصغار اثناءالاصابةبالرشح اواحتقان الحلق مع ارتفاع درجة الحرارة ، لأن الأطفال عموماً اكثر عرضة للاصابة بالتهابات في الأذن . لكن انا شخصياً ومعي عدد كبير من الأطباء لا نفضل ان نثير غضب

(*) astigmatism : اللانقطية او اللابؤرية . علة في العين تحول دون تجمع الأشعة في نقطة بؤرية واحدة .

الطفل لو مخاوفه عندما نفحص اذنيه . . ما لم تكن هناك اعراض واضحة للمرض وما دامت صحة الطفل جيدة . اما عن اختبارات قوة السمع فنحن لا ننصح بالقيام بها في سنوات الطفل الأولى لأن نتائج هذه الاختبارات غير مؤكدة ما دام الذي يقوم بها طبيب غير متخصص في الأذن . واذا كان هناك اشتباه في قوة السمع او اذا كان الطفل قد اصيب بالتهاب حاد في اذنيه او اذا كان بطيء النطق ، وكلماته غير واضحة . . هنا يجب ان نحول الطفل الى احد اطباء الاختصاص في الأذن ليضع تقريراً واضحاً عن حالة الطفل السمعية . لكن عندما يبلغ الطفل عامه الرابع او الخامس ويحضر الى عيادة الطبيب في كشف دوري كل ستة اشهر ، فمن الممكن ان نختبر قوة السمع بواسطة دقات الساعة او الصوت الهامس . بعد ذلك هناك فحص لسقف الحلق او الحنجرة او البلعوم ، وهذا يحدث دائماً في كل فحص طبي لنرى حالة الاسنان واللوزتين ولنكتشف هل هناك التهاب في جدار الفم او اللسان . . وهذا مرض منتشر في مرحلة الرضاعة ويسبب للطفل المصاب صعوبة في تناول طعامه . والطفل عندما يصاب بارتفاع حاد في درجة الحرارة ففي الغالب يكون الحلق او البلعوم هو المكان الذي نكتشف فيه سبب المرض .

ويكشف الطبيب ايضاً على سقف الحلق بعد ولادة الطفل حتى يعرف هل هناك انشقاق فيه ام لا ؟

واثناء الشهور الأولى من ميلاد الطفل يجب ان نلاحظ حالة الرأس . . هل هو مستقيم فوق الرقبة ؟ هل يحركه الطفل بسهولة الى اليمين واليسار . وقد يثني الطبيب رقبة الطفل قليلاً ليتأكد من عدم وجود اصابة في الغشاء السحائي . والطبيب يفحص عن طريق اللمس حالة الغدد الليمفاوية بجانبي العنق ، وتحت الأبطين واعلى الساقين . . حيث ان تضخم هذه الغدد يكون في بعض الأحيان مصاحباً لإلتهابات اللوزتين او الجلد . لكن تضخم هذه الغدد ايضاً قد يكون دليل مرض خطير يستدعي العلاج الفوري . وعادة ما يكشف الطبيب بالسماعة على الرئتين ليراقب التنفس . هل هو طبيعي ام لا فإن انتبه الطبيب الى شيء غير عادي في الرئتين ، فإنه يحاول ان يعيد الفحص . . وان يطلب المزيد من

المعلومات . وتختلف المسألة عندما يكون الطفل مصاباً بأي نوع من انواع الشهقة او السعال او غيرها لأنه قد يظهر على ملامح الطفل،بعض الشحوب الذي يثير مخاوف الطبيب ، او ان يفحص الطبيب الرئتين فحصاً دقيقاً . وينصت الطبيب الى دقات القلب بالسماعة ويعرف هل الدقات سليمة متتابعة وذلك حتى يطمئن الى ان القلب ما زال طبيعياً، لأنه قد يظهر على ملامح الطفل ما يثير شكوك الطبيب او حتى مخاوفه، او ان يعلن الأهل ان الطفل اصبح سريع التعب من اقل مجهود. وبعض الأطفال يصابون مؤقتاً بخرير في القلب في سنوات العمر الأولى . وليس هذا امراً خطيراً لأنه يزول عندما ينضج هذا الطفل . . إلا ان الطبيب يحاول دائماً ان يتأكد من سلامة القلب في حالات الخرخرة. ولا يقيس الطبيب عادة ضغط الدم بالنسبة للطفل إلا في حالات نادرة ، لأن الطفل لا يصبر على ذلك ، ولا يقدم المعاونة للطبيب حتى يتمكن من قياس الضغط . ثم بعد ذلك هناك الكشف على الأمعاء الغليظة التي تمتلىء في بعض الأحيان بكمية من الغازات كبيرة في اثناء فترة الرضاعة وحتى يراقب الطفل حالة « سُرَّة » الطفل وهي مسألة تهتم بها الأمهات كثيراً . ثم يقيس الطبيب بأصابعه حجم الكبد والطحال . . وهل يوجد أي تضخم غير طبيعي في أي مكان من البطن . يحدث ذلك في الأيام الأولى لميلاد الطفل اما بعد ذلك فإن الطبيب يلمس البطن بأصابعه سريعاً . . ونادراً ما يجد اثناء الفحص ما يثير الانتباه الى مرض ما . إلا ان بعض حالات المغص الشديد قد تنبىء ـ بعد الفحص باليد ـ بالتهاب الزائدة الدودية مثلاً .

وفي الشهور الأولى لحياة الطفل فإن الطبيب يكشف على الأعضاء التناسلية حتى يطمئن الى انها سليمة التكوين وان مكان الخصيتين طبيعي وان فتحة البول في وضعها السليم . والطبيب قد يكشف على الجهاز التناسلي اكثر من مرة ويطلب اكثر من تحليل اذا كانت هناك شكوى من حرقة بالبول او صعوبة فيه او نزول افرازات لا تعرف لها الأم سبباً . والجهاز العظمي للطفل يحتل مكانة هامة من الفحص الطبي . ان الطبيب يحاول ان يستكشف كيف يستعمل الطفل يديه وقدميه وهل هناك صعوبات في ذلك ام لا . وهل العضلات متماسكة وقادرة على

القيام بوظيفتها ام لا . ان فحص الجهاز العظمي يجب ان يكون دقيقاً لأن عظمة المفصل الذي يصل بين الفخذ والساق قد تكون في غير مكانها او ان تكون احدى عظام الساقين او الذراعين غير طبيعية . اقول ان فحص الجهاز العظمي يجب ان يكون دقيقاً لأن العيوب التي قد تكون موجودة يمكن علاجها بسهولة . . بداية من تقوس الساقين الى عظمة الركبة . اكرر ان العلاج ممكن خصوصاً في هذا العمر المبكر . . الى عدم انضباط اصابع القدمين الى آخر الأعراض غير الطبيعية والتي يمكن ان يكتشفها الطبيب بسهولة . وطبعاً ان لم يستطع الطبيب اكتشاف هذه المشاكل من البداية فإن الطفل عندما يبدأ في المشي ستظهر عليه الأعراض التي تطلب العلاج . واريد ان اطمئن الأمهات مرة ثالثة الى آن ذلك ممكن وسهل ويسير .

وهناك فحص آخر الغرض منه التأكد من عدم وجود أي خلل في الجهاز العصبي وهذا الفحص يأخذ من الطبيب اكثر من ثلاثين دقيقة تقريباً . . لو كان هناك شك في وجود أي خلل في الجهاز العصبي ، وهذا الفحص يمكن ان يقوم به الطبيب في الشهور الأولى من ميلاد الطفل . ان الطبيب يستعمل مطرقة المطاط ينقرها قليلاً بدقات خفيفة على الركبتين ليرى الانتفاضات العصبية للقدمين واليدين . وطبعاً هناك اختلاف واضح بين الطفل السليم عصبياً ، والطفل غير السليم عصبياً والطبيب يقوم باجراء هذا الفحص العصبي بطريقة سريعة في حالة الطفل السليم لكن ما ان يشك حتى يبدأ في اعادة الفحص بدقة .

وهكذا تكون قد اتضحت امام القارىء الفكرة الشاملة عن فحص الطبيب للطفل . وهكذا يتضح انه لا توجد خطوات محددة يمكن ان يقوم بها الطبيب لأن النقطة التي تتطلب التركيز في كل فحص تختلف عن الأخرى بحسب شكوى الطفل او شكوك الأم . وتختلف ايضاً من مرحلة الرضاعة الى بقية مراحل العمر التالية . كما ان الطفل الذي يذهب الى طبيب معين لأول مرة يختلف طبعاً عن الطفل الذي يذهب الى طبيب يعرف حالته جيداً . لكن شكوك الأمهات وازدحام بعض العيادات وارهاق بعض الأطباء كل ذلك قد يدفع الأمهات والآباء للتنقل بأبنائهم من طبيب الى آخر . ويختلف الكشف العام على صحة الطفل

عن الكشف الدقيق على بعض اعضاء الطفل اذا كانت مصابة بمرض ما .

وعلى كل حال فعلينا ان نعرف ان الطبيب يجب ان يقوم في كل مرة بكشف عام على كل الطفل ثم يبدأ بعد ذلك في اعادة الكشف على العضو الذي يشكو منه الطفل ليصل الى التشخيص . ان الهدف من الفحص الطبي هو ان يقتنع الطبيب واهل الطفل من ان جسد الطفل يؤدي وظائفه كاملة وانه لا توجد اية علامات لأمراض خفية ولكن علينا ان نعرف ايضاً ان الفحص العام للجسم هو ايضاً ذو امكانيات محدودة لأن الطبيب ليس « قارىء غيب » وليس هناك من يستطيع ان يتنبأ بآثار مرض قادم ما لم تكن بوادر هذا المرض قد ظهرت فعلاً . وان الطبيب لو اراد ان يفعل ذلك فمعنى هذا ان كل طفل سيحتاج الى كشف مدته لا تقل عن مائة وعشرون دقيقة ثم يطلب بعد ذلك من الأهل ان يذهبوا بالطفل الى مختبر للتحاليل لاجراء عدد من التحاليل الطبية غاية في التعقيد وفي التكلفة كذلك . ثم بعد ذلك يجب ان يعود الأهل مع الطفل الى الطبيب ليحلل نتائج هذه التحاليل وليعرف الاحتمالات المختلفة التي تظن الأم ان ابنها يعاني منها وهل هو مريض بالفعل ام لا ؟

وعلينا ان نعرف ان الطبيب ذا الخبرة يختلف بطبيعة الحال عن الطبيب الناشىء . ان الطبيب الناشىء قد يأخذ اكثر من ستين دقيقة ليقوم بفحص دوري على طفل صحيح الجسم ويبدأ بعد ذلك بتسجيل نتائج الفحص ويتردد ليفكر في كل اجراء قام به ويحاول ان يتذكر ما هو الاجراء التالي .

مثال على ذلك : لنتخيل ان الطبيب الناشىء يفحص الجهاز التنفسي ، انه يحاول ان يستعيد في ذاكرته الخطوات التي يجب ان يتبعها بداية من عدد ضلوع القفص الصدري وهل هو مناسب لرئتي الطفل ام لا . ثم هل حالة التنفس منتظمة ام لا ؟ ثم يضع يده على الصدر يلتمس اية « خرخرة » في صدر الطفل . ثم يسمع صوت التنفس بالسماعة . ثم يحاول ان يفرق بين صوت الخرخرة وهل هي التهاب رئوي ام نزلة صدرية . ثم يعيد الفحص على كل جزء من الرئتين . يحاول ان يفعل كل ذلك بهدوء وبكل تركيز، والطفل طبعاً يتحرك ولا يمنح

الفرصة كاملة للتركيز . كما ان أي صوت صغير يصدر نتيجة حركة الطفل الذاتية العنيفة قد يظهر في السماعة كأنه شيء مخيف ويثير الشكوك الكثيرة في خيال الطبيب الناشيء ، ولو صرخ الطفل فإن صرخاته لا تمنح الطبيب الناشيء أية فرصة ليسمع جيداً ما يريد ان يسمعه بالسماعة . وقد يتوقف الطبيب الناشيء اكثر من مرة ليسجل ملاحظاته قبل ان ينساها .

لكن الوضع يختلف مع الطبيب الخبير المجرب . ان طرقات اصابع الطبيب المجرب على صدر الطفل تكشف له عن حالة الرئة وسلامتها . . وهل القلب سليم او متضخم . وحتى عندما يصرخ الطفل فإن صراخه لا يؤثر على قدرة الطبيب على سماع ما يريد سماعه من رئتي الطفل . وهو لا يغرق في التردد عندما يبكي الطفل ولا يختلط عليه الأمر . ان كل ذلك يستغرق من الطبيب المجرب ذي الخبرة خمس دقائق مثلاً .

انني انصح جميع الأمهات والآباء . . انه من الضروري اجراء فحص طبي شهري بالنسبة للطفل الوليد حتى عندما يكون معافى . ان ذلك ضروري حتى يمكن اكتشاف أي اختلال طاريء في صحة الطفل . ويجب ان يكون هناك سجل صحي لكل طفل عند الطبيب الذي تثق به الأسرة وعلى هذا الطبيب ايضاً ألا يخجل من طلب المساعدة والمشورة من زملائه الأطباء عندما يستدعي الأمر ذلك .

انني انصح الآباء والأمهات بضرورة الفحص الطبي الشامل والدقيق للطفل قبل ان يلتحق بالمدرسة بداية من ضغط الدم الى مدى قوة النظر وسلامة السمع . وهذا طبعاً يستغرق وقتاً اطول من الطبيب .

اما اذا كان الطفل يعاني أعراضاً لا تكشف تماماً عن نوع مرضه فإن ذلك يحتم على الطبيب ان يطلب معاونة زملائه في مناقشة هذا الأمر وليس هذا تقليلاً من شأن الطبيب ، ولكن على الطبيب ان يعرف ان كفاءته مقرونة بمدى احترامه لقدراته وضرورة الاستفادة من قدرات الآخرين . ان ثقة الأب والأم في الطبيب تنمو من خلال معرفته بتفاصيل المرض وخصوصاً حياة والدي الطفل . . والوقت

الذي يصرفه ليفهم مشاكلها بخصوص مرض الطفل وقدرته على ان يكون صورة شاملة ودقيقة التفاصيل عن الطفل واسرته وكيف يصف العلاج الحاسم لمرض الطفل وكيف يمكن ان يجري الفحص بدقة وهدوء .

اني اعتقد ان طبيب الأطفال لا يعالج الطفل وحده . . ولكن يعالج ثلاثة افراد في وقت واحد ، هم : الأب والأم والطفل . للكشف على الطفل يجب ان يدرس الطبيب خلال زيارته كيف يمكن ان يرسم الطريق السليم وبأسلوب مريح للعلاج . . لأن القلق النفسي للأسرة على طفلها اثناء نموه يكون مبالغاً فيه في بعض الأحيان . . ولهذا فعلى الطبيب القدير ألا يسرع في الكشف على الطفل او يبطىء ولكن يضع ضميره العلمي والانساني فوق كل اعتبار . . حتى يمكن ان ينقي جو الأسرة من المتاعب التي تتعلق بصحة الطفل ونموه .

الجسد القوي امل كل اسرة لطفلها

عندما ننظر الى طفلنا فنحن نـراه اجمل الأطفـال . .
لكن عندما ندقق النظر مرة اخرى ، وبواقعية ، فنحن نحلم ان يكون قوي الجسـد ممشوق القوام يثير اعجاب الآخرين . ينطبق هذا على الذكر والأنثى سواء بسـواء . .

فكيف يمكن الوصول الى ذلك ؟ . .

تبحث عيون الام او عيون الأب دائماً عن الطريق الى الكمال ليسير فيه الابن. واكثر الأمور جدية في بحث الآباء والأمهات عن الكمال لأبنائهم وبناتهم هو اكتمال الجسد وقوته . . يريد معظم الآباء ان يعرفوا الطريق الذي يمكن بها ان يجعلوا جسد ابنهم ينمو نمواً سليماً . وقد بدأت في الفترة الأخيرة نغمة تنتشر بين الآباء والأمهات بأن الابن يجب ان يكون رياضياً . ومنذ ثلاثين عاماً كان الطفل الامريكي بالنسبة لبقية اطفال العالم هو اقوى الأطفال واكثرهم صحة ولكن الموقف الآن اصبح مختلفاً . . يقول العلم ان ذلك غير صحيح فهناك بعض الدول خصوصاً الدول ذات النظام الاشتراكي يتمتع الأطفال فيها بمستوى من الصحة لا مثيل له في بقية بلدان العالم . والتغيير الواضح لهذه المسألة هو ان الطفل في البلاد الاشتراكية المتقدمة يمارس الألعاب الرياضية بشكل منتظم . . بجانب ان المجتمع كله يخدم الطفولة . . بينما في امريكا نجد الموقف غريباً بعض الشيء . نحن نجد ان الطفل منذ اربعين عاماً كان يمارس الرياضة البدنية في المدارس وفي حياته الخاصة . . ويبحث عن التفوق في الألعاب المختلفة . كان الطفل يذهب الى المدرسة مشياً . وكان يستغل فناء المدرسة كملعب . . اما الآن فهناك عربة الأسرة أو عربة المدرسة وفي المنزل هناك التليفزيون الذي « يصطاد » عقول الأطفال ويحبس أجسادهم بعيداً عن أي حركة او نشاط . وكادت تختفي مجموعات الأطفال التي تلعب في الحدائق العامة . يكفي ان نعرف متوسط الساعات التي يجلسها الطفل أمام التليفزيون في أمريكا خلال الاسبوع الواحد لنعرف لماذا لم يعد يهتم بالرياضة. انه يجلس حوالى الثلاثين ساعة في الاسبوع .

وفي أثناء وقت الفراغ يفضل الطفل الذهاب الى السينما . وأصبح الكرسي او الجلوس هو السجن الاختياري الذي يقضي فيه الشاب وقت متعته .

ولننظر الآن الى طبيعة الهيكل العظمي ، إنه يختلف من انسان لآخر ، هناك انسان هيكله العظمي ضخم ، هناك انسان آخر هيكله العظمي نحيل . بعضنا جميل القامة طويلها ، بعضنا قصير القامة غير جميل . ونحن لا نتحكم فيما نملك من صفات جسدية لأنها تتحدد في اللحظة التي يمارس فيها الأب الحب مع الأم ويحدث الحمل . . ونحمل نحن منذ تلك اللحظة الصفات الوراثية . وهناك احتمال لأن يتدخل أحد الأمراض الخطيرة المزمنة . . او احد الأحزان العنيفة التي تمر بالأسرة أو بأن تمر بظروف تغذية قاسية . . تكون كل تلك الأسباب وراء عدم نمو طول الانسان في مرحلة الطفولة . ونحن نعرف أن حجم وشكل العضلات الملتصقة بعظام الانسان يخضعان لظروف تكوين الخلايا التي يبنيها الجسم أثناء النمو . وطبعاً المرونة التي تتمتع بها عضلات الجسم تؤثر في حجمها والدليل على ذلك ان عضلات الساق والفخذين في راقصة البالية تكون قوية وضخمة لأنها تمضي الساعات الطوال كل يوم في التدريب . والشاب الذي يمارس رياضة حمل الأثقال نجده يتمتع بعضلات أكتاف واضحة وقوية . ورغم هذين المثالين فنحن نجد ان بعض راقصات البالية لهن سيقان رفيعة . وهناك شاب آخر مهما حاول ان يبني لنفسه عضلات قوية فإنه لا يستطيع ان يحقق هذا الهدف ، بينما نرى شاباً مراهقاً آخر لا يحاول أن يمارس أية هواية رياضية قد يكون ممشوق القوام قوي العضلات . .

وعندما يتقدم العمر ويتزوج الرجل وتلد المرأة نجد ان « الدهون » تتسلل الى الأماكن المختلفة في جسم الاثنين وتصبح العضلات طرية ، ويفقد الجسد جماله الذي زودته به الطبيعة ليجذب الجنس الآخر . تأكل الدهون هذا الجمال وتفسده . وعلى هذا نصل الى نتيجة واضحة . . هي ان اجسادنا يتحدد شكلها بالصفات الوراثية ، فمن كان قد ورث جسداً قابلاً للسمنة فسيصبح جهاز الغدد فيه نشيطاً أو خاملاً بالدرجة التي تتيحها السمنة . ومن كان غير قابل لها فستصبح

غدده نشيطة أو كسل بالدرجة التي تكفل له عدم السمنة . وطبعاً تتدخل نسبة الطعام التي يأكلها الانسان مع نشاط الغدد والقابلية للسمنة . والرجال بطبيعتهم لا يميلون اليها والنساء بطبيعتهن يملن الى السمنة .

وحتى لا يظن احد ان كل انسان محكوم عليه بالسمنة الى الأبد او النحافة الى الأبد . . علينا ان نعرف ان الانسان منا يستطيع ان يحتفظ بقوام معقول اذا مارسنا قدراً من الرياضة . وعلينا ان نتذكر . . . انه في استطاعتنا ان نكتسب صفة الرشاقة التي نتمتع بها اثناء وصولنا الى نهاية المراهقة اذا كان الواحد منا رياضياً بشكل منتظم . ان مرحلة العمر بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين تكون هي بداية تخلّي كل منا عن العناية بجسده رياضياً . . ويكون ذلك هو اساس السمنة التي قد نشكو منها فيما بعد . لكن لماذا امتد بنا الحديث عن أنفسنا والحديث هنا عن الأطفال ؟ . .

آه . . نحن نريد ان نقول ان عوامل البيئة وامكانيات التغذية والحالة النفسية تؤثر على نمو الطفل . وهناك صورة يومية لهياكل عظمية تشكو من الجوع في آسيا وافريقيا لأنه لا يوجد غذاء للأطفال . وفي بعض الأماكن التي يمكن ان يتوافر فيها الغذاء للاطفال لا تكون لدى الآباء معرفة كاملة بالعناصر اللازمة التي يجب ان تتوافر في غذاء الأطفال . وطبعاً لا تنتشر عوامل سوء التغذية في امريكا إلا داخل احياء امعينة . . وتنتشر بطبيعة الحال في بلدان كثيرة اخرى من العالم . لكن اكثر انواع الهزال انتشاراً في امريكا قد يكون سببه ضعف شهية الطفل في مرحلة من مراحل عمره . . او نتيجة مرض شديد اصابه .

وعادة ما تشعر الأم والأب بالقلق والخوف اذا كان الطفل ضعيفاً . لكن على الأم او الأب ان يلاحظا جيداً ان التضايق من الطفل او اعلان الحرب عليه حتى يأكل او الاستسلام له حتى يأكل ، كل ذلك يضاعف من قدرة الطفل على العناد وعلى رفض الطعام وتصبح المسألة هي الدوران في دائرة تجري فيها الأم بالطعام وراء الطفل . . ويهرب فيها الطفل بالعناد من الأم . . وهذا حال معظم

الأمهات القلقات . . وطبعاً نتيجة لذلك نجد الآلاف من الأطفال يميلون الى النحافة رغم ان ظروف اسرهم تتيح لهم تناول اجود الوان الطعام . وتنتشر هذه المشكلة بصورة اكثر داخل الأسرة التي تكون فيها الأم ضعيفة الشهية منذ الطفولة . . والقلق على صحة الأبناء يتنقل من جيل الى آخر ، فكما كانت جدة الطفل تقلق على صحة امه ، فالأم تقلق بدورها على صحة ابنها . وانا اقول ذلك لأوضح انه لا جدوى من محاولات الاغراء التي تقوم بها الأم لتشجيع الطفل على تناول الطعام ولا جدوى للقلق . لأن التشجيع في ظل القلق يخلق حالة من العناد عند الطفل .

وهناك نوع آخر من الأطفال يكون متوتر الأعصاب معظم الوقت . . ويستهلك هذا التوتر العصبي قدراً كبيراً من طاقته . . ويصيبه هذا التوتر ايضاً بضعف في الشهية . . ولهذا يصل الأمر بهذا النوع من الأطفال الى درجة من النحافة الشديدة . وهذا النوع من الأطفال يعاني من القلق والقنوط في وقت واحد . . بينما هناك طفل آخر من هذا النوع نفسه يكون غارقاً في النشاط والحيوية والسرور . .

وعلينا ان نعرف ان هناك اسباباً نفسية وانفعالية يمكن ان تقود الى تناول الطعام بكميات مبالغ فيها . فهناك نوع من الأطفال يستسلم في هدوء لرغبة الأم في تناول اكبر كمية من الطعام . . وطبعاً يزيد وزن هؤلاء الى حد المبالغة . وقد يظن احد ان هذه الأم تكف عن القلق عندما يزيد وزن ابنها عن الحد المعقول ، هذا الظن خاطىء ، ان قلق الأم لا ينتهي . . وقد تذهب به الى الطبيب لتشكو من ان هذا الطفل « السمين » البدين لا يأكل القدر الكافي من الطعام . وهكذا نجد ان المشكلة ليست مشكلة الطفل ولكنها مشكلة الأم المفرطة في القلق . والحمد لله فإن عدد الأطفال الذين يستسلمون للأمهات بهذه الصورة قليل بل ونادر . وهناك بعض الأشخاص سواء أكانوا اطفالاً أم كباراً ، لا يملكون القدرة على الفطام العاطفي من امهاتهم ولا يصلون الى الاحساس بضرورة الاستقلال الشخصي . . ولا يملكون المقدرة على الاقدام على اي

مشروع . . ويظل احساس الواحد منهم بالامان مستمداً من تناول اكبر كمية من الطعام . . ومحاولة جذب اهتمام الآخرين ليقدموا له الرعاية النفسية . كما ان الفشل في الحب او الصداقة او العمل يجعل شهية البعض مفتوحة بصورة مزعجة . والسمنة الزائدة عن الحد لها اضرارها النفسية بطبيعة الحال . . لأنها تجعل المرء غارقاً في الأنانية ، مكتئباً ، ويندفع الى تناول الطعام ليهرب من مشاكله وتساعده السمنة على المزيد من الانطواء . وكلما ازدادت تعاسة هذا الانسان . . كلما اقبل على المزيد من الطعام . . وطبعاً يبتعد هذا الانسان عن اي لعبة رياضية . . ويصبح جسده مخزناً للشحوم والدهون . وقد مرت على عيادتي صورة حية لأثر التوتر العصبي على تغذية الطفل . كان هذا في حالة شقيقين تشتعل بينهما المنافسة الى درجة بشعة . كان الطفل الأكبر انساناً تعيساً مكتئباً . . يكره كل افراد العائلة . . يعيش بلا صداقات . . يحبس نفسه في سجن من الانطواء . . ويلتهم كميات هائلة من الطعام . . وتزداد سمنته يوماً بعد يوم . . بينما كان الطفل الأصغر انساناً مقبلاً على الحياة له نشاط زائد في اكثر من هواية . . يستطيع دائماً ان « يغتصب » أي حلم يحلم به شقيقه وكان نحيلاً للغاية . . وكانت مشكلة الأسرة هي ان الابن الأكبر تعيس وسمين اكثر من اللازم . . والطفل الثاني نحيل اكثر من اللازم . . عندها نصحت الأسرة بأن ترسل الابن السمين الى مدرسة داخلية تعتني بحالات الأطفال النفسية واستطاع هذا الطفل ان يجد مجتمعاً اليفاً . . وان يخرج من سجن الانطواء . . ونقص وزنه ٧ كيلو خلال اربعة شهور . . وطبعاً لم يفرض عليه احد في المدرسة نظام « تغذية » . واستطاع الطفل الصغير ان يكون مستريحاً من الناحية العصبية وزاد وزنه ٤ كيلوغرامات خلال الأربعة شهور .

وهكذا نصل الى نتيجة واضحة ان الحالة النفسية تتحكم بشكل واضح بدرجة ما في مسألة النحافة والبدانة .

ونعود مرة اخرى الى رغبة الآباء والأمهات في ان يكون الابن قوي الجسم . . جميل القوام . ان خبراء التربية البدنية يضعون لهذا النموذج الذي

يتمناه الآباء والأمهات قدراً من المواصفات منها القوة الجسدية ، والقدرة على التحمل، واستقامة الجسد، والرشاقة، والحيوية الدائمة . . والمهارة. وعندما نبحث مسألة قوة الجسد نجدها مسألة تختلف بالنسبة لأعضاء الجسم في الفرد الواحد . الطويل قد يتمتع بساقين قويتين يؤهلانه للجري والسباق . وقد تكون ذراعاه نحيلتين بحيث لا يستطيع ان يرفع جسمه على العقلة . وانا شخصياً أستطيع تفهم هذه المسألة لأني لم استطع ان « اتعلق » ولو لمرة واحدة في حياتي على العقلة . والانسان القصير الذي يحترف هواية رفع الأثقال فإن وزنه يكون ثقيلاً وقوي العضلات . والتمرين الدائم لأي مجموعة من عضلات الجسد تزيد من قوة هذه العضلات . . لكن لا يجب ان نظن ان التمرين يحول الانسان الى بطل . ليس هذا امراً حقيقياً . . والحقيقي . . ان التدريب تحت اشراف مدرب هو اسلم الطرق . . ولا يجب ان نتنازل عن ذلك حتى لا نفقد القدرة على الاحتفاظ بالرشاقة والحيوية .

ثم هناك النقطة الثانية التي يضعها خبراء التربية البدنية . . كمقياس للنموذج المنشود . . وهو قدرة الانسان على الاحتمال .

ان قدرة الانسان على الاحتمال تعتمد على المرونة بجانب القوة الجسدية . وهذه القدرة تنمو في الانسان كنتيجة لتدريب الجسم على اكثر من لعبة من الألعاب . . ونتيجة تقوية التنفس . . بحيث تؤدي الى تنظيم استهلاك الجسم لأكبر قدر من الاوكسجين وطرد ثاني اوكسيد الكربون . . وهذا يؤدي الى تنظيم قدرة القلب على التحمل كما ان الانسان ذاته يجب ان يستمر في التدريب الدائم حتى لا يقوى اليأس على التسرب الى نفسه وإضاعة هذا القدر من المرونة . لكن علينا ألا ننسى ابداً ان الانسان يتمتع بقدرة خارقة للطبيعة العادية عندما نواجه الخطر العنيف او الخطر القليل من الجو المحيط بنا . ان الانسان وقت الخطر قد تنفجر فيه طاقة لا يمكن ان يظن انها موجودة بداخله . وعندما يكون الانسان في بيئة باردة . . فالجسم يحتفظ لنفسه في داخله بكمية من الدهون ليواجه هذا الجو البارد . وعندما نصعد الى اعلى بالطائرة او الى قمة جبل فنحن ايضاً نجد ان كثافة

الدم تتغير لتتكيف وهذا الارتفاع . وعندما نهبط الى مناطق دون مستوى البحر نجد ان كثافة الدم تنخفض . وعندما نواجه حرارة الشمس فالبشرة تحمي نفسها باللون الداكن لتطرد بعض الحرارة . وعندما نعمل في جو تختفي منه الشمس تميل البشرة الى البياض . ويصاب كف اليد بخشونة . . عندما ينكبّ صاحبها على عمل شاق .

باختصار ان الجسم يكيف نفسه مع الظروف التي يواجهها . . ومعنى ذلك ان القوة الجسدية والمقدرة على التحمل لا يمكن ان يكتسبها الانسان دون ممارسة للرياضة بشكل منتظم وهذا هو الذي يحافظ للانسان على القوة والمرونة معاً .

ويؤكد معظم من يمارسون الألعاب الرياضية ان الألعاب الرياضية تزيل التوتر من الجسم وتفتح شهية الانسان للعمل وتجعله يقبل على الحياة بسعادة . . ويمتلىء بالنشاط والحيوية . . كما ان احساسهم بالقوة يؤكد لديهم الاحساس بالشباب . . وهنا استطيع ان اقول ان هناك دخل كبير للايحاء في هذه المسألة . لأنه ليس هناك رأي علمي قاطع بهذا الخصوص . ولكن التجربة اثبتت ان الانسان اذا أوحي اليه ان هناك مصلاً جديداً يقيه من البرد فإن عدد نوبات اصابته بالبرد ستقل ، رغم ان المصل الذي يشار اليه ليس سوى حقنة من الماء المقطر . لكن من المؤكد ايضاً ان الرياضة تستهلك طاقة العدوان داخل النفس وتطرد شحنات الارهاق العصبي وتجعل الجسم يسترخي بعيداً عن سموم الأفكار التي تثير الاكتئاب .

والعوامل التي تبني قامة معتدلة وجسداً رشيقاً ما زالت لغزاً . والمثال على ذلك اسرة كنت اشرف على رعاية اطفالها صحياً وكانت الأبنة الكبرى لهذه الأسرة انسانة غاية في الرقة . . وخلال عامها الأول لم تتجه ابداً الى إتلاف أي شيء يقع في يدها . وعندما كانت الأسرة تشتري لها لعباً فإن اللعب تظل سليمة . . على عكس اخيها الذي كان يكسر كل لعبة . . ويحاول ان يحطم اي شيء تقع عليه يده ما دام مجرد لعبة . . وكان هذا الطفل المليء بالحيوية غاية في السعادة . هذه الصفات المختلفة بين الأخوة في هذا العمر ، قد يشك احدنا انها

صفات طبيعية اوجدها الخالق في كل طفل . لكني في الحقيقة اعتقد ان هناك اسباباً نفسية وانفعالية وراء ذلك . انني افسر مثلاً طباع الانسان الذي يمارس لعبة رياضية ويتصف بالرشاقة بأنها طباع انسان يشعر بالاطمئنان . لكن ليس هذا تعميماً قاطعاً مانعاً . . ان هناك بعض الحالات التي تخرج عن هذا التعميم . ذلك ان بعض المرضى بالشيزوفرينا الفصام او البارونوبا الهوى الخيلائي قد يكون الواحد منهم متمتعاً برشاقة تثير الاعجاب فعلاً . مثال ذلك « نيجينسكي » راقص البالية الروسي المعروف الذي كان يعاني من مرض عقلي حاد . وهناك احد زملاء دراستي كان متفوقاً في الألعاب الرياضية وكان عندما يدخل الى صالة الرقص يرتجف ويرتعد ولا يقوى على الرقص مع اية صديقة من الصديقات . وهناك لاعب تنس عندما يحس انه سينتصر يجيد اللعب ، وعندما يحس انه لن يفوز فقد يتراخى في اللعب بمجرد ان يهزمه منافسه في اول المباراة .

ونتحدث الآن عن الطول والقامة . ان طول الابن يتحدد منذ الميلاد . . كما قلت في البداية . . وحسب العوامل الوراثية . لكن هذه المسألة تثير ايضاً عند الانسان بعض التساؤلات . فالانسان المتوسط الطول القوي العضلات يحاول ان يشد نفسه دائماً ليكون طويلاً . والانسان الذي يولد طويلاً نحيفاً يحاول ان يحني نفسه قليلاً ليبدو اقل طولاً ، اللهم إلا في الحالات التي يتحدر فيها الفرد من بيئة تجعله خالياً من المشاكل النفسية . وهناك بعض الأفراد يهملون تقويم او تسوية قامتهم لأسباب نفسية مختلفة منها عدم الثقة الكاملة بالنفس وعدم قوة الارادة والخجل والانطواء واليأس . . وخصوصاً ذلك الانسان الذي يصعب عليه ان يعبر عن احاسيسه بالكلمات . ولأن فترة الطفولة وفترة المراهقة من الفترات الصعبة في حياة الانسان ولا يستطيع فيها ان يعرف حقيقة احاسيسه . . لذلك لا يعرف كيف يعبر عن هذه الاحاسيس ولهذا فإن « فرد » الطفل او المراهق لقامته هي احد وسائل التنفيس عن احاسيس الطفل او المراهق . فالأم الممتلئة بالنشاط يثير ازعاجها ان يجلس طفلها منحني الظهر غير مشدود القامة . فتقول له « مدّ قامتك » ، وتقولها اكثر من مائة مرة في اليوم . . لكن الطفل يعاند وتكون النتيجة ان يترك قامته بلا انتصاب .

وهناك نقطة المهارات وقدرة الجسد القوي البنيان على اكتسابها .

ان البشرية كلها تعطي للانسان المتفوق في أي مجال الكثير من انتباهها واعجابها ، ابتداء من عزف البيانو الى رقص الباليه . . الى الضرب على الآلة الكاتبة . والانسان الذي يتدرب دائماً هو الذي يضمن لنفسه القدرة المتفوقة على القيام بالعمل الذي يتدرب فيه على اكمل صورة . لكن مهارة الانسان يعلوها الصدأ عندما يترك التدريب . لكن على كل انسان ان يعرف انه يستطيع استعادة قدرته الماهرة في أي مجال تدرب فيه من قبل . . وفي فترة قصيرة . . تختلف طبعاً عن الفترة التي تعلم فيها هذه المهارة في البداية . وهذه الحقيقة العلمية هي السند الذي يدفع البعض الى الايمان بضرورة تعليم الطفل وهو بعد صغير لعبة ما او حرفة ما لتكون وسيلة تسليته طول الحياة . بشرط ان نوضح للطفل دائماً انه يحتاج الى التدريب حتى يتقن ما يريد ان يتقنه . لأن الطفل عادة متحمس جداً ويزداد حماسه عندما يشاهد لعبة معينة يؤديها احد الناس بمهارة ويتخيل انه قادر على ان يؤدي اللعبة ذاتها بالمستوى نفسه بمجرد ان يحصل على الملابس او الزي او الاداة التي يمارس بها اللعبة . . سواء كانت بيانو او ملابس (بالية) او مضرب تنس . . وانه يستطيع ان ينال تصفيق الجمهور . لكن طبعاً هذا غير حقيقي . لأن التدريب هو اساس التفوق في أي مجال من المجالات الرياضية او الفنية . لذلك يجب ان نوضح هذا الأمر للطفل حتى لا يضيع منه الحماس ، وان نشجعه على ان يستمر في اتقان اللعبة والتدريب عليها وذلك حتى لا يتطور الأمر الى كراهية لهذه اللعبة .

هنا لا بد من وقفة اقول فيها ان البعض قد يظن انني اميل الى التشاؤم والى تقبل قضاء القدر في معظم ما يخص نمو الجسم . . لأني كثيراً ما قلت ان هذا يشكل نوعاً من الاستعداد الوراثي . ولكن الآباء بطبيعة الحال يريدون دائماً ان يقفوا ضد هذا الاستعداد ليكتسب الابن مهارة رياضية وجسداً قوياً . هذا امر لا بأس به وانا معه . ان علينا ان نشجع الأبناء على ممارسة الرياضة . ولكن علينا ايضاً ان نتقبل التكوين العضلي للطفل كما هو لأن الأبناء يأخذون هذا التكوين منا نحن الآباء . وهناك طريقتان لتقبل هذه الحقيقة . الأولى ان لا نشعر بالضيق

والضجر لأن ابننا لم يكن اطول منا وانه لم يكن اقوى منا . . .

والثانية هو ان نكون هادئين ومتزنين . ان شعور أي انسان بالتعاسة لأن قامة ابنه قصيرة او ان قامة الأبنة اطول من اللآزم ، هذا الاحساس التفسي ينتقل منا الى الأطفال . . ومهما حاولنا ان نداري المشاعر وان نخفيها . . فلا فائدة . لكن عندما نفرح بأبنائنا ونحبهم كما هم . . فإنهم يشعرون بتقبل انفسهم وبالرضا النفسي . اما عن مسألة السمنة والنحافة فلا بد ان نعرف اننا لن نستطيع التحكم في تلك المسألة بشكل قاطع لأننا لن نستطيع ان نجبر الطفل على ان يتناول اكبر كمية من الطعام ولن نستطيع ان نجبره على ان يأكل كميات اقل من الطعام وبعضنا يحاول ذلك فيدخل في عناد مع الطفل . . . فالطفل يعاند فرض السلطة عليه ـ في اغلب الحالات ـ عندما تكون هذه السلطة متوترة ولهذا فأنا انصح ان نلجأ الى الطبيب حتى نتأكد من قوة جسده او ضعفه . وان نلجأ ايضاً الى المدرسة لنعرف هل هو متكيف اجتماعياً أم لا .

وعندما يميل الطفل الى السمنة في مرحلة العمر الواقعة بين السابعة والسادسة عشر فعلينا انلتزم الصمتلأن هذا الطفل ستزول سمنته فور ان يبدأ في مرحلة المراهقة ، وعندما تتغير طبيعته لتصل الى النضج . اما في حالات السمنة الشديدة فإن تلك مشكلة قد تكون غاية في الصعوبة لأن الطفل قد يظن ان أباه وامه يكنان له مشاعر الكراهية والاضطهاد عندما يصران على ألا يتناول إلا قدراً محدوداً من الطعام . ولكن عندما تطلب مساعدة الطبيب النفسي او احد النوادي الرياضية فإن وزن الطفل يقل نتيجة للانطلاق ونتيجة لحل المشاكل التي قد تكون كامنة وراء هذه السمنة الزائدة عن الحد . وعلى الأسرة ايضاً ان تراعي في قائمة الطعام التي نقدمها للطفل ألا تكون من النوع الذي يساعد على السمنة مثل النشويات والحلوى .

اما عن الرياضة فأنا اؤمن بأن الطفل يجب ان يخرج الى الهواء الطلق لمدة ساعتين في اليوم . . اللهم إلا في حالة سقوط المطر . لأن الخروج الى الهواء الطلق يساعد عضلات الطفل على النمو ويجدد في الطفل طاقته الحيوية . .

ويطيل من قامته الى اقصى حد تمنحه له صفاته الوراثية . ويرحب الطفل طبعاً بهذا جداً ، والمهم هو ان يقتنع الآباء به . وعلى الأسرة ألا تعود الطفل على الجلوس امام التليفزيون فور العودة من المدرسة بل يجب ان يكون قد قضى يوماً مليئاً بالنشاط الرياضي او على الأقل مدة ساعتين . واشتراك الأسرة بنادٍ رياضي يتيح للأطفال قدراً كبيراً من الانطلاق . ورأيي الشخصي انني لا أفضل الألعاب الرياضية العنيفة كالملاكمة والمصارعة خصوصاً في مرحلة ما قبل المراهقة ، كما انني لا افضل ان تشترك الفتاة في مباريات رياضية تشتد فيها المنافسة في مرحلة ما قبل المراهقة . والرياضة المناسبة للفتيان والفتيات هي الرقص والسباحة وكرة المضرب والفروسية والمشي وركوب الدراجات .

ومن المهم ان يؤمن الآباء بضرورة ان تتاح للابن فرصة اللعب والانطلاق وانا اكره ايضاً الوقوف بسيارتي لطالب ثانوي يشير لي بطريقة الإستيقاف « الاتوستوب » ليركب مسافة كيلومتر واحد . انه يستطيع ان يمشي هذا الكيلومتر . فلماذا يستسلم للكبل .

وفي النهاية ، لا بد ان نجعل الابن يستشعر الثقة في النفس وان نجعله يقبل على الحياة بحب لأن هذه هي الوسيلة التي نجعل بها الطفل غاية في النشاط ونجعل شهيته للطعام معقولة ونجعل قامته دائماً مرفوعة منتصبة . وتشرق روحه لتجذب الكل حولها .

ان بعض ممثلات السينما يتمتعن بجمال جذاب . . ولكن ابراهام لنكولن هذا الانسان ذو الجسد الضعيف كان يشع منه النبل ويجذب اليه الناس .

الهواء النقي هام جداً

يجب ان ننقذ الطفل من هذا الهواء المسموم الذي ينتشر بفضل « التقدم الصناعي » . وتقع على عاتق العلم الآن مهمة اخرى هي كيفية تنقية الهواء من التلوث . . والى ان يصل العلم الى ذلك لا بد لنا من ان نخرج باطفالنا الى تلك الأماكن حيث يتميز الهواء بتلك الصفة النادرة . . وهي « النقاء » .

هل ينكر احد فائدة الاوكسجين بالنسبة للانسان ؟

ان احداً لا يستطيع ذلك . لأنه بدون الاوكسجين تتلاشى حياة .

والسؤال البدهي الآخر .

ـ هل هناك من الأوكسجين ما يكفي عالم المدن المزدحم الآن بالسكان ؟

لم اجد اجابة كافية عن هذا السؤال . لكني ألاحظ الشحوب الشديدة على وجوه سكان المناطق المزدحمة . وان حالات الارهاق العصبي تزداد في تلك الأحياء . بل ويشكو السكان في معظم الأحيان من عدم القدرة على بذل الجهد الكافي في العمل . ان الارهاق يصيبهم بمنتهى السرعة .

ونحن عندما نتحدث عن الهواء النقي وفائدته . . نتحدث عن سلامة الجهاز التنفسي للانسان وقدرته على النمو والعمل بصورة سليمة .

وقديماً منذ ثلاثين او اربعين عاماً ، كان ايمان الناس بالهواء النقي لا حدود له ، وهو ايمان قائم على الخبرة وليس على الابحاث العلمية . وكانوا يؤمنون ان الهواء النقي كلما كان بارداً كلما ازدادت فائدته . وكان هناك رأي آخر يقول بعكس ذلك ، ولا يهتمون بهذا الهواء النقي . ويفضلون الدفء على الهواء البارد . بل ويكرهون الهواء عندما يصبح بارداً . كانت اسرتي انا شخصياً تعتبر

الهواء بأنه «النموذج» وهو الهدف الذي تسعى اليه كل اسرة ليستمتع كل ابنائها بالصحة والنشاط، بل وكان يتحتم على المرضى بالدرن ان يسكنوا في مصحات جبلية ويفرض عليهم المشرفون على هذه المصحات ان يعيشوا ليلاً ونهاراً في هذا الهواء البارد . وكان على المرضى بدرن العظام ايضاً ان يقفوا في الهواء البارد حتى اثناء الشتاء وبملابس خفيفة للغاية . وكانت اسرتي قد اقامت كوخاً من الخشب في اعلى البيت فيه شبابيك مفتوحة طوال الوقت . . حتى ينام فيه ابناء اسرة سبوك . وازدحم هذا الكوخ بأبناء العائلة . وعندما يكون الجو بارداً كنا نحضر قرب الماء الساخن ونضعها في فرشنا . . واتذكر انني عندما بلغت التاسعة من العمر كنت اذهب الى المدرسة مبكراً في الهواء البارد . وكانت ادارة المدرسة مقتنعة تمام الاقتناع بأننا لا بد وان نقضي قسطاً من الوقت في الهواء البارد لذلك اقامت ادارة المدرسة سرادقاً يستعمل كفصل دراسي وكنا نجلس نحن الأطفال على الادراج نرتجف من البرد داخل ملابسنا الثقيلة . اذكر ان البنطلون الذي كنت ارتديه في ذلك الوقت كان من الصوف الثقيل وكان يصل الى اعلى الصدر. وكنت انتعل حذاء ذا ساق وله بطانة من الصوف ايضاً. وكانت هذه الملابس تجعلنا كالمساجين فيها . . فقد كان زملائي ايضاً يرتدون مثلها وكان من المفروض علينا ان نخرج الى فناء المدرسة لنؤدي بعض الرقصات حتى يمكن لأجسادنا ان تحصل على قدر من الدفء من هذه الرقصات . . وكانت المدرسة التي تعزف على البيانو ترتدي في يدها قفازاً من الصوف لتحمي اصابعها من البرد . . واستمر هذا الحماس لمدة سنوات ثم اختفى بالتدريج وتوصل العلم الى معرفة عدد كبير من الأسباب المختلفة للأمراض المختلفة ووسائل علاجها . وانا اؤمن ان ثقة الناس في الهواء الطلق بدأت تقل لا عن عدم ايمان به ، ولكن لأن ظروف حياة كل انسان تجعله مشغولاً عن الانطلاق خارج الجدران . وعندما كنت طبيباً للأطفال في مدينة نيويورك بين عامي ١٩٣٠ و١٩٤٠ لم اكن انسى اسداء النصح الى الأمهات والآباء بضرورة الخروج مع الأطفال في اوقات النهار للتنزه يومياً لا لشيء إلا لأن الأمهات والآباء انفسهم كانوا يوجهون لي السؤال عن الأوقات التي يمكن او يجب ان يخرج فيها الطفل الى الهواء النقي . ان معظم الآباء

والأمهات كانوا يعتبرون الخروج الى الهواء النقي من المسائل البديهية كأنه فيتامين ضروري لصحة الطفل . وكان معظم الأمهات والآباء يحرصون على التنزه مع اطفالهم في الحدائق العامة في الصيف والشتاء مرة او مرتين في اليوم الواحد . ولا يمنع ذلك إلا سقوط المطر . ويستمر هذا الحال الى ان يلتحق الطفل بالمدرسة . وكانت كل ام تختار ملابس مريحة لها وللطفل ، بل وهناك صداقات عميقة قامت بين مختلف الأسر نتيجة للقاء اليومي في احدى الحدائق العامة . وعندما انتقلت من نيويورك الى مدينة اخرى كان الجو فيها بارداً فقد اندهشت لأن الأمهات والآباء لم يكونوا يقومون بهذا الواجب اليومي وهو التنزه مع الأطفال . لم اشاهد إلا عدداً لا يتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة يقومون بالتنزه مع الأطفال . . وكان الأمر يختلف طبعاً بالنسبة للأطفال الذين في سن المدرسة فقد كان الآباء والأمهات يذهبون لاصطحاب ابنائهم . وتمر الأعوام وتقوم القيامة في الصحف والمجلات ومعامل البحث العلمي لأن الهواء في المدن اصبح ملوثاً . . وان الهواء النقي لم يعد ضرورة بالنسبة للصغار فقط ، ولكن للكبار ايضاً .

ولكن هنا يمكن ان نتذكر بعض الخبرات عن الهواء النقي والهواء غير النقي والجو الرطب والجو الجاف .

ان كل انسان يعرف أي قدر من التعاسة والاحساس بالاختناق . . عندما يكون الجو حاراً وتكون درجة الرطوبة عالية . بل ان البعض يصل به الأمر الى المرض وما زلنا نذكر انه عندما بلغت الرطوبة نسبة ١٠٠٪ في سأن « بلاك هول » في الهند . . وارتفعت درجة الحرارة مات عدد كبير من المساجين .

ونحن نعرف ايضاً ان جسد الانسان مزود بقدرة رائعة على التخلص من حرارة الجو بواسطة العرق ، ولكن عندما ترتفع نسبة الرطوبة في الجو فإن العرق لا يتبخر بسرعة وتنسد مسام الجسم ولذلك نجد الانسان يخلع معظم الملابس التي يرتديها ويحاول ان يفتح كل النوافذ ويبحث بكل وسيلة عن الهواء النقي . ونحاول احياناً ان نستخدم المروحة لتحريك الهواء المتوقف ليصبح تياراً من الهواء يساعد على عملية تبخر العرق . ونحن نعرف ان الأطفال كلهم يحبون اللعب

بالماء في الجو الحار لا لشيء إلا لأنه يساعد على تخليص الجسم من العرق. وطبعاً هذا العصر عصر سعيد لأن الكبار فيه يسمحون للاطفال بارتداء ملابس خفيفة في الصيف او عندما يكون الجو حاراً . لكن بعض الأمهات لا يسمحن للطفل الرضيع بهذا الحق نفسه الممنوح لبقية الأطفال خوفاً على الطفل الرضيع من البرد وكثيراً ما سمعت من بعض الأمهات الجريئات . . ان العيون تكاد توجه لهن الاتهام بالطيش عندما يخرجن مع اطفالهن الرضع وهم بلا ملابس تقريباً عندما يكون الجو حاراً . لأن معظم الناس يظنون ان الطفل الرضيع قد يصاب بنزلة صدرية نتيجة لهذا العري شبه الكامل . وانا اقول لهؤلاء الخائفين على الأطفال من البرد اثناء الجو الحار وعندما تمشي بهم امهاتهم في شوارع او حدائق المدينة ، اقول لماذا لا ينتابكم هذا الخوف على الأطفال عندما تكونون على شواطىء البحر ، رغم ان الجو على شاطىء البحر اكثر برودة بالتأكيد من وسط المدينة . وانا انصح الأمهات بأن يمنحن الرضيع حق ارتداء الملابس الخفيفة وان تكون عربة الطفل مكشوفة الى حد ما . . لتسمح بالهواء ان يدخل الى كل جزء فيها وعندما نصحب الطفل لتعرضه للشمس يجب ان يخرج الطفل من عربته لتتنفس كل مسامه من الهواء النقي .

اما عن مشكلة الرطوبة المرتفعة فهي تساوي تماماً مشكلة الجو الجاف الخالي من أي رطوبة . . وهي مشكلة موجودة في البلاد الحارة او في البلاد التي تستعمل اجهزة تكييف ساخنة او باردة . ان الجو الخالي من الرطوبة يشعر فيه الانسان بجفاف في الحلق والأنف ويعاني من الاحساس بالضيق تماماً مثلما يشعر الانسان بالاختناق عندما تكون درجة الرطوبة مرتفعة .

في المنازل التي توجد فيها اجهزة تكييف مركزية قد يشكو احد السكان من وجود برودة فيطلب من العامل المسؤول عن التدفئة ان يرفع درجة حرارة المنزل . بينما يكون هناك انسان آخر في شقة اخرى بنفس المنزل يشكو من حرارة الجو الزائدة فيطلب من عامل التدفئة ان يخفض من درجة حرارة المنزل . وطبعاً يحتار العمال المسؤولون عن اجهزة التكييف .

ونحن ننصح الأمهات والآباء ان يتلاءموا مع الجو الطبيعي والعادي وألا يفرطوا في طلب التدفئة او طلب البرودة . اننا نحن الأطباء نعرف ايضاً قيمة وجود نسبة ما من الرطوبة في الجو لأنها تعمل على سرعة تحسين حالات السعال والبرد . لأن بعض المرضى من الأطفال او الكبار على حد سواء يعانون من انسداد الأنف بسبب تجمد الافرازات المخاطية نتيجة عدم وجود نسبة من الرطوبة في الجو . ولذلك فنحن الأطباء نطلب من المرضى وضع اناء فيه ماء يغلي باستمرار في الحجرات التي توجد فيها تدفئة للتأكد من وجود نسبة من الرطوبة . .

اننا نعرف ان القنوات الموجودة في الأنف والبلعوم والشعب الهوائية بالرئة تملك غدداً مهمتها افراز النسبة المطلوبة من المواد المخاطية . وهناك في الأنف خلايا مهمتها ان تطرد المخاط والميكروبات الى خارج الأنف او الرئة ، ومهمتها طبعاً هي الوقاية وحماية الانسان من اخطار الميكروبات . والتجارب اكدت لنا ان بعض الجراثيم المسببة لالتهاب الحلق او الالتهاب الرئوي تموت بسرعة من الجو المتوسط الرطوبة بينما يمكن ان تنتشر في الجو ذي الرطوبة المرتفعة او الحرارة الشديدة . ولهذا نجد ان سكان بعض المناطق الجافة جداً يعانون من هذه الالتهابات وخصوصاً عندما ترتفع درجة حرارة الجو .

كما ان عدداً كبيراً من الناس لا بد وانهم لاحظوا ان قشوراً كثيرة تظهر في شعر الرأس عند بداية الشتاء . . وخصوصاً في البيوت التي تستخدم اجهزة التدفئة بصورة دائمة . . وتكون درجة الحرارة فيها مرتفعة نسبياً . وهذا يسبب اختفاء أي نسبة رطوبة من جو المنزل وبالتالي تضطرب غدد شعر الرأس .

وهناك سؤال كثيراً ما يواجهني عن نسبة الاوكسجين المطلوبة للانسان وهل هو يتأثر بالزحام . مثل الركوب في اتوبيس مزدحم او حجرة الدراسة . . وخصوصاً عندما يكون المكان سيء التهوية ؟ . . وانا اقول بشكل قاطع ان أي حجرة فيها عدد كبير من الناس يجب ان يمر بها تيار متجدد من الهواء . . وان الإقامة في حجرة فيها عدد كبير من الناس ولا يتوافر فيها تيار من الهواء النقي

تكون نتيجته احساس كل فرد فيها بالاختناق ، لأن نسبة الرطوبة ستزيد جداً في هذه الحجرة .

قد يظن احد اننا خرجنا عن نطاق المناقشة الأساسية وهي ضرورة واهمية الهواء النقي،ولكن اظن اننا لم نخرج عن نطاق المناقشة . واريد ان اشدد على ان الهواء النقي هام جداً . لكن مسألة التعرض للهواء الشديد البرودة كما كان يفعل بنا اهلنا منذ خمسين عاماً هي مسألة تدعو للسخرية . كما انها عذاب لا مبرر له . . تماماً كما يعذب انسان نفسه بأن يمشي بقميص وبنطلون في درجة حرارة فوق الصفر . انه يعرض نفسه للعذاب دون أي داع . ولم يثبت العلم أي اهمية للهواء البارد . والمسألة من اولها حتى آخرها؛ بالنسبة للهواء البارد هي مسألة ايحاء . تماماً كما يوحي الانسان لنفسه ان الحمام البارد منعش وان النوم لمدة تسع ساعات مسألة اساسية في الحياة وان تناول اقراص الفيتامينات او الاقراص الملينة مسألة هامة مرة في الاسبوع . ان كل ذلك هو نتيجة الايحاء . . تماماً كما حدث مع مجموعة من المتطوعين تم اختيارهم لتطعيمهم بحقن تجعلهم لا يصابون بالبرد . . وطبعاً يتم اعطاؤهم حقناً لا يعلمون عنها شيئاً وكانت محتويات هذه الحقن في حقيقتها الماء المقطر وبعد مدة قرر اغلبية هؤلاء المتطوعين انهم امتلكوا بالفعل حصانة ضد البرد .

ورغم كل ذلك فإنني اقول انه لا مانع ابداً من ان يتعرض الانسان في نطاق محدود للهواء البارد . . انه يعطي قدراً من النشاط والحيوية والمرونة للجسد . ومثال ذلك الانسان الذي يقطع الاخشاب في الغابة او الذي يسير الى عمله عند الفجر . ان في جسم كل انسان جهازاً في المخ مهمته ان ينظم حرارة الانسان . يمنع الجسم من الاحساس بالبرودة الشديدة ويحمي الجسم من الحرارة الشديدة . . ولكن عمل هذا الجهاز ليس مطلقاً . . بمعنى ان الانسان يمكنه ان يسير بدون ملابس مناسبة او كافية في جو بارد تصل درجة حرارته تحت الصفر ولهذا فأنا أنصح الأسرة ان تخرج من وقت لآخر في الجو البارد لأنه يدرب الطفل على الأجواء المختلفة ويكسبه بعض الصلابة في مقاومة البرد . ويتساءل كثير من الأمهات والآباء عن السر في ان وجوه بعض اطفال اوروبا وامريكا تكون حمراء

مليئة بالصحة بينما وجوه اطفالهم وهم الذين يسكنون في بلاد اخرى تكاد تكون صفراء وشاحبة . وانا اقول ان الصحة لا تسكن تحت سطح الجلد . إنما الصحة هي قدرة الجسم على التحمل كما قلت من قبل وعلى مقاومة المرض ، اقول ذلك وانا شخصياً اعجب بالأطفال عندما تكون خدودهم حمراء .

ولنا ان نعرف نحن الآباء والأمهات ان الطفل او الابن المراهق عندما يقضي وقتاً في الهواء الطلق تكون شهيته للطعام قوية ، كما ان اعصابه تكون هادئة ويتمتع بقدرة على التفاهم وعدم العناد . . وكثير من الأمهات تدور السنتهن بالشكوى من ان الأطفال يصابون بالملل والرغبة في تدمير اي شيء وبعدم القدرة على التفاهم بعد ان يكونوا قد حبسوا في المنزل خوفاً من اصابتهم بنوبات الزكام . . بينما تبتسم الكثير من الأمهات عندما يعود لهن اطفالهن وتكون حالة الأطفال النفسية غاية في السعادة عندما يخرجون الى الحدائق او النوادي .

وأنا أؤمن ان حصر الأطفال بين اربعة جدران مسألة ضارة بنفسية الطفل . وأؤمن ايضاً بضرورة انطلاق الأطفال خارج المنزل الى الحدائق او حتى المتاحف او أي نزهة مسلية ، اؤمن ان ذلك مفيد للأطفال جداً .

وحتى الأطفال الرضع ، ان الطفل الرضيع يحب ان يغير المناظر التقليدية التي يراها دائماً . حتى ولو كان المشهد هو حديقة المنزل المليئة بالأشجار الجميلة . ان مغادرة المنزل الى الهواء الطلق مفيد تماماً للطفل . اما مسألة ان تصبح خدود الطفل حمراء . . فهي مسألة تتعلق بدرجة حرارة المكان الموجود فيه . ان خدود الطفل يمكن ان تكون حمراء عندما تكون غرفته باردة قليلاً .

إنني اثق ايضاً أنه من المفيد للأمهات ، وخصوصاً في الشهور الأولى من حياة الطفل ، ان يخرجن مع الأطفال الى الحدائق ، ولمقابلة الصديقات . ان ذلك يجدد ايضاً نفسية الأم . لكن عندما تفكر الأم في الخروج مع طفلها فإنها على الفور تبدأ في تصور عدد من المخاوف والشكوك على صحة الطفل . . انها تشعر انه كائن غير قادر على حماية نفسه فتبدأ في « حمايته » بأكبر قدر ممكن من الملابس . انها تكاد تخفي الطفل تماماً تحت كومة من الملابس بغرض حمايته حتى عندما يكون الطفل ذاهباً الى الطبيب .

وتبدأ الام في فك حصار الطفل من الملابس امام الطبيب ويكاد الطفل في عز الشتاء ان يغرق في العرق او تظهر على بشرته بعض البثور نتيجة الحرارة الشديدة ، وعدم قدرة الجسم على التنفس . ان على الأمهات ان يعرفن ان البشرة ايضاً كائن حي يحتاج الى الهواء النقي . والبشرة ايضاً تكره الاعتقال في سجن الملابس الثقيلة . ان خوف الأم على الطفل مسألة طبيعية ورغبتها في تدفئته مسألة طبيعية وامداده بالطعام الكافي مسألة طبيعية . لكن لا يجوز ان تتحول هذه المسائل الطبيعية الى مسائل غاية في الشذوذ عندما نسجن الطفل في ملابس اثقل من وزنه . ان على الأم ان تعرف انها يجب ان تكون معتدلة في مثل هذه المسائل . فلا يجب ان تغالي او تبالغ في تدفئة الطفل . . ولا يجب ان تبالغ في التخفيف من ملابسه . نحن نعرف ان احساس الأم بحب ابنها هو الذي يدفعها الى الرغبة في حمايته والمحافظة على حياته وان ذلك امر يقلق الأم دائماً . . الى ان يستطيع الطفل ان يتكلم وان يعبر بلسانه عما يحتاجه من الدفء او الطعام . ولكن الى ان يحدث ذلك فلا بد لنا ان نحذر المبالغة . . سواء في التدفئة الزائدة او ادعاء التحرر . وان تلبس الأم طفلها ملابس خفيفة للغاية . . مما يثير مخاوف بقية الأهل سواء والد الطفل او الجد او الاصدقاء او الجيران . وعلى الأم ان تعرف ان اقدام الطفل ويديه هي اكثر اعضاء جسده برودة . . حتى في الجو الحار . . وليس هذ دليلاً على ان الطفل يحتاج الى مزيد من الملابس لأن حاجة الطفل الى الملابس الثقيلة هي اقل من حاجة الانسان الكبير . وعندما يشعر الطفل بقشعريرة البرد فهو يعلن عن ذلك بالبكاء والشحوب . والأمر طبعاً يختلف بالنسبة للاطفال الذين بلغوا مرحلة الحركة والكلام . ان الطفل نفسه يتمرد على الأم عندما نبالغ في تدفئته بمزيد من الملابس . ان الطفل هنا يعرف ما يحتاجه . . ويستطيع الاعلان عنه . واعتقد ان عدداً قليلاً من الأطفال هم الذين يرتدون ملابس خفيفة اثناء الشتاء قد تكون صيفية . . خصوصاً بعد ان ظهرت انواع من الملابس الخفيفة والقادرة ايضاً على بعث درجة حرارة لا بأس بها في جسم الطفل . . تلك الملابس ذات البطانة من الصوف او البطانة العازلة من البرد .

* * *

علينا ان نعرف بأن الهواء الطلق مسألة اساسية لصحة الطفل .

وعلينا ان نعرف بأن الأم نفسها تحتاج الى هذا الهواء لتجدد حيويتها .

وعلينا ألا نغرق الطفل في خضمّ من العرق عندما نغطيه اكثر من اللازم بملابس ثقيلة . . وألا نغالي في التخفيف من ملابسه

ان علينا ان نكون « طبيعيين » .

وانا اعرف ان هذه الكلمة مختلفة المعنى عند كل انسان . . وعند كل مجتمع ولكن اقولها بعد ان شرحت الاطار العام لكيفية معنى كلمة « الانسان الطبيعي يحتاج الى الهواء الطلق طوال هذا الفصل . . » .

ألستم معي في ذلك ؟

كم ساعة يجب ان ينام الطفل ؟

لا احد يستطيع ان يجيب اجابة قاطعة عن هذا السؤال . انا شخصياً كنت اخطىء في تقدير ساعات النوم بالنسبة للطفل . وكنت اشجع النوم اكثر من المعدل الطبيعي . لكني الآن أفضل ان اعرض كل وجهات النظر التي تختص بالاجابة عن هذا السؤال :

كم ساعة يجب ان ينام الطفل ؟

الآن وبعد هذه الخبرة الطويلة من العمل كطبيب اطفال اقول لأي ام تسألني عن عدد الساعات التي يجب ان ينامها الطفل .

ان المسألة متروكة لظروف الطفل نفسه ؟

اقول ذلك لأنه اصبح اقتناعاً كاملاً بأن احداً لا يعرف بالتحديد كم ساعة يجب ان يقضيها الطفل في الفراش .

وكنت في مستهل عملي طبيباً للأطفال اعطي اجابة غاية في السهولة .

كنت اقول ان الطفل في الشهور الأولى يحتاج الى ساعات نوم تصل الى ست عشرة ساعة وترتفع احياناً الى عشرين ساعة . وعندما يتم عامه الأول فإنه يحتاج الى اربع عشرة ساعة نوم قد ترتفع الى ست عشرة ساعة . وفي عامه الثاني قد ينام اربع عشرة ساعة فقط ، وتنخفض بعد ذلك الى اثنتي عشرة ساعة عندما يصل الى السادسة من عمره . ثم تنخفض الى احدى عشرة ساعة عندما يصبح عمره تسعة اعوام . . ثم تصبح عشر ساعات عندما يبلغ الثانية عشرة .

وهكذا كان يجب على الطفل ان يأوي الى الفراش الساعة التاسعة ليقوم في السابعة اذا كان في سن الدراسة . وهكذا كانت تقول معظم كتب الطب ، وهكذا كانت تتحدد ساعات النوم طبقاً للجداول التي تقدمها تلك المراجع العلمية .

ولكن بعد ان امتدت بي الخبرة في العمل كطبيب اطفال . . عرفت ان هناك عوامل كثيرة تتحكم في مسألة النوم . . ولذلك اصبح من الصعب ان اقول فيها رأياً قاطعاً وحاسماً للأم عندما تسألني عن عدد الساعات التي يجب ان ينامها الطفل. ان هناك اختلافاً بين الأطفال بالنسبة لساعات النوم في الأسابيع الأولى بعد الميلاد . وهناك رأي يقول ان السبب في هذا الاختلاف بين طفل وآخر هو امر يعود الى طبيعة الطفل نفسه . . خصوصاً في الشهرين الأول والثاني من ميلاده . . ذلك ان هناك نوبات من المغص والصراخ بسبب الجو الجديد الذي يختلف عن رحم الأم . فأحياناً تكون نوبات الصراخ في الليل واحياناً اخرى في النهار . وهناك طفل ينام طوال النهار ويستيقظ معظم الليل . . وهناك طفل على العكس من ذلك. ولكن الأم تحاول ان تدرب الطفل بالتأني والمصابرة. . كيف ينام ما يحتاجه من ساعات بعد ان يبلغ عمره ثلاثة شهور. وهناك اطفال من الرضع لا يعانون من أي مشاكل مثل المغص او الصراخ بدون سبب وليس في حياتهم ما يسبب الازعاج ورغم ذلك ينامون عدداً من الساعات يقل بكثير عن المستوى التقليدي في هذا العمر ويظلون كذلك طوال طفولتهم . وهذا ما يجعلني اظن في بعض الأحيان ان هناك نظاماً فطرياً يولد به الطفل ينظم به حاجته للنوم . ويختلف هذا النظام من طفل الى آخر . ولكن اذا كان ذلك حقيقياً فهذا ايضاً لا يعني ان ينام الطفل عدداً من الساعات اقل من حاجته . . ولكن معنى ذلك ان الطفل بطبيعته يميل الى الاستيقاظ. . وغالباً ما يكون هذا الاستيقاظ من النوع المتوتر . . وهذا التوتر لا يمنح الطفل الفرصة الكاملة ليقضي ساعات النوم التي يحتاجها من في مثل عمره . وعلينا ألا ننزعج . . فالطفل نفسه يحاول ان يتكيف مع هذا النظام . واجهزة الجسم المختلفة تعمل على قدر طاقتها لتستفيد من ساعات النوم التي يقضيها الطفل في الفراش . وانا اؤكد على هذه النقطة حتى لا تعتقد الأم ان مسألة النوم متروكة للطفل. . وان تعمل الواحدة منهن على خلق الجو المناسب لنوم الطفل . فنحن في ايام الميلاد الأولى ، بل والأشهر الأولى يجب ان ندرب الطفل على ان يزيد في ساعات نومه حتى يستطيع ان يستفيد تماماً من هذا النوم . ونحن نعرف ان الطفل كالانسان الكبير تماماً يستطيع في وقت قصير

ان يتعود على نظام للنوم تزيد ساعاته او تقل عما كان عليه حاله من قبل . مثال ذلك ان احداً منا لا يمكنه ان يجبر طفلاً صغيراً على النوم في الميعاد اليومي للنوم اثناء رحلة او سفر . ان الطفل تمر به بوادر النعاس في الميعاد الطبيعي الذي تعود ان ينام فيه ولكن ذلك لا يستمر طويلاً . فالطفل في اجازة الصيف مثلاً يجب ان ينطلق وان يلعب وان يسهر ثم اخيراً يذهب الى سريره سعيداً غاية السعادة . ويظل على هذا الحال طوال مدة الاجازة الصيفية . . ثم يعود مرة اخرى الى الحياة اليومية في منزله ، فتمر به فترة من الرغبة في السهر تقل تدريجياً ، الى ان يعود الحال الى ما كان عليه قبل الاجازة .

وهناك مثل آخر نسوقه هنا وهو على النقيض من المثال الأول .

منذ سنوات بعيدة كانت الأوامر الطبية المشددة بخصوص النوم تصدر الى ادارة المستشفيات الخاصة برعاية الأطفال المرضى بالحمى الروماتزمية الرثية . كانت الأوامر تشدد على ان الطفل يجب ان يرقد في الفراش ليرتاح راحة تامة . ولم يكن هناك طبعاً هذا التقدم الشديد في علم وصناعة الدواء الذي وصل الآن الى مرحلة يمكنه فيها ان يقدم ادوية تشفي الحمى الروماتزمية تماماً . . لذلك كانت الراحة وعدم الحركة هما اول وسائل العلاج . وكانت ادارة المستشفيات تنفذ هذه التعليمات بدقة متناهية . وكان الطفل الذي في الخامسة ينام طوال الوقت في السرير . . وكان الشاب الذي في الثامنة عشرة ينام ايضاً طوال الوقت في السرير . وكانت الأنوار تطفأ في المستشفى في ميعاد محدد . وكان النوم اجبارياً بعد تناول الغداء لمدة ساعتين . وكانت القراءة ممنوعة وكذلك الكلام وكذلك الزيارات . وكثيراً ما اندهشت عندما عرفت ان أي مصاب بالحمى الروماتزمية كان يرضخ تماماً للنظام سواء كان طفلاً او شاباً ، حتى ان عدداً من هؤلاء المرضى ، كان ، بعد مغادرته المستشفى يأوي الى فراشه مبكراً وينام بعد الغداء ساعة او اثنتين .

لكن هناك صعوبات كانت تعترض الأم وهي تعلم طفلها عادة

الانتظام في النوم . فأحياناً تقل ساعات نوم الطفل دون سبب ودون ضرر ايضاً . . لكن الأم تصاب بالقلق . فتبدأ في حمل الطفل على ذراعيها . . خصوصاً في عامه الأول وتتمشى به في ارجاء البيت ويعتاد الطفل على « اغتصاب حنان » الأم طوال تلك الفترة فيقلل من فترة يقظته . او يستيقظ الطفل اثناء الليل مرة او مرتين ويظل مستيقظاً لمدة ثلاث ساعات . . كل ذلك حتى يضمن اكبر وقت يقضيه مع الأم . وتمر الأم بفترة من التوتر والضيق النفسي لأنها تخاف على طفلها من هذا النوم المتقطع . . والذي يرهقها ايضاً ،خصوصاً وأن الطفل في مثل هذه الحالة لا ينام اثناء النهار بما يعوضه عن فترات الصحو اثناء الليل . ويصبح الطفل ايضاً غاية في التوتر والمزاج السيء . وعلاج مثل هذه المشكلة ليس عسيراً . انه يستمر لمدة ثلاثة ايام او اسبوع على اقصى تقدير . ويبدأ بأن تضع الأم طفلها في فراشه في الميعاد المحدد « للنوم » ولا تلتفت الى نداءاته او صرخاته اثناء الليل ما دام ليس هناك خطر عليه . وهناك مشكلة اخرى تظهر ايضاً في المدارس عندما ينام الطفل اثناء الدراسة . وعندما يبحث المشرف الاجتماعي عن السبب يكتشف ان المسألة هي ان الأسرة كلها بلا مواعيد منتظمة للنوم والطفل نفسه يخضع لهذه الفوضى . كما ان هناك بعض حالات التوتر النفسي التي يمكن ان تصيب الطفل بالأرق . خصوصاً عندما يبدأ الطفل في الانفصال عن امه خلال العام الثاني من العمر . ويمكن ان نعرف ان اي اضطراب في النوم اثناء مرحلة الطفولة سببه التوتر بين الطفل وامه او الخوف من الأحلام المزعجة او الاحساس بالذنب لأنه ارتكب بعض الأخطاء الصغيرة . . او مرت برأسه بعض الأفكار السيئة عن احد افراد اسرته . وقد يكون السبب ايضاً هو الغيرة والتنافس بين الأطفال . وطبعاً هذه الحالات وراءها اسباب تختفي من على السطح . . واذا استمرت طويلاً فلا بد من استشارة الطبيب النفسي . وانا اعتقد ان الطفل هو مرآة لأسرته في عادات النوم . ذلك ان الآباء يحبون دائماً ان ينقلوا الى ابنائهم نظام حياتهم الذي عاشوه في الطفولة . وهناك بعض الآباء الذين يعلنون الرفض لأسلوب التربية او نظام النوم الذي نشأوا عليه ولذلك نجدهم يتركون الحبل على الغارب لأطفالهم في مسألة النوم . انا مثلاً نشأت في اسرة لها تقاليد تحتم عليها ان

تضع نظاماً صارماً لكل شيء وكانت كلمة « الواجب » هي الكلمة المقدسة في افراد اسرتنا جميعاً . لذلك فقد كان هناك امر هادىء من الأب ان نأوي نحن الأطفال الى الفراش في الثامنة مساء . وكان والدي يرى ان صحة الطفل يجب الحفاظ عليها بواسطة تنظيم ساعات النوم. وكنت في التاسعة آنذاك وكان علي ان اجلس الى مائدة عشاء صغيرة تعد لي ولشقيقتي الصغيرة ثم ننام بعد ذلك . بينما كان والدي يتناول العشاء مع امي في الدور الأعلى من المنزل في حوالى العاشرة . واعتقد ان والدي كان يحلو له ان يتناول العشاء مع والدتي على انفراد في ضوء الشموع وبعيداً عن ضجيج الأطفال . واستمر هذا الحال الى ان بلغت انا واختي الثانية عشرة من العمر. . عندئذ منحنا الوالد فرصة الارتفاع الى مستوى تناول العشاء معه . وفي بداية حياتي كطبيب اطفال في نيويورك كنت ما زلت مؤمناً بأن كل طفل صغير يجب ان يتناول العشاء في السادسة مساء وان يذهب الى الفراش في الثامنة على اقصى تقدير . وهكذا كنت انصح الأمهات . . وهكذا كانت تسير طريقة تربية الأطفال في ذلك الوقت . وبعد ان قضيت خمسة عشر عاماً في العمل كطبيب اطفال في نيويورك ، انتقلت الى اكثر من مكان وكانت هناك آراء متضاربة حول ميعاد عشاء الأطفال وميعاد النوم . ففي بعض المدن كان الطفل يتناول عشاءه مع اسرته ثم ينام قبلها . وكان ميعاد النوم يختلف من طفل الى آخر . طفل في السابعة مثلاً يسهر حتى الثامنة او التاسعة او حتى العاشرة . وقد احسست ان هذا شيء يشبه الصدمة العنيفة لي عندما عرفته وكنت اخاف على صحة هؤلاء الأطفال من السهر وكنت اظن انني سأرى الدوائر السوداء حول عيون هؤلاء الأطفال من طول السهر والارهاق ، كما كنت الاحظ ان معظم الأطفال الذين لا يتمادون في السهر حتى حدّ الإفراط تظهر عليهم علامات الصحة . ولم يكن في سلوكهم اي دليل على المرض او التعب او الارهاق .

وهناك عدد كبير من الأمهات في مختلف بلاد الدنيا تأتي عليهن لحظة يصبح فيها نوم الطفل أملها الذي تتمنى ان يتحقق لتنجز ما وراءها من اعمال ، هذا

بجانب ان هذا النوع من الأمهات يؤمن ايضاً بأن النوم مسألة هامة وأساسية لنمو الطفل. وما ان تضع الواحدة منهن ابناً في سريره حتى يبدأ الطفل في اثارة المتاعب ورفض النوم . وتكون الأم نفسها غاية في الارهاق والتوتر ، لأنها قضت اليوم بطوله إما بالوظيفة او بإنجاز اعمال البيت، ومع هذا فالطفل لا يرحم. انه لا يعي ان امه مرهقة . كما انه يعرف ان اليوم كله قد ضاع وانه ما زال يريد ان يلعب . وتزداد الأم غيظاً وضيقاً وقد يعلن هذا الغيظ والضيق عن نفسه في صوت الأم . ان الأم قد تقول بصوت مليء بالغيظ : سأعاقبك على كل شقاوتك طوال النهار وسأمنعك من الخروج .للتنزه وسأجعل والدك يضربك ايضاً . سأجعل حياتك نفسها لا تطاق . سأفعل كل ذلك ان لم تذهب لتنام .

نلاحظ هنا ان الأم تهدد . نلاحظ ايضاً ان الأم تضع نفسها في مواجهة الطفل كهدف للعناد . نلاحظ هنا ان الأم تجعل الطفل يشعر ان النوم شيء يجب ألا يحدث . انه يحس بعداء للنوم وبرغبة في عناد الأم لا لشيء إلا لأن الأم حولت النوم الى موضوع للعناد بينها وبين الطفل . ويحاول الطفل بعد ذلك ان يجعل النوم « جائزة » لا يعطيها للأم . . لذلك يظل مستيقظاً طوال الوقت . وهناك ام اخرى تكون مرهقة عصبياً لفترة كبيرة من الزمن وتشعر ان توترها العصبي هو خطأ في حق طفلها بل هو ذنب كبير يجب ان تعتذر عنه بصورة او بأخرى للطفل . وعندما يرفض ابن هذه السيدة ان ينام في ميعاد النوم وعندما يحاول ان يطيل من فترة سهره فإن الأم تقول بغضب وتردد يظهر واضحاً في نبرات صوتها :

ـ أنت تعرف ان ميعاد النوم قد فات منذ ساعة . عليك ان تذهب الآن الى سريرك .

هنا يتحول الطفل الى محام ممتاز يجيد المناقشة والدفاع لأنه اصبح يعرف نقاط الضعف في امه .

فيقول . .

ـ في الأسبوع الماضي انت سمحت لي ان اسهر ساعة فلماذا لا تسمحين لي الآن بالسهر .

أو يقول :

ـ اريدك ان تحكي لي حكاية . .

أو يقول . .

ـ انا احب أبي كثيراً ولا استطيع ان انام قبل ان اراه وهو لم يعد حتى الآن .

وهكذا ترتبك الأم وتظن انها لم تسلك الطريق السليم لاقناع الطفل بالذهاب الى النوم او انها تظلمه اذا نام فعلاً قبل ان يستقبل اباه عند عودته من العمل . ويلاحظ الطفل تردد الأم وعدم قدرتها على حسم الأمر ، ويتمادى في الدفاع عن حقه في السهر . وتستمر هذه المناقشة يومياً وقد تستغرق كل يوم ساعة من الأم تلك الساعة كان يجب ان يقضيها الطفل في السرير .

وليس معنى هذا الكلام ان بعض الأمهات يستطعن دائماً النجاح في اقناع الابن بالنوم في ميعاد محدد وان بعض الأمهات لا يستطعن اقناع الابن بالنوم في الميعاد نفسه ، لا . ليس هذا ما اقصد ، انما انا اعني ان الأم قد تنجح احياناً وقد لا تنجح في احيان اخرى . . لأن النوم هو احد المواقف التي نعامل من خلالها الطفل . ان اسلوب النجاح في اقناع الابن بالنوم يتوقف على اسلوب معاملتنا معه طوال الوقت في كافة المجالات . ولا احد يستطيع ان ينكر ان هناك بعض الأخطاء التافهة تحدث بين فترة واخرى،كأن نسمح له بالسهر مرة ولكن هذه الاخطاء الصغيرة ليس معناها اننا نفشل فشلاً مطلقاً في اسلوب تربيتنا للطفل .
ان كل مسائل التربية تتطلب من الأم والأب شيئاً من الصداقة والحب يشعر به الابن وتتطلب ايضاً شيئاً من الاصرار وعدم التردد في حسم الأمور، وذلك حتى يعرف الطفل انه ليست هناك ثغرة ينفذ منها الى حياة بلا نظام .

ها نحن قد تحدثنا عن النوم لكننا لم نتحدث بعد عن لحظة استيقاظ الطفل . ان لحظة استيقاظ الطفل وتعويده على النهوض في ميعاد محدد هي مشكلة ايضاً بالنسبة للامهات . ان الأم تريد ان يحصل جسد الطفل على حقه الكامل في

الراحة . وتريد هي ايضاً ان تحصل على حقها الكامل في الراحة . ولكن نحن جميعاً نعرف ان الطفل يجب ان يتدرب على ميعاد استيقاظ مبكر لأنه سيذهب الى المدرسة عندما يبلغ السادسة من عمره . ان بعض الأسر تتعجب احياناً من قدرة الطفل على الاستيقاظ بمفرده وفي ميعاد مبكر في السنتين الثالثة او الرابعة من عمره لأنه يصحو في السادسة صباحاً وينشر ضجيجه هنا وهناك . . وهنا تضطر الأسرة كلها الى القيام من النوم في مثل هذه الساعة . واحياناً اخرى نجد الأم تأمر الطفل بصوت حاسم ان ينام مرة اخرى لأن ميعاد الاستيقاظ لم يحن بعد . وعلينا ان نعرف ان الطفل يملك احساساً فطرياً للقيام المبكر من النوم . . وعلينا نحن الآباء والأمهات ان نشجع هذا الاحساس في الطفل لأنه يضمن للطفل التدريب الدائم على اليقظة المبكرة . ان الطفل في شهوره الأولى يصحو مبكراً لأنه يطلب الطعام . ويصحو بين الخامسة والسادسة صباحاً ولا يتخلف عن الاستيقاظ في هذا الميعاد في الشتاء او الصيف . . سواء كانت الحجرة مظلمة او مضيئة . وبعد ذلك بأربعة او خمسة شهور يتأخر ساعة او نصف ساعة عن هذا الميعاد . ولا يجب على الأم ان تقوم مسرعة من الفراش عند صدور أي همسة من الطفل ، لأنها بهذه الطريقة توقظ الطفل فعلاً ، وتخلق في الطفل احساساً بأن أمه في خدمته دائماً .
اما اذا ارادت الأم ان تضمن لنفسها راحتها في النوم فإنها يمكن ان تتغافل عن أي همسة تصدر عن الطفل فور ان يستيقظ لأنه يقضي الوقت في اللعب في اصابعه او لعبه . ولكن ليس معنى ذلك ان نتركه في السرير حتى العاشرة . لقد قلت من قبل ان الطفل يحتاج الى التدريب على الاستيقاظ المبكر ، ومعنى ذلك اننا يجب ان نحدد نحن ميعاداً للطفل يصحو فيه . واذا نجحنا نحن الآباء والأمهات في تدريب الطفل الأول على الاستيقاظ في ميعاد محدد ، فإن بقية اطفالنا سيستيقظون في الميعاد نفسه .

هنا قد يُطرح سؤال . .

- هل يتأثر الطفل بالضجيج الذي مصدره المنزل عندما ينام . مثل صوت التليفزيون او صوت الراديو او لعب اخوته الأكبر منه او أصوات الضيوف ؟

الاجابة عن هذا السؤال يمكن ان تكون هي :

ـ ان الطفل يستطيع ان يتعود النوم وسط اي ضجيج ويستطيع ايضاً ان يتعود على ان يصحو لو سار احد في الحجرة التي ينام فيها على اطراف الأصابع . ان الطفل يتدرب على ما تريده الأم او الأب . وليس معنى ذلك ان الطفل آلة يمكن ان نسيرها كما نريد . انما المسألة طبعاً تختلف من طفل الى آخر . فهناك طفل يتعود بسرعة على النوم وسط اي ضجيج معتدل . وهناك طفل آخر يقوم من نومه مذعوراً اذا وقع شيء ثقيل على الأرض مثلاً . ان حساسية الطفل للضجيج تختلف من طفل الى آخر . في الشهر الأول من حياته يكون غاية في الحساسية للأصوات التي حوله . والطفل في سنواته الأولى يمكننا ان ندربه على ان ينام وسط اي ظروف . . لأن هذا هو الأمر المعقول .

وفي نهاية هذا الحديث عن النوم . . هل تظن بعض الأمهات ان المسألة اصبحت بعد هذه المناقشة غاية في التعقيد والصعوبة ؟

لا ليست المسألة معقدة أو صعبة .

ولكنها ببساطة مسألة لا يمكن ان نخضعها لجدول محدد فنقول ان الطفل في عمر كذا ينام كذا ساعة . ان حاجة الطفل الى النوم تختلف كميتها من طفل الى آخر وهناك اختلاف في طبيعة كل طفل . وهناك ايضاً بعض الاضطرابات في النوم خصوصاً اثناء الشهر الأول والثاني من عمر الطفل . وهناك اختلاف ايضاً في وجهات نظر الأمهات بخصوص تنظيم عملية نوم الطفل . ان ذلك يعتمد بطبيعة الحال على ذكاء الأم وارادتها عندما تضع الطفل في السرير . . ومدى تقديرها لحالات الضيق التي تصيب الطفل وتمنعه من النوم . انني ارى ان على كل ام ان تعرف ان كل طفل يختلف عن الآخر . . ومع ذلك فيجب ان ندرب الطفل على النوم في مواعيد شبه محددة وان يستيقظ في ميعاد شبه محدد . وعلى أي أم ألا تشعر بأنها وقعت في خطأ جسيم لو نام الطفل اكثر من المعتاد او استيقظ اكثر من المعتاد . . على ان يكون ذلك في حدود المعقول .

وانا كطبيب كنت اقول لبعض الأمهات انه يجب ان ينام الطفل اكثر من اللازم . وكنت اخطىء في تقدير ذلك . ولعل السبب هو ان الأطباء دائماً ميالون

الى الحذر لأنني اشعر ان الأم دائماً حريصة على صحة الطفل . ولهذا فأنا انصح بأن نضع نظاماً غير صارم للنوم . بأن نجعل الطفل يدخل الى الفراش في ميعاد محدد ثم ينام بعد الغداء فترة قصيرة .

لكن اذا لاحظنا ان نوم الطفل اقل من اللازم كثيراً هنا يجب ان نراجع الطبيب لأن هناك بعض الاسباب التي تدفع الطفل الى عدم النوم او الى النوم الأكثر من اللازم ، منها مثلاً سوء معاملة الوالدين للطفل .

ان هدفي من مناقشة هذه المسألة «مسألة نوم الطفل» لم اقصد منه تعقيد الأمور بالنسبة للأمهات او الآباء . انما كان غرضي هو ان اوضح فقط . وذلك حتى نكتشف ايضاً هل هناك عوامل نفسية تدفع الطفل الى الهرب من الواقع الى النوم . او هناك عوامل نفسية تدفع الطفل الى العناد الشديد واليقظة الدائمة للدفاع عن نفسه ضد عدوان من حوله عليه .

انني اعتقد ان نظام النوم شبه المحدود هو الذي يجب ان ندرب عليه اطفالنا لأن هذا النظام هو الذي سيستمر معهم طوال الحياة . ويستحسن ان نعالج أي مشكلة في النوم من البداية واثناء الطفولة لأن ذلك يوفر علينا متاعب كثيرة في المستقبل .

اسنان الطفل والحلوى

من الأفضل طبعاً صيانة اسنان الطفلِ بأن نبعد عنه
الحلوى والسكاكر ما استطعنا الى ذلك سبيلاً

اكتشفت على مدى سنوات طويلة انا نحن الأطباء لا نستطيع اقناع امهات الأطفال بأن الحلوى والشوكولا والجاتو والكوكاكولا والمياه الغازية عموماً لها اثر ضار على اسنان الطفل لأنه حتى لو قامت الأم بابعاد هذه الأشياء الشهية جداً عن الطفل فإن اقارب الأسرة والضيوف يحاولون اكرام الطفل فيقدمون له مثل هذه الأشياء الشهية والتي اعتبرها انا ضارة بالطفل . واذكر انني كنت اعمل طبيب اطفال في أحد المستشفيات في مدينة « بتسبرج » وكان لي صديق وزميل هو الدكتور ملتون نكلسون وهو استاذ في طب الأسنان وكان يركز اهتمامه دائماً على الأبحاث العملية الوقائية . وعندما كنا نلتقي كنا نتحدث بلهجة مليئة بالأسى . . لأننا نفشل في اقناع الآباء والأمهات بأن يبعدوا عن الطفل ـ حماية لأسنانه ـ انواع الحلوى والشوكولا والجاتو والمياه الغازية . ولكن الذي يغفر لنا هذا الأسى عدم وعي الأمهات الكافي هو ان الأطفال ايضاً كشياطين صغيرة يعرفون كيف يقتنصون الحلوى من أي مكان ومن أي انسان عن طريق اللطف والظرف في المعاملة او حتى عن طريق الاغتصاب . . وان اي ام لا تستطيع ان تحبس الحلويات عن الطفل الى الأبد . . لأن الطفل يكبر ويخرج الى الشارع في صحبة والديه ويرى محلات الحلوى . . وهنا يبدأ الطفل بالدخول في مناورة شبه عسكرية للسيطرة على الهدف الذي قد يكون قطعة شوكولا او قطعة جاتو ويستعمل كل اسلحته . واسلحة الطفل عادة قوية وحاسمة . . لأنها تبدأ من الحب وتمر بالرجاء ثم بالتوسل ثم بالصراخ ثم بالتهديد بالخصام ثم تنتهي المسألة بأن ترضخ الأم وتشتري له ما يريد . والطفل يكبر ويذهب الى المدرسة ويرى اعلانات الحلوى في الطريق ويشاهد محلات الحلوى بنفسه . . وبما ان في جيبه

عادة قطعة صغيرة من النقود ، فإنه يتجه على الفور لشراء هذه الحلوى . والأم طبعاً لا تستطيع ان تسجن الحلوى في جزيرة نائية عن الدنيا كلها حتى لا يقربها الطفل . . وفي أي مناقشة بين الطفل وامه حول تلك المسألة تنتهي المناقشة دائماً بفشل الأم وانتصار الابن . . وكل ام تملك في داخلها رغبة عميقة في اسعاد ابنها لذلك لا تستطيع حتى ان تحدد كمية ما يأكله الطفل من الحلوى .

وكانت مناقشاتي مع د. نكلسون مليئة بالضيق من هذه المسألة وكنا نحاول ان نقنع الأمهات بأي طريقة او بأي وسيلة . . لأن الأبحاث العلمية في المعامل كانت تثبت لنا ان النشويات والسكريات هما الأسباب الأساسية في حدوث تسوس الأسنان وتآكلها لأن هناك حامضاً من الحوامض يخترق قلب كل «سنٍ» ويجوفها وهذا الحامض يولد من الميكروبات التي تعيش في النشويات والسكريات . والأبحاث العلمية تؤكد كل لحظة ان الأسنان عندما تمضغ وتقطع المواد الكربوهيدراتية يوماً بعد يوم وشهراً اثر شهر وعاماً بعد عام . . هذه العملية ينتج عنها في معظم الحالات تسوس الأسنان . ولذلك فإنني العن اليوم الذي ظهر فيه اختراع اسمه « المصاصة » لأن « المصاصة » عادة تأخذ قدراً كبيراً من الوقت تجعل كمية اللعاب مشبعة بالسكر . . ولذلك فهي تقف وراء الكثير من الأضرار التي تصيب الأسنان بالتآكل او التسويس . ثم هناك الجاتو وبقاياه التي تتسلل إلى الفجوات بين الأسنان . . وهي تنتج هذا الحامض الذي يأكل الأسنان ايضاً . كما ان الطفل عادة ما يتناول كميات مختلفة من الطعام بين الوجبات الأساسية ومعظمها غالباً تحتوي على مواد النشويات او السكريات وهي ايضاً تنتج هذا الحامض الذي يسبب تآكل الأسنان وتسوّسها . لكن علينا ان نعرف ان الخضراوات والفواكه واللحم يمكن ان تزيل آثار هذه الحلويات من الأسنان . . كما ان شرب اللبن والماء في نهاية تناول الافطار او الغذاء او العشاء يغسل الاسنان ايضاً من تلك الآثار . كما ان غسل الأسنان بالفرشاة والمعجون بعد نهاية الطعام وفي الصباح وقبل النوم يزيل تماماً آثار هذه الاحماض .والمدهش حقاً اننا جميعاً كآباء وامهات نهتم بكافة مجالات صحة الطفل لكن اسنانه تأتي دائماً في آخر قائمة من اهتمامنا . نحن نذهب بالطفل الى الطبيب فور ظهور أي اثر لأي مرض

ونقوم بكل الإجراءات لوقاية الطفل من أي مرض ونحاول ان نحفظ صحة الأبناء بأن نعطيهم كل المقويات . . ولكن عندما يتعلق الأمر بالأسنان فنحن نهمل هذه المسألة اهمالاً تاماً . والتفسير الذي اجده قوياً في خاطري لمسألة اهمال الأسنان يرجع عادة الى عدم اهتمام الآباء انفسهم بتلك المسألة ، كما اننا نحاول دائماً ان نربط بين التعبير عن الحب وبين الحلوى .

ولنتذكر معاً طفولتنا . ان والد الواحد منا كان يعبر عن اعجابه بأي تصرف جيد من تصرفاتنا بأن يعطينا نقوداً لنشتري بها شيكولاتة . . او يشتري هو بنفسه اي نوع من الحلوى ويقدمه لنا .والأمهات غالباً ما تنظر الى طبق الطفل بعد تناول الغداء فإن وجدته قد اكل قدرا لا بأس به من الطعام فهي ايضاً تكافىء الطفل بأن تعطيه اي صنف من الحلويات . وكثيراً ما نسمع من الأمهات او الآباء الوعود للأبناء بأن الابن اذا تصرف بشكل مهذب فسوف يحصل على اكبر قدر من الشوكولا . وعندما يكشف الطبيب على الطفل . . فإن الطفل قد يبكي وتحاول امه ان تحصل على سكوته ورضوخه لعملية الفحص بأن تعده بشراء الحلوى والشوكولا . وعندما نخرج مع اطفالنا للنزهة فإن بعض الآباء يعتبرون ان شرب زجاجة من المياه الغازية هو نوع من الترفيه عن الطفل . . وحتى بعض الأطباء يرتكبون هذا الخطأ عندما يحتفظون بعلبة من « الحلوى » او « الشوكولا » فإذا يتصرف الطفل بشكل طيب في العيادة فهم يقدمون له قطعة من «الحلوى» رغم ان الطبيب يجب ان يكون القدوة لأهل الطفل. وفي رأيي ان ارتباط الحلوى بالحب مسألة تتسرب الينا خلال الأجيال . وحتى عندما نكبر نجد ان احدى الهدايا التي يقدمها الحبيب الى محبوبته هي علبة من الحلوى . وهناك بعض حالات لنساء يعانين من الوحدة قد تشتري الواحدة منهن لنفسها قطعة شوكولا كبيرة، وتأكلها كلها . وكلمات الغزل نفسها تستعمل معنى الحلويات كأن يقول الرجل لحبيبته « انت لذيذة كالحلوى » . وعندما نستقبل اول اطفالنا فإننا نرحب جداً به ويكون الترحيب على شكل تقديم حلوى الضيوف الذين يأتون لتهنئتنا بالمولود الجديد . وعندما يكبر طفلنا قليلاً فإن اول ما يتبادر الى افكارنا هو ان نشتري حلوى لهذا الطفل . . رغم كل ما نسمعه من كلمات

كل ما نسمعه من تحذيرات الأطباء بضرورة حماية اسنان الأطفال . ان كلمات التحذير لا تلامس ابداً احساسنا ولا تقنع ابداً اطفالنا ولا تقنعنا نحن ايضاً . ولهذا فأنا اعتقد ان موجة التحذيرات التي يوجهها الأطباء من اضرار الحلوى تشبه بالضبط عملية اصطياد فيل ببندقية رش صغيرة . ورغم ذلك فأنا اكرر النداء للأمهات وللآباء بأننا نستطيع ان نستجيب لرغبة الطفل عندما يرغب في تناول اي قطعة من الحلوى بشرط ان يغسل اسنانه فوراً بالفرشاة والمعجون وبشرط ان تكون الفرشاة لينة حتى لا تسبب التهاب اللثة . اقول ذلك حتى لا تترك اسنان الأطفال فريسة سهلة للميكروبات التي تولد الحامض الذي يسوف الأسنان . كما ان الأم تستطيع ان تقدم لطفلها اصناف الحلوى بشرط ان يغسل اسنانه جيداً . وارجو ان تخفف كل ام من نسبة السكر في انواع الحلوى التي تصنعها بالمنزل وان تبتعد تماماً عن اقتناء أي من اصناف الشوكولا بشكل دائم في المنزل . ويجب ايضاً ألا نحاول مساومة الطفل على الهدوء وعدم اثارة الشغب بأن نعده باحضار الحلوى له . لأن ذلك سيعلم الطفل فن « ابتزاز » الحلوى منا ساعة يشاء . كما اننا يجب ان نساعد الطفل على عدم تناول أي شيء بين وجبات الطعام او حتى نقلل من تناوله لأي شيء لأن هذا يقلل من شهية الطفل عند ميعاد الغداء مثلاً ويضر الأسنان ايضاً . واذا كان لا مفر من الاستجابة لطلب الطفل للحلوى فعلينا ان نعطيه الفواكه الطازجة وكوباً من اللبن .

وهنا قد تسأل الأمهات او يسأل الآباء :

اليس هناك علاج عملي يتيح لنا ان نعطي الأطفال ما نشاء من الحلويات ونكون في الوقت نفسه بجانب الأمان بالنسبة لعدم تسوس اسنان الطفل ؟

الاجابة عن ذلك . . إنه للأسف لم نتوصل بعد الى علاج لمثل هذه المسألة . اللهم الا تنظيف الاسنان بالمعجون . ولم يتوصل العلم إلا لقدر ضئيل من المعلومات لا تتيح لنا ان نعرف بالضبط كيف نقاوم تسوس الأسنان . . لكن هناك دليل بسيط على ان وجود كمية صغيرة من فلوريد الجير (الكلس) في الماء الذي تشربه الأم وهي حامل او يشربه الطفل الصغير . : فإن ذلك يساعد بصورة

عملية على عدم تسوس الأسنان . . وذلك لأن فلوريد الجير يقوي اسنان الطفل ولهذا فإنني اوجه النصيحة الى كل الأمهات والآباء ان يقدموا لأبنائهم الماء الذي توجد فيه نسبة من فلوريد الجير . واننا نوجه الشكر الى كل الهيئات الحكومية التي تضيف فلوريد الجير الى مياه الشرب . وقد اجريت الكثير من التجارب التي اثبتت جدوى اضافة فلوريد الجير الى مياه الشرب وبطبيعة الحال فإن الأم التي لم تكن تشرب الماء بفلوريد الجير الممزوج تستطيع ان تذهب الى طبيب الاسنان ليقوم بعملية طلاء أسنان الأطفال بفلوريد الجير وعلينا ان نطمئن الأمهات بأن فلوريد الجير يدخل في تكوين معظم معاجين الأسنان . وعلى كل الآباء وكل الأمهات ان يدربوا اطفالهم على عادة تنظيف الأسنان بالفرشاة والمعجون بعد تناول الطعام . . في الصباح وفي المساء . ولا بد لنا ان نعرف الحقيقة التي تؤكد ان هناك مائة وعشرين دقيقة هي التي تحمل الخطر بالنسبة لأسنان الطفل وهي المئة والعشرون دقيقة التي تمر بعد تناول الطفل للحلوى المصنوعة من النشا او السكر . . لذلك يجب غسل الأسنان وتنظيفها فور تناول الحلوى .

ترتيب الطفل في الاسرة
الأكبر . . الأوسط . . الأصغر

ان ترتيب الطفل في الأسرة مسألة هامة جداً لكن الأكثر اهمية هو ان تكون روح الأسرة نفسها مليئة بالحب والتعاطف والتفاهم .

من خلال قراءتي للابحاث العلمية في مجالات علم النفس وعلم الاجتماع للطب العقلي حاولت ان أرى ما توصل اليه العلماء من حقائق عن آثار ترتيب الطفل في الأسرة على شخصيته وسلوكه واندهشت ،ذلك انني لم اعثر إلا على قدر ضئيل جداً من الاحصاءات التي تدل على ان الطفل الأكبر يتجه اتجاهاً معيناً يختلف عن اتجاه اخيه الأصغر . إن كافة الأبحاث العلمية التي تتناول هذه الموضوعات تظهر عدم وجود فروقات كبيرة بين الابن الأكبر والأوسط والأصغر في مجالات الشخصية او السلوك او المشكلات التي يمر بها الطفل . هذه الحقيقة قد لا يصدقها الآباء والأمهات أو يقتنعون بها تماماً لأن عدداً كبيراً من الأمهات والآباء يؤمنون بأن هناك فروقات بين شخصية الأطفال وسلوكهم بحسب ترتيبهم فكل منا ينظر الى نفسه وترتيبه في اسرته ويحاول ان يعثر على اثر لهذا الترتيب في شخصيته وسلوكه . ولنبحث الآن معاً هذه المسألة .

ان الاختلاف بين شخصيات الأطفال وسلوكهم مسألة بديهيةوطبيعية ،ونمو الطفل يتوقف دائماً على نوعه ذكراً كان أو أنثى وعلى حجمه اذا كان ضخم الجثة اوصغيرهانحيل الجسد ممتلئاً بالنشاط او يميل الى الهدوء . والمعلومات التي توصل اليها العلماء تؤكد انه اذا جمعنا الأنواع المختلفة من الأبناء الأوائل في الأسرة وقارناهم بالأبناء المتوسطين في تلك الأسر فإننا نتوصل الى ان الاختلافات بين كل الأطفال هي اختلافات فردية ولا تخضع لمسألة ترتيب الطفل في الأسرة . ها هي اعوام كثيرة قد انقضت على عملي كمشرف على احدى دور الحضانة « بجامعة

سارا لورانس » وكنا نناقش انحراف السلوك عند عدد من الاطفال عندما ولد لكل منهم اخ اواخت .لقد اكتشفنا ان عدداً قليلاً جداً من هؤلاء الأطفال انقلبوا من شخصيات متحمسة تطفح بالود والمرح الى شخصيات يغلب عليها طابع الحزن والاكتئاب ،وكنا نتدارس نحن اعضاء هيئة الاشراف على هذه الحضانة ونبحث عن الوسائل التي تجعلنا نتعاطف ونواجه مشكلة الطفل الذي يشعر ان مكانته في الأسرة قد اهتزت لأن وافداً جديداً قد جاء وانزله عن العرش . وقام احد افراد هيئة الاشراف بمراجعة كل الملفات الخاصة بالاطفال الأوائل الموجودين بهذه الحضانة ليرى الزيادة التي طرأت على عددهم .واندهشنا عندما اكتشفنا الحقيقة وهي ان الطفل الذي ظهر عليه الانحراف والحزن عند مجيء اخيه او اخته يقابله طفل آخر رحب تمام الترحيب بمجيء الأخ والأخت وسارت حياتهم مرحة ودودة كما كانت من ذي قبل . ان بعض الأطفال يتقبل ميلاد اخيه القادم بطريقة ناجحة وذلك لأنهم يشعرون باحساس خاص بالأمان والاطمئنان لأن ترتيبهم في الأسرة هو الطفل الأول والأكبر .وبعض الاطفال قد لا يصيبه الألم النفسي عندما يولد أخوه الثالث لأنه عندما احس بالغيرة من ميلاد اخيه الثاني لم تأت هذه الغيرة بأي نتيجة وظل والداه يعاملانه بالمقدار نفسه من الحب والود . وانتصر هو على الخوف واستطاع ان يتكيف مع وضعه كطفل اول كبير يتوقع منه الكل ان يتصرف بما يقتضيه موقف الطفل الأول .وعدد كبير من الأمهات يندهشن لمقدار الحب الذي يظهره الطفل الأول نحو اخيه الطفل الثالث رغم ان هذا الطفل الأول قد عانى من متاعب الغيرة الشديدة من اخيه الطفل الثاني . وها هو الآن يظهر مشاعر الحب نحو اخيه الطفل الثالث وزالت عنه ايضاً احاسيس المنافسة المليئة بالغيرة .

ان هذا السلوك هو دليل واضح امامنا على ان الغيرة كمرحلة ممكن ان تنتهي ويتخلص منها الطفل بل ومن الممكن ان تكون تجربة مفيدة يتعلم منها الطفل انها تعطيه الاحساس بالقوة في أي منافسة من أي نوع في المستقبل . ان ترتيب الطفل في الأسرة مسألة هامة لكن الأكثر اهمية هو درجة ترابط الأسرة وروح الحب التي تسيطر عليها . ان الأسرة عندما تتناول مسائل الحياة ببساطة ويعطي فيها الوالدان

لكل طفل ما يستحقه من الحب ويقبل الوالدان من كل طفل عيوبه وحسناته بأسلوب طبيعي غير مبالغ فيه ، فمن المؤكد ان الطفل في هذه الأسرة سيشعر بالسعادة كان ترتيبه فيها . فيها . لكن معظم الآباء ينظرون الى الابناء بأسلوب يبحث عن الخطأ ليقومه ولا يقبل الخطأ ببساطة ليناقشه مع الابن ويقنعه ، ان بعض الآباء يميلون الى التوبيخ الذي يوجهونه الى ابنائهم اكثر مما يميلون الى تشجيع الصفات الحسنة في الأبناء ويحاولون ان يعقدوا المقارنة الدائمة بين الأطفال الأخوة ، ولهذا يتجه الأطفال للغيرة بعضهم من بعض والى التنافس وتشتد فيهم احاسيس المقارنة وتشتد بينهم ايضاً المعارك التي يحاول فيها الأكبر ان يهزم الأصغر ويحاول الأصغر ان يسترضي الأب او الأم ليحصل على قدر ممتاز من الحنان وقد يحاول الثالث ان يكون عملياً فينجح في اقامة علاقات اجتماعية ناجحة ويبتعد تماماً عن الصراع والمنافسة والغيرة داخل نطاق الأسرة .

وهناك بعض الأسر التي تفرض على ابنائها منذ الميلاد الهدوء والاستكانة . بينها تجيد بعض الأسر التعامل مع الأطفال الذين يتسمون بالحيوية والنشاط والانطلاق . ان بعض الأسر تفضل انجاب البنين وبعضها الآخر يفضل انجاب البنات وكل ذلك ينعكس على شخصية الطفل وترتيبه كطفل اول او ثان او ثالث وهناك وجهة نظر اخرى قد تزعج المتحمسين لتحديد النسل هو انه كلما كانت الأسرة كبيرة العدد كلما كانت الحالة النفسية للطفل مستقرة لا تتعرض للاهتزاز لمجيء مولود جديد لأن اهتمام الآباء وحبهم عندما يتوزع على عدد كبير من الأبناء فإن الفرصة تكون طبيعية حتى ينمو كل واحد منهم نمواً طبيعياً . لكن هناك بعض الآباء الذين يقعون تحت ضغوط تحديد النسل فإنهم يركزون كل حبهم وكل آمالهم وكل مخاوفهم على الطفل الواحد او الطفلة الواحدة او الاثنين اللذين ينجبانهما ان الله خلقنا بطبيعة تمنحنا القدرة على ان ننظر الى الطفل الأول من ابنائنا على انه التعبير الحي عن انفسنا وايضاً ننظر الى بقية الأبناء على أساس انهم اجزاء منا . نحن لا نصدق بحال ان كل ابن من ابنائنا كائن منفصل مستقل عنا ولكن علينا نحن ان نعلم انفسنا بأن الأبن بالفعل كائن مستقل عنا ويجب ان نوفر للابن الامكانيات التي تجعله ينمو بشخصية مستقلة وان يصنع حياته وفق ما يريد

ما دام ذلك يسعده . ان كثيراً من الآباء يقولون هذا الكلام في اخلاص ويحاولون تنفيذه بالفعل لكن الطبيعة الانسانية تجرفنا . ان هذه الطبيعة ليس من السهل اقناعها باتباع ذلك الطريق الواضح الذي يمكن ان تنمو فيه شخصية الطفل، ونحن احياناً لا ننتظر حتى يولد طفل بل نفكر في مستقبله الذي نريده له حتى وهو جنين . لقد اندهشت عندما عرفت ان بعض النساء الحوامل اللاتي كن تحت العلاج النفسي اثناء الحمل ، كانت الواحدة منهن من خلال تحليل احلام يقظتها تتخيل مستقبلاً واضحاً بل وشكلاً واضحاً لهذا الجنين الذي لم يولد بعد ولم تعرف بعد هل هوصبي ام بنت .ان طبيعتنا الانسانية تجعلنا نرغب ان يكون طفلنا شبيهاً بنا تماماً وتجعلنا نحلم بأن يتفوق علينا الابن من ناحية الجمال وتفرض علينا طبيعتنا الانسانية ان نحلم بأن نغرس في أبنائنا اخلاقنا وهواياتنا والأعمال التي نحبها وان نجعلهم يعثرون على الاحاسيس السعيدة نفسها التي نجدها نحن قادرة على اسعادنا . ان طبيعتنا الانسانية تفرض علينا ان نتمنى لأبنائنا مستقبلاً وعملاً كالذي نتمناه لأنفسنا . وهذه الطبيعة الانسانية تفرض علينا الخوف لئلا ينشأ الطفل ضعيف الصحة او تعيساً في أي مجال من المجالات التي كانت سبباً في شقائنا وتعاستنا عندما كنا أطفالاً . توجد فينا هذه المسائل بحكم الطبيعة الانسانية وهي لا تؤذي الطفل ولكن عندما تتحول مسألة تحديد مستقبل الطفل الى احساس « قهري » عند الأب بحيث يتدخل في هذا المستقبل ويفرض كل آرائه ،كأن يفرض على الابن مثلاً ان يلتحق بالكلية نفسها التي تخرج فيها الأب او ان يعمل في العمل نفسه الذي يعمل فيه الأب فإن هذا قد يسيء الى الابن فعلاً ، ذلك ان قدرات الأبناء تختلف في بعض الأحيان عن قدرات الآباء . والأم التي ترهق ابنتها بالتدريب العنيف على الرقص او العزف الموسيقي او حتى السباحة لتحقق طموح الأم ، هذه الأبنة تعيش الشقاء الكامل والتعاسة الكاملة . ولهذا فأنا اطالب الآباء والأمهات ان يخففوا من الضغوط على الأبناء ،ذلك ان الابن كائن مستقل لا بد ان تكون له السيطرة الكاملة على مستقبله . هذه الحقيقة يجب ان تكون واضحة كل الوضوح في ذهن الآباء والأمهات وألا ينسوها ابداً والا

يضغطوا على الأبناء ابداً . لأن الابن عندما يختار مستقبله بنفسه سيكـون محباً للعمل الذي يختاره ويكون مفيداً لنفسه وللآخرين . لعل البعض يظن ان حديثي حتى الآن يدور حول الطفل الأول فقط الذي يحب له الآباء دائماً ان يكون صورة عنهم ويحلمون ان يكون الخلف الصالح ،ولكن الحقيقة اني انحدث عن أي ابن يدور حوله اهتمام الأسرة . ان بعض الآباء يعاملون ابنهم الأول ببساطة ويمتنعون عن التدخل في مستقبله . وبعض الآباء يركزون كل الاهتمام حول الابن الثاني او الثالث . ويحدث ذلك عندما تكون الأسرة تتمنى ان يكون المولود بنتاً بعد ان انجبت صبيين او ثلاثة ولهذا تصبح هذه البنت هي مـركز الاهتمـام الكامـل ويعاملها الأب والأم على انها ابنة وحيدة .

وطبعاً يستفيد الآباء من خبرة تربية الابن الأول . لذلك فعندما يأتي الابن الثاني فإن الأسرة ترتاح كثيراً في تـربية طفلهـا الثاني. لأن تـربية الابن الأول تعطي الآباء والأمهات والآباء خبرة عن فن التعامل مع الأطفال. ويندهش عدد كبير من الآباء والأمهات لهذه المسألة. ان كلمات الدهشـة نجدهـا على افـواه الآباء والأمهات عندما يقولون « ان تربية الطفل الثاني بسيطة وسهلة وليس فيها أي هموم ونحن نتصرف معه بسهولة ولا نحتار ولا نرتبك ونجد انفسنا نعرف التصرف المناسب للظرف المناسب اننا لا نتردد مثلاً في عقابه عندما يخطيء خطأ يستحق العقاب وهذا يجعل علاقتنا به صافية ونقية ويخيل الينا احياناً اننا لا نعطي هذا الابن الثاني الاهتمام الكامل او اننا نهمله . ونلاحظ انه يعرف كيف يملأ وقته عندما نهمله فعلاً . وهو يجيد الحصول على صداقة الآخـرين حتى الناس الذين لا يعرفونه وهو يلقي نفسه في احضان أي انسان يبتسم له . انه محبوب بينما ابننا الأول ليس كذلك انه ينفر بسرعة من الناس ويطلب كل اهتمامنا». وطبعاً هذا الوصف لا ينطبق على كل الأطفال الذين يأتون في الترتيب الثاني داخل الأسرة . ذلك ان حديث الآباء والأمهات يدور عن هؤلاء. والترتيب بهذه الصورة انما يعكس جانباً واحداً من شخصية الابن الثاني وهو الراحة التي تحصل عليها الأسرة اثناء تربية الابن الثاني مضافا اليها عدم القلق الشديد على الابن وعدم الجهل الشديد باسلوب التربية او العناية بالطفل . فقد استفادت الأسرة من انجاب

الطفل الأول وتربيته . والطفل الثاني غالباً ما يكون ذا شخصية لا تعتمد اعتماداً كلياً على الأب والأم . وهذا الطفل يقتحم المستقبل في اغلب الأحوال دون قلق او توتر . كما ان هذا الابن الثاني للاسرة يتعلم كيف يتعامل مع الأطفال الآخرين بسهولة لأنه يولد وله اخ وهذا الموقف يختلف طبعاً عن موقف الابن الأول الذي تعود لفترة ما على ان يكون الطفل الوحيد الذي يتركز عليه اهتمام الأسرة .
ويعرف الابن الثاني كيف يلعب مع الأطفال الآخرين ويحصل على سعادة بالغة في اللعب مع غيره من الأطفال بينما يعاني الطفل الأول للأسرة من المغالاة في رعايته من جانب والديه، ذلك أنه لم تكن تتاح له فرصة كاملة لكي يلعب مع غيره من الأطفال ولذلك فهو يعاني من الاحساس بالغربة عن بقية الأطفال ويشعر ان الأطفال الصغار ليسوا مثله . انهم ليسوا على درجة من الذكاء مثل التي يلمسها في صحبة الكبار كما انهم ليسوا مؤدبين كما هو الحال مع الكبار الذين يحبونه ويداعبونه ويلعبون معه . ويجيد الابن الثاني في معظم الأسر الدفاع عن نفسه ضد اي عدوان يتعرض له من جانب اي طفل آخر . ان المسألة عنده لا تحتمل أي تردد ، فعندما يبلغ الشهر التاسع او يبلغ العام قد يخاف من اخيه الأكبر لكن عندما يبلغ عامه الثاني ففي الغالب انه سيتحول الى وحش صغير يجيد افتراس من يعتدي عليه كما انه سيدافع عن ممتلكاته سواء كانت العاباً او ملابس. ومن المدهش ان الطفل الأصغر قد يستطيع ان يفرض سلطانه وسيطرته على طفل آخر اكبر منه في السن وأقوى. وقد يكون الدافع الى ذلك ان الطفل الأصغر يكتسب قدرة على الدخول في المعارك ويكون اكثر شجاعة من شقيقه الأكبر . لأن الآباء ينسون في اغلب الأحوال ان يزرعوا فيه ما زرعوه في شقيقه الأكبر من احساس بالذنب لو ضرب طفلاً اصغر منه . ولا يجب ان نتحول الى موقف المعجب غاية الاعجاب بالطفل الثاني ، فالحياة امامه ليست سهلة ، انه يخوض صراعاً ضارياً من اجل الحصول على المساواة مع اخيه الأكبر . خصوصاً عندما لا يكون في الأسرة سوى طفلين من نوع واحد : اثنين من الذكور او اثنين من الاناث . ان الطفل يناضل من اجل المساواة . المساواة في الحصول على ملابس من النوع نفسه الذي يحصل عليه أخوه الأكبر . ويناضل حتى تسمح له الأسرة بالسهر مثلما

تسمح الأسرة للأخ الأكبر . ويحاول ان يجذب اهتمام اصدقاء شقيقه الأكبر وان يعقد معهم صداقات حتى ولو كان ذلك على حساب اهماله لاصدقائه . ويخلق هذا الصراع في اعماق الطفل الأصغر قدراً من الشقاء والتعاسة واحياناً اخرى يظل مرحاً وسعيداً بهذا الصراع. ولكن هذا الصراع قد ينعكس على الطفل الأصغر ليصبح احساساً بالتوتر الدائم. فيميل الى ان يكون رقيقاً. وينعكس هذا الصراع على الشقيق الأكبر فيغتاظ من اخيه لأنه يرى كيف ان أخاه الأصغر قد تحول الى انسان له صفات القائد القوي بين اصدقائه . رغم اني قابلت حالتين لابن مرتبته هي الثانية في الأسرة كان يتفنن في قيادة شقيقه الأكبر او أي طفل آخر الى سلسلة من المتاعب . وعلينا ان نعرف ان المنافسة بين البنات تكون ذات تأثير عميق . فقد تندفع الأخت الصغرى الى الزواج فور ان تفعل اختها الكبرى ذلك . هذا طبعاً عندما تصبح الاثنتان في سن الزواج . والمنافسة ايضاً في الابن الأصغر قد تجعله يختار العمل نفسه الذي اختاره شقيقه الأكبر ، يحدث ذلك رغم ان هوايات الاثنين مختلفة تماماً . ان النتائج التي تعطيها هذه المنافسة بين الأخوة قد تكون حسنة وقد تكون غاية في السوء لأنها تعتمد اساساً على نوع المنافسة هل هي غيرة عمياء ام ان وراءها عقلاً مدبراً يعرف كيف يوازن بين الأمور .

ويعرف الطفل الثاني في اغلب الأحوال كيف يتكيف مع اخيه الأكبر واسرته ، ويعرف ايضاً كيف يتكيف مع الابن الثالث الذي يأتي بعده . وفور ان يجيء الطفل الثالث قد يقع الطفل الثاني في متاعب نفسية يغلب عليها طابع الخوف لأنه لم يتمكن بعد من وضع نهاية للصراع مع اخيه الأكبر. فهو لم يبلغ مرحلة المساواة التامة معه ويشعر ان هناك « منافساً » جديداً قد ظهر على المسرح . هنا قد يتوقف الابن الثاني عن المنافسة مع اخيه الأكبر . ويستسلم للأمر الواقع ويستكين للهدوء ويفقد قدراً من الحيوية . ويفقد مقدار الشجاعة اللازمة ويحاول ان يعتمد على حماية الكبار. وقد يصاب بالنكوص فيقلد الأطفال الصغار في الكلام او مص الأصابع او التبول في الفراش لكن كل هذه المظاهر ليست خطيرة، إنها ردّ فعل على ميلاد المنافس الجديد. واذا استمرت هذه الظواهر لمدة اطول من الحد المعقول فعلينا ان نعرف انه في حاجة الى المزيد من

صداقة الوالدين او ان يذهب به الأهل الى عيادة الاخصائي النفسي . ويعود السبب في حدوث هذه الأزمة النفسية للطفل الى احساسه بالمسافة بينه وبين الوصول الى مستوى اخيه الأكبر كما انه من ناحية اخرى يعاني من ان هذا الطفل الثالث القادم قد يكون اكثر جمالاً في نظر الأسرة . يحدث ذلك ونستطيع ان نحس به في الأسر التي ولد لها بنتان وجاء الحلم لهما الى الواقع بميلاد طفل ذكر . فتقام الافراح على الأقل نفسياً ولا يمكن ان يكتم الابوان مشاعرهما في مثل هذه الحالة .

ولننظر الآن الى الطفل الأصغر « آخر العنقود » كما يحلو للبعض ان يسموه . . ان الحالة تختلف هنا .ولننظر الى قصة سيدنا يوسف الذي احبه أبوه وأثار هذا الحب عليه حقد سائر اخوته . واستطاع يوسف في النهاية ان ينجح في حياته وهي دليل حي على ان الانسانية خلال تاريخها تهتم بمستقبل الطفل الأصغر . ان الواقع يؤكد ان معظم الأطفال الذين يولدون كآخر العنقود ، في كل اسرة ليست لهم صفات بارزة بشأن ترتيبهم في الأسرة . لكن هناك فئة قليلة منهم يتملكهم اتجاهان مختلفان : الاتجاه الأول هو النضال من اجل الوصول الى مستوى الشقيق الأكبر والتفوق عليه . والاتجاه الثاني هو الاستمتاع بمكانة الطفل الأصغر .

وكلما تقدم العمر بالآباء والأمهات وكثرة انجاب الأطفال فإن مسائل التربية تصبح عادية وتقليدية ويتعلم الآباء والأمهات ان الطفل يستطيع ان يشق طريقه في الحياة عن طريق تقليد ابويه وانه لا لزوم للتدخل في كل صغيرة وكبيرة في شؤون الطفل . ان التعب يصيب قلب الأبوين في مسائل تربية الأبناء لذلك فإن الحبل يترك على الغارب قليلاً . وعندما يولد لهذه الأسرة طفل جديد فإن الأب والأم يحاولان الاستمتاع بطفولته اكبر فترة ممكنة . وكل ذلك يجعل الأطفال الصغار لا يخضعون للرقابة الشديدة من الآباء والأمهات كما كان يحدث مع اخوته . وكثيراً ما يغض الآباء الطرف عن بعض اخطاء الابن الأصغر . وينال هذا من التدليل ما لم ينله بقية اخوته ! وهكذا نجد ان الطفل الأصغر يتصف احياناً بالانانية ويغرق في تيار الاعتماد على الآخرين ويعاند للحصول على ما يريد وطبعاً يثير ذلك غيرة اخوته الكبار وهي غيرة لا يعيرها الطفل الأصغر اهتماماً .

ويصر تماماً على الاستئثار بكل اهتمام ، هذا النوع من الأطفال قد يقع في فخ الكسل وعدم القدرة على تحمل أية مسؤولية ، ذاتية كانت ام عامة . ومن المضحك اننا نجد الأبحاث العلمية تقول ان عدداً من المرضى المصابين بالشلل او الروماتزم الذي يشل حركة بعض الأطراف ، لا يساعدون حتى انفسهم في العلاج الطبيعي الذي يساعد على الانتصار على المرض ، والسبب انهم كانوا اصغر الأطفال في اسرهم . لكن لا نستطيع ان نطلق كل هذه التعميمات على كل طفل كان آخر من ولد في اسرته . ان الطفل احياناً عندما يتمتع بوالدين يقدران المسؤولية ويحيطان الأبناء بالحب فإن حبهم للطفل الأصغر قد يصبح دافعاً الى الثقة بالنفس ويعطيه القدرة لتفجير كل طاقاته الابداعية . كما ان الطفل قد يندفع الى المنافسة مع اخوته ليكوّن لنفسه مكاناً ناجحاً في المجتمع . وهكذا نجد ان الثقة بالنفس والقدرة على الدخول في صراع المنافسة يخلقان من الانسان طاقة ناجحة وبناءة في كافة ميادين الحياة .

المكانة الخاصة التي يحتلها الطفل البكر

الطفل البكر هو شخصيتنا الجديدة التي نتمناها لأنفسنا !!

يولد الطفل البكر بين الارتباك والفرحة والاندهاش واحساس الأب بأنه اصبح مسؤولاً واحساس الأم انها تمتلك الدليل الحي على خصوبتها كامرأة . وانا اعرف من خلال لقاءاتي مع آلاف الأمهات والآباء هذا المزيج الغريب من الدهشة والفرح والجهل ايضاً والرغبة في القيام بتحمل المسؤولية كاملة ولهذا فهناك حسنات وسيئات في اسلوب معاملتنا لهذا الطفل وهناك حسنات وسيئات لوضعه كطفل اول في اسرة جديدة.

ولنناقش الآن الصفات الأساسية في شخصية هذا الطفل والتي يمكن ان نلخصها في احساس شديد بالذنب من الآباء والأمهات لأن هذا الطفل كائن عزيز للغاية ومزعج للغاية ولا نعرف كيف نعامله .واليكم هذا المزيج من الاعترافات التي سمعتها من الآباء والأمهات مئات المرات .

انا نحس ان السعادة تكاد تكون بعيدة عن طفلنا . إنه خجول عندما يلعب مع اطفال آخرين . ويحس بالخوف من الأطفال الأقوياء رغم انه يستطيع ان يقود جماعة من الأطفال اصغر منه سناً . اما مع اصدقائه فهو يثير المتاعب بل يجعلهم يقفون منه موقف العداء لأنه اناني جداً ، لا يحب ان يعبث احد بالعابه ويحب ان يقود اللعب مع جماعة من اصدقائه على مزاجه الخاص. ولذلك فإن أصدقاءه يبتعدون عنه بعد ان تدور بينه وبينهم مناقشات صاخبة وهذا يجرح احساسه جداً . ويدخل غاضباً الى المنزل ليتهم اصدقاءه بأنهم مخطئون في حقه .

ويحاول طبعاً ان يجذب اهتمام الكبار ، وان تجاهله هؤلاء الكبار فهو يتصرف معهم غاضباً وبطريقة تخلو من ادب . أما عن دراسته فمستواه متوسط لكن المشرفة الاجتماعية تكتب في تقريرها الشهري عنه انه يسافر كثيراً الى عالم « احلام اليقظة » . وتقول المدرسة ان طاقته كبيرة وذكاءه رائع لكنه لا يستغل قدراته او طاقاته كما ينبغي . وهو في المنزل يظهر غيرته العارمة من اخته الصغرى ، الأصغر منه مباشرة وفي بداية ميلادها كان يحاول ايذاءها ولا يمكن ان يسمح لها ان تلعب بلعبه او تأخذ أي شيء يخصه . « إنني اعرف انني لم اكن املك الثقة في نفسي عندما ولد لي هذا الطفل . كنت لا اعرف كيف يمكن ان اربي طفلاً او كيف ادير حياة كائن صغير لا يعرف الكلام . وعندما كبر اصبحت اشعر انني افهمه جيداً . افهمه اكثر من اخوته . واحس أنه يشبهني ويشبه اباه في وقت واحد . انني كلما اراه كبيراً الآن اشعر بالرغبة في الضحك عندما أذكره صغيراً للغاية وانني كنت انا وأبوه نحتار عندما نلفه في اللفة وكنت اشعر بالحاجة الى الاحساس بالامان والاطمئنان . وكنا نحاول ان نشتري الكتب التي تتحدث عن تربية الأطفال . وكنا نتحدث الى الطبيب تلفونياً لنسأله اسئلة قد تبدو تافهة لكنها كانت تجعلنا نقع في حيرة كبيرة . وفي الأشهر الثلاثة الأولى لميلاده كان كثير الصراخ ولم نكن نعرف ان ذلك سببه المغص العادي الذي يصيب الطفل في بداية تناوله للطعام ، ولم يكن الطفل يحب ان يمسكه احد او يحتضنه احد . وفي عامه الثاني كان شرساً وأصبح يرفض الطعام وحاولت ان الح عليه ان يأكل رغم انني اعرف ان ذلك شيء سيزيد من عناده . ولم يكن يسمع الكلام ابداً . وعندما كنت اناقشه بالتعقل والحكمة والهدوء كان لا يستجيب . وكان الموقف احياناً يحتم علي ان اصرخ وافقد اعصابي وكنت اضربه ، لكن الضرب ايضاً لم يأت بأي نتيجة اللهم الا الاحساس بالذنب لأني تسرعت وضربته وهو طفل صغير وأحاسب نفسي كل صباح واقطع الوعود على نفسي بأنني لن اضربه وان اكون اكثر هدوءاً في معاملته ، لكن ذكاءه او خبثه يجعله يستنفد كل طاقات الصبر في قلبي فأعلن غضبي منه مرة اخرى .

هذا هو حال طفلي الأول . اما عن طفلتي الثانية وطفلي الثالث فلم اجد

اي مشكلة في معاملتها،كان كل شيء بالنسبة لي واضحاً . اعرف مسؤوليتي نحوهما واعرف ايضاً كيف اعاقب احدهما عندما يخطىء . ولكن خبرتي مع تربية طفلتي الثانية وطفلي الثالث لا تعطيني قدرة على السيطرة التامة على طفلي الأول » .

وهكذا نرى في تلك السطور السابقة المشاعر والاحاسيس التي ترسم صورة لأعماق الامهات والآباء بخصوص تربية الطفل الأول . انها صورة مليئة بالتوتر بين الأم وابنها او بين الأب وابنه . والموقف يختلف طبعاً من اسرة لأخرى من حيث مقدار التوتر اوالضيق .فهناك اسر لا يوجد فيها أي توتر بين الأم والابن او بين الطفل الأول . او بين الأم والأب من ناحية وبقية الأبناء كلهم ، او قد يوجد هذا التوتر بين الأم والأب وبين معظم الأبناء . لكني اظن ان اكثر حالات التوتر انتشاراً هي بين الأم والطفل الأول . او بين الأب والطفل الأول . وان الكلمات السابقة توضح مدى التوتر الذي يعاني منه الآباء والأمهات في اول تجربة لهما مع الأبوّة والأمومة . ان تجربة الأم والأب قد تكون ناقصة ويحاول الوالدان القيام برعاية الطفل الأول رعاية كاملة لكن الثقة بالنفس تكون غائبة . هناك شك في ان الوالدين باستطاعتهما القيام بعملهما الجديد على الوجه الأكمل لذلك يتأرجحان بين الخوف وبين الرغبة في تأكيد السيطرة . تماماً كما يتعلم الانسان ركوب الخيل لأول مرة . الأعصاب مشدودة . خوفاً من السقوط . قلت من قبل ان الطفل كالمهر يمتلك رداراً حساساً يشعر بأنه غير مطمئن فينتقل اليه عدم الاطمئنان هو ايضاً . وانا اعرف ان بعض الأمهات المتعلمات تمر بهن نوبات من الشك خصوصاً بالنسبة لقدرة الواحدة منهن على تربية طفل . لأن الدراسة في الجامعة تفرض على الانسان ان يعرف المعلومات قبل ان يجيب عن اسئلة الامتحان او قبل ان يجري التجربة . والأمومة تجربة جديدة لا تعرف عنها الأم المتعلمة أي شيء وهي متأكدة ان جهلها بهذا الأمر سينكشف فوراً . وطبعاً فليس هناك عدد كبير من المتعلمات قد درسن اي شيء يتعلق بتربيةالطفل ،وهكذا نجد ان الأم في بداية تجربتها كأم تملك أحاسيس متناقضة ولهذا فإن هناك صراعاً يدور بين الحب الجديد والخوف من عدم القيام الكامل بالمسؤولية . لكن لماذا ننسى اننا

نعامل اطفالنا بالأسلوب نفسه الذي كان يعاملنا به اباؤنا وامهاتنا ؟ ان الطريق السهل للنجاح في تربية الطفل هو ان يكون الواحد منا او الواحدة منا قد عاشت طفولة سعيدة مع والدين يحيطان ابناءهما بالحب والقدرة على الاتزان والثبات في التربية واتقان اعطاء الطفل كل الود مع الحزم بدون ان يستسلم الواحد منهما للتوتر او الضيق . لكن كلنا نعرف ايضاً ان نسبة وجود هذا النوع من الآباء في الزمن القديم لم تكن نسبة كبيرة . اذن لماذا لا نتذكر صورة الأب التي كنا نحلم بها او صورة الأم التي كنا نتمناها ولماذا لا نسترجع شريط ذكريات العمر لنتعلم منه من جديد ؟ اننا نعرف ان كل واحد فينا ركب امواج الغضب على والديه ثم وقع في الاحساس بالذنب ثم جاء الخوف بعد ذلك من ان نفقد الحب في البيت او مع الاصدقاء او من المدرسة ثم مشاعر الغيرة التي عانينا منها تجاه اخوتنا .كل هذه الخبرات تراكمت في اعماقنا واصبحت راسخة في اللاشعور وهي تفور من جديد عندما نتقبل ميلاد اطفالنا وخصوصاً الطفل الأول او اي طفل يتمتع باهتمام خاص عندنا .

والسؤال الذي يدور في الأذهان هو :

هل تؤثر هذه المظاهر من التوتر والضيق بشكل رديء في نفوس الأطفال ؟

والاجابة ، نعم ان ذلك يثير ضيق الأطفال خصوصاً في السنوات الأولى وبعد ذلك تبدأ هذه المظاهر في التلاشي وان لم تنته هذه المظاهر فهنا لا بد من استشارة خبير في التربية . اما اذا انتهت ، فإن الطفل عندما يبلغ سن المراهقة سيصبح اكثر قدرة على ادارة اموره بنفسه . ولقد سعدت كثيراً عندما سمعت من كثير من الأمهات اللاتي كن يشكين مُرّ الشكوى من تربية الطفل الأول والخوف من الفشل في تربيته ، انه اصبح الآن بعد المراهقة انساناً ناجحاً يفهم ظروف الآخرين ويقتحم مجالات العمل التي تخدم الجماهير كالطب والتدريس وغيرها .

ولو حاولنا ان نفسر هذه المسألة لوجدنا ان الطفل في البداية يكون حساساً لذلك تقابله بعض الصعوبات في تعامله مع اسرته واصدقائه . اما عندما ينجح

هذا الطفل في الانتصار على هذه الصعاب فإنه يكتسب الثقة في نفسه ويتجه الى الرغبة في التعاون مع بقية الآخرين الذين يقابلونه في الحياة . وان يعمل على تعلم اسمائهم . ولست اقصد بذلك ان الطفل يجب ان يقابل التعاسة في حياته حتى يتعاون مع الناس ولكن اقصد ان الطفل الذي قد يجد قدراً من التعاسة في دنياه يستطيع خلال حياته ان يجد ما يزيل عنه هذه الأحاسيس التعسة . لذلك اؤكد انه لا يجب ان نفهم هذه المناقشة على اساس ان الطفل الأول قادر على ان ينتصر على عدم التكيف مع البيئة المحيطة به مهما كانت درجة عدم التكيف . وعموماً ان الطفل الذي يعاني من التعاسة في بداية حياته لا يمكن ان يصل الى الاحساس بالسعادة إلا بمساعدة من حوله سواء كانوا آباء او مدرسين او اخصائيين نفسيين . وهناك مايغرس التفاؤل في القلب في موضوع الطفل الأول وهو حرص الوالدين الشديد عليه ورغبتهما في تقديم كل خير له . هذا الحرص قد يكون غاية في التطرف وقد يضايق الطفل نفسه لكنه يؤكد للطفل اهميته بالنسبة للأسرة ويطالب نفسه بتأكيد هذه الأهمية فيضع لحياته منهاجاً او هدفاً عظيماً يجب ان يحققه في حياته . وايضاً فهو يهزم احاسيس الغيرة والمنافسة مع اخوته اثناء مرحلة الطفولة ويحاول ان يعاملهم كأنه والد ثالث لهم . وهذا يدفعه الى الاحساس بالمسؤولية وهي صفة غالبة على الأطفال الأبكار في الأسر التي استطاعت ان تساعد ابناءها على الانتصار على مشاكل مرحلة الطفولة . وقد تبين في دراسة حالات الف شخص من المتفوقين في الحياة العامة ان عدد المتفوقين ممن كان ترتيبهم الطفل البكر في الأسرة هو ضعف عدد المتفوقين الذين كانوا يتمتعون بأي مرتبة اخرى في تسلسل انجاب الأسرة . وايضاً لا يجب الاعتقاد ان هذا هو مقياس النجاح الوحيد في الحياة ، ولكني اضرب هذا المثل لاطمئن الآباء والأمهات على مستقبل اطفالهم الأبكار .

ومن مزايا الطفل البكر في الأسرة انه يعتمد اعتماداً مطلقاً على الأسرة . . فكثير من الآباء الذين انجبوا عدداً كبيراً من الأطفال يقارنون بين طفلهم البكر وبقية الأطفال . فبعضهم يقول ان ابني البكر خجول يتعامل مع الآخرين بصعوبة ولا يستمتع باللعب الذي فيه ضرب وشد وجذب وانه يصاحب الأب او الأم ويطلب منهم الحب الكامل والاهتمام . يظن بعض الناس ان هذا هو بمثابة

افساد للطفل ولكن ليس كذلك بالنسبه لكل الأطفال . ان الطفل الأول يدرك باحساسه ان الأم والأب يتجهان بالاهتمام الى اطفال آخرين لذلك فهو يحاول ان يجد ما يشغله عن ذلك . رغم ان هذا يسبب له الأسى في بعض الأحيان . اما اذا اصر على ان يحصل على كل الاهتمام فعلينا ان نلاحظ ان الأبوين يلعبان دوراً اساسياً فيها . انهما يدربان الطفل على الاستقلال من البداية انما تكون المسألة ملحوظة عندما ينجب الوالدان طفلاً جديداً ويكون هذا الطفل الجديد الثاني متميزاً بالاستقلال الكامل بينما الطفل الأول يفضل الاعتماد الكامل على والديه. وعلينا هنا ان نعرف ان هناك احساسين اساسيين يدفعان كل اب وكل أم الى الاهتمام الزائد عن الحد بالطفل الأول . والاحساس الأول هو القلق لنقص التجربة . فلو اصيب الطفل بارتفاع طفيف في درجة الحرارة او نقص وزنه او وقع على الأرض ، كل ذلك يسبب لنا خوفاً عظيماً . حتى عندما يصاب الطفل الأول بالرشح او الزكام .ان الزكام هنا يصبح احد الأمراض الخطيرة التي يجب ان تستدعي الطبيب . ونحن نمتلىء بالمخاوف الشديدة على طفلنا الأول . وهذه المخاوف تنتقل الى نفسية الطفل من خلال ملامحنا ونبرات اصواتنا ، لكن هذا القلق لا ينطبق على خوفنا الآخر بخصوص تصرفاته وسلوكه وقدرتنا على السيطرة عليه . ان هذا القلق يزداد شدة في العام الثاني ويصبح الطفل كائناً يرغب في الاعلان عن نفسه فلم يعد مجرد لعبة ظريفة تتمتع بالذكاء وتنفذ الأوامر . إنما هو انسان يرغب الآن في العناد والتحدي والمزاج الملتهب السريع الغضب والرغبة في الاعتداء علينا . ومن الرائع ان نقول ان المشاجرات الصغيرة التي تنشأ بين الطفل وامه او ابيه بخصوص الطعام او اختيار الملابس التي يرتديها او اي عمل آخر،هذه المشاجرات الصغيرة تزيد من ترابط الطفل بوالديه .

وقد يسأل الآباء والأمهات لماذا نقبل بعض الأخطاء الصغيرة من اطفالنا الآخرين ولم نكن نقبلها من طفلنا الأول ؟ واعتقد ان جزءاً من الاجابة عن هذا السؤال هو اننا كنا نعاني من نقص التجربة خلال تربيتنا للطفل الأول . واننا نتعلم خلالها كيف نحاول السيطرة على أمور تربية الطفل ونكتسب قدراً من الثقة بالنفس يتيح لنا ان نتعامل مع الطفل الثاني بمنتهى الهدوء والاتزان ، وبالتالي نستطيع ان نؤثر في هذا الطفل الثاني او الثالث بطريقة حاسمة او على الأقل لا

نحاول ان نصطاد المشاكل لنغرق فيها كما كان الحال مع الطفل الأول . ففي مسألة تأديب الطفل مثلاً ، نحن لا نحاول مع الطفل الثاني او الثالث ان نتدخل في أدق التفاصيل لذلك تقل نسبة المشاكل في حياتنا . . وهكذا يكون الطفل الثاني اكثر قدرة على الاستقلال والفهم لمشاكله وايجاد الحلول لها . ولا يجب ان ننسى ان الفرحة كانت تغمرنا اثناء تربية الطفل الأول وان الخوف عليه كان شديداً واننا عندما كنا نرى ابتسامته الأولى كانت السعادة تنفجر في وجوهنا وقلوبنا . كانت ضحكات الطفل الأول تزيدنا عطشاً ولا نرتوي إلا بمزيد من الضحكات نحاول ان نلاعبه بكل الطرق لنحصل على ابتسامته ، ونراقب بشغف العابه بأصابع يديه والتصفيق بها . وعندما يبدأ في المشي نفرح وعندما يبدأ في الحديث مع والده او احد الأقارب في التليفون. وكذلك حبه لكلبه الذي يربيه . ونحاول ان نصحبه الى حديقة الحيوان والسيرك وان يرى القطار او المترو الطائر او الاتوبيس النهري . ونرى ان الأب يشتري له العاباً غاية في التعقيد وهو ما زال في الملفّة ويحاول جاهداً أن يشرح له بحماس كل تفاصيل الألعاب . وجميع الآباء يحاولون الوصول الى الصداقة مع ابنائهم فيلعبون معهم وهذا يفيد الآباء والأمهات .

لكن علينا ان نلاحظ ان هناك مشكلة نواجهها حين يقترب ميعاد ولادة الطفل الأول وهي اننا نحس الكثير من مشاعر القلق والشوق والبهجة والسعادة . كل ذلك ينفجر في وجه طفلنا الأول فور ان يرى الدنيا . . اننا نشعر كأننا نولد من جديد عندما يولد طفلنا الأول . ونحاول ان نركز فيه احلامنا وآمالنا ولا نأخذ الأمر ببساطة ونعيش في توتر حاد يتأرجح بين عدم الثقة في النفس وبين البهجة الشديدة . ان طفلنا الأول هو شخصيتنا الجديدة التي كنا نحلم بها قديماً ونستطيع الآن ان نستعيدها مرة أخرى .

ان كل المناقشة السابقة قد يراها البعض مجرد مناقشة نظرية لا تقدم أي حلول عملية في مجال تربية الطفل الأول للاسرة . واحب ان اقول انه ليست هناك قواعد سحرية يمكننا ان نربي بها طفلنا الأول بسهولة وانطلاق كما يحدث في حالة تربية الطفل الثاني او الثالث لأن القلق النفسي هو احساس طبيعي يوجد في

الانسان عندما يبدأ في تحمل اي مسؤولية جديدة لا يعرف عنها شيئاً . ان المهندس وهو يدخل الكلية اول مرة يسأل نفسه بقلق « هل سأستطيع ان أكمل الرحلة وأصل الى المستقبل قبل الناجح . . ودارس الطب يمر بقلق نفسي وهو ينتقل من سنة دراسية الى اخرى . وطالب كلية الطيران يمر بالقلق نفسه . اننا لم نكتشف بعد اي وسيلة تمنع القلق . بل والقلق نفسه مفيد لأنه يفتح عقل الانسان واحساسه ليطلب المزيد من المعرفة . ان الحل البسيط لمشكلة القلق التي تصاحب ميلاد الابن الأول هو ان نتعلم من الفلاحين . انهم يتعلمون من خبرات الأجيال السابقة . وطبعاً لو أدخلت في مجالات الدراسة عموماً مادة جديدة عن تربية الأبناء خصوصاً في المراحل العليا من التعليم فإن ذلك سيسهل جزءاً كبيراً من المصاعب التي تواجه الوالدين . كما اننا عندما نضع الابن في «حضانة» فيها عدد من الأطفال او نجعله يقضي معظم الوقت مع بقية اطفال الحي في حديقة عامة او ناد ، كل ذلك يجعل الطفل اكثر سعادة . إلا أن كل ما قلته في الفقرة السابقة ، قد لا تطبقه احدى الأسر اما بسبب الامكانيات او الظروف ، ولكن هناك عدداً من الخطوات العمليه يمكن ان تتبعها الأمهات الوالدات لأول مرة حتى يقل اعتماد الطفل عليهن اعتماداً مبالغاً فيه . ولنا ان نعرف ان الطفل خلال الأشهر الثلاثة الأولى من حياته لا يعرف ويكاد لا يحس هل امه مشدودة الأعصاب ام لا ، لأن الطفل في هذه المرحلة يكون غارقاً في أحاسيسه الخاصة . الاحساس بالجوع او النوم او المغص . لكن بعد الشهر الثالث يبدأ اهتمام الطفل بالعالم المحيط به . وتكون موجات المغص قد انتهت من حياته تقريباً وبذلك ينتهي عذاب الأم من صراخ الطفل في الليل . وحتى اذا كان الطفل قد تعود ان تحمله امه فالأم تستطيع ان تتركه يصرخ كما يريد لمدة ٤٨ ساعة . وفي الغالب لن يستغرق هذا الصراخ اكثر من ثلث ساعة في اليوم الأول ثم تنخفض مدة الصراخ في اليوم الثاني الى خمس دقائق وانا اعرف ان صراخ الطفل سوف يثير من أعصاب الأمهات ومن شأنه ان يسبب قدراً من الازعاج الشديد لهن . لكن هذا هو التصرف المنطقي واللازم تماماً لأنه يحقق للطفل قدرة على تحمل الانفصال الجزئي عن الأم ويتعلم ايضاً أنه لا بد أن يتحرر من الاعتماد المطلق على أمه وابيه . وهذا يساعد الأب والأم على التخلص من هذا الخوف

الشديد على الطفل، وانا ارى ان الطفل يجب ان يتناول رضعاته في مواعيد شبه منتظمة بعد الشهر الثالث وهكذا تتدرب معدته وامعاؤه على هضم الطعام والاستفادة منه . ولا مانع من ان توقظ الأم طفلها في ميعاد الرضاعة . وطبعاً ستمتد مواعيد الرضاعة لتصبح رضعة كل اربع ساعات بدلاً من رضعة كل ساعتين وهكذا يتاح للطفل ممارسة شيء من النظام في تناول الطعام . وعلينا ان نعرف جيداً ان مسألة عدم اعتماد الطفل المطلق على امه وابيه هي مسألة احساس الأم وحالتها النفسية ، لأني أؤمن ايماناً كاليقين ان الأم الواثقة من نفسها والمطمئنة لا تحاول ان تقوم بارضاع الطفل كلما بكى . بل أنا أؤمن ان الأم غير الواثقة من نفسها تدخل في نفس الطفل الاحساس بضرورة اللجوء اليها لأقل سبب يضايقه او لأتفه مشكلة يواجهها . وهكذا تفرض الأم غير الواثقة من نفسها ستاراً من الحماية يشبه الستار الحديدي . وهذا يوضح لنا لماذا يصر بعض الأطفال الرضع على الاستيقاظ ليلاً خلال نهاية عامهم الأول رغم عدم الحاجة الى ذلك . لكن الأم التي تعود طفلها على ميعاد ثابت للرضاعة او شبه ثابت (لأني اكره مسألة تحديد مواعيد قاطعة مانعة في مسألة تناول الطعام) الأم التي تحدد مواعيد شبه ثابتة خلال الشهر الثاني او الثالث بعد ميلاد الطفل تعلم الطفل الاطمئنان والاستقلال في وقت واحد . وانا اؤمن ان النصف الثاني من عام الطفل الأول هو مرحلة يرغب فيها الطفل حقيقة في الاستقلال عن امه ولكن سلوك الأم هو الذي يجعله يختار بين الاعتماد المطلق عليها أو الاستقلال عنها . فهو في هذه الفترة يستطيع ان يجلس وبعد قليل يزحف وبعد قليل يقف على قدميه ويبدأ في مسك الأشياء والألعاب المطاطية بالاضافة الى ورق الجرائد والملاعق والدمى . وطبعاً تطول ساعات يقظته خلال النهار ويحاول ان يشغل كل هذا الوقت في اكتشاف كل ما حوله . ويحاول ان يتذوق كل شيء بلسانه او يعضها بأسنانه الصغيرة التي بدأت تظهر . ويغتبط الطفل جداً باللعب مع الأم او الأب ويرغب في الزحف من حجرة الى اخرى . ويستمد من والده طاقة جديدة بالامان . ومن الطبيعي ان تشكو الأم من ان الطفل يبكي عندما تتركه في الحجرة بمفرده رغم ان عمره أصبح عاماً كاملاً . في هذه الحالة على الأم ان تعرف انها شخصياً تصاب بالقلق على الطفل عندما تتركه بمفرده . وهذا القلق ينتقل اليه ويؤكد قلق الأم اعتماد الطفل

المطلق عليها. وهناك بعض الأطفال يصابون بالاضطراب فيستيقظون من النوم في منتصف الليل رغم انهم كانوا قد تعودوا من قبل أن يناموا نوماً عميقاً معظم الليل . ان هذا الانزعاج الطارىء والصحو غير المنتظم يحدث بسبب اي توتر يصيب الطفل مثل نوبة رشح او التهاب في الأذن وهنا يسهر بجانبه والداه ويتبادلان حمله على الأيدي والكتف كلما بكى او تحرك وقد يحدث ذلك ايضاً عند تكوين اسنانه وهنا يتعلم الطفل العادة القديمة التي كان قد نسيها وهي انه عن طريق الصراخ والدموع يمكن ان يحصل على حق الحمل على الذراعين او الكتف . ويصبح الطفل كائناً مزعجاً يصحو منتصف كل ليلة ليحصل على حق الحمل على اليدين ويستمر هذا الأمر لمدة ساعة ونصف الساعة مرة بعد مرة اثناء الليل . ويسبب هذا ارهاقاً جسدياً وعصبياً لكل افراد الأسرة . ولهذا فبعد شفاء الطفل من المرض يجب ان نتركه في السرير وليصرخ كما يريد ما دام الطبيب قد اكد لنا أن حالته الصحية اصبحت سليمة . وحتى لا نقع فريسة لسلسلة من المتاعب أولها هو أن مرض الطفل يثير دائماً الوالدين فيندفعان بسرعة الى سرير الطفل عند اقل صرخة أو همسة ويحمله احد الوالدين من السرير ويقتنع الطفل انه اصبح في حاجة دائمة الى حمل احد الوالدين له ويشعر ان الوالدين يرضخان تماماً له فيبدأ في استغلال ذلك اسوأ استغلال، وهنا يلازم الضيق والتوتر الوالدين لأن الطفل يجعل الحياة معه مهمة صعبة ويرغبان في توجيه اللوم اليه . ولكنهما لا يعرفان كيف يوجهان اليه اللوم وقد يثور احدهما على الطفل ثورة كبيرة ويرغب في ايذائه لكنه يتراجع عنه ويغرق في الخجل وتستمر رحلة الاستسلام لازعاج الطفل لهما . وقد قلت ان اي اسرة تستطيع ان تنقذ نفسها من الدوران في حلقة الازعاج هذه بأن يترك الوالدان الطفل يصرخ في ليلتين متتاليتين فيتعلم ان صراخه غير مفيد فينام مرة اخرى وسوف يطمئن ايضاً انه ليس هناك ما يزعجه شخصياً لأنه لو كان هناك سبب لذلك لحضر احدهما الى فراشه . نعم ، لا داعي للدهشة او العجب ، فالطفل يعرف تماماً أحاسيس الكبار ويلتقطها برادار حساس للغاية . .

قد يحاول الطفل ان يستولي على معظم وقت الأم اثناء النهار . فالأب او الأم ، لسعادتهما، لا يحسان بالوقت ويصبح الطفل مسيطراً على وقت الأب

والأم . واحياناً تفقد الأم الثقة بنفسها وتخاف لئلا تجرح مشاعر الطفل فتستجيب لكل طلباته . وطبعاً يمكن ان تكون الأم او الأب ضحية لاستغلال الطفل لوقتهما كاملاً بسبب سعادة أحدهما . او بسبب عدم الثقة بأنفسهما ، وفور ان يستيقظ الطفل من النوم فإنه يطلب ان يركب ظهر الأم او ظهر الأب ، او ان يلعب معهما معاً لعبة الاختباء فيختبيء الطفل في مكان ما بالمنزل ويحاولان هما ان يبحثا عنه . او ان تبدأ حفلة من التصفيق والغناء او ان يحمله احدهما على ذراعيه ويبدأ الكلام بينهما وعندما تتعب الأم وتحاول ان تضع الطفل على ارض الحجرة فإن الطفل يبدأ بالصراخ والمطالبة بأن تحمله مرة اخرى . وقد تستسلم الأم لهذا الصراخ فتحمله مرة اخرى على ذراعيها ويحس الطفل انه نجح عن طريق الصراخ في اقناع الأم بأنه صاحب حق وانه يخشى على نفسه من أي خطر وان المكان الوحيد الآمن في الحياة هو ذراعا الأم . وانا اظن ان الاحساس بالضيق الذي يتجمع كسحب كثيفة في قلب الأم المتعب جداً ، يتسرب الى الطفل ايضاً فيثير فيه القلق والتوتر ويجعله يصر على « الاستئثار الكامل » لأمه او لأبيه او للاثنين معاً . انا اعرف ، كما يعرف كل الناس الحقيقة البديهية أننا نحن الآباء والأمهات نحب ان نلعب مع ابنائنا والأم خصوصاً تحب مناغاة ابنها ومناجاته وهي تؤدي اعمالها المنزلية . لكن أليس من الأفضل أن توفر هذا الجهد لتعطيه للطفل عندما يستيقظ . وان تلعب مع الطفل في الوقت الذي تكون فيه مستعدة لذلك لا في الوقت الذي يفرضه هو . ان على الطفل ان يعرف من البداية ان هناك عملاً ينتظر الأم وان الأب امامه عمل وان عليه ان يحترم ذلك وهو قادر على ان يتعود عليه . لأنه من الخطير فعلاً ان يرتبط الطفل ارتباطاً مرضياً بأسرته يعتمد عليها في كل صغيرة وكبيرة . فالمستقبل سيحتم صرورة انفصال الطفل عن اسرته وهذا الانفصال سيكون مؤلماً للطفل وللأسرة وسيستغرق وقتاً طويلا فلماذا لا ننقذ انفسنا من المتاعب قبل هجومها . لأن ارتباط الطفل الشديد بالأسرة والاعتماد المطلق عليها سيجعل الأمر يحتاج في بعض الحالات الى العلاج النفسي . اما اذا استطاعت الأسرة تعويد الطفل على البقاء وحيداً اثناء قيام الوالدين بأعمالهما فإن ذلك يجعله سعيداً بقدرته على ملء وقت فراغه . وعندما يعاني الطفل من الملل

فإنه يستطيع ان يزحف هنا او هناك بشرط ان تكون « مفاتيح الكهرباء » بعيدة عن متناوله .

وعلينا ان نعرف ان العام الثاني للطفل هو اكثر الاعوام مناسبة لتعويده على الاستقلال او على الارتباط الشديد بأمه لأنه في هذا العمر يتقن المشي ويحاول اكتشاف ما حوله . يهتم بالشخصيات الأخرى والأطفال الآخرين ويلعب معهم ويلمس الأشياء ويجمعها . وعندما تستطيع الأم تدريبه على الاستقلال عنها فهو يتجه اليها عند احساسه بالخطر او الخوف. وهو ينظر احياناً الى الغرباء بعيون فاحصة قبل ان يقترب منهم ، فإذا اندفعوا هم اليه هرب منهم الى والدته ليمسك بها .

ومن المهم لتعويد الطفل على الاستقلال هو عدم عناد الأم مع طفلها حول ضرورة تناول اكبر كمية من الطعام او كيف يتعود على الذهاب الى دورة المياه ، لأن هذه المشاكل، وخصوصاً عندما تقترن بالعنف والعناد، تزيد ارتباط الاثنين معاً كارتباط الضحية والجلاد ، ارتباطاً فيه عداء وقلق واحساس بالذنب ، ولا يمكن ان يتفقا معاً على شيء واحد ولا يترك احدهما الآخر دون اثارة أسباب استفزاز ، تماماً كالقط والكلب مع الاعتذار للتشبيه .

واذا كانت العلاقة بين الأم والابن اكثر بساطة مما قلت فإن على الأم ان تضع امامها هدفين يحققان لها استقلال الطفل عنها،هذا اذا اكتشفت انها لا تستطيع اغماض عيونها للحظة واحدة عن حماية الطفل . فأول هدف هو ان نقف تماماً ضد رغبتها في القفز من مقعدها اذا وقع الطفل مثلاً وقعة خفيفة على الأرض او حاول ان يتسلق على احد الكراسي العالية. لأن الطفل عادة يستطيع التفكير في انقاذ نفسه من اي ورطة بسيطة من نوع كهذا، ولأن الأم عندما يصيبها الخوف الشديد من هذه.الورطات الصغيرة فإنه سيحاول دائماً ان يخلق لنفسه ورطات صغيرة ويظن انها ضخمة ويعيش في احساس بأن هناك خطراً داهماً سيأتي بعد لحظة ما لم تتقدم الأم لحمايته وهو يفعل ذلك ليستولي على كل وقت الأم وانتباهها . هذا هو الهدف الأول ، وهو عدم الخوف المبالغ فيه . اما الحل الآخر او الهدف الآخر فهو ان يخرج الطفل مع امه الى الحدائق العامة وعلينا ان نعرف

ان خروج الطفل من المنزل يساعده على التعرف على انماط كثيرة من البشر وسوف يتحول الى انسان يحب اللعب مع غيره من الأطفال . وتستطيع الأم ايضاً ان تراقب ابنها اثناء اللعب حتى لا يتعرض لخطر حقيقي لا يمكن تجاهله او اذا تعرض له طفل يتميز بصفة العدوان. . ويمكنها ان تختار حديقة اخرى تذهب اليها اذا كان هذا الطفل الارهابي العدواني شديد الخطر فعلاً لكن اذا استطاعت الأم ان تتقبل عدوان الأطفال الآخرين على طفلها وان تعلم طفلها كيف يدافع عن نفسه ، فهذا هو الأمر المعقول .

وختاماً للبحث أقول ان الأم او الأب يعرفان جيداً ان ارتباط الطفل الأول قد يظل وثيق الصلة بهما بصورة او باخرى وبطريقة تختلف عن ارتباط الطفل الثاني بهما . ولكن علينا طبعاً ان نخفض درجة الارتباط حتى لا تصبح عبئاً على مستقبل الابن نفسه .

وكان ذلك هو هدفي من هذا الفصل .

الغيرة بين الأخوة

ان ميلاد طفل جديد في الأسرة يمثل بالنسبة للطفل الأكبر منه عملية تنازل عن عرش الحب . لذلك يجب التوكيد على الاطمئنان بالنسبة للطفل الأكبر وتحويل الغيرة الى تجربة بناءة . .

نعم ، ان ميلاد طفل جديد يمثل من وجهة نظر الطفل القديم عملية اشبه ما تكون بنزول من عرش الاهتمام الكامل من جانب الأب والأم ويصبح هناك طفل جديد مكان الطفل الأول . وفي الماضي كان معظم الأمهات يعتقدن ان احساس الطفل الصغير بالغيرة من الوليد الجديد ذنب جسيم وخطيئة كبرى لا يمكن غفرانها . وما زالت هذه النظرة موجودة عند بعض الأمهات . فمنذ ثلاثين عاماً عندما كنت اسأل الأم « هل يرحب ابنك الأكبر بمجيء اخيه » وكأني كنت اخوض في موضوع يثير الخجل . لأن صوت الأم كان يمتلىء بالاحتجاج وهي تقول « انه معجب به جداً . انه يقوم كل ثانية ليحتضن أخاه المولود ولكنه لا يشعر بأنه غض الاهاب فيكاد يكسر له ضلوعه الصغيرة ويجعله يبكي » . وكنت احس ان اجابة الأم بهذه الطريقة انني رجل ذو افكار شريرة لأني ارى في سلوك الطفل الأكبر غيرة مختفية . وكانت معظم اجابات الأمهات تتفق في مضمونها مع الاجابة التي اوردتها من قبل . فكل أم تؤكد ان احتضان طفلها الأكبر لأخيه الوليد هو نوع من الحب النزيه الخالص . وقد سألت امي نفسها عن طريقة استقبال كل واحد من ابنائها لميلاد شقيقه الأصغر منه فإذا بها تعتبر اني سأوجه اهانة الى ترابط الأسرة وتقول « شكراً لله . ان احداً فيكم يا ابنائي لم يعلن عن غيرته ابداً » . وطبعاً كنت وما زلت اجد صعوبة في ان اصدق هذا الكلام . ان معظم الأمهات يحاولن بشكل او بآخر اخفاء الحقيقة الواضحة وهي غيرة الطفل الكبير من الطفل المولود حديثاً . ويحاولن عدم الاعتراف بهذه الحقيقة . لذلك نجد ان اماً قد تسمي غيرة الطفل حباً مبالغاً فيه او عدم فهم من الطفل . ولكن يجب ان تطمئن الأمهات : ليس الهدف من الاعتراف بالغيرة هو اتهام اخلاق اطفالهن

الكبار بالسوء . ولكن نحن نحاول فقط ان نحدد أضرار هذه الغيرة وهل يمكن ان تنقلب هذه الغيرة الى عامل بناء بدلاً من ان تكون عامل تخريب في شخصية الطفل . وعلى كل حال لا بد من الاعتراف بالحقيقة الواضحة وهي ان الغيرة امر طبيعي وذائع ، ويجب علينا ان نساعد الأطفال للاستفادة منها . وقديماً كان من الصعب أن يعرف الأب ان الغيرة احياناً تصبح مدمرة لشخصية الطفل الصغير وكان الأب او الأم من هؤلاء يحاولان بشتى الطرق عدم الاعتراف بهذه الحقيقة ولا يحاولان حتى ان يفهما مدى الضرر الذي يقع على الطفل نتيجة لها . ولا يعرف الواحد منهما وسيلة يهرب بها من هذه الغيرة ولا يجد هواية يمكن ان يلهو بها عن أحاسيس الغيرة التي تأكل قلبه الصغير ولا يجد مجموعة من الأصحاب يلعب معهم ويجد في صحبتهم الاحساس بالنسيان لهذه الغيرة وتصبح حياة الطفل نوعاً من الجحيم غير المفهوم بالنسبة للطفل لأن هناك قادماً جديداً أخذ كل ما يملك .
ان الوليد الجديد أخذ اهتمام اهل البيت . وهناك احساس بعدم الامان ، فالانتباه كله الآن يأخذه هذا الوليد الجديد . وأفضل تشخيص لهذه الحالة النفسية المؤلمة هو ما سمعته من طبيبة نفسية تلقي محاضرة في عدد من الأمهات وتقول « ماذا يمكن ان يحدث لو وضع زوجك مفتاح منزلك في الباب وهو عائد من العمل وفي ذراعه امرأة اخرى جميلة غاية في الاناقة والغنج والدلال . وقال لك اخيراً استطعت ان اقتنع ان الرجل لا بد له من زوجتين بدلاً من زوجة واحدة . وقد وقعت في هوى هذه الجميلة المغناج وأرجو ان تحبيها معي » . طبعاً لا يمكن ان نتوقع من الزوجة ان تقول لهذه المرأة أهلاً وسهلاً وان ترحب بها وان تقدم لها الطعام وان تنظر اليها لتبحث عن صفاتها الحسنة . انما الذي سيحدث هو ان قدراً كبيراً من النقد ، توجهه الى زوجها وأنها ستبحث بعيونها عن عيوب هذه المرأة ولا يمكن ان تشعر الزوجة بسعادة مع هذه « الضرة » وهذا هو ما يحدث بالضبط في حالة الطفل عندما يأتيه اخ جديد . ومن خلال تجربتي كطبيب أرى ان اغلبية الأطفال الصغار تظهر عليهم مشاعر مختلطة مكونة من احاسيس متنافرة هي الحب والغيظ معاً تجاه هذا الوليد الجديد الذي ينزلهم عن عرش اهتمام الأسرة .
واذا استطاع الطفل ان يكتم هذه الأحاسيس المتنافرة وخصوصاً الغيظ والضيق فمن الأفضل ان نفترض نحن ان الطفل يشعر على الأقل ببعض آلام العتاب

لوالديه وعدم التقدير الكامل لهذا المولود الجديد من وقت لآخر . وطبعاً قد يعلن الطفل عن مرحه الشديد بالمولود الجديد او يظهر قدراً من الضيق الشديد به . ونحن نلاحظ عموماً أن الطفل يعيش قدراً من التوتر لأن الطفل الأول يعيش سنة او اثنتين او ثلاثاً وهو مؤمن بأن والديه هما له وحده . وطبعاً هذا امر لا يمكن ان نجده متشابهاً في كل الحالات ، ان هناك لكل قاعدة استثناء . فنحن نجد ان الطفل الذي عاشر عدداً كبيراً من الأطفال من أبناء الجيران او الأقارب أو في الحضانة لا يعاني من مثل هذه الأحاسيس الحادة بالغيرة لأنه طفل استمتع بعدم الاعتماد المطلق على امه وابيه ولذلك يكون أقل هماً وغماً في مشاعره نحو الوليد الجديد . والطفل الذي بلغ الرابعة او الخامسة لا تظهر عليه آثار خطيرة من الغيرة ولا يخطىء في الظن بالوليد الجديد كثيراً لأنه يشعر انه مستقل في كثير من أمور حياته عن والديه وأنه أكبر من الوليد الجديد .

وأنا اطالب الأمهات بالاهتمام بهذه المشكلة وان يواجهنها بنوع من الفهم لمشاعر الابن حتى لا يصبحن كالنعامة التي تخفي رأسها في الرمال وحتى يستطعن حماية الوليد من اضرارها خصوصاً في الأيام الأولى من ميلاده ، فقد يحاول الطفل الكبير ان يلقي عليه قطعة حديد ثقيلة او كرسياً او يدحرجه من سريره الى الأرض او يعضه عضة تمزق عضلات الوليد . ان الغيرة في أيام ميلاد الطفل الأولى تكون حرة وطليقة وقد يعبر عنها الطفل بمنتهى الصراحة اما اذا اخفى الطفل الكبير غيرته من الوليد وحاول ان يبرزها بالكلمات فقط ، فمن الممكن ان نقبل هذا التعبير بل ونساعده على التعبير عن كل افكاره وان نؤكد له انه الأكبر وانا نحبه وانه كان مثل اخيه طفلاً صغيراً . ويمكننا ان نسمع منه الكلمة التي قد ينطقها في براءة وحسن نية وهي أن يقول « لماذا لا نعيد هذا الطفل الذي يبول في ثيابه من حيث اتى» إننا يمكن ان نضحك معه على هذه الفكرة وان نشرح له الفرق بين الانسان وبين البضائع التي يمكن ان نردها الى البائع مرة اخرى . ان علينا ان نتقبل أحاسيس الغيرة من الطفل بهدوء وبدون انزعاج وان نبتسم حتى لا نسبب له احساساً بالذنب او القلق لأنه فقد الاهتمام . اننا يجب ان نؤكد له ان اهتمامنا به هو اهتمامنا بانسان كبير وهو يختلف عن اهتمامنا بهذا

الوليد الصغير . ونجد لدى بعض الأطفال ان رد الفعل عندهم من جراء ميلاد طفل جديد هو احساسهم بأنهم نزلوا من عرش اهتمام الأسرة . وقد يكون رد الفعل هو احد العمليات العقلية اللاشعورية وهي النكوص أي أن يعود الطفل الى مرحلة كان فيها سعيداً . انه لا يعبر بصراحة عن الكراهية او الغيرة من المولود الجديد ولكنه يهرب الى مرحلة مبكرة من طفولته كان فيها هو السيد الوحيد الذي لا ينازعه على العرش احد . يحاول مثلاً ان يرضع المرضعة. قد يبول في فراشه . قد يتبرز في ملابسه قد يطالب الأم ان تعود الى اطعامه بنفسها . وأنا أرى ذلك ضاراً بالطفل . إنني أفضل طبعاً ان يعبر الطفل عن ضيقه بالغضب وان يعبر عن ذلك بالكلام . إنه هنا يتصرف بسلوك ايجابي يدافع به عن حقوقه ، أما النكوص فهو دليل الصدمة الشديدة التي عجز الطفل عن مواجهتها فحاول ان يهرب منها. ولكن يجب ان لا ننزعج لأن النكوص نفسه قد يكون مؤقتاً. وما دام الأمر كذلك، وما دام النكوص لا يستمر طويلاً، بل حتى لو طال النكوص اكثر من الحد المعقول واتخذ صفة الديمومة ، فإن الطفل يبدو كأنه قد تحول الى رضيع مليء بالهم والغم والاكتئاب. هنا علينا طلب مساعدة الطبيب النفسي. ولكن أريد ان أنبه الى حقيقة اخرى وهي ان كثرة المقالات والكلمات التي قيلت عن غيرة الأخوة أقنعت الأغلبية من الآباء والأمهات بأن الغيرة مسألة طبيعية ، ولهذا ركز الآباء جهودهم وساعدوا اطفالهم على تخطي هذه المشكلة ، وحاولوا بكل صدق أن يستفيدوا من الحقائق العلمية ، ولم تعد المسألة مشكلة حادة يجب معاملتها باحساس الخجل او العار . لكن هناك فئة من الأمهات والآباء الذين يخلقون لأنفسهم بأنفسهم قدراً من الازعاج لا داعي له . ان الواحدة من هؤلاء الأمهات او الواحد من هؤلاء الآباء قد يعاني من الخوف من غيرة طفله الكبير من الوليد القادم بصورة مبالغ فيها فتبدأ الأم في السماح للطفل بقدر من الحقوق لا حدود لها ، وتنفذ له كل مطالبه ، وتغض النظر حتى عن وقاحته . واذا حدث وشاهد الطفل الكبير الوالدين يداعبان المولود الجديد ، فإنه قد يخاف وتظهر على الأب او الأم علامات الاحساس بالذنب . كأن الواحد منهما ارتكب جريمة يستحق عليها العقاب . وطبعاً لا بد ان اقول ان هذه معالجة خاطئة في أساسها ،

لأن الطفل نفسه لن يشعر بالسعادة أو يشعر بالاطمئنان اذا شعر أن والديه يخضعان له تماماً ويسلكان معه على أساس انهما ارتكاب جريمة في حقه . ان التصرف بهذه الصورة يجعل الطفل يعتقد فعلاً ان والديه قد ارتكبا ضده خطأ ما وهذا مما يزيد نيران الغيرة في قلبه اشتعالاً . وانا اؤمن ان هذا الحذر الشديد من الخوف والتطرف من الغيرة يرجع الى اساسين كلاهما خاطىء . الأساس الأول ان الغيرة هي احساس شرير ، وانها احساس حاد . ولا بد ان اعترف ان الأطباء والكتّاب مسؤولون الى حد كبير عن بث الذعر في نفوس الآباء والأمهات من أحاسيس الغيرة وقد اكون أنا أيضاً مسؤولاً عن ذلك لاشتراكي مع الأطباء والكتّاب في تأكيد اهمية معالجة الغيرة . وهكذا يقع الآباء الحساسون في الذعر من احساس احد ابنائهم بالغيرة من ابن آخر ولد حديثاً ، خصوصاً الآباء الذين عانوا من مرارة الاحساس بالغيرة من اخوتهم اثناء الطفولة . إنني اقول ان للغيرة بعض النتائج التي تبني شخصية الطفل ولا تدمرها . ان ميلاد طفل جديد يساعد الأسرة على أن تساعد بدورها الطفل الكبير ليصل الى النضج . واليكم المثال البسيط الذي يدل على ذلك، ولكن قبل ان اضربه لا بد ان أقر انه نادر الحدوث.

المثال هو ان الطفل الذي اقترب من نهاية عامه الثاني قد يفاجىء الأسرة بأنه لا يبول على نفسه في فراشه ويقبل على التدريب للذهاب الى المرحاض ويحاول ان يأكل بمفرده ويرفض المرضعة . والسبب في ذلك هو انه يلاحظ المسافة التي يجب ان تفصل بينه وبين اخيه الوليد . انه يريد ان يثبت انه اكبر حجماً وسناً وقدرة واحسن سلوكاً مما يجعله يفخر بالتقدم الذي يصل اليه ويحاول ان يزيده، ولكن رغم ندرة حدوث ذلك ، فإننا يجب ان نلاحظ انه حتى في حالة استقبال الوليد الجديد من قبل اخيه بالنكوص فهو ايضاً دعي من الأخ الكبير بالمسافة الفاصلة بينه وبين الوليد الجديد . وباسلوب آخر ، فالطفل الوحيد يشعر طول الوقت بأنه يملك ابويه وان هذه الملكية ثابتة وهو يسمع من الآخرين انه سينضج يوماً وسيصبح اكثر طولاً وعرضاً وذكاء لكنه لا يلمس هذا من الواقع . انه لا يلاحظ اي تغيير في حالته من يوم الى آخر . لكن عندما يولد له شقيق أو شقيقة ، فإن المسألة تتحدد أمامه بوضوح أنه يعرف ان هناك مسافة بين مرحلة الرضاعة التي

يعيش فيها الوليد وبين مرحلة النضج التي يعيش هو فيها وأنه استطاع ان يسير في مرحلة النضج بصورة لا بأس بها . صحيح ان احساسه بالأمن يتزعزع قليلاً ، لكن هذا ايضاً لا يمنعه من مواصلة السير الى مزيد من النضج . وأنا مؤمن بأن الأم تستطيع ان تنمي في الطفل الاحساس بالفخر والتحدي وان توضح له بصوت مليء بالشفقة والأسى بأن الوليد لا يستطيع الجلوس او الكلام او الفهم او اللعب او الأكل بمفرده او استعمال « المقعدة » او الذهاب الى المرحاض ولا يقدر ان يخرج من البيت ولا يعرف كيف يلعب مع الأطفال وان حدود قدرات هذا المولود لا تزيد عن الرضاعة والصراخ . ولا بد طبعاً من أن تستبعد الأم لطفلها اي سلوك مهذب يقوم به او أي عمل ينجح فيه وان تطلب منه ان يساعدها في العناية بالطفل الوليد وان تخبره انه اصبح انساناً كبيراً يعتمد عليه وأنها ستعتمد عليه اكثر كلما كبر . ان هذه « السياسة » اذا نفذتها الأم ونفذها الأب بدقة وصدق فإنها تتيح للطفل فرصة رائعة للنضج او على الأقل تضع حداً لمشاعر الغيرة ونتائجها الضارة . ان الهدف دائماً هو ان نساعد الابن على الاحتفاظ بتوازنه النفسي دون أي خلل وان نجعله يعيش الاستمتاع بالنضج وهذا يقلل من عوامل التوتر النفسي والقلق .

ويطالب الطفل الأكبر في بعض الأحيان الأم او الأب بأن يقارنا بينه وبين الوليد الجديد ، ويطلب من والديه الاعتراف بأنه اقوى واحلى من الوليد ويجب ان نوافقه على ذلك . وان نزيد عليه بأننا لم نكن نستطيع العناية بالوليد واننا كنا سنتعب جداً لولا المساعدات القيمة التي يشاركنا فيها هو ويقدمها الينا . ولكن انا ارفض طبعاً ان تقارن الأم بنفسها بين الطفلين فتقول رأيها في انها تفضل واحداً على الآخر او تحب واحداً اكثر من الآخر ، لأن رأي الأم في أي مقارنة يقوي الاحساس بالمنافسة بين الأطفال ويولد عند الطفل احساساً بأن الأم تلعب لعبة لا يحبها وهي « لعبة الطفل المفضل » . وقواعد هذه اللعبة ان الأم قد تنزله عن عرش اهتمامها وحبها لو اخطأ . ان الطفل يجب ان يشعر انه محبوب كما هو بحسناته وسيئاته ولا يجب ان تهتز ابداً مكانته . انه يفضل المكانة الثابتة .

وأنا عندما اقول اننا يجب ان نؤكد للطفل انه افضل واحسن واكثر نضجاً

من الطفل الوليد، فإنما اعني بذلك ان نشرح عيوب مرحلة الرضاعة للطفل . وان نشرح له كيف ان الحياة اكثر بهجة كلما نضج الانسان . وأريد ان احذر الآباء والأمهات من ان الطفل اذا تملكته احاسيس الغيرة من الوليد وظهر انه يتجه الى النكوص نحو مرحلة الرضاعة اكثر من ان يتجه الى الاحساس بالفخر والاعتزاز لأنه الأكبر سناً ، اريد ان احذر الوالدين من مغالاة كل منهما في اتهام الطفل بأن كل ما يفعله هو من افعال الأطفال . وان يبالغ كلاهما في وصف كل ما لا يفعله على انه من تصرفات الكبار . ان هذا الأسلوب من امتهان سلوك الطفل يدفعه الى الاقتناع بضرورة التخلي عن « مسؤولية » ان يكون « ناضجاً » ويتمنى لنفسه ان يعود الى مرحلة اللامسؤولية المطلقة وهي « مرحلة الرضاعة» . اننا يجب ان نلاحظ ان الطفل يرغب فعلاً في النضج ويعمل للوصول اليه حتى يمكن ان يأتي تشجيعنا له بنتيجة عملية .

وهناك مجال آخر يمكن ان يساعد الطفل الأكبر على السير قدماً في طريق النضج عندما يولد له شقيق جديد. ان علينا ان نشجعه على ان يلعب معنا دور الوالد. هذا الدور يجعل الطفل الصغير البالغ من العمر ثلاثاً او اربعاً او حتى ست سنوات يمتلىء بالفخر الحقيقي. وهذا الاحساس يجعله يشعر انه اصبح اكثر نضجاً واكثر قدرة على تحمل المسؤولية لأن الطفل من اعماقه يتمنى عادة ان يلعب دور الأب . فعندما نمنحه هذه الفرصة فهو يعتبرها مكسباً كبيراً وتجعل الطفل الأكبر يتحمل مسؤولية فعلاً . ولكن في حالة تفضيل الطفل الأكبر للارتداد والنكوص على القفز فوق سنوات العمر فإن الأم ايضاً تستطيع ان تخلق فيه الرغبة في لعب الدور المفضل : دور الأب . ان الطفل بطبيعته يفضل الهرب من المأزق المؤلم الذي يولده الاحساس بالمنافسة مع الوليد وليس فقط عن طريق تمثيل دور الذي « كبر » على مرحلة الطفولة ولكن لأنه يمكنه ان ينظر الى المسألة من وجهة نظر اخرى . وهي ان يعامل هذا الوليد على أنه والده الثالث . وهكذا تنقلب احاسيس الغيرة الى احاسيس ناضجة تميل الى حب الآخرين والعمل من اجل رعايتهم . . وتعرف الأم جيداً كافة الوسائل التي يمكن تتبعها لاثارة الرغبة في لعب دور الأب من نفسية الطفل الأكبر كأن تتحدث عن الوليد دائماً مع طفلها

الأكبر قائلة : « انه طفلنا نحن الثلاثة انا وانت وبابا». وأن تطلب منه ان يحضر « الملفّة » من الدولاب او يحمل عنها المرضعة او ان يساعدها في اعداد حمام الوليد وان تحمّله مسؤولية رقابة الوليد عندما تكون مشغولة في المطبخ او ان يستقبل الضيوف في حجرة الوليد ويتحدث معهم عنه . وتستطيع الأم بذكائها اكتشاف اكثر من وسيلة لتحقيق الهدف وهي ان يحس الطفل الأكبر انه يساعدها فعلاً في تربية الطفل الوليد حتى ولو كانت المسؤوليات التي تسندها اليه تعطلها بعض الوقت عن القيام بعملها في فترة قصيرة . اننا نعرف ان البنت الصغيرة تشعر بشكل غير مباشر بالسعادة عندما تقلد أمها وهي تلاعب دميتها . والبنت أيضاً تستطيع ان تعامل الطفل الوليد على أنه دميتها . .

وطبعاً اريد ان اقول ان تشجيع الطفل الأكبر على القيام بدور الأب بالنسبة للوليد او تشجيع البنت لأن تلعب دور الأم ، اريد ان اقول ان هناك حدوداً يجب الا نتخطاها . مثلاً لا يمكن ان نسمح لطفل في الثالثة او حتى في السادسة ان يحمل أخاه الرضيع ، أقول ذلك لأن الطفل الأكبر يرغب تماماً في حمل الوليد ولهذا فعندما يستطيع الوليد الجلوس يمكن ان نفرش لهما بساطاً على الأرض ليجلسا معاً وحتى اذا وقع الوليد في هذه اللحظة فلن يكون الوقوع من مكان مرتفع . وعلينا ان نعرف ايضاً أن الطفل الأكبر يرفض ان يلعب دورالأم ،لذلك علينا ان نسند اليه المهام التي تسند الى الرجل كأن يحضر شيئاً ليس في متناول يدنا لا أن يغسل مثلاً زجاجة الحليب التي تطعم منها الطفل. كما ان الطفلة التي لم تبلغ بعد الثالث من عمرها لا نستطيع اكتشاف الرغبة في اعماقها لأن تلعب دور الأم . وتتوقف المسألة ايضاً على « حرارة » العلاقة بين الطفل وبين أمه . وعلينا ايضاً ألا نجعل من دور « الأب » دوراً مرهقاً بالنسبة للابن او ان نجعل دور « الأم » دوراً شاقاً في حياة الطفلة حتى لا نجعل الطفل الأكبر سواء أكان ولداً او بنتاً يتضرر ويرفض ويضجر من القيام بهذا الدور . ان علينا ان نترك للطفل الأكبر حرية اختيار الوقت الذي يلعب فيه هذا الدور حتى يكون سعيداً به . وعلينا أيضاً أن نلاحظ ان الطفل قد يرغب في أن يوجه العتاب وأن يمارس السلطة تحت ستار دور « الأم » او دور « الأب » لأن الطفل عندما تستبد به الغيرة قد يميل الى اعلان

غضبه من الطفل الوليد وسخطه عليه . وهنا يجب ان نعرف ان الطفل لم يتخلص بعد من آثار غيرته من الطفل الوليد .

هناك جانب آخر يمكن ان يجعل تجربة الغيرة في حياة الطفل تجربة تبني اكثر مما تدمر . ان الطفل الذي يساعده والده على تخطي حدود الغيرة ومتاعبها ، تصبح شخصيته مصقولة وقوية ، لأنه سيتخلص من الخوف من ان الوليد سيسرق منه اهتمام والديه أو أن الوليد سيكون جداراً بينه وبين حب والديه له . صحيح انه يشعر بالغيظ والضيق من المولود أكثر مما يحس بالحب ، لكن استمرار حب والديه له واستمرار اهتمام والديه به يجعله يحس ان الوالدين لم « يخوناه » مع المولود الجديد ، فيشعر بالاطمئنان . وستصقله هذه التجربة بحيث يصبح أقوى وأكثر تأكداً من حب والديه له وسيكون اكثر تسامحاً وتعاطفاً مع غيره من الأطفال . ان ما يحدث مع الطفل الأول في حالة ميلاد شقيق جديد له هو كاحساس المقاتل الذي يخوض الحرب للمرة الأولى . فإذا نجح في أول معركة استطاع ان يثق بنفسه . وهو احساس الأم ذاته عندما تلد للمرة الأولى ، فهي لا تتعب كثيراً في الولادة الثانية . وأنا أؤمن أن مرور طفل بتجربة غيرة ناجحة بناءة تجعله أكثر حباً للطفل الثالث في الأسرة وأكثر حباً لسائر الأطفال .

وهناك كثير من الأمهات يرسلن لي رسائل تحمل الشكوى من أن كل الارشادات التي تسمعها عن علاج الغيرة بين الأطفال وكيف تجعل الطفل الذي بلغ سن الثالثة او اكثر يستعد لتجربة ميلاد طفل جديد ، بينما لا توجد اي ارشادات تقول للأم كيف تجعل طفلاً في عامه الثاني يشعر بالاستعداد لمجيء اخ جديد . انني اعرف صعوبة هذا الموضوع . إننا لا نستطيع بالفعل ان نشرح للطفل الذي عمره عام واحد ماذا يعني مجيء طفل جديد . انه لا يفهم كل ما نقول . فهل يستطيع فقط ان يقلد نطقنا لبعض الكلمات . وقد يستطيع فقط ان يكون صورة باهتة الظلال عن الموقف الجديد عندما نعد السرير الجديد للصغير . وقد يفرح عندما يشاهد كتاباً يحمل صوراً عن طفل حديث الولادة . وهو طبعاً غير مستعد نفسياً لأي احاسيس ستدور داخله عندما يرى المولود بين ذراعي الأم . ولهذا اقول ان على الأم ان تبذل الكثير من الجهد قبل ميلاد الطفل بشهور

بأن نجري حركة تغير في المنزل وان تعلن عن قرب مجيء صديق جديد للطفل والا نغالي في التحمس لهذا الصديق الجديد. والا نحاول المبالغة بإظهار الحنان عندما يولد هذا « الصديق » الجديد . وليس معنى ذلك ان نظل في موقف المنكر لوجود هذا « الصديق » . فالطفل يجب أن يحس بأنه محبوب منذ البداية . وعندما يظل اهتمام الوالدين كما هو بالطفل الأكبر ذي العام الواحد من العمر ، فإنه سيستريح نفسياً ولن يغرق في القلق . والاهتمام عند الطفل معناه ان يلعب معه والده وان يتحدثا معه وان يشاركاه في معظم ما يفعل .

وطبعاً ليس هناك داع الى التأكيد على ضرورة حماية الوليد من اذى اخيه الذي يكبره بسنة او اثنتين او ثلاث ، ان علينا ان نعرف انه سيحاول ان يفعل ذلك بأي طريقة وبكل وسيلة،ولهذا يجب ان « نفتح » اعيننا جيداً . وان نكون حاسمين مع الطفل عندما يتطور الأمر الى العدوان على أخيه الوليد . ويجب ان نضع الوليد في غرفة مغلقة بالمفتاح عندما تكون الأم مشغولة في المطبخ . ونحن اذ نفعل ذلك فإننا ننقذ الطفلين معاً . ننقذ الوليد من الأذى ، وننقذ الطفل الأكبر من الاحساس بالذنب لو فعل ما يؤذي أخاه الوليد . ان الطفل الأكبر قليلاً لا يستطيع ان يمتنع عن ايذاء أخيه الوليد وهو ايضاً يطلب من الكبار حمايته من هذه الأحاسيس العدائية عن طريق منعه من تنفيذها .

اخيراً أقول : ان اهم ما يساعد الطفل على ان يجتاز تجربة الغيرة هو ان تتحدث الأم معه بودّ وتفهم لمشاعره وسخطه على هذا المولود . وعلى الأم عندما تلاحظ ان طفلها الأكبر غارق في الهم والاكتئاب ان تقول له انها تعرف انه يتمنى ان يذهب هذا الوليد بعيداً عن البيت وان يظل هو مع الأب والأم . ان هذه الوسيلة تهدىء من قلق الطفل وترفع معنوياته وتنقذه من أحاسيس الذنب وتجعله لا يشعر بأنه ليس من العار ان يظهر بعض الكراهية والعداء نحو أخيه بدلاً من ان تستقر هذه المشاعر العدائية في اعماقه وتؤذيه ، كما ان هذا الحديث بين الطفل وامه يؤكد للطفل انه ما زال محبوباً من الأم ، وهذا يبتعد به عن اليأس .

معارك الأخوة وخلافاتهم

علينا الابتعاد عن دور القاضي الذي يصدر حكماً في كل خلاف بين الأبناء لأن هذا يزيد في عدد المعارك بينهم ويشعل نيران الغيرة والمنافسة .

الصراع والشجار والمناقشات الحادة بين الأولاد ، فالطفل يقرص أخاه والثاني يعض اخته ، وفجأة يحتدم الصراع ليصبح اشتباكاً بالأيدي وتحاول الأم ان تجد حلاً لهذا الشجار الدائم بين الأخوة وقليلاً ما تنجح ، ويصل الأمر الى حد الاحساس بالارهاق العصبي وخيبة الأمل ، وقد تصل الظنون الى الحد الذي تتخيل فيه الأم ان ابناءها يكره بعضهم بعضاً . وانا يصلني كل اسبوع اكثر من خطاب تشكو فيه الأم من خلافات الأخوة ومعاركهم واحياناً أقوم بزيارة أسر بعض الأطفال المرضى فأجد سائر الأخوة في حالة من العراك لدرجة ان الارهاق يصيبني بعد ثلث ساعة فقط لأن الفوضى تصبح شاملة في مثل هذه الأسر . طفل يصرخ . آخر يستنجد بأمه أو ابيه . واحد يضرب شيئاً على الأرض . الثاني يكسر شيئاً آخر . انها حرب من الأعصاب الملتهبة التي لا تهدأ . وهنا أطرح السؤال التقليدي .

هل هذا هو حال الاطفال في هذا المنزل طول الوقت .

وتجيب الأم باحساس بالخيبة والمرارة :

أحياناً يصل الأمر الى ما هو أكثر من ذلك .

وأكاد اضرب كفاً بكف لأن الحياة على مثل هذا المستوى من المعارك الدائمة لا يمكن تحملها ، لأن اعصاب كل من في المنزل لا يمكن ان تتحمل هذا القدر المنكر من الضجيج .

لكن أليس هناك من حل ؟

طبعاً ، هناك حل . . ولكن قبل ان نبحث عن حل لمعارك الأطفال اليكم هذه الحكاية التي ادهشتني عندما انقلب العراك والخصام والتقاتل والشجار بين اطفال احدى الأسر الى حالة من الود والحب والصداقة والحنان .

كانت احدى الأسر تعاني من سلسلة المعارك التي لا تنتهي بين اطفالها ، وفجأة اكتشف الوالدان ضرورة ان يستريحا من متاعب الأبناء . فقررا أخذ اجازة لمدة ثلاثة اسابيع بعيداً عن هؤلاء الشياطين الصغار . وكان عدد الشياطين الصغار ثلاثة ، لا تنتهي بينهم معركة حتى تبدأ أخرى . وكان احساس الأم والأب بالذنب شديداً ، لتركهما الأطفال ولو في صحبة مربية ممتازة تم الاتفاق معها على ان تقيم مع الأطفال هذه الأسابيع الثلاثة لقاء أجر محدد . وخلال رحلة القطار الى المدينة التي سيقضي فيها الوالدان الاجازة كان القلق يظهر على وجه الأم لأنها خائفة على الاطفال في معاركهم لكن الأب قال بصوت حاسم :

« اننا في اجازة ويجب ان نستمتع بها . لا تنسى اننا اتفقنا مع والدتك على ان تزور الأطفال يومياً » .

بعد ان نطق الأب بهذه الكلمة شعر انه ايضاً قلق بعض الشيء على الأطفال . وبعد ٤٨ ساعة من جودهما في المدينة البعيدة استبد القلق بالأم فطلبت منزل الأسرة بالتليفون لتطمئن على حال الأطفال والى أين وصلت بهم المعارك وخصوصاً ان أعمار الأطفال تتراوح بين الثالثة والثامنة. وهل ضرب احدهم الآخر واستدعى الأمر الذهاب الى أحد المستشفيات، ام ان المسائل ما زالت تسير بشكل مزعج ولكن دون اصابة أي فرد منهم . وفوجئت الأم بأن الذي يرد عليها هو طفلها الكبير وكان غاية في الهدوء، وهو يقول :

« لم نتشاجر ابداً . كل شيء هادىء والمربية انسانة رائعة وهي تجيد رواية

الحكايات » . وبعد أن تأكدت الأم بأن كل ابن من ابنائها بسلام ، حاولت ان تتصل بوالدتها التي تزور هؤلاء الأبناء يومياً واكدت لها جدة الأطفال ان الأبناء قرروا الاحتفاظ بهذه المربية القوية الشكيمة التي جعلت هؤلاء الشياطين الثلاثة يحترمون بعضهم بعضاً ويتعاملون بمنتهى الأدب والرقة والذوق . وجعلت الأسد يجلس بجانب الثعلب والثعلب بجانب الأرنب في هدوء .

هكذا يمكن ان نعرف بأن هذه المربية استطاعت بأسلوب ما سوف نشرحه بعد قليل أن تصل الى تعليم الأطفال كيف يمكن ان يتعايش الأخوة تحت سقف واحد دون ان يسببوا أي ازعاج للأهل او ازعاج انفسهم. ولكن الان نريد ان نقول ان أسباب المشاجرات بين الأطفال الأخوة تختلف نسبتها من اسرة الى اخرى وهناك نوعان من الأطفال يخوضون فى هذه المعارك ويجب علاجهم فوراً عند الاخصائي النفسي . النوع الأول وهو الطفل العدواني بطبيعته : لا يعتدي على اخوته فقط ولكنه يعتدي على أي طفل آخر ما دام هذا الاعتداء يمر بدون عقاب . وهذا الطفل في الغالب يعاني من توتر عنيف في العلاقة بينه وبين والديه .وقد قلت انه من الأجدى أن نبحث لعلاج هذا الطفل عن الطبيب النفسي . وهناك طفل اخر يجيد استفزاز الآخرين ،. ويصطاد لنفسه المتاعب ويجعل بقية الأطفال يعتدون عليه ، فهو يجيد في النهاية تمثيل دور الضحية والشهيد . وهذا الطفل ايضاً يحتاج الى علاج سريع وفعال في احدى العيادات النفسية لأن حالته تختلف عن حالة الطفل العدواني الأول . ان العدواني قد يتخلص من هذه النزعة العدوانية عندما يبلغ سن المراهقة ، اما الذي يحترف دور الضحية والشهيد فعلاجه لا بد ان يتم بسرعة لأنه قد يتمادى في هذا الدور حتى النهاية .

والآن عودة إلى المربية التي استطاعت ان تصل بالمنزل المتوتر المليء بمعارك الأخوة الى مرحلة من الهدوء عن طريق رغبتها الجادة في أن يكون المنزل هادئاً . وفرضت ذلك على الأطفال بمنتهى الجدية والحسم. ان العامل الهام في الحفاظ على بيت خال من معارك الأطفال هو اصرار الأمهات والآباء على ان يظل البيت هادئاً وان تعمل المربية على ذلك في شكل حاسم لا يقبل المناقشة من الأبناء . ان كل ام قد تقول « انا اتمنى ان يكون بيتي هادئاً وخالياً من المعارك بين

ابنائي لكني لا استطيع». وأنا اقول ان الأم هنا تكتفي فقط بأن تلقي الأوامر الى الأبناء ليكونوا هادئين ولكن نبرة الصوت وطريقة اصدار الأوامر ليست حاسمة ولا تحمل اقناعاً بأن الطفل يجب ان يكفّ فعلاً عن الشجار مع اخيه . ان طريقة الحديث مع الطفل يجب ان تحمل قدراً من الاحساس بأن الأم قوية الارادة، لديها من السلطات ما يتيح لها ان تعاقبه ويجب أن تواصل الأم الاصرار على ان يطيع الأبناء اوامرها بخصوص عدم الشجار حتى ينتهي الشجار فعلاً . لأن الأم التي لا تفعل ذلك وتكتفي بأن تقول في صوت ضعيف: «اسكت يا ولد انت وهو»، انما تحول سلطتها الى مجرد شكوى قد يتعامل معها الطفل بالقبول او الرفض . والأم التي لا تثق في نفسها تتوقع دائماً ان تقوم المعارك بين ابنائها كما ان بعض الأمهات يشعرن بالرضى عن هذه المعارك وهو نوع من الرضى الشاذ اللاشعوري بل ان بعض الأمهات تكاد الواحدة منهن ان تتفاخر في حديثها مع الصديقات بهذا الشجار الدائم بين ابنائها، وهذا النوع من الأمهات قد يتسم في ضعف عندما يتشاجر الأطفال او تهمل الواحدة منهن مسألة الشجار بين الأبناء لا لشيء إلا لأن «لا شعور» هذه الأم يحمل ذكرياتها عن الضجيج والمعارك التي كانت تنشب بينها وبين اخوتها. ان الأب والأم اللذين لا يريدان فعلاً قيام أي معركة بين ابنائهما يستطيعان ذلك او على الأقل يستطيعان الحد، نوعاً ما، من مقدار هذه المعارك كيلا تتحول الى ضوضاء مزعجة كالبحر الهائج ، رغم ان الأطفال سوف يحملق احدهم في الآخر او يتمتم بكلمات غاضبة . وطبعاً يفلت الزمام في بعض الأحيان من الفارس الذي يقود عربة فيها اكثر من حصان وقد يرتبك سير العربة ولكن الفارس الناجح هو الذي يستعيد الإمساك بالزمام بسرعة ويسوق العربة في الطريق السليم . وهذا ينطبق على الآباء والأمهات ايضاً ، فأحياناً تقوم المعارك العنيفة بين الأبناء ولا نستطيع ان نضبط المشكلة ولكن في اغلب الأحيان نحن نستطيع ان نضبط المشكلة ونجعل الاطفال يتصرفون بكل هدوء . اما الأسر التي لا تستطيع ان تصل الى ذلك فلا بد ان تلجأ الى اخصائي في التربية يساعدها على ضبط امور الأطفال وعدم قيام المعارك بينهم .

وهناك عامل آخر غير مسألة سيطرة الأب والأم على سلوك الأبناء وهو

احساس الأب او الأم بالتوتر . . انني اؤمن ان الحالة النفسية للأب او الأم تنعكس بشكل او بآخر على سلوك الأبناء . فعندما يكون الوالد موفقاً في عمله او حياته العامة وليس ما يشغل البال على اي شيء، فإن عدد المعارك بين الابناء تنخفض بصورة كبيرة ، بينما عندما يكون الهم والغم والحزن مسيطرة على نفسية الأب او الأم فإن المعارك تزيد بين الأبناء ، لأننا لن نعامل احد الأبناء بالهدوء المعتاد ولن نمتنع عن القسوة على واحد من الأبناء في لحظة ضيقنا ، وهنا لا بد ان يجد الطفل كائناً آخر ينتقم منه فيبدأ في افتعال معركة مع احد اخوته . انها الطبيعة الانسانية ونحن اذا تعرضنا للاضطهاد من جانب احد من الناس ، فإننا نحاول البحث عن انسان آخر نضطهده .

ولا بد أن نعرف أيضاً ان الغيرة هي عامل قوي وأساسي في قيام المعارك بين الأخوة . ان الطفل يؤمن ايماناً عميقاً أن حب أبيه وأمه له يجب ألا يتزعزع ويجب الا يشاركه فيه أحد ويخاف ان « يسرق » أحد الأخوة جزءاً من حب الأب أو الأم . والخوف يولد الشك في هؤلاء الأخوة بل والغيظ منهم . وهذه الأحاسيس تختلف من طفل الى آخر اختلافاً شاسعاً . فالطفل الذي عاش فترة طويلة كابن وحيد للأسرة يعتبر أن والده ووالدته ملك له وحده . وهذا الطفل الذي لم يتعد عمره ثلاثة اعوام قد يشعر بالغضب والغيظ والضيق عندما يولد طفل آخر سيشاركه في حب الأب والأم وامتلاكهما. ان ذلك يحدث أيضاً في مجال العمل عندما يأتي موظف جديد ينافس الموظف القديم . او حتى في مجال الصداقة عندما يظهر في افق أعز اصدقائك صديق ثالث يشاركك في هذا الصديق المخلص . وطبعاً لا يجب ان تشعر بالأسى والحسرة لأن هناك غيرة لدى الطفل ، ان ذلك ليس عيباً يستحق الأسف من اجله . انه جزء من طبيعتنا الانسانية . وهو دافع الى الترابط في الأسرة وفي المجتمع ، وإلا أصبحت علاقاتنا الانسانية كلها علاقات غير دائمة ولا تاريخ لها ، كالعلاقات بين الحيوانات .

ونحن نعرف أنه كلما تقارب الأخوة الأطفال بالعمر، كلما كان الجو مهيأ للمعارك لأن الطفل الأصغر يشارك الأكبر في الحب وقد ينافس الطفل الأوسط على مركز اهتمام الأسرة به وهذا المركز هو هدف كل طفل في الأسرة . والطفل

الأكبر سيبحث عن منافسه الحقيقي في حب والديه وهكذا تنشأ المعارك . لكن هناك ايضاً أسباب اخرى تزيد من المعارك بين الأخوة المتقاربين في العمر وأهم هذه الأسباب هو ان الأب والأم يساويان بينهم تماماً وهذه المساواة مزعجة للطفل لأنها تجعله كائناً غير مستقل في نظر نفسه . ان هناك من يقف نداً له في اهتمام الوالدين . كما ان حجم الطفل وشخصيته لهما اثر في هذه المعارك . فالطفل البشوش يكون اقل غيرة من اخوته ، بينما الطفل الذي يرغب في تأكيد ذاته هو كثير المعارك ، كثير الضجيج يشعر بأن هناك منافساً له . والطفل البطيء الفهم او التفكير قد يعلن المتاعب عندما يولد في اسرة تتسم بالذكاء . والفتاة التي ليست جميلة جداً بين اخواتها الجميلات للغاية والطفل القصير القامة بين اشقائه الطوال جداً . والفتاة التي يحب والدها اخاها اكثر منها قليلاً . كل هذه الحالات تعاني من احساس طاغ بالغيرة خصوصاً عندما يكون جو الأسرة نفسه مساعداً على إيجاد هذه الغيرة واشتداد المنافسة بين الأطفال .

ويجب ان ندرس ايضاً ردود الفعل التي تحدث عند الأمهات والآباء عندما يشعر الأبناء بالغيرة بعضهم من بعض . قد يقول قائل ان عدم مساواة الأم في حبها الاثنين من أبنائها هو السبب الأساسي في المنافسة . وهذا الرأي يظهر كثيراً في « قصص » الأطفال ويعتبره عامة الناس قاعدة عامة . ولكنني أرى أن هذه القاعدة خاطئة تماماً من اساسها . . لأننا لا بد ان نعرف انه لا يوجد حب متساو في هذه الحياة . ان كل أم تحاول أن تحب ابناءها بالتساوي وهي تظلم نفسها في هذه المحاولة ، وكذلك كل أب يظلم نفسه بهذه المحاولة . ان في كل ابن صفات معينة تجعلنا نحبه وهي تختلف عن صفات أخيه . ولا يمكن ان نضبط حجم ابتسامتنا ونحن نعامل كل طفل لنجعل كل ابتسامة متساوية للأخرى التي ابتسمناها من قبل للأخ الآخر . ولا يمكن ان نكرر الكلمات الغاضبة نفسها عندما يسلك احد الأبناء سلوكاً يستحق عليه اللوم وان نحاول ان نقول الكلمات ذاتها لأخيه الآخر . ان هذا سيجعل الحياة تبدو وكأنها تمثيلية سخيفة ولا يمكن ان ينخدع الأطفال بهذه المظاهر . والطفل عموما وبخاصة عندما يصبح على عتبة النضوج يكره تماماً أن يساويه احد بآخر ويكره ان يقارن احد بينه وبين اخوته

سواء كانت هذه المقارنة لصالح الطفل ام ضده . ان الطفل يجب ان يجد نفسه محبوباً من والديه لذاته وليس لأي سبب آخر . وعندما يتأكد الطفل من مكانته في قلب الأم والأب فإنه لا يهتم بما يأخذه بقية الأخوة من حب الوالدين . اذن على الأم وعلى الأب ان يمتنعا تماماً عن المقارنة بين الأبناء او الإعلان لأحدهم بأنهما لن يحباه، وهذا هو أساس علاج الغيرة والمعارك بين الأطفال . ان أسهل الطرق التي يمكن ان تشعل بها الأم نيران الغيرة والمعارك بين الأبناء هي المقارنة الدائمة بين اثنين من ابنائها . فذلك يخلق الشعور في اعماق أحد الطفلين بأنه مكروه من الأم ويجعله يكره أخاه الذي تعلن الأم انها تفضله . وأنا اعتقد ان معظم الآباء والأمهات يعرفون جيداً مضار هذا الأسلوب ويبتعدون عنه . وقد قلت من قبل تحذيراً للأمهات والآباء من عدم محاولة الوصول الى مساواة مطلقة في معاملة الأبناء لأن ذلك ضرب من المحال . ان بعض الأمهات يحتم عليهن الضمير الحساس أن يحاولن المساواة بين الأبناء فتشتري الواحدة منهن لكل ابن لعبة مشابهة تماماً للعبة الآخر وتعطي كل ابن النقود نفسها التي تمنحها للابن الآخر . وعند شراء الملابس فالأم تشتري النوع واللون نفسه لكل واحد من الأبناء . واذا اشترت مثلاً فستاناً لأحدى البنات فإنها تشتري لأختها فستاناً من النوع ذاته وان لم تكن الأخت الأخرى في حاجة الى مثل هذاالفستان،واذا أخذ الوالد احد الابناء في رحلة فإن الابن الآخر يصر على ان يخرج مع الأم في رحلة مشابهة . إنني اقول ان هذا ارهاق للوالدين ولا بد لنا ان نعطي كل ابن ما يستحقه دون ان نخلق هذا الاحساس العنيف بالمساواة لأنه يحول الأخوة الى أسود كل أسد يتربص بما اصطاده الآخر ويريد صيداً مشابهاً انني ما زلت أشفق على الأم التي كان يتعارك ابناؤها الأربعة كل يوم ليجلس كل منهم بجانبها الى مائدة الطعام ، لدرجة انها وضعت جدولاً اسبوعياً بحيث يجلس كل ابن بجانبها عدداً من المرات يساوي عدد المرات التي جلسها أخوه او اخته . وأقول ان الأبناء يتحولون بهذا النوع من المساواة الى نوع حساس للغيرة ، حساس للكراهية ، حساس لأي ميزة يأخذها احد اخوته دون ان يدري . ويصبح البيت ساحة للمعارك وتجعل كل ابن يشعر انه مظلوم بشكل او بآخر . ان وقوع الأمهات في براثن هذا الاحساس بضرورة

المساواة المطلقة هو خطر يجب ان نبتعد عنه . لأن الأم يجب ان تثق بنفسها وبقدرتها على معاملة كل طفل بما يستحقه فعلاً وان تحاول الأم ان تتذكر جيداً آثار الغيرة القديمة النائمة في اللاشعور بينها وبين اخوتها لعل ذلك هو السبب في محاولتها لعدم تفضيل طفل على آخر . لهذا فهي تخاف على مشاعر ابنها او ابنتها . ولهذا فهي تحاول ان ترضي كل ابنائها . إنني اقول انه لا داعي لارهاق النفس بكل هذا العدل القاسي . لا داعي ان نشتري لعبتين من صنف واحد ومن لون واحد لطفلين لأننا سوف نسمع ببعض النقد يوجه للعبة التي احضرتها وسيرغب الطفل في ان يأخذ لعبة اخيه . اما لو قررت الأم انها ستعاقب الاثنين معاً لهذا التمرد الذي لا سبب له على اللعبة التي تهديها الأم للطفلين ، فإن كلا من الطفلين سيأخذ حذره قبل ان يتمرد . ولا داعي ان نشتري للطفلتين ملابس متشابهة لأن ذلك سيسبب ايضاً المشاكل ، لكننا نشتري لكل ابنة ما تحتاجه فعلاً . واذا ثارت معركة حول ترتيب الجلوس على المائدة فلا بد للأم ان تصدر اوامر حازمة بأن يجلس كل فرد في مكانه . ان الحزم مسألة هامة في التربية . وعلى الأم ان تؤكد بسلوكها لاطفالها انها لا تخاف من اي اتهام لها بأنها تفرق بين واحد وآخر في المعاملة وانها ترفض تماماً ان يستغل احد الأبناء اي فرصة ليوجه لها هذا الاتهام لأن الأسلوب الصحيح الذي يجب ان تتبعه الأم مع كل طفل هو انه شخص يتمتع بكيان مستقل . نشكره عندما يتسحق الشكر . نؤدبه عندما يستحق ان يؤدب . نمنحه هدية عندما يستحق ذلك . نحدد له ميعاد النوم . نكلفه بمساعدتنا في اعمال المنزل . نضع امامه احلام التفوق في المجال الذي يهواه ونساعده على ذلك .

بقي ان نناقش موقف الأم عندما تبدأ المعركة فعلاً بين أبنائها . كيف يمكن ان تتصرف لتضع حداً لها . ان بعض الأمهات يقعن في خطأ اختيار دور القاضي الذي سيحكم في قضية الخلاف بين الأبناء . ويجب ان نبتعد عن اختيار دور القاضي لا لشيء إلا لأن ذلك الدور هو الذي يدعم غيرة الأخوة فيما بينهم . لأن الطفل سيحاول ان يثبت انه بريء وانه يستحق حنان الأب وان أخاه هو الذي يستحق العقاب . ولهذا فإن المعارك ستتكرر وسيحاول كل طفل ان يثبت

انه بريء ثم يحاول في الخفاء ان يثير معركة اخرى مع اخيه . والطفل الذي يشعر بالغيرة فعلاً من أخيه سيحاول ان ينظر الى شقيقه بنوع من الشك ، وسيحاول انتهاز فرصة للعدوان عليه او يتوهم ان في سلوك اخيه اي عدوان عليه . ويصبح الهدف من كل معركة ان يفوز الابن برضاء الأب والأم وان يجعل أخاه يستحق العقاب .

لكن ماذا نفعل اذن لو حدث اشتباك بالأيدي ؟ . انا شخصياً أفضل ان اترك الاثنين يعالجان أمورهما بأنفسهما اذا كان كلاهما متساوياً مع الآخر في القوة الجسدية ، لأن ذلك سيزيد من فهم كليهما لقوة الآخر . اما اذا كان احدهما سيؤذي الآخر اذى كبيراً فيجب ان نتدخل وان نمنع العدوان .

ان أنواع المعارك بين الأخوة تتفاوت ، فهناك معارك بسيطة وهناك معارك عنيفة . يمكن في المعارك البسيطة ان نغض الطرف . ولكن لا يجب ان نسمح بأن يتحول المنزل الى ساحة حرب يومية بين الأخوة لأن ذلك يدمر اعصاب كل من في المنزل ويؤثر على شخصية كل طفل ايضاً . وهنا يجب ان نصدر الأوامر وان نجعلها تنفذ فوراً دون ان نتحيز لأحد ضد احد وان نرفض سماع شكوى اي واحد منهم ضد الآخر . ان ذلك سيقلل من المشاكل والمعارك بين الأخوة .

ان الأمر يتطلب حزماً واصراراً وقدرة على ادارة شؤون الأبناء دون الرضوخ لهم والامتلاء بالثقة بالنفس ومحاولة ان نجد هواية لكل طفل نشغله عن العراك مع اخيه وان تحاول الأسرة ترك المنزل مرة في الأسبوع ليستمتع الأطفال بالنزهة لأن جدران المنزل دائماً اربعة ودائماً عندما يطول الجلوس فيها تلوح فرصة للمعارك .

كيف نجعل الابن يطيع الأوامر ؟

انا نعكس توترنا على الأطفال في بعض الاحيان فيبدأ الطفل في التمرد على أي أمر نصدره اليه .

كلنا كآباء وأمهات نحلم بأن تصبح الحياة مع الابن سهلة وهانئة ونتمنى ان نقول الكلمة فيسمعها الابن ويهضمها ويحاول بشكل او بآخر ان يقرأ كل افكارنا ويصبح وديعاً ليناً ، ولكن الواقع دائماً يختلف عن ذلك . ان الكثير من الأمهات يقلن :

ـ كيف اجعل ابني يسمع الكلام ويطيع الأوامر ؟

وهذا ليس سؤالاً ، إنما هو شكوى من هذا الطفل الذي يشبه الحصان الجامح الذي يصعب التحكم فيه . . وهو دعوة لأن نبدي العطف والفهم نحو الأم ضد هذا الطفل المعبأ « بالعفرتة » . ونحن جميعاً نفقد احياناً القدرة على الحسم مع الطفل ، ولا نعرف كيف نسيطر عليه . وهذا امر طبيعي ، لكني اريد ان اتحدث عن مسألة غير طبيعية هي ان يفقد الأب او الأم سلطانهما على الابن ، ويجمع الابن فعلاً فلا يسيطر عليه احد . ويظهر هذا بوضوح في بعض الحالات بالغة التطرف .

إن الأم التي تسأل عن الأسلوب الذي يجعل ابنها « يسمع الكلام » ويطيع الأوامر نريد ان نوجه اليها سؤالاً آخر : « هل انت جادة فعلاً عندما تتحدثين مع الطفل وحين توجهين اليه اوامرك ؟ » .

من المؤكد ان الأم ستقول « نعم » ، لكن هذه الاجابة ليست كاملة . إننا

لو وصفنا تصرفات الأم اثناء احدى نوبات شغب الابن وعبثه بالمنزل لاستطعنا ان نحدد السبب في عدم اطاعة الطفل للأوامر . وهذه هي الأمثلة التي رأيتها بنفسي تجلس احدى الأمهات غير منتبهة لطفلها وهو يلعب بكوب اللبن ، فلا تلتفت الى الابن إلا عندما يدلق كل ما في الكوب من لبن . سيدة اخرى تمر بالموقف نفسه فتصرخ في الطفل « لا تلعب بكوب اللبن » بمجرد ان يلمس الابن هذا الكوب وبعد ذلك تنغمس في أي عمل من أعمال المنزل ، ويبدو الطفل كأنه لم يسمع أي كلمة قالتها او اقتنع بها ، وتفاجأ الأم بأن الطفل قد دلق كوب اللبن . وتضرب سيدة ثالثة ابنها عندما تضبطه وهو يكاد يتسلق احد الأماكن العالية من المنزل ، والتي لو وقع منها لاصابه ضرر كبير . وتفاجأ هذه السيدة بأن ابنها عاد الى تسلق المكان المرتفع بعد دقيقة واحدة من ضربها له ، فتيأس ولا توجه له أي كلمة . وعندما يعود الطفل الى تسلق هذا المكان المرتفع للمرة الثالثة تقول الأم بصوت كله اسى لصديقتها « كفى ضجرت ولا استطيع ان اقنعه بشيء » . وثمة سيدة رابعة تظل تتبادل الزعيق مع ابنها طوال النهار ويسمعها الجيران وهي تهدد الابن طوال الوقت « سأحبسك في المنزل واخرج . سأنادي لك الشرطي . سأضربك » . ولا تنفذ هذه الأم تهديداً واحداً من تهديداتها وكلماتها مع الابن الذي لا نجد عنده أي اقتناع . وهناك سيدة خامسة توجه اللوم لابنها لأنه ضرب أحد ابناء الجيران فيرد عليها « انت عبيطة وانا لا أخاف منك » . والغريب انها لا تضربه على هذه الاهانة الموجهة اليها ، بل قد تضحك لها ، لأن الابن يقولها بطريقة « ظريفة » . واحياناً اخرى تظل تصرخ في وجهه ويصرخ في وجهها حتى يمل احدهما من الصراخ ، فيبتعد عن الآخر . سيدة سادسة تقول خلال دموعها وهي تدخل ابنها الى المدرسة لأول مرة « انه عفريت » . وتسمع المدرسة منها هذا الرأي وتتعجب له ، لأن الابن يثبت خلال الأيام التالية أنه ولد مهذب للغاية . وثمة سيدة سابعة تقفز من مكانها صارخة في وجه ابنها الذي عمره عام واحد قائلة « لا تقترب من التليفزيون » . والحقيقة ان الابن لم تكن عنده أي نية للاقتراب من التليفزيون ، ولكن امه أثارت فيه الرغبة في التحدي ونبهته الى جهاز التليفزيون فيتجه الى جهاز التليفزيون ليعبث به ، بينما امه واقفة تتفرج عليه وهي تقول

لصديقتها « عرفت الآن لماذا حذرته ولماذا لا يسمع الكلام ؟ » وسيدة ثامنة كان والدها سكيراً ولهذا فهي تحاول ان تشم رائحة فم ابنها المراهق العائد من سهرة خارج المنزل وتسأله في شك « اياك ان تكون قد شربت خمراً ؟ » والحقيقة أن الابن لم يشرب أي نوع من الخمر ، والحقيقة ايضاً أنه قد يقرر بينه وبين نفسه أن يشرب الخمر في السهرة القادمة . سيدة تاسعة تكون قد ولدت ابنها منذ ساعات وعندما تحضره لها الممرضة في حجرتها ترى الطفل قد بدأ يمص اصبعه او بتقريب اصبعه من فمه فتقول « انه مولود عفريت » . تقولها بغضب رغم ان الابن لا يفهم شيئاً لأن عمره ساعات !! .

ومن المؤكد ان بعض هذه الحالات قد مرت امام أعين القارىء ، وتوضح لنا الأسباب التي تقف كجدار عال ضد تعليم الأطفال قواعد السلوك المهذب . لأن هؤلاء الأمهات يحاولن توجيه الأبناء الوجهة الصحيحة ، ولكن لا توجد عند أي أم رغبة جادة في اقناع الطفل بما تريده ان يقتنع به ، بل على العكس ، هناك بعض الأمهات اللواتي يعطين الابن اشارة البدء في التصرف السيء دون ان يدرين ، ويظهر لنا أيضاً خلال هذه الأمثلة خصوصاً المثل الأخير . ان الأم نفسها تتوقع أن ابنها سيكون سيء السلوك وتشك في قدرتها على السيطرة عليه وفرض احترامها في نفسه . وأظن أنه يكفي الحديث عن هذا النوع الضعيف الإرادة من الأمهات هذا النوع الكسول عن القيام بمسؤولياتهن . وأظن أنه لا بد عندما تكون الأم على هذه الدرجة البشعة من ضعف الارادة ، لا بد ان تتجه الى الطبيب النفسي لتطلب العلاج .

ولكن ليست هذه النماذج هي النماذج الوحيدة في الحياة . فهناك الأمهات القادرات على ادارة شؤون تربية الابن بمنتهى الود والحزم معاً . لكن علينا ايضاً أن نعرف أن هناك لحظات يفلت فيها الزمام فعلاً وتضعف الارادة لمدة بسيطة . وجميع الآباء قديماً سمحوا لنا ببعض « الدلع » ولم نعاقب على ذلك . وعندما كان يتهمنا أحد بقلة الأدب نتساءل في أعماقنا عن مدى غموض هذه الكلمة وهل نحن أشرار حقاً وهل لا يطالنا العقاب في لحظة الخطأ . ونقارن أنفسنا

بالأولاد ذوي التربية السيئة فعلاً . كان ذلك يحدث عندما يتوتر الجو بيننا وبين آبائنا قليلاً .

والآن نحن نعيش وظيفة الأب او الأم بدلاً من وظيفة الابن او الابنة ، الآن نحن احياناً نفتعل المعارك مع الأبناء كأننا أنداد لهم ولا نمارس مسؤوليتنا كمسؤولين عنهم . ونتصرف بروح من عدم الثقة بأنفسنا لمدة لحظات . ونعامل ابناءنا في هذه اللحظات على أنهم ذوو تربية سيئة فعلاً . يحدث ذلك عندما تكون أعماقنا متوترة . ويحدث العكس عندما تكون حياتنا بلا توتر وتكون نفسياتنا صافية من المشاكل والهموم ونطبق الأسس السليمة في المعاملة مع ابنائنا. في هذه اللحظات - وهي كثيرة - نجد أنفسنا قادرين بالفعل على قيادة ابنائنا دون تردد أو مشقة أو عناد ، ونحن في هذه القيادة السليمة للأبناء نستخدم عدداً كبيراً من الوسائل التي تكون في غاية المهارة دون ان نرهق أنفسنا ، تماماً كما يعزف موسيقار عظيم قطعة موسيقية يتقنها . ويساعدنا الطفل أيضاً في ذلك . ان الطفل يطيعنا في معظم الأحوال لأنه يريد ان نحبه وأن نرضى عنه مثلما يحبنا هو ، وهو يحاول بكل جهده ان يحصل على هذا الحب كاملاً حين يصبح عمره عاماً واحداً . وهو يبذل كل جهده عندما يبلغ ثلاث سنوات الى ان يصبح عمره ستة اعوام. انه يحاول ان يقلدنا وان يلعب دور الانسان الناضج الكبير. يقلدنا في سلوكنا المهذب ويقلدنا في التعاون مع الآخرين ويقلدنا حتى في اعمالنا ، وفي سنوات الدراسة فهو يحاول ان يقوم بواجبه كاملاً ليكون في مستوى اصدقائه الناجحين والمتفوقين . ان الصورة العامة لعلاقتنا بأبنائنا في سنوات حياتهم الأولى تكون طبيعية اذا عرفنا ان يكون الواحد منا مثلاً اعلى لهم . وان نوحي اليهم بهدوء وثقة ، كيف يتصرفون في مختلف المواقف وان نبعدهم عن السلوك الضار بهم ، وان نعتني بهم ونحاول ان نربي فيهم العادات الاخلاقية التي نريد لهم اكتسابها . ان الطفل يهوى ان تعامله كانسان ناضج . وعندما نعامله فعلاً على أنه انسان ناضج فإنه يستريح الى ذلك ويتصرف بنضج وبتقليد للناضجين . وعندما يقترب من الخطر فنحن نبعده عن هذا الخطر بالقوة . وفي العام الثاني من عمر الطفل يستطيع عقل الطفل وتفكيره أن يستوعبا ما نطلبه منه وما ننهاه عنه . ولهذا فنحن

جميعاً نستطيع ان نقول للطفل « افعل هذا ولا تفعل ذلك » . وكلنا يفهم ان القيادة السليمة لأمور الطفل تتطلب منا اسلوباً ثابتاً ورصيناً وهادئاً ومقنعاً ، لأن كل واحد منا يرغب في الكمال الانساني لنفسه ولأبنائه ، ولهذا كله نحن ، نشعر ونتكلم ونسلك مع الأبناء ، وفي اقتناعنا انهم سيطيعون ما نقول ، عندما نتحدث اليهم بأسلوب هادىء تسوده روح الود والصداقة تماماً كما نتحدث مع اصدقائنا . صحيح انه شيء عسير ان نتعلم كيف نجعل نبرات صوتنا التي تحمل الأوامر للأطفال تحمل معها روح الاقناع والصداقة في وقت واحد ، وأن نتكلم مع الأبناء بهذه الدرجة من النضج والاتزان طوال ساعات اليوم ، لا لشيء إلا لأننا ننسى انفسنا ونحن نتكلم مع أبنائنا وتظهر علينا أمراض طفولتنا عندما كان الآباء يوجهون اللوم لنا أو يوجهون كلمات الاستنكار . وأحياناً أخرى نفقد السيطرة على انفسنا ويحمل كل واحد منا مع الطفل في طيات نفسه معنى «لا أعتقد انك ستسمع كلامي » او « أنا غاضب منك وسوف أجعلك تفعل ما تكره او امنعك من الاستمتاع بما تحب » .

عندما يحس الطفل ان الأم جادة فيما تقول وأن الأب يطلب منه ان يتصرف بصورة معينة فهو ينفذ ما يطلب منه بهدوء وانضباط وبأقل قدر من الأوامر .

إن تربية الابن على قواعد السلوك السليم مسألة نتعلمها من خلال التلقائية والتجربة معاً لأننا نحب ابناءنا . ونرغب في ان ينشأوا على نحو مثالي . وتهدينا الفطرة الى التدخل بحسم لنمنع السلوك الرديء ، ونشجع السلوك القويم . وكل أم تعرف أنها تملك حاسة كالرادار تشعر بكل ما يفعله اطفالها طوال النهار . حتى ولو كانت الأم بعيدة عن الأبناء مسافة كبيرة . ان الأم عندما تتبع هذا الأسلوب نجدها لا توجه الاتهامات الكثيرة لأبنها بأنه سيء التربية ذلك ان الابن سيحاول كل ما في وسعه ان « يسمع كلام الأم وان يطيع الأوامر » .

عقاب الأبناء .. كيف ؟

عندما نفشل في تعليم الابن قواعد السلوك بكل الطرق ، علينا ان نلجأ الى العقاب ، لكني اؤمن بأنه لا عقاب إلا على ذنب . ولا عقاب بدون مناقشة سابقة مع الابن لكل نواحي الموضوع الذي يعاقب عليه . واعتقد اننا غالباً ما نجد الابن يقتنع دون عقاب . نعم ، انني اكره اهانة انسانية الطفل . ولذلك لا احب العقاب وخصوصاً الضرب .

في كل مرة اقف فيها لالقاء محاضرة عن تربية الأبناء في أي جمعية علمية او جمعية عامة وعندما تنتهي المحاضرة تبدأ اسئلة الجمهور . وافاجأ بالمشهد التالي : يقف رجل في منتصف قاعة المحاضرات بهدوء ويسعل ويوجه سؤالاً بلهجة المحامي القدير .

- ما رأيك د. سبوك في مسألة عقاب الأبناء ؟

وأحس على الفور ان هذا الرجل يتناقش مع زوجته كثيراً منذ ميلاد طفلهما الأول حول ضرورة عقاب الابن. ان هذا في رأيه هو اسلوب التربية السليم ، لكن الزوجة ترفض ذلك . بل وتحاول ان تمنعه من ضرب ابنه في معظم الأحوال وهو لهذا يبحث عن « رأي علمي » يسند به موقفه من ان ضرب الأبناء هو وسيلة تربوية سلمية . وارجو الا يفهم احد كلامي على ان الاباء فقط هم المتحمسون لفكرة عقاب الابناء وان الأمهات يرفضن ذلك . لأننا في بعض الأحيان نفاجأ بأن العكس هو الصحيح . وفي اغلب الأحوال يتفق الأب والأم على رأي واحد وقد يكون في هذا الاتفاق بعض نقاط الخلاف والمناقشة . وتعتبر الصحف ايضاً مناقشة عقاب الأطفال مسألة مثيرة وممتعة خصوصاً عقاب الأطفال بالضرب والصفع والاهانة . ففي كل محاضرة يلقيها احد علماء النفس او التربية او الطب العقلي نجد صحفياً ناشئاً يجلس خلف الصفوف يدوّن هذه المحاضرة « انتصاراً صحفياً » . ويفيض المحاضر في الشرح والتحليل ويحاول ان يعرض وجهة نظره

في مسألة سيطرة الآباء على سلوك الأبناء ، وقد يتناول خلال حديثه ان مسألة عقاب الطفل شيء عادي يحدث من وقت لآخر . وهنا يلتقط الصحفي هذه النقطة ويجري بها الى صحيفته ليكتبها ويزيد فيها ويزوقها : على ان ضرب الأبناء هو وسيلة معترف بها علمياً لتربية الأبناء . وكأن اهم مشكلة في تربية الابن هي هل نضربه ام لا ؟ . .

وتشغل هذه المسألة مكاناً لا بأس به في تفكير عدد كبير من الناس . وهي تدل على انهم لا يفهمون تماماً كل جوانب تربية الطفل لأن الوقوف عند نقطة واحدة والتركيز عليها هو احساس منا بالعجز عن التعامل مع الطفل . وان ضرب الابن ليس هو الطريق الوحيد للتربية . لأننا عندما نحاول ان نسترجع ذكرياتنا عن اسلوب التربية الذي تعامل به اباؤنا معنا او تعامل به آباء الأصدقاء معهم ، سنجد ان بعض الذين كانوا يتلقون الوان العقاب المختلفة فشلوا في حياتهم والبعض الآخر نجح في حياته . وسنجد ايضاً ان الذين لم يعاقبهم آباؤهم قد نجح بعضهم وفشل البعض الآخر . وهكذا فالعقاب ليس وسيلة التربية الوحيدة ، وعدم العقاب ايضاً ليس هو اسلوب التربية الوحيد . ان اساس التربية المهم للغاية ، هو الذي يجعل الابن مهذباً يجيد التصرف في المواقف المختلفة وهو هذا الاحساس ، واحساس الابوين تجاه الطفل ، واحساس الطفل تجاه الابوين . وهذان الاحساسان وجهان لعملة واحدة . ان التجربة الأساسية للتربية السليمة هي حب الأبوين للابن ومقدار التفاني الذي يبذله كل منهما من اجله ، ورغبة كل منهما العميقة في نجاحه والاغتباط الكبير بمميزاته الحسنة وليست السيئة طبعاً . ان دفء حب الأبوين هو الذي يغرس في الطفل حبه للآخرين وحب الاخرين له . ان الطفل الذي يعامل الآخرين معاملة رقيقة مهذبة ، يفعل ذلك لأنه تعلم ان يحب الآخرين من والديه ويحب ان يكون محبوباً من الآخرين . ولهذا فإنه يسلك السلوك المهذب ويعرف مدى احساس الآخرين بالترحيب به والارتياح له عندما يمنحهم حبه . ويستمتع ايضاً بحبهم . . وهو ايضاً يعرف العكس . . يعرف انه عندما يسيء التصرف فهو يثير

في الآخرين الاستهجان له ولأسرته . وهكذا يظهر لنا بوضوح ان رغبة الطفل في ان يكون محبوباً من الآخرين هي عامل هام في سلوكه المهذب . . ويظر لنا بوضوح ان حب والديه له هو الذي يتعلم منه كيف يكون محبوباً مطمئناً واثقاً . واؤكد على ذلك لأن بعضنا يعتبر هذين الأساسين مسألة بديهية وننساهما في زحمة الحياة. وهناك اساس ثالث له اهميته البالغة، وخصوصاً في المرحلة الكائنة بين الثلاث سنوات والست سنوات ، وهو تقليد الطفل لأبويه . انه يرغب في ان يكوّن نفسه حتى يكون مثلهما تماماً ، ليس في العمل واسلوب الكلام والتصرف فحسب ، ولكنه يحاول قدر طاقته ان يكون ذا خلق حميد وان يكون مسؤولاً عن سلوكه تماماً مثل ابيه وأمه . ومن هذا يتعلم الطفل مهارة التعاون مع الآخرين . . وان يظهر الشجاعة وقت الخطر . . وان يعامل المرأة بنوع من الرقة والأدب . . ويخلص في تأدية عمله كأبيه تماماً . وهذا ايضاً ما يمنح الفتاة القدرة على ان تساعد والدتها في اعمال المنزل . . وان تحاول ان تتعلم فن رعاية الأطفال الصغار . . وتتدرب على ذلك مع دميتها الصغيرة او مع الأطفال الصغار فعلاً . . وتتعلم ايضاً كيف تعامل افراد العائلة بحنان كأمها تماماً . وهكذا نعرف ان الطفل يغتبط بالحب ويستطيع ان يكون مسؤولاً عن عمل ما . وبهذا تنمو شخصيته وتنغرس فيه عادة احترام النظام . وليس معنى ذلك ان التربية تنتهي عند هذا الحد ، فكل الآباء والأمهات يعرفون ان هناك كثيراً من المسؤوليات يجب عليهم القيام بها تجاه الأبناء ، لأن الطفل رغم نيته الحسنة إلا انه بلا تجربة ويسهل ان تسيطر عليه رغباته . . ويمكن ايضاً ان يحاول التصرف عكس المطلوب منه . ومثال ذلك الطفل عندما يجر عربة اخته الرضيعة . . ان الأم تقول له كل ثانية « حاول دائماً ان تكون رقيقاً وانت تجر عربة اختك » . وتضطر الأم ايضاً ان تنادي طفلها اكثر من مرة من المكان الذي يلعب فيه ليتناول الطعام . . فتقول اكثر من مرة : « تعال الآن الى المائدة فالطعام جاهز وساخن وسيبرد لو تأخرت » . . وقد تقول له : « لا داعي ان تفتح التليفزيون بمفردك . . لأن هذا ليس من اختصاص الأطفال » . او تقول : « لا تنزل الى الشارع إلا عندما تكون في صحبتي او صحبة والدك » . وهناك بعض الفترات عندما يرفض الطفل تماماً ان يتصرف

التصرف السليم . وهو يفعل ذلك حين يحس بالضيق من احد تصرفاته او بعض تصرفات الأب او الأم او الأخ او الأخت او احد الأصدقاء . وهذه الفترات التي يفلت فيها الزمام من الطفل نفسه تتطلب من الأب والأم قدراً من الحسم وقوة الارادة والخبرة والمعرفة ، دون ان نتوتر اوْ نفقد اعصابنا . ولهذا نحن نؤكد دائماً على ضرورة وجود قدر كبير من الاصرار والحب الخالص في مسألة تعليم الطفل عادة ما . وليس معنى ذلك ان الاطفال لا يملكون القدرة على التكيف مع اي تغيير مفاجىء في التعامل مع الآباء او مع الآخرين . ان كل طفل يملك طاقة كبيرة ومدهشة على التكيف . وهكذا يجب ان يشعر الأب والأم ان مسؤولية تربية طفل هي مسؤولية الحب والحزم معاً . وان نتوقع دائماً من الابن ان يتصرف التصرف المناسب حين يمكن ان نوحي اليه بذلك . أما الأم التي لا تثق في نفسها او الأب الفاقد للثقة بنفسه والذي لا يستطيع ان يكون مثلاً اعلى للابن ويعجز عن حب الابن وتوجيهه الى السلوك السليم ، فإن الوالد في هذه الحالة يميل الى ان يصبح هو الآخر « طفلاً » يهدد ويضرب وهو غير مقتنع بكل ما يفعل . ويجعل الطفل يتحداه ويجعله مصراً على ان يتصرف التصرف الذي يغضب والده ووالدته .

وهكذا يتضح لنا كيف يمكن ان نؤدب ابناءنا دون حاجة الى العقاب . مثلما يتضح ان العقاب ليس الوسيلة الوحيدة لتمنع الطفل من ان يتصرف التصرف المزعج او الخارج عن حدود الآداب العامة . تماماً كما ان العقاب لا يمنع السارق من السرقة ، ولا القاتل من ارتكاب الجريمة . ان العقاب هو اسلوب قد نلجأ اليه عندما نستنفد كل الأساليب الأخرى ، وحين نفشل تماماً في توجيه الطفل ناحية السلوك السليم . وحتى هنا ايضاً في هذا الموقف . قد يكون من الصعب ان يفيد العقاب ان لم يستند الأب والأم الى علاقة حب عميقة بينهما وبين الابن وكانت شخصية الابن سليمة بلا اعوجاج وقد ظهر ذلك بشكل واضح في حالات المجرمين المحترفين ، الذين لم يُجْدِ معهم عقاب اهلهم لهم .

« هنا قد يتبادر سؤال الى ذهن الآباء والأمهات » وهو :

لماذا يفلت زمام الطفل في بعض الأحيان او المواقف ؟

والاجابة هي :

ـ ان الطفل قد يخطر بباله اللعب او استكشاف شيء يمنعه الأهل من اكتشافه ، ويظهر هذا الشيء للطفل كعالم عجيب غريب يستحق ان يدخل في مغامرة لاكتشافه . ولذلك فهو يختار المناسبة التي تكون فيها الأم غير حازمة تماماً عندما منعته آخر مرة من اكتشاف هذا الشيء . ولذلك فهو يبدأ في عملية الاستكشاف وهو يرغب طبعاً في عدم افساد هذا الشيء وقد تنتهي به هذه المحاولة الى تحطيم شاشة التليفزيون مثلاً ، او قد يحطم تمثالاً صغيراً تعتز به الأسرة ، وقد يفعل كل ما يسيء الى الأهل . . لأن الأم اعلنت غضبها منه دون سبب واضح او لأنه يشعر ان الأسرة تفضل عليه شقيقه الآخر واحياناً اخرى قد تتجمد اعصاب الأم من فرط الخوف على ابنها لأنه جرى في الشارع ولم ينتبه ، وكادت ان تصدمه سيارة . . في مثل هذه الظروف نجد ان نفس الأم او الأب تمتلىء بالضيق والغيظ والغضب . . فتبدأ الأم او يبدأ الأب في عقاب الابن او على الأقل تتولّد الرغبة في عقاب الابن . انني كطبيب وكوالد اعرف ان السيطرة التامة على الطفل مسألة مستحيلة ولا يمكن ان نظل هادئين طوال الوقت دون ان نغضب من الطفل او ان نطرده من الحجرة او نضربه على وجهه او عجزه او ننظر اليه بغضب شديد . وانا اعتقد ان عقاب الطفل او عدم عقابه او ضربه او عدم ايذائه بالضرب ، كل هذا قد يكون له اسباب في اعماق الأم . هل عانت هي في طفولتها من هذا النوع من العقاب ام لا ؟ . ان الآباء والأمهات الذين جاؤوا من اسر لا تستعمل العقاب إلا قليلاً وكان في استطاعة آبائهم ان يفرضوا عليهم قواعد السلوك السليم دون عقاب ، هذا النوع من الآباء يعرف كيف يصنع انظمة للطفل بحيث لا يخرج ابداً عن قواعد السلوك السليم ويملك بالتالي قدرة على الحسم والحزم في قيادة امور الأبناء . ولا يلجأ الواحد منهم ابداً الى تطبيق اسلوب العقاب مع الأبناء ، إلا في الحالات القصوى . ويختلف الأمر طبعاً بالنسبة للآباء الذين عاشوا طفولة

مليئة بألوان العقاب فإذا كان ذلك العقاب قد تم من اجل اخطاء جسيمة فهم يعاقبون ابناءهم على الأخطاء ذاتها بألوان العقاب نفسها . ولا بد لنا ان نعرف ان عقاب الابن في اللحظة المناسبة وبالأسلوب الهادىء غير المنتقم يفيد الطفل لأنه يتعلم انه هو السبب في حدوث العقاب له ويشعر بأنه مخطىء فعلاً ولا يجب ان يكرر السبب الذي ـ من أجله عوقب . وهذا الاحساس يغلب احساس الضيق والغيظ . والعقاب المناسب بدون نزعة انتقامية ودون ان تفلت اعصاب الأم او الأب وهي تعاقب الابن ، هذا العقاب يقنع الطفل فعلاً بأن الأمر الذي صدر اليه وخالفه كان يجب تنفيذه وهذا ينفس عن روح الغضب التي قد تسود احاسيس الأم ويصفو جوّ العلاقة بينها وبين ابنها ، ويتصرف بشكل مهذب لمدة طويلة .

وقد يلاحظ احد القراء انني وضعت الكثير من الشروط حتى لا يتم العقاب بطريقة تفسد روح الطفل نفسه وتجعله يشعر انه مظلوم او مضطهد . كما ان العقاب يجب ألا يتبعه ندم من الأب او الأم لأن ذلك يحس به الطفل فيشعر ان والده قد اخطأ او والدته قد اخطأت في حقه بانزال العقاب به . ان العقاب بهذه الصورة التي يتبعها احساس الندم في نفس الأب او الأم غير مفيد . واذا كان العقاب لا يأتي بأي نتيجة ، فعلينا ان نعرف ان هناك خطأ ما كامناً في علاقة الوالدين بالطفل او في نفسية الطفل . وفي هذه الحالة يجب ان نلجأ الى الاخصائي النفسي لنعرف السبب ونعالجه او نلجأ الى رجل خبير او المدرس . المهم ان نطلب خبرة احد الذين يملكون الخبرة ليساعدنا في مواجهة هذه المشكلة .

هناك سؤال آخر بشأن مسألة عقاب الابن هل نعاقب الابن فور اقترافه الخطأ ام نؤخر العقاب الى ميعاد آخر ؟

في مستهلّ هذا القرن كانت وجهة النظر السائدة في المجتمعات هي ان على الأب ان يختار اسلوباً في تربية الطفل ثم يطبق هذا الأسلوب بقوة الارادة وكانت وجهة النظر تلك تتجاهل تماماً الأحاسيس والمشاكل التي تدور في اعماق الأب او الطفل . وكان هناك رأي يقول ان الأب لا يجب ان يعاقب ابناً فور ارتكابه الخطأ

لان الأب يكون في حالة غضب ولذلك يجب تأجيل ميعاد العقاب الى وقت يكون فيه الأب هادئاً. ولا يمكن تطبيق هذا الرأي طبعاً، لأن اقدر الآباء تحكماً في نفسه عندما يغضب من ابنه يرغب في معاقبته فوراً . ولهذا فليس هناك فرصة ـ عصبياً ونفسياً ـ لأن نختار الوقت المناسب لنعاقب فيه الابن . وهذا لا يعني ان ننتهز أي خطأ للابن ونصدر سلسلة متتابعة من قرارات العقاب او نبادر لإشباعه لكماً وصفعاً وضرباً انما يجب ان نهدأ وان نزيل على قدر الامكان مشاعر الغضب والغيظ من قرار العقاب . لأنه في بعض الأحيان يمكن ان نتناقش بالعقل مع الابن او مع الزوجة او الزوج لتنفيذ العقاب المناسب. اقول ذلك وانا من انصار تطبيق العقاب فوراً وبهدوء وذلك حتى لا تزيد مدة تعذيب الطفل الذي قد ينتظر ان تشكو الأم الى الأب ثم يقوم الأب بالعقاب . كما ان الأب بنفسه عندما يعود يكون مرهقاً بمتاعب العمل ثم يفاجأ بأن عليه واجب تأديب الابن . ان ذلك مرهق للأب وللأبن معاً . ولذلك انا ارى ان تعاقب الأم ابنها فور اقترافه للخطأ ، اللهم إلا في الحالات التي ترى انها خطيرة للغاية ويجب استشارة الأب في اسلوب عقاب الابن . كما انني لا احب الوان العقاب التي تستمر طويلاً لمدة اسبوع او شهر كالحرمان من المصروف او المقاطعة او ما الى ذلك لأن هذا يخلق جواً من التعاسة يخيم على جوّ الأسرة .

وهنا طبعاً يمكن ان يسألني الآباء والأمهات عن العقاب المناسب . وانا اقول ان هذا السؤال يشبه تماماً سؤالاً نتوجه به الى أحدهم فنقول له: «هل تحب اللحم اكثر ام تحب المثلجات او هل اللون الأزرق اجمل من اللون الأحمر ؟ » انني اقول ان اختيار العقاب المناسب مسألة متروكة لتقدير الأم نفسها وهل يجدي ام لا . وهل يستحقه فعلاً الطفل ام انه مظلوم . ان ضرب الطفل على يديه باليد او ضربه على مؤخرته قد يكون مناسباً لتقويم سلوك الطفل . رغم ان هناك اماً تقع في هوّة الندم لمدة ساعات لو فعلت ذلك . وهناك طفل قد يغضب بعنف من هذا الأسلوب المهين . وهناك اسلوب « حبس » الطفل لمدة دقائق في حجرته وهذا يجعله يأتي باكياً معتذراً . وقد يثير هذا الحبس ايضاً جنون الابن ويسبب له التعاسة البالغة ويظل يبكي بصوت صارخ يستمر لمدة ساعة او ساعتين . وهناك

اسلوب حرمان الطفل من جزء من مصروفه او منعه من مشاهدة التليفزيون او الخروج الى الفسحة وهذا العقاب يتناسب مع الأطفال الذين تعدوا السابعة من العمر وفي سن الدراسة . والعقاب على كل حال عندما يكون عادلاً فهو يؤكد في نفس الطفل الاحساس بالعدل ولكنه عندما يكون عقاباً ظالماً فهو يؤدي الى فقدان الايمان بالقيم الاخلاقية . ولهذا فأنا ارى انه لا بد من التدقيق جيداً وبسرعة في اختيار العقاب المناسب و« المناسب » . . كلمة صعبه يختلف معناها من اسرة الى اخرى . وعلينا ان نعرف ان العقاب لن يصلح حال انسان سيء السلوك ليجعل منه انساناً رائع الخلق وهو ايضاً لا يضمن استمرار التصرف باتزان من جانب الابن لمدة طويلة ، اذا كانت هناك مشكلة اعمق من التصرف الخاطىء وتكون هذه المشكلة كامنة في اعماق الابن . ان تأديب الابن لا بد ان يتم في اطار من الحب العميق والاحترام الأصيل بين الطفل ووالديه . ونحن نستطيع ان نؤكد ذلك الحب وهذا الاحترام عن طريق تعليم الطفل السلوك المناسب منذ الطفولة المبكرة ، والعقاب هو وسيلة لتفكير الطفل بضرورة العودة الى السلوك الصحيح الذي يحيد عنه اما اذا لم نوضح للابن ما هو الصواب وما هو الخطأ ، فإن عقاب الطفل يكون بلا جدوى . ولهذا فمهمة الأم ان توضح للطفل ما هو الصواب وما هو الخطأ، وان تكون من البداية في منتهى الحزم بدلاً من ان نلجأ للعقاب في الوقت الذي يكون فيه قد مضى على الطفل وقت طويل وهو بعيد عن السلوك السليم . إنني اعرف ان مهمة تأديب الابن مهمة شاقة . ولا يجب ان نغضب لو واجهنا الفشل لأن الابن لن يتأدب عن طريق الاذى المستمر ، إنما يمكن ان يتأدب الابن بالقدوة الحسنة من امه وابيه . هذا هو الأسلوب السليم منذ آدم وحواء وحتى الآن .

ان علينا ان نحاول تحسين اخلاق الطفل دائماً عن طريق الرقابة على انفسنا ، فلا يمكن ان نعاقب طفلاً لأنه ينطق الفاظاً نابية ننطقها نحن ببساطة . ولا يمكن ان نعاقب طفلاً يتصرف على مائدة الطعام دون التقيد بقواعد استعمال الشوكة والسكين ونحن لا نفعل ذلك . ان الابن في سلوكه اولاً واخيراً هو مرآة لأسرته وفي تمثله هذه الحقيقة الأساسية في قياس سلوك الطفل هل هو مهذب ام لا ؟ .

مسؤولية الأب في تهذيب الابن ؟

ان الطفل يحصل على قدر كبير من الراحة النفسية عندما يمارس الأب دوراً جاداً في تعليمه آداب السلوك المهذب .

لنتخيل معاً ان الطفل هـو وردة صغيرة تنمـو في حديقـة هي الأسرة . ولنتخيل ان الوالد هو الانسان العاشق للورود . وكل عاشق للورد يعرف جيداً ان الوردة تحب ان تكون جميلة المنظر تمنح من يراها سعادة ولهذا استعمل هنا كلمة « تهذيب » الابن بدلاً من كلمة « عقاب » الابن ، لأن « التهـذيب » يعني ان نحاول ارساء مجموعة من قواعد السلوك في زهرتنا التي تحمل اسمنا من بعدنا ، فإن التهذيب اطار عام ينشأ فيه الابن ، اما العقاب فهو اجراء محدود ، وأكاد اقول انه في بعض الأحيان يكون اجـراء ضيق الأفق ما لم يتم بشكـل مناسب للطفل .

ولنقرأ معاً ما تقوله لنا اثنتان من الأمهات حتى نرى كيف تتناقض مسألة التهذيب من ام الى اخرى . تقول الأم الأولى :

« ان زوجي انسان رائع وهو يعرف مسؤوليته جيداً كوالد لكنه يريد من الابن ان يستسلم لأي امر يقوله ا لـه وان ينفذه فوراً . ويقول زوجي ان هذه هي القاعدة السليمة في التربية وهذا هو الطريق الذي ينقذ حياة الابن عندما يواجه موقفاً خطيراً . اما انا فأحب ان اعامل الطفل برقة وصداقة وفهم ، لأني اشعر ان طفلنا ما زال صغيراً جداً على مسألة الطاعة الفورية للأوامر . ان عمره سنة وشهران فقط » .

وتقول الأم الثانية :

« عمر طفلنا الصغير عامان وهو يهوى ضرب الآخرين وخصوصاً أباه . وزوجي ينفر من هذا الابن لأنه يشعر انه ولد قليل الأدب . ان زوجي عندما يلعب مع ابني لا يعرف من اين تتسلل يد ابني الصغيرة لتصفعه او يتسلل اصبع ابننا ليستكشف عين ابيه . واحياناً يمسك طفلنا بأي لعبة ويضرب بها رأس ابيه . ولا تتصور يا دكتور قدر سعادة الطفل وهو يفعل ذلك . انه يضحك وتعلو ضحكته وهو في غاية الانشراح » .

وهنا قد تقول الأمهات ان هذه المشاكل لا يعاني منها الآباء فقط ولكن للامهات نصيباً كبيراً منها . لا احد ينكر ذلك ولكن اعتقد ان هذا النوع من المشاكل يصادف الآباء فقط ، ولكن اعتقد ان هذا النوع من المشاكل يصادف الآباء بنسبة اكبر من الأمهات ، وقبل ان نناقش هذه المسألة علينا ان نفكر معاً في وظيفة الأب والأم في المراحل المختلفة لتهذيب الأبناء وتربيتهم . واذا نظرنا الى انفسنا وما حولنا وجدنا ان هذه الوظيفة تختلف من اسرة الى اخرى وتعتمد على اسلوب تربية الأبوين انفسهما وشخصية كل واحد منهما وايضاً على مميزات كل طفل . ان اعداداً كبيرة من الأمهات يقلن لي في دهشة « ان الآباء يسيطرون على الأبناء بطريقة افضل من الأمهات » . ان الطفل يسمع كلام الأب ويطيع اوامره رغم ان الأب لا يتدخل في شؤون الطفل إلا لمدة دقائق تعد على اصابع اليد الواحدة ، عندما يعود الأب آخر النهار من العمل ، ورغم ذلك فالابن ينفذ اوامر الأب فوراً ، والطفل يخضع لكلمات والده بمنتهى السرعة . وهذا طبعاً يثير غيظ الأمهات . وعندما ندقق جيداً في السبب الكامن وراء ذلك لا نجد ان الوالد يملك قدرة الساحر وانما يعود ذلك الى طريقة الأب في معاملة الابن التي تختلف عن طريقة الأم . ان طريقة الأم في معاملة الابن تفقد فاعليتها ، لأنها تعاشر الطفل معظم النهار وتستخدم الكلمات نفسها تقريباً . كما ان الأم نفسها تقول للابن انها ستشكوه الى الأب . كما يتعلم الرجل عادة منذ طفولته ان يتحكم في مشاعره ورغبته في العدوان ويتدرب اثناء الطفولة على احترام الأسس المهذبة للتعامل مع الآخرين . انه يتلقن الحقائق الأساسية للسلوك : « العب في حدود

الأصول . لا تتوتر بسرعة عندما تهزم . لا تضرب طفلاً سقط على الأرض . لا تكن البادىء بالضرب . رد أي صفعة توجه اليك ». ان هذا التمرين الذي يستغرق سنوات الطفولة والمراهقة يعطي الرجل قدرة التحكم في النفس اكثر من المرأة . ويجعل الرجل قادراً على ان يرسم للآخرين الحدود التي يمكن الا يتخطوها . ان كلمات الرجل عادة ولهجته اكثر صرامة وجدية . وتحتوي لهجة الرجل قدرة اقناع من يريد . أما المرأة فهي لا تميل الى العنف ولهذا يمكن ان يسيطر عليها الرجل ، وتتربى الفتاة عموماً وتنشأ في ظل فكرة انها تستطيع التأثير بجمالها وانوثتها وحيويتها أكثر من قدرتها على الاقناع بالمنطق ، بل اكثر من ذلك ان عدداً كبيراً من البنات والنساء يعتقدن ان القواعد والقوانين التي اخترعتها البشرية لتنظيم المجتمعات جافة خالية من الانسانية وبلا معنى ايضاً .

وهنا يمكن ان نعرف الحقيقة البديهية ، وهي ان تربية الأبناء على قواعد السلوك المهذب تختلف فيها طريقة تعامل الأب مع الابنة عن معاملته مع الولد ، فالأب يميل الى الرقة وهو يتعامل مع الأبنة ويميل الى الشدة عندما يتعامل مع الابن . والفتاة عموماً اكثر استعداداً لطاعة الوالد اكثر من الصبي . ورغم هذا « الكذب العام » المنتشر بين الآباء والأمهات لتأكيد فكرة ان الواحد منهم لا يفرق بين أبنائه ، فإن الأبناء يعرفون بالضبط مكانة كل واحد فيهم عند اسرته . ويستطيع ايضاً ان يحدد اسلوب التعامل بينه وبين اخوته . وهناك فكرة اساسية في الحياة وهي ان الولد يولد ومعه احساس بأن المنافسة ستكون بينه وبين ولد آخر او رجل آخر وانه سيقع في هوى واحدة من الجنس الآخر فلا يتنافس معها . وتولد الفتاة ايضاً وفي اعماقها رغبة في التنافس مع امرأة اخرى وانها ستقع في حب شاب او رجل . لذلك لا تتنافس مع الرجل . وهذا يتحقق ايضاً داخل الأسرة . فالأب رغم انه يحب ابنه حباً عميقاً والأم رغم انها تحب ابنتها حباً عميقاً ، إلا ان المنافسة تكون دائماً بين الأب وابنه ، وبين الأم وابنتها . وعلى سبيل المثال ، أخواتي يقلن لي ان والدي كان انساناً رقيقاً مرحاً وهذه صورة لا اعرفها عن ابي . انني اعرفه انساناً صارماً . وهذا دليل على انه كان يعامل البنات بطريقة ويعامل البنين بطريقة اخرى ، لأن كلا منا يكون صورة مختلفة « لوالد » واحد . صحيح

ان والدنا كان يحاول بكل جهد ان يكون عادلاً بيننا ، ولكن هناك اختلافاً في اسلوب المعاملة ، ولعل الابن ايضاً يرى والده مثالاً للهيبة . انه قد يعطي والده بعض الصفات التي ليست فيه حقيقة ، وهذا كنتيجة ايضاً للشعور بالتنافس معه . وهناك تفسير آخر يكشف لنا السر في ان الأب اكثر حزماً وشدة مع الابن . ان الاب يتدرب اثناء طفولته وشبابه على محاولة تقليد الرجال . ويسمع الواحد منهم الكثير من النقد من والده لو فشل في ان يظهر كرجل ، وينقد هو نفسه ايضاً لو لم يتصرف كرجل . وعندما يكبر الشاب ويصبح والداً فإنه يملك ايضاً حاسة نقدية للأسباب نفسها التي كان يوجه له النقد في شبابه من اجلها . ينتقد ذلك في اطفاله او اطفال الآخرين . وكذلك الأم ، لقد مرت عليها سنوات كانت فيها بنتاً وتعرف جيداً ما يمكن ان تنقده من سلوك ابنتها . بل لعل الأم تضبط نفسها وهي تنطق كلمات امها نفسها . تقولها هي مرة اخرى لابنتها .

ننتقل الآن الى مناقشة المشاكل التي يواجهها الأب . نناقش في البداية مشكلة الأب الذي ينتظر الطاعة الفورية من طفله الذي لم يبلغ من العمر سوى سنة وشهرين . واذا كان مسموحاً لي أن اتنبأ ، فأتنبأ بأن هذا الابن هو الطفل الأول في الأسرة . ان الموقف يكون مشدوداً ومتوتراً لأن الأب لا يعرف في البداية كيف يوجه الأمور . ولكن المسألة تصبح اكثر راحة واقل توتراً عندما ينجب الابن الثاني او الثالث . وانخيل ان هذا الوالد تربى في اسرة تتميز بالجدية الشديدة التي تقترب من التزمت ، وانه كان مطالباً في طفولته بأن يطيع الأوامر فوراً . وقد انغرس في اعماقه هذا الاسلوب الى حد بعيد ، انه ليس عادة فقط ولكنه « احساس قهري » ينتقل من الأب الى الابن ومن الابن الى الحفيد وهكذا . ان كل رجل يعرف جيداً أي قدر من القلق كان يستولي على مشاعره عندما يوجه له الأب النقد على سلوك معين . ان الواحد من هذا النوع كان يقع في تخيل ان هناك كارثة ستقع نتيجة هذا اللوم او النقد . ولهذا فعندما يصبح الرجل ابا للمرة الأولى فإن اول ما يفعله هو ان يهجم على طفله بعنف شديد ليطالبه بالمطالب نفسها التي كان مطالباً بها اثناء طفولته . اقول : ينفجر « احساس قهري » في نفس الرجل ويتصرف في ضوئه دون تفكير . وهذا ما يحدث بالنسبة للأب الذي

يطلب الطاعة الفورية من طفله ذي العام الواحد . انه والد واقع في براثن الخوف من ان يواجه ابنه أي متاعب في المستقبل ويريد ان يعلم ابنه منذ الشهور الأولى ان الطاعة هي المنقذ الوحيد من الوقوع في المشاكل . ومهما كان ذلك الكلام الذي يقوله الأب غير معقول وغير منطقي ، فإن هذا الكلام هو نتيجة طبيعية للقلق العميق القديم الذي يسكن اعماق هذا الأب خلال تربية اسرته له . ويزيد من حدة احاسيس قلق الأب ان الزوجة لا تشعر ان عدم طاعة الابن قد توقع الابن في الخطر . ان النظرة الهادئة الى الطفل الذي اتم عاماً واحداً تعطينا فكرة واضحة ومتزنة . وهي ان هذا الطفل يمكن ان يتعلم بعض المبادىء الأساسية في احترام النظام وهناك اساليب كثيرة بجانب « الطاعة » نستطيع بها ان نبتعد به عن اخ خطر ، وان نجعله يبتعد عن اي سلوك سيء . وعلينا ان نعرف ايضاً ان جمود الأب وتزمته قد يزداد حدة عندما يشعر ان زوجته تجامل الابن على حساب احاسيس الأب . وتأخذ جانب الابن ضد الأب . ويجسد هذا الموقف تلك القصص التي نسمعها عن زوج الأم الذي يمتلىء بالضيق والحقد على ابن زوجته التي كانت متزوجة من قبله . إنه يكره في هذا الابن الذي امتلك امه من قبل ان يتم هذا الرجل زواجه بها . انه يكره فيه ايضاً صورة الوالد الذي استمتع بقلب هذه المرأة قبله . ومن المحتمل ايضاً ان يحس الزوج بالغيرة من ابنه . . اذا كان هذا الزوج قد عاش طفولة غير آمنة ، طفولة دائمة القلق . احياناً يكون الزوج قد تزوج زوجته رغم ارادتها وتعيش في احاسيس كراهية دفينة لهذا الزوج . ولذلك فهي تحاول ان تعوض فشلها في حب الزوج بمزيد من الحب للابن . وتحاول لا شعورياً ايضاً ان تدعم علاقتها بالابن فتثير غيرة الأب وتزيد من المعارك بينها وبين الزوج وبين الزوج وبين الابن .

وقد ظهر التزمت بشكل واضح في اسلوب معاملة الأبناء بعد عودة الآباء من القتال إثر نهاية الحرب العالمية الثانية . فالأب اثناء القتال كان خاضعاً لنظام عسكري يكبت الحرية تماماً ، ويطلب الانضباط تماماً . وعندما عاد من الحرب وجد ابنه الذي بلغ العام الثاني او الثالث من العمر يعيش مستمتعاً بكل الوان الراحة ويستولي ايضاً على كل وقت الزوجة وقلبها . وازداد الأمر تعقيداً في بعض

الحالات عندما رفض الأبناء ان يصدقوا ان هذا العائد من الحرب هو ابوهم واعتبروه عدواً جاء يغتصب الأم .

وعندما تحاول الأم ان تعوض الابن بالحنان عن تزمت ابيه فإن حنان الأم يصبح موضع شبهة في نظر الأب . ان هذه السيدة تفسد ابنه بالتدليل ، لذلك يتمادى الأب في التزمت والعنف . وتصبح محاولات الأم لتعويض الابن بالحنان عن تزمت الأب كالزيت الذي نلقيه على النيران . انها تزيد من العداء بين الأب والابن . ويعتقد الطفل انه وامه يشتركان في كراهية الأب . وبطبيعة الحال هذا احساس ضار بكل معنى الكلمة . لكن اذا امتنعت الأم عن الدفاع عن الابن اثناء مناقشته مع ابيه ، او عندما يقوم الأب بتوجيه اللوم الى الابن فإن هذا هو افضل حل لهذه المشكلة . ان الأب والابن يستطيعان تسوية الأمر بينهما ويستطيعان الوصول الى اتفاق واقامة علاقة صداقة . وعندما تحاول الأم ان تظهر للأب انها تفهم مشاعره وتقدرها وتحترم في الأب خوفه على الابن فهذا يقلل من اوهام الأب ويخفض نسبة قلقه . لكن عندما تتأزم الأمور بصورة لا تصلح فيها هذه الحلول فلا بد من ان يذهب الأب الى الاخصائي النفسي او التربوي او رجل الدين .

نناقش الآن مشكلة الأب الذي يضربه ابنه الصغير وينفر منه الأب بينما يسعد الطفل جداً ويضحك بمنتهى السرور وهو يصفع اباه . قد نعتقد ان هذا الأب نموذج متناقض تماماً مع الأب المتزمت، ولكن ليس ذلك صحيحاً تمام الصحة . لأننا عندما نسأل هذا الأب عن احساسه فإنه سيقول : « كان والدي قاسياً علي اثناء طفولتي ولا اريد ان يغتاظ مني ابني كما كنت اغتاظ من ابي . كان قلبي يمتلىء بالضيق من تزمت ابي وقسوته ولا اريد لابني ان يضمر لي مثل هذه المشاعر » . ومن هنا نستطيع ان نكتشف ان كلاً من الابوين كان ضحية التربية المتزمتة . لكن الأب الأول اتخذ طريق ابيه في الخوف من انحراف الابن بينما الأب الآخر يخاف من نتيجة المبالغة في التربية الصارمة المتزمتة وهذا يدفعه الى الخوف من ممارسة سلطاته كأب او حتى الدفاع عن نفسه ، حتى وصل الأمر الى ان الابن قد اصبح جريئاً الى درجة السيطرة على ابيه .

علينا ان نعرف بأن الطفل عند بلوغه العام الأول من عمره يتعلم اللعب ويستمتع احياناً بايلام الذين حوله عندما تسيطر عليه نزوة او فكرة ما . انه يشد شعر الأم او بعض الأب . والأب الذي لا يخاف من السيطرة على الموقف من البداية ، ولا يوقف الابن عند حده من اللحظة الأولى ، إنما هو اب يدرك ان الابن الصغير يحتاج الى التدريب المستمر ليتعلم قواعد السلوك المهذب . ان الأب يكتفي في المرة الأولى باستنكار تصرف الابن ، وعندما يعود الطفل الى تكرار هذا السلوك فإن الأب يمكنه ان ينبه الابن بحزم واضح ورقيق ايضاً الى انه يرفض منه هذا السلوك . وهكذا يتعلم الطفل ان الأب لا يسمح لأحد ان يؤذيه ولا يضمر النية في السماح لأحد بذلك . يتعلم الابن ان للأب مكانة خاصة . صحيح ان الابن لا يتعلم من مرة واحدة ، وصحيح ايضاً انه يتعلم بعد عدة مرات ، ويعطي الأب احترامه على الوجه المطلوب . وعلى الأب ألا يخاف من حسم الأمور مع الطفل ، وألا يخاف من اظهار مشاعر الغضب وذلك حتى لا يدمن الابن الهجوم على الأب بلا انتظار العقاب . ان هذا « الخوف » يعلم الابن ان الأب يمكن الهجوم عليه ويمكن ايذاؤه . والغريب ان الطفل ذا العام الواحد يفهم انه ليس من الواجب ان يذعن الأب كل هذا الاذعان وانه من غير الطبيعي ان يمنحه الأب فرصة السيطرة عليه بهذه البساطة . ان الطفل يصاب بالقلق النفسي والتوتر والغيظ من هذا الاستسلام الشديد من جانب الأب . وعندما تقول ام هذا الطفل ان ابنها سعيد ويضحك عندما يضرب اباه ، فأنا لا اصدق انه سعيد بالفعل . واعتقد ان احاسيس الطفل هنا تكون نسيجاً من الانفعال الشديد والاحساس بالذنب . بل انني اعتقد ان الابن يتوسل بهذه الضحكات العصبية الى ابيه حتى يمنعه من التمادي في هذا السلوك . فالطفل لا يسعد بالأب المهزوم المنكسر الذليل . وانا اعتقد ان هذا الوصف الذي وصفته الأم لابنها هو وصف غير طبيعي ولا يحدث ابداً . اقول ذلك حتى لا يظن احد ان هذا المثال يمكن ان يوجد في كثير من الأسر . وهناك فئة اخرى من الأمهات يقلن في صوت مليء بالشكوى من الأزواج، وتردد الواحدة منهن القول: «ان والد الأطفال لا يهتم ابداً بتأديب الأطفال او تعليمهم قواعد السلوك المهذب . انه يترك لي كل

مسائل التربية . انه يكون موجوداً في المنزل في بعض الأحيان ويتصرف الابن بصورة مستفزة تستحق العقاب لكنه لا يحرك ساكناً . وعندما اطلب منه ان يتحرك ليؤدب ابناءه ، يقول انه مرهق من العمل ، وانه يأتي الى المنزل ليستريح ، وان الأم تعيش مع ابنائها اكثر مما يعيش الأب ولهذا فهي تعرف كيف تتعامل معهم . وهو لا يعرف طباعهم بالضبط قدر ما تعرفها الأم . وهو لا يفهم ماذا تطلب منه الأم تماماً » .

وانا اقرر هنا ان هذه اعذار بلا قيمة حقيقية . ولا يجب ان يقولها والد يملك الاحساس بالمسؤولية . لأن الابن يجب ان يشترك والده في توجيهه التوجيه المناسب .

وهناك عدد من الأزواج يشكو الواحد منهم من ان زوجته لا تستمع الى ارائه عندما يحاول ان يشترك معها في حل مشاكل الأبناء . وانها تتمسك برأيها فقط . وتصر على ان يسمع الأبناء كلامها وحدها . وهي تطلب من الأب ان يكون كالمدير الذي لا يعرف الا التوقيع على الأوراق التي تقدمها له السكرتيرة دون ان يدرك على ماذا يوقع . ان هذا الاختلاف في وجهات النظر بين الأب والأم يحدث في كل اسرة من فترة الى اخرى ، لكنه خلاف في بعض الأحيان قد يصبح مشكلة دائمة في بعض الأسر . واللافت للنظر هنا هو ان الأم تتحمل بالفعل المسؤولية الأساسية في تربية الأبناء ، والأب في هذه الأسرة يكون مشغولاً بعمله وبعيداً تمام البعد عن مشاكل ابنائه . ان هذا النوع من الآباء قد يكون انساناً متفوقاً غاية التفوق في العمل . ويكون صاحب شخصية يخشاها كل من يعمل معه . لكن هذا لا ينفي ان في مثل هذه الأسر تكون هناك مشكلة كبيرة وهي . . ماذا يحدث عندما يصبح الأب من النوع « الحاضر الغائب » في الوقت نفسه . ولا يبذل اي جهد او مشاركة في تربية الأبناء . ان هذا النوع من الآباء يفضل ان يحتفظ بحب ابنائه . . لذلك يبتعد عن المشاركة في تربيتهم لأنه يعلم انه لو اطلق العنان للحزم والحسم فقد يكرهه الأبناء . وهو لهذا يكتفي بأن يلبي طلبات الأسرة . وعلى هذا النوع من الآباء أن يعرف الحقيقة التي تؤكدها الأبحاث

العلمية . والحقيقة تقول ان الأبناء لا يحسون بحب الأب لهم او بحبهم للأب عندما يتخذ موقف « الحاضر الغائب » . والذي لا يتدخل في توجيههم وادارة شؤون حياتهم . ان العيادات النفسية تشهد حكايات اطفال عن احلام مزعجة . وبتحليل هذه الأحلام يتضح ان الابن يخاف من الأب المنعزل عن ادارة شؤون الأبناء . ان الطفل بذكائه الفطري يعرف أن الأب يشعر بالغضب عندما يخطىء الابن او يتصرف بسلوك سيء ، ولهذا فإن خوف الطفل يزداد عندما لا يعلن الأب عن هذا الغضب ويتساءل الابن بينه وبين نفسه الى أي مدى سيكون العقاب كنتيجة لهذا الغضب المكتوم . فالطفل عندما يسيء التصرف يعرف أنه يجب ان يعاقب ، أو ان يوجه له احد اللوم او العقاب او النصيحة ، وهو يتمنى فعلاً ان يحدث ذلك حتى يعرف الحدود بين السلوك السيء والسلوك السليم وحتى يختار لنفسه السير في طريق السلوك القويم . فإن لم يوجه له الأب اللوم المناسب والتوجيه الملائم ازداد قلق الطفل ، وازدادت تعاسته ايضاً . ولكن عندما يوجه الأب اللوم المناسب والتوجيه الملائم فإن الطفل يتخفف من اثقال الاحساس بالذنب . ان اعلان الأب عن غضبه يسعد الابن . ان الابن كلما شعر أنه محل انتباه الأب فإنه يشعر بالسعادة ويحس بالاطمئنان وتتأكد له ثقته بنفسه . وعندما يواجه الأب ابنه لحظة خطأ الابن فإن ذلك يعود الابن على الشجاعة في مواجهة الآخرين الذين سيلتقي بهم من المجتمع بقية العمر ودون خوف من الغضب او العقاب . . انما بشجاعة الانسان الواثق من نفسه . . الذي يختار بنفسه ما يقتنع به . انني أقول للأب الذي يخاف ان يشارك الأم في تهذيب الأطفال : لا داعي للخوف من أن يكرهك الأبناء . انهم سوف يزدادون حباً لك واغتباطاً بصداقتك عندما تؤكد سلطتك كأب رحيم . وعلى الزوجة ايضاً ان تساعد زوجها في هذا المجال . وأسلوب مساعدة الزوجة لزوجها في مثل هذه الحالات ليس في ان تطلب منه ان يؤذي الأبناء ويعاقبهم ، ولكن في ألا تعارضه عندما يبدأ في اتخاذ موقف حازم من أحد الأبناء . وهي بذلك تؤكد للأبناء أنها تكن الاحترام العميق للزوج وتحترم دوره تماماً في الأسرة .

مرة اخرى . . ان الطفل وردة صغيرة تنمو في حديقة الأسرة . وعلى الأب

ان يعرف أنه الانسان العاشق للورد ، وكل عاشق للورد يعرف جيداً ان الورود حتى تنمو وتكون جميلة المنظر تحب ان يهذبها عاشقها ، وأكرر انني استعمل كلمة « التهذيب » ولا استعمل كلمة « العقاب » .

كيف نقضي وقتاً ممتعاً مع الطفل ؟

اني اكره ان يفتعل الأب صداقة مزيفة مع الأبناء .
واكره ان يجبر الأب نفسه على قضاء وقت يفترض فيه انه وقت مرح لكن الأب لا يحس خلاله بالمرح .

اني اطالب بأن تنبع فكرة تمضية وقت سعيد بروح الصداقة مع الأبناء من خلال رغبة الأب نفسه والابن ايضاً .
وما ينطبق على الأب ينطبق على الأم ايضاً .

من منا يرفض ان ترجع عقارب الساعة بسرعة الى الوراء ليعود طفلاً مرة اخرى يلهو ويلعب ويركض. ان احداً منا لا يمر عليه شهر واحد دون ان يتذكر هذا العالم السعيد الخالي من الهموم : عالم الأطفال . ونحن الآباء والأمهات نملك هذه الفرصة الذهبية كل يوم لكننا نتركها تفلت من ايدينا . بصراحة ان ضغوط الحياة تسرق منا هذه الفرصة . واحياناً نجد انفسنا امام سؤال واضح نلقيه على أنفسنا او يلقيه علينا احد غيرنا . وهو التالي :

الى أي مدى تفيد تلك الساعات التي نقضيها في صحبة ابنائنا واللعب معهم ؟

ان هذا السؤال هو مثار قلق لدى اي أم لا يبدي زوجها أي ميل لمداعبة الأطفال ، او هو دائم الغياب عن المنزل لأنه مشغول بالعمل وليست لديه فرصة لكي يشاهد اولاده إلا مرة او مرتين كل اسبوع ، لأن الأب عندما يعود من العمل يكون الابن نائماً . وعندما يخرج للعمل يكون نائماً ايضاً . وهكذا انقلبت المسألة الى حلم نرغب فيه جميعاً هو ان نعود اطفالاً . وهذا يتحقق عندما نقضي عدداً من الساعات في صحبة الأبناء . وانقلبت الأمنية الى مشكلة لأن ضغوط الحياة على الطريقة الأمريكية التي تهدف الى جمع اكبر رقم ممكن من النقود تمنع الأب من ان يقضي بعض الوقت مع الأبناء . واصبح الأب يحس بالذنب وهو يقرأ المقالات التي يتحدث فيها علماء النفس عن ضرورة ان يقضي الأب مع اطفاله بعض الوقت كل يوم او كل اسبوع على الأقل ، لأن العيادات النفسية تزدحم بالأطفال الذين لا يتكيفون مع المجتمع وان من بين اسباب عدم تكيف الطفل مع

المجتمع هو اختفاء الأب من حياته رغم انه موجود . ان الأب يعود كل ليلة بعد ان ينام الطفل ويخرج في الصباح قبل ان يستيقظ الطفل . وتشير هذه المقالات ايضاً الى ان معظم العاملين في مجال تعليم الأطفال ورعايتهم من النساء . وهكذا فلا يستطيع الطفل او الطفلة ان يكون فكرة واضحة عن دور الرجل عموماً في الحياة . وهذا يولد اول احساس بعدم الامان . ولذلك فإن بعض الأمهات يصرخن في الأزواج وتطالب كل امرأة زوجها بأن يقضي بعض الوقت في رعاية ابنائه لأنه من غير المعقول ان يفتقد الأطفال والدهم . كما ان الطفل لا يستطيع ان يجد المتعة الكاملة في اللعب مع امه لأنه معها معظم الليل والنهار وبينهما دائماً قدر من المشاكل لا يترك وقتاً للعب او المرح . وهكذا تزيد هموم الرجل ويقرر ان يخصص جزءاً من وقته ليقضيه مع أطفاله . وخصوصاً عندما تقول له الأم « العب مع اطفالك » ، انه يشعر انه مرغم على ذلك ويشعر ان الجلوس مع الأطفال هو واجب ثقيل الدم . ويحس انه حتى في وقت فراغه لن يستمتع بهواياته بل سيخصص هذا الوقت ليجلس مع الأبناء او يلعب معهم ، وهكذا يصبح الجلوس مع الطفل شيئاً مختلفاً ، ومصطنعاً ومليئاً بالزيف وسرعان ما يمل الأب الجلوس مع الطفل وسرعان ما يمل الابن الجلوس مع الأب . ان هذه الجلسة « مفتعلة » . لكنا نجد بعض الآباء الذين يعرفون فن صحبة الأطفال يستمتعون تماماً بقضاء بعض الوقت في العودة مرة اخرى الى الطفولة واللعب مع الأبناء في جو من المرح . وعندما ننظر نحن الآباء الذين تطحنهم الحياة اليومية الى المجتمعات البدائية وحياة القبائل ، نجد ان الآباء لا يضطرون الى افتعال اشياء يقضون بها الوقت مع الابن ، لأن الأب في القبيلة البدائية لا يقضي وقته في الليل والنهار في مقر العمل او اجتماعات الرؤساء او التنقل في مواصلات مرهقة . ان الأب في القبيلة يخرج لصيد الأسماك او الحيوانات او يقوم بزراعة الأرض ، ومكان العمل ليس بعيداً عن الكوخ الذي يسكن فيه وهكذا يصحب الأب ابنه ليعلمه الحرفة نفسها ويحدث ذلك ايضاً في المجتمعات التي ينتشر فيها التعليم ، فيعلم كل اب ابنه حرفته . ان الابن يساعد أباه في العمل ويلتقط منه اسرار المهنة .

ولو سألنا انفسنا ما الذي يريده الابن من صحبة ابيه ؟ انه يريد ان يتنازل الأب مرة اخرى عن دور الرجل كثير الهموم والمشغول . فالطفل يريد ان يلعب مع الأب العاب الأطفال المختلفة لكن في اغلب الأحوال يسعى الابن لأن يقلد الكبار وان يشترك مع ابيه في هذه المسألة . وتريد البنت ايضاً ان تقوم بمهمة العناية بالطفل الوليد او القيام بأعمال المنزل . ان الطفل سواء كان ذكراً أم أنثى يرغب حقيقة في ان يصبح كبيراً ، ومن خلال تقليد الكبار فهو يصل الى النضج وتنمو شخصيته .

وكل اب يعامل اطفاله بأسلوب مختلف . ان الأب له بطبيعة الحال صفات تختلف عن أي أب آخر. هناك والد له رهبة ويعامله الأطفال باحترام مبالغ فيه . وهناك والد يحب اللعب والضحك مع ابنائه . وهناك والد ثالث يملك مهارة يدوية ويجيد تصليح اي شيء في المنزل بيديه . وهناك والد له هوايات فكرية كالقراءة ، او فنية كالاستماع الى الموسيقى .وهناك الآباء المتزمتون للغاية . ولكل واحد علاقة ما بأطفاله . وهذه العلاقة تولّد في الطفل حب طبيعة الابن والأب.
وعلى الرغم من الاختلاف بين انماط شخصيات الآباء فإن أي اب يستطيع ان يكون والداً محبوباً من اطفاله اذا استطاع ان يغرس في ابنه الاحساس العميق بأنه يحبه ويغتبط بالوجود معه ويقبله بحسناته ، ولهذا فليس هناك جدول مفروض من الألعاب يجب ان يلعبه الوالد مع ابنه . وليس هناك عدد محدد من الساعات يجب ان يقضيه الأب مع ابنائه . لأن هذا نوع من الافتعال يرفضه الأب والابن معاً . ويؤلم نفسية الأب ويؤذي نفسية الابن لأنه يشعر ان والده موجود معه تحت ضغط ضرورة اللقاء واياه،انني افضل اللقاء التلقائي النابع من القلب لأنه يسعد الابن فعلاً .

اذا كان الوالد رياضياً ويحب ان يلعب الكرة مثلما يحب ابناؤه ايضاً اللعب بالكرة فإن قضاء يوم من اللعب معاً بين الأب وابنائه يسعد الأبناء فعلاً . واريد ان اقول كلمة ايضاً بشأن انواع الرياضة العنيفة كالمصارعة او الملاكمة او العاب القوى . ان هذه الألعاب لا تناسب الأبناء قبل المراهقة . .

واريد ان اقول كلمة ايضاً عن العاب المعارك حيث يصارع الأب ابنه او يخيفه بتمثيل دور العفريت او الأسد . هذه الألعاب قد يقبل عليها الطفل بحماس وهذا يشجع الأب على ان يكرر هذه الألعاب مع الابن ، لكن الحقيقة ان هذه الألعاب مزعجة للطفل كل الازعاج خصوصاً الأطفال الصغار الذين لا يتبينون الفرق الواضح بين ما هو تمثيل وبين ما هو حقيقة . وهذه الألعاب تجعل الطفل ينفعل بصورة جادة ، وكثيراً ما تسبب الفزع الحقيقي في نفوس الأطفال ، ولهذا لا يجب ان يستسلم الآباء لهذه الأنواع من الألعاب . ان القليل منها يسعد الطفل واما الزائد فيزيد رعب الطفل .

وهناك مشكلة اخرى قد تظهر عندما يشتري الأب لابنه مجموعة من المكعبات التي تستخدم في بناء أي شيء ، وهناك عدد من الأشياء المعقدة يمكن بناؤها بهذه المكعبات وقد ينغمس الأب في دفع الابن الى ضرورة تنفيذ بعض التصميمات التي تكون معقدة للغاية ، وهذا يبعث السأم في نفس الطفل ويكره هذه اللعبة كلها ويتجه الى لعبة اخرى وتصبح هذه اللعبة من اختصاص الأب وحده . ان علينا ان نراعي عمر الطفل ومدى شغفه وان نتيح له ان يتدرج في استيعاب المسائل المعقدة . صحيح ان الأب يشتري هذه الألعاب ليعوض الحرمان في بعض الأحيان ، الذي عاناه في طفولته ولكن ليس هذا هو الهدف من شراء اللعب للابن طبعاً . ان الهدف هو ان يسعد الابن فعلاً بالألعاب التي يلعبها .

وطبعاً هناك بعض الآباء الذين يحبون ان يزيدوا من معلومات أبنائهم عن طريق زيارة المتاحف والمعارض وحدائق الحيوانات . ان ذلك يمكن ان يثير متعة الطفل والأب معاً ويزيد من معلومات الطفل فعلاً . واذا كانت زيارة مثل هذه الأماكن تتم مع الأب عن طريق الالحاح والضغط ، فإن الأب نفسه يصبح تعساً اثناء القيام بزيارة مثل هذه الأماكن وتفسد ايضاً ، لمدة ساعات ، روح العلاقة بين الأب وابنائه .

ومن افضل الاشياء في ادخال السعادة على الابن هو ان يشترك مع ابيه في هواية معينة سواء كانت زراعة الزهور ، او اعمال النجارة او صيد السمك او رؤية مباريات كرة القدم ، فمثل هذه الهوايات المشتركة لا نجد الأب فيها يفتعل شيئاً او يجبر نفسه على شيء لا يحبه. بل يتعلم الابن أشياء عبر هذه الهوايات المشتركة من الأب وتقوى الروابط بين الاثنين . ولكن هنا يجب ان نشرح بعض « العيوب » في هذه الهوايات المشتركة . وهذه « العيوب » يعرفها الآباء من ذوي الخبرة. وانا انبه هنا الآباء الذين يفتقرون الى خبرة في هذا المجال. ان القدرة على تركيز الانتباه تحتاج الى وقت طويل . فالطفل الذي في عامه التاسع او العاشر لا ينظر الى مباراة كرة القدم التي يتفرج عليها من اللحظة الأولى . إنه يقضي على الأقل حوالى ثلاثين دقيقة مشتتاً بين بائعي الكوكاكولا والشوكولا والحلوى وغيرها ثم يتنبه بعد ذلك الى وقائع المباراة . بل انه قد يتنبه الى انه جائع عندما يكون في الملعب او في أي مكان خارج المنزل. ويشتري لنفسه ما يسد به جوعه من الأطعمة الجاهزة . وقد يتنبه ايضاً الى انه عطشان فيشتري ما يطفىء به عطشه من ماء او عصير او ما شابه. وفي وسط المباراة قد يبدأ في استجواب ابيه عن الساعة الاوتوماتيكية التي تستعمل في المباراة وعن ملابس الأشخاص الذين يجلسون في المنصة . وهذه الجولة من الاستجواب قد تضايق الأب وتجعله غاية في التوتر لأن اسئلة الابن تدور حول كل شيء إلا احداث المباراة ، مما يمنع الأب من الاستمتاع بالمباراة ، وعلى الأب ان يعرف ان هذا امر طبيعي في شخصية الطفل وعليه ألا ينزعج من ذلك بأن يمتنع عن الذهاب مع ابنه الى أي مباراة يريد ان يستمتع بها وحده . ولكن اذا اراد ان يصحب ابنه وان يتحمل هذه الجولة في الاستجواب ، فهذا امر طيب . واذا اراد الأب ان يستمتع بالمباراة ، فلا مانع من ان يدعو الابن احد اصدقائه ليحضر معه المباراة ليتحدث الاثنان معاً ، ويتركا الأب يستمتع بمشاهدة المباراة .

أما اثناء رحلة لصيد السمك فيجب ألا ينزعج الأب من ان الابن يفقد صبره بسرعة ويبدأ في الاستمتاع بالقاء قطع الحجارة في المياه او اللعب في الرمال .

وعندما يبدأ الأب في بعض اعمال النجارة ويحاول ابنه مساعدته فلا بد ان يكون رقيقاً وحازماً في الوقت نفسه . ان الأب يخشى ان تكون مشاركة الابن ضارة بالمشروع الذي يعمل فيه . وقد يكون الأب مؤمناً بأن الآلات التي يستعملها قد تجرح الابن ، ولهذا فيستحسن ان نشرح للطفل بطريقة لا تجرح الكرامة ضرورة عدم استعمال الآلات التي نراها خطرة ونضع امامه بعض الآلات التي ليست ضارة ، وان ندعه يختار مشروعاً بسيطاً ينفذه من الأخشاب ، وان نشرف عليه من بعيد،وكلما استطاع الأب ان يشجع ابنه ويعجب بما يفعله الابن فإن الابن يتقدم في اتقان هذه الهواية . وهناك بعض الأعمال الكثيرة التي يمكن ان نشرك فيها الابن مثل ترتيب حجرة الأب او المكتبة او غسل السيارة او زراعة حديقة صغيرة في المنزل او دهان حائط . صحيح ان الأب يفضل ان يصنع هذه الأعمال بنفسه لأنه يصنعها بصورة اسرع ولكن عندما نتذكر ان في ذلك تدريباً لشخصية الابن فإن علينا ان نضحي ببعض الوقت لأن هذا ايضاً يقوي صداقة الابن والأب ويجعل الوقت ممتعاً ، ونجعل الابن يتعود على انجاز انواع من الأعمال المختلفة بقدرة رائعة ومهارة ممتازة . ويفيده ذلك في المراهقة فلا ينتابه الملل بسرعة في الأعمال التي يقوم بها او يؤجلها . هذه هي فائدة ان يقوم الأب والابن بعمل معاً .

وهذا هو الطريق الى تدريب الابن على اجادة المهارات التي يجيدها الأب . ومن المهم ايضاً ان نعرف انه اذا غابت الهواية المشتركة بين الأب والابن فليس معنى ذلك ان العلاقة بينهما تكون فاترة . ان امور الحياة اليومية بين الأب والأم يمكن ان تتصف بالحيوية الدائمة ، ابتداء من لحظة الاستيقاظ من النوم الى الحديث اثناء تناول الطعام الى اللحظات الصافية التي يجلس فيها الأب مع الابن ليناقشا معاً اخبار المجتمع واخبار الدراسة . ومدى قيام الابن بواجبه على نحو مرض . حتى اثناء عتاب الأب لابنه على عدم انجاز واجباته ، كل هذه فرص لتقوية الروابط بين الأب والابن وما دام كل من الاثنين يحترم الآخر ويحبه فإن الفرصة متاحة دائماً لرابطة قوية بين الاثنين . ولهذا فأنا ضد ان « نفتعل » موقفاً نعمل فيه مع الابن او « نفتعل » حديثاً يدور حول اي امر من الأمور . إنني

اشاهد كثيراً من علاقات الآباء الناجحة مع ابنائهم دون ان توافر الفرصة لدى الاب ليقضي وقتاً كبيراً مع الابن . المهم هو الحب والأحترام المتبادل . وليس معنى ذلك انني انكر اهمية ان يقوم الاثنان بعمل مشترك او رحلة ما . ان اي اثنين من البشر يقومان بعمل واحد او يشتركان في سفر فلا بد ان كل واحد منهما سيزيد من اكتشاف اعماق الآخر وصفاته ، وتنشأ بينهما ذكريات طيبة .

توفر الحياة في معظم المجتمعات الفرصة للبنت لمرافقة امها اكثر مما توفر للأب والابن . ان الأم تقضي وقتاً في اعمال التدبير المنزلي ورعاية الطفل الصغير ، والفتاة تحب ان تشارك امها في مثل هذه الأعمال وخصوصاً في الفترة قبل المراهقة ، والأم المتزنة هي التي تستفيد من مشاركة ابنتها لها حتى ولو كانت هذه المساعدة ضئيلة ولا تذكر . ان توجيه الأم وترحيبها برغبة ابنتها في المشاركة في اعمال التدبير المنزلي يجعل الابنة عندما تكبر تقبل على هذه الأعمال بحب وحماس ، بدلاً من ان تصبح هذه المشاركة امراً اجبارياً ومكروهاً على نفس الفتاة اثناء المراهقة او بعدها . كما ان الأم عموماً تحب ان تصحب ابنتها الى السوق لرؤية الملبوسات الجديدة والأقمشة . وهذه فرصة تزيد من روابط الأم بابنتها اذا دار الحديث تلقائياً بعيداً عن التمثيل والمجاملة أو تغليب رأي على رأي .

وهكذا نرى ان العلاقة بين الآباء والأمهات من البنين والبنات تؤثر بشكل جاد في حياة الابناء بل انها كما قلت من قبل،تؤثر حتى في اختيار شريك الحياة . ان الأم التي تهتم بأبنائها وتحضر لهم الطعام وتوجهاليهم النصح وتختار لهم ملابسهم وتحكي لهم النوادر انما تؤثر بذلك في شخصية الأبناء تماماً . والأب الذي يحاول ان يشترك في حديث ممتع مع الأبناء وان يغرس في نفوسهم القيم الجيدة ، هذا الأب يؤثر في حياة الأبناء ويجعلهم يحسون بقيمة الأسرة .

وكعادتي في كل فصل في هذا الكتاب ، لي بعض الملاحظات التي احب ان اوجهها كتحذير الى الآباء والأمهات . انني ارحب طبعاً بالصداقة بين الأم والابن وارحب بالصداقة بين الأب والأبنة لكن اطلب ألا تزيد هذه الصداقة عن الحد المعقول ، لأن ذلك قد يصل بالابن الى طريق الاعتماد المطلق على والدته او

اعتماد الفتاة المطلق على والدها ويعطل قدرة الأب على تقويم عيوب الابنة ويعطل قدرة الام على تقويم عيوب الابن . ان البنت تحتاج من ابويها الى كلمة اعجاب عندما تصنع بيدها صنفاً من الطعام او عندما ترتدي فستاناً انيقاً ، وعندما تروي للأب اخبارها وتعتذر له عندما يعاقبها على اهمالها في واجبها . وكذلك الأم مع ابنها تشجعه على اختيار اللعب المناسبة له كرجل وتؤهله دائماً لدوره كرجل وتعاقبه ايضاً عندما يخطىء في واجبه ، وحتى ازيد من تفاصيل التحذير الذي وردت تفاصيله في بداية هذه الفقرة . . ان المرأة احياناً تحس بالتعاسة من الزواج فتفقد الحنان والرعاية والعناية به وتجد في الصداقة مع ابنها متعة تفوق متعتها التي تجدها في صحبة الزوج ، وهكذا الأمر ايضاً عندما يكون الزوج قد خسر حبه لزوجته فيعوض هذا الحب باغراق ابنته في الحنان ويعرض عليها مشاكله . ان هذا يخلق العداء بين الأم والأبنة إو بين الأب والابن . وتتعارض هنا حدود وظائف ومهام كل من الأب والابن والابنة والأم .

وهنا يمكن ان يطرح السؤال التالي :

ماذا نفعل عندما يفشل احد الآباء او تفشل احدى الأمهات في بناء ما يشبه الجسر لتمتين علاقة الصداقة والود مع احد الأبناء .

ان هذا الموقف يستدعي ان يبذل الأب كل ما في وسعه حتى يعثر على هواية يحبها هو وابنه معاً بهدف ان تنمو خلال هذه الهواية رحلة الصداقة بينهما . ان ذلك يشبه القاء كمية كبيرة من المياه في احدى المضخات حتى تبدأ في ضخ المياه المدفونة تحت الأرض . ولكن اذا فشلت هذه المحاولة فليس هناك من داع لإيجاد الصداقة . وهنا نستطيع الاستعانة بالطب النفسي والخدمة الاجتماعية حتى نعرف اين تكمن اسباب المشكلة . فقد يكون هناك احساس بالغيظ او الضيق او الكراهية يدفع الابن دائماً الى الابتعاد عن الأب او الأم . وقد يكمن سبب المشكلة في تاريخ حياة الأب نفسه مثل كراهيته القديمة لأخ يشبه هذا الابن او لعدم قدرة من جانب الأب على الاتفاق مع هذا الابن لأنه يخاف ان يكون قاسياً في معاملته كما كان والده قاسياً معه . وعن طريق الطب النفسي والخدمة

الاجتماعية يمكن اعادة السعادة والوفاق الى الأسرة وازالة احتمالات كراهية الأطفال لأبنائهم عندما يصبح هؤلاء الأطفال آباء في المستقبل .

وهناك مسألة اخرى احب ان اشير اليها . . ان بعض الآباء والأمهات الذين عانوا منذ طفولتهم من تزمت اسرهم يريدون ان يكونوا على علاقة طيبة بأبنائهم وان يقضوا معهم اوقاتاً سعيدة . لذلك نجدهم لا يضعون أي قواعد للنظام في المنزل ويحاولون الابتعاد تماماً عن عقاب او عتاب ابنائهم ، ولا توجد في مثل هذه الأسر اي قواعد للانضباط . وانا اقول لهذا النوع من الآباء انني احب من كل قلبي ان تكون حياة الأسرة سعيدة بكل الامكانيات ، لكن السعادة شيء لا يتعارض مع تهذيب الأبناء . ان في استطاعتنا نحن الآباء ان نصل الى صداقة الأبناء حتى من خلال مواقف تهذيبهم . اقول ذلك حتى لا نفسد الأبناء تحت ستار الصداقة مع الأبناء او تحت شعار ان حياتنا يجب ان تكون كلها لهواً مرحاً ان المرح لا يتعارض مع الاحترام المتبادل بين الآباء والأبناء . والسعادة لا تتعارض في ان نعلم الأبناء كيف يتصرفون باتزان . والحب ليس معناه افساد الأبناء بالتدليل ؛ ليست هذه دعوة للقوة ولكنها دعوة لفهم مسؤوليتنا نحو ابنائنا .

الطفل الذي يميل الى العدوان

عندما يتجه الطفل نحو العدوان فهو غالباً ما يعبر عن مشكلات نفسية توجد داخل الأسرة نفسها .

عندما يدخل المقاتلون الى حلبة القتال ويدافع كل مقاتل عن نفسه ويهاجم عدوه وينقذ نفسه من الموت ، فنحن نظل نحكي عن بطولته ، وقد نستدعى المؤرخين ليسجلوا حياة البطل .

وعندما تنفجر داخل قلب الأم طاقة رهيبة لتضرب كلباً يهاجم ابنها وتكاد هي ان تفترس الكلب ، وقد يعضها الكلب ولا تخاف وتنقذ ابنها ، فنحن نصفق لهذه الأم . وقد تجري اليها الصحف لتنشر صورتها وتحكي قصتها مع الكلب : كيف واجهته بمفردها ، رغم انها في حياتها العادية سيدة رقيقة وجميلة ولا تفكر في العدوان ابداً .

وعندما نطلق النار على لص مسلح دخل منزلنا فمن المؤكد اننا سنشعر بالسعادة ونحن نقف امام وكيل النيابة لنروي قصة الدفاع عن النفس ، إذ اننا قتلنا اللص قبل ان يقتلنا .

اقول ذلك لأني اريد ان اصل الى نقطة البداية في الحديث مع الأمهات والآباء عن السؤال الذي يتردد في بعض الأحيان ، والسؤال هو التالي :

ما هي الأسباب التي تجعل الطفل يميل الى العدوان ؟ . وهل يمكن ان تكون هناك اجابات كثيرة ومتنوعة عن هذا السؤال ؟ . فالاجابة عنه تحتاج من كل واحد منا ان يعرف معنى كلمة « سلوك عدواني » . فما تظنه احدى الأمهات

« سلوكاً عدوانياً » قد لا تعتبره ام اخرى كذلك ، بل قد تنظر ام ثالثة الى السلوك ذاته على أساس انه دليل على حيوية الطفل . إن معنى كلمة سلوك عدواني يختلف من اسرة الى اخرى ، ومن انسان الى آخر . .

ومعظم الباحثين في علم النفس والطب والتربية يسألون : « هل العدوان دافع فطري في الانسان » ؟

والاجابة التي يقولها الواقع هي . . ان الله خلق في كل انسان طاقة لكي يكون « عدوانياً » امام الخطر وحتى يدافع عن نفسه ضد عدوان الآخرين . وهناك اصطلاح يستعمل في علم النفس هو « دافع العدوان الطبيعي » ومعناه هو الطاقة التي يستنفدها الانسان العادي في الوان النشاط اليومي سواء في العمل او الدراسة او الرياضة . وهكذا نرى ان « دافع العدوان الطبيعي » ليس امراً شاذاً ، بل هو دافع يومي للحياة . هذا ان لم يستغل في تدمير النفس او تدمير الآخرين . وانا اعتقد ، كمعظم علماء النفس ، ان كل طفل يولد وفي فطرته ميل طبيعي للعدوان . وطبعاً يمكن لكل من التربية والتجربة ان تغير من درجة هذا الميل نحو العدوان اثناء مراحل العمر المختلفة . ان الأم قد تصف حركة الجنين الدائمة وهو في احشائها على انها « حركة ولد شقي » . وعندما تلده ويصبح هادئاً نقول « انه طفل وديع » . لكن هناك طفلاً آخر يكون هادىء الحركة وهو جنين ثم يصبح شعلة متوقدة من النشاط ومصدراً للضجيج وهو في شهره الثاني . انه مثلاً - يحاول ان يرفع رأسه الثقيل مستعينا برقبته الضعيفة ، عندما يصرخ ليطلب الطعام . وعندما يبلغ من العمر الشهر الثالث فهو يحاول ان يفرد جسمه ليتمرن على الجلوس فور ان يمسك يدي امه .

وهكذا نرى ان الدافع الطبيعي الى العدوان يختلف من انسان الى آخر . وحتى اشكال العدوان الشاذة تختلف من حالة الى اخرى ، وحسب كل مرحلة من مراحل العمر .

ونحن نستمتع بالطفل الغاضب الذي يحاول الانتقام لنفسه ، عندما يكون عمره سنة او اثنين . ونسعد كل السعادة عندما يعلن الطفل غضبه حيال من

اساء اليه . والطفل بطبيعة الحال لا يتعرف على من اساء اليه او عاكسه إلا عندما يبلغ الشهر الثامن عشر . انه يغضب من امه عندما تمنعه من الاقتراب من اي شيء قابل للكسر ، وقد يضرب الأرض بأقدامه ويبكي او يرمي نفسه على الأرض او يرفس برجليه . انه يملك من البداية ما يتيح له مهاجمة احد . انه يهاجم نفسه اولاً . وتمر به اكثر من تجربة ، ويملك اكثر من خبرة وهو عندما يصبح في الشهر السادس يدرب نفسه على عدم عض حلمة ثدي والدته اثناء الرضاعة .
وعندما تبدأ متاعب ظهور الأسنان فإنه يعض اي شيء ابتداء من اصبع يده الى أي شيء يكون في متناوله . واذا حاول احد ان يعلمه كيف يعض فقد يتمادى في هذه المسألة ، لكن الأم تستطيع ان تمنعه من ايذاء نفسه او ايذاء أي احد آخر ، وهي تعلمه ان اللعب شيء آخر يختلف عن العض . اننا نستطيع ان نلاحظ ايضاً اللعب بين القطط الصغيرة او الكلاب . قد نتخيل ان كل قطة ستمزق وتدمي القطة الأخرى وهي تلعب معها ، لكنها لا تفعل ذلك ، انها تحاول ان تحافظ على مستوى معين في هذا اللعب ولا تبلغ الحد الذي يضر بمن تلعب معه .

والطفل الصغير ايضاً عندما يقترب من نهاية عامه الأول يحاول ان يجرب ايذاء الآخرين . فعندما يغضب من امه فهو يحدق اليها بنظرة غاضبة . وقد يفكر في ان يشد شعرها او يعضها من خدها . انه يشعر ان هناك ما يستدعي ان تعاقب عليه الأم ويشعر بدافع لعقابها والحاق الأذى بها ، ولكنه يملك في الوقت نفسه احساساً بأن هذا السلوك الذي قد يسلكه شيء لا يتناسب معه . ان الأم المتزنة تستطيع ان تنبه الطفل الى انها لا تحب ان تصدر عنه مثل تلك التصرفات ولا يمكن ان تبيح له ذلك . وهذا عن طريق افلاتها من محاولة غضبه منها او ان تضربه برفق على يده التي يشد بها شعرها . ولكن هناك بعض الأمهات اللواتي يتصفن بأحاسيس يشوبها بعض الانحراف . وتلعب الواحدة منهن مع طفلها لعبة « اذا اذيتني سأؤذيك » . وتتركه يعضها ثم تمثل انها تبكي ويكرر الطفل عض امه بصورة اكثر عنفاً . ويضحك الطفل ضحكة تظهر اسنانه . وتظهر عليه ملامح التلذذ بتعذيب الآخرين .

انني اؤمن ان الطفل الذي لم يبلغ بعد الثالثة من العمر لا يملك رغبة في الهجوم على غيره هجوماً قاسياً او مؤذياً إلا اذا علمه احد هذا اللون من الهجوم وشجعه عليه . ان كثيراً من الأمهات يقلن لي في لهجة مليئة بالشكوى من اطفالهن . . « ان طفلي الذي لم يبلغ الثانية من العمر لا يستطيع الدفاع عن نفسه . انه يعجز عن رد هجوم الأطفال الآخرين عندما يضربونه وعندما يعبثون باللعبة التي يملكها . ويغرق في الحيرة ويبكي ويجري الى احضاني يطلب حمايتي » . انني ألاحظ من أقوال الأمهات الكثيرات من الشكوى والاحساس بالمرارة والخوف من ان ينمو الطفل على احساس بأنه كائن ضعيف . ولكن عندما يبلغ الطفل عامه الثالث فهو يتعلم من التجارب التي تمر به ويتقن الدفاع عن نفسه . ولا اتذكر ان احدى الأمهات شكت لي من ان طفلها الثاني لا يتقن الدفاع عن نفسه . ان الطفل الثاني ما ان يصل الى عمر السنة والنصف حتى يكون قد قاسى من الوان العقاب الكثير . ويكون المعتدي طبعاً هو الأخ الأكبر الممتلىء بالغيرة . لذلك فالطفل الثاني يتقن الدفاع عن نفسه مبكراً . يعرف كيف يحافظ على لعبه وممتلكاته بعنف . يعرف كيف يضرب اخاه وان لم يستطع فهو يعرف كيف يصرخ بأعلى الصوت ليطلب الاغاثة من الوالد او الوالدة .

ان الطفل في عامه الأول او الثاني يرغب في العض كأسلوب اول في الهجوم والدفاع عن نفسه . كما انه يحاول ان يضرب الخصم بأي شيء ثقيل او يوقعه على الأرض . هذا هو الأسلوب المنتشر في هذا العمر للدفاع عن النفس وهو اسلوب بدائي المظهر ومباشر جداً . ولكن عندما يصل الطفل الى عامه الثالث او الرابع فإن الأم تستطيع ان تلاحظ ان الطفل يتجه حتى في اسلوبه العدواني الى التحضر والمدنية . انه يبدو اكثر نضجاً . فالطفل الطيب القلب ذو المشاعر الرقيقة لا يرد العدوان فوراً انما يحاول من البداية ان يستفسر وان يحتج . وقد يرد العدوان بعد ذلك . ومن المهم جداً ان نلاحظ بأن الأحاسيس العدوانية تأخذ شكل اللعب . ان الطفل يلعب دور راعي البقر الذي يسرع بالتقاط المسدس واطلاق النار على اللص الشرير الذي يحاول سرقة البقر او تهديد المدينة . ويلعب الطفل ايضاً دور العملاق الذي يهجم على المنزل فيسحقه . ويكون هذا « المنزل » بطبيعة الحال

مصنوعاً من المكعبات التي يلعب بها الطفل . ويلعب الطفل ايضاً دور الشرطي الذي يقود سيارة سريعة او دراجة نارية ليطارد اللصوص . يمكننا ان نطلق على هذا النوع من الألعاب كلمة « زر الأمن » لأنه يحمي الطفل من الاحساس بالعدوان . انه ينقي اعماق الطفل من احاسيس الضيق والكراهية والغضب . . . تلك الأحاسيس التي تتولد وتتكاثر في الأعماق خلال علاقته بوالده او احد اخوته .

ينطوي هذا النوع من الألعاب على اهمية اخرى بالغة . انه يدرب الطفل على التحكم في مشاعره . ويعلمه كيف تتلاءم هذه المشاعر مع التقاليد السائدة في مجتمعات الكبار ، هذه المجتمعات التي يحترمها ويرغب في ان ينضم اليها . لكن بعض الآباء والأمهات الذين يتمتعون بحساسية ضمير فائقة ، هؤلاء الآباء يدرسون هذه الألعاب من كافة الزوايا ثم يصدرون الحكم . . انهم يفضلون عدم تشجيع اللعب بالمسدسات والبنادق خصوصاً في فترة العمر التي تقع بين العام الرابع والعام الثامن . وهذا يرجع الى الخوف على الاطفال من ان يتبعوا اساليب اللصوص وافراد العصابات ، أي ان يتطبع سلوكهم بالأساليب المتوحشة الخالية من الاحاسيس الانسانية خصوصاً عندما يصلون الى سنوات النضج . لكن الحقيقة هي ان ممارسة الأطفال لمثل هذه الألعاب ـ المسدسات والمدافع والبنادق ، هو مجرد وقفة في طريق العمر ينتقلون بعدها الى عالم الكبار فالفترة الواقعة بين السنة الثالثة والسادسة هي افضل الفترات التي يسلك فيها الاطفال سلوكاً طيباً مع الآباء والأمهات . ان الطفل يتعرف في هذه الفترة على أحاسيس الحب المتبادلة بينه وبين والديه . ويتمنى ان يكون مثل ابيه كما تتمنى الفتاة ان تكون مثل الأم . ويشعر الطفل ايضاً في هذه الفترة بأحاسيس الحب الرومانسية ، تلك الاحاسيس التي تدفعه الى الرغبة في الامتلاك وكذلك احاسيس الفتاة نحو والدها ، وهذه الأحاسيس الرومانتيكية تتسبب في خلق منافسة خفية بين الطفل وابيه وبين الفتاة وامها . ولا تطفو هذه المنافسة على السطح في اغلب الأحيان ، ذلك ان الطفل يحاول بكل ما يستطيع من قوة ان يخفي هذه الأحاسيس . ويحاول الوالدان ايضاً المحافظة على العلاقة بينهما سوية

وكذلك مع اطفالها ، وهذا لا يمنح للطفل فرصة الدخول في المنافسة بشكل علني . لكن الأمر يختلف في بعض الأسر التي تعاني من اضطرابات ما . ان الأم في مثل هذه الأسر تفاجأ بأن ابنتها التي لم تتجاوز الرابعة او الخامسة تظهر لها مشاعر العداء ، دون سبب ظاهر ، وتحتار الأم وتحاول ان تعثر على سبب واضح لهذا العداء فلا تجد مبرراً له . وقد تظهر هذه المشاعر العدوانية ايضاً بشكل صريح اثناء المراهقة ، فتصبح الفتاة شديدة الرغبة في التنافس مع الأم . وعادة ما تكون مشاكل المنافسة بين الأم وابنتها اكثر حدة واكثر ظهوراً لدى الفتيات منها لدى الفتيان . ذلك ان الأبناء الفتيان يملكون احاسيس الاحترام العميق ويهابون الآباء .

وفي عمر الثامنة والتاسعة نشرح للابناء ان لعبة العداء مع الآخرين تفقد بهجتها وتصبح غاية في السذاجة ويصبح مجال الاهتمام منصباً على السينما والتليفزيون . ان افلام رعاة البقر وحكايات الجريمة تمنح الخيال فرصة الانطلاق الى مجالات من الوان العداء المختلفة الخيالية وهي توقع بالمعتدي اخيراً ما يستحقه من عقاب .

والمرحلة الواقعة بين العام السادس عشر والثامن عشر هي السنوات التي نرى فيها المرء يتجه بطبيعته نحو النضج . ويدفعه هذا الى ضبط الرغبات والنزعات التي يشعر انها تحمل من الخطأ أكثر مما تحمل من الصواب . إنه يظهر سيطرة رائعة على سلوكه وقدرة كبيرة لضبطه . فالطفل في هذه المرحلة من العمر يكبت اي اشارة للتعبير عن العداء مع والديه على وجه الخصوص ، حتى في اثناء اللعب والضحك ، بينما يحاول الطفل الذي في الرابعة من عمره ان يوجه المسدس نحو الأم ويقول بلهجة تمثيلية خشنة « سأقتلك فوراً » لكن ما ان يصل الى العام التاسع حتى يصبح الضمير اكثر قدرة على الحزم . إنه لا يحس انه يملك الحرية المطلقة في الهجوم على احد اخوته في حالة استفزاز هذا الأخ له . والطفل هنا قد يكبت في اعماقه احاسيس العداء وهي مساوية في درجتها لأحاسيس العداء القديمة . . لكنه يحاول هنا ان يتحكم في نفسه ولا يقدم على العدوان إلا كرد فعل لعدوان وقع عليه ، وليس معنى ذلك انه منزه تماماً عن الخطأ . . انه

حياناً يستفز الذين يكونون امامه بأسلوب مبطّن حتى يوقعهم في شراك الاعتداء عليه ثم يقلب المسألة الى عدوان منه هو كرد فعل على ذلك العدوان ، وهذا يظهر دائماً كأنه لا يفعل اكثر من الدفاع عن النفس .

ولنناقش الآن مشكلة معقدة بعض الشيء . . انها مشكلة البيئة وتأثيرها على احاسيس العدوان في نفس الطفل ، والى اي درجة تكون هذه النزعات حادة او الى اي درجة تكون غير حادة . . ومن البداية نقول ان اهم المؤثرات هي درجة الانسجام بين شخصية الطفل وشخصية الأم والأب . ان الانسجام هو هدف يسعى اليه الأبوان مع الطفل الذي ينجبانه ، والانسجام ايضاً مع الوالدين هدف يسعى اليه الطفل لكننا نسمع في بعض الأحيان ان الآباء والأمهات يقولون ان التعامل مع البنات اسهل من التعامل مع الصبية الذكور . ونرى ايضاً ان بعض الأسر تنجح في معالجة امور اطفالها الغلاظ ، ونرى اسرة اخرى تنجح في معاملة طفلها الذي يميل الى الخجل . وانا كطبيب استطيع ان اقول انني اسمع دائماً احدى الأمهات وهي تعاني من القلق والحيرة لأن هناك طفلاً من ابنائها يثير حيرتها في مسألة معاملته . هناك طفل يتميز بالنشاط ويطفح بالحيوية وهذا يشجع الأم على ان تعامله بطريقة تجعل نشاطه يزداد اشتعالاً . وأضرب الآن مثلاً بذلك الطفل الممتلىء بالحيوية وعمره لا يزيد عن ١٨ شهراً . . اخذت اراقب هذا الطفل عندما كان يلعب في حديقة عامة اثناء الصباح وكان بين الحين والآخر يدير ظهره للحديقة محاولاً ان يتجه صوب الشارع حيث السيارات المسرعة ، او يتسلق حيناً آخر سوراً عالياً ويمثل احياناً على مرأى امه دور من يقع في الخطر . وتجري الأم وراءه وتحاول ان تنقذه اما بشده من الشارع واما بانقاذه من الخطر الذي يعرض نفسه له . وتحول الأمر الى حالة من العناء الهستيري بين الطفل وامه . انها تحبط دائماً رغباته وتحاول ان تكبت كل تحركاته . وهو لا يهتم الا بشيء واحد : ان يعاندها معرضاً نفسه للخطر . استمر ذلك الموقف لمدة ساعتين . وبطبيعة الحال نحن نستطيع ان نلمس جيداً ان هذا الطفل المتدفق بالحيوية يتعرض للضغط فيقاومه ، وهكذا ينزلق الطفل والأم الى لعبة العناد الذي يورث الاحساس بالضجر والمرارة .

كان سيجموند فرويد اول من ازاح الستار عن الصراع الممتد بين الطفل وامه بخصوص ضبط التبرز واستعمال دورة المياه كالكبار خصوصاً خلال السنوات الثلاث الأولى من عمره ، وكيف ان هذه المحاولة من جانب الأم تسبب احساساً بالضيق والعداء في اعماق الطفل وكيف ان هذا الصراع قد يدفع الطفل الى العدوان المستمر . . لكن ليس هذا الأمر هو الغالب . ان هناك حالات نرى فيها ان الرابطة بين الطفل ووالدته وشيجة وقوية وصحيحة من كافة مجالات الحياة . هناك احساس الطفل بالفخر وبأنه يقدر حبها له وهناك ايضاً الاحساس بالذنب عندما يدخل معها في معاندة تشبه التحدي . كل ذلك يدفع الطفل الى محاولة السيطرة على احاسيس العدوان تجاه الأم . . وهو ايضاً يرضخ اخيراً ويتعلم كيف يضبط التبرز والتبول ويختار المكان المناسب لذلك وهو المرحاض . ولكن هناك احتمالاً ما بأن الطفل يجمع في شخصيته نتيجة لهذا الصراع طاقة للعناد الشديد واحساساً بالذنب شديداً .

كتبت لي احدى الأمهات رسالة عن المصاعب التي تمر بها اثناء تربية طفلها الثالث وهو الآن دخل عامه الرابع . وتقول ان طفليها الأول والثاني هما بنتان الأولى عمرها ٢٤ عاماً والثانية في الثانية والعشرين . وتقول الأم ان تربية « البنات » كانت رحلة من المتعة . انها لا تتذكر ابداً ان هناك اية صعوبة قابلتها اثناء تربية البنتين وطبعاً علينا ان نعرف ان تعاقب الليل والنهار ومرور الأعوام يُنسي الانسان ما قاسى من متاعب. لذلك يجب ان ننظر الى كلمات الأم بعين التحفظ . وتستمر الأم في حكايتها عن مدى انسجام الفتاتين مع جو الأسرة وجو المجتمع وتدلل على ذلك بنجاح الاثنتين في الدراسة وكيف ان كلاً من البنتين تنال اعجاب المجتمع . وبعد ان مرت على الأم سبعة عشر عاماً تأكدت من انها لن تنجب بعد ذلك . وقد بلغت سن الأربعين وكانت حياتها ممتلئة بألوان النشاط الاجتماعي والرحلات مع زوجها . إذ ان عمل الزوج يتطلب منه ان يرحل دائماً ، ونتيجة لهذه الرحلات الدائمة كانت هذه السيدة وزوجها لا يقضيان مع الابنتين سوى ايام الاجازات . وفوجئت ذات يوم بأعراض القيء وتغير طعم الطعام في فمها وذهبت الى الطبيب فقال لها « انت حامل يا سيدتي » اندهشت

المرأة ولم تصدق الطبيب . غرقت لمدة أيام في احاسيس الملل والضيق . ولكن الأمر الواقع يفرض على الانسان الاقتناع . وبدأت تفكر في طرق التكيف مع المولود القادم . لكنها كانت تعرف جيداً انها غير متحمسة لهذا المولود . وخلق هذا الاحساس بالفتور والاستياء في اعماقها احساساً بالاثم بالاضافة الى عدم الثقة بالنفس والى احساسها بأن المولود القادم سيقيد من حريتها . وعندما تمت الولادة لاحظت هذه السيدة ان طفلها من هذا النوع الذي يجيد تعكير مزاج الأمهات انه صنف من الأطفال يحول الأم السعيدة الى ام غاية في الشقاء وغاية في الاحساس بالضيق . وتمر الأيام . ويتأكد لدى الأم الاحساس بأن طفلها من هذا الصنف السمج من الأطفال الذين لا يكفون عن الالحاح والقلق . يمر عام ويدخل الطفل مرحلة يستطيع فيها ان يستقل نوعاً ما عن الأم . ويبدأ في العبث بكل شيء ويرفض اطاعة الأوامر ، ومهما حاولت ان تتبع من اساليب التأديب والتهذيب فليس هناك اي طائل . وعندما بلغ هذا الطفل السنة الرابعة اصبح غاية في النشاط والوقاحة والتحدي والقدرة على تدمير اي شيء يصل الى يده سواء كان من ممتلكات الأسرة او من ممتلكات الجيران . واصبح قادراً على الدخول في معارك مع الأطفال الذين هم في مثل عمره ويلحق بهم الأذى . وعرفت اخيراً الأم ان طفلها « شاذ » عن الأطفال الأسوياء ، وعرفت انه من النوع الذي يجيد اختيار الوان الازعاج المختلفة ليهديها لأسرته . وبدأت الأم تستشير الاخصائيين في العلاج النفسي لمساعدتها في تربية هذا الطفل . وعرفت الأم اثناء استشارتها لمختلف الأطباء في العلاج النفسي انها شخصياً احد الأسباب التي تدفع الابن الى العدوان ، لأنها في اغلب الأحيان تثير ضيقه بسلوكها معه وبنفورها في بعض الأحيان منه ثم وقوعها بعد ذلك فريسة الاحساس بالاثم . . كل ذلك يجعلها غير قادرة على اتباع اسلوب حازم في تربيته .

يأخذ الميل الى العدوان صوراً اخرى عند بعض الأطفال خصوصاً في مجال الأسرة . ان كل اب وكل ام من الذين انجبوا اكثر من طفلين او طفلين فقط . . يعرف جيداً ان هناك احساساً بالغيرة يتولد في اعماق الطفل الصغير عندما يأتي

الى الأسرة مولود جديد . ان الطفل الذي لم يتعد العام الثالث يتعرض الى الاحساس بضرورة العدوان على هذا المولود الجديد . ويظهر هذا في محاولات الضرب او الوخز او توجيه اي اساءة الى هذا المولود الجديد . لنرو الآن تلك القصة التي لا انساها ابداً لأنها تظهر بوضوح هذا الاحساس بالعدوان الذي يغمر اعماق الطفل الذي لم يبلغ عامه الثالث وخصوصاً عندما يتحول هذا العدوان من حدود الأسرة الى خارجها . بطلة القصة طفلة في منتصف عامها الثالث والحقتها الأسرة باحدى دور الحضانة . وعندما وضعت ام هذه الطفلة مولوداً جديداً . لم تظهر على هذه الطفلة اية مشاعر عدائية نحو المولود الجديد . لكن والدة هذه الطفلة فوجئت بأن دار الحضانة الموجودة بها هذه الطفلة تشكو من عدوان الطفلة على كل طفل اصغر منها بدار الحضانة . انها تنتهز اي فرصة وتعض احد الأطفال الأصغر منها . واخيراً قررت ادارة الحضانة ان تضع « حراسة » على الاطفال الذين يقل عمرهم عن عمر هذه الطفلة . ورغم ذلك فقد استطاعت هذه الطفلة ان تفلت من الحراسة لتعض احد الأطفال الذين يصغرونها .

ونحن نلاحظ بين طفل وآخر ظهور ميل الى العدوان عند احد الأطفال بشكل مؤقت ، يحدث ذلك كرد فعل لأي متاعب يجدها الطفل خارج نطاق الأسرة مثل عدوان احد اطفال الجيران عليه وعدم قدرته على رد هذا العدوان ومثل احساسه بصعوبة الدروس التي يتلقاها في المدرسة ، كل هذا يدفعه الى الاحساس بالضيق وبعدم الثقة بالنفس ، ويخاف من أن يسخر منه احد ويدفعه هذا الإحساس الى العدوان . لكن ميل الطفل الى العدوان يأتي في معظم الأحوال من اسباب عائلية ومن مشاكل تحدث له في حدود علاقاته بأفراد اسرته . ولهذا فلا بد ان تبحث الأسرة عن تلك الأسباب وان تضع نهاية لها حتى تقل نزعات العدوان في اعماق الطفل . ان الأسرة في بعض الأحيان تستطيع ذلك وفي احيان اخرى لا تعرف الأسرة سوى الحيرة . يضيع السبب وراء عدوان الطفل من ذهن الأب او الأم . وهنا لا بد من استشارة احد الاخصائيين النفسانيين لأنه يستطيع ان يعثر مع الأسرة على حل لهذا العدوان .

عندما يكثر الطفل البكاء

انها حلقة مفرغة تأسر الابن والأم معاً فلا يجدان امامهما سوى الارتباك دائماً .

البكاء . . او ادعاء البكاء واطلاق اصوات «النشج» او الانين والانتحاب مسألة مثيرة للاعصاب تماماً . وهذا أمر ذائع بين الأطفال الذين في الثانية او الثالثة من العمر ، وهناك حالتان مرت كلتاهما علي حيث كان الطفلان يكثران البكاء خلال عامهما الأول . وهناك أيضاً عدد قليل من الافراد يستمرون في البكاء أو ادعاء البكاء واطلاق اصوات « النحيب والأنين حتى عمر الشيخوخة . .

والآن لنبدأ في محاولة تفسير مسألة « ادعاء البكاء » والنحيب والأنين عند الطفلين اللذين لم يبلغ احدهما بعد العام من عمره ، ذلك انه من الطبيعي ان يكون الوليد الذي عمره شهور أقل مشاكل ، ونفسيته اكثر صفاء من بقية الأطفال . ان حالة الطفل الأول وهو صبي هي كالآتي : ـ نجد ان امه وأباه استقبلاه بالفرحة الشديدة عندما ولد ، لأن ميلاده كان نتيجة جهد طويل في العلاج للاثنين ، وكان شوقهما لا يحد لانجاب طفل . وعندما جاء هذا الابن كانت فرحة الأسرة به فوق حدود التصور . كان الأب يحمله دائماً ليلاعبه والأم تنفذ له كل ما يطلب وتحمله ايضاً ، كانت الأسرة كلها تحت امر تسليته ولهذا كان يرفض هذا الطفل ان يسلي نفسه كعادة بقية الأطفال في مثل هذا العمر . وعندما بلغ هذا الطفل العام الأول من عمره بدأ يلح على الأب والأم في طلب انواع جديدة من التسلية في معظم لحظات النهار . وأصبح دائم اليقظة لا يهدأ ولا

ينام ، كثير المطالب ، وقد احدث هذا للأم ضيقاً لأن للصبر حدوداً . ولعلنا نعرف ايضاً أن هناك سبباً هاماً هو الذي يجعل صبر الأب او الأم يتلاشى بمنتهى السرعة وهو ان الطفل كلما تقدم في العمر كلما استطاع ان يعتمد على نفسه نوعا ما وهكذا تقل درجة تدليل الآباء والأمهات للطفل . ذلك انه لم يعد ذاك « العاجز » عن الاعتماد على نفسه كما كان في البداية . ولكن ليس هذا هو الذي يحدث دائماً ، ذلك ان بعض الآباء والأمهات يلاعبون الأبناء حتى سن الثالثة يقدمون لهم الطعام من زجاجة الرضاعة . تحمله الأم او يحمله الأب يدور حوار بين الطفل ووالديه باسلوب يقلد فيه الوالدان طريقة الطفل في الكلام وفي حالة الطفل الذي نتحدث عنه كان لا يطيق الجلوس وحيدا في مكان ما . واذا وضعته الأم بعيداً عنها ولو لثانية واحدة فإنه يبدأ في اصدار اصوات «النحيب» والأنين وادعاء البكاء . وهكذا حتى تأتي اليه امه وحتى تحمله على يديها .وتحاول الأم ان « تنسى » مؤقتاً هذا البكاء وهذا النحيب . لكن استمرار الطفل في اطلاق صيحات البكاء دون دموع مسألة تدفع الأم الى الاحساس بالشفقة والقلق وعدم راحة الضمير فتذهب الى طفلها لتلعب معه لمدة دقائق تحمله فيها على ذراعيها ، وعندما تريد ان تضعه في حجرته او على ارض الحجرة وفور ان يلمس سريره او الأرض فإن « نوبة » النحيب والبكاء دون دموع تبدأ على الفور وبمرور الوقت تبدأ الأم تحس بالضيق ونفاد الصبر والغيظ من هذا الطفل الذي يبالغ في كل شيء . ولأنها كانت بلا تجربة وتخاف عذاب الضمير ، أصبح من العسير عليها ان تتعرف على الاحساس بالضيق الذي يصل الى درجة العداء ، هذا الاحساس الذي كان ينمو في اعماقها وظلت تضغط على نفسها وتنكر هذا الاحساس وتستسلم دائماً لمطالب الطفل .

وأنا أؤمن ان الوليد الذي لم يصل عمره حتى الى الشهور العشرة يحس بمشاعر امه مهما حاولت اخفاءها . وهذا يولد في الطفل احساساً بالقلق والضيق ويجعله يندفع الى المزيد من المطالب ، انه يطلب التفرغ الكامل له ، انه يطلب الاهتمام الدائم به ويشعر بمدى سلطانه على الأم ويشعر انه ليس لها أي حق في ان ترفض له اي طلب . ان هذا الاحساس يأتي اليه من الأم نفسها . انه يحس انها

تشعر بعذاب الضمير لو رفضت لـه طلباً من المطالب . وهكذا ينـدفع الابن ليصبح مستبداً صغيراً يرفض ان يعصاه احد خصوصاً من هؤلاء « الكبار » المقربين الأب او الأم . ولهذا تقع الأم اسيرة دائرة من العذاب . انها حلقة مفرغة تأسر الابن والأم معاً ولا يجد احدهما مفراً من تعذيب الآخر . الابن لا يتوقف عن مطالبه بما يريد مهما غالى في ما يطلبه ، والأم لا يمكنها أن ترفض مطالب هذا الابن رغم أنها لا تشعر بالتعاطف معه او مع مطالبه .

ونتنقل الآن الى حالة الطفل الثاني . انها فتاة عمرها ثمانية شهور حياتها معقدة اكثر من الطفل الأول . ولدت بعد عام واحد فقط من زواج أمها وأبيها . استدعي والدها للخدمة العسكرية بعد ميلادها مباشرة ليؤدي واجبه الوطني في الحرب العالمية الثانية . تكون الأم طبعاً في هذه الحالة في غاية القلق على الزوج الغائب . انتقلت الأم الى الحياة بجانب المعسكر الذي يقضي فيه الزواج أيام التجنيد . كانت الأم في غاية القلق . انها تخاف من ترحيل الزوج ليحارب خارج البلاد . وبالفعل حدث ما كانت تخاف منه الأم . تم ترحيل الزوج ليحارب خارج البلاد. وعاشت الأم بعد ذلك مع ابنتها حياة تكتنفها الوحدة. ليس في هذه الحياة أي نوع من العلاقات الاجتماعية ، ليس هناك أقارب . ونتيجة لذلك اصبحت الطفلة نفسها مرآة لكل هذا التوتر . اصبحت الطفلة ذات مطالب لا تنتهي . استبدت بها الشيخوخة وهي لم تبدأ بعد سنوات الحياة . الأم تحملها على ذراعيها معظم اوقات النهار والليل تحملها وهي في المطبخ تغسل ، وطبعاً ترفض الفتاة الصغيرة ان تجلس ولو لمدة نصف ساعة مع أية مربية من مربيات الأطفال . ان عيون الطفلة مركزة طوال الوقت على الأم . إنها لا تسمح لها بالخروج او الابتعاد واخيراً تنام الطفلة في المساء بعد ان يكون الارهاق قد استبد بالأم تماماً . انها تقضي النهار كله تحت تأثير صوت بكاء الطفلة الذي بلا دموع . وهو صوت يعلو في بعض الأحيان ويخفت في بعض الأحيان ويدمر الاعصاب في كل الأحيان . واعتقد ان الأم منذ ميلاد الطفلة يساورها احساس بأن ميلاد الطفلة بمنتهى السرعة خلال شهور بسيطة من الزواج هو السبب في ارتباك الحياة التي تحياها ، واعتقد ان الأم قد امتلأت بالضيق والضجر من هذه الأبنة المستبدة .

واعتقد ان الأم كبتت كل هذه الأحاسيس واستسلمت للابنة تماماً . ان هذه الحالة المعقدة توضح مع سابقتها ما نراه من حالات الأطفال الذين يبكون دون دموع . عندما يلح الطفل في المطالب وعندما تستسلم الأم وهي في غاية الضيق لهذه المطالب وتخاف ان تعلن عن ضيقها خوفاً من الاحساس بالذنب ويعي الطفل نفسه ان هذا الاستسلام مصاحب بالضيق ويشعر انه مالك يمكنه استعباد أمه استعباداً مطلقاً وهكذا يندفع الطفل الى هذا الاستقلال . ولكن بطبيعة الحال يختلف الأمر بالنسبة للطفل الذي في عامه الثاني او الثالث ، ان الصورة لا تكون في مثل هذه الحدة فالطفل يستطيع ان يلعب بمفرده في بعض اللحظات ويستطيع ان يقوم بما يطلبه في بعض اللحظات ويستطيع ان يمشي في انحاء المنزل . ويستطيع ان يكفل لنفسه جواً من اللعب والانطلاق مع بقية الأطفال وهكذا نلمس ان حالات البكاء بدون دموع ، او اطلاق الصيحات هي مسألة نادرة في الثانية او الثالثة من العمر اللهم الا في حالات الأطفال الذين يطلبون المزيد من رعاية الأم وانتباهها أثناء وجودهم معها في احد المجتمعات ويرونها مشغولة عنهم تماماً بالحديث مع غيرهم من البشر . وهناك طفل يكثر البكاء في أيام المطر الشديد . وطفل آخر يبكي لأن صديقاً من اصدقائه قد سافر بعيداً . وهناك طفل يلقي بسؤال يعلن به عن الفراغ « لا اجد ما أفعله » .

إنني أؤمن ان بكاء الأطفال فعلاً او بكاءهم التمثيلي له احدى نتيجتين في سلوك الأمهات او النتيجتان معاً . هناك أم تعرف تماماً كيف تتحكم في مشاعرها وتظهر ابتسامة الود على ملامحها ويكون الصبر مسيطراً على مشاعرها مهما حاول الطفل ان يثير اعصابها . إنما هناك ام اخرى تفقد اعصابها عند اول صوت يصدره الطفل بالبكاء ولا تحاول ان تسيطر على نفسها او على الطفل . إنني اؤمن أنه من المهم أساساً ان تحاول الأم ان تسير على قاعدة في عدم انفلات الأعصاب مع الابن . فالموقف الهادىء المنضبط مع الابن هو الذي يجعله يكف عن استغلال البكاء كوسيلة لابتزاز الأم . ان ذاكرتي ما زالت تعي ذلك اليوم البعيد الذي فقدت فيه اعصابي عندما خرجت مع احدى الأسر لقضاء عطلة الاسبوع . كان هناك احد اطفال هذه الأسرة لا يكف عن البكاء التمثيلي بصوت مزعج جداً

لان الطفل الباكي تمثيلاً يبكي على وتيرة واحدة رتيبة . وكنت اعرف ان للأم شخصية قوية متزنة غير متساهلة مع ابنائها ولا تستطيع ان تقبل منهم اي تصرف خاطىء . وكان بقية أبناء هذه السيدة يحترمونها للغاية ويحملون في قلوبهم التقدير الكامل لكلماتها ، وينفذون كل ما تقول بطاعة واقتناع ولا يتصرف أحد ابنائها أي تصرف يسيء الى الآخرين . واتضح لي ان هناك بعض الاضطراب في علاقتها بهذا الابن . انها تكبت تماماً احساسها بالضيق من تصرفات هذا الابن وكانت ترضخ كلياً لكل مطالبه . وكانت كل تصرفاته تظهر درجة كبيرة من الأنانية ويظهر واضحاً في كلماته انه يفتعل أي شيء او اي حادث مع اخوته ليشكو الى أمه او ليطلب منها طلباً . باختصار كان كل ما يهم هذا الطفل هو ان يزعج أمه بأية طريقة وكان من الواضح انه يستغل البكاء لابتزازها تماماً ، رغم أنه لا يفعل ذلك مع ابيه .

اني اريد ان استخلص من تلك الأمثلة حقيقة واضحة هي ان الأم تستطيع ان تضع حداً لبكاء الطفل او لادعائه التمثيلي بالبكاء فوراً ، هذا اذا استطاعت الأم ان تتناسى تماماً الاحساس بالذنب تجاه الطفل ، لأن الاحساس بالذنب يحد من قدرة الأم على التصرف مع الابن ويمنعها من رؤية الموقف بوضوح . قد يعتقد البعض انني ابسط هذا الأمر كثيراً . وقد تقول بعض الأمهات انه ليس من السهل عليهن ان يفعلن ذلك وقد يتهمني البعض بالمبالغة . نعم انني ارى في قولي هذا بعض المبالغة لكن الحقيقة ايضاً انني مقتنع تمام الاقتناع بهذا الرأي . لأن الآباء والأمهات في معظم الاحيان يتركون الطفل يبكي ويشكو ويسبب المتاعب والضيق لمجرد ان الأب او الأم يرفض طلباً لهذا الابن وهو طلب يمكن ان يحقق له شيئاً من السعادة ونفكر نحن بعد الرفض في أننا اخطأنا لأننا رفضنا للطفل طلباً . هنا يلتقط الطفل هذا الشك الذي في اعماقنا ويحاول ان يبتز موافقتنا مرة اخرى . وأحياناً اخرى نظهر نحن الضيق من الابن لمجرد ان اعصابنا متوترة بسبب حادث خارج المنزل او في العمل . نتنبه نحن لذلك . فنترك الابن بعد ذلك « ينتقم » منا بأن نعطيه الفرصة ليبكي بصوت مزعج او ليتصرف بطريقة غير مهذبة او يرفض الأوامر . لكن عندما نملك زمام انفسنا

ونتصرف باتزان وثقة ونعطي الأبناء حقهم الكامل في الحب متيقنين من اننا نتبع معهم اسلوباً عادلاً في التعامل والتفاهم ، هنا يمكننا ان نسيطر على الأطفال دون أية متاعب لأننا سنتعامل معهم بالود الحازم وهذا « الود الحازم » يخلق في اعماق الأبناء احساساً بالاطمئنان ويولد في نفوسهم الاحساس بضرورة طاعتنا،وعندما يرتكب أحدهم أي نوع من التصرف الخاطيء فإنه يسمع توجيهاتنا دون ضيق لأنه يعلم باليقين أننا نكن له الحب ولا يحمل صوتنا أي احساس بأننا نرغب في تسبيب الضيق له ولا يحمل صوتنا ايضاً أي احساس بالذنب . وعندما يبدأ احدهم في ادعاء البكاء بهدف ان نرضخ لمطالبه التي لا نقتنع بها ونقول له في لهجة واضحة « اننا نرفض هذا البكاء » فإن الطفل يفهم تماماً من نبرة صوتنا الواثقة أنه من الأجدى له ان يمتنع عن البكاء لأنه جهد ضائع .

لكن عندماتترسّخ لدى الطفل عادة البكاء يوماً بعد يوم واسبوعاً بعد اسبوع وشهراً بعد شهر وتتأكد الأم من انها تريد ان تضع حداً لهذه المسألة المزعجة فإن على الأم ان تعرف ان ليس هناك احساس بالاثم والضيق يحول بينها وبين السيطرة على سلوك الطفل باسلوب معقول . اقول ذلك لأن احاسيس الاثم والضيق تمنع الأم والابن من السعادة بعلاقتهما الحميمة التي يجب ان يستمتعا بها وهو كما أرى ويرى معي الجميع امر مؤسف تماماً . انني أعرف انه من الصعب على الأم ان تصل الى اكتشاف هذه الأحاسيس بالذنب . ولا تعرف السر فيها ولا تعرف كيف « فسدت » علاقتها بابنها وتحاول ان تعرف السبب بلا جدوى . وانا اقول ان هذا « الفساد » المؤقت او الدائم في علاقة الأم بابنها وعدم قدرتها على السيطرة عليه ووقف بكائه المزعج قد يكمن سببه في مرحلة الرضاعة او يكمن في تاريخ الأم نفسها لاحساسها القديم بالتوتر بينها وبين احد افراد اسرتها . وطبعاً هنا يمكن للأم ان تستعين بأحد الاخصائيين النفسانيين لوضع حد لفساد العلاقة بينها وبين ابنها . وأريد في النهاية ان اقول انني قد عمدت في هذا الموضوع الى التبسيط الشديد لأشرح كيف يمكن التأكد من ان بكاء الطفل هو لابتزاز الأهل وكيف يمكن معالجة الأمر . لان هناك بعض اسباب للبكاء قد تكون امراضاً نفسية أو امراضاً عضوية ولهذا فأنا انصح كل أم يكثر ابنها من البكاء دون سبب ان تعرضه على أحد الأطباء ليبحثا مشاكله الصحية والنفسية معاً . .

عندما يتعمد الطفل الكسل

الطفل الكسول قد يزداد عناده وتماديه في الكسل . .
كلما شعر ان هناك من يضغط عليه للتخلي عن الكسل !

الكسل مشكلة تشكو منها كثير من الأمهات . تلاحظ الواحدة منهن ان ابنها او ابنتها يميل الى عدم القيام بعمل ما أو يبطىء في القيام بهذا العمل او يحاول ان يجد فرصة للهرب من القيام بمثل هذا العمل . فالأمهات يحسبن ان ظاهرة التكاسل ، ظاهرة فريدة يعاني منها طفلهن وحده . ولكن الحقيقة أن الاعراض التي تراها الأم في ابنها الكسول او ابنتها الكسولة هي الاعراض نفسها التي تقولها أم أخرى عن ابنها او ابنتها ، هذه هي الحقيقة في معظم الأحوال . ومن خلال تجربتي فقد لاحظت ان عدد الفتيات الكسولات يزيد عن عدد الفتيان الكسالى .
وأنا اعرف ان الآباء والأمهات يمتلئون بالغيظ والضيق من ظاهرة تكاسل أحد الأبناء والأمهات اكثر ضيقاً وغيظاً . ان الطفل قد يميل الى التكاسل خصوصاً في الفترة التي تسبق التحاقه بالمدرسة ، وقد تزيد درجة تكاسله غالباً في سنوات الدراسة الأولى . ولأضرب الآن مثلاً يوضح هذه المشكلة . تحكي احدى الأمهات عن طفلها الذي في التاسعة انه يسبب « المتاعب » منذ الصباح . والصباح بالنسبة للأسرة هو وقت هام . كل دقيقة فيه هامة . كل فرد يرغب في ان يسرع الى عمله . لكن هذا الطفل يتعمد التكاسل ويتمادى فيه . تدخل الأم حجرته أكثر من مرة تطلب اليه ان يصحو ويغادر السرير . تظل الأم قلقة وهي تعد افطار الأسرة . انها تخشى ان يتكاسل هذا الابن عن ارتداء ملابسه . تدخل عليه الحجرة كل دقيقتين حتى تتأكد من انه ارتدى ملابسه . يعلو صوت الأم

بالغضب . تطالبه بأن يكون سريعاً ونشيطاً . يأتي ميعاد تناول الافطار . فلا يكون الابن قد انتهى من ارتداء ملابسه ، انه يتشاغل عن ارتداء ملابسه بقراءة مجلة فكاهية . يصل الى مائدة الطعام لتناول الافطار بعد ان تكون الأم قد فقدت اعصابها تماماً . انه لا يشعر انه كسول . ويغرق للحظات سارحاً . يتناول طعامه ببطء . تكاد الأم في اثناء كل ذلك ان تفقد كل اعصابها ، انها تخاف ان تفوته عربة المدرسة . تذكره بذلك يبدو عليه عدم الاكتراث التام . ان اخوته معه في المدرسة نفسها ، ولا بد ان يخرج معهم . يبدأون في الغضب منه والصراخ عليه ليستعجلوه حتى لا يتأخروا عن المدرسة . لا يبدي الطفل أي نوع من الاهتمام . قد يخرج بقية الأخوة الى الشارع ، قد تصل عربة المدرسة فعلاً ، هنا يمكن ان يفتعل الطفل بعض السرعة ليلحق بأخوته او بعربة المدرسة . وعندما يعود من المدرسة يبدأ في « تعذيب » الجميع عند تناول الطعام . انه يتأخر ايضاً عن الجلوس الى المائدة . ويتعمد الطفل الكسل في كل ما يفعل حتى عندما تستعد الأسرة للخروج للتنزه او لقضاء يوم الاجازة . على الطفل في المنزل عمل شيء ما عليه ان يستذكر دروسه عليه ان يساعد الأسرة في أي عمل ، لكنه دائماً يتكاسل . وعندما تستعد الأسرة للخروج فهو ايضاً يتكاسل . وعندما يذهب الى النوم ليلاً فهو يتكاسل عن غسل وجهه ويديه وأقدامه . وعندما يدخل الى المرحاض فهو يتباطأ لدرجة ان اكثر من صوت في الأسرة يعلو حتى يخرج . انه يسبب دائماً الضيق منه بسبب هذا التباطؤ في كل شيء . انه ايضاً يتخذ من القراءة ستاراً يخفي به كسله . انه دائماً في صحبة كتاب ما يواجه به هذه المطالب بالاسراع . انه يهرب الى الكتاب كمخبأ من المطاردة بالاسراع .

لكن ما هي الاسباب التي تدفع الطفل الى التكاسل والتباطؤ؟ قد نقول ان طبيعة الطفل هي الاساس في هذه المشكلة ، لكن هذا غير ثابت علمياً .

ومشكلة التباطؤ تظهر في بعض الأحيان اثناء محاولة الأسرة لتدريب الطفل على ضبط التبرز والتبول واستخدام المرحاض ان الكثير من الأطفال ينتبهون الى أن عملية تبرزهم في الاناء الخاص به او في المرحاض هو امر شخصي . انه « ملكيتهم » . ان الطفل يتعرف على برازه كما يتعرف على جسده . انه يشعر

بنوع من الاحساس بالملكية لهذا « البراز » لذلك لا يرغب في اخراجه بعيداً عن جسده . انه يحاول ان يحتفظ به داخل امعائه ، خصوصاً في الوقت الذي تجبره أمه على الجلوس على اناء التبرز او على المرحاض . وان كانت الأم من النوع القلق الذي يحاول ان يتابع دائماً مسألة تبرز الطفل فإن الطفل قد يقاوم هذه الضغوط بأن يقاوم عملية التبرز لمدة ايام . بل انه يتعود على ذلك . ويظل يعاند الأمر ويظل يتباطأ ويؤجل عملية التبرز . وتأخذ المسألة شكل عناد دائم . وقد يصبح التباطؤ والتكاسل اسلوباً متعباً في كل سلوكه .

ويظهر احياناً أخرى الميل الى التكاسل والتباطؤ عند طفل آخر بدون ان يظهر هذا العناد الصريح بينه وبين والدته بخصوص مسألة التعود على الانتظام في عملية التبرز . إنني في بعض الأحيان اعتقد ان ميل الطفل الى الكسل او التباطؤ هو انه ابن لسيدة ممتلئة بالنشاط بينما شخصية الطفل نفسها وبطبيعتها هادئة متأملة . ان ذلك لا يكون سبباً في أي الوان من المشاكل خلال عام الطفل الأول ، لكن بعد ان يتم الطفل عامه الأول او الثاني فإن المشاكل بسبب التكاسل تبدأ في الظهور . ان الأم والأب ينتظران من الابن ان يحضر الى مائدة الطعام في ميعاد الطعام . وان يقوم هو نفسه بتناول الطعام دون مساعدة أحد وان يسير على خطوات الأم وسرعتها نفسها وهو يسير معها الى أي مكان . ان هذا العمر ـ عمر العام او العامين ـ تكون فيه قدرة الطفل وسرعته بطيئة لأن قدرته على التركيز ايضاً بطيئة . يتشتت ذهنه في مجالات مختلفة . وهكذا تفقد الأم القدرة على الصبر فتبدأ في اصدار الأوامر بلهجة عصبية ويبدأ الطفل في العناد . كما اننا يجب ان ننتبه جيداً الى ان الطفل في عامه الأول والثاني يبدأ في الرغبة في الاعتماد على نفسه والاستقلال عن والدته . انه يشعر انه قد اصبح من المحتم عليه ان يعلن للجميع ان له « شخصية » وان له « كرامة » وان له حقوقاً كانسان صديق . ان كلمة « لا » هي أسهل الكلمات التي ينطقها الطفل اثناء أي امر يحمل صفة السيطرة المطلقة عليه . ان كلمة « لا » هي اسهل الكلمات التي ينطقها في أي مناقشة . انه يرفض ان يسيطر عليه احد بشكل مهين للكرامة . كما انه يحاول ان يصنع كل شيء . انه يحاول مثلاً ان ينتعل حذاءه بمفرده رغم انه يفتقد القدرة عملياً على ذلك . وفي بعض الأحيان لا تسعف الطفل القدرة على اللحاق بأمه

وهي تسير مسرعة فيتخلف عنها . عندئذ تحاول الأم ان تنادي الابن ، فيقف في مكانه « ويمثل » انه لا يسمعها . وعندما تعود لتمسك بيديه فقد يحاول ان يبدي استقلاله عنها بأن يجري الى الخلف . هنا تقع الأم فريسة نفاد الصبر والضيق من تباطؤ الطفل وعناده . ان على الأم ان تأخذ المسائل بهدوء أعصاب وبسهولة ولا داعي ان تظن ان الابن هو آلة ستطيعها طوال النهار والليل . ذلك يجعل الحياة اسهل ويخلص شخصية ابنها من الوقوع في العناد. ان عليها ان تؤكد للابن الاحساس بأنه كائن مستقل وانها تحترم ذلك . وهذا مما يجعل الفرص التي يظهر فيها الطفل العناد أو التباطؤ قليلة للغاية . فالأم التي تستعمل ذكاءها تستطيع اقناع الطفل بتنفيذ ما تريد . لكن اذا استسلمت الأم الى الغضب ونفاد الصبر وعدم القدرة على السيطرة على غضبها ، فإن هذا الغضب اذا ما واجهت به الطفل ، لن يقابله الطفل إلا بالعناد . ان الأم التي تتميز بعدم الصبر وبالرغبة الكاملة في السيطرة على الابن وتحاول ايضاً ان تضبط رغبات العدوان التي في اعماقها ، هذا النوع من الأمهات هو اكثر الأنواع تعرضاً للضغط على اطفالهن . ولا تدري الواحدة منهن أنها بهذا الالحاح في الاسراع انما تنمي في نفس الابن الاحساس بالتباطؤ والتكاسل . وربما تكون الأم من النوع الذي يشعر في اعماقه بضرورة توجيه النقد لكل سلوك الرجال وتختزن في اعماقها رغبة في التنافس مع الرجال ، يحدث ذلك نتيجة مشكلات قديمة بينها وبين الأب او احد اخوتها الذكور اثناء طفولتها ، وهذا النوع من الأمهات يكون سريع التوتر . وتكون ايضاً معرضة لنفاد الصبر مع ابنها .

على أية حال ، فإن الظروف تختلف من حالة الى اخرى . ولكن النتيجة دائماً هي أن الأم النافدة الصبر تحاول دائماً الالحاح بالأوامر على الابن وان تضغط عليه ويتمادى هو في التكاسل والتباطؤ لأن هذا هو الأسلوب الذكي ليرد الهجوم عن نفسه . انه يعلن مقاومته للسلطة . ويكون ايضاً تباطؤه هو الوسيلة العملية التي تسبب ضيق الأم ، وهو بهذا لا يدخل في تحد مباشر مع الأم . وهذا هو ما يتبعه الطفل الذي تكون سلطة الوالدين عليه غير حازمة وغير ثابتة ، بل تكون مجرد خوف من ان يشعر الطفل ان احد الوالدين يكرهه الطفل ايضاً ويخاف من ان يفقد حب احد الوالدين وخصوصاً حب الأم . لذلك فإن هناك اتفاقاً غير

مرئي على ألا يدخل الطفل وأمه في معارك واضحة وصريحة بل مجرد معارك ضيقة الحدود لا تكون نتيجتها القضاء على أحد من الطرفين ولكنها نوع من المعارك يستمر طوال الحياة .

وأنا أقول ان حماية الطفل وحماية الأم من الوقوع في براثن هذا اللون من الصراع هي ضرورة هامة قبل ان تتأزم العلاقة بين الاثنين وتصبح عرضة لمزيد من التعقد وقبل ان تحتاج الى علاج . ان الطفل الذي يصل عمره الى ١٨ شهراً والذي يتباطأ في استعمال المرحاض ويرفض أن يقوم بعملية اخراج البراز في الوقت الذي تجلسه فيه والدته على المرحاض ، هذا الطفل قد تظن أمه انها أمام طريقين لا بد أن تختار واحداً منهما . الأول هو ان تمتنع الى الأبد عن تدريب الطفل على استخدام المرحاض . وهذا ما لا يمكن ان توافق عليه الأم ، والطريق الثاني هو ان تصر الأم على ان يجلس الابن اطول وقت ممكن على المرحاض وتظل تطالبه بالأوامر على ان يقضي حاجة . ان الطريق الثاني ، في أغلب الأحيان ، هو الذي تتبعه الأم ، لكن هذا الطريق يتضمن مسألة يجب ان تنتبه لها الأم . فالطفل مهما كان ضعيف الارادة قادر على أن يقاوم وان يحرز الانتصار على الأم في هذا المجال . هل معنى ذلك انه ليس هناك حل ؟ . طبعاً لا ، هناك حل . انه يتلخص في ان تتحدث الأم مع طفلها بصوت متفائل واثق وتقول له « لا بد انك ترغب في ان تكون كبيراً وانك ستعلم (ماما) في المرة القادمة عندما تريد ان تدخل المرحاض » . ان لهجة الأم هنا لا تتضمن أي تهديد انما هي مجرد فكرة تعرضها على الطفل في أنه سيحب في أحد الأيام ان يتصرف كالكبار ـ ولا يجب ان نتوقع استجابة فورية من الطفل لهذا الرجاء لأن المسألة تحتاج دائماً الى تدرج وستأتي الاستجابة اذا كان الرجاء غير مصحوب بالالحاح والغضب والتوتر . ان هذه الطريقة يمكن ان تكون ذات فاعلية الى حد كبير . ولكنها ايضاً صعبة التطبيق خصوصاً عند الأم التي تعتبر ان مسألة تبرز الطفل في ملابسه وعناده هي اسوأ الوان السلوك .

وفي حالة الطفل الذي في الثانية من عمره والذي يتعمد التباطؤ أثناء سيره مع امه في الطريق . . هذا الطفل له اكثر من اسلوب لعلاج هذه المشكلة . اننا لا

يجب ان نتعجل منه في جعل خطواته كخطوات الأم . ان علينا ان نعرف ان الطفل سيحاول ان يلحق بأمه لو سارت في الطريق ببطء دون ان تظل تهدده وتتوعده بالويل والثبور وعظائم امور العقاب . ان الطفل لا يجب ان يفترق عن امه . صحيح ان الأم ستفقد الكثير من الصبر ولكن لا يجب ان يسبب لها ذلك احساساً بالاحباط . ولهذا ايضاً فأنا أفضل ان تصحبه الأم أو ان تتركه عند احدى الصديقات بدلاً من ان تخرج معه الى السوق . ولكن ماذا نفعل في حالة الطفل الذي قد بلغ عامه السابع او الثامن واصبح محترفاً لفن التباطؤ والتكاسل . اننا نلاحظ ان الطفل في المرحلة بين العام السادس والعام الثاني عشر يحاول ان يؤكد فيها استقلاله عن الأسرة بكل الوسائل والأساليب . انه يرغب في ان يدير كل شؤونه بنفسه . ولهذا فهو يستخدم اسلوب التباطؤ كسلاح يدافع به عن نفسه ضد اي اعتداء من سلطة الأسرة . كما ان هذا السلاح يؤكد فاعليته لأنه يسبب الضيق للأسرة طوال ايام الدراسة خصوصاً عند الرغبة في ان ينهض الطفل من سريره في الصباح . وعلاج هذه المسألة يعتمد على خطة من نقطتين . النقطة الأولى هو ان يمتنع الوالدان عن ابداء الرأي في كل صغيرة وكبيرة في حياة الطفل وذلك ليترسّخ في الطفل الاحساس بالمسؤولية والانتظام ويفخر في احترامه للمواعيد . ان ذلك دافع جيد يجعل الطفل يسرع دائماً . لكن بعض الآباء والأمهات من الذين تستعبدهم دوامة تهديد الطفل ومطالبته بالسرعة قد يؤكدون ان الطفل لا يهتم على الاطلاق بمسألة احترامه لمواعيد المدرسة . وانا اقول ان هذا غير صحيح في معظم الأحوال . ان نسبة كبيرة من الأطفال الذين تربوا في اسر تحترم الواجب يحترمون بالطبيعة مواعيد الدراسة ويخافون ان يستنكر احد اصدقائهم او زملائهم مسألة التأخير في الذهاب الى المدرسة . والذي يحدث عادة في حالة الطفل المتباطىء هو ان هناك معركة شبه حربية تحدث في المنزل كل صباح حول مسألة قيامه من النوم ويدخل فيها الطفل كطرف وتكون النتيجة النهائية هي ان الطفل لا يعثر على فرصة يفكر فيها في ضرورة احترامه لمواعيد المدرسة . لكن عندما تتفق الأسرة على ان ينسى الجميع ما فات وان تكون هناك بداية جديدة وان يحدث هذا الاتفاق في اجتماع تلتقي فيه الأسرة نحو هدف واحد هو المزيد من الترابط الواعي بين افرادها . ويمكن للأم ان تحدث ابنها قائلة « انني ارى انه من

عدم الحكمة ان أظل في حالة عناد وشجار معك كل يوم بسبب ميعاد قيامك من النوم وقت الذهاب الى المدرسة . لقد احسست ان هذا التصرف مني يجعلك تمتلىء بالضيق ولذلك تتعمد التباطؤ . وهذا يرهق اعصابي طبعاً ولهذا فقد اتخذت قراراً وهو ان يهم كل واحد منابعمله،بن أناديك في الصباح الا مرة واحدة واترك لك الباقي . . . » .

لكن هل يؤدي هذا الاجتماع وهذا الكلام الى علاج حاسم ونهائي لهذه المشكلة ؟!

طبعاً لا داعي لأن يتوقع أحد ان للكلمة اسلوباً ساحراً بهذه الطريقة . لا يمكن ان نظن ذلك وأن نكون خادعين لأنفسنا لأن الطفل لن يغير من سلوكه مرة واحدة، ذلك أن التباطؤ لا بد أنه قد تخلل فيه الى درجة كبيرة وهو من المؤكد يرغب في أن يمتحن مدى صدق الأب والأم ، ولهذا فهو لن يقوم من النوم بمنتهى السرعة ، كما تتوقع الأم أو يتوقع الأب ، في اليوم التالي للاتفاق . انه سيقضي اياماً يحاول فيها أن يعرف مدى « سيطرته » على نفسه وعلى عمله ، سيتكاسل في الأيام الأولى للاتفاق . ولا بد هنا ان تحتمي الأم بالصبر وان يلوذ الأب الى عالم الاعصاب الباردة . صحيح ان هذا سيكون مؤلماً للاثنين ، وصحيح ايضاً ان له فاعلية ما . ولا بد ان يكون التشجيع للابن مليئاً بالحزم والحنان . ومن ايام الاتفاق الأولى سيلهث الطفل في اللحظات الأخيرة ليضع نهاية لتكاسله . . وهذه بداية لا بأس بها على الاطلاق . واذا فاته ميعاد الدراسة فلا يجب ان تؤلمه باللوم الشديد ، بل يمكن ان نظهر بعض الفهم له ، ذلك ان الهدف هو وضع نهاية لعملية التكاسل والتباطؤ وليس الدخول مع الابن في مباراة عناد جديدة . وانا اعرف ان ما اقوله غاية في الصعوبة على الأمهات والآباء ، لأن بعض الآباء والأمهات يجدون لذة كاملة في اظهار مدى تحملهم لمسؤولياتهم امام الأبناء ، فتظل على افواههم كلمات تعيد تذكير الطفل بمسؤولياته . واذا طلب الطفل من الأم او الأب ان يذهب احدهما معه الى المدرسة فلا بد من ان ترحب الأم بذلك او الأب بعد ان نخبره بأننا لن نفعل ذلك كل يوم لأن هذا معناه انه لن يستطيع الاستقلال عنا وادارة شؤون حياته بنفسه . وطبعاً عندما يشعر الطفل بأن

الضغوط قد ذهبت والعناد قد انتهى واحترام شخصيته قد اصبح واضحاً للجميع فمن المؤكد أنه سيلقي بعادة التكاسل بعيداً عنه .

هذه هي النقطة الأولى . .

اما النقطة الثانية وطبعاً نستطيع ان ننفذها في الوقت نفسه الذي ننفذ فيه النقطة الأولى . او ان نستعملها اذا وجدنا الفشل هو النتيجة الوحيدة للنقطة الأولى . وتتطلب النقطة الثانية ان يقوم بها احد الوالدين الذي يتمتع بطاقة من الصبر كبيرة ، لأنه لا علاج على الاطلاق للطفل الذي يتباطأ ويتمتع بأبوين كلاهما غاية في نفاد الصبر ، لأن كليهما سيجد نفسه في موقف استفزازي طوال الوقت مع الابن . ان المطلوب من الأب الصبور او الأم الأكثر صبراً ان تدخل الى الغرفة التي ينام فيها الابن المتباطىء ليدور بينهما اي حوار في فترة الصباح اثناء الاستيقاظ وارتداء الملابس ولا مانع من ان نتنقل مع الابن من غرفة الى اخرى ومن مكان الى آخر . . وبشرط ان نتعمد تجاهل هذا التكاسل الذي قد نلمحه من تصرفات الابن ولا نترك اعصابنا تفلت منا لأن الابن لا يقوم بما يجب القيام به ، كأن يتلكأ في غسل وجهه او يتلكأ في ارتداء ملابسه ، المهم هنا ان يشعر الابن ان هناك من معه ومن يصادقه ، هنا ستنتهي بالتأكيد وفي معظم الأحيان مسألة تكاسل الابن . وقد يسأل احد الآباء او احدى الأمهات « الا نستطيع ان نضع جائزة للطفل عندما يسرع في اعماله ؟ » .

ان ذلك مفيد في بعض الأحيان ، لكنه ضار ايضاً في احيان اخرى . لأن معنى اعطاء جائزة للطفل كلما اسرع قد تجعل الطفل يدخل في منطقة « بيع السرعة » وعدم الاحساس بالمسؤولية الكاملة . وقد يدخل هذا ايضاً كوسيلة يؤكد بها الأب او الأم « ارهاب » الطفل بمعنى انه لن يمنح الجوائز اذا تأخر عن تنفيذ ما يطلبون . ورغم ذلك ،فإن بعض الآباء والأمهات ينجحون في استخدام هذه الطريقةمع الأبناء خصوصاً في حالة الآباء والأمهات الذين يسهل ان يفقدوا الصبر بسرعة . وطبعاً يجب استخدام هذه الطريقة مع غيرها من بقية الطرق وهنا اريد ان انبه الآباء والأمهات الذين يفقدون اعصابهم بسرعة ويمتلئون بالغضب من الأبناء عندما يتباطؤون في تناول الطعام ، هنا يمكن ان اقول ان

« تدمير اعصاب » الوالد او الوالدة لا يمكن ان يكون مسألة سهلة وبسيطة .
لذلك فأنا انصح ان يقدم للابن المتباطىء طعامه بمفرده . .

واخيراً عندما نلاحظ ان كل الجهود التي نبذلها في علاج تباطؤ احد الأبناء وتكاسله لا تجدي نفعاً أمكن ان نطلب استشارة احد الاخصائيين ، لأن هذا يفيد الطفل والأسرة معاً .

عندما لا يتغذى الطفل كما ينبغي

ان مسألة الغذاء مسألة لا يمكن ان نعرف لها قاعدة ما عند بعض الآباء والأمهات . فهم ينظرون الى الطفل في بعض الأحيان على انه لا يأكل جيداً ، رغم انه يأكل جيداً . وقد ينظرون الى الطفل على انه يأكل جيداً رغم انه بالفعل سيء التغذية !

فم الطفل هو المكان الذي ننظر اليه نحن الآباء والأمهات اكثر من مرة خلال النهار . ان عيوننا احياناً تتساءل هل يأكل الطفل جيداً ام لا . وهناك ام كتبت لي تقول « مضى عامان على دوري كأم وانا اعتقد مثل جميع الأمهات ان المشكلة المؤلمة لنا والتي تثير ضيقنا لأنه لا نهاية لها . . هي مشكلة « ماذا يأكل الطفل ؟ » . ان عمر الطفل الآن يقترب من العامين . مر العام الأول وكنت سعيدة بأسلوب هذا الطفل في تناول الطعام . انه يريد ان يأكل أي شيء ويريد ان يملأ فمه بالطعام . لكن بعد عيد ميلاده الأول حدث تغير مفاجىء ، انه الآن لا يقبل على الطعام بالقابلية نفسها التي كان يتمتع بها من قبل . إنه يأكل اقل القليل من الخبز واللحم والفاكهة . وقد قالت لي اكثر من ام ان الطفل في اغلب الأحوال له خطة ثابتة في تناول الطعام . ان الطفل قد يرفض تناول أي صنف من الطعام ما عدا صنفاً واحداً لمدة اسابيع . وظهر لي ان طفلي تمادى في هذه المسألة . انه منذ ثمانية شهور لا يأكل إلا القليل من الخبز وقطعة صغيرة جداً من اللحم والفاكهة . ولهذا فأنا أعظه يومياً لكني اخشى بيني وبين نفسي ان يصيبه اي مرض لأن كمية غذائه التي يتناولها يومياً لا تكفيه من وجهة نظري . إنني اريد ان اسألك . . ماذا افعل بهذه المسألة . هل هناك بعض التعليمات التي يمكن ان نقولها لأجعل ابني يتناول طعاماً كثيراً او على الأقل كمية مناسبة من الطعام تكفل له الصحة الدائمة ؟ هل يجب على الأم ان تحاول قدر جهدها ان تجعل وقت تناول الطعام وقتاً سعيداً للطفل ولا تقدم له إلا ما يحبه من الطعام ؟ هل يجب على الأم ان تجعل الابن يرضخ لرأيها تماماً في مسألة التغذية وتقدم له ما يجب ان يأكله وان تعامله بقسوة او بتوسل حتى يأكل ما هو متيسّر في المنزل ؟ » .

من الواضح تماماً ان هذه الأم في حيرة ، بل انها تحاول ان « تعرض » برأيي الذي اقول فيه « ان الأم عليها ان تجعل من وقت تناول الطفل لطعامه وقتاً سعيداً وعليها ان تقدم له ما يحبه من اصناف الطعام » ، انني اتفق مع وجهة نظر هذه الأم في ان كل ام قد تقع في الحيرة والضيق والارتباك عندما تكون كمية الطعام التي يتناولها الطفل غير كافية له في رأيها او عندما تكون حالتها النفسية غير مؤهلة لأن تجعل وقت تناول الطفل لطعامه وقتاً مليئاً بالسعادة. فنحن نعرف ان هناك القلق والغضب ومتاعب الحياة اليومية . وهناك ايضاً الضيق عندما تحاول الأم ان تشتري طعاماً جيداً وتقدمه للطفل فيرفضه . وتزداد الأم ضيقاً عندما تعرف جيداً ان صحة الطفل جيدة وانه لعب جيداً وانه بذل مجهوداً كبيراً في العفرتة، وليس عنده اي حساسية مرضية بالنسبة لأي نوع من الطعام ومع ذلك فهو يرفض ان يتناول الكمية المناسبة له . وقد يزداد قلق الأم على صحة طفلها عندما يقول والده او احد الأقارب او الأصدقاء بأن صحة الطفل ليست على ما يرام وان لونه « مخطوف » وانه نحيف اكثر من اللازم . ان مثل هذه الكلمات تثير الم الأم وضيقها في وقت واحد ، لأنها ترى فيها بعض الاهانة لها . ذلك لأنها تحاول تغذية الطفل لكنه يرفض تماماً . لدرجة ان الأم في بعض الأحيان قد تفكر في ان تضرب الابن حتى يأكل ولكنها تعرف ايضاً من خلال التجربة ان اسلوب « الضرب » غير مفيد في مثل هذه الحالة لأن الطفل يزداد عناداً . وتحاول الأم ان تجد مخرجاً من هذا الطريق المسدود . وتحاول ان تقدم كل ما تستطيع من حب وحنان حتى يقبل الطفل على الطعام ولكن المسألة تزداد تعقيداً . ان الاحساس بالاثم يظهر في سلوك الأم بسبب ضيقها وثورتها على الابن لأنه لا يأكل . ولقد قلت في كثير من الاحيان ان اصعب فترة في مسألة التغذية هي العام الثاني للطفل . ذلك ان وزن الطفل يبدأ في عدم الزيادة بالمعدل نفسه الذي كان يزيد من قبل . اننا يجب ان نعرف ان الطفل في حالته الطبيعية يزيد وزنه بمعدل خمسمائة غرام شهرياً حتى يتم العام . وبعد ذلك تنخفض نسبة زيادته الشهرية لتصبح ٢٥٠ غراماً كل شهر خلال العام الثاني . وبهذا يمكننا ان نعرف ان جسد الطفل خلال العام الأول يضع امامه هدفاً رئيسياً هو ان يزيد في الحجم والقوة ، معتمداً في ذلك على التغذية الجيدة والنوم . ثم تقل بعد ذلك مسألة النمو

الجسدي بعد ان يتم الطفل العام الأول . انه ينتبه الى اشياء جديدة مثل محاولة معرفة العالم الذي حوله والرغبة في ان يتعلم بعض الحروف والحركات والرغبة في تأكيد الذات . وهكذا سيبدأ الطفل في عدم الاقبال بالشهية المفتوحة ذاتها على الطعام مثلما كان في العام الأول . ويظن البعض ان ظهور الاسنان له دور في مسألة عدم اقبال الطفل على الطعام . انني ارى ان عملية ظهور الاسنان التي تستغرق الشهور الأولى من عام الطفل الثاني لها علاقة ما بعدم اقبال الطفل على الأكل .

واعود الآن الى رسالة الأم التي تحكي فيها عن عدم اقبال ابنها على الطعام . ان سطور الرسالة توحي بأن حالة الطفل هي مجرد عدم اقبال على الطعام بحكم العمر وبحكم العناد الذي ينضج جيداً في هذه الفترة من العمر . العام الثاني . كما ان هذا الطفل فيما يبدو قد اصبح يكره معظم اصناف الطعام ، ان اي رفض من الطفل لنوع معين من الطعام قد يسبب الضيق عند الأم وقد يكون هذا الضيق شديداً فيزداد عناد الطفل . وفي بعض الأحيان نجد ان الطفل يشبه امه اثناء طفولتها فقد تكون هي ايضاً ذات مشاكل بخصوص الطعام اثناء طفولتها . ان الأم احياناً يمكنها ان تستذكر رفضها لألوان من الطعام وسخط امها عليها . ان الآباء والأمهات الذين كانت لهم مشاكل مع اسرهم بخصوص الطعام او استعمال المرحاض او الانطواء لا ينجحون عادة في حل مثل هذه المشاكل مع ابنائهم . انهم يعالجون هذه المشاكل بالخوف والقلق والاحساس بالذنب والغضب . وهم ينسون تماماً ان حل هذه المشاكل يمكن ان يتم بهدوء ودون توتر اعصاب . هذا هو ما يحدث في معظم الحالات التي من هذا النوع كنتيجة للبصمات القديمة التي تركتها هذه المشاكل في حياتنا . ان هذا الضيق الغاضب في الأبناء عندما يعانون من المشاكل نفسها التي عانى منها الآباء ، هذا الضيق يكون جارفاً لا يترك اي فرصة للتفكير العاقل الهادىء . إنني انا شخصياً اعرف ان هذا خطأ ورغم ذلك فقد كان ضيقي من ابني عندما يبكي كثيراً يأخذ شكل الثورة عليه وهو يتذكر حتى الآن ، رغم مرور اكثر من عشرين سنة .

واظن انه قد اتضح تماماً للامهات ان الطفل بعد اثني عشر شهراً يستطيع

ان يلتقط باحساسه اي ضيق او سرور في احساس امه . وهذه القدرة على التقاط مشاعر امه قد تجعله يرفض الطعام لأنه مر المذاق في فمه عندما تكون هناك مشاكل بينه وبينها . وحتى يمكن ان تصبح الصورة واضحة تماما في ذهن الأمهات علينا ان نتخيل ان هناك شخصاً ما نتضايق منه ولا نرتاح عندما نراه لأنه دائماً متوتر ولنا ان نتخيل ان هذا الشخص قد كبر فجأة واصبح عملاقاً في طول خمسة افراد منا ، وهذا الشخص يحاول ان يجلس بجانبنا يجبرنا على تناول اصناف لا نحبها من الطعام وعندما نرفض يزداد غضباً . من المؤكد اننا سنفقد تماماً أي شهية لتناول اي طعام .

وعلى كل ام ان تعرف ان قابلية الطفل لأنواع الطعام يعتريها الكثير من التقلب ، سواء بالنسبة للخضراوات او الألبان او اللحوم او البقول . . لكن غالبية الأطفال تحب اللحم والفاكهة . وعلى الأم ان « تفرم » اللحم وتقدمه للطفل الذي لا يقبل على الطعام ، لذلك ان بعض الأطفال قد يشعر بضيق من قطعة اللحم الكبيرة لأنها ليست سهلة المضغ والبلع .

وهنا يمكن ان نسأل انفسنا السؤال التالي :

عندما تعرف الأم ان طفلها في عامه الثاني سيكون اقباله قليلاً على الطعام ، هل ستعتبر ذلك امراً طبيعياً ؟ اغلب الظن لا . ان اي ام يصيبها القلق دائماً بشأن مسألة تغذية الابن . ومن السهل طبعاً ان اقول هنا بوضوح ان محاولة اكراه الطفل على تناول اي صنف من الطعام لا يحبه هذه المحاولة مصيرها الفشل تماماً وكل ام تعرف ذلك جيداً . صحيح اننا نغضب من ابنائنا عندما يتصرفون بهذه الطريقة لكن يجب ان نمنع انفسنا من التمادي في الغيظ والضيق . ان افضل طريق لحل هذه المشكلة هو ان تتأكد الأم ان العناصر المفيدة للجسم موجودة في اي طعام يحبه الطفل . الفاكهة مناسبة للطفل . الخبز مناسب ايضاً . اللبن غذاء جيد . كل ذلك او اي صنف منه بجانب الفيتامينات سيكون غذاء جيداً .
صحيح ان الاعتماد على صنف واحد من الطعام لن يكفل لجسد الطفل كل العناصر اللازمة لنموه ولكن هذا الطعام الذي يتناوله الطفل مفيد على اية حال .
وعندما تعرض الأم مشكلة طفلها الذي لا يقبل على الطعام على طبيب فإنه

سيسأل عن قائمة الطعام التي يفضلها الطفل وسيحاول ان يكتب بعض الأدوية التي تعالج نقص اي مادة من المواد الأساسية الهامة . وعلى كل ام ان تعرف جيداً ان الطفل الذي لا يتمتع بقابلية جيدة للطعام ولا يتناول كميات منه ليس هو هو الطفل الذي يسهل اصابته بالامراض المختلفة . اقول ذلك رغم ان كل الأمهات لا يمكن ان يعتبرن ان هذا القول حقيقي مائة في المائة . ان كل ام تريد من ابنها ان يأكل جيداً ، وطبعاً المسألة نسبية ولهذا فقد نجد احدى الأمهات تصاب بالقلق لأن ابنها من وجهة نظرها لا يأكل جيداً رغم ان هذا غير صحيح في الحقيقة ، وعلى الأم ان تعرف ان مسألة البطء في زيادة وزن الابن هي مسألة طبيعية في عامه الثاني . وعليها ان تعرف ايضاً ان الطفل لا يزيد سوى كيلوغرامين في السنة . هذا في عمر ما قبل دخول المدرسة . وطبعاً نستطيع ان نعرف ان هذه هي زيادة ضئيلة عندما توزع على ايام العام وهي من وجهة نظر الأمهات قد تثير القلق . وكثيراً ما التقيت بأكثر من ام لا ترضى عن اسلوب تناول طفلها للطعام وعندما تزنه تقول « يا للأسف انه لم يزد شيئاً خلال ستة شهور» . وعادة تكون هذه الأم متجاهلة اي زيادة فعلية حدثت في اعماق الابن وعادة يكون هذا التجاهل هو نتيجة لقلق الأم الشديد على صحة ابنها ورفضها لأسلوبه في تناول الطعام . والعلاج الذي اراه لحل اي مشكلة خطيرة في مسألة التغذية هو ألا تضع الأم امام طفلها اي طعام لمدة اربعة شهور الا الوان الطعام التي يحبها بشرط ان تكون مفيدة وشاملة لكل الوان العناصر المفيدة . والبداية هي ان تضع اصناف الطعام التي يحبها . مثلاً لا يجب ان تكتفي الأم بأن تقول لنفسها ان ابنها يكره كل انواع اللحوم ، لأنه لا شك يحب نوعاً ما منها ، قد يحب اللحم المفروم او اللحم المسلوق او اللحم المشوي . إننا عندما نكتب ما يحبه الطفل من الوان الطعام نجد منها الواناً كثيرة ، واصنافاً متعددة ، مما يساعدنا على ان نقدم للطفل ما يحبه خلال فترة اربعة شهور بمساعدة الفيتامينات . وليس معنى ذلك ان تجبر الأم طفلها على تناول الوان الطعام كلها . انني اعرف ان الأطفال بطبيعتهم عندما تزداد قابليتهم لتناول الطعام ستكون المسألة بعد ذلك سهلة وسيقبل على كل الوان الطعام .

انني اعرف ان هذه مهمة صعبة لكن الأم التي تستطيع ان تتحكم في

اعصابها تستطيع ان تقبل مساعدة الطبيب وتحاول تطبيق ارشاداته ، قد تقول ان تطبيق هذه المسألة في تعويض الابن عن الطعام هو امر غاية في الصعوبة . لكن هنا احب ان اذكر الأمهات ان هذه الوسيلة نجحت في علاج اخطر مشكلة تغذية قابلتني وهي مشكلة لطفلة في منتصف عامها الثالث لا يمكنها ان تتحمل رائحة اي طعام او حتى رؤيته وكانت تصاب بنوبة خوف حادة عندما تأتي مواعيد الطعام . وكانت الأم تضطر ان تقدم لها اللبن اثناء النوم في زجاجات الرضاعة وكانت تقبل عليه . وعندما استشارتني هذه الأم بدأنا معاً نضع نظاماً لتغذية الطفلة . بدأت الأم تضع زجاجات الرضاعة التي تقدمها لها اثناء النوم : اللبن مخفوقاً بالبيض وبالحبوب المطحونة والفيتامينات . وبعد شهرين اصبحت الفتاة تلح في طلب الطعام من امها واصبحت صحتها غاية في القوة واصبحت تتناول كل اصناف الطعام .

عندما يبول الطفل في فراشه

ليست المشكلة في تبول الطفل في فراشه انما المهم فعلا هو الاجابة عن سؤال :

هل هناك متاعب نفسية وراء ذلك ؟

تكاد الأم احياناً ان تفقد صوابها عندما تستيقظ في الصباح لتجد ابنها قد بلل فراشه ببوله أثناء نومه . ذلك ان معظم الأمهات يعرفن الحقيقة التي تعلمنها من الخبرة او مما يقوله الأهل من ان الطفل يمتنع عن تبليل الفراش ليلا نتيجة التبول خلال الفترة الواقعة بين العام الثاني والعام الثالث . لكن هناك بعض الأطفال ممن يتجاوزون هذا العمر ولا يمتنعون عن تبليل الفراش ، يحدث ذلك حتى عمر الثالثة والنصف او الرابعة . وهناك ايضاً عدد قليل جداً يتوقف عن تبليل الفراش منذ شهره الثامن عشر . وهناك بعض الحالات النادرة التي يمتنع فيها الطفل عن تبليل الفراش حتى قبل ان ينهي عامه الأول دون ان تقوم الأم بتدريبه او تعويده على ذلك . وهكذا يمكن ان نصل الى حقيقة واضحة هي ان مسألة تبليل الفراش ليلاً نتيجة التبول ثم التوقف عن ذلك انما هي مسألة تحدث بحكم طبيعة الطفل وبحكم نموه .

يندهش بعضنا من فرط الرغبة في معرفة الأسباب التي تجعله يبوّل في الفراش . ان بعض الأسباب هي نتيجة عيوب خلقية يولد بها الطفل . واحيانا يكون السبب في ذلك هو احد الأمراض . وبناء عليه فلا يستطيع الطفل ان يضبط مسألة التبول تماماً . وهناك بعض الأطفال نتيجة لبعض الأمراض يجدون صعوبة في ان يبولوا . والذي لا يستطيع ان يتحكم في نفسه قد يترك قطرات

البول تتسرب منه مرة في دقائق معدودة . والذي يجد صعوبة في ان يبول قد لا يستطيع ان يتم عملية اخراج كل المياه التي في داخل المثانة لأنه قد يشعر بآلام اثناء التبول او قد تتكرر عملية التبول لأكثر من مرة او قد يشكو من وجود بعض الالتهابات في حوض الكلية او المثانة مما يسبب الصديد البولي . وبطبيعة الحال فإن الطفل الذي يعاني من اي الم اثناء التبول طوال الليل او النهار يجب عرضه على الطبيب . كما ان الطفل الذي لا يمتنع عن تبليل الفراش كل ليلة ، فهذا ايضاً لا بد ان يفحصه الطبيب .

وعلينا ان نعرف ان معظم الأطفال الذين يبللون فراشهم في الليل لا يعانون من امراض جسدية وعند الواحد منهم القدرة على التحكم في نفسه طول ساعات النهار رغم انه قد يبلل ملابسه قليلاً لا لشيء إلا لأنه لم يذهب بسرعة الى المرحاض بل يتكاسل عن ذلك وتكون النتيجة انه يبلل ملابسه .

وهناك بعض الأطفال يكون تبليلهم ليلاً للفراش هو نتيجة لظروف نفسية . واكثر هذه الحالات انتشاراً هو ان الطفل الذي يصل عمره الى ٢٤ شهراً او ثلاث سنوات ويتوقف عن تبليل الفراش لعدة اسابيع طويلة لكنه يعود مرة اخرى الى تبليل الفراش ليلاً عندما تضع امه مولودها الجديد ، لأنه هنا يشعر بعدم الاستقرار وعدم الامان ، ولهذا فهو ينكص مرة اخرى الى فترة من عمره ويتصرف تصرفات تلك الفترة فيبلل الفراش ليلاً . ان « النكوص » مسألة طبيعية بالنسبة لكل انسان يعاني قلقاً ويسمونه في علم النفس احدى العمليات اللاشعورية لأن الانسان يحمي به نفسه من القلق . وهكذا يمكننا ان نشاهد ان الطفل لا يبول في الفراش ليلاً فقط ولكنه قد يمصّ احد اصابعه او يتشبث بأمه كثيراً ولا يطيق فراقها ولو للحظة واحدة . ونرى انه يتمنى لا شعورياً ان تعامله امه بالأسلوب الذي تعامل به الوليد ، انه يتمنى لو تغير امه له ملابسه كما تغير للطفل المولود . وقد يكون التبول في الفراش له هدف الانتقام من الأم أو مضايقتها لأن هذا الطفل الوليد الذي حملته في بطنها واتت به الى الدنيا انما جاء ليدمر احساسه بالحنان ويعتدي على مملكة الحب التي يتمتع بها . ففي بداية الحرب العالمية الثانية هاجرت اعداد كبيرة من الأطفال بعيداً عن لندن الى القرى

وابتعد هؤلاء عن الأهل والأصدقاء والبيئة التي تعودوا عليها وهكذا نكص عدد كبير منهم الى الطفولة الأولى وبدأت ظاهرة تبليل الفراش ليلاً تنتشر حتى بين المراهقين . وانا اعلل السبب الرئيسي بأنه الاحساس بالخطر وبعدم الاطمئنان .

وعندما نرغب في علاج مثل هذه الحالات فلا بد ان نعمل على اعادة الاحساس بالامان بالنسبة للطفل وان نؤكد له ان مجيء طفل آخر لا يعني اننا لا نحبه . ان هذا يجب ان يترجم عملياً كل يوم وكل دقيقة . ليس هذا معناه افساد الطفل بالتدليل ولكن معناه ان نجعل الطفل يحس جيداً انه ما زال يتمتع بحبنا الكامل ونحن نعرف ان الطفل يشعر بالخجل من عملية التبول في الفراش ، يحدث ذلك رغم انه لا يعلن عن ذلك ولهذا من المطلوب ان نفهمه أننا على ثقة بأنه يحاول التحكم في نفسه ليلاً .

يحدث معظم التبول ليلاً للاطفال من الذكور . وسأناقش هنا مسألة كون معظم الأطفال الذكور الذين لا يمتنعون ابداً عن تبليل الفراش ليلاً بل بعضهم يصل به الأمر الى حد تبليل الفراش حتى عمر السادسة والثامنة والعاشرة والثانية عشرة ، وهؤلاء في معظم الأحوال لا تكون الأم قد قابلت صعوبات اكثر من المعتاد في تدريب الابن على الذهاب الى المرحاض وكيفية استعماله اثناء النهار هذا عندما كان ابنها في عامه الأول أو الثاني لأنه كان يقابل كل محاولة لتدريبه بمنتهى العناد والرفض مما كان يسبب للأم الضيق والتوتر . وهناك الأطباء النفسانيون المتخصصون في نفسية الأطفال ومنهم د. مارجريت جيرارد التي قامت ببحث واسع لهذه المشكلة وصلت فيه الى نتيجة مؤداها ان معظم حالات تبليل الفراش عند الأبناء هي وجود احساس بالتوتر الشديد بين الأم والابن ، وتكون الأم قوية الشخصية قادرة دائماً على ان توجه اللوم والنقد للابن بحكم طبيعتها كما انها تحاول على قدر طاقتها ان تقوي علاقتها بابنها عن طريق اسعاده وهي في آن واحد توجه له اللوم والتوبيخ وتحاول ان تكشف له عن اخطائه تماماً . انه في نظرها ينطق بعض الكلمات التي لا يجب ان ينطقها وهو في نظرها عنيف مع الآخرين ، وهو في نظرها طفل يسبب الضجيج ويحدث الفوضى . وهذه اشياء طبيعية في الأطفال لكنها لا تستطيع ادراك ذلك . والطفل في اغلب الأحيان يملك رهافة في

الاحساس تجعله يهاب ويخاف من ان يغضب الأم . والطفل ايضاً في هذه الحالة يكون من النوع المسرف في الاعتماد على والدته في الطفولة ويخاف ان يفقد هذه « المساعدات » القيمة التي تقدمها له الأم وهو يحلم غالباً احلاماً مزعجة للغاية . كما لا يستطيع ان يهمل هذا اللوم الموجه له من امه ، مثلما يفعل سائر الأطفال . وهو سريع الاقتناع بأنه ولد غير ناضج وأن الأم انسانة طاغية القوة والسيطرة .

ورغم هذا فالطفل لا يرضخ الى الاستسلام حتى لا ينال غضب الأم لكنه يتعود الحصول على لذة مستترة من اغضاب الأم ولهذا فهو يستفزها لا شعورياً ببعض المكر الخفيف مما يثيرها عصبياً . انه يقاوم الخضوع لسيطرة الأم رغم انه يحصل على لذة مستترة منه . والمشكلة هنا يصفها الطب النفسي بأنها صراع شديد وعميق بين اللذة المريضة من الاستسلام وبين الأمل على إن يكون طبيعياً وانساناً له ايجابية . ان هذا النوع من الأطفال الذين يبللون الفراش ليلاً ، لا يفعلون ذلك نتيجة لعدم التدريب على التحكم في النفس ، أي لأن المثانة قد امتلأت بالمياه ، او لأنه غارق في النوم . ان الذي يحدث هو ان الطفل يحلم حلماً مزعجاً قهرياً يشاهد فيه قوة داهمة او شخصاً عملاقاً او حيواناً متوحشاً او اي شيء واهم ، ويعاني الطفل من والقلق القلق اثناء الحلم ويحصل ايضاً على لذة ما . وهكذا نرى ان عملية التبليل التي تحدث هي نتيجة طبيعية كرد فعل لهذه الانفعالات المثيرة . إنني اذكر ان احدى الكلبات التي كانت في منزلنا عندما كانت تعود الى البيت فهي تنام على الأرض كأنها تعلن خضوعها وتترك في الوقت نفسه بولها على الأرض . هذا ما يحدث للحيوانات ايضاً ، فلماذا نتعجب حدوثه بالنسبة للانسان الطفل؟ . ان تبليل الفراش مردّه او سببه احساسان في لا شعور الطفل . الاحساس الأول انه صغير ، والاحساس الثاني انه قادر عن ان يتحدى الأم التي توجه له النقد وتطلب منه الرضوخ . ان الطفل لا يتعرف تماماً على كل هذه الاضطرابات في المشاعر التي تحدث في اللاشعور ولا يعرف كيف يربط بينها وبين عملية تبليل الفراش . فهو يخجل بعنف من عملية تبليل الفراش . وهو يحاول قدر طاقته ان يتحكم في نفسه ، ولهذا فيجب على الأم ألا تقع في خطأ التصور بأن الطفل كان يستطيع ان يتحكم في نفسه ولم يفعل ذلك . انه يرغب

تماماً في عملية التحكم لكن الذي يحدث هو قهر له يأتيه من الأحلام . انه لا يملك القدرة على ان يبتعد عن الحلم . وها نحن قد عرفنا ان المشكلة الرئيسية لهؤلاء الأطفال هي انهم لا يستطيعون فعلاً التحكم بأنفسهم . انه نوع من العجز رغم انه يحمل ضمنياً الرغبة في اثارة الأمهات اللاتي من النوع المسيطر . ان على الأم ان تفهم تماماً ان السيطرة الشاملة القاهرة للابن ليست هي السبيل لعلاج الابن .

قد يقفز سؤال هنا هو . . هل نوقظ الطفل في منتصف الليل ونصحبه الى دورة المياه حتى يتبول وهو نصف نائم ؟ ان معنى ذلك عند الطفل ان الأب والأم لا يثقان فيه ، ولا يثقان في انه قادر على التحكم في النفس ، وانه لا يستطيع ان يقوم بكل اموره بنفسه .

سؤال آخر هو . . هل نجعله يغسل ملاءات السرير وينشرها بنفسه امام الجيران ؟ . ان هذا اسلوب يحمل من الاهانة قدراً كبيراً ويفقد الطفل كرامته لأنه طبعاً لا يرغب في ان يعرف الآخرون عنه انه يبول على فراشه ليلاً وخصوصاً الأصدقاء الذين في سنه .

سؤال ثالث هو : هل نمنع الطفل من تناول اي سائل قبل ان يذهب الى النوم وفي فترة المساء ؟ . والاجابة هي ان الطفل في الحقيقة سيحس بالعطش فوراً وسيبذل كل المحاولات للتوسل الى الأم ليشرب ، وقد يسبب هذا نوعاً من الضيق للابن وللأم معاً وهذا لا يفيد الطفل ولا يفيد الأم .

سؤال رابع هو هل نرسل الطفل الى احد مخيمات الأطفال ؟ إننا لا يجب ان نفعل ذلك إلا بناء على رغبة الطفل وإلا اذا تأكد الابن نفسه انه قادر على التحكم في نفسه . وعلينا ان نتأكد ايضاً من ان المشرفين على هذا المخيم اناس يملكون النضج الكامل والنظرة العلمية التي تتيح لهم حماية الطفل من بقية الأطفال ، لأن أي مخيم من أي رحلة قد يكون قطعه من الجحيم للطفل الذي يبلل فراشه ليلاً .

هنا قد يقول معظم الآباء والأمهات : كيف اذن نتصرف ونسلك طريقة

سليمة تحل هذه المشكلة ؟ . وانا اقول ان هناك خطأ نقع فيه نحن الآباء والأمهات ويقع فيه الأطفال معنا وهو اننا نظن ان عملية تبليل الفراش هي المشكلة . . رغم ان الحقيقة هي ان هذه المسألة ليست إلا مظهراً من مظاهر مشكلة اخرى مستترة. وعلينا ان نبحث عن المشكلة الفعلية لنحلها . ان الطفل عادة يمتنع عن تبليل الفراش قبل ان يبلغ سن المراهقة لكن المتاعب النفسية التي تختفي وراء مسألة تبليل الفراش تظل كما هي ان لم نجد لها حلاً ، ومن ألوان تلك المشاكل الصراع بين الطفل والأسرة ضد سيطرة الأم او الأب ، الاحساس بالعجز ، الاحساس بضرورة استفزاز الأم . ان العلاج لمثل هذه الاضطرابات عندما تكون عنيفة يكمن في يد الطبيب النفسي وخصوصاً اذا كانت اعراض اختلال توازن الشخصية واضحة تماماً لدى الطفل . او عندما تكون هناك احلام مزعجة غاية الازعاج كل ليلة مما يسبب للطفل الخوف ليلاً ونهاراً ويجعله خائفاً من الأطفال ويعمل دائماً على اثارتهم واستفزازهم .

ويشاهد بعض الآباء والأمهات في المجلات اعلاناً عن جهاز ينبه الطفل الى اللحظة التي يبتل فيها فراشه ويصدر رنيناً او ينير الحجرة . ان الآباء والأمهات يسألون عن مدى جدوى هذا الجهاز . وانا اقول انه مفيد في بعض الحالات وغير مفيد في بعض الحالات الأخرى . ان هذا الجهاز قد يدرب الطفل تدريجياً على عدم التبول في الفراش ولو بصفة مؤقتة . لكن هذا الجهاز لا يرضى عنه الأطباء النفاسانيون لأن هذا معناه اننا نقضي على ظاهر المشكلة ولا تعالجها . وفي رأيي ان هذا الجهاز لا يسبب اي ضرر للطفل وله بعض الفوائد اذا كنا نستعمله مع طفل يعيش وسط ظروف عائلية مناسبة ويتمتع بحب والديه ويكون قد قرر هو ايضاً ان يستعمل هذا الجهاز ، فإذا استطاع الطفل ان يفعل ذلك ونجح الجهاز في تنبيهه الذى بدئه تبليل الفراش ونجح الطفل في ضبط نفسه ، فإن هذا يدفع الطفل الى المزيد من الثقة بالنفس وهذا ما يريده الطفل حقيقة . لكني اظن ان هذا الجهاز قد يكون ضاراً اذا استعملناه مع طفل صغير لا يحس ، فقد يخاف من هذا الجهاز وهذا يسبب قدراً من المشاكل .

واذا استطاعت الأم التي تعاني من مشكلة ان ابنها يبلل فراشه كل ليلة ان

تعالج الابن بنفسها فهذا بطبيعة الحال مسألة جيدة . والأم التي لا تستطيع ذلك عليها ان تنتبه الى عدم اهانة الطفل والى ضرورة ان تؤكد له انها تثق به وانه سيستطيع ان يصل في ايام معدودة الى التحكم في نفسه . اذا كانت الأم قد وقعت في براثن عناد الطفل واستفزازه ومحاولة اهانته دائماً بسبب ذلك فإن عليها ان تعترف للطفل بأنها ستبدأ معه بداية جديدة وتقول له باعتذار انها كانت مخطئة في هذا الأسلوب . ولا بد ان اسلوب التحقير لشأنه قد اغاظه ، لكنها تعلم ان عدداً كبيراً من الأطفال في مثل هذا العمر يعانون من هذه المشكلة نفسها وهم يستطيعون ان يمارسوا قدرتهم على التحكم في النفس بالمحاولة ، وانها تثق في انه سيحاول وانه سيحقق القدرة الكاملة على التحكم في النفس .

إنني اقول ذلك لأني اعتقد انه من مسؤولية الآباء والأمهات ألا يسببوا لابنائهم النكد والضيق والهم والغم بسبب المشاكل غير الهامة التي تقوم في المنزل كل يوم . ان الآباء والأمهات الذين من هذا النوع ستكون البداية بالنسبة لهم صعبة لان الطفل سيكون بدوره قد تعود على ديناميكية الصراع مع الأسرة . ولهذا فلا بد من ان تتحكم الأم في اعصابها ولا بد ان يتحكم الأب في اعصابه وان يحاول كل منهما ان يزرع الثقة في نفس الطفل ، والا يعيراه الانتباه لكل ما هو تافه . ان الانتباه يجب ان يركز على الاشياء الهامة فقط . ولا بد ان تكون محاولة تأكيد ذات الطفل محترمة في الأسرة وان يحاول الأب والأم تأكيد ذلك في مدرسة الطفل وبين اطفال الحي . ويجب ان يحاول الوالدان توفير الألعاب الهامة للطفل اذا كان اطفال الحي يلعبون بمثل هذه الألعاب كالكرة والدراجة . وهذا طبعاً يساعد الطفل على ان يمتنع عن التبول بثيابه او في فراشه ويساعده على تنبيه قدرته على التحكم في النفس . وارى ايضاً ضرورة الترحيب بأصدقاء الطفل في المنزل . وان نشركه في الرحلات المدرسية او ان نقوم نحن بالرحلات معه ومع اصدقائه .

ان الطب النفسي للاطفال يؤكد ان الطفل الذي ينام مع امه وابيه في الحجرة نفسها، او الذي لا نفصله عنهما مجرد جدار يمكن ان يتسرب منه الصوت قد يتأتى له من جراء ذلك اضطراب نفسي شديد . بل ان مسألة تبول الطفل في

الفراش قد تكون نتيجة لذلك . ولهذا فلا بد ان ينام الطفل في مكان بعيد عن مكان نوم الأم والأب .

وفي بعض الأحيان يكون والد الطفل الذي يبلل فراشه هو والد من النوع الذي لا يمارس اي دور بارز في تهذيب الابن ، ويميل الأب الى الهدوء الشديد لكن هذا الهدوء بطبيعة الحال لا يمنع الأب من الشعور بالضيق من الابن ، لأن الابن في هذه الحالة يكون مسبباً لخيبة أمل عند الأب . انه طفل غير ناضج . وعلى هذا النوع من الآباء ان يعرفوا ان الابن يحتاج فعلاً الى مشاركتهم الفعالة في تهذيبهم ويحتاج ايضاً الى ان يطرد الأب احاسيس الغيظ والضيق ، لأن الطفل يحاول ان يمتنع عن تبليل الفراش فلماذا لا نساعده على ذلك ، ان الطفل يطلب من الأب ان يساعده على اكتساب صفات الرجولة ، عن طريق الصداقة والصحبة . ولا يجب ان يتردد الأب مطلقاً في اعلان سيطرته الكاملة على الأسرة ومشاركته في تدبير امورها .

وننتقل الآن الى الفتيات . . ما هو العلاج لمثل هذه الحالة ، عندما تبلل الفتاة فراشها نتيجة لبعض الأسباب النفسية؟ . . ان السبب الذائع بين الفتيات هو ان الفتاة لا تخاف ولا تنقصها الثقة بالنفس رغم وجود بعض الاستثناءات . ان الفتاة غالباً ما تميل الى ان تدخل في مباريات التنافس مع اخوتها ومع سائر الأولاد ، وهي تقترب جداً من والدها وتكاد لا تفترق عنه وتتمنى ان تشاركه كل اهتماماته وتحلم ان تعمل في المجال نفسه الذي يعمل به عندما تكبر .

واذا كنا نستطيع ان نقول ان الطفل الذي يبلل فراشه ينم عن رغبة او احساس منه بأنه ما يزال طفلاً صغيراً ، فإننا نستطيع القول ان الفتاة التي تبلل فراشها في معظم الأحوال تحاول بكل قوة ان تكون كالولد تماماً . يحدث ذلك لا شعورياً . واذا كانت تلك هي مشكلة الفتاة فعلاً فإننا نستطيع ان نساعدها في التغلب على هذه المشكلة بأن نوضح لها كآباء وكأمهات بأننا نحبها ونجد السعادة في وجودها كفتاة وعندما تحصل الفتاة على مثل هذا النوع من الحب والصداقة ، خصوصاً مع الأب فإن هذا يساعدها على تخطي مثل هذه المشكلة . ان على الأب

ان يؤكد للفتاة انه يحبها كثيراً لكن حبه لزوجته شيء آخر مختلف وذلك حتى تعرف الفتاة الحدود بين دور الزوجة والأبنة . وطبعاً على الأم ان تستجيب لحب الأب وحنانه وذلك كي تكون مثلاً اعلى للابنة .

في الثانية من العمر . . هناك مشكلات وقت النوم

ان معظم هذه المشكلات ناجم عن احساس الطفل بالقلق لانفصاله عن امه .

وقت النوم في الثانية من العمر له مشكلات ، واريد هنا ان اناقشها . وهي تختلف تماماً عن مشاكل الأطفال الرضع الذين لم ينهوا عامهم الأول . فمشاكل العام الأول من عمر الطفل يمكن ان نضعها تحت بند التدليل . ويمكننا ان نصل الى علاج لها بالود والحزم معاً ، ولو ان هذا العلاج عادة ما يكون سريعاً . لكن هناك مشاكل تظهر في الأوقات التي يذهب فيها الطفل للنوم عندما يكون عمره عاماً ونصف العام وهي مشاكل تتولد بسبب احساس الطفل بالقلق ، والقلق قد يكون عنيفاً وقد يكون خفيفاً .

واذكر هنا حكاية توضح تماماً حالة الطفل الذي يمتلىء بالقلق وتتلخص في الآتي . . طفل وحيد عمره عامان وهو وحيد امه ، ترحل الأم عن البيت تحت ظروف اضطرارية لمدة خمسة عشر يوماً وتسند رعاية الطفل في هذه الأيام الى مربية اطفال وطبعاً يصاب قلب الأم في البعد ايضاً بالقلق ، تحاول الاطمئنان على الطفل تليفونياً وتقول لها مربية الأطفال انه يتصرف بطريقة مهذبة ولا يشاغب على احد ويبدو طفلاً مثالياً . وبالفعل يكون الطفل كذلك . ان اي نوع من المقارنة بين سلوك الطفل في حضور امه وسلوكه اثناء غيابها يوضح تماماً الفرق بين سلوكه عندما كانت معه وسلوكه عندما ابتعدت عنه . . انه بالفعل يتصرف بطريقة مهذبة ولا يحاول ان يسلك أي سلوك خشن او متمرد . انه لا يتعب مربية الأطفال في مسألة ارتداء الملابس ويسمح لها بأن تقوم بعملية اطعامه والباسه للملابس

وحلعها . يخرج معها الى السوق او الى اي مكان . وتطلب منه ان يذهب الى السرير فيذهب دون اي ازعاج او عناد او ضجيج كما تعود ان يفعل مع امه . واخيراً عادت الأم الى المنزل وهنا انفجر بركان الخوف . فالطفل يراقب امه ولا يسمح لها ابداً بالابتعاد عنه ويذهب معها الى كل مكان ويسير خلفها في حجرات البيت . واذا اختفت في احدى الحجرات فإنه يملأ الدنيا بالصراخ وبالضجيج ويبحث عنها في كل مكان ويرفض كل الرفض السماح لمربية الأطفال ان تلمسه . وعندما يأتي ميعاد نومه فإنه يلتصق بأمه ويرفض تماما ان تبتعد عنه ويطلب منها ان تظل معه . وعندما يبدأ في النوم وتحاول امه ان تخرج من الحجرة فإن الطفل يتيقظ فجأة ويحاول ان يقفز من السرير او يتسلق جداراً ويجري وراء الأم محاولاً ان يمسك بها . انه يظهر في حالة من الرعب تؤلم فعلاً أي انسان يراه . وتظل الأم بطبيعة الحال بجانبه الى ان يغرق في النوم . ويحاول الطفل بكل الطرق ان يحافظ على صحوه . انه يرفض ان ينام . انه لا يستغرق في النوم إلا بعد ان تمر ساعتان على الأقل في مقاومة النوم . ولو حاولت الأم ان تنسحب على اطراف اصابعها خارج حجرته فإن فترة يقظة الطفل تطول . انه يصبح مركز الوعي ويراقب امه .

ويظهر هنا طبعاً ان تصرف الطفل بهذه الطريقة لا يستمر ليوم واحد ولكن لأيام طويلة وهو يعطينا مؤشراً الى ان حالة الطفل الانفعالية تعاني من توتر واضطراب عنيفين . وتشعر الأم بالتعاسة لأن ابنها وصل الى هذه الحالة وهي لا تستطيع ان تمنع نفسها من الاحساس بالفشل والألم والتوتر لأن طفلها يرهقها بهذا التشبث العجيب بها ويحول حجرته الى سجن تدخله كل ليلة . وتوضح هذه الحالة تماماً ما نسميه بـ « قلق الافتراق » وهي حالة مجسدة وعنيفة . ويمكن ان نعرف منها السر لبعض مشاكل النوم العنيفة ، تلك المشاكل التي تظهر بين العمر الواقع بين العام الأول ، وعمر الثلاثة اعوام . واريد ان اقول ان المشكلة التي ذكرتها عن « قلق الافتراق » لا تظهر بهذا العنف اللهم إلا في بعض الحالات النادرة ولا نلاحظها نحن الأطباء ، اللهم إلا في حالات الطفل الوحيد الذي تحاول الأم ان تعبر عن حبها له بالتفاني الكامل فيه ، وهي دائماً تحاول ان تفرض سلطانها ورعايتها باسم الحماية له بصورة مبالغ فيها . وهكذا يرتبط الطفل بأمه وترتبط الأم بطفلها بصورة شديدة وعنيفة وقد يعاني الطفل ايضاً من بعض المخاوف التي

تنتقل اليه من الأم ، مخاوف من نوع الحذر الشديد القلق من الحوادث والخطر الذي قد يصيبه . وعندما اوجه لنفسي سؤالاً عن السر في ان الطفل الذي يبلغ الثانية او قبلها بشهور او بعدها بشهور هو الطفل الذي يمكن ان يصاب بقلق الافتراق ، اجد الاجابة هي انني اعتقد ان السرّ في ذلك هو ان الطفل في هذه الفترة من العمر يعي تماماً أهمية الأم بالنسبة له وهو قاصر الوعي ايضاً عن ان يلمس ويفهم ما تريده الأم ان يفهمه أو توفره له من عوامل الاطمئنان عن طريق الشرح وا لتفاهم . ان الأم عندما تقول لابنها في مثل هذا العمر انها سوف تسافر الى مكان وتعود منه بعد ايام ، هذا الطفل لا يمكن ان يستوعب هذه الكلمات . انه لم يجرب من قبل الافتراق عن الأم . إنه لا يعرف تماماً ماذا تعني الأم بهذه الكلمات . ان غياب الأم عن الأبن في مثل هذا العمر ولو لمدة اربع وعشرين ساعة يصيب الطفل بالقلق الشديد . كأنه لن يراها بعد ذلك ابداً . واحساس الطفل بالزمن هو احساس غير واع . إنه لا يميز جيداً الوقت . هل هو الصباح ام المساء . إنه لا يصل الى هذا الادراك إلا عندما يصل الى الرابعة او الخامسة من عمره .

ولنتناول الآن بعض المشاكل الحقيقية التي قد تظهر في ميعاد النوم . ان عدداً كبيراً من الأطفال يعتادون الذهاب الى الفراش بهدوء واطمئنان وسرعان ما يروح الواحد منهم في النوم العميق ، ولكن عندما يصل الطفل الى عمر الـ ١٨ شهراً او ٢٤ شهراً او ٢٨ شهراً فهو يختلق الأسباب ليجعل امه تجلس معه في حجرته اطول فترة ممكنة ويختلق الكثير من الأسباب الزائفة . انه يدعي العطش ويدعي الرغبة في الدخول الى دورة المياه . وهنا تجد الأم نفسها محاصرة برغبات الطفل ، خصوصاً رغبة الذهاب الى دورة المياه لأنها تبذل الجهد الكبير لتدريب الطفل على ذلك وتريده ان يتصرف كانسان قادر على تحمل مسؤولية نفسه . وهنا لا يمكنها ان ترفض ذهابه الى دورة المياه برغم تأكدها التام بأنه يدعي ذلك والهدف طبعاً هو ان يقضي معها اكبر وقت ممكن . وهناك طريقة اخرى يتصرف بها الطفل للتعبير عن رفضه تماماً لأن يكون وحيداً في الفراش . انه يتقن جيداً مهارة التسلق الى السرير او الزحف ليخرج منه . وعندما تظن الأم انه قد نام تماماً فإنها تفاجأ بأنه اصبح معها حيث تجلس . ورغم ان الطفل يكون في مثل هذه السن

غير قادر على فهم امور الحياة وادراكها إلا انه يفهم تماماً انه انسان جذاب ويستغل جاذبيته ، بمهارة في الأوقات التي يفهم منها انه قد ارتكب خطأ ، انه يبتسم ابتسامة ساحرة للأم . انه يجري اليها ليقبلها . انه يغرقها في اسئلة مليئة بالحب والحنان . . انه يتعلق بها ليحتضنها ويحاول ان يستقر هانئاً في احضانها اطول فترة ممكنة . ولا تستطيع اي ام ان تقاوم جاذبية الطفل في مثل هذا العمر .

اني اعتقد ان الحجج التي يختلقها الطفل لتبقى معه امه في حجرته او عندما يهرب من فراشه ليقضي الوقت مع ابيه وامه ، هذه الحجج وتلك المحاولات تشير الى قليل من الاحساس بقلق الافتراق . صحيح ان الأم لم تفترق عن الابن بصورة مفاجئة تسبب القلق ولكنه من الصحيح ايضاً ان الطفل في مثل هذا العمر يمر بفترة من النمو يكون من السهل فيها ان يشعر بالوحدة والضعف عندما يفترق عن الأم او يبتعد عنها . وليس هذا مع الأم فقط . . لكن الطفل ايضاً يشعر بمرارة الافتراق بدرجات متفاوتة عندما يذهب احد الأقارب الذين يعيشون مع الطفل بعيداً عنه . بل ان المسألة تتعدى ذلك ايضاً ، فالطفل يشعر بالوحدة عندما تنتقل عائلته من مكان الى آخر

وهنا يأتي السؤال . . ماذا يمكن ان نفعل في مثل هذه الظروف ؟ . انني لا اشك على الاطلاق في ان الأم يمكن ان تواظب لمدة اسابيع على العمل الدائب لغرس الاحساس بالامان والاطمئنان المطلق في مشاعر الابن خصوصاً اذا كان قلق الافتراق الذي يعاني منه هو نتيجة لتغيبها عن المنزل لمدة من الزمن . ومن الضروري ألا تتغيب الأم مرة ثانية إلا بعد ان يتضح لها ان الطفل يمكنه ان يفهم ويستوعب غيابها استيعاباً تاماً. واظن اني افضل تصرف الأم عندما يأتي ميعاد نوم الطفل ان تجلس بجانب سريره وان تمسك بيده عندما يريد ذلك . ولا افضل بطبيعة الحال ان ينام الطفل في صدر الأم او في حضنها لأنني اعرف كما تعرف كل الأمهات ان الطفل سيصحو من النوم عندما تضعه امه في السرير . واريد ان انبه الى ضرورة جلوس الأم في حجرة الطفل الى ان يستغرق في النوم فعلاً ، لأن الأم عندما تحاول ان تتسلل على اطراف اصابعها من حجرة الطفل وهو لم يستغرق في النوم بعد ، فمن المؤكد ان وقع اقدامها سيجعله يستيقظ من النوم . وسيحاول

بكل طاقته ان يبتعد تماماً عن النوم لا لشيء إلا لأنه يخاف حقيقة من الافتراق عن الأم . انني اعرف ان هذه المسألة - مسألة وجود الأم مع الطفل حتى يستغرق في النوم - قد تجعل الأم في غاية الضيق من الاحساس بأن حريتها ضائعة تماماً في فترة المساء ، ولكني احب ان اطمئن الأمهات الى ان ذلك لن يستغرق سوى ساعتين في الأيام الأولى لعودتها الى المنزل بعد غيابها عنه . ولأن ذلك قد يمثل عبئاً ثقيل الظل على الأم ، لهذا فأنا اوجه النصيحة للأم بأن تجلس في مقعد مريح وان تسلي نفسها بالقراءة او اشغال الحياكة خلال هاتين الساعتين . ومن المؤكد عندما تسير الأمور سيراً طبيعياً ان هذه المدة ستنخفض لتصبح ثلاثين دقيقة فقط . ولكن - رغم كل ذلك - فعلى الأم ان تتوقع انها ستجلس هذه النصف ساعة كل يوم لمدة ستين يوماً على الأقل .

وبطبيعة الحال نحن نعرف اننا يجب ان نلجأ الى احد الاخصائيين النفسانيين اذا كان قلق الطفل وخوفه من الافتراق عن الأم يتجاوز الحد المعقول . وبطبيعة الحال ايضاً فأنا ارى ان يؤجل الآباء والأمهات سفرهم الى اي مكان بعيد الى ما بعد مرور العام الثالث على الطفل الوحيد ، لأن ذلك سيجعل احتمال اصابته بالقلق ضئيلاً جداً - لأننا نستطيع في مثل هذا العمر ان نشرح للطفل وان نثق في انه سيفهم ما نريد قوله . اما اذا كان تأجيل سفر الأم مسألة غير مقبولة بسبب الظروف كدخولها المستشفى مثلاً ، فإن هذا الأمر يستدعي منا ان نحاول تدريب الطفل على تقبل البقاء . مع مربية الأطفال او القريبة التي ستقوم برعايته اثناء غياب الأم . لا بد ان يحدث ذلك قبل رحيل الأم باسبوعين على الأقل ، تحضر فيها هذه المربية ولا تفعل اي شيء سوى الجلوس بعض الوقت في المنزل ولا تفعل اي شيء من اعمال العناية بالطفل . سيبدأ الطفل في التقرب منها لاكتشافها . وسيبدأ في التعرف اليها . تحاول هي ان تقوم بأعمال رعايته ، تنمو بينهما مشاعر الثقة . وهنا يمكن للأم ان تتغيب لفترات متقطعة من البيت كأن تخرج لتشتري اشياء من السوق او تقوم بزيارات للأهل . يوحي هذا للطفل بأنه يمكنه الاعتماد على مربية الأطفال او القريبة التي يوكل اليها الاشراف عليه .

قد ينزعج احد الآباء او تنزعج احدى الأمهات ويرى ان ما اقوله هو نوع من

الحرص الشديد المبالغ فيه . نعم ان هذا هام بالنسبة للطفل الأول للاسرة وغير هام بالنسبة لبقية الأطفال الذين يأتون بعد، . . يكون الأمر في بعض الأحيان غير هام بهذه الطريقة بالنسبة للطفل الأول . عندما يكون هذا الطفل قادراً على الاستقلال عن امه وراغباً فيه . اما في حالة وجود اطفال آخرين من الأسرة فإن الأطفال يشعرون بالامان والاطمئنان عندما يكونون كلهم معاً ، كما ان الأم في حالة وجود اكثر من ابن فإنهاتتغلب على احساسها الغامر بضرورة حماية كل واحد من هؤلاء الأبناء بأسلوب مبالغ فيه . انها كانت تشعر بذلك نحو الطفل الأول . بينما يمكن للأم ان تلاحظ انها ستعامل بقية الأبناء بأسلوب بسيط وغير مغرق في الاهتمام .

والجميل بالأمر ان يتعود الطفل . . أي طفل على اقامة صداقة وألفة مع الغرباء ويمكننا ان نفعل ذلك منذ اللحظة التي يتعلم فيها الطفل المشي . ولا بد لنا من تعويد الطفل على اننا سنتركه في البيت من حين لآخر لمدة ساعات وايكال امر الاهتمام به الى مربية اطفال او احدى الغريبات اللاتي نثق بهن . ذلك يعوده على الاستقلال الكامل . ومما لا شك فيه ان الآباء او الأمهات يستفيدون نفسياً من الابتعاد لفترة من الزمن عن مشاكل الاطفال لكن في هذه الحالة لا بد ان يتأكدوا تماماً من ان من يوكل اليها امر رعاية الطفل سيدة جديرة بذلك ونستطيع الاعتماد عليها . وفي حالة الطفل الوليد الذي لم يتجاوز عمره عدة شهور ، فلا بد لنا ان نتأكد ان من تقوم برعايته تتمتع بطاقة من الحنان والاحساس والوعي . كما اننا يجب ان نعود الطفل على ان يقضي وقتاً مع هذه السيدة اثناء وجودنا بالمنزل . وعندما يرغب الأب والأم في الخروج الى سهرة او حفلة فلا بد ان تأتي السيدة التي سيوكل اليها أمر رعاية الطفل اثناء غياب الأم والأب في الخارج قبل ان ينام الطفل حتى يمكن ان يفهم المسألة مقدماً وحتى لا يتعرض للانزعاج الشديد لو استيقظ اثناء الليل ووجد بجانبه انسانة لا يعرفها بينما المألوف لديه ان يجد امه . ومن الطبيعي ان نعرف بأن تدريب الطفل على الحياة مع جماعة من الأصدقاء من خارج الأسرة مسألة لها اهمية خاصة اذا كان هذا الطفل هو الأكبر أو هو الوحيد في الأسرة لأن هذا يصقل شخصية الطفل ويدربه على الحياة مع الكبار .

وهنا يمكن ان تقول احدى الأمهات . . « لقد تكلمت كثيراً عن قلق

الافتراق والاحساس به الذي يتراوح بين الشدة والضعف في المواقف المختلفة ومنها محاولة الطفل ابن الثانية ان « يحبس » امه معه في حجرته معظم ساعات الليل ، او يتسلل من السرير ليخرج من الحجرة . لماذا اذن لا تشرح الأسلوب العلمي الذي يمكن للأم ان تتبعه في مثل هذه الحالات التي يكون فيها قلق الطفل غير عنيف » ؟

وانا اقول انه يجب على الأم في مثل هذه الحالة ألا ترضخ للطفل وتجلس معه في حجرته . انما يجب ان تلقي عليه تحية المساء دون اي تردد وبحزم وتتركه في الفراش . أقول بلا اي تردد ، لأن التردد يعطي الفرصة للطفل ان يتمرد ا يستفيد من هذا التردد . ان قلق الأم المبالغ فيه يضخم من قلق الطفل نفسه . فالطفل في بعض الأحيان يتصرف كأنه يقول لأمه « انا ايضاً اؤمن انه من الخطر على حياتي ان تتركيني وحيداً » . يحدث هذا بالنسبة للطفل الذي تبالغ امه في التردد او في اظهار القلق او ان تقبل تصرف الطفل الذي يتلكأ فيه عن الذهاب الى حجرة نومه ، او الاذن للطفل بأن يجلس مع الأب والأم لفترة اطول ويتجاهل ميعاد النوم . ان مثل هذا التصرف يجعل الطفل مقتنعاً بأن الأم لا تطمئن الى تركه بمفرده وان هناك « خوفاً » ما يجعلها تسمح له بالتمادي في مثل هذا التصرف .ان ذلك يرفع نسبة قلق الطفل ويجعله يندفع نحو المزيد من الضغط على الأم ليحاول ان يستبقيها معه في غرفته او ليحاول ان يقضي اكبر وقت ممكن معها وكل ذلك نتيجة تردد الأم الذي كلما ازداد ، كلما ازداد اندفاع الطفل نحو التعلق بها .

انني لا انسى احدى الأمهات التي جاءت بطفلها الذي كان في العام الثاني من عمره للفحص الشهري وكانت تعرف كيف تدير حياة ابنها وتسيطر تماماً عليه وعلى مشاعرها وفي الوقت نفسه كانت هذه الأم ممتلئة بالحيوية . قالت لي اثناء الحوار معها :

ان طفلي منذ اربعة اسابيع يحاول ان يؤجل ذهابه الى سريره في المساء ، وبكل الطرق يختلق الحجج مثل العطش او الرغبة في الذهاب الى دورة المياه ولكن كنت اقول له في كل مرة انك شربت منذ لحظات ودخلت دورة المياه منذ لحظات وان ما يطلبه الآن هو نوع من « الدلع » وانا لا اريد منه هذا « الدلع » . واصبح طفلي الآن يذهب الى سريره في الميعاد المحدد .

تقدم هذه الأم حلاً عملياً للمشكلة . وليس معنى ذلك انني اطلب من كل ام ان تقول الكلمات نفسها لابنها . ولكن معنى ذلك اننا نستطيع ان نرى في تصرف هذه الأم انها تقنع ابنها بأنها ليست متوترة الأعصاب ولا تريد لابنها ان يوتر اعصابه او يرهق نفسه بهذه المحاولات الفاشلة . يمكننا ان نسير على هذا النوع من الود « الحازم » في حالة الطفل الذي يتسلل من سريره الى خارج الغرفة حتى يجلس مع والديه . هنا يمكن ان تحمله الإم او تأمره بالذهاب فوراً الى حجرته دون اي لحظة تردد ودون اي استسلام لأي اسلوب مهما كان . لكن بعض الأمهات قد تقول : « ان هذا الأسلوب كان من الممكن ان يكون نافعاً ومجدياً لو انني نفذته منذ شهر لأن الوقت الآن قد فات . لقد تعود الطفل ان يتسلل من سريره اكثر من عشرين مرة في فترة ساعتين كل ليلة . انه يفعل ذلك بادمان غريب » ؟ انني اوافق الأمهات على ان المسألة يمكن ان تكون صعبة لأن الطفل « يعني » هذا التصرف ويتعمده . لكن يمكن ان تسأل الأم نفسها « كيف احمل الطفل على ان يظل في فراشه بعد كل هذه المحاولات ؟ » ويمكنها ان تجيب نفسها قائلة : « كل ما في الأمر انني افقد اعصابي وأصرخ فيه او اضربه . ويبكي لمدة دقائق ثم يذهب الى النوم » . هل معنى ذلك ان «الصراخ» و« الضرب » يأتيان بنتيجة سحرية ؟ لا . انهما لا يمكن ان يكونا الطريق الى اجبار الطفل على النوم . ان الأم تترك نفسها لتيار التوتر خلال المرات التي يتسلل فيها الطفل من الفراش وهذا يصيب الأم بالضرر مثلما يصيب الابن ايضاً ، تماماً كما يصيبه الضرب بالضرر . وعلى الأم ان تحاول من البداية التصرف مع الابن بحزم دون ان تضربه او تصفعه . ان الابن عندما يلمس الجدية فيما تقوله الأم سيقتنع دون حاجة الى الضرب او الزعيق . ويمكن القول بأن المشكلة تتلخص كالآتي : يخيل إلى الأم احياناً انها تكون جادة فيما تقول ، ولكن اي انسان يرى الأم وهي تحدث ابنها يمكنه ان يكتشف انها لا تكون جادة بالفعل . انها « تمثل » الجدية لمدة طويلة ثم تنهار مقاومتها امام الطفل او تصاب بالعجز عن ملاحقة الطفل ان كان فعلاً ينفذ اوامرها . ان كل اب وكل ام يمر بلحظة يعطي فيها الابن فرصة التصرف تصرفاً غير مقبول دون ان يعاقب عليه . وهذا نوع من التناقض في السلوك مع الطفل ، لكن هذا التناقض يصل الى اقصى درجاته عند بعض الأمهات . ان بعض الأمهات تصرف الواحدة منهن اليوم كله وهي تهدد الطفل دون

ان يقتنع الطفل بتنفيذ ما تطلبه الأم . وحتى يمكن ان تكون الصورة اكثر وضوحاً نستطيع ان نقول ان الأم التي يتسلل ابنها خارج الفراش اكثر من عشرين مرة في الليلة يمكن ان نقول انها تحاول ان تقنع الطفل بالبقاء في الفراش دون جدوى . انني اريد ان اسأل هذه الأم « ماذا يحدث لو ان الطفل - لا قدر الله - اصيب بمرض في القلب او ارتجاج في المخ او كسر شديد في الساق واصدر الطبيب الأوامر بألا يغادر الطفل الفراش . هل ستنجح الأم في ان تجعل الطفل يستقر في السرير ام انها لن تنجح ؟ » . من المؤكد ان الأم ستنجح في ذلك .

واحب هنا ان أنبه الأمهات الى أننا نبحث حالة الطفل الذي يصاب بقلق الافتراق الخفيف لا العنيف والذي يمثل دور التكاسل والتباطؤ عن الذهاب الى سريره او الذي يتسلل من الفراش الى خارج حجرته .

وبعض الأمهات تصل الواحدة منهن الى اليأس الكامل من امكانية اقناع الطفل بالنوم والاستقرار في السرير وتسأل الواحدة منهن هل من الصحيح ان الأم عندما تغلق على الابن بالمفتاح يهدأ وينام ؟ . انني اقول ان ذلك ليس من الصواب . لأنه يعطي الطفل احساساً حقيقياً بالوحدة ويمكن ان يجعله يرتعد خوفاً من الأماكن المغلقة . وقد اقترحت في بعض الأحيان على بعض الأمهات ان يضعن شبكة على السرير من النوع المستعمل في مرمى كرة القدم وهذا لا يتيح للطفل فرصة التسلل من الفراش . ان فكرة الشبكة تعطي الطفل البهجة والدهشة وقد يفرح بها لكنه في بعض الأحيان قد يستبد به الخوف منها .

ان بعض الأمهات يسألن عن استمرار الطفل في النوم في سرير الأطفال وعن مدى امكانية ان تنقله الى سرير الكبار اذا كان في عامه الثاني او منتصف عامه الثالث وخصوصاً اذا كان هناك طفل صغير سيدق باب الحياة . إنني اقول ان الطفل الجديد القادم يمكننا ان نشتري له سرير اطفال جديداً حتى لا يشعر الطفل ان هناك من يغتصب سريره او يحس بأن هناك فرصة للهرب من النوم لأن سرير الكبار يمكن النزول منه بسهولة .

سؤال اخر هام للغاية تردده بعض الأمهات : « هل نسمح للطفل ان ينام معنا في السرير نفسه ، عندما يقوم في منتصف الليل ؟ » ان هذا امر سهل بالنسبة لكثير من الأمهات ، لكن هذا تصرف خاطىء له نتائج غير محمودة .

مشاكل التوتر والقلق عند الطفل من العام الثالث الى العام السادس
خوف الأطفال . . ما معناه ؟

ان العقل الباطن للطفل يشهد اهم تطورات انفعال الأطفال .

من المؤكد ان قلب الأم ينخلع ويهلع عندما ترى ابنها خائفاً لأول مرة . ان خوف الطفل يجعل الأم ترغب في حمايته . ولكن بعض الأمهات لا يعرفن كيف يحللن خوف أطفالهن وكيف يفهمن اسباب الخوف .

تعرف الأم بطبيعتها ان طفلها كائن ضعيف ويجب حمايته . وكثيراً ما رأيت الانزعاج واضحاً على الأمهات من اجل الأبناء .

ولأقدم لكم بعض كلمات الامهات على شاكلة ثمانية نماذج لشكاواهن بخصوص الأبناء الذين يتراوح عمر الواحد منهم بين العام الثالث والعام السادس .

تقول الأم لي بارتباك : « ابنتي تصرخ رعباً من رؤية أي كلب . إنني ارغب ان اعلمها الاعتماد على النفس وان اعطيها الفرصة لتلعب خارج المنزل . لكنها ترفض. لماذا ؟ » . لأنها تخشى ان تقابل اي كلب . ولأنها فور ان ترى الكلب تصاب برعب عظيم وتتجمد عضلاتها وتتسارع دقات قلبها بصورة ملحوظة . يحدث كل ذلك رغم انها لم يعضها من قبل أي كلب .

ام اخرى تقول لي : « ألم تفكر في دراسة الاحلام المزعجة التي تزور الأطفال اثناء النوم ، خصوصاً قبل العام السادس . ان لي طفلاً عمره اربعة اعوام تقريباً ، يقوم فزعاً اثناء الليل وهو يشكو من الكوابيس » .

وتصرخ ام ثالثة بالملل والضجر والخوف على ابنتها . ان ابنتها لا تنام في ميعاد ثابت . تدخل الطفلة الفراش وتعلو نداءاتها بأنها لا تعرف كيف تنام . تطلب مني او من أبيها ان يضيء نور الحجرة او ان ينام احدنا بجانبها . وعندما ينام احدنا بجانبها فهي تغرق في النوم ولكن عندما نتسلل عائدين الى غرفتنا نجدها قد استيقظت . واذا اغلقنا حجرة النوم علينا ، تطالبنا بأن نفتحها وتظل تنادي علينا . وهكذا يضيع الليل كل مساء في محاولة اقناع الطفلة بأن تنام بمفردها .

ام رابعة تقف حائرة امام تفكير احد ابنائها . انه يفكر دائماً في الأشياء المكسورة بمنزلنا . انه يعرف مثلاً ان والده كسر آلة الحلاقة . . والأم كسرت بعض الأطباق . . والأخت كسرت قلمها الحبر . وهو كسر زجاج باب غرفته . وهذا الطفل يعرف كل مكان فيه شيء مكسور . وكثيراً ما يسأل لماذا تنكسر الأشياء؟ وتحاول الأم ان تشرح له بلا طائل . وهو دائماً قلق جداً بخصوص الأشياء المكسورة .

وتقول ام خامسة ان طفلها يفزع تماماً من الظلام ومن النار ومن محذرات الحرائق التي يبثها اعلان التليفزيون . وهذا الفزع يدفع الابن الى الهرب من اي مكان مظلم او اي مكان تذكر فيه سيرة الحرائق . كما ان يده كثيراً ما تستقر على عضوه التناسلي في محاولة غير واعية للحصول على اللذة .

ام سادسة تقول لي : اريد ان اعرف كيف يمكن ان نمنع الأطفال من اللعب الذي يؤدي الى الجنس . لعبة عروسة وعريس . لعبة تعرية كل بنت لنفسها وتعرية كل ولد لنفسه . انني اريد ان اعرف الوسيلة التي اقنع بها اطفالي بأن الجنس هو مسألة تخص الناضجين فقط .

ام سابعة تقول لي : لقد مرت بي تجربة هي غاية في الاحراج . احمر وجهي تماماً عندما جلست طفلتي على ساقي صديق لوالدها اسمه « ارنولد » وامتدت يدها لتمسك العضو التناسلي لصديق والدها وهي تصرخ مندهشة وضاحكة . « ان ارنولد له قضيب » . وكان الأمر مضحكاً للكبار ومحرجاً لي ولوالدها .

وتشكو ام ثامنة من تحدي طفلتها لها وعنادها الشديد . تقف الطفلة امام الأم

وتحملق فيها وتقول : « انا لن انفذ اي اوامر لك » . وتعاني الأم من الاحساس بأنها فشلت في تربية ابنتها بينها نجح الأب في علاقته مع هذه الابنة . ان الطفلة الصغيرة تتحمس دائماً لوالدها وترى انه رجل كامل لا يمكن ان يخطىء وتقول الابنة لوالدها ليتك كنت امي ايضاً . انني احبك واحب ان اساعدك في أي شيء . طبعاً الأب سعيد بذلك . . اما انا فإنني تعبسة تماماً . ومن المؤكد انني لا املك كل المعلومات عن ظروف حياة كل طفل من هؤلاء داخل اسرته . ولكن هذه المشاكل تتيح لي ان اقارنها بحالات اخرى تمت دراستها بدقة وعمق في العيادات النفسية الخاصة بالأطفال . لقد وضح بشكل كامل الوضوح ان هذه المشاكل ترتبط بالنمو الانفعالي الذي يبلغ درجة عالية من التعقيد في هذه المرحلة من العمر من العام الثالث الى العام السادس . ان الطفل عادة ما تمر به هذه المرحلة من النمو الانفعالي بدون مشاكل ، وبتوازن وانسجام وسط الأسرة الطبيعية . لكن بعض الأطفال يتعثرون في بعض الأحيان نتيجة لعوامل نفسية كما وضح في هذه الأمثلة التي قدمتها من قبل على ألسنة الامهات . وبطبيعة الحال نجد انه من الصعب ان نشرح دقائق مراحل النمو الانفعالي لأنها عملية غاية في التعقيد ، وايضاً ان اي تحليل دقيق لهذه المرحلة من العمر يبدو غريباً وغير مفهوم من الكبار الذين لم يدرسوا علم نفس الأطفال . خصوصاً وان هذه العمليات الانفعالية تدور في العقل الباطن للطفل

ان الطفل عندما يبلغ الثالثة يعطي عواطفه الجياشة للأم والأب . صحيح انه كان يحبهما قبل ذلك ولكن سر الحب قبل العام الثالث هو ان الطفل يعتمد اعتماداً كاملاً على الأب والأم . انه « مجبر » على حب الأبوين قبل العام الثالث حتى يضمن لنفسه الاحساس بالأمن والاطمئنان . لكن الطفل عندما يبلغ العام الثالث من عمره يشعر انه كيان خاص ، شخصية مستقلة الى حد ما . انه يعرف كيف يكتشف الميزات الطيبة في الآخرين وينسجم مع الكبار بلذة كاملة واخلاص تام . ويتقدم دائماً نحو مساعدة الأب والأم . ويحاول ان يقلد الاثنين .

كما ان الطفل عند العام الثالث يبدأ في التمييز بين الجنسين . يتأكد الطفل الفتى من نفسه ويضع والده امامه كمثل اعلى . وتصبح العلاقة بينه وبين والده علاقة اعجاب كامل . ويضع والده تحت الميكروسكوب الدقيق ويحاول ان يقلده

تماماً في طريقة كلامه وتصرفه وتعامله مع الحياة . وفي الوقت نفسه نجد ان الطفل الذكر يحب امه بصورة عاطفية ويشوب هذه العواطف نوع من الاحساس بأنه مشروع رجل وهي امرأة كاملة . وايضاً لأنه يتشبه بأبيه . ونعرف البنت في هذا العمر انها « مشروع امرأة » ولهذا فانها تتفحص شخصية الأم وتقلدها وتحاول ان تعامل دُماها كما تعامل الأم اطفالها . وتتجه بعواطفها نحو ابيها بمشاعر الابتهاج والاستمتاع لأنه رجل . انها تتقرب اليه دوماً وجل وعادة لا يستطيع الأب ان يقاوم « سحر » هذه الأنثى الصغيرة التي في طريق التكوين .

الزواج هو اهم علاقة بين الرجل والمرأة . هكذا ينظر الأطفال الى العلاقة بين الرجل والمرأة خصوصاً عندما يتراوح عمر الطفل بين ثلاث واربع سنوات . وتقبع وراء ذلك رغبة عارمة في ان يقلدوا آباءهم وامهاتهم . ولهذا نجد الحديث عن الزواج هو الموضوع المفضل لدى الأطفال في عمر الثالثة والرابعة . ويحبون ان يلعبوا العاب الفرح والزفاف . ويبدو هذا الأمر غاية في « الشذوذ » من جانب الكبار . ولكنه يبدو في نظر الأطفال وكأنه عين العقل . ان خيال الطفل يهيء له انه متزوج من انسان له اهمية كبيرة في حياته . يتخيل الطفل الصبي انه متزوج من امه . والطفلة تتخيل انها متزوجة من ابيها . وطبعاً لا يعرف الطفل في هذه المرحلة من العمر كل المعلومات عن طبيعة الزواج ، لا يعرف مثلاً ان زواج الابن من امه مسألة مستحيلة اجتماعياً ودينياً وحضارياً وكذلك زواج البنت من ابيها . ولهذا فإن الأم المتزنة هي التي لا تخجل عندما يتكلم معها ابنها الصغير عن رغبته في الزواج منها لأنها تعلم انه يذوب حباً فيها ببراءة وهذا هو الدافع الى هذا الحوار عن الرغبة في الزواج منها . ان كثيراً من الأمهات قلن لي ان الواحدة منهن تشرح لطفلها رحلة عمره وكيف سيكبر وكيف يمكنه ان يتزوج واحدة في سنه ذاته ومتناسبة وتبني معه حياته . . لكن الطفل غالباً ما يرفض هذا الحوار ويقول بلهجة حاسمة . . « انا لازم اتجوز ماما » . ان الطفل باصراره هذا على الزواج الخيالي من والدته هو بمثابة اتخاذ الاجراء المضمون لاستمرار الإحساس بالأمن . اما اي زواج غير ذلك فهو غير متصور وغير مقبول وتبدو فيه الأم كأنها متآمرة تريد ان تطرده من حنانها ـ ويبدو فيه كأنه مقامر غير وفي لمن نعطه الحب .

ويجب ان نعرف بأن مجال الاهتمام بالمسألة الجنسية والعاطفية عند الأطفال لا

يتوقف عند الأهل فقط . فالاحاسيس الجنسية على وجه الخصوص تعبر عن نفسها في شكل علاقات الطفل مع غيره من الأطفال. والأطفال عندما يكونون مختلين يبدأون في بعض الألعاب الجنسية ، مثل كشف كل واحد منهم عن عضوه التناسلي ، والمقارنة بين احجامها واشكالها . ويلعب احدهم دور الدكتور الذي يحاول معرفة كل التفاصيل عن هذه الأعضاء التناسلية . وهكذا نجد ان الطفل غالباً ما يحب ان يلعب بأعضائه التناسلية وقد يحاول الطفل احياناً ان يشد بين ساقيه بفوه فخذ احدى صديقات امه اثناء الحديث معها . . وقد يطلب الطفل على سبيل المزاح ان تلمس له امه عضوه التناسلي اثناء الاستحمام . ولكن هذه المظاهر الجنسية لا تطفو على السطح بشكل حاد عند الأطفال الذين نشأوا في أسر متكافئة وعالمة ومتعلمة . . بينما قد يظهر ذلك بشكل واضح عند المراهقين . ومن الأفضل ان نوجه النصيحة الحازمة للأبناء . . عندئذ سيحاول الأبناء الامتناع عن اللعب الجنسي ولكن اذا تمادى الطفل في هذا اللعب الجنسي ، فإن ذلك دليل اضطراب نفسي وقلق شديد . وكلنا نعرف ايضاً انه خلال هذه الفترة من العمر يحاول الطفل معرفة العملية التي جاءت به الى الدنيا . ويعلو صوت أحلامه في انه يريد ان ينجب اكبر عدد ممكن من الأطفال . وتكمن وراء هذا الحب للاستطلاع رغبة من جانب الطفل في ان يكون له ايضاً طفل يحيطه بالحنان والرعاية مثلما يحاول والداه معه . كما ان الطفل في هذه الفترة يبدو كثير الاسئلة كثير الرغبة في الحصول على المعلومات . انه يسأل عن سبب سقوط المطر ويسأل لماذا تأكل الطيور الديدان . ويسأل من اين يأتي الكلاب والحيوانات ، ويتساءل لماذا نشرب نحن لبن الابقار ولا نتركه لصغار الأبقار .

ولنحاول الآن اقتحام تلك المنطقة من تفكير الأطفال الخاصة بالاختلاف الجسدي بين الصبي والبنت. ان تفكير الأطفال في هذه المرحلة من النمو من العام الثالث الى العام السادس يواجه بسؤال لماذا تبدو البنت بلا قضيب ؟ لا بد انها كانت مثلي واصابها حادث ؟ لا بد ان هناك شيئاً ما قد حدث لها وجعلها تعيش هكذا بلا قضيب . ولا بد ان يخاف الطفل من ان يفقد هو قضيبه . ان هناك خوفاً بين الأولاد ان يحدث لهم مثلما حدث للبنات ، وهناك قلق عند البنت لأنها ترى انها ناقصة التكوين . يتجه هذا الاحساس بالنقص في النمو ناحية الأم . فالفتاة تلوم والدتها

بينها وبين نفسها . ونرى الفتاة لا تقبل بحماس على منافسة الصبي لأنه في نظرها يتمتع بوجود ميزة كبيرة وهي ان له قضيباً ، وبطبيعة الحال لا يستطيع احد الآباء او احدى الأمهات ان تفعل المستحيل لتمنع رؤية الطفل الولد لجسد اخته او قريبته . وهكذا نجد ان الحقائق تصل الى الأطفال . والحقائق التي تصل اليهم لا يمكنها ان تمنحهم الاطمئنان ، فالكبار يقولون هكذا خلقتنا الطبيعة . ولكن هذا القول المسلم به عند الكبار لا يجد تسليماً به عند الصغار . ان الطفل يؤمن ايماناً عميقاً بأن الله خلق الأطفال مثله في التكوين وان الافتراق في التكوين الجسدي بين الصبي والبنت لا بد وان يكون نتيجة حادثة ما . ولو سألنا لماذا يشعر الأطفال من الجنسين بالقلق بخصوص هذه المسألة ؟ ولماذا يصلون الى الاحساس بأنها مسائل خطيرة لا تبعث على الراحة ؟ . لو سألنا انفسنا هذه الأسئلة لوجدنا ان الاجابة البسيطة تقول ان الطفل الصغير يحب امتلاك كل شيء يراه . ان البنت الصغيرة حين ترى انها بلا قضيب فإنها تتمنى ان يكون لها قضيب. والصبي الصغير ايضاً الذي يعرف ان البنت هي التي من حقها ان تحمل وتلد فإنه يفكر في ضرورة ان يحمل هو طفلاً في بطنه وان يلده .

ان لي تحليلاً شخصياً يحتمل الصواب والخطأ . . لكني اقوله للأمهات . انني ارى ان الطبيعة تحاول ان تعلم الطفل ان هناك « خوفاً » من الحياة . لأن « الخوف » كاحساس لا بد وان يتكون لدى الطفل ليتعلم كيف يحافظ على نفسه . ان الخوف هو احد الدوافع الأساسية التي تجعل الانسان يتقدم . ولا بد لنا ان نعرف ايضاً ان الطفل يتمتع في هذه الفترة من العمر بقدرة تقليد الآخرين حتى في مشاعرهم . وهذا يدفعه ايضا الى ان يتعلم الخوف والحذر وضرورة الحصول على العلم ليصل الى النضج . ان كلاً منا يرى ان الطفل يصاب بالاكتئاب والحزن عندما يرى الموتى او المقابر . فالطفل يخشى الموت .

وبطبيعة الحال هناك ما يزيد قلق الطفل بخصوص عضوه التناسلي . انه تحذير الكبار للاطفال خوفاً من ان يدمنوا على ممارسة العادة السرية حتى في الكبر . وفي هذا العمر يحاول الآباء والأمهات تقليل التهديدات بالعقاب على العادة لسرية . لكن البعض الآخر لا يزال اسير خبرات طفولته لذلك يوجه الحديث الرقيق

في الظاهر والعنيف بقسوة بما يحمله من اخطار . ان الأب قد يقول لابنه بهدوء ان العادة السرية ذات اضرار جسيمة . . وان عضوه التناسلي قد يلتهب ويصاب بأمراض غاية في الخطورة. وهكذا نجد ان التهديد المغلف بكلمات رقيقة تحمل للاطفال الكثير من المتاعب . ان الطفل قد يتخيل ان عضوه التناسلي سيتلاشى ويندثر او ان الآباء قد يقولون ان الأب قد يقطع عضو ابنه جراحياً اذا لم يكف عن ممارسة العادة السرية .

وكنت اريد ان ننتقل الى نقطة اخرى تتعلق بقلق الأطفال على الأعضاء التناسلية لكن سأؤجل الحديث عنها للحظات حتى اتابع احداث النمو التي تمر على مشاعر الحب بين الطفل ووالديه . ان الحب يرتبط عادة بالامتلاك . فالرجل يحب المرأة ويطلب منها الاخلاص الى الأبد . والمرأة تحب الرجل وتطلب منه الوفاء الى الأبد . وتقفز الغيرة احياناً لتقول رأيها في أي محاولة لعدم وفاء احد الجنسين بمتطلبات الآخر . وهكذا نجد ان الطفل تمتلىء مشاعره بحب والدته ونجد ايضاً أن الأم من وجهة نظر الابن هي من ممتلكات الأب . ان « الوالد هو الذي يملأ حياة الأم عاطفياً . وينام الاثنان ، الأب والأم ، في حجرة واحدة » . وهكذا يجد الطفل نفسه امام لغز لا يفهمه . انه عشيق من الدرجة الثانية . وهذا يولد احساساً لدى الطفل بالألم والأسف . ويحس ايضاً ان والده اقوى منه وهو العاشق الأول وهو الأنيق القوي الكبير صاحب العضو التناسلي الأكبر . ولقد قال لي بعض الآباء ان الواحد منهم عندما يخلع ملابسه امام ابنه الذي في الرابعة او الخامسة قد يهجم الابن على العضو التناسلي للأب بحركة تميل الى المزل لكنها عنيفة . وتحليلي الخاص هو ان الطفل يرى ان عضو والده التناسلي اكبر واشد قوة . ولهذا يحاول الطفل ايذاء مصدر القوة . وقد يتخيل الطفل ايضاً ان والده يريد الانتقام منه . ويتصور الطفل في حدود خياله ان مجرد وجود نية سيئة في اعماقه فإنها تحدث بالفعل . ويتصور ان والديه يعرفان عنه كل خفاياه وافكاره . ويعتقد انه ما دام يفكر تفكيراً سيئاً في انسان ما ، فلا بد ان هذا الانسان يفكر فيه على السواء . وهكذا نجد ان خيال الطفل يصور له انه ما دام يتمنى ان يختفي الأب من معركة الحب مع امه ، فلا بد ان الأب يتمنى ان يختفي الابن من معركة الحب مع الأم . ولذلك نجد ان الطفل يخاف على عضوه التناسلي من انتقام الأب . ومن الغريب ان الابن يشغل نفسه احياناً كثيرة .

باللعب بعضوه التناسلي دون ان يعي ما يفعل . ولكن الحقيقة هي انه يرغب في الاطمئنان بأن عضوه التناسلي بخير وانه قادر على حمايته . وهكذا نجد ان الآباء عندما يشاهدون هذه اللعبة ينزعجون . لأن ذلك يعني « عيباً اخلاقياً » . ويتمادى الأب في تحذير الابن او تعنيفه . وهنا نجد ان المسألة تصبح معقدة .

وتمر بالبنت ايضاً تيارات القلق والاضطراب ويظهر ذلك في انها تلعب بيدها في عضوها التناسلي . انها تعاني من احساس التنافس مع الأم . وهي تعرف ان الأب هو من ممتلكات الأم وان الأم انجبت اكثر من طفل من هذا الأب . وتحلم البنت وتتمنى ان تكون مكان الأم . وكثيراً ما تسمع الأم من طفلتها رغبة ماكرة ساذجة . . ترجو فيها الصغيرة والدتها ان تسافر بعيداً وان تسند اليها مهمة رعاية شؤون الأب . وتتخيل الفتاة ان الأم اكتشفت الغرض من هذه الكلمات وحرب التنافس سوف تشتد بينهما على الفارس وهو الأب . لا تنسى البنت ايضاً ان الأم (والدتها) بدون قضيب . وتعتقد ان الأم هي التي سرقت هذا القضيب كعقاب لها . لأنها تريد ان تنافسها في عشق الأب .

وقد يتعجل البعض بالاتهام السريع بأن هذه المشاعر كلها مشاعر مريضة ولا يمكن ان تمر في اعماق هؤلاء الأطفال الابرياء . وانا اقول لا . انها موجودة كمشاعر طبيعية عند كل طفل ولكنها لا تظهر في الغالب عند الأطفال الذين يعيشون في اسر متماسكة . ولا يجب ان ننسى ان الطفل في الوقت الذي تشتعل في نفسه الغيرة من ابيه فإنه ايضاً يمتلىء باحساس التقدير العميق للأب كمثل اعلى بالاضافة الى احساسه بالحب نتيجة حياته داخل اسرة كل فرد فيها يسعد الآخر . وهكذا نجد ان هناك مشاعر طيبة تخفي الاضطراب العدائي عند الطفل .

وفي الحالات التي يعاني فيها الطفل من اضطرابات فإن المعالج النفسي يحاول ان يكشف مصدر القلق وسبب الاضطراب في شخصية الطفل ، ولهذا فهو يتركه فريسة الحرب الكامنة لاظهار كل الاحاسيس المخزونة داخله دون ان «يحاكمها» ، وبذلك تظهر هذه الأحاسيس . وقد تظهر هذه المشاعر المخزونة في الصور التي يرسمها الطفل او التمثيلية التي يقوم بتأليفها . وقد رأيت بعض الأطفال يختلقون حكايات يقتل فيها الابن أباه ، او يضعه في السجن وبعد ذلك يخرج الآباء من

القبور او السجون لينتقموا من الأبناء . او يتخيل الطفل ان هناك سيفاً قد قطع عضوه التناسلي او تحلم البنت بأن امها سافرت في سيارة انقلبت بها فماتت . وتقوم البنت برعاية ابيها بعد موت الأم ، لكنها تفاجأ بأن الأم لم تمت بل هي تعود الى الحياة لتعاقب البنت على نواياهاالسيئة .وتخفف احلام الأطفال من مشاعر العداء والتنافس المكبوتة تحت سطح الوعي، واقصد بالأحلام التي تشاهد في اليقظة، أو اثناء النوم . انني اعتبر ان الكوابيس التي يشكو منها الأطفال في المرحلة الممتدة من الثالثة الى السادسة من العمر تكمن وراءها هذه الأحاسيس المضطربة في اعماقهم ناحية الآباء والأمهات . فالطفل الذكر يخاف بهلع على عضوه التناسلي ولذلك يظهر الاهتمام بالأشياء المكسورة في المنزل . او يلمس عضوه التناسلي بشكل دائم او يخاف من التشويه . واحساس الفتاة بالعداء نحو امها وخوفها من العقاب قد يظهر في شكل احلام وكوابيس عن ساحرات يملكن القدرة على الانتقام . او يأخذ شكل الخوف الهستيري من الكلاب . وخوف الطفل من حيوان مفترس هو خوف مستتر من الأب .

ان خوف الأطفال الوهمي ليس له اسلوب واحد يظهر به وليس له في الغالب اسباب منطقية . فأعماق الطفل تضطرب بشدة في هذه الفترة من العمر ولذلك فلا بد ان نقبلها على أساس انها ظواهر مرضية ولكنها من متاعب النمو .

عندما بادر فرويد الى معالجة بعض الكبار من ذوي الخوف الوهمي حاول ان يتبع اسلوب التحليل النفسي وان يعود الى مراحل الطفولة المبكرة ليجد في احساساتها المضطربة منفذاً للعلاج . . لأن المشاعر المتضاربة في هذه الفترة يمكن ان توفر منفذاً للعلاج . هنا يختلط الحب بالكراهية والتنافس بالشعور بالذنب والخوف من الخصي . هذا ما سماه فرويد بعقدة اوديب . ذلك الملك الذي عاش في الاسطورة الاغريقيةالذي لم يتعرف على ابيه وامه وتنبأ له العراف بأنه سيقتل اباه ويتزوج امه . وكبر الطفل وعاد الى مملكته فخاض معركة مع ابيه الذي لا يعرفه فقتله وتزوج امه على اساس انها حبيبته . . ثم يكتشف الحقيقة فيفقأ عينيه . ولا يتصور بعضنا ان هذه العقدة تصيب الجميع بل انها موجودة في كل انسان . بعضنا يتوهم انها تصيب المرضى بالتوتر العصبي فقط . ولكن الحقيقة عند فرويد تقول ان

لهذه العقدة دوراً اساسياً في رحلة تطور الانسان ونضجه .

اما عن رأيي الشخصي فإنني اقول انها مرحلة تمر بالانسان في طريقه الى النضج . واذا كانت هناك بعض المصاعب المؤلمة فيها ، فهي ليست سوى المتاعب التقليدية والأساسية التي تصادفها في طريق النضج ، ومعرفة كيفية التعامل مع الحياة . انها كالحادثة التي تعلمنا التريث ودراسة الموقف قبل اتخاذ قرار . او كاحساس الغيرة بين الاشقاء والذي يصبح بعد فترة معينة مزيد من الحب والترابط والفهم لمشاعر الآخرين . وهنا يظهر لنا ان تجربة الحب التي يمر بها كل منا نحو احد والديه تمنحه الاساس العاطفي للتعامل في النضج والكبر وتساعده على وضع اسس الحياة الزوجية الناجحة ، وتمدّه بالفهم لدوره كأب او تمنح الفتاة فهماً أساسياً لدورها كأم . كما ان احاسيس التنافس المؤلمة بين الابن ووالده او بين البنت ووالدتها تمنح الابن او البنت القدرة على اتقان التنافس في الكبر وتجعلهما يتمتعان بممارسة دورهما للوصول الى النجاح .

الاحلام المزعجة والاهتمام بالجنس

تقع على عاتق الأسرة مسؤولية العناية بالطفل الى حد يخفف عنه الكثير من القلق ، لأن القلق عندما يزيد عن الحد المعقول يسبب الكثير من المتاعب للطفل وللاسرة .

عندما يصحو الطفل من النوم فزعاً قلقاً باكياً مولولاً ماذا تفعل الأم ؟

انها تحتار . .

وعندما يقوم الطفل في منتصف الليل ليقول « كابوس » او ليردد بضع كلمات مرتجفة ماذا تفعل الأم : ان القلق يزداد عند الأم ويزداد توترها . .

فقد يجري الطفل من فراشه ليقتحم حجرة والديه ويقول لقد رأيت في المنام فيلا ضخماً له انياب وقد لف خرطومه حولي ويريد ان يبتلعني . أو رأيت رجلاً بعين واحدة وساق واحدة وذراعين يشتعلان بالنيران .

من المؤكد ان الخوف ينتقل الى الأم ايضاً .

ان الأطفال في مرحلة العمر الممتده من الثالثة الى السادسة يرون بعض المشكلات المتعلقة بالنوم . ويسأل الآباء والأمهات عادة ماذا نفعل مع الأبناء .

الابن يخاف من الظلام .

الابن يخاف من الحيوانات .

الابن يخاف من المشوهين .

ترى هل يمكن ان تكون النصيحة الوحيدة التي تقال لأمثال هؤلاء الآباء

والأمهات : « يجب عرض الأمر على الاخصائي النفسي ؟ » .

ليس أسهل من ان نقول ذلك . . ولكن يجب ألا نستسلم بسرعة او نجري خلف الطبيب النفسي . بل يجب ان نوجه لأنفسنا ثلاثة اسئلة محددة ونجيب عنها بمنتهى الدقة قبل ان نفكر في عرض الأمر على الطبيب النفسي .

السؤال الأول : هو أعراض الخوف عند الطفل تفوق ا الحد المعقول ؟

السؤال الثاني : هل يستمر هذا الخوف لفترات طويلة ؟

السؤال الثالث : ما هي الظروف المحيطة بالطفل وكيف يتصرف طوال النهار . . ؟

والاجابة الصريحة الحاسمة والمحددة هي التي يمكن ان تقودنا الى الطبيب النفسي او العكس . اقول ذلك لأن اعداداً كبيرة من الأطفال يمرون بمثل هذه المخاوف وهذه الأحلام المزعجة . وهي تستمر لفترة تتراوح بين الأسابيع والشهور ثم تختفي بالتدريج . واذا كان الجو العائلي طبيعياً والعلاقة بين الأب والأم والابن مستقرة وهادئة ، ونسبة تعلق الطفل بالوالدين طبيعية ليس فيها شذوذ لدرجة التعلق الشديد ، واذا كان الطفل مطيعاً غير عنيد ويعرف الطريق الى اقامة الصداقة مع غيره من الأطفال ويستطيع ان يحتفظ بكرامته وشخصيته مع هؤلاء الأصدقاء ـ اذا كان هذا هو حال الطفل ، فأنا اؤمن بأنه ليس هناك ما يدعو الى القلق . او ليس هناك ما يستدعي ان تطرق باب الطبيب النفسي . ولكن اذا كانت الاحلام المزعجة والكوابيس هي المرض الدائم عند الطفل وهي التي تؤرق المنزل كله كل ليلة طوال شهور ، فلا بد من الذهاب الى الطبيب النفسي . واذا كان الطفل يفرط في الاعتماد على الأب والأم او يفرط في العناد الذي يأخذ صفة التحدي ، او اذا استمر يلعب في اعضائه التناسلية معظم الوقت ، مع ملاحظة ان الطفل العادي يداعب عضوه التناسلي عندما يرغب في التبول ، اقول ذلك حتى نستطيع التفرقة بين الطفل الذي يدمن العبث بعضوه التناسلي وبين الذي يريد ان يقضي حاجته . ويمكننا ايضاً ان نذهب الى الطبيب النفسي اذا وجدنا ان الطفل يتمادى في تعرية نفسه او تعرية الآخرين . ويجب ايضاً ان نلجأ الى الطبيب النفسي اذا كان الطفل ذكراً ويحب ان يتصرف كفتاة ، او اذا كان

الطفل انثى وتحب ان تتصرف كذكر . اذا استمرت كل هذه الأسباب بصورة كبيرة وبشكل جاد علينا ان نلجأ الى الطبيب النفسي لإيجاد الحلول المناسبة لهذه المشاكل . وسأوضح هنا ايضاً للأمهات والآباء كيف يمكن التعامل مع الطفل بخصوص هذه المسائل حتى لا تزيد الأمور عن حدها الطبيعي .

قد يتولى الأم الكثير من الخجل والغضب والتوتر عندما ترى ابنها يعبث بعضوه التناسلي . ولكن على الأم ان تعرف بأن الطفل يتصرف بشكل طبيعي محاولاً اكتشاف نفسه . واذا تكرر ذلك مرة او اثنتين او ثلاثاً فهذا امر طبيعي . . اما ان يستمر الطفل في مداعبة عضوه التناسلي طول الوقت ، فهذا يعني ان الطفل يعاني من حالة توتر شديدة . وعندما يتصرف الطفل طبيعياً ويعبث بعضوه التناسلي لا يمكنه ان يفكر ان هناك من سيقول له « عيب » او « حرام » . . وقد يقول الطفل لأحد والديه انه يحس اللذة كلما لمس عضوه التناسلي وقد يسأل عن سبب هذه اللذة واحياناً تكون اجابة الأب والأم قاسية الى الدرجة التي يحاول فيها الطفل ان يختفي بعيداً دون ان يراه احد ويظل يداعب عضوه التناسلي . يمكن للأب المتزن والأم العاقلة مواجهة هذا السؤال بنوع من الرد اللطيف : بأن هذا التصرف امام الناس غير لائق تماماً كما لو بال الطفل على نفسه . ولكن معظم الآباء والأمهات في هذا العصر . . رغم كل دعاوى الحرية والتقدم والتربية الحديثة يقابلون هذا الفعل من الأبناء على انه كبرى الجرائم . رغم ان كل واحد منهم يعرف الحقيقة الواضحة وهي ان مثل هذا العبث البسيط ليست له اية اضرار على جسد الطفل حتى لو انكر الأمر او علل سلوكه الاجتماعي او برره . ويعرفون ان مجرد الاقناع المهذب للابن كفيل بأن يحسم المسألة . . لكن رغم كل ذلك نجد بعض الآباء والأمهات يتصرفون وكأن القيامة قد قامت وان الابن ارتكب افظع الفواحش . فالسلوك المتزن هو ان نقول للابن بأنه لا داعي ـ بوصفه انساناً محترماً وله كرامة ـ ان يتصرف بطريقة غير لائقة .

تقع بعض الأمهات في حيرة بالغة ، ويهددن الطفل بالويل والثبور عندما يضبطنه يلعب لعبة الدكتور الذي يكشف على فتاة من بنات الجيران ، او عندما تضبط الأم ابنتها تقلد ما تراه في التليفزيون وتقبل ابن الجيران قبلة حارة او تتبادل

مع ابن الجيران اكتشاف كل منهما لأعضائه التناسلية . رغم ان التوجيه البسيط يمكن ان يكون فعالاً وحاسماً . . لكن الآباء الذين نشأوا نشأة متزمتة يصابون بالانزعاج المطلق لمجرد رؤية الابن او البنت في حالة عبث بالعضو التناسلي وينقل هذا الانزعاج الى الأبناء لأن كل ابن ـ كما رأينا ـ يملك جهاز رادار حساساً يلتقط به ما في اعماق الأب والأم من قلق . وانا ارى ان الأب يمكن ان يوجه الابن بحسم وبهدوء وان يحاول، بالاشتراك مع الابن، ان يخلقا هواية او لعبة اخرى . واعتقد ان الأب الحاسم والحازم والصديق لابنه سيجد استجابة سريعة من جانب الابن . ولكن من المهم جداً ألا نهدد الطفل بأن هذا الفعل سيسبب له اعظم الأضرار ، وقد يسبب للفتاة في الكبر الرود الجنسي ، كما قد يسبب للشاب في النضج خوفاً من عدم اقامة حياة جنسية سليمة .

ان من حق الآباء والأمهات ان يعترضوا على مداعبة الطفل لعضوه التناسلي ، ومن حقهم ان يختاروا الطريق الذي يمنعونه به من ممارسة هذه اللعبة . . كأن يقول الأب لابنه « أنا شخصياً أفضل ان لا تفعل ذلك . لأنه سلوك رديء لا يثير احترام الآخرين لك » . ومن الأفضل طبعاً ان يقول له : « إنني اثق تماماً في انك ستبذل كل طاقتك في عدم تكرار هذا الفعل الذي يقلل من احترامي لك ، ومن احترام الآخرين لك » .

ان قلق الأبوين على الطفل قد يسبب للطفل عدم فهم المعنى هذا القلق . ان اللعب بالعضو التناسلي يحول الآباء الى وحوش كبيرة تهجم على الطفل وكأنها في قتال معه . وهكذا يجد الطفل نفسه محاطاً بالخوف لئلا يطرده والداه من مملكة محبتهم ، وكي لا يحرماه من الحنان . . كما نلاحظ ان الطفل محاصر في الاحساس بالذنب والاحساس بأنه مطرود من الجنة المقدسة لديه وهي حنان الأم والأب .

انني اميل الى ان يكون الحديث مع الطفل عن هذه المسألة هادئاً وحاسماً ومقنعاً ، وان نتجنب العنف فيه او التهديد بأن هناك اصابة او مكروهاً ستحدث للطفل . لأن الابن سيكبر وسيجد نفسه اثناء المراهقة يمارس العادة السرية على فترات قد تكون متقاربة وقد تكون بعيدة . . وهذا سيخلق عند الطفل حالة من

الخوف والهلع والرعب واحتقار النفس .

وانا انصح الآباء والأمهات دائماً ان تكون عملية الختان للذكور في الأسابيع الأولى من الولادة لأنها عندما تجري في الفترة ما بين الثالثة والسادسة من العمر تؤثر على تفكير الطفل وعلى خوفه من الخصي . ولا انصح بطبيعة الحال باجراء أي عملية ختان للبنات لأن ذلك عملية وحشية يحرم الفتاة من حقها الطبيعي في الاستمتاع ويحرم زوجها في المستقبل من لذة التواصل الجسدي الناجح معها .

نعود مرة اخرى الى اسئلة الأطفال عن الجنس في هذه المرحلة من العمر . انني اطلب من الآبا والأمهات ان يضعوا انفسهم في موقف الطفل . الطفل لن يستطيع ادراك كل حقيقة علمية يمكن ان تقال له في هذا العمر . ان ابن الثالثة لن يفهم ان الله خلقه ذكراً وانه سيظل كذلك ولن تفهم ابنة الثالثة ذلك ايضاً . فالفكرة الثابتة عند الولد والبنت هي انه لا يوجد اي فرق بين الولد والبنت . لذلك يخاف الولد على قضيبه من الفقدان وتحزن الفتاة لأنها لا تملك القضيب . وهكذا فنحن سنقابل القلق بشكل او بآخر في اعماق الابن او البنت لكن من المهم ألا يستشري هذا القلق الى حد مزعج بل من المهم ان يبقى مجرد قلق طبيعي . والكبار لا يفهمون ان كل المسائل عند الأطفال بسيطة وحاسمة . بمعنى ان الكبار لا يفهمون ان خيال الطفل يسمح له بأن يتصور انه من السهل جداً له ان يفقد قضيبه . ولا يفهم الكبار ان خيال الطفلة يسمح لها بأن تتصور سؤالاً موجهاً الى السماء : لماذا انا وحدي التي لا قضيب لها . اذا فهمنا نحن الكبار الحدود المتسعة والطليقة لعالم اسئلة الأطفال فإننا سنجد انه من الطبيعي جداً ان يوجد هذا القلق عند الأطفال . ولكن الطفل لا يحبس متاعبه في صدره . انه يعلنها في اي مكان وزمان ، وطريقة اعلانه لها تأخذ شكل الأسئلة . فالسؤال ينفجر في سذاجة في وجه الأم عندما تكون وسط الناس . واقرب مكان تنفجر فيه هذه الأسئلة هو شاطىء البحر او حمام السباحة . . عندما نجد طفلة في الرابعة من العمر تفتح فمها صارخة سائلة امها وهي تشير الى طفل في عمرها بالذات عارياً تماماً . . « ما هذا » . . ويكون اصبع الفتاة يشير بشكل مباشر الى قضيب الطفل الولد . او ان يصرخ طفل في العمر نفسه عندما يرى فتاة في مثله عمره . .

« اين عضوها التناسلي » . . وهنا يحمر وجه الأم بخجلاً وتغرق، في القلق وتقول بينها وبين نفسها : هؤلاء الأولاد العفاريت . من اين اتوا بهذه الجرأة . وباختصار فإن تصرف الأم لا يعطي الطفل اجابة مقنعة . انها توحي اليه بالقلق وتجعله يعتقد ان الأم تملك من الأسرار المزعجة ما تخشى ان تبوح بها .

واكثر ما يزعج الأم هو ان يوجه الابن سؤاله عن العضو التناسلي وكيف انها بلا قضيب . يكون توجيه السؤال امام الصديقات . . صديقات الأم . وعادة ما تكون اجابة الأم هي القمع او الضرب او الاختفاء والهرب من الاجابة بأي وسيلة ويحدث ان تحمل الأم وتمر تسعة شهور، هي مدة الحمل، مليئة بأسئلة الطفل عن المولود القادم . وهل هو ولد ام بنت . . وعندما يولد المولود الجديد تجد عيون الطفل الأكبر تثبت على مكان العضو التناسلي للوليد ويحاول ان يسأل . .

وليست بيوت هذا العصر متسعة الى الحد الذي يمكن فيه اخفاء كل التفاصيل الجسدية عن الأطفال . فالطفل يحاول عادة ان يعرف الفروق، وعندما تسمح له الصدفة ان يرى والده او والدته وعريانين فهو يتساءل قبل ان يتبادل المعلومات التي يعرفها مع اصدقائه الذين في عمره ذاته . وهكذا يجد الكبار انفسهم محاصرين بكافة الوان الأسئلة المباشرة منها ،والمستترة وراء قناع . . والاسئلة التي لا ينطقها بلسانه وتنطقها عيونه . ونحاول نحن الكبار ان نجيب عن اسئلة الطفل بهدوء وان نشرح له طبيعة جسد الرجل وطبيعة جسد المرأة ومع هذا فالطفل لا يتخلص ولا يرتاح. وكلما كانت الأم هادئة وصريحة وذات لهجة مهذبة وهي تتحدث مع الطفل عن هذه الفروق فهي ستخلق لديه قدراً من الاطمئنان . كأن تقول له . . هذا هو قضيب الطفل . الذي يتبول منه وعندما تسأل البنت لماذا هي بلا قضيب فيجب ان نشرح لها بهدوء واطمئنان وان نعيد الشرح وان نكرر القول . . لأن اقتناع الطفلة لا يتم من مرة واحدة بل يأتي بالتكرار المستقر ذي النظرة الهادئة الموضوعية والمليئة بالحب .

ان الاسئلة تظل تختفي في اعماق الطفل وتظهر وتطلب الاجابة من جديد . وكلما تقدم العمر قليلاً فإن الاجابة تتضح له ويصبح اكثر قدرة على فهم

هذه الحقائق . وعلى الأم الخجول التي ترتعب خوفاً على اخلاق طفلها او طفلتها عندما يوجه لها احدهما هذا السؤال عن القضيب او العضو التناسلي للفتاة ، عليها ان تعرف ان القلق ينتقل منها الى الطفل وعليها ايضاً ان تعرف انه يمكنها ان تزيل القلق عندما يعيد الطفل سؤاله مرة اخرى . . يمكن للأم الخجول ان تلتقط انفاس الثقة بنفسها وبأخلاق طفلها وان تجيبه دون قلق او رعب . وقد تفاجأ بأن الطفل يصل الى عمر الرابعة او الخامسة ولا يوجه اي سؤال عن الاعضاء التناسلية . . ومن خلال خبرتي الشخصية اقول ان هذا النوع من الأطفال يملك الكثير من القلق حول هذا الأمر وقد لا يسأل امه او اباه خوفاً من العقاب . وهو عادة ما يخلط اسئلته بالسؤال عن الحيوانات . فيسأل كيف يمكن للكلب ان يتبول او كيف يمكن للجاموسة ان تنجب . او ان يسأل . . هل « قطعة الجبن التي نأكلها في الصباح ذكر ام انثى . ثم هناك سلوك الطفل نفسه الذي قد يعبر عن رغبة الطفل في معرفة الفرق بين الرجل والمرأة . . كالطفلة التي تحاول ان تتبول واقفة . كما ان هناك الطفلة التي تخلع الملابس عن دميتها وتفتح ما بين ساقيها لتعرف هل الدمية ذكر ام انثى . وهذه المحاولات يمكن ان تكون فرصة تفتح بها الأم الحوار مع الابن عن المسائل الجنسية والفروق بين الولد والبنت . تبقى نقطة اخيرة في هذه المسألة . . وهي سلوك الآباء والأمهات امام الأبناء ، هل يمكن ان يخلع الآباء والأمهات ملابسهم امام الطفل. تميزت العصور الماضية بمحافظتها على الاحتشام . ولكن الآباء والأمهات في هذه الأيام يخلعون ملابسهم ببساطة امام الاطفال . وقد يسمح الأب لابنه او ابنته بالدخول عليه اثناء استحمامه وكذلك الأم . ولكن الأطباء النفسيين يقولون ان الافراط في التبسّط يثير مشاعر الطفل او الطفلة . لأن العري المباشر يدفع الطفل الى الرغبة في امتلاك امه ويشعل احساسه بالمنافسة مع ابيه . والعري المباشر للأب يجعل الابن يحس بالعداء نحو والده لأنه اكبر واقوى . لذلك فالاطباء النفسيون يؤكدون على ضرورة الاحتشام دون مغالاة امام الاطفال . وهم يقولون ذلك كنتيجة لدراستهم للاطفال الذين مروا بمتاعب نفسية .

وفي النهاية احب ان اقول ان العلاقة بين الطفل ووالديه قوية وان التصرف

العادي مع الطفل دون احاطة اي امر بالاثارة او الشبهة يمكن ان يبعد عن الطفل كل انواع الاضطراب .

المغالاة وحدها هي التي تصنع الاضطراب .
المغالاة في الحشمة تجعل الطفل كثير الاسئلة .
والمغالاة في العري تجعل الطفل عرضة للمزيد من القلق .

مسؤولية الأب والأم . خلال هذه الفترة من العمر

على الآباء والأمهات ان يعاملوا الأطفال بتفهم كامل لطبيعة هذه المرحلة من العمر .

فالطفل من عمر الثالثة الى السادسة يملك الرغبة في الاستقلال ويملك الرغبة في منافسة الأب اذا كان ذكراً . وتملك الطفل الرغبة في منافسة الأم . ولهذا يعيش الطفل نوعاً من القلق بالنسبة للرغبة في الاستقلال والرغبة في المنافسة .

عندما نتحدث عن مسؤولية الآباء والأمهات في رعاية الابناء وتربيتهم في هذه الفترة من العمر ، أي من ٣ سنوات الى ٦ سنوات ، نجد ان بعض الآباء والأمهات قد أصابهم الارتباك . فالأم تظن ان هذه المرحلة هي غاية في الخطورة الى أن ينجو الطفل . ويظن الأب ان هذه المرحلة هي غاية في الأهمية بالنسبة للطفل . ويبدو الانزعاج واضحاً عند الآباء والأمهات . تتمنى كل ام ويتمنى كل اب ان يكون مثالياً في تربيته لاولاده . ويفاجأ بأننا نحن الاطباء نقول له ان الطفل يحتاج من عامه الثالث الى عامه السادس قدراً كبيراً من الاهتمام والعناية لأنها مرحلة مليئة بالتوتر النفسي المصاحب لنمو الطفل. واقول من البداية على كل الآباء والأمهات ان يعرفوا بأن كل ايام الأبناء هامة . وكل ايام الأبناء خطيرة . . وكلنا نتمنى لأبنائنا افضل ظروف التربية . ولذلك لا داعي للانزعاج . . انما يمكننا فقط ان « نفهم » شيئاً من اسرار التوتر النفسي الذي يمر بنفسية الطفل في عامه الثالث حتى عامه السادس . لأن الفهم يساعدنا على التعامل مع الطفل بروح واعية وهذا التوتر النفسي ضروري في حياة كل طفل لذلك نحن مهما حاولنا ، فلن نستطيع بضغطة زر منع هذا التوتر . . لأننا لو فعلنا ذلك فنحن انما نطلب ان تتوقف عملية النمو نفسها . . لذلك لا بد من التسليم بأن التوتر مصاحب للنمو . ولنتناول الآن اسرار هذا التوتر النفسي .

ان الطفل الذكر يزداد تعلقاً بالأم من عامه الثالث . فهو يدخل معها في قصة حب هي غاية في العاطفية . انه يريد ان يمتلكها وحده . كلما ازداد تعلقه بالأم كلما ازداد وعيه بالمشكلة التي تواجهه . ان هذا « الحب الشديد للأم »

يكشف للابن ان هناك منافساً قوياً . . الأب هو المنافس القوي والأفضل والأكبر . فالأب يملك الأم . هذه هي الحقيقة التي يكتشفها الابن . وفهم الطفل لهذه الحقيقة يصحبه الاحساس بالغيرة والكراهية . وفهم الطفل لهذا الحب يصحبه ايضاً احساس بأن الأب يعرف حقيقة مشاعر الطفل نحو الأم ويعرف ايضاً انه « يكرهه » ويتخيل الابن ان الأب يبادله الكراهية . وهنا يمتلىء الطفل بالخوف والرعب . فالطفل يعرف ان الاب اقوى منه والطفل يحس ايضاً بالاعجاب كما يعرف ايضاً ان وجود الأب ضروري لحياته . انه لا يستطيع ان يعيش بدونه وحتى نستطيع ان نفهم نحن الكبار هذه المسألة المعقدة علينا ان نتخيل حدوث قصة حب رهيبة بين أحد الموظفين وبين زوجة المدير . ويكون هذا المدير صديقاً عزيزاً للموظف . ان الموظف العاشق يعرف ان مديره انسان قوي قادر وذكي ومتفوق ، وفوق كل ذلك فإن المدير يحب زوجته وغيرته عليها فوق الحدود . والموظف الصغير يعرف ان مديره قادر على ان يغوص بعيونه الى اعماق من امامه ويفهم كل التفاصيل ويلتقط الأفكار ، والموظف الصغير العاشق لزوجة المدير لا يمكنه الاستقالة من عمله .

الموقف كما ترى غاية في الدقة وغاية في العنف ، ورغم ذلك فإن الموظف يستيقظ كل صباح ليذهب الى عمله . ويرى زوجة المدير ، والمدير يقرأ افكار الموظف . هذا هو الموقف الذي يعيشه الابن الصغير في عمر الثالثة او الرابعة . . عندما يمتلىء بعشق الأم ويريد ايضاً ان يحتفظ بالأب . وما ينطبق على عشق الولد لأمه يقابله عشق الفتاة لأبيها ولاحساس التنافس بينها وبين الأم . فالبنت تعجب بالأم وتحتفظ بها كمثل اعلى وتتمنى في الوقت نفسه ان تتنازل الأم عن مكانها في قلب الأب . ومن الخطأ طبعاً ان ننجرف في تيار التساهل مع الابن لمجرد ان نتخيل انه ينافسنا في حب الأم . ومن الخطأ طبعاً ان ننجرف في تيار التساهل مع البنت . ان بعض الآباء يتركون للابناء الحبل على الغارب . فما يطلبه الابن ينفذه الأب حتى لو كان دور العفريت في قصة علاء الدين والمصباح السحري . ان الابن يطلب والأب يستجيب وينفذ ويلعب دور العبد القوي القادر على تنفيذ طلبات السيد المطاع وهو الابن . . كل ذلك حتى يقاوم الأب احاسيس الابن

الداخلية بأن الأب سوف ينتقم منه لأنه يشاركه في حب الأم .

والأب الذي تعرض اثناء طفولته الى قسوة والده يريد ان يكون شخصية اكثر رقة ويحاول ان يتعامل مع ابنه على أساس من الصداقة المتسامحة بدلاً من القسوة البالغة التي كان يعامله بها والده . على هذا الأب ان يتذكر حقيقة هامة . . ان الابناء ليسوا في حاجة الى ان يتحول الأب الى خادم مطيع . انه في حاجة الى انسان قوي يعرف الحنان ويعرف الحزم ايضاً . لأن الطفل يصاب بالقلق البالغ خلال التدليل الشديد وخلال تنازل الأب عن سلطته وكذلك الفتاة التي تعاملها امها بنوع من الدلال الزائد عن الحد . انها تصاب بقلق عنيف اذ تشعر ان الأم تهرب من مسؤوليتها في التوجيه ، فالأبناء ينظرون الى الآباء على انهم اولئك الكبار الناضجون الذين يملكون الخبرة والمعرفة ، ومهمة الأب في نظر الابن انه قائد لسفينة الحياة . . والأب يحمي الابن من الخطأ . . فكل ابن يرى في أبيه المثل الأعلى وقوة الضبط الاجتماعي . فإذا تنازل الأب عن ذلك واكتفى بدور المدلل فقط الذي يمنح الحنان جزافاً كيفما اتفق فإن الانزعاج والتوتر يصيبان الابن اذ يجد حياته بلا قائد . وكذلك الفتاة . ان الابن يشعر بضرورة ان يكون الأب حازماً يعنفه عندما يخطىء ويشكره عندما يصيب . ولا يجب ان ننسى ان السبب الأساسي الذي يخلق بعض العداء عند الابن للأب هو احساس الابن بأن والده يكرهه . ومهما حاول الأب عن طريق الرضوخ للابن ان يجعل الابن ينسى هذه الأحاسيس فإن الابن لا ينساها . باختصار ان الابن يطلب من ابيه ان يكون قوياً قادراً على الثواب والعقاب ويتمتع بالاحترام الشديد .

وعندما يغالي الأب في «تمثيل» دور الصديق الخادم لابنه ، فإن الطفل يعرف في أعماق نفسه بأنه واقع في براثن الخداع . فالابن يتوقع ان يكون الأب حازماً يملك سلطان العقاب ، فلماذا يخفي حقيقته . وهكذا يشعر الابن بالشك في كل شيء . انه يشك في والده وفي تصرفاته الشخصية وينتظر اليوم الخطير . . ذلك اليوم الذي سيأتي لا محالة . وهو اليوم الذي يظهر فيه الأب كل جبروته وقسوته . يضخم الابن في داخله صورة الهول الذي سيلحق به في المستقبل من

هذا الأب « المخادع » الذي يظهر خلاف ما يبطن ، ويتصرف الابن مع الأب على انه في صحبة وحش كبير ينتظر فرصة الانقضاض عليه . ولنا ان نتخيل كيف يضخم الطفل في خياله صورة الأب الذي يظهر خلاف ما يبطن . وان الكبار انفسهم يمكنهم ان يتخيلوا ماذا يحدث لهم عندما يكون رئيسهم انساناً يظهر خلاف ما يبطن . فهذا يخلق الكثير من القلق ويوقع الانسان فريسة الظنون ، ولهذا فعلى الأب ان يتصرف مع الابن بقدر كبير من الثقة في النفس . يوجه له اللوم عندما يخطىء، ويمن عليه بالثناء عندما يصيب، ويعاقبه على حجم الخطأ. ولا بد لنا ان نعرف ان الطفل « يختبر » مدى صلابة الأب . لأنه بهذا الاختبار يحاول ان يطمئن الى انه في صحبة انسان حازم يملك المعرفة والفهم . وبذلك يعرف الابن انه يملك انساناً يمكنه ان يتعلم منه وانه مثل أعلى .

ولكن بعض الآباء يقولون لأنفسهم ضاحكين ساخرين « ما دام الابن يعشق امه فلنراع مشاعره ونترك له الفرصة للتعبير الكامل عن هذا العشق» . ولهذا يقلل الأب من تدليله لزوجته امام الابن ويعطي الابن الفرصة الأولى لأي حوار مع الأم محاولاً ألا يتدخل بينهما . . بل واكثر من ذلك لا يخرج مع الأم إلا بعد استئذان الطفل وهذا النوع من الآباء يرتكب خطأ جسيماً . ان هذا الصنف من الآباء يؤذي الطفل كثيراً لأنه يجعل الطفل يتخيل انه المالك الأول للأم . وبذلك تزداد غيرة الابن من ابيه . وهذا يخلق الكثير من المتاعب النفسية للابن .

ان على الأب ان يتصرف طبيعياً لأن الابن يتعلم منه كيف يثق بنفسه . وكيف يجد السعادة في الصداقة وكيف لا يخاف من المنافسة وكيف يعامل الجنس الآخر . ان على الأب ان يتصرف مع الأم طبيعياً وان يكون قوياً وقادراً على عقاب المخطىء من الأبناء ،وليس معنى قولنا : ان يتصرف الأب على طبيعته هو ان يتعمد مغازلة الأم امام الابن لاثارة غيرته ، انما معناه ان يحاول الأب ان يكون ودوداً مع زوجته باحترام أمام الأبناء .

وما ينطبق على علاقة الأب بالابن ينطبق ايضاً على علاقة البنت بالأم . فالبنت تشعر انها تنافس انسانة اقوى منها هي الأم.. وليس معنى ذلك ان تدلل

الأم ابنتها فوق الحد او ان تحاول عدم التعبير عن حبها للزوج . او ان تتحمل الأم وقاحة الأبنة . يجب على الأم ان تعرف كيف تكون حازمة مع الأبنة وان تثبت لها بالفعل انها امرأة قوية وانها تصلح كمثل أعلى لها . ان الأم التي تترك الابنة تتدلل وتستولي على الحنان كله من الأب انما تخلق منها فتاة مزعجة. وعلى البنت ان تعرف حدودها وذلك حتى لا تقع الفتاة اسيرة الاحساس بالذنب وارتباك المشاعر مما يسبب لها الفشل في حياتها الزوجية لأنها تشك في نفسها. وتعيش مستقبلها وهي عاجزة عن العثور على الرجل المناسب لها. لان اختيارها يظل محصوراً في الأب فقط . ينبغي على الأم ان تقوم بدورها كاملاً وألا تتخلى عن مكانها في قلب الزوج للابنة حتى لا تدمر نفسية الابنة . وحتى تنمو الفتاة وهي قادرة على ان تجد الرجل المناسب لها وان تكون جذابة تعلمت من امها أسرار الحنان والعطف بين الرجل والمرأة . ان الفتاة تحتاج ايضاً من والدها الى الاحساس بأنها مقبولة كطفلة وكفتاة كبيرة، ولكن بعض الآباء الذين لا ينجبون ذكوراً يختار الواحد منهم احدى بناته ليعاملها كرجل. ويحاول ان يجعل كل تصرفاتها على غرار تصرفات الرجال . والأب الذي يفعل ذلك يرتكب جريمة كاملة في حق ابنته . انه يقتل انوثتها واعتزازها بكونها امرأة ويخلق فيها التمرد الحاد على دور الزوجة .

تشهد العيادات النفسية صرخات مئات النساء اللاتي كان تدليل الآباء هو السبب في فساد حياتهن . فالأب المفرط في تدليل ابنته الذي يعاملها كامرأة ناضجة وهي طفلة ، والذي يعطيها من الوقت الكثير لتستمتع في طفولتها بالاستيلاء « الوهمي » على مكانة امها ـ هذا الأب انما يرتكب جريمة صامتة هي تدمير المستقبل العاطفي لابنته .

وتشهد العيادات النفسية ايضاً صرخات مئات الرجال الذين افسدتهم امهاتهم بالتدليل وباعتبار الطفل منهم « رجلها الممتاز والمفضل على ابيه». طبعاً هذا يحدث عندما تكثر الأم من تدليل الابن رغم ان مسؤولية الأم في الأساس ان تساعد الابن على ان ينمو وهو محب العمل . ان تسند له بعض اعمال المنزل وان يساعدها في عمل المنزل وان تربي فيه روح التعاون والشجاعة والكرامة ومساعدة

الغير . ولا يجب ان تحتضنه كثيراً او ان تدغدغ له اعضاءه الجنسية . ان عليها ان تبعده برفق لو ازداد هو تعلقاً بها واحتضاناً لها. ولا يجوز ان تظهر أمامه عارية كما لا يجوز ان تخلع ملابسها امامه حتى لا تثير ظنونه وحتى لا تفسد خياله في الكبر فيكون غير سويّ ولا يجب ان تسمح له بالنوم بجانبها لو سافر الأب . ان على الأم ان تعلم الابن انه رجل حتماً . ولكنه ليس رجلها البديل عن زوجها .

ان بعض الضيق قد يصيب الآباء والأمهات الذين يعرفون جيداً كيف يتعاملون مع ابنائهم وبناتهم والذين يتصرفون التصرف السليم دون معرفة لكل هذه العمليات اللاشعورية التي تدور في العقل الباطن للابناء .

لكن لا بد لنا من ان نذكر دائماً كل التفاصيل التي تصنع الحياة الرديئة للابن حتى يتجنبها الآباء والأمهات وحتى يستطيع كل اب وام ان يحققا لابنهما او ابنتهما المستقبل الأفضل .

وعلى أية حال ، ان تعلق الابناء بآبائهم وامهاتهم لا يستمر طويلاً . فالطبيعة نفسها تتولى دائماً دورها الرائع في تربية الأبناء . يبدأ الابن في ممارسة الاستقلال عن ابيه وامه عندما يخطو نحو العام السابع من حياته . وكل ما قدمته في هذا الفصل كان لمساعدة الآباء والأمهات ابناءهم على عبور هذه الفترة من العمر حتى يمكن لهم ان يستقبلوا الفترات التالية .

ان مهمة الآباء والأمهات أن يساعدوا الأبناء على النمو . وان يشرحوا لهم عملياً كيف يكون كل منهم شخصية مستقلة، تجيد التغلب على صعاب الغد . وان يكون كل ابن انساناً قادراً على اكتشاف مواهبه وقادراً على اغناء المجتمع الذي يعيش فيه .

بعد العام السادس يبدأ اهتمام الطفل بالمجتمع وبالعالم

من الشائع جداً ان تسمع من انسان موهوب ان السر في موهبته هو تأثير احد والديه عليه . . يبدأ الابن بالتقليد . ثم يعلن الاستقلال .

عندما ينتهي العام السادس ينتهي بالتدريج تقليد الطفل للكبار . ينتهي الطفل من قيادة دراجته على أساس أنها طائرة . وينتهي تعامله مع خرطوم المياه على انه خرطوم عربة المطافىء. وينتهي من البناء بالمكعبات وتنتهي العاب التمثيل التي كان يقلد فيها الأب . هذا بالنسبللصبيوهو ايضا ما يحدث بالنسبة للبنت . ينتهي تقليد الأم بالنسبة للابنة . وينتهي تقليدها لكلماتها وينتهي تقليدها لحركاتها . ان الولد والبنت بعد العام السادس يعيشان حياة التعليم ويقضيان معظم النهار في المدرسة . فالعلماء حددوا العام السادس كبداية للتعليم لأنهم يعرفون ان قدرات الطفل على التخيل المجرد تبدأ من هذا العمر . ان الطفل منذ العام السادس يبدأ في الاهتمام بما حوله . لقد كان من قبل يهتم بنفسه وبوالديه اما منذ العام السادس فهو يستطيع ان يعرف الارقام ويبلغ من الذكاء الدرجة التي يمكن عندها ان يستوعب الأشياء المعنوية . فالطفل قبل العام السادس محصور فيما يخصه . يعرف عدد ملابسه ويعرف الحروف التي تكوّن اسمه واسم أبيه وأمه . ولكن هذا لا يعني انه قادر على ان يعرف ما هو خارج نطاق اسرته . انه بعد العام السادس يستطيع ان يفهم الرموز ويتصور الخرائط وكيف تسير الآلة وكيف يزرع القمح او البصل وكيف نشأت الكرة الأرضية ولماذا هي كروية الشكل . وعندما نرى ساعات الطفل مليئة بالشغف الجديد والشوق

الى المعرفة نجده يبدأ في التقليل من تقليد الأب ويحاول على قدر الامكان ان يكون مثل اصدقائه الذين في مثل عمره . نجد الابن يتمرد على طريقة قص الشعر التي يقترحها الأب ويختار لنفسه اسلوباً مسايراً للأسلوب الذي يختاره الحلاق الذي يقص له شعره . يحاول ان يكون له ذوق خاص في اختيار ملابسه . فالابن قبل عمر السادسة يفرح بالملابس الجديدة التي يختارها له والداه ولكنه بعد العام السادس يريد ان يختار لنفسه ملابسه الخاصة. والأم التي تشتري ملابس على ذوقها لابنها الذي في الثامنة من العمر قد تتعرض للنقد الشديد . انني شخصياً لا انسى انني رحلت خارج البلاد واشتريت ملابس لابني الذي يبلغ العام السابع . اشتريتها وفق الأسلوب الذي كنت اتمناه لنفسي عندما كنت في مثل هذا. وعندما عدت الى بلدتي وفتحت حقيبتي وقدمت الملابس الجديدة لطفلي قال لي ان هذه الملابس لا تعجبه وهو لا يريدها. كان يريدها ان تكون شبيهة بملابس فلان ابن الجيران . شعرت حقيقة بالغيظ وشعرت كذلك انني في مأزق اسمه خيبة الأمل . كنت اريد ان اقدم السعادة لابني ولكنه يرفضها وتذكرت الحقيقة العلمية عن خصائص عمر الطفل بعد العام السادس . انه يؤمن ان هناك اختلافاً جوهرياً بين اسلوب الكبار في اختيار الاشياء وأسلوب الصغار . انه يريد ان يختار كل ما يخصه بأسلوبه الخاص . وتعجبت كثيراً عندما استمر ابني يرتدي ملابسه القديمة ، ويفضلها لمدة ايام على ملابسه الجديدة ، الى ان زاره احد اصدقائه وأبدى اعجابه بما اشتريته من ملابس . وهنا اعلن موافقته على الملابس الجديدة . . وتخلصت من خيبة الأمل قليلاً . وازداد فهمي لطبيعة هذه المرحلة من العمر . وأنا لا انسى ابداً هذا القول السائر الذي تقوله لي الأمهات دائماً عندما يخطو الطفل الى عامه السابع. ان الأم تأتي لي لتقول بصوت فيه الكثير من الاندهاش والخجل ما معناه ان الابن اصبح انساناً غريباً . انه يرفض ان يغسل وجهه في الصباح قبل الذهاب الى المدرسة . ولم يعد يعتني بأناقته كما كان يفعل من قبل : هي تقنعه بصعوبة ان ينفذ هذه الأمور الضرورية بالنسبة لأي انسان .

وتقول الأم في مزيد من الاسى ، ان الابن لا يكتفي برفض الاستحمام أو غسل الوجه فقط. . انما يحاول ان يظهر كل ما في وسعه من «سوء الأدب» اثناء تناول الطعام . يمضغ الطعام وهو يفتح فمه ويشرب الماء بصوت ويحاول ان يثير

أعصاب الجالسين بأحاديث غير لائقة . وتتعجب الأم في الغالب لأن الابن كان من قبل مطيعاً يحب ان يغسل وجهه في الصباح ويحب ان يكون مؤدباً على المائدة . وتضحك الأم وهي تتذكر كيفية الفرق بين اسلوب كلام الابن عندما بلغ سن السابعة وبين اسلوبه قبل ذلك . كان يقول في عامه الخامس كلمات لا يمكن ان يفهمها لكنها كلمات من النوع نفسه الذي يستعمله الأب . اما الآن فالابن ليس مؤدباً . انه يقول الكلمات التي يسمعها من اصدقائه ، تلك الكلمات التي يمكن ان توصف بأنها لهجة اولاد الشوارع وبعض هذه الكلمات يكون غير مفهوم . وقد يلفظ الابن بعض الشتائم التي يسمعها في الشارع . وعادة انا استقبل كلمات الامهات بنوع من الحياء والقي أمامهن الحقيقة البسيطة وهي ان الأبناء في عمر السابعة يحاولون اقناع الآباء أنهم وصلوا الى خارج حدود الأسرة . انهم الآن في المدرسة . انهم الآن في الشارع . انهم الآن يعيشون حياة المجتمع . انهم يحاولون اختيار سلطة الآباء والأمهات والى أي مدى يمكن للابن ان يخرج عن حدود اللياقة بشرط ألا يعاقب . وانا انصح الأمهات ان يتفهمن الأبناء وأن يعاقبوهن على الخروج عن قواعد اللياقة والأدب .

ونلاحظ الأسرة ايضاً ان الابن لم يعد يهوى لعبة تقليد الكبار من افراد الأسرة أو الأقارب ويتجه الى الألعاب الاجتماعية . . مثل لعبة العساكر واللصوص . ومثل لعبة التغمية . . . ومثل اللعب بالكرة والسباحة ونط الحبل .

ويلاحظ الآباء والأمهات بمزيد من الأسى ان اخلاق الابن تميل الى الفساد . انه دائماً يسبب التوتر ويخرج من البيت دون ان يغلق الباب وعندما يدق جرس الباب فهو يرفض ان يفتحه ويتباطأ في تنفيذ طلبات الأسرة . ولا يعلق ملابسه عندما يعود من المدرسة ، ولا يمسح حذاءه وقد يضع اصبعه في انفه وقد يحك رأسه اثناء الطعام ويداه متسختان. وقد يقاوم غسيل يديه قبل الأكل أو بعده . ويتكلم بصوت عال، ويلاحظ انه يتصرف بروح من العناد . وعندما يبدأ احد الوالدين معاقبته على خطأ ارتكبه يتمادى في تصوير انه مظلوم ويعلن بالصوت العالي انه يعيش مضطهداً في هذا المنزل . يفعل كل ذلك وهو يعرف انه

مخطىء ولكنه يحاول دائماً ان يتحدى وان يفعل ما يغيظ الأهل ليعلن انه كائن موجود مستقل له ارادة غير ارادة الكبار . وعندما يشعر الابن ان والديه يعارضان هذا الأسلوب من العناد والخروج عن القواعد ، ويشعر انه لا مفر من الرضوخ لآرائهم فإنه يقاوم حتى اللحظة الأخيرة من الكذب الأبيض . انه يقول مثلاً . . « انا لم افعل كذا الا بناء على رغبة المدرسة . . لقد قالت في المدرسة عكس ما تقولون تماماً » . انه بطبيعة الحال يكذب بهدف التمرد على السلطة التي كان يخضع لها من قبل خضوعاً مطلقاً . . انه ايضاً يدخل في مناقشات مستفيضة حول البديهيات ، ويعلن عكسها تماماً . . تقول له : ان الزرع دائماً أخضر ، فيقول بحزم : ابداً ، ان المدرس يقول لنا : ان الزرع ازرق . ويحاول الابن ان يحاصر الأب في اسئلة عن المعلومات العامة . انه يسأل مثلاً عن مكان الله . . ويسأل هل الأنبياء لا يموتون . . اذن اين هم . . ويحاول ان يدخل في مناقشات بهدف المناقشة فقط ، ويستعمل دائماً الكذب الأبيض ليدعم رأيه ويستند في هذا الكذب الى آراء المدرسين التي لا يمكن ان يتفوهوا بها . ان الابن يحاول استخدام آراء الآخرين لتدمير شيء من سلطة الأسرة . ويكون الهدف دائماً هو ان يقول لأسرته ببساطة : « عزيزي الأب انت لا تعرف كل شيء في العالم . . عزيزتي الأم ان معلوماتك محدودة » . ان الابن يحاول استخدام آراء الآخرين كما يحاول ان يقتحم المجتمع ويعرف آراء الغير ، وان يختبر الحقائق بنفسه وينطلق خارج دائرة الأسرة الحديدية التي ظل اسيراً لها طوال سنوات طفولته الأولى . وان يقول للأب : « اسمح لي ، لم تعد انت وحدك مصدر معلوماتي ، إنني املك القدرة على اكتساب معلومات جديدة وانا قادر على المناقشة وقادر على الاختيار » . . ويهدف ان يقول للأم « . . لقد ولّى وانتهى عصر الاعتماد المطلق عليك وعلى أبي في التعرف على كل ما يحيط بي . . وبدأت رحلتي الخاصة في خوض الحياة » . .

وتنعكس هذه الحقيقة على الارتباط العاطفي بالأبوين . فالولد لا يحب ان يعامل كطفل صغير . لا يسعده ان يقبله احد او ان يحتضنه ابوه امام الآخرين ويصبح الابن انساناً ساخرا من العلاقة العاطفية القديمة التي كان يتحدث عنها وبطلتها امه . ونجد الطفل في سن السادسة والسابعة يعلن بالصوت العالي عن

اسهاء صديقاته من البنات اللاتي في مثل عمره . ولكنه عندما يبلغ العاشرة فهو يبتعد تماماً عن الجنس الآخر ويرى ان « البنات » نوع غريب من المخلوقات التي لا ذكاء لها . وعندما يشاهد الواحد منهم عناقاً حاراً على شاشة التلفزيون او السينما ، فإنه يسخر منه بعنف . وليس معنى هذه السخرية ان الابن لا يفكر في الجنس الآخر . انما معناه انه يفكر فيه بعقله الباطن . وان كنت ارى ان هذه المسألة قد خفت حدتها الآن لشدة تأثير وسائل الاعلام ومدى رواياتها الغرامية العنيفة .

وتبقى علاقة الولد بأمه مكبوتة ويمارس الابن ضدها المزيد من الكبت ، فالأعوام الأولى من حياته كانت مليئة بالمصاعب نتيجة هذه العلاقة . ورحلة التعلق بالأم بين العام الثالث والسادس كلفته الكثير من المنافسة مع الانسان القوي القادر ، وهو الأب الذي يحبه ويخشى ان يكتشف مشاعره . وكثيراً ما تعذب الطفل داخلياً نتيجة المنافسة مع الأب . ولهذا فهو يخاف من هذه الفترة في المنافسة التي لا جدوى منها . ويعامل الولد امه معاملة مختلفة باردة . صحيح انه لا يفقد حبه لها . . لكن هذا الحب يصبح بلا اشتعال تماماً كما يحدث لنا عندما نحب أغنية عاطفية اثناء علاقة عاطفية لكن هذه العلاقة تتدمر وتصبح ذكرى مؤلمة . . وهنا تصبح الأغنية مؤلمة بعد ان كانت تمثل بالنسبة لنا حدثاً يثير الفرحة . إنني اؤكد مرة اخرى على ان الطفل يضع نهاية للارتباط العاطفي الساذج الذي كانت بطلته الأم . ويعاملها كانسانة يستريح لها وتناقشه وتحمل له النصيحة ، دون ان يدخل في لعبة المنافسة . ويقول فرويد عن ذلك انها الفترة التي تنفك فيها عقدة أوديب . ويبدأ استعداد الطفل لفترة المراهقة . فالجنس يختفي في هذه المرحلة ويتراجع قليلاً الى الخلف ليبدأ الطفل في اكتشاف العالم المحيط به . ويحاول الطفل ان يخلص في دراسته او قراءاته الخارجية او عقد الصداقة مع اقرانه . . ولكن عندما يقع الطفل في مشكلة نفسية فإن الطبيب النفسي يرى خلف الاهتمام بالدراسة او القراءة أو الصداقات ، يرى خلف هذه العمليات رغبة في معرفة التفاصيل عن الجنس . ويرى الطبيب النفسي أساس الابداع الفني عند الطفل منصباً على رغبته في تكوين اسرة وان يكون له ابناء وان تستقل شخصيته عن الأسرة التي ينتمي اليها .

ان رحلة عشق الأم ثم التدريب على ضبط العواطف ، هي تعبير عن كل مجالات النمو . لأن الانسان يختلف عن الحيوان في قدرته على ضبط العواطف وتطويرها ، وزيادة نوعيتها وترقية وسائل التعبير عنها . فالطفل بدأ في حب امه خلال العام الثالث لأنه يقلد الأب . لكنه يكبت ذلك ليؤهل نفسه كي يكون كبيراً ناضجاً مثل الأب ، وقادراً على ان تكون له قصته الخاصة .

ويقابل هذا الكبت لحب الأم تحول آخر من علاقة الابن بأبيه . فبعد ان كان الابن يرضخ للأب ويخاف منه ويعتبره المثل الأعلى ، يبدأ ايضاً في التمرد على هذا الخوف ، وهذا المثل الأعلى ويحاول ان يكون نداً له وصاحب كيان خاص . وعندما يتقبل الأب هذه الصداقة الجديدة ، فإنه يتيح للابن فرصة كبيرة للنمو . .

وتقفل الفتاة في هذه الفترة من العمر باب العواطف المفتوح على مصراعيه ناحية ابيها . وذلك حتى تستطيع ان تخلص من المنافسة مع امها ، وتحاول ان تتقرب من الأم لتتعرف منها على اسرار الأنوثة وتطل خارج حدود الأسرة . يحدث هذا بهدوء ودون ضجيج .

ان البنت تتجه الى الرقة . . والرقة هي اولى خطوات الانوثة .

انها تصادق الأم ، وتصادق الأب وتحاول ان تخلق عالمها الخاص . وتستمر علاقاتها بالأسرة لينة سهلة ، على الأقل اكثر ليونة وسهولة من علاقه الفتى بالأسرة .

ضمير الطفل . . كيف يتكون

ان من اكثر الظواهر اصالة في الانسان . . هي محاولته المبكرة في تربية نفسه بنفسه والقدرة على التمييز بين ما هو مهذب وما هو غير ذلك .

يعلو الاسى وجوه الآباء والأمهات الذين لم يتدربوا على مهام وظيفة الأبوة . . ويحاول كل منهم ان يخفف من اليأس القاتل والمفزع المتولد في اعماقهم عندما يجدون ان الطفل يخرج عن حدود الأدب واللياقة وان كل الوسائل لم تعد تنفع معه ليعود الى سيرته الأولى : طفلاً رقيقاً حلو المعشر . ويعتبرون المسافة الواقعة بين العام السادس وحتى العام الثاني عشر هي مسافة الانهيار الكامل . انه يتصرف بوقاحة . يرد على الأم بعنف . يتحدث مع الأب بالمناورة . لا يمتنع عن الكذب لينقذ نفسه . يقلب المنزل من النظام الى الفوضى . لا يهتم بنظافة يديه . لا يحترم مواعيد الاستحمام . يدخل في مناقشات طويلة حول : هل من الضروري ان يمشط شعره وان ينام في مواعيد ويأكل في مواعيد . يماطل في تنفيذ ما يسند اليه من اعمال . يحاول دائماً ان يثير اعصاب ابويه بتصرفه وسلوكه . وعندما يتلقى العقاب فإنه سرعان ما ينسى ما عوقب من اجله ويكرر أخطاءه . يقول الأب : « لا اعرف ماذا افعل به . . ليس هناك ما يجدي » . وتقول الأم : « لا ادري لماذا يتصرف هكذا . اني اشعر انني لا اعرف الطريق للتعامل معه » .

ولكن الاندهاش « يهجم » على الأب والأم ويفاجأ الاثنان بتقرير من المدرسة عن سلوك الابن . . يقول فيه الاخصائي الاجتماعي . . ان الابن يتصرف في المدرسة بشكل حسن وانه نشيط . ويحافظ على القواعد العامة ويحاول ان يكون انساناً ناجحاً في علاقته الاجتماعية . . ولا يفهم الآباء ما الذي يحدث بالضبط في اعماق الطفل . كيف يتصرف في المنزل بأسلوب ويتصرف في المدرسة بأسلوب آخر ؟ . . ولكن قبل ان نستمر في الحيرة علينا ان نعرف الحقيقة الخالدة

عن التربية . انها تعتمد في الأساس على الصبر والتأني والقدرة على فهم السلوك وما وراء القدرة على اتخاذ القرار المناسب ايضاً . . لذلك فعندما نتعلق بأهداب الصبر يمكننا ان نفهم ما في اعماق الطفل. ان علماء النفس درسوا الكثير من حوار الصبية بعضهم مع بعض في اثناء الاستراحة . . وكانت النتيجة التي اندهش لها هؤلاء العلماء ، ان الصبية يتحدثون عن الاخلاق وكيف يجب ان يتصرف الانسان في المواقف المختلفة وما هو الصحيح وما هو الخطأ . . انهم يحاولون ان تكون لهم « اخلاق من صنع افكارهم » . . وألا تكون هذه الأخلاق من صناعة الكبار . الغريب ان الاخلاق التي من صناعة افكار الصغار ليست فوضوية او لا مبالية : انها في معظم الأحيان متزمتة للغاية . وهم يحملون بعنف على كل من يخرج عن الأخلاق الحسنة التي يختارونها . ونحن في هذا العمر نرى الأطفال في عمر السادسة حتى العاشرة ينشطون في تكوين التنظيمات السرية. ان كل مجموعة من الأولاد تجد نفسها حيث ينسجم الواحد مع الآخر ويشتركون معاً في اللعب . . وهذه المجموعة تتخذ قراراً جدياً بأن تكون صداقتهم ذا مظهر واضح ومحدد . انهم يقررون تكوين تنظيم سري كتنظيمات الكبار في النوادي والجمعيات ويختارون لجماعتهم الأسم ويضعون القواعد التنظيمية والشارة وينتخبون مجلس الادارة . ولهذا فنحن ننصح دائماً نوادي الأحياء والنوادي الاجتماعية بأن تكون للأطفال في هذا العمر جماعات لها اجتماعات ومجلس ادارة وعدد من الأهداف التي يختارها الأطفال بأنفسهم وذلك حتى نضمن للأبناء السلوك السليم دون انحراف . ان مثل هذه التنظيمات تنمي في الطفل الاحساس بالثقة وبالقدرة على ان يفكر في مصير مجتمعه الصغير . ويحاول اعضاء هذه الجماعات ان يكون التنافس بينهم على أساس الولاء للجماعة . ويحاول كل فرد فيهم ان يكون نموذجاً للانسان الكامل من وجهة نظر التنظيم الذي ينتمي اليه . وعندما يخل الواحد منهم بقواعد التنظيم فإن التنظيم يتخذ قراراً بفصله . . وقد يتساءل الكبار . . لماذا يحاول الأبناء ان يكون تنظيمهم سرياً وغير علني ؟ . والاجابة عن ذلك بسيطة جداً . . انهم يحاولون ان يبتعدوا بأنفسهم عن عالم الكبار ، لأن الكبار دائماً يفتحون « أنابيب » النصائح والتعليمات والتوجيهات . وهذا يعني ان الأولاد لن يستطيعوا ان يضعوا

لأنفسهم القواعد اللازمة التي يعتبرونها دستوراً اخلاقياً لهم . ولهذا فإنني احب ان انبه المشرفين على النوادي ان يتركوا للجماعات المؤلفة من الأولاد حرية التعبير عن انفسهم وعدم التدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون هذه الجماعات .

وعندما نسمع نحن الكبار عن تنظيمات الصغار نسأل انفسنا : . . هل هذه التنظيمات تستهلك وقت اللعب عند الصغار ؟ والاجابة عن ذلك السؤال هي : « لا » . . ان الأطفال في هذا العمر يمكنهم الاستغراق تماماً في العاب الكرة بكل انواعها والعاب الرماية . ويحاول كل فرد بينهم على قدر طاقته ان يتقن اللعب . بل ويستهلك وقت اللعب ايضاً كل الأوقات بما فيها مواعيد الطعام . ويجد الكبار غالباً بعض الصعوبات في منع الأطفال من الاستغراق كلياً في اللعب واقناعهم بأن هناك وقتاً للجد ووقتاً للطعام ووقتاً للعب . وبين العام السادس والعام الثاني عشر نجد الأولاد يحاولون الانتباه الى ضرورة النظام في حياتهم . فالواحد منهم يحس ان من واجبه تنظيم نفسه ، ويعيد ترتيب خزانة ملابسه ، وكتبه والعابه . . ان الواحد منهم يجد سعادة في « هدم » كل ما يملكه وسعادة في «اعادة بناء هذه الممتلكات» . . ومن المؤكد ان الآباء والأمهات او بعضهم يرون في هذه العملية نوعاً من الفوضى الضاربة في المنزل ، لذلك يتدخلون بالأوامر في منع هذه المسألة . . ولكن . . لماذا لا يسأل الآباء والأمهات انفسهم سؤالاً محدداً . . وهو

لماذا لا نترك الفرصة للأبناء في ان يعيدوا ترتيب اشيائهم . .

لماذا لا تعرض عليهم المساعدة في ذلك . . وان نسمع نحن « اوامرهم » في هذا الشأن . اننا نفاجأ نحن الكبار بوجود هوايات متعددة ومتناقضة في هذه السن . نجد داخل خزانة الطفل او مكتبه طوابع البريد بجانب العملات التذكارية . . . الى جانب الصور الفكاهية وجانب قصاصات الجرائد الى بقايا الأقلام المكسورة .

لماذا اذن لا نشجع نحن الفتى او الفتاة على ممارسة هواية او اثنتين ؟ . . ان التشجيع الهادىء ينمي حب الابن لهذه الهواية ومن يدري . . قد يحمل لنا

المستقبل موهبة ما في اعماق هذا الابن سببها هذه الهواية .

ونفاجأ نحن الكبار بأن الابن ينبهنا الى كل ما هو خطأ في حياتنا . . ولنضرب على ذلك مثلاً . . ان في المدن الكبرى شوارع وفيها اماكن مخصصة لعبور المشاة وتقول تعاليم المرور وانظمته انه من الخطر عبور الطريق الا من خلال مناطق عبور المشاة . . ولكن الكبار الممتلئة قلوبهم بهموم الحياة اليومية يحلو لهم ان يكسروا القواعد الثابتة . . هنا نجد الابن يتدخل ويقول « لا » . . وهنا قد تقوم معركة بين الأب والابن فالكبير يستكبر ان « يعلمه » الصغير بعض القواعد وما دمنا نحن الكبار مصدر « الحق والواجب » و« الخير والاثم » ، ما دمنا نحن الذين نعلم الصغار كيفية التميز بين الصحيح وغير الصحيح - فكيف يتأتى لنا ان نقبل توجيه الصغير . ونحن ننصح الكبار بأن يعترفوا بالخطأ اذا ارتكبوه لأن هذا يسعد الطفل كثيراً . انه يقوي في اعماقه القدرة على الضبط الاجتماعي ويمده بالسعادة لأنه يعرف اننا نحن الكبار لم نعد المصدر الأساسي الذي يتلقى منه التعليمات ولكنه هو ايضاً يستطيع ان يلقي بالتعليمات . ان ضمير الابن ينمو باعترافنا له بالخطأ عندما نخطىء لأنه يبدو كالقاضي الذي لا يقبل اي مخالفة لقانون الضمير والعالم عنده ابيض او اسود .

ولنراقب نحن الكبار بعض عاداتنا . . اننا نجد في بعض الوان سلوكنا ما يمكن ان تكون له علاقة بالخرافة ، نخشى مثلاً ان نعبر طريقاً ما لأننا نتشاءم منه او لأنه لا يعجبنا . . نخشى ان نتصرف بشكل معين . . لأن هذا التصرف يثير في اعماقنا خوفاً من المجهول . . نخشى ان نتصور بأن الأب قد مات لأننا قد نحس بالذنب كأننا السبب في موته . يوجد هذا الخوف عند الطفل منذ العام السادس وحتى الثانية عشر من العمر . . وهو خوف يجعل الانسان جديراً بانسانيته . فالانسان في جزء من تاريخه ، له علاقة بالخرافة وفي جزء آخر من تاريخه له علاقة بالخوف . وجزء من حاضره ان يمتنع عن « تخيل » الشر . . وجزء من واقعه انه يندفع دائماً نحو الخير . . وهكذا ينمو الانسان ليواجه الخرافة ويدحضها ويستبقي من العادات ما له علاقة بتطوره ونموه . والضمير اساس هام في عملية نمو الطفل . . انه يحاول بكل وسيلة ان يستقل عن اسرته . . ويحاول ان «يسترضي»

السماء في افعاله . ويتقبل وجود الخالق ككائن اكبر من الجميع بما فيهم اسرته . . ويبدو امام الذين في هذه المرحلة ملجأ حمياً للاستقلال عن الأسرة . ويجد الطفل في قواعد الدين ما يؤكد له شخصيته وتبدأ عبادة الله كأساس هام من اسس تكوين الشخصية المستقلة عن الوالدين . وهكذا نجد ان الطفل خلال رحلة الاعوام الستة التي تبدأ من العام السادس وتنتهي عند العام الثاني عشر ، ينمو خلال هذه المرحلة من خلال نمو مشاعر الحب وتعلم قواعد الأخلاق وتنمية القدرة على الضبط الاجتماعي بدءاً من تعلقه بالأم وانتمائه الى الأب . . ثم خروجاً من دائرة الأم والأب الى عالم الاستقلال الشخصي ، والقدرة على ادراك العالم الخارجي .

ان دور الأب هنا ان يكون صديقاً للابن يوجهه دون قسوة عند الحاجة الى التوجيه ويوجهه في قسوة اذا تطلب الأمر ذلك . ويجب ان نتعامل مع الطفل خلال هذه الأعوام الستة على انه شخصية مستقلة . لأن ذلك ينمي في الطفل الاحساس بالمسؤولية والكرامة ومعرفة الصواب من الخطأ . ان الرحلة التي يقطعها الطفل في هذه السنوات الست تمر في الظاهر بالتمرد على قوانين الأسرة . . لكنه تمرد يحوي في داخله احساساً بالمسؤولية الاجتماعية . انه يتدرب على الدور المطلوب منه في المجتمع . . يبحث عن موهبته ويبحث عن ايمانه ويبحث عن الصداقات التي يرتبط بها . وكلما عاملنا الطفل على انه كائن مستقل . . كلما استجاب لما نتمناه منه : نظافته . . وقواعد السلوك والقيام بالواجب والقدرة على التعامل مع المجتمع . وكلما دخلنا معه في مناقشات لا نسيطر فيها بالرأي ولكن نشرح له التجربة ، كلما ازدادت صداقته لنا وكلما ساعدناه في رحلة الاستقلال عنا . . لأن الهدف طوال هذه السنوات الست هو ان يكون مستقلاً عنا له آلة او جهاز للضبط الداخلي خاص به وهو الضمير .

حاجة الطفل الى رقابة مستمرة

يجب ألا نظن بأن رغبة الطفل في الاستقلال عن أبويه هي استقالة يقدمها من عالم رقابة الأسرة . . ! . . فالطفل يحتاج الى من يقول له « لا » عند الخطأ . . شرط ان نقولها بحنان وحزم . يظن بعضنا ان التربية الحديثة هي في اطلاق الحبل على الغارب وان تبحث عيوننا عن أخطائه . . لكن هذا غير صحيح . .

تمتلء الأعوام الستة التي تمر بين السادسة والثانية عشر من العمر بالأهداف التي يريد الطفل ان يحققها لنفسه .ويمكن تلخيص هذه الأهداف في ثلاثة محاور . .

المحور الأول : هو محاولة الطفل الجادة ان يتعرف على ما هو خارج الأسرة وان يرتبط بصداقات مع من هم في مثل عمره وان يستمد منهم تقاليده الخاصة .

المحور الثاني هو المحاولة الدائمة للتأكيد على استقلاله عن الأسرة .

المحور الثالث : هو الرغبة في ان يكتسب المهارة العلمية والعملية والفنية التي تؤكد له انه فرد مستقل قادرعلى الحياة في المجتمع . . ولذلك نجده يميل الى ترتيب ما يخصه ونجده صارماً في تطبيق القواعد الاجتماعية ونجده صاحب ضمير متزمتاً في بعض الأحيان .

ولكن النمو خلال هذه المحاور الثلاثة لا يعني أن المسألة بالنسبة للطفل سهلة ولا يعني أيضاً ان « معاملة » الطفل بالنسبة للأهل تبدو سهلة .

ان الآباء والأمهات يعرفون ان اسلوب التعامل سهل دائماً في حالة فهمهم للابن ويعرفون ان اسلوب التعامل دائماً صعب ومعقد حين لا يفهمون الطفل . ويعاني الأمهات والآباء من محاولة الطفل أن يبدو انساناً مستقلاً . انه يحاول ان يؤكد دائماً انه يميز بمفرده بين ما هو صحيح وبين ما هو خطأ . وهو يحاول دائماً ان ينال اعجاب المجتمع وحبه . والآباء والأمهات لا يعاشرون الأبناء طوال اليوم . ان هناك مجتمعاً يرتبط به الأبناء ومن هذا المجتمع يختار الطفل لنفسه

ألوان السلوك التي يفضلها ، انه يتعلم من ابناء الحي ومن اصدقاء المدرسة ومن المدرسين ومن قواعد الدين الذي ينتمي اليه . ويبدو ضمير الطفل في هذه الفترة صارماً للغاية . انها فترة تكون غاية في الحيوية بالنسبة للضمير رغم ان الآباء والأمهات لا يشعرون بذلك . ان تمرد الطفل ومناقشاته لأوامر الأسرة تكون دائماً في مسائل بسيطة : كالنظافة والقيام بالواجب المدرسي في مواعيد محددة وحسن التصرف مع الآخرين . ولكن الحقيقة هي ان الطفل في مرحلة العمر الواقعة بين السادسة والثانية عشر يبذل جهداً خارقاً مع نفسه ليراقب نفسه بشيء من الحزم . انه يحاول بكل جدية ان ينجح في دوره الاجتماعي وان يتعلم كيف يحترم من هم حوله ويحاول ان يفهم قوانين المجتمع . . وتبدو هذه العملية شاقة بالنسبة للابن خصوصاً انه يقوم بها في اللحظات نفسها التي يقرر فيها الاعتماد على نفسه وعدم الرضوخ بالنسبة لأسرته . ان هناك ألماً نفسياً بالنسبة للطفل وهو يعلن استقلاله النفسي عن اسرته . وهناك الم نفسي آخر عند الوالدين عندما يجدان الابن كثير المناقشة ، يتمادى في عصيان التعليمات ، يتعمد اثارة اعصاب الأب والأم . ولا مفر امام أي اسرة من هذا الاسلوب الذي يعامل به الطفل الأب والأم . وترى بعض الأسر ان الابن الذي نعلمه الاعتماد على نفسه يسعى ايضاً « للتنكيل » بأعصاب والديه . وترى بعض الأسر ان الابن الذي توافر له كل شيء يعمل على التنكيل بأعصاب الوالدين ، وينسى هذان النوعان من الآباء والأمهات ان الطفل يسعى أساساً من اجل ان يستقل عن الأسرة بينما هو يشعر في الوقت نفسه بأهمية اعتماده على الأسرة .

تفاجأ الأسرة بأن الطفل يقضي معظم الوقت مع الأصدقاء في ركوب الدراجات او لعب الكرة ويهمل من نظافته ولا يحترم مواعيد الطعام وتمتلىء كلماته بلهجة التحدي ويحاول ان يكون له مكانه الخاص في المنزل . وهذا المكان الخاص يزدحم بنقيضين في وقت واحد . . نظام يختص بأشياء كالمجلات التي يقرأها وفوضى في ملابسه . ويحاول طوال الوقت ان يؤكد انه انسان مستقل . لكن ما ان يمرض احد الوالدين حتى تلحظ القلق والهم قد زادا عند الطفل، ويحاول ان يفعل كل ما يمكنه لمساعدة الأب او الأم . وقد درس علماء النفس هذه الظاهرة ، ظاهرة السلوك المزعج للأسرة عند الأطفال في عمر السابعة ، وظهر في

نتيجة الدراسة ان الطفل يشعر في اعماقه ان الأب والأم يظلمانه . وانه غير سعيد لأن هذا الأب هو والده وهذه الأم هي امه . ان صورة البهجة المشرقة التي كانت تملأ الطفل في عمر الرابعة فخراً بالأب والأم تختفي قليلاً ويظهر بدلاً منها احساس بالانزعاج عند الأطفال لأن كل واحد منهم يرغب في المزيد من الاستقلال . ولا يعلن الاطفال هذا الرأي صراحة ولكنه يظهر في سلوكهم . ينظر الطفل الى والديه في هذه الفترة باعتبارهما سلطة قهر . وهذا الاحساس يمكن للأم ان تتذكره تقريباً عندما تعود بذاكرتها الى الوراء حين كان عمر طفلها عاماً واحداً وكان يعارضها فوراً بأية طريقة . ويمكن للأم ان تتعرف على هذا الشعور ايضاً عندما يبلغ ابنها الخامسة عشرة . ان الطفل في هذه الفترة من العمر يكون غاية في الحساسية وغاية في الرغبة في مناقشة أي أمر سواء كان جاداً ام تافهاً .

ويحاول الابن من عمر السادسة حتى الثانية عشر ان يعبر بشكل غير مباشر عن احساسه بأن والديه لا يتهمانه على الاطلاق او ان الآباء ظالمون في اسلوب معاملتهم له . ولهذا اعتقد ان الطفل في هذه الفترة يحاول اثارة اعصاب والديه وان يسبب لهما الضيق دون قصد . وهذا ما يجعل الآباء والأمهات يصرحون بأن الابن قد اصبح مصدراً للقلق والضيق والتوتر وانه يبدو كالقط النافر .

قد يظن الآباء والأمهات انه ليست هناك طريقة ممكنة لمواجهة هذا الأسلوب من جانب الطفل .

وقد يظن الأب الذي ليست له ولا للأم خبرة ان الابن قد فسد ولذلك تأخذ خيبة الأمل طريقها الى ملامح الآباء والأمهات .

انما أقول للآباء والأمهات لا داعي للاحساس بخيبة الأمل . فالطفل يحاول ان ينمو وعملية النمو شاقة بالنسبة اليه وهو يحاول من خلال المعارضة ومن خلال المناقشة ان يختار لنفسه طريقاً . ان الطفل يعرف قيمة والديه داخلياً والانكار غير المباشر لهذه القيمة هو عملية تأكيد على الاستقلال فقط .

يجب على الأب ان يبتسم هو والأم وان يفهم الاثنان ان الابن يحاول ان

يعلن عن وجوده الخاص . فالابتسامة ضرورية حتى لا ينفجر الوالدان من فرط التوتر . ان الأب والأم احياناً يحاولان حل مشكلات الابن في هذه الفترة من العمر بالصبر او بدفن الرأس في الرمال والتغاضي عن سلوك الابن وليس هذا هو الأسلوب الصحيح . . ان الصبر او التغاضي يؤذي الطفل نفسه . ويشعر الطفل في اعماقه بأنه في حاجة الى رعاية الأسرة ورقابتها بل ويشعر ان الأب والأم مطالبان بالتدخل كي لا يتجاوز حدوده . وذلك لأن الطفل الذي لا يجد من يوقفه عند حده يحاول المزيد من اثارة الوالدين الى الدرجة التي يمكن ان يفقد الأب معها اعصابه او تفقد الأم اعصابها . ان على الوالدين ان يوقفا الطفل عند حده لارضائه هو نفسياً لأن اللوم هنا يؤدي وظيفة هامة ان يوقفا الطفل عند حده لارضائه هو نفسياً لأن اللوم هنا يؤدي وظيفة هامة بالنسبة للطفل . انه دليل اهتمام ودليل توجيه . فالطفل في هذه الفترة يملك ضميراً حساساً ويتقبل التوجيه من اعماقه . ويشعر أنه لا بد ان يجد من يقول له هذا خطأ وان يقول له ذلك بلهجة حاسمة وهو في حاجة الى من يحزم الأمر معه ويطالبه ان يقوم بواجبه المدرسي وان يحترم نظام المنزل وان يكون مهذباً مع الآخرين وان يحرص على نظافته . ان الرقابة والتنبيه واللوم هي واجبات أساسية بالنسبة للأهل ولا يجب ان يتغاضى احد عن أي سلوك غير مهذب للابن . ان الابن سيحاول دائماً ان يجذب الانتباه بالمزيد من الانتباه اليه وسيحاول ان يؤكد للأسرة انه في حاجة الى من يراقبه وسيحاول اثارة الابوين بكل الوسائل . وفي النهاية سيواجه الابوان ثورة نفسية عارمة على الطفل صنعها الطفل نفسه بهدف الحلول محل اهتمام الأسرة ورقابتها .

هنا قد يظهر من الكلمات انني أقول للآباء والأمهات يجب ألا تمنحوا الطفل عناية خاصة . . ولكن ليس هذا صحيحاً . . انني أذكر بعض القواعد الأساسية والهامة التي يجب ان نعامل بها الطفل طوال الوقت وهي لازمة للغاية اثناء التعامل معه في هذه الفترة من العمر .

لا يجب ان نتحدث الى الطفل في كبرياء او ان يشعر ان من يتحدث اليه يحتقره . فالطفل يلتقط بحساسية بالغة لهجة المتحدث اليه واسلوبه

يجب ان نتحدث الى الطفل كانسان له كرامته ونحترم خبراته وتجربته . انه يظن دائماً انه انسان ناضج أو اقترب من النضج .

وعلى الأم ان تتحدث الى الطفل بهدوء واثقة من نفسها لا ان تتحدث اليه وكأنها يائسة منه تماماً . فالابن عندما يسمع حديث الأم اليائس يتألم ويفقد الثقة بالنفس لأن الحديث عنه بيأس منه يجعله يفقد القدرة على تخيل انه انسان ناجح .

لا بد من وضع قواعد اساسية يحترمها الطفل وينبه اليها : كمواعيد الطعام والاستحمام والنوم وعدم وضع شيء في غير مكانه وعدم التعبير عن غضبه بالصراخ ، وعندما يخرج عن هذه القواعد فلا بد من ان تنبهه الأم او ينبهه الأب بلهجة فيها الحنان والصداقة والحزم . وقد يتلكأ الطفل قليلاً ليرى هل ستنسى الأم ما نبهته اليه أم لا ، ولكن عليها البقاء متنبهة جيداً حتى يفقه التعليمات .

وتنسى الأم نفسها احياناً لكي تجد نفسها قد ثارت على الطفل لأنه حاول ان يثيرها طوال الوقت . ولكن لا بد ان تقول الأم لنفسها طوال اليوم ان الطفل يتصرف احياناً وكأنه في « مباراة » مع الأم . انه يبدأ المباراة دائماً ولا بد للأم ان تستجيب لهذه المباراة وان تفخر لأنها تلعب معه هذه المباراة وتنتصر لنفسها وللطفل ايضاً . اقول ذلك لأن بعض الأمهات يستسلمن للارق والقلق والتوتر . رغم ان الأمر لا يخرج عن كونه مبارات لكرة المضرب (التنس) .

لنترك الطفل يختار طريقه . فلا داعي ان نفرض عليه ذوقنا في اختيار الملابس مثلاً . . ولا داعي ان نرهق الابناء بضرورة تناول كميات كبيرة من الغذاء . ولا داعي هناك لكي نجعلهم يشعرون ان رقابتنا هي نوع من التلصص الدائم . ان الابن يحب ان يقلد السائد في الملابس وهي بالتأكيد تختلف عما كان يلبسه الأب في الماضي . ومن المؤكد ان الطفل يجب ان يلعب الألعاب نفسها التي يلعبها من هم اصدقاؤه . والطفل يجب ان نشتري له بعض اللعب . ومن الرائع ان يكون ما يشتريه هو من مصروف يده او نتيجة لعمل ما قام به في المنزل .

ان الطفل يكره « الخبث » وأسلوب المناورات التي قد يمارسها الأب او الأم

لمقاومة رغبات الطفل . فهو يحب ان يكون انساناً واضحاً فلماذا لا نكون واضحين معه .

يحب الطفل ان نؤكد له استقلاله ونؤكد له رقابتنا في الوقت نفسه . هذه معادلة صعبة لكن ما ان نبدأ فيها حتى نجد ان ممارستها تتيح لنا فرصة تربية انسان على طريقة صحيحة .

إننا اذا فشلنا كآباء وكأمهات فلماذا لا نبحث عن حلول ومناقشات مع المدرسين ومكاتب ارشاد التربية والأطباء النفسيين .

القلق النفسي اثناء المراهقة
المراهق . . يحتاج الى الارشاد

المراهق . . هو شاب دون العشرين او فتاة دون العشرين . عيبنا جميعاً هو اننا ننظر الى المراهقة على انها فترة مرضية . . ولا ننظر اليها كمرحلة طبيعية مر بها كل واحد منا .

انني اقول . . ان المراهق انسان يبحث عن النضج ومهمتنا هي توضيح الطريق والارشاد .

فالمراهق يحتاج الى ارشادنا ويتمناه . . بشرط ان نقدمه له بصداقة .

لا يمكن ان انسى هذا الحادث البسيط في دلالته والعميق في معناه . دخلت فتاة في الخامسة عشرة الى عيادتي مع امها . ومن عادتي ان استقبل الأهل مع المريض . لكن الفتاة طلبت ان تدخل الى حجرتي دون امها وان تقول لي ما عندها دون ان تسمعه الأم . احسست لحظتها بالحقيقة العلمية والانسانية . وهي ان الشاب دون العشرين او الفتاة دون العشرين في حاجة الى حقيقة هامة واساسية وهي ان يعترف المجتمع بأن الشاب قد نضج وان الفتاة من حقها ان تكون ذات رأي . وان لكل منهما وجوده الخاص . وكلاهما يشعر بالامتنان العميق لأي انسان يعترف بأن الواحد منهما شخصية مستقلة . فالانسان دون العشرين في حاجة اساسية الى التقدير .

وعندما يتوجه انسان دون العشرين الى شراء شيء فهو يشعر بأن من امامه لا بد ان يحترمه . ولقد التفت الى ذلك اصحاب المتاجر . انهم « يكتشفون » اهتمام الشاب بنفسه ويحاولون تقديم المزيد من الاحترام والتقدير له ويقنعونه بكل الوسائل ان هذه السلعة هي له بمفرده وقد صنعت من اجله .

وعندما يقف انسان دون العشرين في صف التقدم للجامعة فإنه يفضل ان يسمع من موظف القبول كلمات مشجعة . وقد التفتت بعض الجامعات الامريكية الى ذلك فوضعت بعض موظفي الاستقبال من الأشخاص القادرين على تقديم ابتسامة الثقة بالنفس .

وعندما يزور انسان دون العشرين الطبيب النفسي لمواجهة المعارك بينه وبين والديه فإنه يحاول ان يدخل بمفرده ، خوفاً من ان يدخل الأب او الأم اولاً

الى الطبيب. لأن هذا لو حدث فمعناه ان الطبيب سيقول له انه مخطىء . ان الأب سيتهمه عند الطبيب ، والطبيب سيتواطأ معه ضد الابن . فالطبيب والأب من الكبار ، والكبار دائماً يتحدون ضد الصغار ، لذلك يفضل الابن ان يدافع عن نفسه اولاً . .

وعندما دخلت الفتاة ذات الخمسة عشر عاماً الى حجرة المعاينة بمفردها، بدأت الحديث بالهجوم الواضح على الأم وعلى الأب وعلى الكبار عموماً ، هؤلاء الكبار الذين لا يتركون على الاطلاق اي فرصة للشباب . انها تحاول ان تقنع اهلها بأن من حقها كفتاة دون العشرين ان يكون لها اصدقاء، وان تذهب الى ناد رياضي في اوقات راحتها الاسبوعية لكن الأب يرفض والأم تسخر دائماً من الجيل الجديد بين البنات ، هذا الجيل الذي لا يفرق بين العمل وبين اللعب ويعتبر الحياة كلها لعبا . قلت للفتاة انني اريد ان اقابل الأم بمفردها ودخلت الأم وبدأت أسألها عما تشكو منه ابنتها دون ان اقول لها حرفاً واحداً عما قالته الفتاة .

قالت الأم : إنني اشعر بالقلق الشديد على ابنتي . انها تعاني من الخجل وعدم القدرة على الاندماج في المجتمعات . انني وأباها نحاول بشتى الطرق ان نجعلها تنطلق وان يكون لها صداقات او ان تذهب الى ناد رياضي . . لكن الفتاة ترفض ، انها تفضل الجلوس صامتة في حجرتها ونحن نخشى عليها من الانهيار العصبي اثناء هذا الانطواء . .

بطبيعة الحال كان هذا الأمر مدهشاً لي بل باعثاً على عدم التصديق وانا اتهم طرفاً منهما بالكذب . . اما ان الأم كاذبة واما ان البنت هي الكاذبة . انني اعرف تماماً ان اي مشكلة تنشأ في اي اسرة يمكن ان يراها كل فرد من زاوية مختلفة وان يحكيها بطريقة مختلفة. لكن لم اكن اتصور ان تحكي ام وابنتها حكاية فيها مثل هذا التناقض الغريب. واستمرت رؤيتي للفتاة وامها عدة شهور اكتشفت خلالها ان البنت تشكو دائماً ان اسرتها تمنعها من اشياء . . بينما تؤكد الأم والأب دائماً انهما يرغبان في ان تقوم ابنتهما بالأشياء نفسها لكنها ترفض . واتضح لي ان احداً من الأسرة ليس كاذباً . . لكن دائماً هناك بين المراهقين تصوراً بأن هناك

كراهية مستترة عند الوالدين . وتأكد لدي هذا الإحساس عندما التقيت بأكثر من اسرة فيها اكثر من مراهق يحكي مشكلته بصورة عكسية تماماً لما تحكيه اسرته .

ان المراهق يبدأ غالباً في الانسلاخ من صداقاته القديمة . إنه يبدأ في اختيار اصدقاء جدد . إنه يبني عالماً جديداً . وهذه الأنواع من السلوك تؤكد انه يعيش في قلق عصبي شديد . وهو في معظم الأحيان يحتاج الى صداقة الأب والأم . وهو يشعر في الوقت نفسه ان أسرته لا تعطيه كل ما يطلبه من الحرية ويتأكد لديه احساس بأن واجباته اكبر منَ حقوقه ، رغم ان اي انسان موضوعي يمكن ان يقول عن الأسرة العادية انها تحاول ان تمنح الابن الفرصة كاملة للتعبير عن نفسه وعن حريته .

ان الأب والأم مطالبان في القيام بارشاد الابناء في عمر المراهقة الى ما هو صواب وما هو خطأ . ولا بد للآباء من الالتزام بضرورة ارشاد الابن او البنت الى السلوك المعقول ، لا لأن الآباء يريدون السيطرة ولكن لأن الآباء يعرفون جيداً بأن المراهق تنقصه الخبرة . ويرى المراهق في الوقت نفسه ان ارشاد الوالدين هو نوع من السيطرة مهما كان هذا الارشاد ضرورياً . ويقع بعض الآباء في الخطأ عندما يتشددون في بعض الأمور ويتساهلون في بعض الأمور دون منطق ما . وهكذا يجد الشاب ما يمكن ان يتهم به الآباء بعدم المعقولية في الارشادات

اننا يجب ان ننظر الى الشاب دون العشرين او الفتاة تحت العشرين كبشر لهم جوانب قوة ولهم جوانب ضعف . لأن مثل هذه النظرة الانسانية يمكن ان تضمن لنا فهم المراهق كانسان يعاني من حقيقتين كل منهما تناقض الأخرى تماماً .

الحقيقة الأولى هي : احساس المراهق بأهمية اعتماده على الأب والأم . .
الحقيقة الثانية هي : عدم الثقة في نفسه كانسان يمكن ان يكون ناضجاً رغم رغبته التامة في الاستقلال عن الكبار .

ومن البديهي ان الكبار ينظرون الى الأطفال على اساس انهم يعتمدون اعتماداً مطلقاً على الأب والأم . يجري الابن الطفل الى ابيه عندما يخاف . تطلب الفتاة من امها الحماية عندما تجد نفسها في ورطة . لكن الطفل عندما يقع على

الأرض طالباً يد الأم او الأب وليس غريباً ابداً ان يفكر الطفل في طلب المساعدة من الأم والأب. وليس غريباً أيضاً ان يصغي الأطفال لأوامر الآباء والأمهات ليوضحوا لهم القيم والوان السلوك التي يسيرون عليها. ولا تحدث مناقشة او معارضة من الطفل لوالديه إلا في بعض التفاصيل الصغيرة مثل اصرار الطفل على شراء لعبة ما"او اختيار انواع ملابسه من المنزل .

لكن ما ان يبدأ الطفل في ولوج سن المراهقة حتى « نفاجأ » نحن الآباء والأمهات بأنه يقدم لنا اكثر من طلب يومي لاعتباره كائناً ومستقلاً له كرامة وانه جدير بذلك وان الاستقلال حق له وان احترامه مسألة مقدسة وان له قرار اختيار المستقبل . انه يقدم لنا هذه « المفاجأة » يومياً وكل لحظة ولا يمكن ان يتنازل عنها . ان انساناً تحت العشرين يصر على الحرية والاستقلال ويعامل الوالدين كمعاملة حركات المقاومة للدول الاستعمارية . انه يناقش ويفاوض ويحارب على جبهتين في وقت واحد . الجبهة الأولى هي جبهة عدم استقراره على الثقة بنفسه وتردده والمخاوف التي تملأ أعماقه من الحرية ، والجبهة الثانية ضدنا نحن الكبار. إنه يفاوضنا ويحاورنا ويحاربنا .

واذا لزم الأمر ـ فإنه يطلب الاستقلال . واذا قررنا نحن الكبار ان نعطيه الاستقلال فجأة ، فإننا نلاحظ انه يرفض هذا الاستقلال لأنه « ممنوع » وليس « مغتصباً » . انه يفضل ان « يغتصب » استقلاله منا . ويفضل ان يكون بطل حرب تحرير محدودة على ان يكون انساناً يمنح الاستقلال فجأة ودون سابق انذار . وعندما نعطيه الاستقلال المفاجىء يبدأ في الخوف وفي السؤال عن المساعدة حتى يريد أمام اعيننا طفلاً في العاشرة من العمر ، وطبيعي ان نقول له : « انت في حاجة الى مساعدتنا » . ومن الطبيعي ايضاً ان ينكر ذلك بشدة وبعنف عندما نقول له ذلك . وعلى الأم ان تلاحظ ان ابنها الذي في الخامسة عشر يعتمد عليها في اعداد الافطار وفي غسيل الملابس . رغم ان الابن الذي في الخامسة عشرة يصر في كل دقيقة على انه قادر على الاعتماد على نفسه . وكذلك الفتاة بنت الخامسة عشرة . ان انساناً دون العشرين « يظن » ان الكل لا بد وان يكون في خدمة

رغباته وخدمة استقلاله . وهذا تعبير عن القلق العظيم الذي يعيشه المراهق . انه قلق بين ضرورة تحقيق الاستقلال وبين رغبته الدفيفة في ان يعامله الأبوان كطفل صغير .

قد يتعجب الكبار من ذلك . قد يرفع احدكم حاجبيه، دليل الدهشة والاستغراب . لكن لماذا لا يحاول كل منا ان يتذكر هذه المشاعر التي كانت تغمره عندما كان مراهقاً . ان انساناً تحت العشرين يملك احساساً عميقاً بضرورة التأثير المنهمر من المجتمع . ان انساناً تحت العشرين لا يتقبل نفسه بحسناته وسيئاته كما يحدث بالنسبة للطفل . يحاول انسان تحت العشرين بكل جهده ان يعرف رأي الآخرين في صفاته الحسنة او صفاته الرديئة . انه يريد ان يكون مثالياً . . باهراً ، لامعاً ، ويرغب في ان يعرف الجميع انه جذاب وقارىء ذو بصيرة نافذة . يجيد اكثر من مهارة . انه باختصار يريد ان يصعد الى اكثر من قمة في وقت واحد . انه لا يرضى ابداً بما يقوله الكبار بأن الدنيا يمكنها ان تقبل كل انسان له ميزة واحدة او تفوق واحد وان كل انسان يملك ان يقدم موهبته وعطاءه للآخرين وان لكل منا عيوباً . ولكن المراهق يريد ان يكون بلا عيوب . فالواحد منهم يشعر انه انسان مثالي له اهداف عالية وسامية ويريد ان يفرض نفسه انساناً قادرا على تطبيق المثل العليا. ولهذا نجد الانسان تحت العشرين يحاول ان يظهر للآخرين انه محيط بالعالم وانه يعرف الكثير ، لكن الحقيقة هي انه لا يعرف كثيراً. انه دائماً يكتشف ان له مشاعر وليدة. تتفجر فيه دائماً أحاسيس جديدة. ولا تظهر هذه المشاعر والاحاسيس إلا بالمناقشة . ويجد المراهق نفسه عرضة لتغيرات جسدية كبيرة ولا يعجبه في معظم الأحيان انفه او عيونه او « حب الشباب » . وتتفجر في كل انسان تحت العشرين طاقته الجنسية . ويحاول ان « يضبط » هذه الطاقة الجنسية ولا يجد في نفسه سوى الحزن لئلا يفشل في ضبط هذه الطاقة الجارفة أو يسعد ويمارس اللذة بهذه الطاقة لكنه ايضاً لا يستطيع ان يضبط مسار هذه الطاقة . وهناك سؤال في قلب المراهق: «ماذا افعل لأعثر على من يجذبني من الجنس الآخر ؟ » ويغرق انسان تحت العشرين في الخيال . انه يحلم بأنه قادر على ان يقول احلى الكلام وان يتصرف بأرق اسلوب ولكن عندما يواجه

الواقع فهو يرتبك تماماً . واذكر انني عندما فكرت لأول مرة في اثناء بداية مراهقتي في ان امسك يد صديقتي عانيت من الخجل الكثير ، رغم انني كنت احتضنها في خيالي كل ليلة . واذكر انني جلست اكثر من نصف ساعة محاولاً العثور على الكلمات التي ينطقها لساني لأملأ وقت اللقاء معها فلم اجد كلمات سوى السؤال عن صحتها وعن اسرتها .

ان القلق الذي يصاحب فترة المراهقة هو قلق عظيم وقاس . ولا يوجد من يستطيع القول إنها فترة تمر دون قلق عظيم .

ان الانسان تحت العشرين قلق لأنه يخاف من عدم القدرة على النضج . اعماقه تنادي الأبوين طالبة المزيد من الرعاية واعماقه ايضاً تطالب بالاستقلال . ويخفي قلقه بالشكوى التي تكون بدون سبب واضح تلك الشكوى التي يقول فيها المراهق عادة : « اسرتي لا تمنحني حريتي كاملة » . فالمراهق لا يريد ان يقول انا خائف من عدم اعتراف المجتمع بي كانسان ناضج . ولا يريد ان يقول انني اعاني من الخجل لأني اخاف اقتحام المجتمعات . ومن الصعب على أي انسان ان يتهم نفسه ، لذلك يتهم المراهق الكبار ، والكبار دائماً . ويحاول ان تكون له بعض الطلبات التي لا يمكن ان يوافق عليها الكبار . . كأن تسهر الفتاة خارج المنزل او ان يسوق المراهق سيارة الأسرة بمفرده ، وعندما يرفض الوالدان ذلك تكون النتيجة النهائية هي ان يجد المراهق هدفاً لثورته على الابوين .

قد يقول بعض الآباء والأمهات أليس هناك حل يمكن ان يحول بين المراهق والثورة يثور على والديه ؟ وانا اقول ان الآباء يجب ان يعرفوا ان هذه الثورة عادة بدون اسباب حقيقية وانها مجرد تطرف ولذلك لا بد للآباء والأمهات من الاصرار على مواقفهم في ضرورة التمسك بأساليب التصرف المتزنة دون ان يدخل الآباء في دوامة القلق والتشتت . والسؤال : هل نحن معاصرون ام متخلفون ؟ ولا بد للآباء والأمهات ان يعرفوا الحقيقة الواضحة بأن المراهق في حاجة الى ارشاد الآباء والأمهات .

والعيادات النفسية تشهد على المراهق وهو يقول « كنت احلم ان يقول لي

ابي ما هو الصواب وما هو الخطأ تماماً كما يفعل آباء اصدقائي معهم » .

فالمراهق يعرف انه ما زال انساناً في طريقه الى النضج لكنه لم يصل بعد الى النضج .

ويعرف المراهق ان التصرف المتزن يؤكد احترام الآخرين له ويحقق له راحة الضمير والثقة بالنفس .

مثلما يعرف المراهق ان مظاهر الحب بينه وبين والديه تأتي عن طريق وضع الآباء لبعض القواعد التي يجب ان يلتزم بها المراهق نفسه .

رحلة اختيار المثل الأعلى قبل سن العشرين

ينزعج الآباء والأمهات عندما يشاهدون صور نجوم السينما على جدران غرفة الأبناء المراهقين ، ويتساءل الآباء عن أي نظام من القيم سيحكم ضمير الأبناء .

وأنا اقول . . انه بقليل من الهدوء والفهم يمكننا ان نطرد اليأس ونستبدل به الثقة في مستقبل الأبناء . .

عندما يدخل الأب او الأم الى حجرة المراهق او المراهقة يفاجأ الواحد منهما بأن هناك صوراً كبيرة لبعض نجوم الغناء والسينما . فالمراهق يضع صورة تكاد تكون شبه عارية لامرأة . . والمراهقة تضع صورة لشاب هو في رأي الأب انسان خليع رغم انه مطرب مشهور . .

وعندما نجلس لنشاهد النشرات الاخبارية التليفزيونية نفاجأ بأن أحد هذه الأخبار يتعلق باستقبال المراهقات في بلد ما لأحد المطربين ونفاجأ بالصرخات والبوليس وبالزحام الذي لا حدود له . . وقد نشاهد زحام المراهقين الشديد وتدخل البوليس لانقاذ فرقة موسيقية من أيدي الشباب المراهق . . ويقول ابناء الجيل القديم عادة عن هذه المسألة . . « انه جيل جديد فاسد » . . ويتساءل الآباء والأمهات في كل عصر : « ما الذي حدث للجيل الجديد ؟ » وهذا سؤال فيه كثير من فقدان الذاكرة ، لأن لكل جيل نجماً ما أحبه أبناء ذلك الجيل ، ولكل فتيات زمن ما مطرباً او نجماً ممثلاً تقع البنات في هواه ولكل شباب أي جيل نجمة أو مطربة ذاب الشباب في هواها . . وعادة ما يصيبنا الانزعاج نحن الكبار من هذه الظاهرة لأنها تزداد سنة بعد سنة بحكم ازدياد عدد سكان المدن الكبرى وبحكم ازدحام هذه المدن بالأبطال السينمائيين والنجوم والمطربين . نرى في صحف هذه المدن ومجلاتها صور الآلاف من الشباب والبنات وهم يصفقون للنجم وترى البوليس وهو يحرس النجم او النجمة ونسمع الوعاظ مضى المتزمتين يطالبون باعدام هذا المطرب او تلك النجمة السينمائية . وتصيب الحيرة الكبار . . لا لشيء إلا لأنهم ينسون ، أو لأنهم ايضاً لا يحاولون ان يعرفوا ماذا في عمليات النمو العاطفي والجنسي للشباب او للفتاة .

ان الطفل من عامه الثالث الى الخامس يمر برحلة استكشاف لعاطفته حين ينظر الى الجنس الآخر . انه يلعب دور الأب او الأم . وتلعب الفتاة مع دميتها على أساس انها طفلتها . ويجلس الولد مع طفله الوهمي ليحدثه عن المستقبل والألعاب التي سيشتريها له . تتعلق البنت بوالدها وتعده بأن تتزوجه عندما تكبر . يتعلق الطفل بأمه ويعدها بأنه سيتزوجها عندما يكبر . والأولاد والبنات يحاولون في أثناء اللعب ان يكتشفوا دور الجنس في الحياة . وتقول الدراسات النفسية ان الأطفال في عمر الخامسة او السادسة يعانون بعض القلق والاحساس بالذنب من اجل الاهتمامات الجنسية ، لأن الآباء يقولون ان « هذا عيب وهذا حرام » وايضاً لأن الطفل يشعر بنوع من المنافسة مع الأب وتشعر الفتاة بمنافسة الأم . وهناك السبب الثالث والهام وهو ان الولد يتساءل بينه وبين نفسه لماذا تلد المرأة والفتاة تسأل بينها وبين نفسها لماذا ينعم الولد بقضيب وهي لا تنعم بمثله ؟ ويرى الأطفال ان الجنس خطير نوعاً ما وتدور في رؤوسهم آلاف الأسرار الضارة . لذلك لا بد من طرد مثل هذه الأفكار . وطبعاً يتم كبت هذه الأفكار من العام السادس حتى العام الثاني عشر من العمر عند اقتراب البلوغ عند الفتاة . ويتم قهر هذه الأفكار حتى العام الثالث عشر عند الولد . وفي التاسعة او العاشرة نجد ان رأي كل جنس في الآخر أصبح سيئاً . البنات يثرن نفور الأولاد والعكس بالعكس . والولد يبدو خشناً والفتاة تبدو رقيقة . ويؤكد هذا التنافر أن في اعماق كل جنس رغبة في استكشاف الجنس الآخر . وما أن تبدأ الغدد الجنسية في النضج حتى يصاحبها انفتاح ذهني عميق وينهار حاجز الكبت في أعماق الشباب أو الفتاة ويحاول الشاب ان يتجاهل مشاعر الجنس ، وكذلك تحاول الفتاة ولكن بلا طائل . ان الاحساس متوتر والانفعالات مثيرة والاحساس بالذنب يلاحق الأعماق ، وهكذا نرى ان الجنس ليس عامل سعادة عند المراهق بل انه يسبب المشاعر المتناقضة . المتعة والقلق ، السرور والذنب . ونجد أيضاً هذه المشاعر تعزل الرغبة في الحب الناضج والاستكشاف الحقيقي للجنس الآخر ومدى القدرة على ان يكون هناك مستقبل مشترك . نجد ان كل هذه الرغبات لا تنمو بالوتيرة نفسها في اعماق المراهق انما هي تنمو بصورة غير متكاملة . . فنجد الشاب يحاول العثور على الراحة في الصداقة مع فتاة ثم نجد في الوقت نفسه هذا

الشاب يحاول ان يكون كريماً مع فتاة ينقذها من صداقة شاب « سيغرر » بها ونجده يركز رغبته الجسدية على فتاة أخرى مثيرة . وتنمو في اعماق الكثير من الشباب فكرة ان الجنس شيء ضد الاخلاق ، لهذا لا نجد الشاب يتخذ صورة جنسية في الخيال لأي فتاة « مؤدبة » ونجد الشاب يتفاعل جنسياً مع صورة الفتاة اللعوب ونجد ان هناك تفريقاً بين الحب العذري والحب الجنسي . وتتكرر المسألة ذاتها مع الفتيات . وعندما تستمر هذه الأفكار الى ما بعد النضج ، نجد ان هذه الأفكار تدمر الحياة الزوجية .

ويدخل المراهق في قصص الحب التي تفشل واحدة بعد الأخرى . . لكنها تعطيه أخيراً النضج العاطفي وخلال هذه القصص يتعرف الشاب على نفسه وعلى الجنس الآخر .

وفي بعض الأحيان نجد الشاب في بداية المراهقة يهتم بأحد مدرسيه وتهتم الفتاة باحدى مدرساتها او يحاول الشاب أن يركز اعجابه على نجم رياضي او غنائي وكذلك الفتاة تختار واحدة من جنسها بالذات . وعندما يجد الشاب نفسه يفكر في الجنس الآخر فهو يحاول ان يختار الطريق الذي لا يسبب له اي اختيار حقيقي او اية متاعب عائلية ، او شخصية . . انه يختار نجمة سينمائية يصول معها ويجول في علاقة عاطفية وجسدية في أحلام اليقظة ، انه لا يختار احدى قريباته او احدى بنات الحي لأن ذلك الاختيار قد يسبب له الحرج وقد يسبب له المتاعب النفسية . انه يترك احلام اليقظة تأخذ منه كل الوقت وتحميه من الوقوع في الخطأ . . وعندما يجد نفسه يفكر في احدى بنات الحي فإن هذه المسألة تأخذ من خياله الكثير لكنه لا يترك التعبير عن ذلك للواقع . انه يخشى ان يتقدم لأنه لا يعرف كيف يكون الاقتراب من فتاة ولا يعرف ايضاً ماذا يقول لها . ان انساناً تحت العشرين عندما يقول انه « وقع » في الحب . . فإن هذا « الوقوع » يبعث على الحيرة حقاً . انه يختار اختياراً عشوائياً . ليس هناك من أساس يمكن حدوث الاختيار من اجله . ولا توجد أية هواية مشتركة بين الاثنين في الغالب . لا توجد أي علاقة ما نؤكد انه اختار هذه الانسانة كبطلة لأول قصة حب . ثم نجده قد انتقل الى « وقوع » آخر في قصة حب اخرى . . وتظل عملية التنقل هذه لتعطيه في النهاية

قدرة واقعية على اختيار قصة حب دائمة . . إنني لا انسى اول وجه اخترته كبطلة قصة حب لي . فتاة تكبرني قليلاً قريبة لأحدى قريباتي . تتصرف دائماً بنوع من البساطة والتلقائية . اسرتي متزمتة لكنها رغم التزمت تؤمن بأن من حق الشاب ان يتزوج مبكراً وان « الحب » واقع للدراسة وان الثمن النهائي الذي تقدمه الأسرة هو المساعدة على اقامة الحياة . واذكر ان هناك مشكلة صغيرة وأساسية قامت كحاجز بيني وبينها . هي انها كانت تعتبر نفسها « محجوزة » لأحد أقاربها . لا تحبه لكنه غني . واذكر انني عندما اختليت بها لأول مرة لم اعرف ماذا اقول لها . وعندما بلغت الخامسة عشرة تجرأت على الاتصال بها تلفونياً ، فقالت لي انها لا تكن لي أي مشاعر عندما سألتها بصراحة هل تحبني أم لا . ثم وقعت في المرض وبدأت بعدها بقليل قصة حب اكثر صعوبة مع احدى قريباتي ايضاً لكنها كانت تستعد للزواج ، ولقد حاولت ان تتخلص من هذا الرجل المفروض عليها بقوة العائلة . . لكنها لم تستطع وانا أيضاً لم استطع ان اواصل التجربة الصعبة ، فأعلنت الأسرة نهاية هذه العلاقة . وعندما التحقت بالجامعة كانت لي قصة الحب الأساسية . لقد تعلمت خلال رحلة الوقوع في الحب انني لا بد وان افكر في حدود الواقع والخيال معاً . . لا اترك لأحدهما التغلب على الآخر . اترك للخيال مهمة الأمل والهدف واجعل الواقع يسير بي في طريق تحقيق الأمل والهدف .

ان الآباء قد يتصورون ان هناك بعض المبالغة في ان المراهق يخجل من التعامل مع الجنس الآخر . . ولكن هذه هي حقيقة الأمر . . صحيح ان الآباء يسمعون عن « الجيل الجديد » دائماً بعض الأقاويل التي تؤكد انه جيل لا يتمتع بالخجل وان كل الظواهر تؤكد انه جيل منطلق اكثر من اللازم وان لهجة « الجيل الجديد » عن بعض الأمور تكاد تكون صريحة اكثر من اللازم . . ولكن ليس الحكم هنا للكلام . . انما الحكم للسلوك العملي . ان « المراهق » يتقن تمثيل الدور ويحاول ان يقول بأعلى صوت انه صاحب خبرة . لكن الواقع يقول دائماً ان المراهق يخجل عملياً عندما يجبره الواقع على التعامل مع الجنس الآخر .

وقد يتساءل الآباء والأمهات . . لماذا اذن نرى هذا التزاحم على نجوم السينما . . لماذا نجد مظاهرات الترحيب بالمطربين والمطربات . وانا أقول . . ان

تزاحم البنات المراهقات حول مطرب انما هو تعبير صامت عن الأنوثة . ان الأنوثة تبدأ في اكتشاف نفسها من خلال احلام اليقظة . ممثل صامت قوي . ممثل مليء العضلات ممشوق الجسد . شاب حالم وآخر يتفجر بالطاقة . انها تترك كل شيء للحلم . ان هذا « البطل الوهمي » لا يمكن ان يقاومها في الخيال . وهكذا الأمر ايضاً بالنسبة للشاب . أذكر جيداً انني التقيت اثناء شبابي باحدى الممثلات الشهيرات ورقصت معي . وحاولت ان انطق كلمة واحدة فلم أستطع رغم انها كانت تحاول أن تساعدني على ان اتكلم لكني لم اجد كلمة واحدة اقولها . كنت مرتبكاً تماماً .

ويلجأ المراهق الى تفضيل اسلوب الرواية على اسلوب الواقع الى ان ينضج ويدخل في تجارب حقيقية .

تبقى نقطة أريد ان اقولها . . هي ان المراهق او المراهقة يقدسان الصداقة . . ان الصداقة تنمو من خلال الهواية في هذه الفترة من العمر . تجد الشاب يختار صديقات له يشاركنه القراءة أو الرياضة ويوجه النقد نفسه الى المدرسين وان مستقبل كل منهما محدد ومتشابه . . وتختار الفتاة ايضاً صديقات لها يشاركنها الهوايات والميول ذاتها . ويثير ذلك قلق الآباء ولكن لماذا لا نحاول ان نؤكد في نفوس الشباب والبنات المعاني الجميلة للصداقة .

يبقى اخيراً أن اقول ان المراهق عندما يوشك على تخطي سنيّ المراهقة يحاول ان يؤكد الاستقلال . إنه يريد ان ينعزل عن عالم الجيل القديم وان يؤكد قيم الجيل الجديد يغير من تسريحة الشعر ومن أزياء الملابس ويغرق في الهوايات ويمارس الطريق الى النضج .

المهم هو أن نفهم حقيقة اساسية .

يحتاج المراهق الى التوجيه والصداقة وان نرسم معه الحدود وان نحاول دائماً تشجيعه على النجاح والانطلاق .

إنني لا أخاف على المراهق او المراهقة من الاعجاب بمطرب او نجم . لكني

اخاف عليه تماماً من أن يهمل واجبه ونموه وان يتغاضى الآباء عنه ليتركوا له الحبل على الغارب تحت اسم الحرية او ان يتزمت معه الآباء فيقتلوا موهبته .

ان المراهق يختار المثل الأعلى في البداية من جنسه نفسه . ثم يتدرب على الحب ثم ينتقل الى التمرد على الكبار ثم يحاول ان يكتسب ثقة ابناء جيله . ثم يعرف ان الحياة هي تفوق في احد الميادين ثم ينتصر اخيراً على معاركه الوهمية ليكون انساناً واقعياً يملك الخيال ويملك الواقع معاً . .

لذلك اقول دائماً للآباء لا داعي للارتباك او الخوف او اليأس ولكن المطلوب هو الكثير من الفهم ، والكثير من الصبر لنقتل اليأس ، ونستقبل بالثقة مستقبل الأبناء .

أسباب جنوح المراهق
ومعالجة الجنوح

تنبع أسباب الجنوح دائماً من الاضطرابات النفسية او العائلية او الاجتماعية وعلاج الجنوح ممكن وبسيط لكنه يستمر منذ الميلاد وحتى النضج !!

يمكن ان نعتبر هذا العصر بمثابة عصر الخوف على الأبناء المراهقين . فالصحف تطل علينا كل يوم باخبار الجرائم القاسية التي ارتكبها الشباب . ويقرأ الآباء هذه القصص ويفاجئون أنفسهم بالسؤال التالي : « من أي بيئة ينحدر هؤلاء الشباب » ونجد أن الآباء من مختلف الأوساط ، بل ان بعض هؤلاء الشباب المتورطة في جريمة ، من له والد يشغل وظيفة محترمة وأن امه سيدة طيبة . ونجد الآباء والأمهات يقعون في الخوف . . إنهم يخافون ان يصبح الابن مثل هؤلاء الشباب الجانحين .

ونقرأ في الصحف المقالات التي تتهم الجيل الجديد بالفساد والانحراف . . ونحب ان نقول للآباء بعضاً من الحقائق عن معنى انحراف المراهق . . ان « الانحراف » (الجنوح) كلمة قانونيه واسعة تضم كل انواع التصرفات التي يمكن ان تقود الشاب الذي لم يبلغ الثامنة عشرة الى مركز الشرطة . بداية من التسكع الى القتل . وأنا ومعظم العلماء لا نوافق على تلك الكلمة « انحراف » لأنها توحي بكون مئات الآلاف من الشباب يمتلئون بالشر والفساد ، واننا لن نجد له علاجاً . ثم ان الآباء والأمهات ينسون دائماً أن هناك اسباباً واضحة للانحراف ، هي الاضطرابات النفسية او المشاكل العائلية او مشاكل البيئة الاجتماعية . ثم مشاكل الزمان الذي نحياه عموماً . لذلك لا يجب ان نقول ان الجيل الجديد كله متهم وليس له علاج . . بل يجب ان نفهم معاً الظروف التي تصنع الانحراف والجنوح .

الظروف الاجتماعية :

لا أنسى اني كنت عضواً في أكثر من لجنة لمناقشة انحراف الشباب ولا انسى ان كبار العلماء الذين كانوا يستمعون الى التقارير عن جرائم الشباب وانواعها يعقدون الجلسات في جو جدّيّ للغاية. ثم يستمر الاجتماع ساعة او ساعتين . وتبدأ في الوقت نفسه عملية سرد التفاصيل الصغيرة وأنواع الجرائم المختلفة ويتذكر كل منا انه كان يرتكب مثل هذه الجرائم . وعندما نسأل معظم البشر عن فترة المراهقة نتبينَ. ان بين كل مائة شخص هناك تسعون منهم على الأقل يجيبون بقولهم : « كل منا ارتكب اثناء المراهقة بعض التصرفات الخارجة عن القانون » . وبطبيعة الحال لو ان الشرطي تدخل في كل جريمة من هذه الجرائم الصغيرة لوقفت الملايين أمام المحاكم . لكن الشرطي ليس الخالق الذي يحيط بكل شيء علماً . . الشرطة هم عدد محدود من الأفراد . ولهذا نجد ان انواع الجرائم البسيطة منتشرة بين الشباب في كل العصور . . .

بدءاً بالتحرش بالجيران ومشاكستهم والكتابة على الجدران ونقب عجلات السيارات وسرقة بعض الأشياء التافهة والهرب من المدرسة وعدم احترام قواعد المرور . هذه المشاكل الصغيرة تظهر عند الشباب لكن الذي نراه دائماً في قاعات المحاكم ان الأحداث الجانحين هم ابناء الفقراء ، لأن ابناء الأسر القادرة يجدون من يحبهم ، ومن يعتذر عنهم ومن يدفع التعويض المناسب . لذلك لا تتجه الأمور الى التعقيد الذي يقود الى الشرطة وحتى عندما يصل الأمر الى الشرطة او القضاء تتغلب «الرأفة» استجابة لوعود الأسرة بأنها ستربي الابن وتعاقبه او تعالجه نفسياً . لكن الأمر يختلف بالنسبة للفقراء . ورغم ان البعض يقول بوجود علاقة بين « الفقر » وضعف القدرة على الضبط الاخلاقي ، لكن هذا ليس صحيحاً . فالصحيح هو ان الفقراء لا يقدرون على الدفاع عن أنفسهم وليس عندهم من يدفع عنهم التعويض ويسكنون في احياء مزدحمة وعادة ليس لهؤلاء مستقبل واضح . لهذا فهناك احساس بوجود حاجز بين الفقراء والأغنياء .

وعادة ماتنشر بين الشباب فكرة تكوين « جماعة » تتولى ارتكاب اعمال ضد القانون او لا يسمح بها القانون . هذه الجماعة قد تدخل في خلاف مع جماعة اخرى . ونحن نجد ان هؤلاء الفقراء يشعرون في بعض الأحيان انهم أقل شأناً من الآخرين وان هناك من يحتقرهم ، لذلك يكونون هذه الجماعات كنوع من الحماية .

لكن هل كل مسببات الانحراف اجتماعية . . ام ان هناك مسببات أخرى نفسية ؟

المسببات النفسية للانحراف :

هناك فروق بين كل حالة وأخرى من حالات الانحراف التي تكون المسببات فيها نفسية . وبعد وقوع أي جريمة خطيرة فإن القاضي في أغلب الأحيان يستشير الطبيب النفسي ليتعرف على أعماق الشاب . . هل نضجت عنده قوة الضبط الاجتماعي أم لا . . هل اكتمل ضميره أم لا .

وعلى أية حال هناك ثلاثة انواع من الشباب يقعون في الانحراف لأسباب قاهرة . . مثل الذين يعانون من جنون السرقة دون ان يسرقوا ما يفيدهم ، وفي معظم الأحيان تكون هذه المسألة منتشرة بين البنات . وفي أغلب الأحيان يوجد اختلاف بين هؤلاء الذين يعانون من جنون السرقة وبين اللصوص المحترفين . فالنوع الثاني هم الذين يهوون التلصص على المسائل الجنسية وهم عادة يعانون من كبت شديد لتوترات جنسية . وهؤلاء أيضاً يعاملهم الآخرون بنوع من القسوة رغم ان هذه المسألة منتشرة بين الشباب .

والنوع الثالث هو الذي يرتكب جريمة صغيرة محاولاً ان يترك لها اثراً دون أن يشعر لينبه الكبار الى انه في حاجة الى العقاب . . والسبب بسيط جداً نكتشفه نحن الأطباء عند هذا النوع . وهو ان هناك خلافات حادة بين هذا الشاب وبين والديه وكلما استسلم والداه له كلما تمادى هو في الاساءة لهما بطريقة تفضحهما في المجتمع وينال بها هو العقاب .

أما النوع الذي اتحدث عنه الآن فهو الخلل في تكوين الضمير . . ان بعض

الآباء يشجعون الأبناء دون ان يدروا على الانحراف والجنوح . مثل الأم التي تضبط في حاجات ابنها سكيناً مسروقة فتحقق معه وتحصل منه على الاعتراف بالسرقة ثم تسأله بسرعة : هل رآه احد وهو يسرقها ، ومن المؤكد ان الابن سيقول : لا . . لكن سؤال الأم ينبه الابن الى انه يمكن ان يسرق دون أن يراه احد . . مثال آخر . . عن الأب الذي يشكو مز الابن الذي يهرب من المنزل لكنه يحكي هذه المسألة بنوع من الفخر عن جرأة الابن في ان يهرب طوال هذه المدة . . هذه الحكاية امام الابن يمكن ان تنمّي في الابن نزعة الاعجاب بما يفعل .

مثال ثالث : عن الأم التي تثور على ابنتها لأنها تخرج مع شاب معين وتعاير ابنتها متّهمة اياها بقسوة بأنها قد فرطت في شرفها مع هذا الشاب . . ولأن الفتاة تفعل دائماً ما يمكن ان تتوقعه الأم فإنها تعمد في اللقاء القادم مع صديقها الى تنفيذ ما ألمحت إليه أمها .

ان الأب والأم عندما يخلقان عند الابن او البنت درجة من الشك في النفس يسمحان للابن بأن يفعل ما يشكان فيه . وعندما يؤكدان للابن انه ينحرف ، فإنه سينحرف .

هناك نوع آخر : وهو ما يعرفه العلماء باسم « الشخصية السيكوباثية » أي التي لا ضمير لها . كأن يقتل شاب انساناً آخر دون سبب ويقول كنت ابحث عن شيء مثير أفعله . . وعندما نتعمق في حياة مثل هذا الانسان الذي لا ضمير له سنكتشف انه يخفي احساس التبلد والرغبة في ايذاء الآخرين وان والديه كانا يعاملانه في الطفولة بالأسلوب القاسي نفسه ، وأنه يرتكب جريمته بنوع من التبلد التام . وهذا النوع ينقاد دائماً الى فقدان العقل والجنون . وان حياته غالباً تمتلىء بعدم تقدير المسؤولية والاندفاع الأهوج وعدم القدرة على الاستفادة من تجاربه . ويطالب الآخرين بالتزام احترامه دون ان يلتزم هو باحترامهم .

وعندما نقوم بتحليل العلاقة بين هذا النوع وبين والديه نجد ان الأب انسان تخلى عن الابن او الأم تخلت عنه . . ويعاني في طفولته من احساس بالاهمال التام . . وليس معنى ذلك ان كل من مات ابوه او فقد امه ينحرف لكن

معناه ان كل ابن تهمله اسرته يمكن ان يصل الى الانحراف حتى لو لم يتم طلاق بين الأب والأم . . ان الطفل يفتقد بذلك صورة المثل الذي يتبعه . ويفتقد ايضاً الاحساس بأنه انسان يمكن ان يعيش في اسرة تحيطه بالحب والحنان . انه يفتقد طعم الاحساس بالأمن ولا يجعله العقاب يشعر بالخطأ . ولا يعمل من اجل ان يحبه احد ويحترف الخداع الدائم . . ويهرب من المستقبل . . ولا يستطيع ان يعتمد عليه احد . . ولا تنتشر صورة السيكوباتي في البيوت المفككة فقط ، ولكنها تنتشر ايضاً في البيوت التي تلبي كل طلبات الابن ولا تعلمه فن الاعتماد على النفس .

في النهاية . .

الانحراف لا يأتي دون سبب . ولكن علاج من ينحرف دائماً في الوقت المناسب .

هناك فارق بين انحراف الابناء وجنوح البنات . والأولاد يرتكبون الانحرافات الخشنة التي فيها قدر من القسوة . اما انحراف البنات فهو غالباً ما يكون جنسياً .

تنحرف الفتاة احياناً بسبب عدم احساسها بالحب لذلك تنتقم من الأب او الأم بالانغماس في الانحراف . لأن فترة المراهقة تجعل الفتاة حساسة جداً . انها تملك الاحساس بالمنافسة مع امها . . وفي الوقت نفسه ترغب في الحصول على منافس لابيها فإذا لم تكن من اسرة لها قواعد وتقاليد فإنها تخشى ان تطبق الاسلوب الطبيعي في التعامل مع الرجال . ان البنت التي ترتبط بأسرتها بالحب لا تفضل ان تهرب من المنزل في علاقة مع احد . .

هروب الشاب او الفتاة من المنزل تكمن وراءه رغبة في البحث عن إسرة أكثر حناناً .

ورغبة الابن في الاستقلال يجب ان نحترمها ويجب أيضاً ان نضع القواعد التي تطلب منه ان يحترمها .

والشاب الذي يرتبط بالأسرة في علاقة صداقة يستطيع ان يتكيف اجتماعياً

مع الفتيات وتكون نزعة الانحراف عنده اقل خطورة .

اما الفتاة التي ترتبط بالأسرة في علاقة صداقة فإنها تستطيع ان تستمع لنصائح الأم والأب وان تنفذها حتى وان كانت تعارضها ظاهرياً .

الآباء والأمهات لا بد وان يتفانوا في حب الأبناء دون ان يكونوا لهم عبيداً .

والمراهقة هي فترة استكشاف من الشاب لمستقبله واستكشاف من الفتاة لمستقبلها ، انها رحلة تحرر في الأسرة وارتباط بها في الوقت نفسه . ان الشاب يجرب اكثر من هدف واكثر من فكرة وكذلك الفتاة . . الى ان يستقر كل منهما على هدف يتيح له تكوين شخصيته المتميزة . انه يستمد الاصرار والطاقة من والديه حتى ولو اختار مستقبلاً مناقضاً لمهنة الأب او الأم .

ولا يجب ان يتردد الآباء والأمهات في وضع مقاييس واضحة للسلوك امام الأبناء ، لأن الأبناء يسيرون في النهاية على الطريق الذي يرسمه الوالدان .

يبدأ منع الانحراف من الطفولة . فالأم تدرب الابن على النظام واحترام الآخرين وعدم الاعتداء على الوالدين ومعاملة كل من حوله بأدب .

يجب ألا نسمح للابن في سن الثالثة الى الخامسة باساءة استخدام ممتلكاته ، وان يقدم الاحترام لكل من يقابله .

من الخامسة الى السادسة : لا بد وان يشترك في اعمال المنزل ويساعد الأسرة .

يميل الأطفال بطبيعتهم اثناء الدراسة الابتدائية الى احترام القواعد والأصول ويناقشون الآباء فيما هو مفروض ومباح .

يجب ألا نعامل الأبناء في اثناء سن المراهقة بنوع من التعالي او التقاعس . . ولكن يجب ان نقول لهم ما نؤمن به وأن نشرح لهم أوجه القوة وأوجه الضعف فينا . ان المراهق يحتاج دوماً الى التوجيه الواضح من الأب .

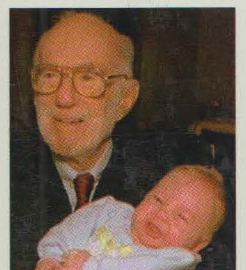
ولا بد لنا من الاعتراف بأن نسبة الانحراف ليست مزعجة الى الحد الذي نتصوره ولنسأل انفسنا دائماً :

لماذا يتقدم العالم في كل مجالات الحياة . . انه يتقدم بالعلماء الجدد والمفكرين الجدد . . اي بالأجيال الجديدة دائماً .

محتويات الكتاب

ON FAMILY MATTERS TWO BOOKS

سبوك
SPOCK



دكتور سبوك

حديث إلى الأمّهات
مشاكل الآباء
في تربية الأبناء

• مولّف هذا الكتاب، ***الدكتور بنجامين سبوك***، هو أشهر أطبّاء العالم في مجالي تربية الأطفال ومداواتهم. ويكفيه شهرةً كتابه «***موسوعة العناية بالطفل***»، الّذي نشرناه وأعدنا طباعته مرّاتٍ ومرّات.

وهذا الكتاب يدلّ موضوعه على مضمونه، فهو «***حديث إلى الأمّهات***» يقدّم فيه الدكتور سبوك للمرأة - خصوصًا من هي في سنّ الشباب - كلّ ما تريد معرفته عن تربية طفلها وتنشئته النشأة الصحيحة والخلقيّة المثلى.

ثمّ يلتفت إلى «***الآباء في تربية الأبناء***»، فيحدّثهم حديث العارف عن أفضل السبل في تربية أولادهم، شارحًا لهم ما قد يعترضهم من مشاكل، مقدّمًا لهم آخر الحلول العلميّة في هذا المجال.

ونحن، إذ نقدّم للقارئ العربيّ هذا الكتاب في حلّته الجديدة هذه، فإنّما نقدّم له هديّة ثمينة نعتزّ بها ونفخر.



ISBN 978-9953-36-651-9

